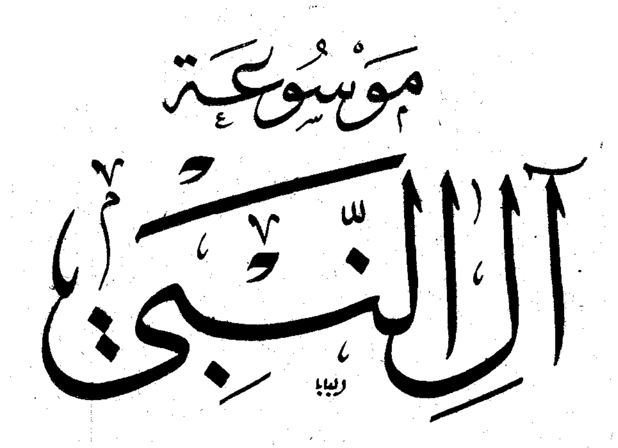


موسوعة آل النبي

عليه الصلاة والسلام

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

استاذة اللغة العربية وآدابها

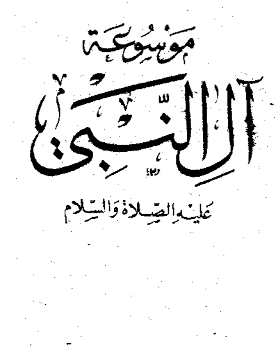
بجامعة عين شمس

الناشر

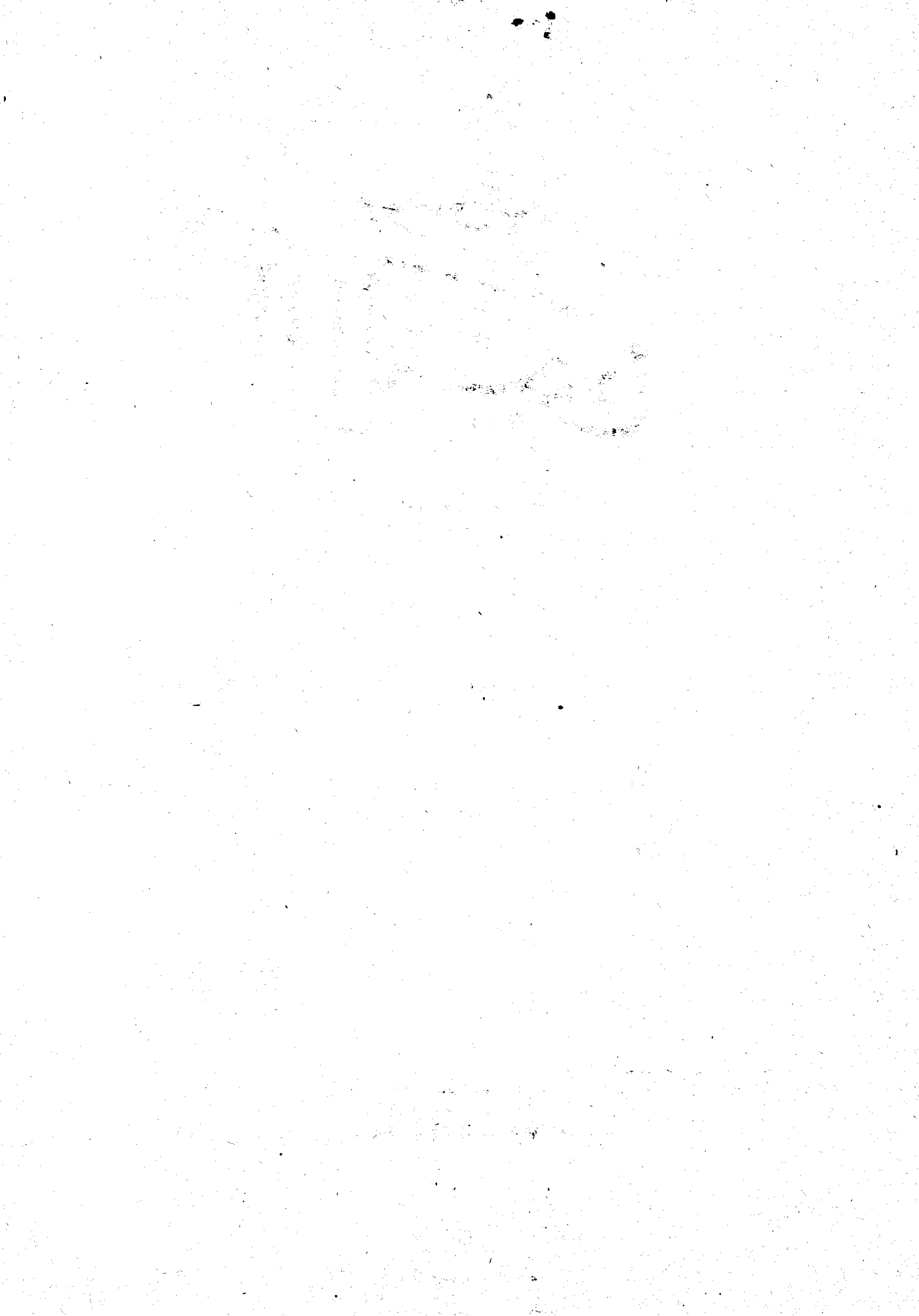
دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م



الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)



مقدّمة الناشر

للمساهمة في حركة التطوير الثقافي ، أو حركة التثقيف العامة للأجيال الناشئة في الوطن العربي والاسلامي ، كان لا بدّ لدار الكتاب العربي في بيروت من القيام بواجبها تجاه المواطن الواعي ، الذي بدأ في تحديد شخصيته العلمية والفكرية ، وأقبل على منابع الثقافة ومصادرها الأصيلة ، وعلى كل كتاب حضاري يفيده في تجديد بنائه العلمي ، وكيانه كأمة ذات حضارة وعلم .

وقد رفعت الدار شعارها «النشر رسالة» والتزمت به بحدود إمكانياتها ، ووفق منهج علمي صدر عنه :

تفسير الكشاف للزمخشري ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ونفح الطيب للتلمساني ، وتفسير النسفي للنسفي ، وعوارف المعارف للسهروردي ، وفصوص الحكم لابن عربي ، وشرح الأشموني ، وأمالي المرتضى للشريف المرتضى ، ومغني اللبيب لابن هشام ، ومختار الصحاح للرازي ، ورياض الصالحين للنووي ، وديوان المتنبي لأبي الطيب ، وأحكام القرآن للجصاص ، وحلية الأولياء لابن نعيم ، والكامل لابن الأثير ، وأوضح المسالك لابن هشام ، ووحي القلم للرافعي ، والغدير للأميني النجفي ، وديوان الخليل لمطران ، ومجموعة مؤلفات الأستاذ أحمد أمين ، ومجموعة مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، إلى غيرها من الكتب العلمية ، وكتب اللغة ، والتاريخ والتفسير ، والحديث ، والأدب والشعر .

ويسر دار الكتاب العربي في بيروت أن تقدم اليوم – في هذا الكتاب (موسوعة آل النبي) – أول مجموعة عن المرأة في المجتمع العربي والاسلامي ، وعن أثرها في

تكوين هذا المجتمع ، وعن مركزها فيه كمرأة اختلفت فيها واليها نظرة الرجل على مر السنين ، تبعاً لأوضاع الرجل في مجتمعاته وبيئاته ، وظروف حياته ، ولكن هذا الاختلاف في نظرة الرجل إلى المرأة لم يؤثر على مكانتها في المجتمع الانساني ، وعلى دورها الطبيعي الذي هيأت له ، وممارسته كمخلوق حي يعيش بين أحياء على مدى العصور .

والمجموعة ليست بحثاً عن المرأة على أساس البحث الموضوعي ، لطبيعتها وخصائصها ، لحقوقها وواجباتها ، لعواطفها ومشاعرها ، وإن كانت تعرض اليها بشيء من الايجاز ، وبما يقتضيه التمهيد والاطار والصورة ، وإنما هي مجموعة تراجم قيمة لنساء شهيرات تمثلت فيهن إنسانية المرأة بأجلى صورها ، وشملت شخصيتهن الدور التاريخي الذي يفرض على المرأة المثال ، أن تكون في الطليعة لبناء أمة ، وتثبيت رسالة ، وانبثاق مجتمع الحق والعدالة ، كما شملت هذه المجموعة المرأة الأم ، والمرأة الزوجة ، والمرأة البنت ، والمرأة المجاهدة ، والمرأة الأدب والثقافة والعلم .

وهؤلاء النسوة هن : أم النبي ، ونساء النبي ، وبنات النبي ، وأحفاد النبي ، وتكفي النسبة للنبي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم — وهو العربي والقرشي والهاشمي — لتحديد نوعية النساء التي تناولتهن مجموعة التراجم ، ولمعرفة الآفاق التاريخية التي تحتاجها الترجمة الذاتية لهن ، إلى جانب الحرج الذي تفرضه صلتهن بنبي الاسلام ، وما تضفيه هذه الصلة من القدسية على حياتهن الخاصة ، ومواقفهن العامة .

غير أن الذي تيسر لهذه المجموعة لم يتيسر لأمثالها ، فقد قدر لها أن تكون على يد امرأة من جنسهن ، هي الدكتورة بنت الشاطىء ، الكاتبة الشهيرة في مصر والعالم ، التي جمعت بين التعليم الحديث في مستوياته الجامعية ، والعلم الذي درجت عليه في بيت نشأتها على يد والدها وحلقاته العلمية على النسق الفكري الحر ، وفي رحاب الحياة الدراسية والزوجية على يد أستاذها العالم والأديب والكاتب الأستاذ أمين الخولي ، الذي عايشها كأستاذ ، وسكن اليها زوجة أمينة لرجل أمين ، وأشرف على تنمية مواهبها الأدبية والعلمية بصدق وتطلع لأن تكون آية لأدبه وعلمه وفكره ، وهي إلى جانبه تستضيء وتستلهم روحه وأصالته ومنهجه .

وبذلك تميزت شخصيتها بثقافة واسعة ، وأصالة فكرية ناقدة ، هيأتها لتناول

أمثال هذه الأبحاث التاريخية الشاقة ، وللدخول إلى بيوت قريش في الجاهلية والاسلام ، وإلى بيوت النبي (ص) لاستجلاء حياة الرسول كبشر وكنبي ، وحياة نسائه وبناته وأحفاده ، من خلال تاريخ بعيد ، طغت عليه الأحداث المصيرية ، وتوزعته الأهواء منازع شتى .

وقد أدركت المؤلفة الدكتورة بنت الشاطىء صعوبة هذه المحاولة من الجانب التاريخي ، وفي كتابها الأول (أُم النبي) بدأت هذه المحاولة في درس سيرة السيدة آمنة وهي واعية أتم الوعي نقص المصادر والأخبار التي تحدث عن تلك الأم ، فتعمد إلى التماس شخصيتها في شخصية ابنها الرسول الأعظم ، إلى جانب ما وعى التاريخ من أخبار آباء (آمنة بنت وهب) وأجدادها نساءً ورجالاً ، وما حفظ لنا طابع البيئة التي نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، على أساس أن آمنة — وكل امرأة — لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، تدرجت في عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتها العوامل التي تركت طابعها الخاص في كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان .

وتمضي الدكتورة بنت الشاطىء في بسط منهجها الذي يقوم على التفهم النفسي للأحداث ، ويستند على دراسة البيئة والبيت ، والأصول الاجتماعية البعيدة ، والملامح العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، ويستفيد من صورة أحداث التاريخ في نفوس الذين عاشوا في بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوا لها .

وقبل أن تبدأ بدراسة حياة أم النبي عرضت إلى مكانة الأم في الجزيرة العربية ، وإلى نبذة عن حياة أمهات الأنبياء : أم اسماعيل ، وأم موسى ، وأم المسيح ، في التوراة والانجيل والقرآن . وإلى أثر الأم في حياة الأنبياء وتكوينهم الشخصي والمعنوي .

وفي كتابها الثاني (نساء النبي) تهيبت الدخول في حياة السيدات التي أظلهن بيت الرسول (ص) «لأن هؤلاء السيدات اللواتي عشن في بيت النبي ينزعن جميعاً إلى حواء ، وقد جئن إلى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة ، واتصلت الأرض بالسماء ، وتزوجن من بشر يتلقى الوحي من أعلى ، ويبلغ رسالة الإله ، فأنّى لقلم أن يصور حياة كهذه ، تموج فيها أهواء البشرية في فيض من النور الأسنى ، وتتجاذب فيها الأنوثة — التي نعرف

رقتها وضعفها ورهافة وجدانها ــ تيارات بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها إلى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى إلى السماوات العلا ، وتتعادل في هذا بشرية سماوية ، وسماوية إنسانية » .

ولكنها تعود فتدخل حياة تلك البيوت الكريمة ، لا لتترجم لنسائها على النحو التقليدي المألوف في تراجم الأشخاص ، وإنما عناها تمثل حياة كل منهن في بيت الرسول ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصويراً يجلوها زوجة وأنثى » وهي في معرض الحديث عن نساء النبي تحدث عن شخصية محمد الزوج ، أو الرجل الانسان الذي أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعتهن دنياه الخاصة ، وهن : خديجة بنت خويلد ، وسودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وزينب بنت خزيمة ، وأم سلمة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حيّ ، وأم حبيبة ، ومارية القبطية ، وميمونة بنت الحارث .

وعلى نفس المنهج الذي رسمته في كتابها الأول (أم النبي) سارت في كتابها الثاني نساء النبي ، بالإضافة إلى أبحاث حول تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر ، ورسالة من السماء ، إلى عرض موجز لمواقف إسلامية فرضها إطار الصورة وترابط الحلقات التاريخية ، إلى جانب التركيز على شخصية الرسول من خلال حياته الزوجية كبشر سوي «لم تجردها النبوة من العواطف والمشاعر والرغبات ، ولم تنكر على نسائه نوازع الفطرة وأهواء الجنس ، وميراث حواء» .

وفي كتابها الثالث (بنات النبي) تحاول أن تستجلي ملامح شخصية الأب الرسول ،وأن تعرض صورة أمينة لعاطفة الأبوة ، ممثلة في شخص نبي إنسان ، وللأبوة في المجتمع العربي في الجاهلية ، وفي الرسالة المحمدية ، وقد أجادت في الحديث عن الأنثى في مجتمع ماقبل الاسلام، وكراهية الإناث التي استبدت بذلك المجتمع حتى أدت به إلى وأد الأنثى ، ثم في الحديث عن الاسلام الذي حرم الوأد فأنقذ الأنثى ، وأعاد لها مكانتها الطبيعية في الحياة.

وتترك الأبوة في محيطها الواسع ، لتعود إلى البيت الأول للرسول مع زوجته الأولى خديجة بنت خويلد ، وبناته الأربع : زينب الكبرى ، ورقية ذات الهجرتين ، وأم كلثوم ، وفاطمة الزهراء ، وإلى أوضاع الأبوة الحانية والبنات الشقيقات في ظل أب

ساهر مترقب ، وأم مدركة واعية ، لتصور حياتهن الرتيبة ، وعواطفهن الشخصية ، ومشاعرهن تجاه المحيط الجاهلي ، وتجاه الأب الأمين الذي كان لقومه حكماً فيما اشتجر بينهم من خلاف على وضع الحجر الأسود ، وتجاه الأب الرسول ، وقد آمن به نبياً وهادياً ومبشراً ونذيرا .

وفي مرحلة الترجمة الشخصية لحياتهن كل واحدة منهن على حدة ركزت المؤلفة على حياة ابنته الصغرى فاطمة الزهراء ، وهي ترى : ان الله قد آثرها بالحظ الأوفى من الألم العبقري ، فكتب لها أن تشهد الحرب المقدسة ، وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة ، وأن تقف مع أبيها في مهب الإعصار المارد الذي أثارته الوثنية العتيقة العاتية ، في وجه الدين الجديد ، ترد معه جاهلية قريش ، وكيد طغاتها ، وأذى سفهائها .

وقد أدركت المؤلفة بوعي وفطنة دور فاطمة الزهراء التاريخي الذي ارتبط بتاريخ الرسالة منذ نشأتها ، وبشخصية الرسول كأب ، وبشخصيته كنبي مرسل ، كما ارتبط بشخصية علي كابن عم رحم ، وبشخصيته كأخ لرسول الله ، وبشخصيته كزوج ، وبشخصيته كأب لذرية الرسول ، وبشخصيته كخليفة للمسلمين . لذلك جاء تصويرها لحياة فاطمة الزهراء حافلا بالأحداث الاسلامية ، والشخصيات الفذّة التي أرست قواعد الدين ، وعملت على نشره بإيمان وعزم وثبات . وتطوي المؤلفة الصفحة الأولى من حياة فاطمة الزهراء ، ثم لا تلبث أن تعود بعد حين لتفتح صفحات من تاريخ حياتها بشخصية جديدة ، هي شخصية ابنتها زينب بطلة كربلاء .

وفي كتابها الرابع (السيدة زينب بطلة كربلاء) تؤكد أن هذا الكتاب ليس تاريخاً بحتاً ، وإن أخذ مادته كلها من مراجع تاريخية أصيلة ، وإنما هو صورة لأنثى قدِّر لها أن تعيش مأساة كربلاء ، ويقترن اسمها بها ، وبتاريخنا الاسلامي الذي صبغ الصبغة الدامية ، من ذلك الدم الطاهر المسفوح ، في تلك الواقعة المشؤومة .

وحتى تستكمل الصورة ظلالها ، وتأخذ مكانها في التاريخ تعرض المؤلفة إلى بيت النبوة ، وحياته الأولى ، والأحداث المتتالية بعده ، بأسلوب فني صور دقائق الأمور ، وربطها بعضها ببعض برباط الوحدة المصيرية لحياة زينب بنت علي ، وأخت الحسن والحسين ، وبنت الزهراء ، وحفيدة الرسول . .

ثم تنتقل المؤلفة إلى حياة زينب الزوجة ، وبعدها إلى وسط المأساة في كربلاء ، حيث

كانت البطلة «إلى جانب المريض تمرضه ، والمحتضر تواسيه ، والشهيد تبكيه» تشد أزر أخيها الإمام الحسين ، وتدفع عن ذريته وأهل بيته ، وتستعد لمواجهة المأساة ، والأيام السود بعد المأساة ، وقد كانت تنتظرها المواقف البطلة في الكوفة ودمشق ، تفضح كيد الطغاة ، وتهز المسلمين ببلاغة وقوة حجّة ، وتعلن العزم على إحياء دين الله ، والعمل في سبيل إحقاق الحق ، الذي انحرفت به عصبة الباطل ، وشوهته بدع وأهواء .

وفي كتابها الخامس (سكينة بنت الحسين) تسير في نفس الطريق الذي سارته مع زينب بطلة كربلاء ، حيث صورت حياة سكينة في بيت النبوة ، وفي دوامة الأحداث ، ومن خلال مذبحة كربلاء ، بأسلوب أدبي متين ، يعرض للقضية التاريخية ضمن إطارها العلمي ويحاكمها بدقة وأناة ، وقد بذلت جهداً كبيراً ليستقيم لها هذا الأسلوب عندما دخلت بيوت الزوجية وحياة سكينة الخاصة ، بالنظر إلى اضطراب الرواية والرواة والحادثة ، في هذا الجانب من التاريخ الذي كتب في عهد تشعبت فيه الأضغان ، تطاولت الأيدي الحاقدة لتشويه سيرة الذرية الطاهرة ، كما تطاولت لوضع الأحاديث واختلاقها عن الرسول (ص) والصحابة ، فأفسدت جلال الحديث ، وصدق الرواية ، وبراءة التاريخ .

وتصل الدكتورة بنت الشاطىء في دراستها لحياة سكينة إلى آفاق أدبية واسعة في ذلك العصر ، وهي تحاول من خلالها تحديد شخصية سكينة الأدبية والنقدية والاجتماعية ، فترى أن سكينة استطاعت أن تنفرد بمكانة في المجتمع الأموي لم ترق اليها سيدة سواها ، لما اجتمع لها من عزة النسب ، وعزة الكرم ، إلى ظرف السجايا ، وذكاء الأنوثة ، ولطف الحديث ، إلى جانب ما عرف لها من ذوق فني أصيل ، وفقه لأسرار البيان ، وبديهة حاضرة ، واعتداد بالذات .

ثم أضيف إلى ذلك كله ، هذا المزاج النادر من التحرر والإباء ، من التسامح والتصون ، من الانطلاق والترفع ، فأتيح لها أن تظهر في المجتمع ملء البهاء والظرف ، ملء الجلال والوقار ، وتهيأ لها أن تختار أسلوبها في الحياة متحررة من النفاق الاجتماعي دون أن ينال ذلك من مهابتها أو يلقي ظلا من التهاون فيما يجب لمثلها من تصوُّن وعزة .

وتختم الدكتورة دراستها عن سكينة بقولها : وهكذا تمثلها الأخبار ، وقد عقدت لها إمامة النقد في عصرها ، واشتدت في رقابتها الأدبية على الشعراء ، فمضت تكشف

في صراحة قاسية عن مواضع المؤاخذة ، وتهدي إلى أسرار التعبير ، وتوجه إلى ضرورة التزام مقومات الشعر في رأيها ، من عمق المعاناة ، وعاطفية التناول ، وصدق الوجدان ، والسمو بالشعر إلى أفقه الجمالي .

موسوعة آل النبي .. هي مجموعة الكتب الخمسة التي مرَّ ذكرها للدكتورة بنت الشاطىء ، ظهرت على فترات، ولكل منها عنوان مستقل ، وتناولها القارىء موزعة رغم الوحدة التي تربط بينها ، والأصل الذي تنتسب اليه ، مما فوت عليه تسلسل الأحداث والصورة والتاريخ .

وقد رأت دار الكتاب العربي في بيروت توحيد هذه الكتب في كتاب واحد ، واختارت له (موسوعة آل النبي) عنواناً جديداً ، يجمع بين شخصياته الفذَّة التي شرفت بالانتساب إلى نبي الإسلام .

وتجد الدار في هذا التوحيد خدمة جليلة للثقافة التاريخية والأدبية والفكرية ، ولأبناء الجيل في المعاهد والجامعات ، وللقارىء في العالمين العربي والاسلامي ، وهي تقدم لهم جميعاً أول مجموعة عن المرأة ، تناولت حياة نخبة نادرة من النساء ، شاركت في صنع التاريخ وأحداثه ، وأثرت في حياة الأنبياء ، و حياة الانسانية عامة .

وتقدر الدار الجهد الذي بذلته الدكتورة بنت الشاطىء في تأليفها هذه الموسوعة التاريخية القيمة ، والنهج العلمي الذي التزمت به في جميع مراحل البحث والدراسة .

وختاماً نضرع إلى الله العلي القدير ، أن يتقبل منا عملنا ، ويبارك لنا فيه ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق والسداد ، ويمدنا بعزم وقوة لمواصلة السير في هذا السبيل ، ولتحقيق المنهج الذي رسمناه لدارنا في نشر الأصول العربية والاسلامية ، والمساهمة في إحياء تراث الاسلام العلمي والثقافي والحضاري ، إنه خير مسؤول وأكرم مجيب.

الناشر

محتويات الموسوعة

الكتاب الأول ـ أم النبي (عليه الصلاة والسلام)

الكتاب الثاني ـ نساء النبي (عليه الصلاة والسلام)

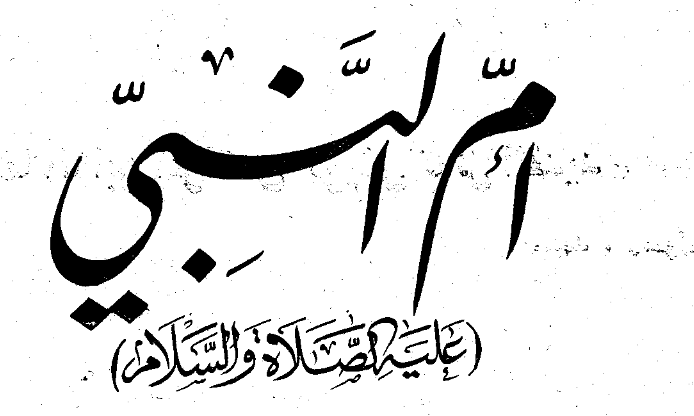
الكتاب الثالث ـ بنات النبي (عليه الصلاة والسلام)

الكتاب الرابع ـ السيدة زينب ـ بطلة كربلاء

الكتاب الخامس ـ سكينة بنت الحسين

الكِتابُ الأوّل




أم النبي
(عليه الصلاة والسلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد »

محمد ، رسول الله

مُنَاجَاة

أماه « آمنة » ..

ما تلوتُ من وحي السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن بشريته : « انما أنا بشرٌ مثلكم .. » .

« سبحان ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ » .

الا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذي حملته جنينا في أحشائك ، ووضعته كما تضع كل أنثى من البشر ..

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا » .

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التي أنجبت البطل في كل صورة ، وفي كل حين ، هي التي قامت عن « عيسى بن مريم » الذي قالوا انه اله ، وهي التي جاءت « بمحمد ابن آمنة » رسول الله وخاتم النبيين .

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر كبرياء الاباطرة والملوك ، ويسمو بأمومتك الى أفق لا يتطاول اليه ترف الغني ولا جاه المادة، اذ يجعل منك أيتها الانثى الوديعة المتواضعة، والام الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآيــة محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه .

* * *

أماه « آمنة » ..

هو أبدا مجد الامومة الذي خلد واهبات الحياة على الدهر ، وصانعات التاريخ منذ الازل والى الابد ، وقد توَّجك وحيدك

العزيز بتاج سماوي من هذا المجد الأزلي الأبدي، حين هتف قائلا:
« الجنة تحت أقدام الامهات » .

وهو أبدا فخر الانوثة التي حمت سر الوجود في هذا الكون ، وحفظت حياة الانسانية في هذه الدنيا ، اذ حملت أجنة البشرية وهنا على وهن ، فأي شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين قال لمن سأله عن أحق الناس باكرامه : أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم .. أباك ؟ ! وحين جاءه أحد أصحابه يبتغي أن يخرج مجاهدا معه ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلمـــا عرف الرسول أن أمه حية ، قال له : ويحك ! الزم رجلها فثمَّ الجنة ؟!

* * *

أماه « آمنة » ..

عن مجد الامومة فيك ، وبطولة الانوثة منك ، جئت أتحدث اليوم عن سيدة الامهات التي جادت على الانسانية بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته في أرجاء الارض على مر الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والاصول والامجاد ..

فقير ، حييت باسمه الدُّنى وفاضت الخيرات .

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنك كنت ملكة متوجة، أو فارسة مغوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة قائدة ، ثم لم تلدي « محمدا : رسول الله » ؟ ..

وأي عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من انك كنت المنجبة لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟ ..

* * *

وهأنذي أقف خاشعة أمام سيرتك ، وقد حفت بها من أمومتك أضواء باهرة السنا ، فيكاد جلالك يثنيني عن اطالة النظر اليك ، والحديث عنك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم «محمد» الذي أصرَّ على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتراف منه ، آية عظمتك وسر خلودك !

الفصل الاول

سَيِّدَةُ الأُمَّهَات

١ ـ هذه السيرة ومصادرها

٢ ـ أنوثة وأمومة

٣ ـ أمهات الانبياء



هذه السيرة ومصادرها

بدأتُ هذه المحاولة في درس سيرة السيدة « آمنة » وأنا أعي أتم الوعي ، نقص المصادر والاخبار التي تحـدث عن تلك الام المنجبة ، لكني لم أجزع لذاك ، اذ قـدرت أني انما أحدث عن والدة الرسول العظيم، وأم البطل الذي هو في حساب الحياةصفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها، في صورة ابنها العظيم الذي أوته أحشاؤها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الاثر الجليل الذي خلفته«آمنة»، فليس بعجيب أن أراها في ضوء هذا الاثر ، وأن يكون فهمي لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثلا في ولدها العظيم .

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل في أصلابهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الارومات الاولى التي اعتز بالانتساب اليها في مثـل قوله عليه الصلاة والسلام ، ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار.
أو قوله : « أنا ابن العواتك من سُلَيْم » .

* * *

ثم كان لي الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبـار آباء « آمنة » وأجدادها نساء ورجالا ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التي نشأت فيها ، وما عرفت الحيـاة من صورة الانوثة والامومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الاسباب

وتناسق الاصول ومجرى الوراثة ، وفي هذا كله ما يجلو شخصية «آمنة» كما عرفتها دنياها، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت في عروقها دماء الاصول الاولي ، ونمتها العوامل التي تركت طابعها الخاص في كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان .

أجل هي ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الاصيلة الممتدة في أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها ومعارفها في الهواء الذي تنفسته والجو الذي عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبول لاكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذي أصر على الاعتراف ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التي فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق ، ولا أمدّه أصل ، ولا غذته وراثة ، ولا نهضت به بيئة ..

* * *

على أني حين مضيت في تتبع الاصول البعيدة لآمنة ، ولمح المشخصات الواضحة لدنياها ، ألفيت الى جانب ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الاول ولا هي من واديه .. آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا الى دلالتها الاجتماعية التي لا تكذب، والتي تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادي من عالم نفسي ، وتكمل ما تتركه الاخبار من ثغرات في فهم طبيعة المجتمع .

تلك الآثار ، هي ما خلفه لنا قوم رأوا في السيدة « آمنة »

صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحي من قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا في ذلك ولامانوا ، ولا خدعوا ولا خانوا ..

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجي ، وراء سور الوجدان ، وبعيدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل والعلم، أو يقال هناك بلسان العاطفةوالايمان..

وكذلك يلتقي العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا يجوران على صواب ولا يُتَّهَمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن «آمنة» ما قال ، مستنبئا الوراثة ، مستلهما البيئة ، متتبعا المؤثرات والآثار في الاصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال ، بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها في وزنه ، وجوهرها في قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لا يسيء الى الواقع الخارجي في شيء ، لانه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما عشق من بطولة ، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه في آفاقها أحد ، مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ..

* * *

وأحسبني بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايتي البالغة بكل ما قيل عن السيدة « آمنة » ، لم أقتصر في ذلك على الخبر التاريخي الثابت ، بل لم يكن اهتمامي به أكثر من اهتمامي بروايات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فَيجِم ، أو يسمعها المؤرخ بأذن التحقيق فيبرم ، وينسيه عالمه الواقِعي

ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقاتهم التعبيرية وتأملاتهم الروحية فقدموا لنا بذلك كله صورة « آمنة » في نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه .

وما أحسب المؤرخ الذي وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها اليها ، وكيف تمثلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها في الادهار وسارت على الاجيال .

فأنباء « آمنة » في زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها — تلك الانباء التي يحسبها بعض المحدثين من أساطير الاولين — تصور للمؤرخ حياة هذه الام في نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه ينتزع تحليلهم النفسي لشخصيتها .. وأنَّى لمؤرخ أن يستغني عن ذلك فيما يعاني من تاريخ محقق ؟

* * *

وأراني الآن قادرة على أن أبسط منهجي في فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارىء لفهم هذا المنهج : لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الاصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخي في حياة « آمنة بنت وهب » .

وثاني الامرين مما عمدت اليه في هذه السيرة ، هو ما يحلو لكثير من الدارسين — والمستشرقون منهم بخاصة — أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أني وجدت في تلك الاساطير ، صورة أحداث التاريخ في نفوس الذين عاشوا في بيئة أم الرسول ، أو

اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسي للاحداث ، معينا لي على تبين شخصية « آمنة » وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها .. كما كان الذي رووه من أحلام «آمنة» ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورا نفسية بشرية، تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وان بدت في صورة الخيال المجنح، والسرد القصصي الذي لا أراه يجور على الحقيقة بحال .

❁



أُنوثةٌ وأُمومةٌ

« أنا ابن العواتك من سليم »
(حديث شريف)

لا نرى أن نمضي في الحديث عن احدى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم في الجزيرة الى عهد « آمنة » .

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة في الجاهلية قد كانت ــ في خير حالاتها ــ متاعا للرجل ، وأنها عـــانت من صنوف الاستعبـاد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام . وعلى الرغم مما نقل الينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية في الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون ، الا ان تلك الاخبار لم تذع فينا كما ذاعت الاخبـــار الاخرى التي تتحدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء الى الابناء ، وما الى ذلك من مظاهر الضعة والهوان .

* * *

ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية في تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى لم يضنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الاخبار من مآثرها .. وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذي سجلوه ، بعض ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الانوثة والامومةفي الجزيرة قبل الاسلام، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التي صينت بالدماء ، وافتديت بالمهج والارواح ..

ويعنينا هنا بوجــه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منهـا بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من فضل في

انجاب خاتم الرسل والانبياء ، وما كان لهـا من أثر في تكوين ولدها الخالد الذي قال معتزا بأمهاته في الجاهلية :
« أنا ابن العواتك من سليم » .

* * *

يروع الذي يتصل عن قرب بما كتب الاقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب في جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الارحام ونقاء الاصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفي » :
« لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف » .
وقال شاعرهم (١) :
وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح
ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :
« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدي منها » . قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمها . فانها تجرّ بأحدهما » .
وقال قائلهم لبنيه (٢) :
« قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب : « اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها » .
ومثله ما أنشده « الرياشي » :
وأول احساني اليكم تخيّري لماجدة الاعراق باد عفافُها
ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا كراهتهم للسباء .
حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهي تردد المثل :

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ـ ٤/٢ ط دار الكتب .
(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٤/٣ .

« المنية ولا الدنية » .

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلهـا من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر . من ذلك ما رووه من أن رجلا من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرني أهلي ليذهب عني ذل السباء » .

ففعل .. فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفـــارية » زوج « عروة بن الورد العبسي » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن « المدينة » . وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما : « ألا ترى ولدك يُعيَّرون بأمهم ويسمون بني الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردني الى قومي حتى يكونوا هم الذين يسلمونني اليك ! » .

فاستجاب لها ، وهو لا يشك في أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة في العيش معه .

وخرج بها فحج ، ثم عرج على أهلها زائرا ، فتحـايلوا عليه بالخمر حتى رضي أن يخيروها بين الاقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت « سلمى » أهلها وهي تقول : .

يا عروة ، أما اني لاقول فيك ـ وان فارقتك ـ الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة . لكن ، ما مر عليَّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب اليَّ من الحياة بين قومك ، لاني لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمَة عروة

كذا وكذا . والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم » .

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التي مطلعها البيت المشهور :

سقوني الخمر ثم تكنفوني (١) عداة الله من كذب وزور

* * *

ولا أكاد أعرف ـ فيما قرأت ـ أمة قديمة بلغت كرامة الامومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى « المبرد » في « الكامل »(٢) أبياتا للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا، كرامة لأمه ـ وكانت جارية حبشية ـ فذلك قوله:

أشاب الرأسَ أني كل يوم أرى لي خالة بين الرحال

يشق عليَّ أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالي

* * *

ولأبناء العقائل الكريمات حديث ـ أشبه بالقصص ـ عن حرصهم على عزة الامومة وصيانتها بالمهج والارواح ، ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب (الاغاني) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟ » .

فقالوا : « نعم .. أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لان أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو ابن كلثوم ، وهو سيد قومه وليث كتيبتهم » .

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ،

---

(١) الاغاني ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب ، والقصة مبسوطة في « الروض الانف : ١٨٠/٢ » وفيها : كان يقال من قال حاتما اسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد .

(٢) بغية الامل ، ٢٥١/١ .

ويسأله أن تزور أمُّه أمَّه ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت « ليلى » في ظعن منهم .

وأمر «عمرو بن هند» برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأدخلت « ليلى » الى « هند » في قبة الى جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب .

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحي الخدم اذا دعا بالطُرَف ، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ـ ناوليني يا ليلى ذلك الطبق .

فقالت « ليلى » في نفور وأنفة :

ـ لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذ ذاك صاحت ليلى :

ـ وا ذلاه يا لتغلب !

فسمعها ابنها ، فثار الدم في وجهه، وانتفض انتفاضة المحموم، وقال :

ـ لا ذل لتغلب بعد اليوم !

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند » .

* * *

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجل علينا	وأنظرنا ، نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا	ونصدرهن حمرا قد روينا
ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة « عمرو بن هند »	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا ! متى كنا لأمك مقتوينـــا ؟
على آثـارنـا بيـض حسان نحـاذر أن تقسـَّم أو تهونـا
اذا لـم نحمهن فـلا بقينـا لشيء بعــدهن ولا حيينـا

ثم لم تكتف « تغلب » برأس المَلِك ثمنا لكرامة السيدة الأم ، بل قام «مرة بن كلثوم» ـ أخو عمرو ـ بعد ذلك وقتل ولد النعمان، وأخاه ، ليطفىء جذوة من الغضب هاجها تعمد المهانة لأمه .

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الاجيال ، كما ظل مقتل « عمرو بن هند » مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ..

قال الفرزدق :

* قومي هم قتلوا ابن هند عنوة *

وقال صريم التغلبي :

لعمرك مـا عمرو بن هـند وقـد دعا
لتخــدم « ليــلى » أمــَّه بموفــق
فقام « ابن كلثوم » الى السيف مصلتا
فأمسك مـن ندمـانه بـالمخنـق
وجللـه « عمرو » على الرأس ضربة
بذي شُطَب صافي الحـديدة رونق

وقال « الاخطل التغلبي » لجرير يفخر « بعمرو ومرة : ابني كلثوم » :

أبنـي كليب ان عـَمـّى اللذا قتلا الملوك وفككـا الاغـلالا

الى مثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الامومة ، وما نمنع أن تكون حادثة « ليلى أم عمرو » من أقاصيص السمار واضافـات الرواة ، لكنها لن تفقد ـ في أي وضـع رضيناه لهـا ـ دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الامومة في الجاهلية .

* * *

وقد شهد الرواة ــ الى جانب هذا ــ للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب في عظمة بنيها ، فهم يذكرون ــ فيما روى « القالي » (١) أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

ثكلت نفسي وثكلت بكري
ان لم يسُد فهرا وغير فهر
بالحسب العدّ وبذل الوفر
حتى يوارى في ضريح القبر

وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة بن سلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هشام
قوم وآباء له كرام
جحاجح ، خضارم ، عظام
من آل مخزوم ، هم الاعلام
الهامة العلياء والسنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائي » انما ورث الجود عن أمه ، ويروي (٢) صاحب الاغاني أنها كانت لا تبقي على شيء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنها مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة من ابلها ، فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذيها ، فوالله لقد عضني الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قدما عضني الجوع عضة
فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي : اليوم أعفني
وان أنت لم تفعل ، فعض الأصابعا

(١) الامالي ١١٨/٢ ط بولاق .
(٢) ٩٣/١٦ ــ وانظر كذلك عيون الاخبار لابن قتيبة : ٣٣٦/١ .

فمـاذا عساكم أن تقـولوا لأختكـم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟
ومـاذا ترون اليـوم الا طبيعـة
فكيف بتركي يا ابن أمِّ الطبائعا ! ؟

* * *

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فيالجزيرة، فشادوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :

ـ فاطمه بنت الخرشب : أنجبت لزياد العبسي ، أبناءه الذين اشتهروا بلقب « الكَمَلَة » وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس .

قيل انها سئلت يوما : « أي بنيك أفضل ؟ .. »

فبان عليها التردد ، وهي تقول في حيرة : الربيع ، لا .. بـل قيس .. ثم هتفت : « ثكلتهم ان كنت أدري أيهم أفضـل ! هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها » .

ـ وأم البنين ، بنت عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر ، أنجبت له : مُلاعب الأسنة ، وطفيل (١) الخيل، وربيع المقترين، ونزّال الضيف ، ومعوذ الحكماء !

ـ وخبيئة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ، وربيعة .

ـ وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصي : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب .

ـ وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، زوج العباس بن عبـد المطلب ، وفيها يقول الشاعر :

---

(١) هو القائل :
اذا نـزل السحـاب بـأرض قوم   رعينـاه وان كـانوا غضابـا
الروض الانف : ٢/١٧٥

ما ولـــدت نجيبـــة من فحـل
كسبعة من بطن أم الفضـــل (١)

ـ وريحانة بنت معديكرب الزبيدي،أخت عمرو بن معديكرب. كان « الصمة بن عبد الله الجشمي » سباها ثم تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله ، وعبد يغوث ، وقيسا ، وخالدا .

وإياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن «ريحانة» الداعي السميع   يؤرقنـي وأصحـابي هجوع
اذا لم تستطع شيئا فدعــه   وجاوزه الى مـــا تستطيـع

* * *

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الامومة، وما كان من اعزازهم لها، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها ، نزع الى أمه وآثر الانتساب اليها ، كبني « الخنــدف » ـ وهي ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس بن مضر ـ وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد .

وأم « الخندف » ، وهي « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التي ينسب اليها « حمى ضرية » .

ومن القبائل التي انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة « بنــت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان .

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبدية ، ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول .

والعبلات : رهط الثريا بنت عبد الله بن الحارث، صاحبة عمر بن أبي ربيعة ، نسبوا الى أمهم عبلة بنت عبيد بن جاذب (٢) .

ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ، والمناذرة بني « ماء السماء » وهي ماوية بنت عوف بن جشم .

---

(١) الروض الانف ٢/٧٩ .

(٢) انظر في هذا كله ، كتاب « جمهرة انساب العرب » لابن حزم .

وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم ، قال « حذيفة ابن غانم » أخو بني عدي بن كعب بن لؤي ، يبكي « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل قصيّ « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى ابن « لبنى » فانه
قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر

وأمّك سرّ من خزاعة جوهر
اذا حصّل الانساب يوما ذوو الخبر

الى سبأ الابطال تنمي وتنتمي
فأكرم بها منسوبة في ذرا الزّهر

وقال « بشر بن أبي خازم » يمدح «أوس بن حارثة بن لام » :

الى أوس بن حارثة بن لام
ليقضي حاجتي ، ولقد قضاها

فما وطىء الحصا مثل ابن « سعدى »
ولا لبس النعال ولا احتذاها

* * *

ولهذه الابيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر في صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبي خازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاه بالغا ما بلغ ثمنه ، فلما جيء به خيره بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت، أو قطع يديه ورجليه وتخلية سبيله .

ثم دخل « أوس » على أمه « سعدى » **فكرهت رأيه** ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه في ابن «سعدى» وأقسم لا يمدح أحدا غير «ابن سعدى» ماعاش(٢)

---

(١) السيرة ١/١٣٩ .

(٢) انظر القصة بالتفصيل في كتاب الكامل للمبرد (بغية الآمل : ٣/٥٤) ـ وتاريخ ابن الاثير : ١/٢٢٩ ـ وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠ .

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها في جليل الاحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام » في « السيرة » عن دور المرأة في حلف المطيّبين الذي كان بين بني عبد مناف ومن انضموا اليهم في خلافهم مع بني عبد الدار بعد وفاة « قصي بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم في المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التي أخرجت لهم الجفنة ، هي « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب » عمة رسول الله وتوأمة أبيه .

* * *

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدي وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبي بكر الصديق » الذي « كان أنسب العرب » .

نعرف هذا ، لكنا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا ــ غالبا ــ الى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابي العرب لم يغفلوا عن ذكرهن ، وتكفي المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكي ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الامهات .

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب ، والاعتزاز بالأصالة ، والمباهاة بالخئولة .

ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع «جرير ابن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلا :

فما الأم التي ولدت قريشا ... بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم ... وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام (١) : « يعني بالام ، برة بنت مر ، أخت تميم ابن مر ، أم النضر ـ والنضر هو قريش في قول ، ويقال بل فهر ابن مالك هو قريش » .

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكي) في السيرة ، الا عجب لعنايتهم البالغة بذكر الامهات مهما ترتفع الاصول وتبعد .

وانظر كتاب « نسب قريش للمصعب الزبيري» وكتاب«جمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسي » (٢) لترى الى أي حد عني النسابون بالامهات .

وما هكذا يكون الامر مع ناس أهدروا المرأة فيهم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهم على نطاق واسع، وأن يرث الابن الاكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شيء .

* * *

على انا لا نريد أن ننفي شيئا من هذا الذي قيل عما لحق بالمرأة العربية ـ في بعض الحالات ـ من ظلم أو استبداد ، لاننا ان فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة .

ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالموءودة اذا سئلت ، بأي ذنب قتلت (٣) . وهذه كتب التاريخ العربي حافلة بما كان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، الى ما روي عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن ، لرجحت الاولى رجحانا

---

(١) السيرة ٩٦/١ ط الحلبي .

(٢) نشرتهما دار المعارف في سلسلة ذخائر العرب .

(٣) عالجنا هذا الموضوع بمزيد بيان وتفصيل، في كتابنا «بنات النبي» فمن شاء فليرجع اليه.

ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية في تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون ودهور .

☆

أُمّهاتُ الأنبياء

بقي هناك أروع ما يقال عن الانوثة والامومة، في كتاب «آمنة» أم النبي العربي ..

بقي أن نرجع الى الاديان السماوية الكبرى لنرى الامهات في حيوات الانبياء الاربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام .

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم ــ عليهم السلام ــ قد عهد بهم في طفولتهم الى الامهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الام بدورها الطبيعي فقط، بل عوضت الى جانبه فقد الاب أو غيابه..

غير أنا نرى الامر طبيعيا، لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق.. اذ الامومة في عاطفتها الجياشة وايثارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية التي تقوم على الروحانية ..

وما كانت السماء لتجحد هذه الصلة ..

ولا كانت الاديان التي حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتي تؤخر مكان الام أو تضعها في غير موضعها العتيد :

« سنة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .



ام اسماعيل

« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فأجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » •

(قرآن كريم)

هذه (التوراة) تروي لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » في تفصيل مسهب ، وهذا (القرآن) يشير اليها في مواضع شتى على أسلوبه المختار في القصص . ويا لها من قصة الامومة في أروع مواقفها وأعنف مشاعرها .. لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من الهلاك ، فتركه لهاوحدها في واد قفر غير ذي ذرع ، كي تكون لهفتها على الصغير والالم الذي ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير في سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة ! ومَنْ « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة ابراهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة الى مصر في صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله .

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهي عاجزة عن أن تعطي زوجها ولدا ، ثم .. بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك في سيدتها أقسى ما في حواء من

غيرة ، وخيل اليها أن أمتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة ورثاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

ــ أنا دفعت اليك جاريتي ، فلما حملت ترفعت عليَّ ! (١) .

فرد عليها ملاطفا :

ــ هي جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين ! (٢) .

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الاخيرة في احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » مولودها ، نفد صبر السيدة وغُلب احتمالها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف .

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل » .

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهي اذ ذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرُحَّل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء او انتجاعا لمرعى .

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم هم بالرجوع من حيث جاء .. فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما في ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذي نبذه وأمه بالعراء .

وأعادت « هاجر » سؤالها : (٣)

ــ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا

---

(١) ، (٢) ، (٣) بنصه ، من التوراة .

شيء ؟ .. وهو منصرف عنها منطلق في سبيله لا يلوي على شيء ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منعرج الوادي ، سمع صوتها الضارع يسأل في لهفة :

ــ آللّه أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

ــ أجل .

فقالت « هاجر » في استسلام خاشع :

ــ اذن فاللّه لا يضيعنا .. (١) .

وأطرقت صامتة ،فلم تر « ابراهيم » وقدرفع وجهه الى السماء حين غيبته ثنية الوادي ، وابتهل الى الله في توسل :

« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ،فاجعل أفئدة منالناس تهوي اليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ــ ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الارضولا في السماء»(٢)

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة » .

وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء ، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة في البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها ذاك في الوادي الأجرد ، بين الصخور الكالحة . والجبال الغبراء ..

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ،

---

(١) الحوار بنصه من التوراة .

(٢) سورة ابراهيم ، آيتا ٣٧ ، ٣٨ .

فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر : هل ترى أحدا؟ وتسمعت هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى سعي المجهد ، وصعدت علَّها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » سبع مرات حتى نال منها التعب والاعياء ، فتهاوت على الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

لكنها لم تلبث في مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها الظاميء يمزق قلبها ويفري كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقي لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهي تقول :

ـ لا أنظر موت الولد ..

* * *

وأمسك الكون أنفاسه، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما في البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة، وسعار السباع الجائعة المحوّمة على المكان.. كأنها ترقب الخفقة الأخيرة في فريستها المنتظرة ..

ثم كانت النجاة ....

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهي تحس موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت في كيانها ، وأقبلت ترتوي، وتسقي ولدها ..

ودبت الحياة في الوادي الأجرد ..

قالوا : « ومرت رفقة من « جرهم » مقبلة من طريق « كداء » تريد الشام ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم" على ماء ! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها : ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك ..

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة » .

وخلدت « هاجر : الأمة المنبوذة » صورة مؤثرة مثيرة للامومة في حنوها وآلامها وهمومها ..

وعاش ولدها اسماعيل ـ ذاك الذي رعته وحدها حين تركه أبوه في البلقع القفر ـ ليتلقى مع أبيه رسالة السماء :

« .. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ واذ قال ابراهيم: رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير ـ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ـ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم » (١) .

★

(١) سورة البقرة آيات ١٢٥ : ١٢٩ .



ام موسى

« .. وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »
(قرآن كريم)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد « موسى » وانما يخص بالذكر أمه ، ويكل اليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين استبد فرعون ببني اسرائيل فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب ...

وتقول الرواية (١) : انه رأى في منامه رؤيا أفزعته « فدعا الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا: يولد في بني اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه » .

فجن غضبه وقلقه.. وأمر بقتل كل غلام يولد في بني اسرائيل، وجند لذلك القوابل من النساء في أنحاء المملكة ..

وولد «موسى» حينذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون في طلبه سبعين ألف ولد على ما يقولون (٢) ــ فارتجفت أمه رعبا وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أنها ــ أي القابلة ــ لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتزقلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح ..

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم « موسى » حتى أبصرتها

(١) راجع (قصص الأنبياء) للامام الثعلبي . ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية .
(٢) العرائس للثعلبي : ١٧٥ .

عيون فرعون التي بثها في كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ـ أماه ، هذا الحرس بالباب ! .

وفي ذهول المفاجأة ، لفت الأم ولدها في خرقة وألقته في جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان، والى جانبها فتاة تعنى بشؤون الدار في جد وهدوء ..

وسألها الحراس في فظاظة :

ـ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟ .

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

ـ هي مصافية لي ، دخلت عليَّ زائرة ..

فانصرفوا، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته لم يمسسه أذى بفضل الله .

* * *

وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له » (١) .

واستجابت الأم لوحي السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته في التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به في النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهي تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟ .

---

(١) من آية ٣٩ سورة طه .

أغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة النيل ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذي يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضي به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها .. فتنبهت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيديها في اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب فرعون ، قد صرفها عن التفكير في أي شيء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الاوان ، انها خلصت وليدها من سكين الظالم ، لتلقي به الى أفواه الحيتان ! .

قال « الثعلبي » :

« فلما ألقته في النيل وتوارى عنها ، أتاها الشيطان فوسوس اليها ، فقالت في نفسها : ماذا صنعت بابني ؟ لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الي من أن ألقيه بيدي في البحر وأدخله الى دواب البحر » (١) .

واني لأتمثلها الآن وقد لبثت في مكانها على الشاطيء لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو في أثر ذاك الذي مضى .. حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هناك ، وقادتها في رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الام المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادي الغائب العزيز ..

ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعية خاشعة .

* * *

ومضت الامواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفي

---

(١) من قصص الأنبياء : ١٧٤ .

حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر ..

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى « آسية » وجها مشرقا بابتسامة وضيئة ! .

وانثنت تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يتفتح له ، كأنما هو قطعة منها ..

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هدية تقدمها السماء الى أمومتها المحرومة ! .

في هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ، يطلبون الصبي .

قالت آمرة :

ـ انصرفوا ، فان هذا لا يزيد في بني اسرائيل ..

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ـ دعوا أمره لي ، فأنا آتي فرعون وأستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلن ألومكم ..

وجاءت « فرعون » فهتفت به :

«قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»(١)

فكان جوابه :

ـ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لي فيه ..

ثم استدرك بعد لحظة :

ـ لا بل فليذبح ، فاني أخاف أن يكون هذا من بني اسرائيل ، وأن يكون هو الذي هلاكنا وزوال ملكنا على يده ..

فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به الى جناحها ، والدنيا لا تسعها من فرط غبطتها ..

* * *

وهنالك في (حي المنبوذين) ، كانت « أم موسى » تضع يدها

---

(١) من آية ٩ سورة القصص .

على قلبها الذي ما فتيء يخفق ملحا في طلب النائي الغالي ..

قالت لأخته :

ــ « قصـّيه » وتتبعي أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحيٌّ هو أم قد اهلكته دواب البحر ؟ .

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النـــهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضيعا ، يأبى المراضع ! .

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر في حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جواري «آسية» يخرجن في التماس المراضع ، لعله يقبل ثدي احداهن ..

هنالك لاذت « مريم » بكل ما في طاقتها من شجاعة كي تداري مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر في حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، في صوت حاولت ألا ينم عــن شيء مما كـــان يخالجها :

ــ « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ؟ (١)

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

ــ ما نراك الا تخفين أمرا ! .

فأجابت في ثبات : .

ــ بل اردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

ــ لعلك تعرفين أهله ، والا فما يدريك أنهم له ناصحون ؟ ..

فهزت رأسها قائلة :

ــ الامر أبسط ممـــا تظنون ! كل ما هنـــاك أني أعرف فيهم الرحمة وطيب القلب ، وما أشك في انهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره ! .

---

(١) من آية ١٢ سورة القصص .

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها في وحدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم ! .

ولمحته ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته الى صدرها في رفق ، وألقمته ثديها ..

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء «موسى» للمراضع جميعا ، اذا رأوه يلقف الثدي في لهفة الظامىء يجد ريًّا ! .

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل « آسية » اليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما ..

قالت في غبطة : .

ــ هلا مكثت عندي يا ظئر لترضعي ابني هذا الحبيب ؟! .

فأجابت الأم : .

ــ بل ان شئت ياسيدتي صحبته معي الى بيتي أرضعه وأرعاه، فاني أخشى ان أنا هجرت بيتي وولدي ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا .. وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف من «امرأة فرعون» فتأبى أن تقيم في القصر ظئرا لولدها.. لكن لا عجب فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف ما دام ولدها قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى دارها كي تروي به أشواق أمومتها في اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟ لو انها أقامت بالقصر ، فهي بين امرين أحلاهما مر :

اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتخنق مشاعرها الطبيعية ، كي لا يستريب القوم في أمرها ، وذلك ما لا طاقة لأمومتها به بعد الذي كان من عذاب الحرمان ..

واما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بأن تختار لنفسها وله المكان المطمئن في دارها ، وفي ذلك يقول «الثعلبي» :

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده » .

ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا على حياة الوليد ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين ...

«وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني ، انا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ـ وقالت امرأة فرعون : قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ـ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ـ وقالت لأخته : قصّيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ـ وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ ـ فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ـ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين » (١) .

وقوله تعالى في سورة طه : (٢) .

---

(١) سورة القصص ، آيات ٤ : ١٤ .

(٢) آيات ٣٧ : ٤٠ .

« قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ــ ولقد مننّا عليك مرة أخرى ــ اذ أوحينا الى أمك ما يوحى ــ أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فَلْيُلْقِه اليمّ بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ــ اذ تمشي اختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن » .

هكذا نزل الوحي على « أم موسى » وعهدت اليها السماء بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات الكبرى ، من المذبحة التي لم ينج منها غلام لبني اسرائيل في ذلك العهد ! .

❋

ام المسيح

« ... اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين »
(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ؟ ..

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وانما هو « عيسى بن مريم » كما دعاه كتاب الاسلام ..

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبي المسيحية الى أمه ، هذه الأم التي طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين ..

وقصة أمومة « مريم » كما روتها كتب السماء بالغة التأثير والعنف ، فلقد تعرضت ـ عليها السلام ـ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت في بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من كبار بني اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما في بطنها لخدمة الهيكل : « اذ قالت امرأة عمران : رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك أنت السميع العليم ـ فلما وضعتها ، قالت رب اني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، واني سميتها مريم ، واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ـ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفّلها زكريا » (١) .

ذلك أن أباها «عمران» مات وهي صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها ..

---

(١) سورة آل عمران ـ آيات ٣٥ : ٣٧ .

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنتَ لديهم اذ يلقون أقلامهم : أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون » (١) .

وأمضت مريم صباها في المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الاكبر ، بعث اليها في خلوتها من بشرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » (٢) .

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« أنَّى يكون لي غـلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أك بغيا ـ قال : كذلك قال ربك هو عليَّ هينٌ ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » (٣) .

واستسلمت لأمر الله المقضي وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب في أحشائها، ويا له من احساس رهيب تعانيه عذراء طاهرة الذيل نقية السمعة ! هنا لك أشفقت من الفضيحة والعار، فانتبذت بحملها مكانا قصيا ، وأقامت في واد للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها في مذود للماشية ، وهي تقول :

« يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » .

ثم كان ما لا بد أن يكون ...

أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » (٤)

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهرها، ولا أنقذها من لعنتهم ما بدا من ولدها الصغير من آيات بينات ، بل رموها بالاثم

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٤ ·

(٢) سورة آل عمران آية ٤٥ ·

(٣)) سورة مريم : ٢٠ ، ٢١ ·

(٤) سورة مريم : آية ٢٣ ·

وقالوا عليها « بهتانا عظيما » ، فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت في سبيل ولدها الموعود بالمجد الاعظم ..

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكي تنجو به من الكيد والاذى، حيث أقامت هناك اثني عشر عاما ، ترعاه وتكدح لتهيىء له أسباب العيش ووسائل التعليم ..

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك الكفـاح الصابر ، بل كتب « الثعلبي » : « فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل في أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد في منكبها ، والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر ؟ (١)

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذتـه صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدي المؤدب (٢) حتى أذن الرب لها ، فعادت به الى « اورشليم » ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى » .

وسكنا في قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال، وكانت هي التي لاذ بها عندما تجلت له الرؤيا، وكاشفها بهمومه الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع ..

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ، فذكر في الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتونا ، وهنالك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبي مرسل الى بني اسرائيل فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : أنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه ـ أي عيسى ـ لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدي مـا عليه من دين لها بخدمتها ..

---

(١) ، (٢) العرائس للثعلبي : ٢ ، ٤ .

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بني ، اني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد، فليتمجد اسم الله القدوس. ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية » (١) بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها للدور العظيم الذي ينتظره ..

انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الايام ، آية من آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية » .

« وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

* * *

وتأتي « آمنة بنت وهب » في ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الانبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتــم الرسل ، والمبعوث بآخر رسالات السماء ! .

❋

---

(١) انجيل برنابا : الفصل العاشر .

الفصل الثاني

بيئة... ووراثة

١ ـ البيت العتيق
٢ ـ بنو زهرة



البَيتُ العَتيق

« ٠٠٠ واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا ، وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات ٠٠»
(قرآن كريم)

لبيك اللهم لبيك ! ...

هو الهتاف الخالد ، رددت صداه الآفاق المكية منذ ما لا يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذان «الخليل» في الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبي العربي اليتيم ، الذي وضعته « آمنة بنت وهب » في دار « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمائة عام !

يا أذن الزمان الواعية ..
ويا عين الدهر الباصرة ..
أي ألسنة للعابدين سمعت ؟
وأي وجوه هنالك رأيت ؟
وأي ألوان من البشر شهدت ؟
وأي ألوية خفقت بين يديك ؟

وأي هامات انثنت لديك ، في هذه البقعة من الارض ، وسط الوادي الاجرد الذي تحف به الصخور السود والجبال الشم ، منذ جعل « البيت » هنالك مثابة للناس وأمنا ، وحرما وملاذا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروع ، ويحقن عنده الدم المهدر ،

وتحمى في حماه حياة" كانت اذ ذاك مستباحة في شرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟!

« ان أول بيت وضع للناس ، للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » (١) .

* * *

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفت الدنيا بيوتا وبيوتا ..

ورأيت رسوما وطقوسا ، في شرق الارض ومغربها ، وقديمها والحديث .. وشهدت حجابا وزوارا ، وطائفين وعُبَّادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان ــ ولا يزال ــ علما شامخا وصرحا ممردا ، ترامت أضواؤه وأصداؤه الى أبعد مما ترامى اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك المزارات !

ومن يدري يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت أصابعك الباطشة أوراقها من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير الشأن ، ومحطا هين الامر ، يريح فيه المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم ، في طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا وجيئة، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيون ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق في قلب الفلاة ؟!

* * *

من يدري يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت بك ، قبل أن يجد أولئك الضاربون في الصحراء عبر الوادي القفر المرهوب والفيافي المهجورة الموحشة ، موئلا في جوار « مكة » يتريثون عنده التماسا للحماية والعون ، وتزودا بشيء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضني ومسراهم المخوف ، عبر الفيافي والقفار ؟

(١) سورة آل عمران : ٩٦ .

منذ كم من الدهور والاحقاب ، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الاطراف ، مباءة عبادة ، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الارض الا موضعا ، وعز الامان الا في مكان ؟!

كيف نمت « مكة » معك يا زمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى مركز تجاري هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ، وتتواصل حضارتا الشرق والغرب ، حين كانت الابل وحدها عدة السير وأداة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة في ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما في فارس ، والهند ، والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والاحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين : الأحمر والأبيض ؟!

* * *

ليس غيرك يا زمن ، من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل ، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية التي جعلت المعنى الديني لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم الى الاستقرار الاجتماعي والعدالة المرجوة في حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التي فرضتها عليهم البادية الضارية ..

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفارا ، أنزلها القوم منذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأي التحقيق العلمي فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والاسفار ، مراجعنا ومصادرنا في معرفة ماضي الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك — الى اليوم — مصادر تاريخية عن ذاك العهد الموغل في القدم ، الا

ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا في معرفة الملامح العامة للتطورات التي يمكن أن تؤخذ من القضايا الاجتماعية الكبرى ..

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر ، الى أن تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار عملية نقيم عليها الدرس التاريخي .

منذ متى بدأ التاريخ الديني لمكة ؟ ..

يمضي به بعض كتاب السيرة ومؤرخي « مكة » الى عهد « شيث ابن آدم » ، على أن تلك المرحلة الاولى من تاريخها البعيد غابت عنا ، فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجاري بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنهـا كانت في ذلك العهد السحيق موئـلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراحلين والتجار ..

ثم تطورت العبادة في ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها«ابراهيم» فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ مكة ، أجلى وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابراهيم » في تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجيء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه « اسماعيل » وأمه « هاجر » هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم فأمسك عليهما الحياة، وجذب القوافل في أعقاب الرعاة ..

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابراهيم » في تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي الى ذريته التي أسكنها بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم ، كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التيعهدت بها السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل .

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز الديني والاقتصادي لمكة :

« أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء ، رزقا من لدنا ؟ (١) .

* * *

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخشع له الجبال الصخرية السود التي تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبناء البادية وأمراء الصحراء ..

ومن ثم يمضي مؤرخونا الثقات ورواتنا الأوَل ، فيملأون المجلدات والاسفار بالحديث عن حرمة ذلك « البيت العتيق » كيف عظمت وجلت ، وعن « مكة » في عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التي بقيت لها على مر الحقب وتتابع الاجيال ..

حدثوا أن « جرهما » ـ وهم خئولة بنو اسماعيل ـ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الاولين من « بني اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما » في ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة « مكة » أن يكون بها بغي أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم ، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغي فيها أحد على أحد الا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها الا هلك مكانه ، فيقال انها ما سميت ببكة الا لانها كانت تبك ـ تكسر ـ أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا (٢)

---

(١) سورة القصص : ٥٧ .

(٢) السيرة لابن هشام ج أول ، وانظر نهاية الارب للنويري : ٢٣/١٦ .

وهكذا أخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ، يرثيهم شاعرهم فيقول : (١)

وقــائلــة والدمــع ســكب مبــادر
وقــد شرقت بالدمع منهــا المحاجر :

كأن لم يكن بين «الحجون» الى «الصفا»
أنيس ، ولم يسمر « بمــكة » سامر

فقــلت لها والقلب منــــي كأنمــــا
يلجلجـــــه بين الجنــاحين طائر :

بــلى نحــن كنــا أهلهــا فأزالنــــا
صروف الليــالي والجـــدود العواثــر

وكنا ولاة « البيت » من بعد « نابت »
نطوف بذاك « البيت » والخــير ظــاهر

فأخـــرجنا منها المليــك بقــدرة
كذلك ــ يا للناس ! ــ تجــري المقادر

فسحت دموع العــين تبكـــي لبلــدة
بهـــا حرم" أمْن" ، وفيهـــا المشاعر

ورووا أن « تُبَّعا الحميري » مر بقرب « مكة » في طريقه الى اليمن ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، فقالوا له :

ــ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، والذهب ، والفضة ؟ ..

قال :

ــ بلى ! ..

قالوا :

ــ بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده ..

---

(١) السيرة : ١/١٢٠ ، ونهاية الارب : ٢٤/١٦ .

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تُبَّع » بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراد «البيت» من الملوك بسوء . «ويقول السهيلي» (١) : « وروى نقلة الاخبار أن « تبعا » لما عمد الى البيت يريد اخرابه ، رمي بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا .. وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعت منه ــ أي أيبست ــ يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة .. فدعا بالحزاة والاطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا » حتى جاءه حبران من اليهود ، فقالا : لعلك هممت بشيء في أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم .. أردت هدمه .. وذكر لهما ما قال الهذليون ..

فصاح الحبران :

«ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتا لله اتخذه في الارض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكن وليَهلكن من معك جميعا » .

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ، ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم .. ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة ــ فيما يذكرون ــ ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا ..

فيقال انه برىء من دائه وصح من وجعه ، ويعلق « السهيلي » على ذلك قائلا :

وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه وتعالى

---

(١) الروض الانف ٠ ١/٢٧ ط الجمالية ٠

يقول : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » (١)
ثم يروي « لتبع » شعرا ، يقول فيه :

وكسونا البيت الذي حرم اللـ
ـه ملاءً منضدا وبرودا
ونحرنا بالشعب ستة ألف
فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا
فرفعنا لواءنا معقودا (١)

وسوف نسمع قصة صاحب الفيل الذي رده الله عن بيته مريضا مدحورا ، في العام الذي وضعت فيه « آمنة » وحيدها ..

* * *

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغا يصوره لنا ما رووه عن السيدة « عائشة » أنها قالت : ما زلنا نسمع أن «اسافا ونائلة»ـ وهما من أصنام العرب في الجاهليةـ كانا رجلا وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجرين !

وقد ذكر ابن اسحق في « السيرة » وابن الكلبي في « الأصنام » وياقوت في «معجمه» نسب هذين المخلوقين اللذين مسخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة ..

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه ـ فيما نقل ابن هشام في السيرة ـ من ان « أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ـ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد ـ الا حمل معه حجارة من حجارة البيت تعظيما للحرم ـ فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غاليا تنذر له الأمهات والآباء فلذات

---

(١) من آية ٢٥ سورة الحج .

(١) القصة مروية بمزيد تفصيل في الجزء الاول من السيرة النبوية لابن هشام ، والجزء الثاني من تاريخ ابن الاثير .

أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من «جرهم» كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هي ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة في الدهر الاول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت ربِّ من بنيَّه
ربيطةً بمكة العليَّه
فباركنْ لي بها أليَّه
واجعله من صالح البريه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهما حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت في « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصي ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن النضر » الذي هو قريش على أرجح الروايات .

وكان « قصي » يدعى زيدا حتى مات أبوه « كلاب » وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الازدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملها الى بلاده ، وبقي « زهرة » أخو « قصيّ » في مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال ..

وشب « قصيّ » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن «ربيعة» زوج أمه ، حتى تسابَّ هو ورجل من قضاعة ، فعيره قائلا :

ـ لست منا ، وانما أنت فينا ملصق .

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ـ يا بني ، صدق .. انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من

رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشي ، وأخوك زهرة، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران بيت الله الحرام ..

وعاد الى مكة رجلا ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه واذ ذاك رأى أنه « أولى بالكعبة وبأمر مكة ، من خزاعة وبني بكر ، لانه قرشي ، وقريش سليل اسماعيل وصريح ولده » .

وشبت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفها ، وبين خزاعة وبني بكر ، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، وحكموا « يعمر بن عوف » البكري فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة » .

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت بقصيّ عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصيّ « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء » وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقاه في ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط ..

وكان أمر « قصيّ » في قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها !

فلما أدركه الكبر ورقّ عظمه ، عز عليه أن يدرك ولده البكر « عبد الدار » ما بلغة أخوه « عبد مناف » في زمان أبيه من شرف، فقال الشيخ لعبد الدار .

« أما والله يا بني لالحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك» ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه ..

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا ، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عمهم «عبد الدار»

مما كان جدهم قصي قد جعله اليه : من النـــدوة ، والحجابة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهــم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على ان يقتسموا الميراث الجليل : لبني عبد الدار ، الحماية واللواء والندوة ، ولبني عبــد مناف ، السقاية والرفادة ..

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضها « قصي » ، وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعـــاه الزمن وسجله الشعراء مباهين .

قال « أوس بن تميم السعدي » مفاخرا بما كان قومه يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح النـــاس مـــا حجوا معرفهم
حتى يقال : أجيزوا آل صفوانـــا
مجـــد بنـاه لنـا قـدمـا أوائلنـــا
وأورثــوه طوال الـــدهر أخرانـــا

وقال « عمير بن قيس » أحد بني مالك بن كنانـــة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقـد علمــت معـــد أن قـومـــي
كرام النـــاس أن لهم كرامـــا
فـــأي النـــاس فاتونـــا بوتر ؟
وأي النـــاس لم نعلـك لجامـــا ؟
ألسنـــا النـاسئـــين على معـــد
شهور الحـل نجعلهـــا حرامـــا ؟

وذلك أنه كانت للعرب أشهر حرم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلب ثأر ، الا أن ينساها لهم أحد النسأة ..

ثم كانت للعرب في مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع

« ابراهيم » القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد اليهما الله أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » .

« والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها .. »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بني اسماعيل لحجارة الحرم التي حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الاوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهَدْي البدن، والاهلال بالحج ، والتلبية .

وطال المدى و « مكة » مهوى الافئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة أخري تجرؤ على منافستها أو تطمع في انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ..

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة في خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت الذي أقامه « الغساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التي بناها « أبرهة الاشرم » في صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب .

وقد جلب اليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده في هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس » (١)

---

(١) الروض الانف : ١/٣٠ .

ثم كتب الى مولاه نجاشي الحبشة : « اني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب » .

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقي البيت العتيق بمكة كما كان ــ وكما سيظل الى الابد ــ مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه في الناس :

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (١)

وما تزال الدنيا ــ حتى الساعة ــ تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذي استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرا وأرغد عيشا وأخصب أرضا ..

وما زال كثير من المستشرقين ، في عجب من أمر تلك العزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء في واد غير ذي زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم في القرن العشرين فيقول : (٢)

« في قلب الصحراء ، في واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها ..

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التي يكاد ضوؤها يذهب بالابصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى السماء دخانه ..

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم

---

(١) سورة الحج · آية ٢٧ ·

(٢) بودلي الرسول « الترجمة العربية » ·

الحياة كأنما جمدت في تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ..

« وحتى السراب الذي يخدع المسافر فيجعله يأمل في النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحي بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شيء ينبت في بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية » .

بهذا وصف « بودلي » البلد الحرام الذي ظلت له حرمته لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ، تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التي لم تنل منها السنون ولا عدت عليها عوادي الزمان ، فلمكة ـ منذ كانت ـ موقعها الاقتصادي الفذ ، ومكانتها الدينية الأولى .

* * *

أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟

أجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففي هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التي عرفها التاريخ أما خالدة .

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبي العربي اليتيم الذي بعث في مكة ، فأيد بمبعثه ذاك ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واتخذ من الكعبة التي تعبد فيها « الخليل » ، قبلته التي يولي المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وأنى أقاموا ، ما عُبِد الله في الارض !

أجل هي مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد رسالته ، ومثابة آبائه وأجداده ، وقبلة الذين آمنوا به أمس واليوم وغدا والى الابد ..

بنو زهرة

« .. لم يزل الله ينقلني من الاصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما »
(من حديث شريف)

في يوم لم يحدده التاريخ ، في نحو منتصف القرن السادس الميلادي ، رأت النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التي كانت ذات الشأن الاول في تلك المنطقة المقدسة، والتي استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة وما يتبعها من أمجاد وامتيازات ..

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن مرة ابن كعب بن لؤيّ ، ــ وبه كان يكنى فيقال : أبو زهرة (٢) ــ والشقيق الاكبر « لقصي » الذي ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها في شيء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها «محمد» ــ حفيد قصي وزهرة ــ بمجد الدهر وعز الابد !

وأم زهرة وقصي ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد بني الجدرة . بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت ان جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها.

---

(١) في « المعارف لابن قتيبة » ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة ، قال « السهيلي » في « الروض الانف ١/٧٩ » : « وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما قال ابن اسحق » يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصي بن كلاب ، وزهرة بن كلاب .
وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم في الهامش : وزهرة امرأة نسب اليها ولدها دون الاب ، وهم أخوال الرسول ، ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم في هذا . ويلاحظ عليهم انهم في رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبري نصا صريحا في أن زهرة رجل ثم لم يعلقوا على هذا التناقض في الروايات . وانظر نهاية الارب للنويري : ٢٠/١٦

(٢) نهاية الارب : ١٩/١٦

فلما بنى « عامر » الجدار ، سمي الجـادر ، ولقب أولاده من بعد ببني الجدرة .

ولسعد بن سيل ، جد قصي وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى في النـــاس شخصا واحـدا
مَن علمنـــاه ، كسعـد بن سيـل

فارســا أضـبط فيـه عسـرة
واذا ما واقَفَ القِـرن نـزل

فارسـا يستدرج الخيـل كما اسـ
ـتدرج الحـر القطـامي الحجل (١)

* * *

عرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبني عبد مناف ابن قصي دون اخوتهم من بني عبد الدار . ولعلنا نذكر هنا ما نقلناه في حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر « قصي » حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصي لبكره :

« أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليه : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها الا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة الا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما الا من طعامك ، ولا يقطع أمر من أمورها الا في دارك » .

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حينا ، ثم اجماع بني عبد مناف بن قصي : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم في قومهم ، أحق بالامر من بني عبد

---

(١) السيرة لابن هشام ، جزء أول . وانظر أخبار مكة للازرقي : ٦١ .

الدار ، وكانت طائفة مع بني عبد الدار ، يرون ألا ينزع منهم ما كان « قصي » جعله اليهم .

وعقد كل فريق على أمرهم حلفا مؤكدا ، على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين . كما تعاهد بنو عبد الـدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، عـلى مثل ذلك ، فسموا بالأحلاف .

وقد كان « بنو زهرة » مع بني عبد مناف في ذاك الحلف ولما عبئت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الاحلاف ، عبئت « زهرة » لبني جمح ، وأقسمت لتفنينها (١)

كما كان « بنو زهرة » مع بني عبد مناف اخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم أبدا متجاورة ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، الخ .

* * *

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النـداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل البعثة بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه . وذلك أن رجلا من زبيد قدم الى « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل ، وكان ذا قدر بمكـة وشرف ، فحبس عن الزبيدي حقه ، فاستعـدى عليه الاحلاف : عبد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وسهما ، وعدي بن

---

(١) السيرة : ١/١٣٩ .

كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصي وانتهروه ، فلما رأى «الزبيدي» الشر ، أوفى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال ، وبين الحِجْر والحجَر
ان الحرام لمن تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وقال : ما لهذا مَتْرَك !

قالوا : فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة ، في دار عبد الله ابن جدعان : أحد بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ـ وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة ـ فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على « ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته » .

وانصفوا « الزبيدي » من العاصي .

فيروي « ابن اسحاق » عمن سمع « طلحة بن عبد الله الزهري » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حُمر النعم ، ولو أدعى اليه في الاسلام لأجبت » .

* * *

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التي عرفت من قديم بصلة الود لبني عبد مناف بن قصي ، والتي ذكر لها التاريخ مشاركتها في الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التي شهدتها « مكة » قبيل الاسلام ، وتحالفها مع «هاشم» وبنيه في الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول .. ومن هذه

الاسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة » التي توجت ذاك المجد العريق بالشرف الذي لا يدرك ولا ينال ..

أبوها « وهب » سيد بني زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذي يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١) .

وجدتها لأبيها : «عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية» احدى العواتك اللواتي اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سُليم » .

ولم يكن نسب «آمنة» من جهة أمها ، دون ذلك عراقة وأصالة ، فهي ابنة «برة بنت عبد العزى بنعثمان بن عبد الدار بنقصي».

وجدتها لأمها : «أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي» .

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي ابن كعب بن لؤيّ غالب بن فهر » .

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل في أمومتها التاريخية .

ووراثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصي بن كلاب » وجعلته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتز بنفسه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :

« .. لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما » .

وعن « أنس » أنه قال :

« قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) «لقد جاءكم رسول

---

(١) الروض الانف : ١٠٤/١ ـ وارجع الى الفصل الخاص « بأمهات الرسول » في الجزء ١٦ من نهاية الارب للنويري ٠ ط دار الكتب ٠

(٢) من آية ١٢٨ سورة التوبة ٠

من أنفسكم ـ بفتح الفاء ـ وقال : أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا » :

نسبٌ تحسَبُ العلا بِحُلاه
قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار
أنت فيه اليتيمة العصماء

❋

الفصل الثالث

زَهرةُ قُرَيْش

١ ـ فتاة زهرة
٢ ـ فتى هاشم
٣ ـ العرس
٤ ـ البشرى



فتاة زهرة

« ... وكانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسبا وموضعا »

(ابن اسحاق)

تفتح صباها في أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به في ذاك المجتمع الأرستقراطي المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ..

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بني زهرة نسبا وشرفا ، وقد ظلت في خدرها محجبة عن العيون مصونة عن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يجرءون على رسم صورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها الا أنها «كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسبا وموضعا » (١) .

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بني زهرة ، فينتشر في أرجاء مكة ويثير أكرم الآمال في نفوس شبانها الذين زهدوا في كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والألسن ، « وعرف لبعضهن أثر فعال في المضاربات والمقامرات التي كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت أخريات ــ كما يقول بودلي ــ بمعاونة التجار والمقامرين في تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق » .

* * *

وقد عرفت « آمنة » في طفولتها وحداثتها ، ابن العم « عبد الله

---

(١) السيرة ١٦٥/١ .

ابن عبد المطلب » بين من عرفت من أترابها في الأسر القرشية ، اذ كان البيت الهاشمي أقرب هذه الأسر جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه ـ على ما رأينا ـ منذ عهد الشقيقين « قصي وزهرة : ولدي كلاب بن مرة » .

أجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها ، وتلاقت واياه في الطفولة البريئة على روابي مكة وبين ربوعها ، وفي ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهما مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بني هاشم ووهب سيد بني زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم «قريشا» أمر ..

* * *

ثم حُجبت « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، في الوقت الذي كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب .

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وأمجاد .

*

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب ببنيه العشرة على هبل في جوف الكعبة ، فقال لصاحب القداح :
ـ أضرب على بني هؤلاء بقداحهم
« وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب اليه ، فكان يرى أن السهم اذا أخطأه فقد اشوى .. »

(ابن اسحاق)

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زهرة قريش » مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة .

فهو ابن « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذي شرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشي ، وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وأبا طالب » فكان من نسلها الامام علي ، وجعفر الطيار .

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، أبا محمد الرسول .

وجدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية » التي كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقته » (١) .

* * *

ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم يتقدم

(١) السيرة لابن هشام . ج ١ .

لخطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة .

وأي القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذي يقرر مصير أبناء شيخ بني هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن « عبد المطلب » حين انتهت اليه امارة « مكة » وولي السقاية فيما ولي من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء .

وذكر بئر « زمزم » التي أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة .. وذكر ما وعته أذناه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة في مسامر «مكة» ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فود لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له شأن أي شأن !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى في منامه تبشره بتحقيق أمله العزيز !

روى « ابن اسحاق » عمن سمع عليا بن أبي طالب ، يحدث حديث جده وزمزم فيقول (١) :

قال عبد المطلب : « اني لنائم في الحجر اذ أتاني آت فقال : أحفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهي تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقي الحجيج الاعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم » .

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثني « أساف ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

---

(١) السيرة : ١/١٥٤

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

ــ ذد عني حتى أحفر ، فو الله لأمضين ما أمرت به .

وقاومت قريش ، وعَيَّرته بقلة الــولد ، على حين أصر هو على أن يمضي في الحفر ، فلما بدت له الحجارة التي طويت تحتهـا البئر ، رفع صوته مكبرا ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

ــ يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

ــ ما أنا بفاعل، ان هذا الأمر قد خُصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم .

فقالوا :

ــ فأنصفنا ، فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ..

قال : لا ، ولكن هلموا الى أمــر نَصَف بيني وبينكم : نضرب عليها بالقداح : أجعل للكعبة قدحين ، ولي مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له .

قالوا : « أنصفت » .

وضربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لا ينازعه في مائها أحد من قومه قريش .

تلك هي قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا تمهيدا لحديث « النذر » الذي يتصل « بعبد الله » أقوى اتصال .

ذلك أن أباه عبد المطلب ــ حين اشتغل بحفر البئر ــ لم يكن

له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقي من قريش ما لقي ، وسمع تعييرها اياه بقلة الولد ، نذر يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم عند الكعبة .

وتوافى بنوه عشرة : الحارث ، والزبير ، وأبو طالب ، وأبو لهب ، والغيداق ، وضرار ، والعباس ، وعبد الكعبة ، وقثم ، وعبد الله .

وكان « عبد الله » أصغرهم جميعا (١) ، فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ..

* * *

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الاولى قبل مبعث النبي بنحو احدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذي خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كل منهم قدحا عليه اسمه ، واستسلموا للمصير المحتوم راضين .

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفا وحنانا في انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب فيمن ذهب الى الكعبة، ليسمع كلمة السماء في الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع ان تبرح دار أبيها ، وان أقامت تترقب الأنباء في لهفة ، وهي لا تدري أي بني العم يختاره رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين .

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك في الحرم .

* * *

ثم انتشر الخبر فجأة في سرعة البرق فملأ أرجاء مكة ، متنقلا

(١) السيرة : ١/١١٤ ـ شرح المواهب للزرقاني ١/٩٤ ـ نهاية الارب : ١٦/٥٠ ، ٥١

بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « بنت وهب » .

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا .

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى قريش جميعا !

وبكت بنات عبد المطلب ، وكن قياما هناك ينتظرن أمر الله (١)

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » في جوف الكعبة ، وأخبر صاحب القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وتصميم وايمان ، ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذي فيه اسمه ، وأبوهم ينقل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى ! » .

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ فتاه الغالي بيد ، وأمسك الشفرة باليد الاخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه ! (٢)

بهذا كله ، طارت الانباء في أرجاء « مكة » حتى بلغت حي بني زهرة ، ثم أمسك الراوي ، وخيم الوجوم الحزين على الافق ، وجمدت الاعين فما تجود بدمعة !

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥٣/١ قسم أول .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ ــ الطبري ١٧٣/٢ ــ نهاية الارب : ٥٤/١٦ .

وأقفرت دار سيد بني زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعا ودورها .. ترى هل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله، ويكونوا الى جانب أبيه وهو يعاني التجربة الرهيبة !

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت في تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق في أثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين، ولكن أنى لها ذاك وهي المحجبة المصون ؟! وهبها استطاعت أن تفعل ، أفقادرة هي على أن تصنع شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضي الامر وفات أوان الصلاة والدعاء .

* * *

وولى النهار ..

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات، ورجال قريش لم يئوبوا بعد الى دورهم .

ما الذي أمسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن « آمنة » تدري ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع نحيل من الامل وسط الظلمات المتراكبة ، حين مضى الراوي في حديثه يقول :

« لم يكد الاب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من أنديتها فقالوا :

ـ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفي بنذري » .

فقالت له قريش وبنوه :

ـ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ (١)

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومي ـ وهو من آل فاطمة بنت

---

(١) السيرة لابن هشام ١/١٦٢ ـ والكامل لابن الاثير : ٢/٦ .

عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبي طالب ـ فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ـ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه .

وأضاف شيوخ قريش :

ـ فلتنطلق بولدك الى عـرّافة بخيبر ، لها تابع ، فلتسألها : ان أمرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك فيه بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته (١) ..

فنزل «عبد المطلب» على رأي القوم ، وانطلقوا في طريق «خيبر» يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز .

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ، وجنوبا قد لبت بها المضاجع ، وألسنة ضارعة في جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، فتى هاشم ..

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأً عن مصير الفتى العزيز .. بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب ..

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاء وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار ..

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتي من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ..

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأ عن مصير الفتى العزيز ..

وتوقفت الحياة أو كادت في تلك الايام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزهر ..

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ،

---

(١) اختلفوا في اسم العرافة ، فقيل : قطبة ، وقيل : سجاح · انظر السهيلي (١٠٣/١) والزرقاني (٩٦/١) والنويري « ٥٥/١٦ » ·

يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أنباء الركب الغائب ..

وشهدت الليالي نفرا من العقائل الكريمات ، يتسللن من أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة الحالكة ، فاذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على أثر ذلك الى «المسعى» بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » في هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما أنقذ جده « اسماعيل » !

* * *

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الافق الشمالي سحب من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغذ السير الى « مكة » فعرج الغلمان على قمم الروابي ورءوس الجبال ، يستكشفون أمر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم الى أحياء قريش تجمع الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق » .

وسعى غلام من موالي « بني زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشي عما شاع في البلد الحرام وذاع، من خبر العرافة والنذر: حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر، وقص عليها «عبد المطلب » خبره وخبر ابنه «عبد الله» وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ــ ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله ..

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

ــ قد جاءني الخبر : كم الدية فيكم ؟

أجابوا : عشر من الابل ..

قالت :

ـ فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فانخرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم ..

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه « هاشم وقريش » يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه .. « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة » .

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام .

❋



العرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبدالله – أثر افتدائه من الذبح – فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ·· وهو يومئذ سيد بني زهرة نسبا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة ·· »

(ابن اسحاق)

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة الاسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدي من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله .

« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ..

« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله ..

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح ، لاول مرة ، على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :

– قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه في ارتياب ثم قال :

– لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب »

يدعو الله ، فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقدح يخرج عليها !

« واذ ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ، ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! (١)

وسكتت الام « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوي الذي جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » في لهفة ، لكن الفتاة أفلحت في أن تخفي رغبتها في معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر .

واذ هما في مجلسهما ذاك ، ترنو احداهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفي ، دخل عليهما « وهب » (٢) ليقول لابنته في رقة وحنو :

« ان شيخ بني هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » في شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها : أحقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذي سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها . فاحتضنتها في حنو غامر ، خدر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف يشاء !

* * *

وطاب لها أن تبقى هكذا في حضن أمها : صامتة هادئة ، لولا

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٣/١ .

(٢) في السيرة لابن هشام « ١٦٤/١ » أن وهبا هو الذي زوج ابنته آمنة . والذي في طبقات ابن سعد « ٥٨/١ » أنها كانت في حجر عمها وهيب ، ويضيف الخبر أن عبد المطلب خطب في المجلس نفسه هالة بنت وهيب ، وهي أم ولده حمزة .

أن سيدات الاسرة توافدن واحدة في أثر أخرى ، مهنئات مباركات وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قريش «لعبد الله» ووقوفهن في طريقه بين الحرم ودار «وهب» يعرضن نفسهن عليه عرضا صريحا بادي اللهفة ..

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن « (١) رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي » القرشية الاصيلة ، استوقفت «عبد الله» قريبا من الكعبة فقالت له :

ــ أين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب في ايجاز :

ــ مع أبي ..

قالت « رقية » :

ــ لك مثل الابل التي نحرت عنك اليوم ، ان قبلت أن أهب لك نفسي الساعة !

فرد عليها معتذرا في تلطف :

ــ أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..

وقيل ان «فاطمة بنت مر» ــ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر ابن الاثير ، كاهنة من خثعم (٢) ــ دعته الى نكاحها فنظر اليها وقال :

أما الحرام فالممات دونه
والحل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه

---

(١) نقل السهيلي « ١٠٢/١ » أن اسمها رقيقة • ونقل النويري « ٥٨/١٦ » ان اسمها قتيلة لكن لا خلاف في أنها أخت ورقة « طبقات ابن سعد ٥٨/١ أول » •

واقرأ حديث من عرضن انفسهن على عبد الله، في الجزء الاول من السيرة ، وفي تاريخ الطبري ١٧٤/٢ ، والكامل لابن الاثير ١٧٤/٢ •

وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها ..

* * *

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش » حين

(٢) الكامل : ٢/٤

توافدن عليها للتهنئة ..

وقائلة تقول :

ـ اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبد الله ، فما رأين مثله وسامة وسحرا .

فتعقب أخرى :

ـ يا للفداء الغالي ! هل سمعتن بأحد افتدي قبله بمائة من الابل ؟

وتضيف ثالثة :

ـ هنيئا لك يا « آمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله » !

. . .

ترى هل حدث ذلك كله ؟

أكثر المؤرخين الاقدمين يروونه في غير شك ولا ارتياب ، أما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر أن الوقوف لتقصي أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير « آمنة » في الزواج منه ، فلما بني بها تقطعت بغيرها أسباب الامل ولو الى حين » .

على حين نسمع « بودلي » يقول في كتابه (الرسول) :

« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا وذيوع صيت في مكة ، ويقال انه لما خطب « آمنة

بنت وهب » ، تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة » .

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحتا ، لوجدنا في الوقوف لتقصي هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا أدبيا فنيا ، فلا معدى لنا عن الالتفات اليها ، كيما نرى حقيقة الصورة التي تمثلها القوم للأم التـي ولدت بطلنا الاعظم ..

ونكاد لا نشك في أن « آمنة » سمعت وهي على وشك الزفاف، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتاها الموموق، وأنها تلقت التهنئة الحارة بزواجها من الشاب الهاشمي الذي ملأ الاسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر جماله ونضارة حيويته ..

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، مضت « آمنة » تفكر في فتاها الذي لم يكد يفتدى من الذبح حتى هرع اليهـا خاطبا ، زاهدا في كل أنثى سواها ، غير ملق أذنيه الى ما سمع من دواعي الاغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها في زحمة المهنئات ، ولذّ لها أن تغيب عنهن وهي بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد الله » وهو يداري عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء ..

كم فكر فيها « عبد الله ؟!

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذي احتمله وعاناه ؟!

أسئلة عرضت « لآمنة » وهي في حلمها المستغرق ، حتى فاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب ..

* * *

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب الذي مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمــر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد شعرة ، أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشاعل في شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلــدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الاول حين مضى به أبوه «ابراهيم» الى قمة الجبل لكي يذبحه طاعة وتعبدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ..

انها القصة التي تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد طبقة ، وجيلا بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه في البيت العتيق الذي رفع القواعد منه ، ابراهيم وولده اسماعيل ، الذبيــح المفتدى ..

والبطل اليوم ، هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التي انتشرت في الارض وتوارثت مجد الجدود ..

وربما خطر لبعض السمار في ليلة العرس تلك ، أن يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما أبعــد واحد أو أكثر ، فحاول أن يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، مــا ينتظر « عبد الله » من أمر ذي شأن ، كذلك الذي كان لاسماعيل بعد الفداء ..

* * *

واستغرقت الافراح ثلاثة أيام بلياليها، كان «عبد الله» أثناءها يقيم مع عروسه في دار أبيها على عادة القوم (١) ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع سبقها الى داره كي يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة، على حين مضت هي في ذاك اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التي

---

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ، وانظر نهاية الارب : ١٦/٥٧ .

استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وأنضجتها عروسا ..

ثم راحت تودع أهلها وأترابهـا وصواحب صباهـا الغرير . وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت في رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهي تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التي خلفتهـا من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفيـة من شجو وحنين ، زادهمـا المساء الساجي مرارة وعذوبة معا !

واستغرقتها مشاعرها ، فأمسكت وطال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسري حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد ضاءه شحوب خفيف ، وتألقت في عينيها دمعتان صافيتان ..

وأدرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة مـن ذكريات ماضيها الذي فارقته وشيكا ، بل قادها في رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعـدت هنالك مجالس للضيوف الاعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها ..

وراح يريها بيتها الجديد ..

ولم يكن البيت كبيرا ضخم البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عد رحبا مريحا لعروسين يبدءان حياتهما المشتركة ..

كان ــ كما وصفوه : (١) ذا درج حجري يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر مترا في عرض ستة أمتار ، وفي جداره الايمن باب يدخل منه الى قبة ، في وسطها ــ بميل الى الحائط الغربي ــ مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس ..

* * *

---

(١) محمد لبيب البتانوني : الرحلة الحجازية .

وترك « عبد الله » عروسه في مخدعها مع رفيقاتها من سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام الذين صحبوا العروس الى بيتها ..

ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التي انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نسبا ..

❋

البُشرى

وسمعت هاتفـــا يهتـــف بها في رؤياها :
« انك قد حملت بسيد هذه الامة»
(ابن اسحاق)

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث مثير عما رأى في رحلته الى كاهنة الحجاز ..

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـ هلا حدثتني يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتي شغلنك في أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لاقبالها عليه ، وقال يحييها :

«ما شغلنني عنك قط يا آمنة، ولكنه الذي سمعت من تعرضهن لي ، وانصرافي عنهن اليك وحدك !

« على أن للقصة بقية لما تسمعي بها، لانها حدثت في يومنا هذا، اذ كنت عائدا من بيت أبيك لكي أهيىء داري لاستقبال عروسها الغالية ، وشغلت بهذا يومي كله ، فلم أكد أحدث أحدا بما كان!»

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكة الاوحد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

ـ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذي تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !

وأمسك فترة يرنو الى صاحبته ، كأنه يريد أن يلمس وقـع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضي في قصته فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

أجل يا ابنة وهب ! زاهدات في فتاك كأنه أبدل خلقا جديدا . مررت بهن اليوم في طريقي بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحن عني بوجوههن معرضات ، الى حد أثار عجبي وفضولي الى معرفة سر هذا الانقلاب ، فسألت احداهن « رقية بنت نوفل » .

«مالك لا تعرضين علي اليوم ، ما كنت عرضت علي بالامس ؟»

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذي كان معك بالامس ، فليس لي بك اليوم حاجة ! » وكذلك أعرضت عني « فاطمة بنت مر » قائلة : (١)

« قد كان ذلك مرة ، فاليوم لا » ثم أضافت : « اني والله ما أنا بصاحبة ريبة (٢) ، ولكني رأيت في وجهك نورا فأردت أن يكون لي ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدي؟»

قلت : « زوجني أبي آمنة بنت وهب » .

فأنشدت : (٣)

لله ما « زهرية » سـلبت

منـك الذي استلبـت وما تـدري !

ثم قالت في تحسر :

ولما قضت منه « أمينـة » ما قضت

نبـا بصـري عنه وكلّ لسـاني

وسألت الثالثة : «ليلى العدوية» ماذا صدها عني ؟.. فأجابت :

« مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت عليّ ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها » .

---

(١) ذهبت كلمتها هذه مثلا ، انظره في مجمع الامثال للميداني : ٢/٣٤ .

(٢) هذه عبارة الطبري : ٢/١٧٤ وابن الاثير : ٢/٤ وفي نهـاية الارب : اني والله لست بصاحبة زنية ١٦/٦١ .

(٣) انظر بقية الابيات في تاريخ الطبري « ٢/١٧٤ » وفي نهاية الارب : ١٦/٧٧ .

وصمت « عبد الله » وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران في ذلك الموقف الغريب الذي وقفته نسوة قريش من «عبد الله»

ثم كانت « آمنة » هي التي قطعت الصمت فجأة ، بان طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين «رقية بنت نوفل» .

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

ـ ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟

أجابت « آمنة » في جد :

ـ ستعرف بعد ، فهلا أعدت لي ما قالت « رقية » ؟

فلم يسع « عبد الله » الا أن يقول :

ـ سألتها : مالك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت علي بالامس ؟

فأجابت : فارقك النور الذي كان معك ، فليس لي بك اليوم حاجة .

فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

ـ والله يا ابن العم ، اني لأرى لهذا الامر ما بعده ، فرقية أخت « ورقة بن نوفل » وهو ـ كما تعلم وأعلم ـ قد تنصر واتبع الكتب وبشر بان سيكون في هذه الامة نبي !

ثم استطردت بعد صمت قصير :

ـ تراني نسيت أن فاطمة بنت مر ، قرأت الكتب كذلك وهي بعد كاهنة خثعم (١)

فحدق « عبد الله » في زوجته مليا ثم هتف :

ـ ترين يا آمنة أننا ..

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت في حلم رائع مثير ، استعادت فيه كل الذي كانت الجزيرة تمتلىء به من شائعات وارهاصات عن النبي المنتظر !

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/١٧٤ والنهاية لابن الاثير : ٢/٤ .

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الالمام بها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب في نور الفجر تلك الابتسامة الرقيقة التي يتألق بها وجهها الحلو ، وهي نائمة تحلم .

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنيء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضيء الدنيا من حولها حتى لكأنهـــا ترى به قصور بصرى من أرض الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الامة (١) .. »

* * *

وبقي « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ، اذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى غزة والشام في عير قريش .

وأغلب الظن أن كلام « رقية بنت نوفل » عن النور الذي فارق عبد الله الى آمنة ، قد شغل أويقات السمر في تلك الامسيات المعدودات التي قضاها العروسان معا قبل ان يفترقا، وأن الاحلام قد حلقت بهما في آفاق عليا ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قلَّ من شارفها أو طمح اليها .

وربما تذاكر خبر « سوداء بنت زهرة الكلابية » اذ ولدت ورآها أبوها زرقاء شيماء فأراد وأدها ، فأتى الحجون ليدفنهـــا هناك ، فلما حفر لها الحافر سمع هاتفا يقول :

« لا تئد الصبية وخلها في البرية » ..

وتكرر ذلك ، فعاد الى أبيها فقال : ان لها لشأنا ، وتركها .

---

(١) السيرة لابن هشام : ١/١٦٦ .

فكانت كاهنة قريش ، فقالت يوما لبني زهرة : ان فيكم نذيرة أو تلد نذيرا، فاعرضوا عليّ بناتكم. ففعلوا، فقالت لكل واحدة قولا ظهر بعد حين ، حتى عرضت عليها آمنة فقالت : هذه النذيرة ، أو تلد نذيرا (١) .

❁

(١) الروض الانف : (٤١/١) .



الفصل الرابع

العَرُوسُ الأَرمَلَة

١ ـ فراق
٢ ـ رسول الى يثرب
٣ ـ غائب لا يئوب



فُراق

ثم حانت ساعة الفراق !

ودع « عبد الله » زوجته الحبيبة حين أذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت « آمنة » بفتاها وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة في حنو ، وهو يظن أن الذي بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك ..

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف في فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ــ ان هي الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة ..

فهمست في صوت أبح مختنق :

ــ وماذا اصنع بنفسي وأنت بعيد ؟

أجاب متضاحكا :

ــ تسامرين طيفي الذي لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين قلبي الذي أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع ابدا الى أعز موضع ، ويحن الى أحب وأجمل من خلق الله !

فتراخت يداها وأنَّت في ضعف :

ــ ويلي يا عبد الله من لياليَّ الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :

ــ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك أحلام عذاب . أفنسيت حديث « رقية بنت نوفل ، وفاطمة بنت مر » ورؤيا الامس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية ان يتصدع ..

وأدركتها بعد ساعة ، جاريتها « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الىجانبها ترعـــاها مشفقة عليها مما تلاقي ..

* * *

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » في فراشها لا تبرحه ، تسامـــر أشجانها وترسل قلبها في أثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة ، على الانس بالاهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده في مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة .

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت بالبادرة الاولى للحمل ، وكان شعورها به رقيقا لطيفا حتى لتقول :

ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء ، الا أني أنكرت رفع حيضتي ، على أنها كانت ربما ترفعني وتعود . فأتاني آت وأنا بين النوم واليقظة فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأني أقول : ما أدري . فقال : انك حملت بسيد هذه الامـــة ونبيها . وذلك يوم الاثنين . فكان ذلك مما يقن عندي الحمل (١).

وودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله » .

واستعادت شيئا من اشراقها ، وقد هون عليها مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم يدنيها من اللقاء المنتظر،

---

(١) شرح المواهب للزرقاني : ١/١٠٦ .

وقد اختلفت الروايات في المكان الذي حملت فيه آمنة بسيد البشر ، ففي قول أنها حملت به في شعب ابي طالب « نهاية الارب : ١٦/٦٤ » وفي قول آخر انها حملت به في بيت آلها بني زهرة « الاستيعاب لابن عبد البر : ١/١٦ » .

ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذي ترجو أن تلقى به زوجها في اللحظة التي يؤوب فيها !

وأهل الشهر الثاني أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود، فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعد ما بقي من أيـــام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا يحدثها عما لقي في بعدها من حر الشوق ولوعة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهي العذب ؟

بهذا شغلت « آمنة » في الفترة التـــي سبقت عودة الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها في عنف ، ووقفت في ساحة الدار مما يلي الباب الخارجي ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب ..

وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف طارىء، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كي تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رأت « عبد الله » رأي العين ، وتصف لها حاله بعد غيبـــة طالت !

وتناهى الى اذنها ضجيج اللقاء في الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذي أمسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقي ــ في طوافه بالكعبة اثر عودته ــ من احتجزه حينا ..

أو لعل أباه الشيخ آت في صحبته ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشي على مهل ، احتراما لشيخوخة أبيه ..

أو لعل .. ولعل .



رسول الى يثرب[٧]

وأخيرا ، أحست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهي لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدماها ، فتسمرت حيث هي : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء «عبد المطلب» الشيخ في صحبة أبيها « وهب » ونفر من الاهل الادنين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق .

وكانت « أم أيمن » تمشي في أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول ان تخفي دمعة أفلتت من مقلتيها ..

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

ـ بعض الشجاعة يا آمنة ، فما في الامر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الاليم . لقد عادت القافلة وكنا في انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو في طريقه الينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش ..

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

ـ هو ذاك يا آمنة .. وعكة بسيطة ولا شيء أكثر وقد قال الرفاق « خلفناه بيثرب عند أخواله من بني مخزوم » فبعثت اليه أخاه الحارث (١) ، كي يكون معه ، ويصحبه في طريقه الينا ، فثوبي الى صبرك وادعي له ...

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة ، والذي في النهاية لابن الاثير (٢/٣) أن الاخ الذي توجه الى يثرب كان الزبير لا الحارث .

قالت في ضعف :

ـ أفعل يا عم !

وانصرفت من فورها الى الصلاة والدعاء، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين ..

* * *

وأتم الشهر الثاني دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذي افتدي بالامس أغلى فداء ...

وكانت تعاودها ـ في لحظات نومها القصيرة ـ رؤيا ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضي اليه بالذي ترى وتسمع ...

❋

غائبٌ لا يؤوبُ !

ثم ..

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ..

عاد لينعي أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين جميعا ..

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بني مخزوم ، اثر رحيل القافلة التي تخلف عنها ..

ودفن هناك ــ على أرجح الاقوال ــ ولم يقبل فيه هذه المرة أي فداء !

ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء ..

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لا تكاد تصدق النعي ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت في لوعة : (١)

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا في الغماغم

دعته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره
تعاوره أصحابه في التزاحم

فان تك غالته المنون وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحم

(١) السهيلي : ١/١٠٧ ــ والزرقاني : ١/٢١٠ ــ والنويري : ٦٦/١٦ .

ثم أمسكت لا تزيد ..

ووجد عليه « عبد المطلب » واخوته وأخواته وجدا شديدا (١)

ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالته المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضحلت من النواح عليه حلوق بحت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ..

كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما (٢) ، فيا للشباب الفتي النضير يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !

ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال في يديها خضاب العرس !

❋

(١) النويري : ١٦/٦٦ .

(٢) هذا هو المشهور . ونقل ابن سعد في طبقاته عن الواقدي أن سنه كانت يوم وفاته خمسا وعشرين سنة . وانظر نهاية الارب : ١٦/٦٦ . والحاوي للفتاوي : ٢/٢٣٠ .

الفصل الخامس

أُمُّ اليتيم

١ ـ الجنين
٢ ـ الوليد
٣ ـ الرضيع



الجنين

ما مضت فترة من الرسل الا
بشرت قومها بك الانبياء
فهنيئا به لآمنة الفضـ
ـل الذي شرفت به حواء
من لحواء انها حملت احمـ
ـد أو انها به نفساء

(البوصيري)

وفض المأتم ...

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوي في لحده بعيدا بيثرب..

كانوا في حيرة من أمره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نحرت الابل المائة بالحرم ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى، على قيد خطوات معدودات ؟

وفي مثل هذا ، كانت « آمنة » تفكر ، وهي في وحدتها تجتر أحزانها ، وتكابد الذي تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهي تأبى أن تقبل في « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذي رحل .

وأوجس « آل هاشم وزهرة » في نفوسهم خيفة ، أن تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة » شهرا وبعض شهر ، وهي ترقب في قلق، الى أين تنتهي الاحزان بالارملة العروس ..

حتى كانت ليلة من ليالي شوال ، أحاط فيها العواد بفراش « آمنة » وهي في غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

ـ فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟

ـ فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفر له لحده بيثرب ؟

ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها في حنان وقلق وارتياب ، على أنها ما لبثت أن صحت من غفوتها وقالت لمن حولها :

« كأني عرفت سر الذي كان : ان عبد الله لم يفتد من الذبح الا لمهمة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعني هذا الجنين الذي أحسست به اللحظة يتقلب في أحشائي ، والذي من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على « آمنة » فطوت أحزانها في أعماقها ، وبدأت تفكر في ابنها الذي يحيا بها ويحييها ..

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنة » قبل أن أقف لحظة لاشير الى اختلاف الروايات في وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين في رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

لا مراء في أن الرسول يتيم ، وقد نزلت بهذا آية الضحى : « ألم يجدك يتيما فآوى » والمشهور ، أنه صلى الله عليه وسلم ـ ولد يتيما ـ وقد اكتفي بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أي خلاف فيه . قال :

« .. ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به » .

ونقل « ابن هشام » عبارة ابن اسحاق هذه ، من غير أن يضيف اليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا في هذا ..

ونقل « ابن الاثير » في (الكامل) أن « الزهري » قال :

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيل بل كان في الشام فأقبل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفي بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

كما نقل في موضع آخر (١) أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخي ، مات أبوه وأمه حبلى به » .

وفي نهاية الأرب (٢) : « فذهب أخوه الحارث الى يثرب فوجده قد توفي ودفن .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حمل » .

لكن « السهيلي » نقل في (الروض الانف) : أن « أكثر العلماء أجمعوا على أن عبد الله مات والرسول في المهد : قيل ابن شهرين، وقيل أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا » (٣) .

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلي » التي ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها ..

وأشار « البرزنجي » الى الخلاف اشارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الاقوال المروية ، توفي بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله في مرضه عائدا من الشام » (٤) .

وعلق « عليش » على هذا في شرحه للمولد ، فذكر من الاقوال

---

(١) الكامل : ٢/١٣ .

(٢) للنويري : ٦٦/٦ .

(٣) الروض الانف : ١/١٠٧ — وانظر نهاية الارب : ٦٦٦/١٦ .

(٤) المولد النبوي : ص ١٢ .

المروية التي أشار اليها البرزنجي : أن أبا الرسول توفي وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا ..

* * *

وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفي وابنه جنين . قال بودلي :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه في يثرب وهو في رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذي رأى النور في أغسطس سنة ٥٧٠ م ، بعد وفاته بشهور » (١) .

و « فيليب حتي » يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لا يشير الى خلاف في ذلك (٢) .

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى الشام في رحلته الاخيرة ، تاركا « آمنة » حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام ..

غير أنا نجد عند بعض المفكرين المحدثين ـ أذكر منهم أستاذنا أمين الخولي ـ ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، وهم لا يستندون في ذلك الى دليل نقلي ، بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفي واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا ـ عندهم ـ يرجح ، ان

(١) الرسول : ص ٢٨ من الترجمة العربية .

(٢) تاريخ العرب : ص ١٣٥ ط ثانية من الترجمة العربية .

لم يثبت ، أن أمه لم تروع وهي حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن .

ولا نماري فيما لهذا الرأي من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلي الذي نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الاول ، لا يشيرون الى خلاف في أنه صلى الله عليه وسلم ولد يتيما : « ألم يجدك يتيما فآوى » وهذا هو الذي حملنا على أن نلوذ بالفن لكي نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتماله من توفير الراحة النفسية للام الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع ، فاطمأننا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا هاما في عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفي لان يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ، ويملأ دنياها بهذا التراث الحي الغالي الذي أودعه عبد الله اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ..

* * *

تسامعت بيوت «مكة» بالنبأ السعيد، فتوافدت عقائل «قريش» على دار الفقيد ، يهنئن «آمنة» ويصغين الى ما سمعت من بشرى..

وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبي منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب (١) .

ولعل العرب لم يلقوا بالا ــ أول الأمر ــ الى هذا الذي ذاع وانتشر ، غير أني أكاد أطمئن الى أن « آمنة » قد ألقت كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذي استأثر من

---

(١) من شاء أن يقرأ تفصيل ذلك ، فليقرأ الفصل الخاص بذكر المبشرات برسول الله ، في الجزء السادس عشر من نهاية الارب ، ص ١٥٠ : ١٧٥ · وفي الجزء الاول من السيرة لابن هشام.

دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الـذي لم يحدث منذ افتدي اسماعيل ..

وقد بقي في مسمعها صدى قوي رنان ، مما ذكرته أخت ورقة ابن نوفل وفاطمة بنت مر ـ وقد كانت فيما روى ابن الاثير كاهنة من خثعم ـ عن النور الذي انتقل من « عبد الله » اثر زواجه ، والغرة التي ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع لغيرها من النساء في « عبد الله » مأربا ..

ثم هي قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة في مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة في بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد ..

* * *

وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عمن لا يتهمون من الرواة، ما تراءى « لآمنة » في أحلامها من بشرى بابن عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابرا دون أن يشير اليه ، فقال :

«وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى»(١)

وأكثر المستشرقين ، يأبون روايات البشرى اباء صريحا ، حتى «بودلي» وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول ـ رفض أن يقبل الذي قيل في رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا . قال في كتابه (الرسول) :

«لا توجد أسرار تحيط بمولد النبي ، اذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه .. وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » (٢) .

---

(١) محمد : ص ٦٩ .

(٢) الرسول : ص ٢٥ .

واني ليدهشني أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل« بودلي» أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأي . لقد قرر أن محمدا « حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع في مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمي ما روي عن أحلامها ورؤاها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟ أو ليس من حقها ـ ككل أنثى مثلها ـ أن تحلم للجنين الذي يتقلب في أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلي » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمي أحلام « آمنة » خرافات! وانما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأماني أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزا وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأي عجب في أن تبعد بآمنة أحلامها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمّة » ؟

أوَ ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التي ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم يسد إلا قومه ؟ (١) .

اننا لا نقول لبودلي وأمثاله : أن « آمنة » في هذا كله ، هي هي حواء في كل زمان ومكان ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من أن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لكِ ليلى من ولد
يقدم اقدام الاسد

---

(١) راجع عيون الاخبار لابن قتيبة : ١/٢٢٤ .

من جشـم فيـه العدد
أقول قـولا ، لا فنـد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال :

اني زعيم لكِ « أم عمرو »
بماجـد الجد كريم النـجر
أشـجع من ذي لبـد هزبر
يسودهم في خمسة وعشـر

قاموا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشر سنة ..

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائي » فسألها :

ـ أغلام سمح يقـال له حاتم أحب اليـك ، أم عشـرة غلمة كالناس .. ؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفا هتف بها في منامها ذات ليلة :

ـ أعشرة هدرة جمع هادر وهو الساقط ـ أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـ ان عاد الثالثة فقولي : ثلاثة كعشرة .

ففعلت ، وولدت : خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعدت بهم احدى منجبات العرب .

بل لا نقول كذلك ، لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهي الحياة على هذه الارض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والاحلام ..

وانما حسبنا أن نقول لبودلي :

ـ انك قد اتخذت من كتاب السيرة والمؤرخين الاسلامين الأول،

مرجعك في كتابك عن «الرسول» ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم في الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التي يلبسونها ، وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمر الذي عاش عليه يشابه تمرهم . انهم ليشاركونه في كل ما فعله فهو بالنسبة لهم حي كفرد منهم ..

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذي مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسبة لي ، أيسر من وصف جامعي في أكسفورد ، الحياة في عصر اليزابيث ، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكي عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال ..

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ..

« اني أعرف العرب عن كثب ، واني أحبهم ، وقد عشت في خيامهم وأحببتها . وأظن أني أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق مشكلاته » .

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت «آمنة» من بشائر بمولد ذاك الذي كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق اني لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الاحلام ، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله امكانياتها ، ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بني زهرة ، ولدت في « أم القرى » وفي جوار البيت العتيق ، تلك البيئة التي عرفناها ، بكل حرمتها

الدينية ، وكل ما لها من تراث عريق ، يحف به السنى والجلال تزوجها « عبد الله بن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، تزوجها وهي يومئذ ـ كما يقول ابن اسحاق ، شيخ كتاب السيرة ـ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا ..

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك ـ في أدنى حالاته ـ وهما أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الاول : حفيد المنافين ، وسليل البيت الهاشمي وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليها أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ما تواترت (١) به الانباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ؟

* * *

والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها في دارها بعد أن غاب عنها « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها في حزن مستبد ، لم تخفف حدته الاحركة الجنين في أحشائها ..

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليها أن تتهيأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا في شعف الجبال والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذي جاء به « أبرهة الحبشي » من اليمن ..

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم « أبرهة » هذا في جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الامر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين ..

وسألت « آمنة » عبد المطلب :

---

(١) السيرة : ١٦٦/١ ٠ وانظر نهاية الارب : ٦٤/١٦ ٠

ـ علمت يا عم أن قريشا وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد اجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذي جد في الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

ـ عرفوا ألا طاقة لهم به ، فكرهوا معركة غير متكافئة ، تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تؤوب بعار الهزيمة ..

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء كان بين أمير مكة وطاغية الاحباش ، فعادت تسأل عما تم في ذلك اللقاء ..

فأجابها الامير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميري » وقال له : (١)

ـ سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له أن الملك يقول لك : اني لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم . فان هو لم يرد حربي فائتني به .

وجاءني « حناطة » فأبلغني رسالة « أبرهة » وتلقى جوابي :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يُخلِ بينه وبين ابرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه »

قال حناطة :

ـ فانطلق معي ، فانه قد أمرني أن آتيه بك ..

ففعلت ، ومعي بعض أبنائي ، وهناك مضى بي الى ابرهة أحد

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٥٠ .

رجاله فقال له : (١)

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رءوس الجبال » .

فأكرمني « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره في الوقت نفسه أن تراه الحبشة معي على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسني الى جانبه ثم قال لترجمانه :

ــ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي.

بدا على الملك كأنما صغرت في عينيه ، وخيبت ظنه فيَّ ، وقال لترجمانه في جفوة :

ــ قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلفني في مائة بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمني فيه ؟ (٢)

قلت على الفور :

ــ اني أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه .. (٣)

قال الفاجر مُدِلاًّ بقوته :

ــ ما كان ليمتنع مني !

فأجبته متحديا :

ــ أنت وذاك ..

وكان معي سيد هذيل ، فعرض على « أبرهة » ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبرا واكتفى بأن أمر برد ابلي الي ..

---

(١) ابن هشام : السيرة ٥١/١ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٥١/١ .
وانظر تاريخ الطبري : ص ٩٤٠ من القسم الاول ط أوربا .

(٣) ابن هشام : السيرة ٥١/١ .
وانظر تاريخ الطبري : ص ٩٤٠ من القسم الأول .

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معي نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على « أبرهة » وجنده ..

* * *

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد في ضراعة أبياته التي قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
جروا جموع بلادهم ، والفيل ، كي يسبوا عيالك
ان كنت تاركهم وكعبتنا (١) ، فأمرٌ ما بدا لك

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
امنعهمو أن يخربوا فناكا

فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها في غد من يصحبها في خروجها لتلحق بالجمع الراحل ...

وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالي الذي تطوي عليه أحشاءها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفي غير دار أبيه « عبد الله » .

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت الى فراشها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها على ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضي الله أمره ..

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتي من قومها أحد ، ثم

(١) رواه الواقدي : ان كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك .

مضى النهار الا أقله وهي في عجب : كيف لم يبعث عبد المطلب رسوله اليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذي يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حي فيها أنفاسه ؟

بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى الجنوب، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمرا ..

* * *

وأقامت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة ...

ولم يبق في « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام (١) ، وهيأ فيله وعبى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل من معسكره في ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه في رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم في أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم ، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول ..

هنالك أدركهم الذعر ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذي جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمي » ــ وكان قد

---

(١) ارجع الى السيرة ، ج١ ص ٥٤١ ط الحلبي .

خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ــ فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم اليه أن يدلهم على الطريق الى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته : (١)

أين المفر والاله الطالب ؟
والأشرم المغلوب ليس الغالب!

أو يقول :

وكل القوم يسأل عن « نفيل »
كأن عليَّ للحبشان دينا ! (٢)

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! » (٣)

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ــ فيما روى ابن اسحاق عن يعقوب بن عتبة ــ الحصبة والجدري قبل ذاك العام المشهود ...

وأقبلت «قريش» على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة، وتجاوبت أرجاء البلد الامين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

فتنكلوا عن بطن مكة انها
كانت قديما لا يرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يئوبوا أرضهم
بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

* * *

(١) السيرة : ١/٥٥ .
(٢) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة أبيات .
(٣) السيرة : ١/٥١ .

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلي وقد أشرق وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ـ ابن عبد الله ـ أن يولد بعيدا عن البلد الحرام .

❁

الوَلِيدُ

ولد الهدى فالكائنات ضيــــاء
وفـم الزمـان تبسم وثنـــــاء
الروح والمـــلأ الملائك حوله
للــــدين والدنيـــا بـه بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى ، والسدرة العصمـاء
(شوقي)

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيــل ، حتى ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الاكثر والأشهر ، على ما نقل « السهيلي » في الروض الأنف (١) .

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان في عام الفيل (٢)

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » في صدر ليلة مقمـــرة من ليالي ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه محمدا ..

وجاءها المخاض في أوان السحر من ليلة الاثنين ، وهي وحيدة في منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها ــ وقيل في رواية أخرى أن « أم عثمان بن أبي العاص » كانت كذلك معها ــ فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما

---

(١) وانظر الزرقاني ١/١٣٠ ــ والنويري : ١٦/٦٨ .
(٢) السيرة ١/١٦٧ .

أخبرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتي حسبتهن من نساء البيت الهاشمي ، لسن سوى أطياف سارية ! وخيل اليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امـرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل » !

وزايلها كل ما تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !

* * *

وتوارت الاطياف النورانية الساريـة ، حين لم تعد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نـورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ، وهي لا تفتأ ترنو الى طلعته البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذي أودعها اياه ، ثم رحل ...

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى في حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ، وقد ألقى كل سمعه الى « آمنة » وهي تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع ..

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيـه في رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقـام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالي .

وأحاط به بنوه في خشوع وغبطـة ، وهو يطوف بالكعبـة منشدا : (١)

الحمـد لله الـذي أعطانـي
هذا الغـلام الطيـب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد · رواية عن الواقدي ، وانظر النويري : ٧١/١٦

أعيـذه بالبيت ذي الاركان
حتى أراه بالـغ البنيـان
أعيـذه من شر ذي شنـآن
من حاسد مضطرب العنـان

ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة .

وكانت مكة ــ حين ذاعت فيها بشرى المولد ــ ما تزال تحتفل بما اتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم في مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتدي بالابل المائة ..

وبلغ من غبطة البيت الهاشمي بالمولود العزيز ، أن « ثوبية الاسلمية : جارية أبي لهب بـن عبد المطلب » لم تكد توافـي سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره في الحرب الدامية التـي قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمي اليتيم ، برسالة السماء ..

فيقال ان « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : في النار ، الا أن العذاب خُفـّفعني كل ليلة اثنين، بماء أمصـّه من بين اصبعيّ هاتين ، وذلك أني أعتقت « ثوبية » حين بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم .

و « أبو لهب » هذا ، هو الذي نزل فيه قوله تعالى ، « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ــ سيصلـَى نارا ذات لهب ــ وامرأته حمالة الحطب ــ في جيدها حبل من مسد » ..

ولن يمضي وقت طويل، حتى تمتلىء الجزيرة بأخبار ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التي وضعت فيها « آمنة » ولدها .

وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الاجيال حتى تصل الينا ، وقد أضافت اليها الليالي والايام جديدا من اضافات السمار ورؤى المحبين ..

وهذا زماننا يصغي في ذكرى تلك الليلة المباركة من كل عام، الى ملايين الاصوات في شتى المحافل بمختلف بقاع الارض، ترتل قصة المولد وتترنم بما ظهر عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زيدت السماء حفظا ، ورُدَّ عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورُجمت الجن وتدلت اليه صلى الله عليه وسلم الانجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورُباه . وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور اضاء قصور الشام القيصرية ، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه . وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذي رفع أنو شروان سَمكه وسواه . وسقطت اربعٌ وعشرٌ من شرفاته العلوية، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما صابه وعَراه . وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومُحيّاه .. »

ويهتف امير الشعر العربي بعد نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن من الليلة الغراء :

بك بَشَّر الله السماء فزينت
وتضوعت مسكا بك الغبراء

يومٌ يتيه على الزمان صباحه
ومساؤه بمحمد وضاء

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهم أصداء

والنار خاوية الجوانب حولهم
خمدت ذوائبها وغاض الماء

والآي تترى ، والخـوارق جمـة
« جبريل » رَوَّاح بها غَدَّاء !

* * *

وفي ضجيج الاحتفال بمولد «ابن عبد الله» ، لم تنس «قريش» ان تسأل شيخها عبد المطلب : لم عدل عن اسماء آبائه وسمى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول «السهيلي» (١):
« لا يعرف في العرب من تسمي بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم ـ حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه، وأنه يبعث في الحجاز ـ أن يكون ولدا لهم .. وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزدق الشاعر ـ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح .. ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم من الكتاب الاول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان ولد له ذكر أن يسميه محمدا .. »

ونقل البغدادي عن القاضي عياض : (٢)
« وأما محمد ، فان الله تعالى حمى ان يسمى به أحد من العرب ، ولا من غيرهم ، الى أن شاع قبل وجوده وميلاده صلى الله عليه وسلم أن نبيا يبعث اسمه محمد ، قد قرب ابان مولده ، فسمى قوم من العرب ابناءهم محمدا » .

وقال أبو جعفر ، محمد بن حبيب (٣) : وهم ستة لا سابع لهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن حسان الجعفي، ومحمد بن

---

(١) الروض الانف : ١٠٦/١ .
(٢) النويري : ٧٦/١٦ .
(٣) خزانة الادب : ٢٤/٢ .

مسلمة الانصاري ـ ولد بعد الرسول وقبل المبعث ـ ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن خزاعي السلمي » .

* * *

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا في الارض وفي السماء ..

ويعلق « بودلي » علـى تلك الاجابة قائلا : « .. وأيا كـان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمى به ملايين الاطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذي قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين .. » .

❃

الرَّضِيعُ

« ... فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لهـا انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعـا غيري ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبي : والله اني لاكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك ان تفعلي ، عسى الله ان يجعل لنـا فيه بركة ... »

(حليمة السعدية)

أحست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الاهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأمجد غد ، كما انتهت رسالة « عبد الله » منذ أن أودعه جنينا في أحشائهـا ، فأسلمت نفسها من جديد لأشجـان الذكرى ، الى حـد أثَّر في صحتها ، وان لم يفض بها الى التلف أو قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثـرب ، حيث يزوران قبر فقيدهما الغالي ..

وأقبلت الام على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعـاء قريش ، بعيدا عن جو مـكة الخانق ، لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام . ويعلل « بودلي » ذلك بأنه أثر لما أصابها من حزن لموت زوجها ، فدفعت به الى « ثوبية » جارية عمه « أبي لهب » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة ابن عبد المطلب » بلبن ابنها مسروح (١) .

(١) السيرة الحلبية : ١/٨٥ .

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بني سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد بن عبد الله » فزهّدهن فيه يتمه، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف، فلقد مات«عبد الله » في حياة أبيه « عبد المطلب » فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته في مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذي خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشية « بركة أم أيمن » ، وخمسة أجمال أوراك ـ يعني تأكل الاراك ـ وقطعة غنم (١) ، وانها ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ لثروة ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمي القرشي العريق .

وأرهق الحزن « آمنة » ، وهي ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية ، زاهدات في ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفال الأحياء ممن يُرجى منهم الخير الوافر .

وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب أمه العامر بأشجانه ، لولا أن عادت احدى المرضعات تلتمس «محمدا» بعد أن انصرفت عنه أول النهار . تلك كانت « حليمة بنت أبي ذؤيب السعدي » زوجة « الحارث بن عبد العزى : أحد بني سعد بن بكر بن هوازن » .

وكان لهما من الولد ، الذين شرفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبد الله ، وأنيسة ، والشيماء التي كانت تحضن الرضيع الهاشمي مع أمها (٢) ..

ولندع « حليمة » تروي قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو يرويها عنها « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، نقلا عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبي طالب » يقول :

---

(١) رواه ابن سعد عن الواقدي ، ونقله النويري : ٦٧/١٦ .

(٢) الزرقاني : ١٤٦/١ ـ والنويري : ٨١/١٦ .

« كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته ، تُحدِّث انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك في سنة شهباء لم تُبقِ لنا شيئا ، فخرجت على أتان لي قمراء ـ أي عجفاء ـ معنا شارِف لنا ـ أي ناقة مسنة ـ والله ما تبضُّ بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، وما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتابأه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم ؟! وما عسى أن تصنع أمه وجَدُّه ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا ، غيري ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي : والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ..

« قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ...

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملني على أخذه الا أني لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة .

«يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله اني لأرجو ذلك ..

« خرجنا وركبت أتاني وحملت محمدا عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب مـا يقدر عليهـا شيء من حُمُرهم ، حتى ان صواحبي ليقلن لي :

« يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ! اربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهي هي !

« فيقلن : والله ان لها لشأنا ...

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليَّ ، حين قدمنا به معنا ، شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان غيرنا ، قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب !

« فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ... فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته » .

* * *

هكذا نما الرضيع وترعرع في صميم البادية ، بين قبيلة بني سعد وهي من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطق ــ كما يقول بودلي (١) ــ أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا بين أسياد البادية، هؤلاء الذين سيقاتلونه يوما ثم يخضعون له أخيرا ، ويحملون

(١) الرسول : ٢٩ .

اسمه الى بقاع من الارض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك ..

كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشيء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذي شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء ..
على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنا أنها أقامت في دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذي أوحش من بعد رحيله ..
وانتهزت الاحزان المطوية في أعماقها ، فرصة وحدتها الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد بمثله ابان حملها ، وحين كان « محمد » معها ..
ولكن أوان فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هي تشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحي ، وتسلي همها بتمثله اذ يعود فيملأ دنياها أنسا ونورا .

* * *

واستبطأت عودة « حليمة » بفتاها ، ولعلها همت غير مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامي رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به في حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضج ..
واذ أحست « حليمة » اعجاب الأم بصحة الصبي العزيز ، راحت تحدثها عن جو « مكة » ـ وقد كان اذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة ـ و « آمنة » تلقي اليها بعض سمعها ، أن كانت في شغل بمناجاة الحبيب العائد .
هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة :

ـ لو تركتِ بُنَيَّ عندي حتى يغلظ، فاني أخشى عليه وَبَأَ « مكة » ! (١)

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب . كيف خطر لها أن «آمنة» تستطيع أن تفارق للمرة الثانية، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت في استصحاب الصبي ، متوسلة الى والدته بكل ما في امومتها من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمرح في البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الام تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع في جو البادية الطليق ، ثم انثنت الى قلبها تسأله ان كان يطيق بعد الوحيد ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنو والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصبر ، في سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل .

وودعت «آمنة» ولدها للمرة الثانية، وفي قلبها وحشة وشجن..

وانطلقت به « حليمة » راجعة الى مراعي بني سعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها، اذ كانت وقومها «شديدة الحرص على مُكثه فيهم ، لما رأوا من بركته » (٢) .

* * *

لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت «حليمة» من تلقاء نفسها بالصبي المبارك الى أمه ، وهي بادية القلق ..

ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١ .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١ .

ــ ما أقدمك به يا ظئرُ ، وقد كنت حريصة عليه وعلى مُكثه عندك ؟ (١) .

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ــ قد بلغ الله بابني ، وقضيتُ الذي عليَّ ، وتخوفت الاحداث عليه ، فأديته اليك كما تحبين .

ولم يقنع جوابها هذا «آمنة» ، بل لم يذهب بشيء مما خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنبأتها بالخبر :

قالت ــ فيما روي عن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب :

« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر ، مع أخيه ــ من الرضاعة ــ لفي بَهْم لنا خلف بيوتنا ، اذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لي ولابيه :

ــ ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه .

فخرجت أنا وأبوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

ــ مالك يا بني ؟

قال :

ــ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فاضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا شيئا لا أدري ما هو ..

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لي أبوه :

ــ يا حليمة ، لقد خشيت ان يكون الغلام قد أصيب ، فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

فاحتملناه فقدمنا به .. ووالله انا لا نرده الا على جدع أنفنا » (٢) .

* * *

وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها بادرة

---

(١) السيرة لابن هشام : ١/١٧٤ ونهاية الارب للنويري ١٦/٨٤ .

(٢) السيرة لابن هشام : ١/١٧٤ ــ ونهاية الارب : ١٦/٨٤ .

خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فألقت عليها السؤال :

« افتخوفت عليه الشيطان ؟ »

أجابت حليمة من فورها :

ــ نعم ..

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لِبُنَيَّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ »

فهتفت « حليمة » :

« بلى »

هنالك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« .. فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حمله ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وأنه لواضع يديه على الارض رافع رأسه الى السماء .. دعيه عنك وانطلقي راشدة » ..

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شيئا كان قد غاب عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمت ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفرا من نصارى الحبشة رأوا ابني محمدا معي حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوني عنه ، وفحصوه مليا ثم قالوا :

ــ لنأخذنَّ هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا، فان له شأنا نحن أدرى به وأعرف .

فاختطفته منهم ، وقد هاجني ذلك على رده اليك ، وهممت أن أفعل ، لولا أن مضارب بني سعد كانت أقرب اليَّ منك ، فعدوت نحوها ، ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلت به الحمى » .

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتها لطول المدى

واستطردت تقول :

« وأذكر كذلك يوم انطلقت بولدي محمد من مكة لأول مرة ، فمر بي اليهود فسألتهم : ألا تحدثوني عن ابني هذا ؟ وسردت لهم ما لقيت من بركته . فما راعني الا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه . ثم سألوني : أيتيم هو ؟ .. قلت وأنا أشير الى زوجي : لا .. هذا أبوه وأنا أمه . فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه » (١) .

* * *

وأكثر المؤرخين المحدثين ـ من مستشرقين ومسلمين ـ يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الانكار ، فاذا ووجهوا بالذي رواه (٢) « ابن اسحاق » عن بعض أهل العلم ، من أن الرسول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند ، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببني سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر . فبين الروايتين ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ تناقض صريح .

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة انسانية سامية ، وأنه لم يلجأ في اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر في خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها

---

(١) طبقات ابن سعد : ١/٧١ قسم أول ـ ونهاية الارب : ١٦/٨٦

(٢) السيره : ١/١٧٥ : ونهاية الارب للنويري : ١٦/٨٦

تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن عن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأن ليست لهم قلوب يعقلون بها » (١)

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء في نقد المتن ، فالحديث الـذي أورده « ابن اسحاق » مروي عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اســحاق ، « خالد بن معدان الكلاعي» وخالد هذا هو «أبو عبد الله الشامي الحمصي» المتوفى في العقد الأول من القرن الثاني الهجري ، وقد ســاق الحديث مرسلا ، فلم يذكر فيه اسم الصحابي الذي نقله عن الرسول ..

ومعنى هذا أن الحديث خبر واحد ــ وخبر الواحد ، فيما قالوا، لا يفيد علما ولا ظنا ــ كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابي ، مُجَهَّل بقول ابن اسحاق : « عن بعض أهل العلم » .

وهو بهذا كله ، يأتي في مرتبة من أضعف مراتب النقل ، فلا يلزم بشيء ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الروايــة القائلة بأن محمدا بقي في البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليمة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة ..

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال أن الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل ان تشق بطن ويخرج منها عضو ، على ما نشهد كل يوم في جراحات الجسم ..

ولعل الذي يمكن أن يقال هنا في اطمئنان ، هو أن القصة ــ سواء أجريت على لسان الرسول أم على لسان تابعي ــ فهي من قبيل التمثيل الذي يراد به نقاء السريرة وصفاء النفس ، وهذا

---

(١) محمد : ٧٣

قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شيء غير المعنى الحرفي للآية القرآنية : ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك » .

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليمة » قد روت الحادثة بعد الذي رأت من بركـة رضيعها ، فليس بمنـكر عندنا ، ولا مستبعد في عقولنا ، أن تؤمن « حليمة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذي اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين ــ وفيهم الدكتور هيكل ــ من « أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمنت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها في كل ما عندها » .

وكذلك يطمئن « بودلي » الى ما روي من « اعتراف قبيلة بني سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة » .

❋



الفصل السادس

الرَّحِيلُ

١ ـ سفر الى يثرب
٢ ـ الوداع
٣ ـ عودة اليتيم



سفر الى يثرب

لنرمق « آمنة » وهي تحتضن فتاها الوحيد اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه في البادية أقصى أمده ، وعادت به « حليمة » السعدية الى أمه في البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق .

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التي كانت تغشى دنيا « آمنة » في وحدتها وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار .

وقد بذلت الأم لولدها في تلك الفترة ، أقصى ما يستطاع من عناية ورعاية ، أن كان وحيدها ، ومناط أملها ، ومعقد رجائها. ويعترف كتاب السيرة بما كان لها من أثر جليل في هذه المرحلة من عمر نبي الاسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه « آمنة » بنت وهب في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا » .

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » تباشير النضج المبكر ، ورأت فيه « آمنة » عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذي طالما تمثلتـه ، وَوُعِدت به ، في أحلامها ورؤاها ...

اذ ذاك أدركت أن الأوان قد آن ، لكي تؤدي واجبا مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معا الى « يثرب » كي يزورا قبر الحبيب الراقد .

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه في زيارتها

لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف ـ في الوقت نفسه ـ الى أخوال أبيه المقيمين بيثرب ، وكانوا ذوي شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر في « أبي وهب بن عمرو : خال عبد المطلب بن هاشم » :

ولو بأبي وهب أنخت مطيتي
غدت من نداه ، رحلها غير خائبِ

بأبيض من فرعي لؤي بن غالب
اذا حصلت أنسابها في الذوائب

أبي[1] لأخذ الضيم ، يرتاح للندى
توسط جداه فروع الأطايب

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها حين بدأت « آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الاميال المائتين التي تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذي لم تره منذ سنوات سبع .

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون في أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن شوقها الى زيارة يثرب، كان أقوى من أن تغلبه عقبات سفر هو في الحقيقة قطعة من العذاب ..

وشغلت اياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذي مظلة مرفوعة ، تحجب الشمس عن الابن العزيز .

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال في رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ، ضمت

---

(١) طبقات ابن سعد . وانظر الزرقاني : ١٦٣/١ والنويري : ٨٧/١٦

اليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبها الجارية الوفية ، « بركة أم أيمن » (١) .

* * *

وألقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التي جمعتها فترة بعبد الله ، والتي وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيـــد ، ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب في أول أمره بطيئا وئيدا كأنما يعز عليـــه أن يفارق الحمى الامين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم « مكة » خلف الجبال الشم التي تحف بها ، استقبـــل الراحلون طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام في ابانها ، ويعودوا الى حماهم الامين والى الاهـــل والاحباب .

ورفع الحادي عقيرته بالغناء ، يودع الديار التي خلفوها من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل ، اذا هي سارت حثيثا فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجعت أرجاء البيداء صدى الحـــداء الحنون ، فرّقت قلوب الراحلين ، وسرت في أبدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق .

وعطفت « آمنة » على ولدها في حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب !

وساعدها صمت الصحراء ، الا من رجع النغم ، على استرسالها في الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت في الحداء الى نداء شجي يتناهى اليهـــا من بعيد ، فهفا قلبهـــا الى الاليف النائي ، ورنت عيناها الى الافـــق الشمالي ، حيث تراءت لهـــا « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز

قبر ، ويؤوي ثراها الطيب أغلى رفات ..

فاذا جن الليل وصمت الحادي ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت نفسها الى رؤاها تسري بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيي الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

* * *

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التي بدأت تتكشف من وراء جبل « أحد » حيث ينبسط السهل وتطمئن الارض ، ويتموج عشبها الاخضر ، وتتراقص عليها ظلال النخل الباسقات .

وأناخ الركب رواحله في « يثرب » ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها في حمى « بني النجار » ..

* * *

ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أمسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذي مرض فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذي حوى رفاته ، ثم خلت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به الى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم في المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه ، حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهي على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يروي ظمأها ويريح شجوها .

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا . نفست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بني الخال .

وودت « آمنة » لو طال بها المقام في «يثرب» ، ولعلها فكرت — كما يقول بودلي — في أن تبقى بها ، « لولا أن أسرة محمد مكية ومكة هي الموطن ، فلا بد من العودة اليها » .

ولا يدري أحد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الاخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة الى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أفنتها في مناجاة الحبيب الذي توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا آن لها أن تمضي ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقي ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الاخيرة ، وتكلفت الصبر وهي تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة، ثم أسلمت نفسها الى أشجانها، والناقة تمضي بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ..

❁



الوَدَاعُ

واذ هم في بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ـ فيما يقال ـ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد .

ولم يجزع « محمد » أول الامر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست أنه الاجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ..

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ الصبي العزيز يجفف دموعها بيده الحلوة الصغيرة ، مستمرئا لذة الحنان الغامر ، وكاد ينسى في نشوته رهبة الموقف ..

وفجأة .. تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها . فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وأن صوتها يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشرجة هامسة .

هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال انها « نظرت لوجهه وقالت : (١)

بارك فيك الله من غلام
يا ابنَ الذي مِن حومة الحِمام

---

(١) الروض الانف للسهيلي ٠ وانظر في الحاوي للفتاوي : ٢/٢٢٢

نجـــا بعون الملك العـــلام
فودي غداة الضرب بالسهام
بمـــائة من ابـــل ســـوام »

ثم أمسكت تستريح، فلما استردت أنفاسها اللاهثة همست في حشرجة الاحتضار :

« كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنـــا ميتة وذكري باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »

وذاب صوتها في سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا ...

* * *

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقتـــه بعد حين ، صرخـــة صبي مفجوع ، انحنى على جثة أمه في العراء يناديها فلا تلبي نداء ..

والتفت الى «أم أيمن» يسألها عن سر هذه الحياة التي انطفأت، والجسد الذي همد وبرد ، والصوت الذي فني وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن تقول دون أن تعي :

« انه الموت يا بني » !

الموت ؟!

ذاك الذي غال أباه من قبل ؟

ذاك الذي جرع أمه كأس الترمل، فما طاب لها عيش ولا اندمل في قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال ؟!

ذاك الذي يطوي الاعزاء في جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء !

ذاك الذي يمضي بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة في حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة ، ملفعـــة بزرقة كابية خرساء !

ومد بصره المجهد الى الافق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة ربداء !

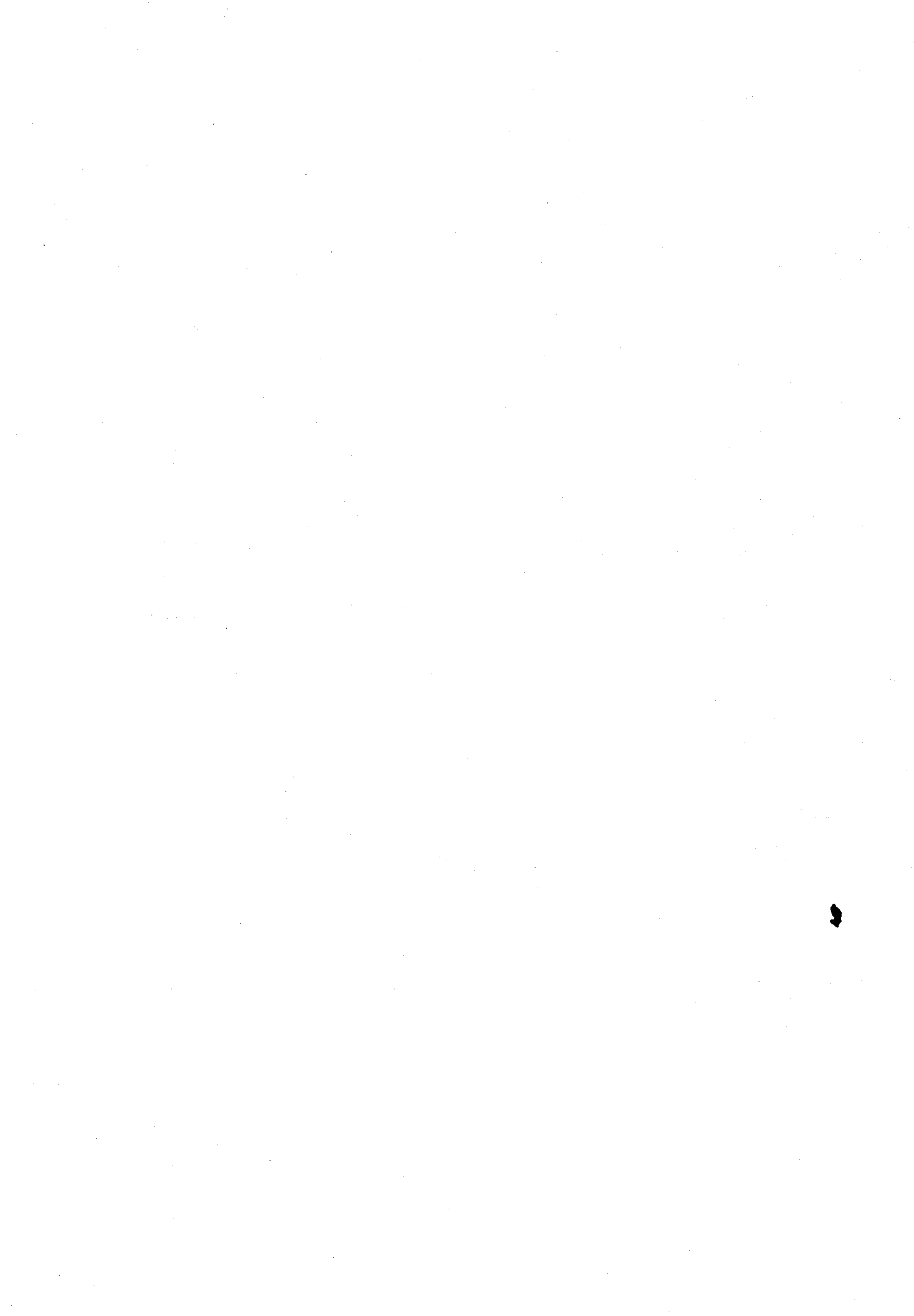
هنالك آب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منها يحدق فيها صامتا خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين ..

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهي تحمل الجثة الى قرية « الابواء » كيما تجهزها لضجعتها الاخيرة ، حتى اذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من اشفاق ورثاء ، وخلوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحوه عنها في رفق ، وأضجعوها في لحدها ..

وهالوا عليها الرمال ..

❋



عودة اليتيم

ووجمت أرباض « مكة » وهي تشهد الصبي الحزين الذي غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادي الغبطة والتهلل والاشراق ، يعود اليها اليوم وحيدا مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشهد الموت في أعز من له ، وبلا المأساة الفادحة التي طالما حدثته أمه عنها ، وهي تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر «مكة» عودة «محمد» هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى « يثرب » في صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو في أثره وتلح في طلبه ..

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبي اليتيم هذه ، يوم يرجع اليها من دار هجرته عام الفتح ، ويدخلها ظافرا منتصرا ليحطم الاصنام التي شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالي ، ثم تتجاوب به آفاق الارض على مر العصور والاجيال ...



الفصل السابع

الخالدة

١ ـ ذكرى باقية

٢ ـ وطيف لا يغيب

٣ ـ وصورة وضاءة عبر الاجيال



ذكرى باقية

« .. ها هنا نزلت بي أمي ...
وفي هذه الدار قبر ابي عبد الله »

(من حديث للرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى دار بني عدي ابن النجار ، بعد الهجرة ..)

الى هنا تنتهي حياة « آمنة » على سطح هذه الارض ، وينصرف عنها التاريخ حينا ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاما فيفسح لها أعز مكان في كتاب الخلود ، أمّاً للنبي البطل ، الذي تركته وحيدا يتيما في بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السماء للرسالة العظمى ، واصطفاه الله ليبعثه بالدين الذي يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الاجناس في مشرق الارض ومغربها .

وقد عاشت « آمنة » أول ما عاشت ، ملء قلب ولدها العظيم ، يخفق لذكراها ويرق لها رقة تثير الشجن ، وتستدر عصي الدمع ..

ولقد تلقاه جده « عبد المطلب » بعد وفاتها ، وضمه اليه مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده ، « فكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا واذا نام في فراشه » .

ذكر « الواقدي » ـ فيما نقله ابن سعد في طبقاته ـ أن عبد المطلب كان يوضع له فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم اجلالا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيهم أعمامه بأن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلا :

ـ دعوا ابني ..
ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده .
وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، « فأحبه حبا شديدا ، فكان لا يفارقه . ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه اذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابني (١) »
وكان لمحمد من حنان « فاطمة بنت أسد بن هاشم : زوج عمه أبي طالب » ثم من حب السيدة « خديجة » ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لا مطمع فيه لمزيد ، لكن شيئا من هذا كله لم ينسه ذكرى يتمه المر ، ولم يمح من خاطره مشهد أمه الغالية وهي تموت بين يديه في الصحراء .
روى (٢) « ابن سعد » في طبقاته ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مر بالأبواء في عمرة الحديبية قال : « ان الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أدركتني رحمتها فبكيت » ..
وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوما وخرجنا معه حتى انتهينا الى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى الى قبر منها فجلس اليه فناجاه طويلا ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكيا فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ان رسول الله أقبل الينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ما الذي أبكاك يا رسول الله فقد أبكانا وأفزعنا؟ فأخذ بيد عمر ثم أومأ الينا فأتيناه فقال: أفزعكم بكائي؟ فقلنا : نعم يا رسول الله . فقال ذلك مرتين أو ثلاثا ثم قال : ان القبر الذي رأيتموني أناجيه ، قبر أمي آمنة بنت وهب ، واني

(١) النهاية لابن الاثير : ١٧١/٣ والسيرة الحلبية : ٢/١
(٢) ٧٧/١ قسم أول ، وانظر نهاية الارب ٨٧/١٦

استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي (١) » .

وهكذا شهدته الدنيا يلتفت أبدا الى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه ، ويرنو اليها بقلبه على تطاول المدى وتنائي الابعاد..

وعرفت « قريش » منه ذاك وهي تعلن الحرب عليه وعلى من آمنوا معه ، حتى ان « هند بنت عتبة » حين مرت بالابواء مع جيش المشركين المتجه الى المدينة ليثأر لقتلى بدر ، لم تر ما تؤذي به بطل الاسلام ، أقسى من نبش قبر أمه « آمنة » ، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك . رووا عن هشام بن عاصم الاسلمي أنه قال :

« (٢) لما خرجت قريش الى النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد فنزلوا بالابواء ، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبي سفيان بن حرب : لو بحثتم قبر آمنة أم محمد فانه بالابواء ، فان أسر أحد منكم افتديتم كل انسان بارب من آرابها !؟ » .

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش ، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ ، فصاحت بالرجل : « لا تفتح علينا هذا الباب » وكأنما روعها تمثل غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء !

وانصرفت قريش عن الابواء دون أن تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذي استودعه الصبي اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من أربعين سنة ، ثم لم ينسها بعد ذلك أبدا ..

ولم تنسه جلائل الاحداث ولا كر الغداة ومر العشي ، ذكريات أيامه الخوالي في حضن أمه الغالية ، ومشاهد رحلته الاولى معها الى يثرب ، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئا منها . فعندما هاجر الى المدينة ، مضى يطوف بالربوع التي شهدته ــ قبل نحو نصف قرن ــ صبيا خالي البال ، ويستعيد ما

(١) صحيح مسلم : ١٠٥/١١ ، ١٠٨ وسنن أبي داود : ٧٥/٢٠ وانظر أخبار مكة للازرقي ــ ص ٤٣٣

(٢) تاريخ مكة للازرقي : ٤٨١ ــ وانظر السيوطي في « الحاوي » ص ٢٣٣ ج ٢

كان له من مواقف هناك . حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى حي بني عدي بن النجار قال : « ها هنا نزلت بي أمي .. وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله » (١)

ونظر الى أطم بني عدي ، فرق قلبه وهو يقول :

« كنت ألعب مع أنيسة ـ جارية من الانصار ـ على هذا الاطم، وكنت مع غلمان من أخوالي . وأحسنت العوم في بئر بني عدي ابن النجار » .

كلا ، لم ينس محمد صلى الله عليه وسلم تلك الايام الخوالي ، كما لم ينس الدار التي شهدت مولده ، وقد أغلقت أبوابها بعد موت أمه ، وتركت خلاء ..

وربما مر بها بين الحين والحين ـ أيام شبابه في مكة ـ فوقف يسائلها عما فعلت بها الأيام، ويتملى مشهد أمه حين كانت هناك..

* * *

حتى هاجر من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد اليها يوم الفتح وعلم ان عقيلا ابن عمه ابي طالب قد أخذ دار مولده ، كره صلى الله عليه وسلم أن يستردها منه ، كما كره للمهاجرين أن يرجعوا في شيء من أموالهم أخذ منهم في الله تعالى، وهجروه لله (٢)

فبقي بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه « محمد ابن يوسف » فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء ، فلم يزل كذلك الى أن حجت «الخيزران» ـ أم الخليفتين موسى وهارون ـ فجعلته مسجدا للصلاة ، وأشرعته في الزقاق الذي يقال له « زقاق المولد » فحدثوا أن أهله كانوا يقولون بعد أن نقلوا منه :

ـ والله ما أصابنا فيه جائحة ولا حاجة ، حتى أخرجنا منه فاشتد الزمان علينا (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى : ١/٧٧ قسم أول • ونهاية الارب : ١٦/٨٧

(٢) أخبار مكة للازرقي : ٤٥٧ •

(٣) النهاية لابن الاثير : ١/١٨٦ ـ والروض الانف للسهيلي : ١/١٠٧ ـ واخبار مكة للازرقي : ٤٤٦

طيف لا يغيب

« اني لاقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » .

(حديث شريف)

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك يصطفى للنبوة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة، ضد الوثنية والشرك والضلال ..

ولقد بقي طيفها الكريم يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكراها تراوحه حيثما ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعمق عواطف البر والرحمة ، وترتفع بالامومة عنده الى المقام الاسنى الذي لا يطاوله مقام ..

ذكرها في مرضعته « ثويبة » مولاة أبي لهب ، فكان صلى الله عليه وسلم يصلها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها ، فلما هاجر الى المدينة ظل يبعث اليها بصلة وكسوة ، الى أن جاءه خبر وفاتها سنة سبع ، عند مرجعه من خيبر ، فلما دخل مكة ظافرا بعد ذلك بعام ، لم ينس في غبطته بالفتح الاكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح؟ فقيل له : مات قبلها، ولم يبق من قرابتها أحد (١)

وكذلك فعل مع «أم أيمن» حاضنته الحبشية التي رافقته وأمه

---

(١) الروض الانف : ٢/٩ - ونهاية الارب : ١٦/٨١

في رحلتهما الى يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالابواء ، فعاش صلى الله عليه وسلم لا يرى « أم أيمن » حتى يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :

« هي أمي بعد أمي » (١) .

* * *

وكان برّه بمرضعته «حليمة السعدية» صدى لما يعمر قلبه الكريم من حب للأمومة في أي صورة من صورها . حدثوا عن «أبي الطفيل » أنه قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور ، اذ أقبلت امرأة دنت الى النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه ، فجلست عليه. فقلت : من هي؟ فقالوا : هذه أمه التي أرضعته»(٢)

وفي العام الثامن للهجرة ، حين انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة الطائف منتصرا ومعه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، وما لا يُدرى ما عدته من الابل والشاء ، أتاه وفد هوازن ـ ممن أسلموا ـ فقال قائلهم :

« يا رسول الله ، انما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك »

ـ وكانت حليمة من بني سعد بن بكر من هوازن ..

فلمست ضراعتهم قلبه الكبير ، واستجاب لمن استشفعوا بالتي أرضعته فقال وطيف أمه يباركه :

ـ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . واذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله ، في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ..

فلما صلى رسول الله بالناس الظهر ، قام رجال هوازن فتكلموا

---

(١) الروض الانف : ٢/٧٩

(٢) رواه أبو داود في سننه : ٤/١١٩

بالذي أمرهم به ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :
ـ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون :
ـ وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..
وقالت الانصار :
ـ وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..
واذا رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل ، مثل تميم وفزارة ، قال :
ـ أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي ، فله بكل انسان ست فرائض من أول غنم أصيبه ..
فردوا الى هوازن أبناءها ونساءها (١) ، لان فيهن حواضن الرسول وعماته وخالاته من الرضاعة ..

* * *

وتمثل صلى الله عليه وسلم أمه « آمنة » في شخص فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، تلك التي رعته أيام صباه في بيت عمه أبي طالب ، وكانت له من بعد أمه أما . ذكر « ابن سعد » في طبقاته ، و « ابن هشام » في السيرة ، و «أبو الفرج الاصبهاني» في مقاتل الطالبيين ، عن ابن عباس أنه قال : (٢)
« لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب ألبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه ، واضطجع معها في قبرها ، فقال له أصحابه : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بها . فقال : انه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرَّ منها . اني انما ألبستها قميصي لتكسى حُلَلَ الجنة ، واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها » .

* * *

وكذلك رأى ملامح من أمه الراحلة ، في زوجه الرءوم خديجة

---

(١) السيرة : ١٣١/٤
(٢) الاصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٨ ، ٩ ط الحلبي وانظر الاستيعاب ، الجزء الثامن

رضي الله عنها، تلك التي سكن اليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره الى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين، لم يستبدل بها سواها ولا ضم اليها زوجة غيرها، ولا نسي لها طول عمره، ما عوضته من حنان الامومة الذي افتقده منذ ودع أمه في الابواء..

* * *

أجل، ذكر محمد صلى الله عليه وسلم أمه في كل هؤلاء، وتمثلها في بناته حين كبرن وصرن أمهات، ورأى صورتها في كل أم تحنو على ولدها، فما عرف عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان ينفعل بمثل تلك العاطفة الغامرة التي كان يجدها أمام مشهد الامومة، حتى لقد عز عليه أن يجد ما يمثل به لاصحابه رحمة الله بعباده، أقوى من حنو الام: حدثوا أن سبيا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة «فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديها، اذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ أجابوا: لا، وهي تقدر ألا تطرحه. فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

وما أرتاب في أنه صلى الله عليه وسلم، كان عامر القلب بذكرى أمه، حين ارتقى بالامومة الى ما فوق البشرية، فوضع الجنة تحت أقدامها وجعل (١) البر بها مقدما على شرف الجهاد في سبيل الله والدار الآخرة، اذ جاءه «معاوية بن جاهمة السلمي» يستأذنه في الخروج للجهاد ابتغاء وجه الله واليوم الآخر، فلما سأله الرسول: أحية امك؟ وقال: نعم، أمره أن يرجع اليها فيبرَّها.

وعاود معاوية استئذانه في الخروج للجهاد، فأعاد الرسول

(١) راجع «تقديم بر الوالدين على الجهاد» في «الجهاد» بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤

سؤاله عن أمه ، ثم أمره أن يرجع اليها فيبرها .

فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يلح في الظفـــر بشرف الجهاد ، كرر الرسول سؤاله : أحية أمك ؟

قال : نعم ..

فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن قال : ويحك ! الزم رجلها فثم الجنة !

وان الانسانية لتصغي اليوم ، وغدا ، الى قول الرسول الكريم :

« اني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » (١) فلا يغيب عنها أن تلمح طيف « آمنة بنت وهب » ملء ذلك القلب الكبير الذي ينبض بأسمى ما تعرف البشرية من عاطفة البر بالامومة وتكريمها ..

وأي مطمح للبشرية اذ تتسامى بالام، واهبة الحياة، وراء الذي يقال من حديث ابن آمنة ، المصطفى بشرا رسولا :

« لو أدركت والدي أو أحدهما وأنا في صلاة العشاء ، وقــد قرأت فاتحة الكتاب ، تنادي : يا محمد ، لاجبتها : لبيك ! » (٢) .

❁

(١) صحيح البخاري : ١٠/٦٥

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان، بسند فيه يس بن معاذ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف. وانظر السيوطي في « الحاوي » ج ٢/٢٣٣



عبر الاجيال

تتباهى بـك العصـور وتسمو
بـك علياء بعدها علياء
فهنيئـا بـه لآمنـة الفضـ
ـل الذي شرفت بـه حواء !

(البردة)

ولقد ثوى الرسول ـ بعد أن أدى رسالته ـ في ثرى « يثرب » كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذي يئوب اليه كل حي : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ولكنه عاش ملء الحياة في حساب الانسانية والتاريخ ، وفي قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذي لم يكد يهتف هتافه الخالد : الله أكبر ، « حتى كان النسر الروماني يترنح ثم يتمرغ في التراب لآخر مرة » واذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من جزيرتهم الا لرحلتي الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر بالاقدام ، ويرثون عروش الاكاسرة وتيجان الفراعين ، ثم يندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمدية أسوار الصين ، وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحل المحيط الاطلسي ليشيدوا لدينهم دولة اسلامية في أسبانيا ، معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا أبواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات السلطان في قلب أوربا المسيحية .

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى أمام عظمة ذلك الانسان الذي ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا : يأكل ويمشي في الاسواق ، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ، ويتزوج ،

ويلد ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادي ، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء ، أو تحس وجودا لاهلها الذين يتنقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية ..

وهذا « كيتاني » الذي ولد وشب في جوار الفاتيكان وحمى القديس بطرس ، يشد رحاله الى بلاد العرب في صدر القرن الرابع عشر الهجري ، لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعي اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ..

وهذا مستشرق آخر ، يمسك قلمه ليتساءل في دهشة وعجب ، عن المعجزة التي جعلت من ابن « آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الابطال كما وصفه « كارليل » ، رغم كونه النبي الاوحد بين أنبياء العالم ، الذي ولد في ضوء التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربي مبين ، يصر على بشريته ، وينحى عنه كل ما حف بابن مريم قبله من قداسة وألوهية .

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعد ، يغدو سلوكه اليومي ـ كما يقول هوجارت ـ سواء في الامور الخطيرة أو الامور التافهة، القانون الذي يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة، ويقلدونه عن يقين وايمان الى أيامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، في أية طائفة من طوائف الجنس البشري ، المثل الكامل للانسان ، **فَقُلِّدَت أفعاله** بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذي وضعته آمنة بنت وهب كما تضع كل أنثى من البشر » في فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر أبيه بيثرب، ثم خلفته وحيدا في الطريق الى مكة !

* * *

ولم تدر « بركة » وهي تودع الجسد الساكن ، تلك الحفرة النائية في صحراء الحجاز ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويغلب الفنـاء ، ولا أحست وهي تبكي سيدتها في ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة آمنة ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيل اليهم أن الجن تنوح عليها منشدة (١) :

نبكي الفتـاة البرة الأمينه
ذات الجمـال ، العفة الرزينه
زوجـة عبد الله والقرينه
أم نبي الله ذي السـكينه
لو فـوديت لفوديت ثمينـه
وللمنـايا شـفرة سنينه
لا تبقين ظاعنـا ولا ظعينـه
الا أتـت ، وقطّعت وتيـنه

ولم يقدر أحد ممن شهدوا رقدتها في مضجعها الاخير بالابواء، أن سوف يأتي حين من الدهر تبعث فيه الراقدة ، ثم لا يموت لها ذكر من بعد ذلك أبدا ، بل تظل صورتها تتنقل عبر الاجيـال باهرة السناء والبهاء ، ويظل اسمها خالدا عـلى مر العصور والادهار ، يحف به جلال أمومتها العظمى التي لبثت ـ وسوف تلبث أبدا ـ تستثير أنبل ما في وجدان المؤمنين من انفعال ، وتلهم شعراءهم روائع القصيدة ، وهذه الدنيا تصغي في الليلة المباركة من ربيع كل عام هجري ، الى هتاف المحتفلين بذكرى الساعـة الغراء التي قامت فيها « آمنة » عن ولدها سيد البشر :

كيف ترقى رقيـك الأنبيـاء
يا سماءً ما طاولتها سماءُ

---

(١) رواه السهيلي في الروض الانف ، ونقله السيوطي في الحاوي للفتاوي : ٢٢٢

لم يساووك في علاك وقد حا
ل سنى منكَ دونهم وسناء
انما مثلوا صفاتك للنا
س كما مثل النجومَ الماء
تتباهى بك العصور وتسمو
بك علياء بعدها علياء
فهنيئا به لآمنة الفضـ
ـل الذي شرفت به حواء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب
من فخار ما لم تنله النساء

* * *

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، ووالدة النبي المبعوث بآخر رسالات السماء ..

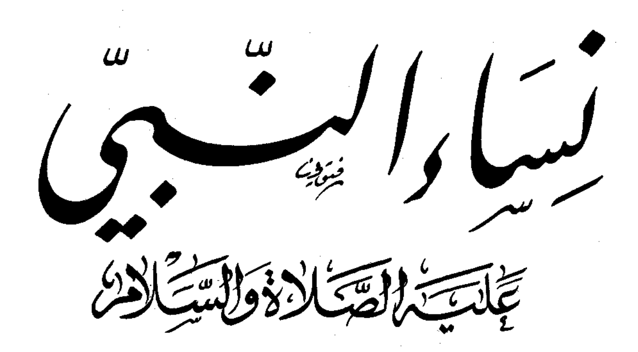


الكتاب الثاني

نساء النبي

عليه الصلاة والسلام




نساء النبي
عليه الصلاة والسلام



مقدّمة

هذا حديث عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم في بيته ، أعرضه في صور متتابعة للسيدات اللواتي أظلهن هذا البيت ، وكان لكل منها أثرها في حياة زوجهن الرسول ، ومكانها في تاريخ البطل الذي قاد أروع معركة عرفتها الدنيا منذ كانت .

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث ، حتى قرأت ما في مكتبتنا من مؤلفات تناولت هذا الجانب من حياة الرسول وحياة زوجاته ، مبتدئة بالقرآن الكريم ، وكتب السيرة ، والتفسير ، والحديث ، ثم التراجم والتاريخ ، وضممت اليها ما استطعت الوصول اليه مما كتبه المستشرقون عن « محمد والاسلام » في الانجليزية ، والالمانية ، والفرنسية ، وانه لكثير .

على اني حين بدأت أكتب ، خليت هذا الحشد من المؤلفات الى جانبي أرجع اليه كلما دعت حاجة أو ضرورة ، وتركت قلمي يصور حياة أمهات المؤمنين في بيت النبي ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذي قرأت .

وأعترف بأني شعرت بتهيب ورهبة حين فرغت من القراءة ، حتى لقد هممت بأن أعود فأحجم عن الكتابة في هذا الموضوع ، وذلك لما ملأني من احساس بجلاله ودقته من ناحية ، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية اخرى :

فهؤلاء السيدات اللواتي عشن في بيت النبي ، ينزعن جميعا الى حواء ، وقد جئن الى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء ، وتزوجن من بشر يتلقى الوحي من أعلى ، ويبلغ رسالة الاله ، فأنّى لقلم

أن يصور حياة كهذه ، تموج فيها أهواء البشرية في فيض من النور الأسنى ، وتتجاذب فيها الأنوثة — التي نعرف رقتها وضعفها — ورهافة وجدانها — تيارات بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها الى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى الى السماوات العلا ، وتتعادل من هذا بشرية سماوية ، وسماوية انسانية !

غير أني عدت فرأيتها حياة حافلة مثيرة ، تغري بالدرس والتأمل ، وتجربة نادرة فذة ليس من السهل أن أنصرف عنها بعد ان اتجهت اليها .

* * *

واذ صح مني العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، فما كانت هذه الكثرة لتحول دون تناول جديد له ، وبخاصة اذا ذكرت أن أغلب الذين كتبوا قبلي عن حياة النبي في بيته ، مال بهم الهوى عن الحق ، فمنهم من زين له الايمان والاجلال أن ينزه الرسول عن بشريته التي أصر القرآن عليها ، وأكثر — صلى الله عليه وسلم — من تقريرها والاعتراف بها ، ومنهم من أضله التعصب وأعماه الحقد ، فجعل من هذا الجانب في حياة نبينا العظيم ، ما يشفي غله وينفس عن حقده .

ومن هنا بقي في الموضوع مجال لتناول جديد ، يتمثل حياة نساء النبي في البيت الكريم على هَدْي الفطرة ، وبايحاء البيئة واملاء التاريخ ، وفي نزاهة متزنة ، ودراسة محققة .

وسيرى القارىء أني اقتصرت في هذا الكتاب على الزوجات اللائي شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن « مارية المصرية » التي كان لها الى جانب حظوتها عند الرسول وشرف أمومتها لابنه ابراهيم ، اثر واضح في الحياة الخاصة لمحمد صلى الله عليه وسلم . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائي تزوجن الرسول ولم يدخل بهن، وقد اختلفت الروايات في عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع الى الجزء الرابع من السيرة لابن هشام (طبع الحلبي) والجزء الثالث من

تاريخ الطبري (طبع الحسينية) والجزء الثاني من الروض الأنف للسهيلي (طبع الجمالية) والجزء الثامن من الاصابة (طبع الشرفية) والسمط الثمين (طبع حلب).

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للرسول، ولا عن «ريحانة بنت عمرو» التي اصطفاها الرسول لنفسه من نساء بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة، وعرض عليها أن يتزوجها، فقالت: (١)

«بل تتركني في مِلكك، فهو أخف عليّ وعليك» فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي عنها وهي في مِلْكه (٢).

ولست أجهل أنه قد كان لهذه السيدة المصطفاة، ولغيرها من الواهبات أنفسن للرسول، أثر في حياته صلى الله عليه وسلم، العاطفية والزوجية، غير ان التاريخ المروي، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر، ولا عرف لهن مكانا في بيته، ومن ثم جاز لي أن أدعهن كي أفرغ للحديث عن أولئك اللائي دخلن في حياته صلى الله عليه وسلم، مركزة جهدي في تصوير شخصياتهن كما بدت في بيت النبي، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن اليه الا على سبيل التمهيد، ولم أتتبع حياتهن بعد الرسول الا أن تكون اشارة موجزة يدعو اليها المقام.

ذلك لأني لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبي جمعا لمًّا، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدي المألوف في تراجم الأشخاص، وانما عناني تمثل حياة كل منهن في بيت الرسول ومكانها منه، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجة وأنثى، ولا على القارىء بعد هذا أن يلتمس هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخي لسنة وفاتها، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها بعد زوجها، بل فليلتمسه في غير هذا الكتاب اذا شاء، وحسبه

(١) السيرة لابن هشام: ٢٥٦/٢ ط الحلبي ـ والسمط الثمين للمحب الطبري ص ١٤٦ ط حلب
(٢) تاريخ الطبري: ٥٩/٣ ط مصر

مني أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة ، ما يضيء تاريخها كله الاضاءة الكبرى .

وأود بعد هذا أن يطمئن القارىء الى انه ما من خبــر سيق في هــذا الكتاب ، الا أُخِـذ من مصادره الاصلية ، ونقل منها نقلا أمينا ، ثم كان لي وراء ذلك منهجي في التناول وأسـلوبي في الأداء ، ولعلــي أكون قد وفقت فيهما الى شيء مما حاولت من النظرة الواسعة الأفق ، والصراحة الصادقة التي تدرك جلال الموضوع ، وتقدر حرمة الكلمة وأمانة القلم.

بنت الشاطئ

مصر الجديدة

من الامناء

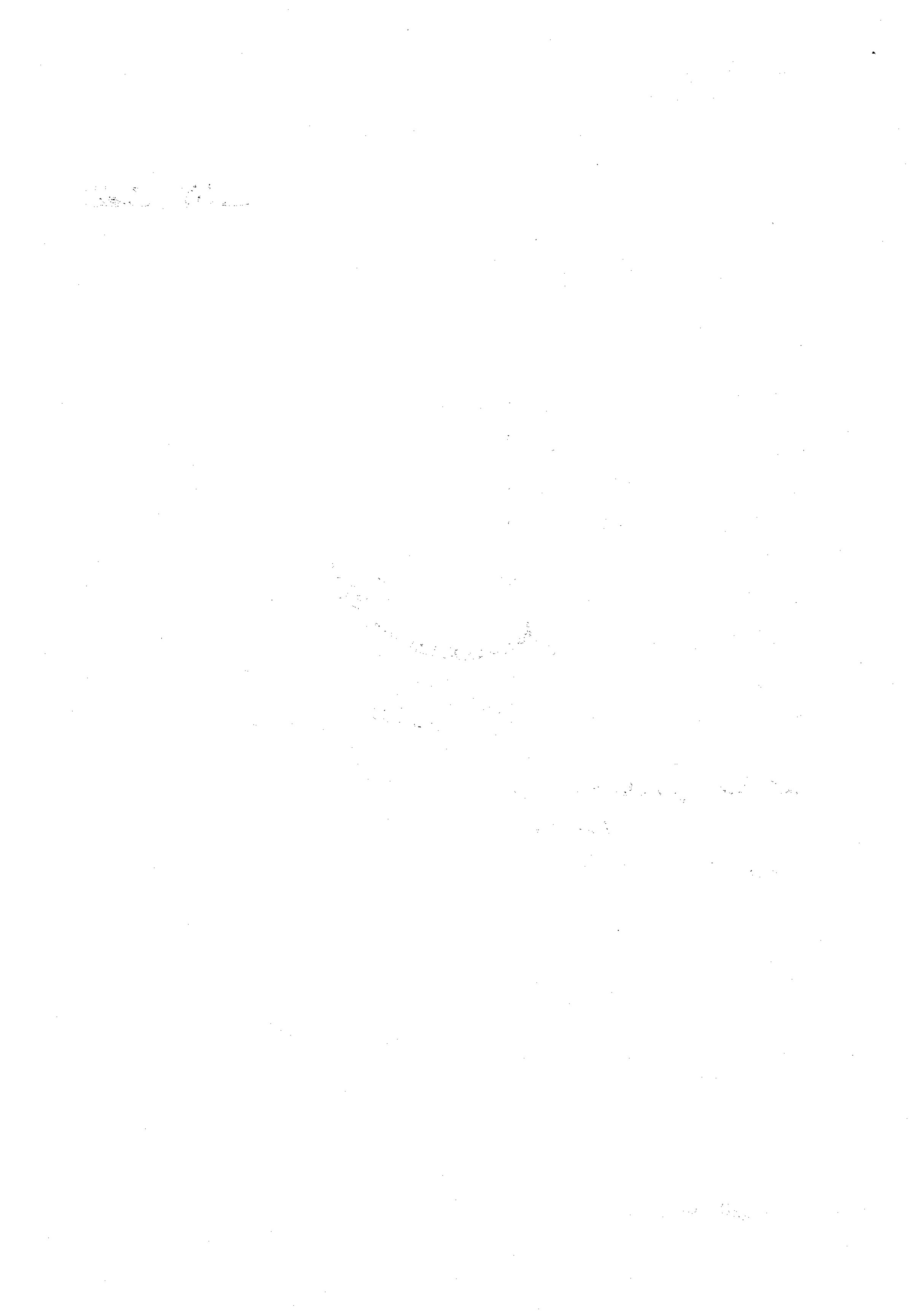
❁

الفصل الاول



« قل : سبحان ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا »

قرآن كريم



محمد الزوج

الحديث عن « نساء النبي » في بيته ، لا بد أن يسبقه حديث عن البيت الذي هو البيئة المكانية لحياتهن . والواقع أنه لم يكن بيتا واحدا ، بل بيتين : أولهما في « مكة » حيث عاش « محمد » صلى الله عليه وسلم ، مع زوجته الأولى وحدها ، وحيث أنجب ، وواجه التحول الأعظم في حياته وفي حياة العرب والانسانية جميعا . وقد وصفتُ هذا البيت في كتابي عن « بنات النبي » (١) ومن ثم أعفي نفسي وأعفي قرائي من التزيد بتكرار ذلك الوصف . أما البيت الثاني في « المدينة » حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضي الله عنها ، فيجد القراء وصفه موجزا في الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضي الله عنها في هذا الكتاب ، اذ كانت أولى الزوجات مكانا فيه ، ومن بعدها جاءت نساء النبي تباعا ، وصار لزواج الرسول معنى اجتماعي وسياسي وتشريعي لم يُلحظ في البيت الأول الذي دخله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شابا في الخامسة والعشرين من عمره ، لم يُبعث بعدُ برسالة ، ولم يتلق وحي السماء .

* * *

وكذلك ينبغي أن يسبق الحديثَ عن نساء النبي في بيته ، حديثٌ عن ربِّ هذا البيت الذي أظلهن .

وأحسب أن ليس من بين القراء من ينتظر مني هنا تتبعا لسيرة الرسول أو عرضا لتاريخ حياته المجيدة الحافلة، وانما أقف من هذا كله عند جانب بعينه لا أريد أن أتجاوزه الى سواه ، ذلك هو محمد الزوج ، أو الرجل الانسان الذي أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعتهن دنياه

(١) ظهرت منه طبعتان : الاولى في كتاب الهلال ـ والثانية من الشركة العربية للنشر والتوزيع سنة ١٩٥٩

الخاصة ، وكان لهن حظ المشاركة في حياته الوجدانية ثم في حياته العملية
والفصل بين شخصية محمد زوجا رجلا، وشخصيته نبيا رسولا، جِدّ عسير ، وليس الأمر كذلك في حياة نبي آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعا آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم » (١) ، ذلك لأن الرسالة المحمدية قد أصرت على تقرير بشرية محمد عليه الصلاة والسلام ، اصرارا لا نعرف له مثيلا في الديانات الأخرى التي تحتفظ لرسلها بعناصر غير بشرية ، وبخاصة « عيسى » عليه السلام : كلمة الله التي ألقاها الى مريم فجاءت به ولم يمسسها بشر .

كذلك لم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ، ولا جردته من وجدانهم ، ولا عصمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة من وجوب الصدق والأمانة . فهو كما قال جل جلاله : « قل انما أنا بشر مثلكم » (٢) : يسكن الى زوجة ، ويشغل بالأبناء ، ويعاني مثل الذي يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجري عليه ما يجري على كل آدمي من تعب ويتم وثكل ، ومرض وموت :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » (٣)

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حرّ الثكل في بنيه وفداحة المصاب في خديجة ، ومحنة الافك في عائشة، ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد خصومه ونفاق المتخاذلين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

« قل : لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٩ ، والنحل آية ٤٣
(٢) سورة الكهف ١١١ ، وفصلت آية ٦
(٣) من آية ١٤٤ سورة آل **عمران**

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (١) .

ويا له من تكريم للبشرية ، أن ينتمي اليها نبي يحمل رسالة السماء ، ومن قبل كرمها الله ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، أبي البشر !

* * *

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر ! وكيف وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا ، ليبعثه بآخر رسالات السماء ؟

كيف وقد كان هو الذي تلقى كتاب الله ليتلوه في الناس مبشرا ونذيرا ؟

انه بشر رسول ، وهذا هو موضع الدقة والعسر في الحديث عن « الرجل » في حياته العاطفية والزوجية ، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد ، أنه قد كان النبي المصطفى ، وأن كلمة الاسلام الأولى هي الشهادة بأن لا اله الا الله ، وأن محمدا نبيه ورسوله .

ويزيد في دقة الأمر وعسره ، أن نرى الشخصيتين مندمجتين في الرسول غير منفصلتين ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل أي رجل من البشر ، وانما كان — عليه الصلاة والسلام — يتلقى من حين الى حين أوامر ربه في أخص الشئون الزوجية ، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوي صريح :

فمحنة الافك مثلا ، لم يحسمها الا نزول الوحي ببراءة « عائشة » مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة .

وزواج الرسول من « زينب بنت جحش » ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذي كره لمحمد أن يخفي في نفسه ما الله مبديه ، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

وطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم لزوجته السيدة حفصة ، أشفقت

---

(١) آية ١٨٧ من سورة الاعراف .

منه السماء على أبيها « عمر » رضي الله عنه ، فنزل أمين الوحي على النبي بأمر الله أن يراجع حفصة رحمة بعمر .

وضيق نساء النبي بما فرض عليهن من حياة خشنة ، لم يضع حدا له الا قوله تعالى في سورة الأحزاب :

« يا أيها النبي قل لأزواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (١) .

وسلوك نسائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يخضع لرقابة مباشرة من السماء ، على نحو غير مألوف في حياة غيرهن ، والله تعالى يقول :

« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقَرْن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » (٢)

وبعض هذا يكفي لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبي .

* * *

فأي رجل كان نبيّ الاسلام ؟

وأي زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، اختلفت أجناسهن وألوانهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن ؟

قد نستطيع ـ بشيء من الجهد ـ أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، في الشاب الهاشمي الذي صحب عميه : أبا طالب ، وحمزة ، الى دار خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها في العام الخامس عشر قبل المبعث ..

لقد كان اذ ذاك بشرا غير رسول ، وان يكن المهيأ ليبعث بالرسالة ..

---

(١) آيتا ٢٨ ، ٢٩ من سورة الاحزاب
(٢) الآيات من ٣٢ : ٣٤ من سورة الاحزاب

كان شابا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ، أبوه « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، الذي وعت « مكة » قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه (١) ، وهي قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول « اسماعيل ابن ابراهيم » جد العرب .

وأمه « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة » أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا (٢) .

وقد أمضى أعوامه الأولى في بادية بني سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص في شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان (٣) . كما أكسبته حياته الكادحة اليتيمة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسئولية ، وجاءت الرحلة الى الشام فوسعت من أفقه وزادته خبرة بالدنيا والناس ، فكان ــ في ابان شبابه ــ الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح في شخصيته آثار البادية ، وفي سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم : مثابة الحجاج ، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجاري بين الأطراف المتحضرة في الجزيرة ، كما تلمح في عقله تجارب الرحلة والسفر ، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين .

هكذا كان « محمد » حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جده واستقامته ، وصدقه وعفته ، فمهد هذا كله سبيله الى قلبها الذي كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا ، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها : شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالي العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين

---

(١) ابن هشام ١/١٦٠ : ١٦٣ ــ وانظر معه كتابنا « أم النبي » ــ ص ٨٨ ــ ٩٢ ــ من هذه الطبعة .

(٢) ابن هشام : السيرة ١/١٦٥

(٣) لم يفتني هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة السنتهم قبل اختلاطهم بالشعوب التي اخضعوها بعد الاسلام ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس الى بيئة مكة التي عرفت الاختلاط قبل الاسلام ، بحكم مركزها الديني والتجاري فاليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام

والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المثلجة البيضاء اذا تكلم أو ابتسم (١) .

وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه الى الأمام ، ويحسن الاصغاء ملتفتا الى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فاذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين، من أثر الغضب (٢) .

ولم تكن السيدة خديجة اذ ذاك بالفتاة الغريرة ، بل كانت السيدة الناضجة المجربة التي بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون في مالها الى الشام ، وان في اعجاب مثلها « بمحمد » وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت في شخصيته الآسرة اللافتة ، ما لم تجده في أي رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها ، ولسنا بحاجة الى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالي ، لا النبي المنتظر .

وقد عاشرته هذه السيدة الناضجة المجربة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث ، وانها لأعوام طويلة تكفي لأن تكشف عن جوهر هذا الزوج وتبدي من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس ، وليس كالحياة الزوجية ما يمتحن الرجل أدق امتحان ويزنه أصدق ميزان وأضبطه ، ومن ثم كان ايمان السيدة خديجة برجلها ، وتصديقها لرسالته دون أن يساورها أدنى ريب في الزوج الذي اختارته شابا ، وأحبته وعاشرته زوجا ، وعرفته رجلا ، آية على عظمة ذلك الانسان ، فهي لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحي الأول ، حتى هتفت في حرارة ولهفة ويقين :

« ... ووالله ما يخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (٣)

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/١٨٥ ــ وانظر معه الروض الانف للسهيلي ج ١

(٢) هكذا وصفه الامام علي كرم الله وجهه فيما نقل الرواة . راجع الجزء الاول من «الروض الانف» للسهيلي ــ وتاريخ الطبري : ٣/١٨٥ ، ١٨٦

(٣) الاصابة لابن حجر : ج ٨ ــ والسمط الثمين للمحب الطبري : ١٩

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت ، وان فيها لما يجلو لنا ملامح من شخصية محمد الرجل السيد ، قبل أن يبعث نبيا رسولا . وقد يؤيدها ما تناقل الرواة من وصف « علي بن أبي طالب » ـ كرم الله وجهه ـ لابن عمه الذي عاش معه طويلا في بيت أبي طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج من السيدة خديجة :

« ... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه .. » (١)

* * *

وفي الاستيعاب (٢) ، حديث لأم معبد الخزاعية ، تقول فيه وصفا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد رأته قبل أن تعرفه :

« رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق.. وسيم قسيم، في عينيه دعج ، وفي صوته صحل ، وفي لحيته كثاثة، ان صمت فعليه الوقار وان تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ... له رفقاء يحفون به، ان قال أنصتوا لقوله، وان أمر تبادروا الى أمره » .

والسيدة « خديجة » تنفرد من بين نساء النبي جميعا بأنها وحدها التي عرفته رجلا وزوجا قبل أن تحف به أضواء النبوة ، ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتهما الزوجية نلتمس فيها شخصية الرجل الزوج ، فاذا تركناها الى الزوجات الأخريات اللواتي جئن بيت النبي بعدها ، شق علينا تمثل حياتهن هناك ، فما من امرأة منهن دخلت حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، الا رأت فيه الزوج والنبي معا ، وعرفت فيه الرجل والرسول مجتمعين .

---

(١) وانظر معه حديث انس بن مالك عن شجاعة الرسول وجوده ، في تاريخ الطبري ٣/١٨٦ ، ١٨٧

(٢) جـ ٤ ط نهضة مصر

والذي نطمئن اليه ، هو أن الزوجة منهن كانت تأتي بيت الرسـول معتزة بشرف الزواج من النبي المصطفى ، والسيد الزعيم ، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من هناك من زوجات يشاركنها في رجلها ، حتى ترى فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزوج قبل الرسول . ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التي تحتدم حتى تجاوز المدى ، وما يكون شيء من هذا في حياة نساء يرين في زوجهن نبيا فحسب !

وحياة « محمد صلى الله عليه وسلم » في بيته ، تبدو رائعة في بشريتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين زوجاته رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان (١) ، ولم يحاول ـ الا في حالات الضرورة القصوى ـ أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيروعنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني ، ولا الجمود العاطفي ، وما ذاك الا لأنه صلى الله عليه وسلم كان سوِيَّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف .

وتاريخ الاسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات ، بأنهن كن دائما في حياة الرسول البطل ، يصحبنه [illegible]ين يخرج في معاركه ، ويتحن له ما يرضي بشريته ، ويغذي قلبه ، ويمتع وجدانه ، ويجدد نشاطه ، فكان له من ذلك كله [illegible] أعانه على حمل العبء الباهظ ، واحتمال ما لقي في سبيل دعوته الخ[illegible] من فادح المتاعب والأهوال .

* * *

وقد عاش رسول الله ما عاش ، فتيَّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين ، حيَّ الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه في حجر أحب نسائه اليه وأحظاهن عنده ...

فليغفر الله لمن حملهم ايمانهم على أن يجحـدوا آية الله العظـمى في ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

---

(١) في كتاب السمط الثمين للمحب الطبري ، حديث طويل عن رعايته صلى الله عليه وسلم لزوجاته ، وسمره معهن ، وصبره عليهن : ص ٨ : ١١

وليغفر الله لمن زعموا أن نبيه لم يخفق قلبه بحب « عائشة » ، ولا أحس ميلا نحو « زينب بنت جحش » ، ولا كان لعاطفته دخل في زواجه من نسائه ! ..

ويأبى الله ورسوله ، وتأبى هذه الفطرة السوية التي عرفتها الانسانية في « محمد » واعتزت بها ، ويأبى التاريخ الذي وعى من أنبـاء الحياة الزوجية للرسول ، ما ينفي عنها الجفاف والجمود .

❁

تعدد الزوجات وحياة الضرائر

ولا بد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين في حياة النبي مع نسائه ، وأعني بهما تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر .

وقد قال المستشرقون في أولاهما ما قالوا ، ولم يروا في هذا الجمع بين عدد من النساء ، تحت رجل واحد ، سوى مظهر شهوة مسرفة . وانه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى الأعشى ، وانحراف عن المنهج العلمي الذي يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة « محمد » آباد وأبعاد ..

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعي أن نظام الزوجة الواحدة ، يتبع في دقة وينفذ نصا وروحا ، ومع هذا يأتي بعض أبنائه فينكرون في جرأة أن يجمع محمد ـ صلعم ـ بين عدد من الزوجات منذ نحو أربعة عشر قرنا ، في بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التي لا تعرف سواه الا في حالات قليلة ولدواع خاصة . ولم يكن هذا النظام اختياريا ، وانما قضت به طبيعة الزمان والمكان ، في اقليم صحراوي أدنى الى البداوة ، وفي زمان يسوده نظام القبيلة ، والبنون فيه زينة الحياة ، وفخر المرأة الانجاب ، وفخر الرجال الولد وعزة النفر .

وربما بدا لنا اليوم أن ذاك التعدد كان مظهراً من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم ـ وأنه قصد الى ارضاء الرجال ، ولكنه في الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا ، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد ، وهو هذا الرق العصري الذي يعترف بزوجة واحدة ، ويدع لغيرها ـ ممن يعاشرهن الزوج ـ الضياع والهوان ..

والمرأة الخاسرة هي التي تدفع الثمن باهظا ، ويدفعه كذلك مجتمع تعس ، وانسانية شقية بلقطاء مضيعين ، وصغار منبوذين ، لم يكن

يعرفهم المجتمع العربي الذي كان يستكثر من الأولاد ، ولو عن طريق التبني والاستلحاق ، بحكم سيادة الرجل واعتزازه بكثرة النفر .

* * *

وفي مسألة التعدد ، جانب دقيق غفل عنه كثيرون .. ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى ـ راضية ـ أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل ، على أن يكون لها غيره كاملا .

وليس معنى هذا أن نساء النبي كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضي أن تستريح احداهن الى هذه المشاركة في الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن « محمدا » كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال ، الذي تؤثر الزوجة أن يكون لها أي مكان في بيته ، على أن تكون لها ـ مع غيره ـ مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة .

وليس من بين زوجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دخلت بيته وفي حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية الى حد يسهل علينا تصوره ، لو ذكرنا أن « خولة بنت حكيم » اقترحت على الرسول أن يخطب عائشة بنت أبي بكر وسودة بنت زمعة في وقت واحد (١) ، وان « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث » هي التي (٢) عرضت أن تتزوج الرسول وفي بيته عشر نساء : ثماني زوجات واثنتان ملك يمينه ، وأن عمر بن الخطاب(٣) عرض ابنته حفصة على أبي بكر، وعنده «أم رومان» حماة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن علي بن أبي طالب همَّ بأن يتزوج على « فاطمة الزهراء ، بنت النبي » وأن أبا بكر وعمر ، صهري الرسول رغبا في الزواج من « أم سلمة بنت أبي أمية » حين مات عنها زوجها ، وفي بيت كل منهما أكثر من زوجة .

* * *

ولو خُيِّرَت زوجات النبي بين حياتهن تلك المشتركة في بيت واحد ،

---

(١) ابن هشام : السيرة : ٣٥٢/١ وتاريخ الطبري ، الجزء الثالث .
(٢) المصدر نفسه : ٢٩٦/٤ ، وتاريخ الطبري ، الجزء الثالث .
(٣) السمط الثمين : ٨٣ .

ومع زوج واحد ، وبين حياة أخرى منفردة ، في غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا ..

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب رجلها . وقد شهد بيت الرسول من غيرة نسائه المحتدمة، ما يخيل الينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر، وان لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به .

* * *

وما من شك في أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التي كانت تدفع اليه قسرا ودون اختيار ، وما تزال الانسانية تصغي حتى اليوم ، وغد وبعده، الى كلمته في زوجته « عائشة » حين لجت بها غيرتها العارمة :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وترى فيها آية على سلامة الفطرة ، وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء . وقد كانت نساؤه يعرفن هذا في زوجهن الرسول ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لزوجات نبي من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى في ضعف البشرية اثما لا يغتفر ، أو يجد في فطرة حواء ما يدعو الى الازدراء .

ويحضرني الآن حديث لعمر بن الخطاب ، أستجلي فيه ملامح الزوج الرسول وضاءة مشرقة ، وأراه صادق الدلالة على شخصية محمد الرجل الانسان . قال رضي الله عنه :

« والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا في أمر أئتمره اذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : وما لك أنت ولما ها هنا ، وما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي :

ـ عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

« فأخذت ردائي ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فقالت : « انا والله لنراجعه ! »

« ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها، فكلمتها، فقالت لي: « عجبا لك يا ابن الخطاب ! .. قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ؟ » .

« فأخذتني أخذا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد » (١) .

ذلك أن عمر والصحابة رضي الله عنهم ، كانوا يرون في «محمد» النبي المصطفى ، أما نساؤه فكن يرين فيه الزوج الرسول ، وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ راض بهذا ، مقر" له ، غير ضجر به ولا كاره ..

* * *

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبي من خصام وخلاف ، والحق أنه صلى الله عليه وسلم ما ضاق بهذا الا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين .

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التي اضطر فيها الرسول الى أخذ نسائه بالشدة والعنف ، لم يكره محمد صلى الله عليه وسلم أن يقف في ساعات فراغه من معركته الكبرى ضد الوثنية ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ، ولعله كان مما يرضي الرجل فيه أن يغار مثلُهن على مثله، وأن تتنافس زوجاته على الظفر بحبه ورضاه الى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج . وما حاول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ، ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة في الاستئثار بالزوج الحبيب ، وما كان أحلمه صلى الله عليه وسلم ، وأرق وجدانه ، وألطف

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ١٨٣ ط حلب .

مزاجه ، حين سمع قصة (١) ائتمار نسائه بعروس له أشفقن من جمالها، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبي ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها الرسول قبل أن يدخل بها ، وقال عن نسائه :
« انهن صواحب يوسف ، وان كيدهن عظيم ! »

* * *

وهذه صورة من حياة زوجاته رضي الله عنهن ، أرجو أن يرى فيها القارىء شخصية هذا الرجل الفذ الذي آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن في حياته قائدا وزعيما .

❋

(١) القصة منقولة بشيء من التفصيل ، في ص ٢٧٠ .

الفصل الثاني

خديجة بنت خويلد

أم العيال وربة البيت

« .. والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني النـــاس ، ورزقني منهـا الله الولد دون غيرها من النساء »

محمد رسول الله



ذكرى أليمة

أينع صباه واكتمل شبابه ، في بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات ، لكنه كان يجد طعم الحيـاة في مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة .

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده، وترده الى لحظة طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما ، وما يزال يذكر موقفه في بقعة موحشة من الصحراء بين « مكة ويثرب » ، أمام أمه « آمنة » والحياة تتسرب من كيانهـا رويدا ، ثم تنطفىء الى الأبد ...

ثمانية عشر عاما ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى (١) له عبر السنين ، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التي ألقوا فيها جثمان الغالية « بالأبواء » ، ضائع الحيلة مهيض الجناح، لا يملك أن يستبقي أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام ، بعد أن هالوا عليها الرمال .

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه ، وصرفته دواعي الحياة فترة عن تمثُّل ذاك الموت الذي غال أعز مَن له ، أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن يُنتزَع من حاضره مستثار الحزن ، فاذا قلبه يخفق بين جوانحه شعورا بعالم بعيد ، في طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية في جوف الصحراء ، ثم ينثني مثقلا بالأسى والشجن .

وما أكثر ما كان يمر في مكة بالبيت المهجور الذي ضمه وأمه زمنا ، ثم أوحش من بعدها وأظلم !

ما أكثر ما كان ينطلق الى المراعي خارج مكة ، فاذا حان المساء وآن له أن يئوب الى منزله ، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٧٧ ط الحلبي .

عائدا من رحلته الأولى الى يثرب ، وحيدا محزونا ، مضعضع الحواس ، مضاعف اليتم ، يتبع جاريته « بركة » واني الخطو صامتا واجما ، وهي تسعى به الى بيت جده الشيخ « عبد المطلب » .

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التي تروع صباه .

كم جاهد ــ مدى عامين كاملين (١) ــ ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامي في قلب حفيده الصغير العزيز !

لكن الزائر المرهوب الذي ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه ، عاد من جديد فطوف بحي بني هاشم ، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب ، وينذر بالرحيل .

ووقف الغلام مرة ثانية ، يرقب الحياة وهي تنطفىء فيمن كان له أبا بعد أبيه .

وأصغى في حزن ذاهل الى صوت الشيخ المحتضر ، وهو يدعو اليه ولده « أبا طالب » فيوصيه بمحمد ، ابن أخيه « عبد الله » .

ثم يمضي ...

وانتقل الصبي من بعده الى منزل جديد ، وألفى لدى عمه أبا ثالثا ، لكنه ظل يفتقد الأم .

وبقي قلبه على الأيام والشهور والسنين ، ينزع نحو مرقدها الأخير في « الأبواء » .

ولم يستطع ضجيج صبية بني هاشم في ملاعب حداثتهم ، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التي صكت أذنيه وقلبه في جوف البيداء

ولا استطاعت مشاهدة الحياة الزاخرة الحافلة حول «البيت العتيق» في « أم القرى » أن تطوي في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها .

* * *

وهذا هو يقف في المساء الساجي عند أطراف الصحراء شارد البال ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٧٨ .

والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمت العميق شجنا واعياء .

واذ تتكاثف الظلمة من حوله ، يجمع نفسه في جهد ، ويأخذ طريقه الى منزل عمه ، وفي نفسه احساس غامر بفراق وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذي أواه سبعة عشر عاما ، وحسب العم ما يحمل من أعباء بنيه الكثار ..

ولكن الى أين ؟ ..

الى « الشام » مؤقتا كما أراد له عمه في صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه في مطلع الشمس عن رحلة مرجوة الخير ، وقال له فيما قال : (١)

« يا ابن أخي ، أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك، وان كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ...

« وقد بلغني أنها استأجرت فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك في أن أكلمها ؟ » .

قال « محمد » :

ـ ما أحببت يا عم ...

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل ؟

اذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبْل للغد المطوي في ضمير الغيب .

❋

---

(١) هذه رواية الزرقاني عن الواقدي . وانظر معها سيرة ابن هشام ١٩٩/١ ، والسمط الثمين للمحب الطبري ص ١٣ طبعة حلب ـ والذي في الطبري (١٩٦/٢) أن السيدة خديجة هي التي عرضت عليه أن يخرج في مالها الى الشام تاجرا .

لقـــاء

القافلة تغذ السير نحو « أم القرى » عائدة من رحلة الصيف الى الشام والحـداة يهزجون بأغانيهم التي تعد الابل بالراحة والظل والري ، وتُمني الركب بالأنس في لقاء الأهل والأحباب .

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا « مر الظهران » على مقربة من « مكة » واشرأبت أعناقهم الى معالمها التي لاحت لهم من بعيد ، تناديهم في لهفة واشتياق ...

لكنه وحده ، من بين هؤلاء جميعا ، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التي هاجها مرور القافلة قريبا من « الأبواء » في طريق عودتها الى «مكة» .

وعبثا حاول تابعه المرافق ، أن يغريه بالتطلع الى « أم القرى » أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة، التي اختارته ليخرج في مالها الى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطي غيره ممن استأجرتهم قبله .

وقال التابع « ميسرة » :

« أسرع أنا الى سيدتي فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ، فانها تعرف ذلك لك » .

فتركه « محمد » يمضي ، وفرغ لتأملاته :

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام ، والحداة يمنون الركب بالأنس في لقاء العشيرة والخلان ؟! ..

وكر بصره راجعا الى وراء ، يتبع آثار طيف من أمه « آمنة » ، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء .

وتذكر رحلته الأولى عائدا من « يثرب » بلا أم !

* * *

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الابل التي أناخت على ثرى « مكة » مطمئنة ، فمضى « محمد » على بعيره قاصدا دار « خديجة » بعد أن مر بالبيت العتيق ..

وكانت « خديجة » هناك في دارها ، ترقب الطريق من علية لها في لهفة ممزوجة بشيء من القلق ، والى جانبها غلامها « ميسرة » يملأ أذنيها بحديث مثير عن رحلته مع « محمد » (١)

واذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة ، اندفعت تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، في صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا .

ورفع اليها وجهه شاكرا ، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره ، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام ..

وأنصتت اليه شبه مأخوذة ، حتى اذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هي ، تتبعه عيناها الى أن توارى في منعطف الطريق .

واتجه هو الى منزل عمه « أبي طالب » وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح ، أن عاد اليه من رحلته موفقا سالما ، لم يمسه أذى من يهود ..

❋

(١) انظره في ابن هشام ٢٠٠/١ – وفي السمط الثمين ص ١٣ – وتاريخ الطبري ١٩٦/٢ .

زواج ناجح

وسارت الحياة في « مكة » على وتيرتها أياما ، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم واحصاء أرباحهم أو خسارتهم ، وانصرف التجار العائدون الى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل، محفوف بالأخطار.

وصُفي حساب القافلة أو كاد، وانقطع ما بين التجار والأجراء الى حين، اللهم الا ما كان بين السيدة «خديجة» و «محمد» الصادق الأمين ..

لقد بلت «خديجة» الدنيا وعرفت الرجال ، وتزوجت مرتين ، باثنين من سادات العرب وأشرافهم : أبي هالة بن زرارة التميمي ، وعتيق بن عائذ المخزومي (١) ، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان ، فما رأت فيمن عرفت ، ذلك النمط المنفرد من الرجال .

واستغرقت في تفكيرها ، تستعيد صوته العميق الساحر وهو يحدثها عن رحلته ، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال .

وفجأة ، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذي التقت فيه بالشاب الهاشمي ، فهزها شعور مباغت ، وانثنت تسائل قلبها :

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد ؟

ترى هل مسه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع وطاب له الرقاد وألح عليه الانفراد ؟

واذ تلقت جواب القلب انتفضت مذعورة لا تدري كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت ـ في حساب بيئتها ـ من حياة الرجال ؟

---

(١) هذه رواية الاستيعاب ، والذي في سيرة ابن هشام (١٩٣/٤) وفي السمط الثمين (ص ١٣) انها تزوجت عتيقا المخزومي قبل أبي هالة التميمي ، ومثله في تاريخ الطبري : ١٧٥/٣ .

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطّاب من سادة قريش وسراة مكة ؟ (١) .

ولكن ويحها ! لقد فكرت في قومها ، دون أن تعرف رأي «محمد» فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة في الأربعين من عمرها وهو الذي انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بني هاشم الناضرات ؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هي في كهولتها بالقياس الى « محمد » في شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت « آمنة بنت وهب » لما جاوزت اذ ذاك سن الأربعين !

وهتفت بقلبها : أن حسبك ، فأي طائل وراء هذه العاطفة التي تبدو يائسة ؟

وفي غمرة حيرتها واضطرابها ، زارتها صديقتها « نفيسة بنت منية » فما غاب عنها الذي تجد صاحبتها ، ولم تدعها حتى كشفت لها عن سرها المطوي .

وهونت « نفيسة » الأمر عليها ، فما في نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا ، وهي بعد ذات غنى وجمال ، كل قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه (٢) .

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا ..

* * *

جاءت (٣) « محمدا » فسألته فيم عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان ؟ هلا سكن الى زوجة تحنو عليه وتزيل وحشته وتملأ دنياه بهجة وأنسا ؟

فأمسك الشاب اليتيم دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا في السادسة من عمره ، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته :

---

(١) ، (٢) سيرة ابن هشام : ٢٠١/١ ــ والسمط الثمين ١٣ .

(٣) كذا في شرح المواهب وفي الاستيعاب . والذي في سيرة ابن هشام ان السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة . وروى المحب الطبري في السمط ، انها بعثت الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر اسم من بعثته ــ وانظر تاريخ الطبري ١٩٧/٢ .

ـ ما بيدي ما أتزوج به ..
قالت على الفور :
ـ فان دُعِيتَ الى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟
فما مس سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعني :
تلك « خديجة » ورب الكعبة ، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا ومالا ؟
ألا لو دعته لأجاب ، ولكن هل تدعوه ؟
وانصرفت « نفيسة » وتركته مشغول البال ، يرنو في رقة الى صورة لخديجة ، لاحت له في وحدته طلقة المحيا باشـة الأسارير ، تشع لطفا وبهاء وحنوا ..
وأشفق أن تبعد به أمانيه ، اذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها ، فغالب نفسه ليستردها الى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فاذا كاهنة تلقاه في طريقه فتستوقفه سائلة :
ـ جئتَ خاطبا يا محمد ؟
أجاب غير كاذب :
ـ كلا ..
فتأملته برهة ثم هزت رأسها وهي تقول :
ـ ولم ؟.. فوالله ما في قريش امرأةٌ ، وان كانت « خديجة » ، لا تراك كفئا لها (١) .

* * *

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة « خديجة » فسارع اليها مليا وفي صحبته عماه : « أبو طالب وحمزة » .
وهناك في بيتها ألفوا قومها ينتظرون ، وكل شيء مهيأ لزواج سريع ..
وتكلم « أبو طالب » :
« أما بعد : فان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش ، الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قل ، فانما المال ظل زائل

---

(١) راجع هذا الحديث كله ، في الجزء الاول من السيرة لابن هشام ، والروض الانف للسهيلي ١٢٣/١ .

وعارية مسترجعة ، وله في « خديجة بنت خويلد » رغبة ، ولها فيه مثل ذلك .. »

فاثنى عليه عمها « عمرو بن أسد عبد العزّى بن قصيٍّ » وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة (١) .

ولما انتهى العقد ، نحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فاذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بني سعد ، لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته ، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأسا من الغنم ، هبة من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت « محمدا » زوجها الحبيب .

وتندت عينا « محمد » وهو يتفقد أمه « آمنة » فاذا يد لطيفة رقيقة ، تأسو الجرح القديم في حنان غامر ، واذا به يجد في « خديجة » عوضا جميلا عما قاساه من حرمان .

* * *

ولم يعنِ « مكة » من أمر الزوجين السعيدين ، سوى أن زواجا ربط بين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي » وبين «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي » .

ولكن « التاريخ » تلبث اذ ذاك برهة ، ليسجل يوم العرس المشهود ، بين أيامه الخالدات على مر الدهور والأحقاب .

ثم انصرف الى حين ، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها « مكة » ويترشفان على مهل ، رحيق ودٍّ صاف عميق ، سيظل حديث الزمان .

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاما، ناعمين بالألفة والاستقرار ، وقد أتم الله عليهما نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم، وعبد الله، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة (٢) .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٠١/١ ، وفي رواية أخرى أنه أصدقها اثنتي عشرة أوقية ذهبا : السمط ١٥ .
(٢) انظر الاصابة ، الجزء الثامن . والسيرة : ٢٠٢/١ ـ وانظر معه تاريخ الطبري : ١٧٥/٣ ط مصر .

وأرخى الزمن لهما في حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواما ذات عدد ، ارتوى « محمد » خلالها من نبع الحنان ، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزودا لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام .

وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الثكل في الولدين العزيزين، فكان للزوجين في وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التي تدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما الا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ! (١)



(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد وأمومة خديجة ، لان موضع هذا الحديث في كتابنا عن « بنات النبي » .

ثم كان الحادث الفرد الخطير ، لا في حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب ، ولا في حياة قريش والعرب وحدهم ، بل في حياة الانسانية جمعاء .

لقد تلقى «محمد» رسالة السماء ، وجاءه الوحي الالهي فحمَّله الأمانة العظمى ، وبعثه في الناس بشيرا ونذيرا ..

وكانت الرسالة ايذانا بحياة جديدة ، شاقة كادحة ، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد ، والعذاب ، والنضال ، ثم النصر .

وفي الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب ، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء ارهاصات عن نبي جديد قد حان مبعثه، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون ، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها ! (١)

و « مكة » على الخصوص ، كانت الموضع الذي تتلاقى فيه تلك الارهاصات والتكهنات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك ، لتصب حول « البيت العتيق » : مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد .

كذلك لم يكن الحادث الخطير مفاجأة لمحمد ، فمنذ استقرت به الحياة في رعاية الزوجة الرءوم ، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي ، أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع الى التأمل . وميل الى التفكير المستغرق . وهي نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا . ووجدت في ساعات فراغه ـ أيام رعيه للغنم ـ مجالا رحبا ، ثم صرفه عنها كدح العيش ، لتعود فتظهر من جديد ، قوية أصيلة ، كأنما هي فطرة فيه .

وكثيراً ما حامت تأملاته حول الكعبة ، تلك التي صنعت تاريخ «مكة»

---

(١) انظر هذه الانباء بالتفصيل في الجزء الاول من سيرة ابن هشام ، ط الحلبي ـ وفي الجزء السادس عشر من نهاية الارب للنويري ، ط دار الكتب .

وتاريخ أسرته بوجه خاص ، ووصلت (١) ما بين « أبيــه عبــد الله » و « اسماعيل » جد العرب ، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها ، فأحييت بحادث فداء « عبد الله » من الذبح ، ذكرى متناهية في القدم ، لمشهد الذبيح الأول : ابن ابراهيم .

وانبلج له نور الحق ، فأنكر هذه الأصنام التي تكدست في بيت الله ، صماء عمياء ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا . واستبشع أن تخف أحلام قومه ، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان ، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم ، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا .

وأرهف التأمل حسه ، فاذا هو يستشف أدق ما في الكون من أسرار ، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء، قوة عظمى خفية ، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مضطردة ، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون .

* * *

وما شارف الأربعين، حتى كان قد ألف الخلوة في غار «حراء» واستطاب رياضته الروحية التي يحس خلالــها كأنما يدنو من الحقيقــة الكبرى ويستجلي السر الأعظم، وما كانت «خديجة» في وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت ، فاذا انطلق الى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه (٢) ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد وحدته .

وهكذا بدا كأن كل شيء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة، لكنها ــ رغم هذا التهيؤ ــ زلزلت حين جاءت ، أرجاء ذاك العالم الذي طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت كيان ذلك النبي الموعود ، « محمد بن عبد الله »

---

(١) السيرة : ١٦٣/١ ــ واقرأ الفصل الخاص بمكة في كتابنا « أم النبي » .

(٢) السيرة لابن هشام : ٢٥٣/١ ــ والسمط الثمين : ١٩ .

الذي ما رضي قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا شك لحظة ، في أن حياة قومه لن تمضي هكذا على سفه وضلال ..

فما جاءه وحي السماء وهو في غار « حراء » ، حتى انطلق يلتمس بيته في غبش الفجر خائفا شاحبا مرتعد الأوصال ، واذ بلغ حجرة زوجته ، احس أنه وصل الى مأمنه، فحدثها في صوت مرتجف عن كل ما كان ونفض لديها مخاوفه :

أتراه يهذي حالما ؟ .. أم به جُنَّة ؟ ..

وضمته الى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها ، وهتفت في ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله ابدا .. انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١) .

وأشرقت أسارير « محمد » وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا الذي مسه الجن ، وهذا صوت « خديجة » العذب الحنون ، ينساب مع ضوء الفجر الى فؤاده ، فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء .

واستشعر الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق الى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بطفلها الوحيد ، ثم تهدهده بصوتها الحلو ، وتنثر على مضجعه أسنى الأحلام .

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادىء المطمئن ، ورف قلبها حوله وملؤه الحب والعطف والاشفاق والاكبار ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى اذا بلغت الباب اندفعت الى الطريق الخالي ، تجري نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة .

وجاءت « ورقة » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٥٣ ـ والاصابة ج ٨ ٠ والسمط الثمين ص ١٠ ٠

كاد يصغي الى ما تتحدث به من أنباء، حتى اهتز منفعلا، وتدفقت الحيوية في بدنه الواهن ، فانتفض يقول في حماس :

« قدوس .. قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى ، وانه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » (١) .

ولم تنتظر مزيدا من قوله ، ولم تستعد كلمة واحدة منه ، بل طارت الى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى ، فاذا به لا يزال نائما كما تركته .

وعز عليها أن توقظه ، فجلست بالقرب منه منتظرة، تكاد نفسها تذوب من لهفة عليه وحب وحنان ، ثم اذا به فجأة ينتفض في فراشه ، وتتثاقل أنفاسه ويتفصد العرق من جبهته . وظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنتظم أنفاسه ، ويبدو عليه كأنما يصغي الى محدث غير مرئي ، ثم يتلو في بطء كأنه يستعيد درسا ألقي عليه :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » (٢) .

وتلقته « خديجة » من صحوه بين ذراعيها ، وحدثته بما سمعت من « ورقة بن نوفل » فرنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليها مليا بنظرة تفيض شكرا وامتنانا ، حتى اذا ملأ عينيه من تلك التي ملأت دنياه حبا وأمنا وسلاما ، استدار فنظر الى الفراش وقال في تأثر :

« انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب ؟ »

فهتفت في لهفة وحماس :

« أنا أستجيب يا محمد، فادعني قبل أن تدعو أي انسان، واني لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك » .

فباركها وهو يشعر بسكينة وراحة ، ثم استجاب لها فقام ينشد « ورقة » الذي لم يكد يراه حتى صاح :

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٥٤

(٢) سورة المدثر : الآيات ١ : ٧

« والذي نفسي بيده ، انك لنبي هذه الأمة ، ولتُكَذّبن ، ولتُؤذين ، ولتُخرجن ، ولتُقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ! »(١) .

ثم أدنى رأسه اليه فقبل يافوخه .

قال محمد صلى الله عليه وسلم :

« أو مخرجيّ هم ؟ »

أجاب « ورقة » :

« نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، ليتني أكون فيها جذعا .. ليتني أكون حيا ! » .

وطابت نفس الرسول بما سمع ، فآب الى بيته مطمئنا ليبدأ نضاله من أجل الدعوة ، وليلقى في سبيلها أفدح ما وعي تاريخ الأبطال من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين !

ووقفت الزوجة المحبة المؤمنة الى جانب زوجها النبي المختار ، تنصره وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا، فلما قُضي على بني هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبي طالب (١) بعد أن أعلنت قريش عليهم حربا مدنية لا ترحم، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوف الكعبة (٢) ، لم تتردد « خديجة » في الخروج مع زوجها ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد .

وأقامت هنالك في شِعب أبي طالب ثلاث سنوات ، تذوق مع الرسول ومن تبعه من قومه أهوال الحصار المنهك ، وتكافح الوهن الذي أخذ يدب الى جسدها منذ جاوزت الستين ، متشبثة بالحياة في نضال رائع ، كيما تظل الى جانب رجلها في معركته الفذة ، التي يلقى فيها بقلة مؤمنة

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٥٤ (٢) المصدر نفسه : ١/٣٧٥

عزلاء ، جبروت الوثنية العريقة المتأصلة ، وجموع القرشيين ذوي العدد والعدة والمال ..

ثم فشل الحصار أمام ذلك الايمان الراسخ الصامد ، وآن لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يعود الى بيته في مكة (١) ، فتحاملت «خديجة» حتى بلغت فراشها وقد نال منها الاعياء ، واستنفذ الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة في عامها الخامس والستين (٢) .

ورقدت هناك ثلاثة أيام ، وزوجها الرسول الى جانبها لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ، ثم أسلمت الروح بين يدي الرجل الذي أحبتــه منذ اليوم الأول الذي لقيتــه فيه ، والذي صدقته وآمنت بــه منذ سمعت برسالته حتى الرمق الأخير .

* * *

وتلفت محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ حوله ، فاذا الدار من بعدها موحشة خلاء ، واذا « مكة » تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان ..

قال « ابن اسحق » : « فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام ! » (٣) .

وبلغت متاعبه أقسى مداها في عام موت « خديجة » الذي سمي « عام الحزن » ، وخيل الى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء ، وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب ، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر ..

ذلك أن « خديجة » لم تمض الا وأمين الوحي يرعى الرسول غاديا رائحا ، يذود عنه اليأس والاعياء ، والسابقون الأولــون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد في سبيل دعوته مجدا وانتصارا .

لم تمت « خديجة » الا والدعوة قد ذاعت وجاوزت « مكة » الى أطراف

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢/١٤ : ٢٠ (٢) الاستيعاب ، والسمط الثمين ١٧
(٣) السيرة : ٢/٥٧ .

الحجاز ، ثم الى ما وراءها من بلاد العرب ، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار الى « الحبشة » (١) مهاجرين بدينهم ، متخلين عن ديارهم وأهليهم ، عارضين على الدنيا خارج الجزيرة ، مشهدا رائعا من مشاهد الايمان الباذل الصابر ، مالئين الأسماع والقلوب بحديث مثير عن لذة الكفاح ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد .

لم تمت « خديجة » الا وفي « يثرب » أنصار (٢) للرسول متحفزون لتلبية الداعي الكريم ، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة النبيلة ، ليذهبوا على الأيام بعزة النصر ، أو فخار الموت في سبيل الله ورسوله ..

❃

(١) السيرة لابن هشام : ٣٤٤/١ .
(٢) المصدر نفسه : ٧٣/١ ، ٨٤ .

مـلء الحياة

ولكن ، هل ماتت « خديجة » حقا ؟

كلا ! .. انها لماثلة أبدا بين عيني زوجها الرسول ، فما يسير الا وطيف منها يتبعه، وما يسري الا وسني مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات..

وستدخل بعدها في حياة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفي دنياه ، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوجة الأولى ، والحبيبة الرءوم التي انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان، (١) لم تشركها فيه أخرى، ولا لاح في أفقه ظل من شريكة سواها.

وستفد على هذا البيت بعدها زوجات أخريات ، فيهن ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح « خديجة » عن مكانها هناك ، ولن تفلح في ابعاد طيفها الذي أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر باعزازه ما عاش .

وستشهده « المدينة » بعد أعوام عندما انتصر في « بدر » يتلقى فداء الأسرى من قريش ، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها «زينب» في فداء زوجها الأسير « أبي العاص بن الربيع » حتى يروق قلب البطل الرسول من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين ، في أن يردوا على « زينب » قلادتها ويفكوا أسيرها (٢) .

وسيشهد بيت النبي « عائشة بنت أبي بكر » في عزة صباها ونضرة شبابها وحب الرسول لها ، تشغلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها الى قلب « محمد » واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلب الرسول : أقبلت « هالة » ـ أخت خديجة ـ

---

(١) أنظر الاصابة : حـ ٨ والسمط ١٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٢٠٧/٢ ـ ولحديث القلادة فصل خاص ، في كتاب « بنات النبي » .

لزيارة المدينة ، وسمع محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ صوتها في فناء بيته ، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ، فهتف خافق القلب :

ــ اللهم هالة !

فما ملكت « عائشة » نفسها أن قالت :

« ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، أبدلك الله خيرا منها ؟! » (١)

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا :

« والله ما أبدلني الله خيرا منها : آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » (٢) .

فأمسكت « عائشة » وهي تقول في نفسها :

« والله لا أذكرها بعدها أبداً » .

وكانت قبل ذاك ، لا تكف عن الكلام فيها !

قالت له يوما وقد ألفته لا ينقطع عن ذكرها :

« كأن لم يكن في الدنيا امرأة الا خديجة ! »

فرد عليها صلى الله عليه وسلم :

ــ ... انها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد ...

ورأته صلى الله عليه وسلم اذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا الى أصدقاء خديجة . فحدثته في ذلك مرة ، فقال : اني لأحب حبيبها ! (٣)

وطالما سُمِعت عائشة رضي الله عنها تقول :

« ما حسدتَ امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد ما ماتت » (٤)

أو تقول :

« ما غِرتُ من امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما غِرتُ من

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ١٥ .

(٢) ، (٣) السمط الثمين : ٢٦ والاستيعاب : ١٨٢٤/٤

(٤) المرجع نفسه : ص ٢٤ .

خديجة ، لما كنت أسمع من ذكره لها . وما تزوجني الا بعد موتها بثلاث سنين » (١) .

وحتى يوم الفتح ـ وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات حافلة بأجل الأحداث ـ نرى رسول الله يختار مكانا الى جوار القبر الذي ثوت فيه زوجته الأولى ، ليشرف منه على فتح « مكة » وليقيم في قبة ضربت له هناك (٢) ، تؤنسه روح « خديجة » ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى الى بيتها العزيز ، حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الكفاح المضني الطويل ..

وستدخل في الاسلام من بعد « خديجة » ملايين النساء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور الأجل في حياة البطل الرسول . وسيذكر لها المؤرخون ـ المسلمون منهم وغير المسلمين ـ ذلك الدور ، فيقول « بودلي » :

« ان ثقتها في الرجل الذي تزوجته ـ لأنها أحبته ـ كانت تضفي جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد في كل سبعة من سكان العالم » .

ويؤرخ « مرجيلوث » حياة محمد (٣) ـ رسولا ـ باليوم الذي لقي فيه خديجة «ومدت يدها اليه تقديرا» . كما يؤرخ حادث هجرته الى «يثرب» باليوم الذي خلت فيه « مكة » من « خديجة » ورقدت تحت الثرى .

ويطيل « درمنجم » (٤) الحديث عن موقف « خديجة » حين جاءها زوجها من غار حراء « خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية ، غريب النظرات . فاذا بها ترد اليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة واخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه الى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذي يحتمي به من كل عدوان في الدنيا » .

---

(١) السمط الثمين ص ٢٤ ـ والاستيعاب : ١٨٢٣/٤ .
(٢) تاريخ الطبري ـ حوادث السنة الثامنة للهجرة (ج ٣) .
(٣) Margolyouth : Mohamed and the Rise of Islam Ed. Oxford 1906, 1-2
(٤) حياة محمد لدرمنجم ـ ص ٥٨ من الترجمة العربية للاستاذ عادل زعيتر .

وكتب عن وفاتها :

«.. فقد محمد بوفاة خديجة تلك التي كانت أول من علم أمره فصدقته، تلك التي لم تكف عن القاء السكينة في قلبه .. تلك التي ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات » .

ودرمنجم هنا ، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم الى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فمرجيلوث يجعل لمال خديجة المكان الأول في زواج كهذا « بين شاب فقير ، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بني مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضي فيكتب، بكلمات تقطر سما وحقدا :

« ان دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبي طالب حين خطب اليه ابنته أم هانيء (١) ، فرده لفقره وزوجها لذي مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة في الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء، يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره » .

وكذب « مرجيلوث » فما كان مال « خديجة » هو الذي جذب « محمدا » وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن ، وانما وجد فيها كما شهد « بلاشير » في كتابه Le Problème de Mohamed تلك الرقة المتناهية والحنان الغامر .

وكان ما بينهما من فرق السن كافيا وحده لأن يرضي حاجته الملحة الى عطف الأمومة التي افتقدها منذ كان طفلا في السادسة ، وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق .

وأعجب من قول « مرجيلوث » هذا ، ما تحدث به « موير » (٢) عما وراء وفاء محمد لخديجة من تهيب لمركزها المالي والاجتماعي ، وخوف من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على « موير » أن يفسر لنا : فيم اذن كان وفاء الرسول لخديجة

(١) راجع في أمر هذه الخطبة : طبقات ابن سعد ، والسمط الثمين ١٣٤ .

(٢) The Life of Mohamed and the History of Islam

بعد موتها ؟ .. وهل كان صلى الله عليه وسلم يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم « عائشة » فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها ؟!

لقد كانت«خديجة» ملء حياة الرسول حية وميتة، وما جاوزت«عائشة» الحق حين قالت لزوجها الرسول : « كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها » .

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه ؟!

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيىء له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها ـ في ايثار نادر ـ ما أعده لتلقي رسالة السماء ؟!

هل كان لزوجة عداها ، أن تستقبل عودته التاريخية من غار «حراء» ، بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف فياض وايمان قوي ، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبدا ؟!

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف الى جانب رجلها في أحلك أوقات المحنة ، وتغريه باحتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟

كلا .. بل هي وحدها ـ ولا امرأة الا مثلها ـ التي أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وتكون لليتيم أما وللبطل ملهمة ، وللمناضل ملاذا وسكنا ، وللنبي المبعوث نبع ثقة وطمأنينة سلام ..

قال ابن اسحق (١) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، الا فرج الله عنه خديجة رضي الله عنها : اذا رجع اليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضي الله عنها » .

---

(١) في السيرة ـ وانظر السمط الثمين ٢٣ .

الفصل الثالث



أرملة المهاجر

« .. ووالله ما بي على الازواج من حرص ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً للرسول ! »

سودة بنت زمعة



وحشة

الأيام تمضي ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد ، والليالي كوالح مسهدات ، مشحونة بالذكريات ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وحدته بعد « خديجة » : أم العيال وربة البيت والشريكة في الجهاد ، يخلو الى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ، ليسامر طيف التي ملأت دنياه .

والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم فيشفقون عليه من تلك الوحدة ، ويودون لو تزوج ، لعل في الزواج ما يؤنس وحشته بعد « أم المؤمنين » الراحلة .

لكن واحداً منهم لم يجرؤ على التحدث الى الرسول ابان حداده ، في موضوع الزواج ، فلما انتهت أيام الحداد ، كانت « خولة بنت حكيم السلمية » (١) هي التي سعت اليه ذات مساء متلطفة مترفقة ، تقول : « يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! » .

فأجاب : « أجل كانت أم العيال وربة البيت » .

فتشاغلت « خولة » بالنظر الى بعيد ، ثم أقبلت على الرسول فاقترحت عليه فجأة أن يتزوج !

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا ، يصغي الى وجيب قلبه العامر بذكرى الراحلة ، ويتذكر « نفيسة بنت منية » حين جاءته منذ نحو خمس وعشرين سنة ، تحدثه في الزواج وتعرض عليه « خديجة بنت خويلد » !

ثم آب الى محدثته وسألها في نبرة عتاب :

ـ مَنْ .. بعد خديجة ؟

فردت « خولة » على الفور ، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب : « عائشة .. بنت أحب الناس اليك » !

وتفتح قلب الرسول حين ذكر صاحبه : أول رجل صدقه وآمن به بعد

---

(١) الاستيعاب ـ والسمط الثمين ١٠٢ ـ وانظر تاريخ الطبري ١٧٥/٣ .

ابن عمـه علي ، ومولاه زيد ، ثم وقف الى جانبه من اللحظة الأولى ، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أب وأخ وصاحب وصديق (١) .

وذكر الرسول مع «أبي بكر» ابنته عائشة، تلك الصبية اللطيفة الحلوة، التي طالما آنسته بمرحها ولطفها ، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة ..

ولم يستطع أن يقول لخولة : لا ..

ولو حاول أن يقولها ، لما طاوعه لسانه !

أيرفض بنتَ أبي بكر ؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة ، ومكانة لأبي بكر عند الرسول لم يظفر بها سواه ، وأنس الى تلك الصغيرة العزيزة ، الذكية الملامح ، اللطيفة المحيا ..

ـ لكنها ما تزال صغيرة يا خولة ..

وكان رد « خولة » حاضرا :

ـ تخطبها اليوم الى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج ..

حتى تنضج ؟ ..

لكن ، من للبيت يرعى شئونه ومن لبنات الرسول يخدمهن ؟

وهل جاءت «خولة» لتعرض زواجا آجلا ، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث ؟

كلا ، بل جاءت وفي خاطرها اثنتان : احداهما بكر وهي « عائشة بنت أبي بكر » .. والأخرى ثيب ، هي « سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، القرشية العامرية » وأمها « الشموس بنت قيس بن زيد » من بني عدي بن النجار (٢) .

وأذن لها الرسول في خطبتهما ، فمرت أولا ببيت « أبي بكر » ثم جاءت بيت « زمعة » فدخلت على ابنته « سودة » تقول : (٣)

ـ ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة ؟

فسألت « سودة » وهي لا تدري مرادها :

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٦٦/١ ، ٢٦٧ .

(٢) الاصابة ج ٨ ـ والسيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ .

(٣) الاصابة ٨ ـ والسمط الثمين ١٠٢ ـ وتاريخ الطبري ١٧٦/٣ .

ـ وماذا يا خولة ؟
قالت :
ـ أرسلني رسول الله أخطبك عليه !
وجاهدت « سودة » لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت في صوت مرتجف :
ـ وددتُ ! .. ادخلي على أبي فاذكري له ذلك .
فدخلت « خولة » عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت :
ـ ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سودة .
فصاح الشيخ :
ـ كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته ؟
أجابته خولة :
ـ تحب ذاك .
فسألها أن تدعوها اليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :
ـ أي سودة ، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه ؟
فلم تقل الا كلمة واحدة :
ـ نعم (١) .
وهنا أشار « زمعة بن قيس » الى خولة أن تدعو اليه «محمدا» ، فقامت تدعوه للزواج .

---

(١) الحوار بنصه منقول من تاريخ الطبري : ٣/١٧٦ .

اغتراب وترمّل

وشاع في « مكة » أن الرسول قد خطب « سودة بنت زمعة » فكاد ناس لا يصدقون سمعهم ، فما في مثل « سودة » مأرب ، وتساءلوا في ارتياب : أرملة ، مسنة ، غير ذات جمال ، تخلف « خديجة بنت خويلد » التي كانت يوم خطبها الشاب اليتيم الفقير ، سيدة نساء قريش نسبا ومكانة ومالا ، ومطمح أنظار السادة من قريش ؟

كلا ، لن تخلف « سودة » أو سواها « خديجة » ، وانما تجيء الى بيت الرسول جبرا لخاطرها ، وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » من بني عامر بن لؤي ، ذاك الذي هاجر بها فيمن هاجر (١) الى الحبشة ، ثم عاد وفي ظنه أن قريشا قد ثابت الى رشدها وكفت عن محاربة رجل منها قال : « ربي الله » ، فاذا الظن يخيب ، واذا قريش يزداد اضطهادها للمسلمين ضراوة ، وحقدها عليهم جنونا .

ولم تك الا أيام حتى مات المهاجر العائد ، وترك أرملته من بعده ، قد أسلمتها محنة الاغتراب الى محنة الترمل .

وذكر رسول الله أولئك النفر الثمانية من بني عامر ، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر ، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة ، ترجمهم بالحجارة ، وتعفرهم بالتراب ، وتحاول أن تردهم قسرا الى متاهة الضلال ومهواة الشرك .

من هؤلاء النفر الثمانية ، كان (٢) مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامري » أخو سودة ، و « السكران بن عمرو بن عبد شمس »

---

(١) ابن هشام ٦٥٢/١ ـ والسمط الثمين ١٠١ ـ وانظر الاصابة لابن حجر ٨ ـ وراجع معه تاريخ الطبري : ١٧٥/٣ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣٥٢/١ .

زوجها وابن عمها ، وأخواه « سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس » وابن أخيه « عبد الله بن سهيل بن عمرو » .

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم ، وكلهن عامريات : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس (١) .

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة ، برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها ، راضية بما هو أقسى من الموت ، في سبيل الله .

وتمثل الرسول « سودة » وهي تودع أرضا عزيزة حُلَّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها ، ثم تمضي الى مهجر مجهول ، وناس لا هي منهم ولا هم منها ، لسانهم غير عربي ، ودينهم غير الاسلام ، فلما آن لها أن تئوب من غربتها ، وتهبط « أم القرى » (٢) فاضت روح زوجها « السكران بن عمرو » .. كأنما كان يستمهل الموت ريثما يعود كيما يدفن في ثرى الجزيرة ، مرقد من مضوا من الأهل والخلان ..

وتأثر صلى الله عليه وسلم للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فما كادت « خولة بنت حكيم » تذكرها له ، حتى مد يده الرحيمة اليهـا يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذي ذاقت من نكد الحياة .

❋

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣٥١/١ ـ وتاريخ الطبري حـ ٢ .

(٢) الاصابة لابن حجر ، وابن اسحق ، والواقدي ـ انظر السيرة ٨/٢ .
وفي تاريخ الطبري (١٧٥/٣) ان السكران لما هاجر الى الحبشة ، تنصر ومات بها .

وهبت ليلتي لعائشة

وأصبحت « سودة » ذات يوم ، فاذا هي زوجة لرسول الله المبعوث بدين الاسلام ..

وداخلتها رهبة من جلال زوجها ، وقاست نفسها اليه صلى الله عليه وسلم ، ثم الى « خديجة » الزوجة الأولى ، ثم الى « عائشة » العروس الصبية المنتظرة ، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها

ولم تخدعها نفسها قط ، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاجزا لا سبيل الى اقتحامه .

وعرفت من اللحظة الأولى التي جمعتها بزوجها ، أن « الرسول » هو الذي تزوجها ، لا « الرجل » الذي لم تجرده النبوة من بشريته .

وأيقنت دون ريب ، أن حظها من الرسول برّ ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ..

لكن ذلك لم يرُعْها ، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله الى تلك المكانة ، وأن جعل منها ـ أرملة السكران بن عمرو ـ أما للمؤمنين .

وكان يسعدها أن تراه صلى الله عليه وسلم يضحك من مشيتها ـ وكانت ثقيلة الجسم ـ وأن يأنس أحيانا الى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها .

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله ، وأن تخدم بناته ..

قالت له مرة :

« صليت خلفك الليلة يا رسول الله ، فركعتَ بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم ! »

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها ..

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة . روى « ابن اسحاق » :

« قدم بأسرى بدر، وسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء ، في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء ، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب .

« قال : تقول سودة : والله اني لعندهم اذ قيل : هؤلاء الأسارى قد آتي بهم . فرجعت الى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، واذا أبو يزيد، سهيل بن عمرو ـ أخو السكران بن عمرو ـ في ناحية الحجرة، مجموعة يداه الى عنقه بحبل ، فلا والله ما ملكت نفسي ، حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت :

ـ أي أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متُّم كراما ؟

« فوالله ما أنبهني الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت :

ـ يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟

قلت :

ـ يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه الى عنقه أن قلت ما قلت ! » (١)

* * *

ظلت « سودة » تقوم على بيت الرسول حتى جاءت « عائشة بنت أبي بكر » فأفسحت لها « سودة » المكان الأول في البيت ، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة ، وأن تسهر على راحتها .

ثم وفدت على بيت الرسول زوجات أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب ، فما ترددت سودة في ايثار زوجة الرسول الشابة باخلاصها ومودتها ، وان لم تظهر ضيقا بهؤلاء الزوجات اللائي يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول

لكنه صلى الله عليه وسلم ، أشفق عليها من الحرمان العاطفي ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه ، لكن بشريته لم تطاوعه، فكان أقصى ما استطاعه لسودة،

---

(١) السيرة : ٢/٢٩٩ .

أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، أما عواطفه فأنى له ــ وهو بشر ــ أن يقسرها على غير ما تهوى ، أو يخضعها بارادته لموازين العدل وضوابط القسمة !

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحس أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وان لم تبد منها بادرة شكوى أو تمرد . وما ساورته هذه الرغبة المنبعثة عن رحمة ورثاء ، حتى عزم على مكاشفة « سودة » بما رآه لها . فانتظر صلى الله عليه وسلم الى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها (١) .

وسمعت النبأ ذاهلة، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا ، فرفعت وجهها الى الرسول في ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذي كاد يقضي عليها ..

واذ ذاك آبت اليها سكينتها فهمست في ضراعة :

ــ أمسكني ، ووالله ما بي على الأزواج من حرص ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك (٢) .

ثم أطرقت محزونة ، وقد عز عليها أن تحمله صلى الله عليه وسلم على ما يكره ، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته في تسريحها وهي التي تهب حياتها راضية لكي تدفع عنه لحظة حزن واحدة .

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل ، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس على حبه عائشة بنت أبي بكر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وحفصة بنت عمر ! .. وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا، بل شعرت أنها اذ تأخذ ليلتها مثلهن، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه ! ..

وهمت بأن تجيب في قهر وعلى استحياء :

---

(١) في رواية اخرى نقلها ابن حجر في الاصابة ١١٧/٨ ــ أنه صلى الله عليه وسلم بعث اليها بطلاقها، « فقعدت على طريقه ، فناشدته أن يرجعها ، وجعلت يومها وليلتها لعائشة ، ففعل » .

(٣) ابن حجر : ١١٧/٨ .

ـ سرحني يا رسول الله !

لكن الكلمات تعثرت في حلقها ، فخرجت أشبه بحشرجة محتضرة !

وطال عذابها ، وطالت حيرتها ، ورسول الله الى جانبها ينظر اليها صامتا في اشفاق وتأثر .

وفجأة ، لاح لها خاطر سكنت له نفسها ، فرنت الى الرسول في اعزاز ثم قالت في هدوء :

ـ أبقني يا رسول الله ، وأهب ليلتي لعائشة (١) .

فاهتز « محمد » صلى الله عليه وسلم تأثرا بهذه العاطفة الفياضة وذاك الحب السمح الكريم ، وراعه أن يأتي سودة ليسمعها كلمة الطلاق ـ وما أبغضها ! ـ فيكون جوابها هذا الايثار النبيل ، تتحرى به مرضاة (٢) الزوج الكريم .

وانجابت ظلمة الليل ، فخرج محمد الى المسجد لصلاة الفجر ، وقامت «سودة بنت زمعة» في مخدعها تصلي وقلبها عامر بنشوة الرضى والايمان!

* * *

فلندعها في صلاتها راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزي بالحرص على الأزواج في مثل سنها العالية !

---

(١) الاصابة : ٨/١١٧ ـ وصحيح مسلم ـ وانظر السمط الثمين ص ١٠٣ ـ ويقال أنها قد أشرفت يومئذ على المئة !

(٢) السمط الثمين : ص ٧ .



الفصل الرابع

عائشة بنت أبي بكر

الزوجة الحبيبة

« أي بنية ، خففي عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، الا كثرن وكثر الناس عليها »

أم رومان
السيرة : ٣/٣١١



الصهر الكريم

ونعود الى حيث تركنا « خولة بنت حكيم » تقترح على الرسول أن يتزوج عائشة بنت أبي بكر ، فيتفتح قلبه صلى الله عليه وسلم لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس اليه من صحبة وقربى ، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق .

وأدع « لخولة » الحديث عن مسعاها في هذه الخطبة فتقول فيما نقل الطبري المؤرخ : (١)

« دخلت بيت أبي بكر فوجدت « أم رومان » أم عائشة ، فقلت لها .

ـ أي أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !

قالت :

ـ وما ذاك ؟

أجبت :

ـ أرسلني رسول الله أخطب له عائشة !

فقالت :

ـ وددتُ ، انتظري أبا بكر فانه آت ..

وجاء « أبو بكر » فقلت له :

ـ يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرسلني رسول الله أخطب « عائشة » .

قال وقد ذكر موضعه من الرسول :

ـ وهل تصلح له ؟ .. انما هي ابنة أخيه ..

« فرجعت الى رسول الله فقلت له ذلك ، فقال :

---

(١) تاريخ الطبري ٣/١٧٦ ـ وانظر معه المحب الطبري في السمط الثمين ص ٣١ ـ والاصابة : ج ٨ .

ــ ارجعي اليه فقولي : أنت أخي في الاسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لي .

« فأتيت « أبا بكر » فذكرت له ذلك فقال :

ــ انتظريني حتى أرجع ...

وقالت « أم رومان » تجلو الموقف للخاطبة :

ــ ان المطعم بن عدي كان قد ذكر عائشة على ابنه « جبير » ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف .

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته ، «أم جبير» ــ وكانت مشركة ــ فقالت العجوز :

ــ يا ابن أبي قحافة ، لعلنا ان زوجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه ؟! (١)

فلم يرد عليها « أبو بكر » بل التفت الى زوجها « المطعم » فقال :

ــ ما تقول هذه ؟

أجاب :

ــ انها تقول ذلك (الذي سمعت)

فخرج « أبو بكر » وقد شعر بارتياح لما أحله الله من وعده ، وعاد الى بيته فقال لخولة :

ــ ادعي لي رسول الله ...

فمضت « خولة » الى الرسول فدعته ، فجاء بيت صديقه أبي بكر ، فأنكحه عائشة وهي يومئذ بنت ست سنين أو سبع » (٢) .

وكان صداقها خمسمائة درهم ..

ولا يذكر التاريخ عنها اذ ذاك ، الا أنها بنت ست سنين أو سبع. وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدي ، وأبوها أبو بكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر ، من بني الحارث بن غنم بن كنانة .

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ٣١ .

(٢) السيرة : ٢٩٣/٤ ــ وتاريخ الطبري : ١٧٧/٣ ــ والاصابة : حـ ٨ .

وقد عُرف قوم عائشة ــ بنو تيم ــ بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي ، كما كانوا مضرب المثل في البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن .

ثم كان لأبيها الى جانب هذا الميراث الطيب ، شهرة ذائعة في دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب. وأجمع مؤرخو الاسلام على أنه «كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته » (١) .

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أضاف « أبو بكر » الى هذا كله مجدا جديدا ، أن كان الرجل السابق الى الاسلام ، المناضل عنه بكل ما يملك ، الداعي اليه في شجاعة وحماسة . ولمن شاء أن يرجع الى « سيرة ابن هشام » (٢) ليقرأ في الجزء الأول ، أسماء من أسلم من الصحابة بفضل أبي بكر واستجابة لدعوته . وحسبنا أن نذكر منهم هنا : عثمان ابن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ...

وكان رسول الله يقول : (٣)

« ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبي بكر بن قحافة ، ماعكم ــ أي ما تلبث ــ حين ذكرته له وما تردد فيه » .

وسُمع عليه الصلاة والسلام يقول :

« ما نفعني مال قط ، ما نفعنا مال أبي بكر » . قيل فبكى « أبو بكر » وقال : « يا رسول الله ، وهل أنا ومالي الا لك ؟ »

---

(١) السيرة : ١/٢٦٧ ــ وانظر معه مناقب أبي بكر في صحيح البخاري : ٢/٢٠٠ .
(٢) ١/٢٦٧ .
(٣) صحيح البخاري : ٢/٢٠٠ ط مصر .

مــألوفــة

كان حسب « عائشة » أن تكون بنت هذا الصاحب الوفي والصديق الكريم ، ليفتح لها الرسول من دنياه موصد الأبواب .. لكنها كانت الى جانب هذه البنوة ، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضير .

وقد ولدت بمكة في الاسلام، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث، فلم يكفها أن تكون مسلمة بالبنوة لأب مسلم ، بل أسلمت (١) قبل أن تشب عن الطوق هي وأختها أسماء ، وكان المسلمون اذ ذاك قلة معدودة .

وعرفها محمد، صلى الله عليه وسلم، منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية ، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة، مع فصاحة في اللسان وشجاعة في القلب، أن كان الذي تولى حضانتها جماعة من بني مخزوم . وبلغ من اعزاز الرسول لها أن كان يوصي بها أمها قائلا :

« يا أم رومان ، استوصي بعائشة خيرا واحفظيني فيها » .

فاذا رآها يوما غاضبة ، وقف في صفها وقال لأمها في عتاب رقيق :

« يا أم رومان ، ألم أوصك بعائشة أن تحفظيني فيها ؟ » .

* * *

ولم تدهش « مكة » حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مقررا . ولم يجد فيها أي رجل من أعداء الرسول أنفسهم موضعا لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء ، أن يتخذ من زواج محمد صلى الله عليه وسلم بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام ، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن

---

(١) الاصابة : ج ٨ .

عليه الا سلكوه ، ولو كان عبثا وبهتانا .

وماذا كانوا عساهم يقولون ؟

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها على أبعد تقدير ؟

لكنها قد ذكرت قبل أن يخطبها « محمد بن عبد الله » على « جبير بن مطعم بن عدي » بحيث لم يستطع « أبو بكر » أن يعطي كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبي جبير .

فهل ينكرون أن يكون زواج بين صبية في سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين ؟

وأي عجب في مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف في تلك البيئة الى رجل في سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن ؟ لقد تزوج « عبد المطلب » الشيخ من « هالة » بنت عم « آمنة » في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من ترب هالة « آمنة بنت وهب » .

وسيتزوج « عمر بن الخطاب » من بنت علي بن أبي طالب ، وهو في سن جدها !

ويعرض « عمر » على « أبي بكر » أن يتزوج ابنته الشابة « حفصة » وبينهما من فارق السن مثل الذي بين الرسول وعائشة .

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والاقليم ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه « الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء » ، ويقيسون بعين الهوى ، زواجا عقد في مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم في الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهي سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة في الجزيرة العربية ، بل في ريف مصر وأكثر مناطق الشرق . وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

« كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه

نساء العرب ، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السـنين التي تعقب العشرين ..

« ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد .. نظروا اليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك، كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوربا، وكانت طبيعية في أسبانيا والبرتغال الى سنين قليلة، وانها ليست غـير عادية اليوم ، في بعض المناطق الجبلية البعيـدة بالولايات المتحدة .. » (١)

❋

(١) بودلي : الرسول ص ١٢٩ من الترجمة العربية .

الهـــجرة

لم يرض «محمد صلى الله عليه وسلم» أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهي حداثتها ، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها ، بل تركها حيث هي في بيت أبيها ، تمرح لاهيـة مع لداتها وصواحبهـا وأترابها خلية البال ..

وكان كل حظه منها أن تسرع اليه كلما مر ببيت « أبي بكر » فتكاد تنسيه بلطفها وايناسها، المشاغل الجسام التي تنتظره لدى الباب، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يستشعرها كلما أوى الى منزله وحيدا غريبا ..

وحيدا ، وان كان في عصمته « سودة بنت زمعة » تتفانى في خدمته وتقوم على شئون داره وبناته .

غريبا ، وان يكن في « مكة » ، بلد آبائه وأجداده منذ ما لا يحصى من الدهور والأحقاب .

وطاب له أن يسعى الى بيت صاحبه «أبي بكر» كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة ، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه في فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض .

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله بكل عظمته وجلاله ومهابته ووقاره ، يرتاح اليها ويأنس لصحبتها ويجد في عالمها المرح ما يجذبه اليه ، حيث يشاركها لهوها في بساطة حلوة وألفة حبيبة .

وازدهاها « ألا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، اما بكرة واما عشية » (١) .

وذات يوم ــ وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن

---

(١) الاصابة جـ ٨ ــ والسيرة : ١٢٨/٢ .

مكة الى المدينة مهاجرين ، فلم يتخلف (١) مع الرسول الا من حبس أو فتن، غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب ـ علت شمس الضحا حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت «عائشة» في فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة .

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب ، فأصغت في لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز .

وبادرت الى الباب تفتحه مشوقة ، فما لمح « أبو بكر » شخص الرسول قريبا من الدار في تلك الساعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

« ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة الا لأمر حدَث »

فلما دخل الرسول تأخر له «أبو بكر» عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فامسكت « عائشة » انفاسها ، وكذلك فعلت اختها « اسماء » ، ووقفتا خاشعتين تترقبان ..

وتكلم الرسول فقال لصاحبه دون أن ينظر الى من في الحجرة :

ـ أخرج عني مَنْ عندك ! (٢)

فأجاب الصدِّيق :

ـ يا رسول الله ، انما هما ابنتاي ..

ثم أضاف مستفسرا في قلق :

ـ وما ذاك فداك أبي وأمي ؟

قال الرسول :

ـ قد أذن لي في الخروج والهجرة ...

فهتف الصديق :

ـ الصحبة يا رسول الله .. الصحبة !

(١) ابن هشام : السيرة ـ ١٢٣/٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ـ ١٢٩/٢ وانظر تاريخ الطبري : ٢٤٥/٢ .

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول في الهجرة فيقول له : (١)

ـ لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا !

فيطمع في أن يكونه ..

وتذاكر الصاحبان ـ على مسمع من عائشة وأسماء ـ ما كان من غيظ قريش « حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذروا خروج رسول الله اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ـ وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا الا فيها ـ يتشاورون فيما يصنعون في أمر الرسول.. (٢)

« وكان فيهم عتبة بن ربيعة ـ أبو هند ـ وشيبة أخوه ، وأبو سفيان ابن حرب ، وطعيمة بن عدي ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن خزام ، وأمية ابن خلف ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

واستقروا آخر الأمر على رأي لأبي جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا ، فيعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا الى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ! (٣)

وأذن لرسول الله في الهجرة ،واختار أبا بكر له صاحبا !

وأحست « عائشة » ألما وخوفا من الفراق الوشيك ، وتطلعت الى الرسول الحبيب ثم الى أبيها ، فما راعها الا أن رأته يبكي من الفرح .

وما شعرت قط ـ في سنها الغضة ـ قبل اليوم أن أحدا يبكي من الفرح ، حتى رأت أباها يفعل يومئذ (٤) .

* * *

---

(١) ابن هشام ـ السيرة : ١٢٨/٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ١٢٤/٢ : ١٢٦ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٤٣/٢ .

(٤) المرجع نفسه : ٢٤٦/٢ .

وبدأ التأهب لرحيل عاجل ..

بعث « أبو بكر » يدعو اليه « عبد الله بن أريقط » ــ وكان دليلا ثقة، وخبيرا بمجاهل الطريق ــ فدفع اليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت (١) .

ودعا الرسول اليه ابن عمه « علي بن أبي طالب » فأسر اليه النبأ الخطير ، ثم استخلفه بمكة ليؤدي عنه ودائع كانت عنده للناس (٢) .

فلما حانت ساعة الرحيل ، وقف الرسول على مرتفع هناك ببيت أبي بكر ، فرنا الى « البيت العتيق » وقتا ، ثم أشرف على « أم القرى » وقال بصوت متهدج :

« والله انكِ لأحبُ أرض الله اليَّ ، وانك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلكَ أخرجوني منكِ ما خرجت » .

ثم استدار فنظر الى « عائشةَ » وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا ، وقد أذهلها الفراق المفاجيء السريع ، فما درت أفي يقظة هي أم تلك رؤيا منام .

وتسلل الصاحبان من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هي كل ما بقي له ولأهله من مال (٣) ، ثم انطلقا وما يعلم أحد في « مكة » بخروجهما الا « علي بن أبي طالب » وآل أبي بكر ..

وأخذ المهاجران طريقهما الى غار يعرفانه في « جبل ثور » بأسفل مكة ، وبقيت « عائشة » في الدار وحيدة ذاهلة .

أما أخوها « عبد الله » فانطلق الى مجتمع البلدة ، يتسمع ما يقول الناس .

وأما أختها « أسماء » فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية الى الغار اذا جن المساء (٤) .

---

(١) و (٢) السيرة : ٢/١٢٩ ــ وتاريخ الطبري : ٢/٢٤٧ .
(٣) ابن هشام ، السيرة : ٢/١٣٣ .
(٤) ابن هشام ، السيرة : ٢/٣٠ ، ١٣١ .

وسمعت « عائشة » من أخيها « عبد الله » أن المشـركين قد أحسوا خروج الرسول ، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم .

وكادت نفسها لذاك تطير شعاعا ، لولا أن عصمها من اليأس ايمانها بالله ورسوله ، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها الى مولاهم «عامر ابن فهيرة» أن يرعى النهار في رعيان أهل مكة ، فاذا أمسى أراح غنم أبي بكر على الغار !

وكانت مشغلة « عائشة » طول النهار أن تعد الدقائق وهي تمضي في بطء كأنها أعوام ، مرهفة سمعها الى نبأ جديد ، فاذا ولى النهار واستعدت اختها « أسماء » لرحلتها المسائية ، حملتها « عائشة » تحياتها ودعواتها للراحلين العزيزين ، ثم وقفت تحدق في الطريق مترقبة عودة « أسماء » وقلبها يذوب من لهفة وقلق .

وتعود « أسماء » فتثب اليها عائشة معانقة ، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب ، واليد التي صافحتهما ، والأذن التي سمعت صوتهما ، ثم تجلس اليها لتسمع منها ما رأت من حالهما ..

وتحدثها « أسماء » عن مشقة الاقامة في الغار ، وعما كان من حزن أبي بكر حين رأى الرسول في ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، فقال :

« ان قتلتُ فانما أنا رجل واحد ، وان قتلتَ أنت هلكت الأمة » .

فيذهب الرسول عنه الخوف بقوله :

« لا تحزن ان الله معنا » (١)

وتظل « عائشة » تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة ، حتى ينال منها الجهد والسهد ، فتستسلم عيناها للغمض ، وتحوم روحها حول الغـار القريب ، مأوى أعز من لها في الوجود .

ومر اليوم الثاني يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه ، ثم حان المساء وتسللت « أسماء » خفية تحمل الزاد ،

(١) قرآن كريم : سورة التوبة ، من آية ٤٠ .

فلما عادت قصت على « عائشة » كيف ان المطاردين بلغوا الغار ، وتلبثوا عنده برهة ، بل هموا بالنزول اليـه ، لولا أن صدهم عنه نسيـج من عنكبوت على وجه الغار ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه !

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون في اقتحام الغار ، فقال للرسول :

ـ لو أن أحدهم نظر الى قدمه لرآنا ..

فكان جواب الرسول :

ـ ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟!

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة ، وقفت « عائشة » في مرقبها اثر نهار مشحون بالقلق ، ترصد الطريق .. وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت ، وهي مرهفة الحواس تحدق في غسق الدجى لعلها تلمح شخص « أسماء » ، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها ، لعل هواء الليل يحمل اليهـا حسا من خطوات بعيدة !

ومضى وهن من الليل وهي في وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب ، حتى أقبلت « أسماء » أخيرا تسري على عجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس .

وشل القلق حركة « عائشة » ، فوقفت حيث هي ، تحدق في نطـاق « اسماء » الذي عادت به من رحلتها ممزقا ، قد غاب شـق منه !

ورحمتها « أسماء » فعجلت لها بنبأ خروجهما سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد انفاسها ، وأقبلت تحدث « عائشة » عما كان :

ففي هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر ، والتي اختيرت ليبدأ بها التاريخ العربي ، جاء الدليـل ، عبد الله بن أريقط البكري ، يسوق الراحلتين اللتين أودعهما اياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج الرسول وصاحبه ، وجاءت « أسماء » بطعامها في سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة الى

الرحل ، فحلّت نطاقها فشقته نصفين ، علقت السفرة بأحدهما ، وانتطقت بالشق الآخر (١) .

ونظر « أبو بكر » الى الراحلتين يفحصهما ، ثم اختار أفضلهما فقربها الى الرسول قائلا : « اركب ، فداك أبي وأمي » .

فركب الرسول ، ثم ركب « أبو بكر » وأردف خلفه مولاه « عامر بن فهيرة » ليخدمهما في الطريق .

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا الى الجنوب في طريق غير مطروق ، ووقفت « أسماء » تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد ، فعادت وحدها الى بيت أبيها ، وهي توجس خيفة من تنبه المطاردين ..

وغابت « عائشة » عما حولها ، ومضت تسري بروحها في أثر الراحلين، فما راعها الا طرقات عنيفة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فاذا نفر من قريش ـ فيهم أبو جهل بن هشام ـ يسألونها في غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ »

أجابت :

« لا أدري والله أين أبي ! »

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بالرسول منطلقا من الغار ، ساريا في مجاهل الفلاة ، الى حيث لا تدري !

فلم تشعر الا ويد « أبي جهل » ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ! (٢)

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون ...

* * *

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث الا عن تلك المطاردة العنيفة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جُنّ خوفها أن

---

(١) السيرة ٢/١٣١ والاصابة : ج ٨ ـ وتاريخ الطبري : ٢/٢٤٧

(٢) السيرة ٢/١٣٢ ـ وتاريخ الطبري : ٢/٢٤٧

ينجو بدعوته الى حيث يغدو مطمئنا وما لها اليه من سبيل (١) .

ونجا الرسول وصاحبه ..

وتضاربت الأنباء في وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن أتباع (٢) محمد هناك يخرجون اذا صلوا الصبح الى ظاهر المدينة منتظرين ، فوالله ما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال ..

واذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة رجل من يهود :

ـ يا بني قيلة ، هذا جدكم قد جاء .

فخرجوا مسرعين ليروا الرسول في ظل شجرة ومعه أبو بكر في مثل سنه ، وأكثرهم لم يكن رأى الرسول قبل ذلك ، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما الرسول ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثاني فأظله بردائه ، فعرفوا اذ ذاك نبيهم الكريم ! (٣)

وسرى النبأ في أنحاء « يثرب » وتعالى الهتاف من كل مكان ، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية في شوق ولهفة الى حيث تلقي المهاجر العظيم، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم ، تشق أجواز الفضاء !

وعرفت « عائشة » مكان الحبيب ..

وكذلك عرفت قريش ، حين لم تعد نجديها معرفة، وجاء دورها لتنتظر في خوف وذعر ماذا يأتي به الغد ..

انكمشت في ذلة ، تجرع كأس الهوان ، أن أعجزها الظفر بمهاجر فرد ، خرج من « مكة » وليس معه غير صاحب شيخ ، ودليل غير مسلم ، ومولى أجير ..

---

(١) ابن هشام ، السيرة : ١٣٤/١ وانظر تاريخ الطبري حوادث الهجرة .
(٢) السيرة : ٣١٧/٢ .
(٣) تاريخ الطبري : ٢٤٨/٢ .

العـــروس

لم تمض الا أيام حتى جاء « زيد بن حارثة » من « المدينة » ليصحب بنات الرسول اليها ، ومعه رسالة من « أبي بكر » الى ابنه عبد الله ، يطلب اليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجته « أم رومان » ، وابنتيه « أسماء ، وعائشة » (١)

وتهيأ الجمع للسفر، وخرجوا صحبة يريدون مدينة الرسول، وما تكاد الدنيا تسع « عائشة » من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت « أم رومان » مذعورة : (٢)

« وابنتاه ، وا عروساه ! »

وأسرع عبد الله بن أبي بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء .

* * *

وفي « المدينة » كان الرسول يهيىء مقاما لعائشة .

حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم أقام في «قباء» أربعة أيام، أسس خلالها أول مسجد في الاسلام (٣) .

وركب ناقته « القصواء » يوم جمعة ، فأدركته صلاتها في « بني سالم ابن عوف » فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مر بحي من أحياء يثرب خرج اليه رجاله مرحبين داعين :

« هلم الينا يا رسول الله ، الى العدد والعدة والمنعة » .

(١ ، ٢) تاريخ الطبري : حوادث الهجرة ـ والاصابة ٨ .

(٣) السيرة لابن هشام ١٣٩/٢ ـ وتاريخ الطبري : ٢٥٦/٢ .

فيجيب شاكرا :

« خلوا سبيل ناقتي » .

فلما بركت الناقة ، اختار الرسول مبركها فبنى مسجده ومساكنه ..

وتنافس المهاجرون والأنصار في البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض .

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد .

وفي واحد من هذه البيوت أقامت « سودة بنت زمعة » ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على راحة الرسول وبنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ..

أما «رقية» فكانت في «الحبشة» مهاجرة مع زوجها «عثمان بن عفان» .

وأما « زينب » فكانت لا تزال « بمكة » ، يمسكها زوجها « أبو العاص ابن الربيع » وكان لا يزال مشركا .

* * *

واذ تم بناء مسجد الرسول وبيته ، واستقر المسلمون في دار الهجرة آمنين من اضطهاد عدوهم ، واطمأن بهم المقام ، تحدث « أبو بكر » بعد الهجرة بأشهر معدودات ، الى محمـد صلى الله عليه وسلم في اتمام الزواج الذي عقده بمكة منذ ثلاث سنين .

فلبى رسول الله راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار الى منزل صهره الصديق ، حيث كان يقيم في بني الحارث بن الخزرج .

وتصف « عائشة » يوم عرسها فتقول (١) : « جاء رسول الله بيتنـا فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتي ثم سوت شعري ومسحت وجهي بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى اذا كنت عند الباب ، وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي ، ثم أدخلتني ورسول الله جالس على سرير في بيتنا ، فأجلستني في حجره وقالت :

---

(١) الاصابة ٨ ـ والسمط الثمين ص ٣٢ ـ وتاريخ الطبري : ١٧٦/٣ .

ــ هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بي رسول الله في بيتي، ما نحرت عَلَيَّ جزور ولا ذبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله » .

وحمل اليهما كذلك قدح من لبن ، شرب الرسول منه ثم تناولته على استحياء فشربت منه ..

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق، مشرب بحمرة. وقد انتقلت الى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التي شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخيل ، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض الا الحصير . وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر.

وفي هذا البيت البسيط المتواضع بدأت « عائشة » حياة زوجية حافلة ، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد وبعده، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق في حياة الرسول والاسلام .

كانت صغيرة السن ، أو طفلة ــ كما يحلو لذوي الهوى أن ينعتوها ــ لكنها بشهادة مستشرق منهم ، « منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبي بكر .. فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه دور النبي الملحقة بالمسجد .. » (١)

وأدق من هذا أن يقال ان « عائشة » قد اكتمل نموها في هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عيني الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب (٢) الى شابة ناضجة مجربة، تسألها امرأة في مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : « ان كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي ! » .

---

(١) بودلي : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٣٠ من الترجمة العربية .

(٢) المسند : حـ ٦ ، صحيح البخاري : ١٨٢/٣ ط الشرقية .

وتكره أن تلقى امرأة زوجها في كآبة الحداد فتقول :

« لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام الا على زوج ! »

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذي تحبه « عائشة » بكل كيانها ، يشغل بالها في كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط ألا مكان لسودة في قلب الرسول ، وانما الذي كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذي ظفرت به « خديجة » قبلها من زوجها الرسول ، وتلك المكانة التي احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان !

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة، أنخديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ، وهي راقدة هنالك بعيدا تحت ثرى مكة ، فما تستطيع «عائشة» أن تشتفي منها بدعابة قاسية، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتيّ النضير ، أو تفاخرها بأنها زفت الى الرسول بكرا لم تعرف قط رجلا غيره

وحاولت « عائشة » أن تتجاهل هـذه الضرة التي ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا . ذلك أن طيف «خديجة» بقي ماثلا أبدا أمام عيني زوجها، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها في مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه

وزاد في قسوة الموقف أن الشهور مضت والأعوام ، و « عائشة » لا تنجب لزوجها ولدا ، على حين أنجبت « تلك العجوز من قريش » ــ كما كانت تسميها ــ البنين والبنات .

وكانت عائشة تعرف في زوجها ، وفي رجال قومها جميعا ، ذلك الحب القوي للأبناء ، والحرص على الانجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج ــ الذي أحبته جهد الحب ــ ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف هذا الزوج ومحبته ، وما يأخذها به ايمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه .

وكانت بحيث تجد في بنات محمد ــ زوجها الحبيب ــ ما يلطف من وقدة ظمئها الى الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن ، لكن ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنات ضرتها « خديجة » حتى تحس كأن حواجز منيعة

تقوم بينها وبينهن ، بل تحس أن كل واحدة منهن ، هي « خديجة » بلحمها ودمها ، تثير فيها أبدا شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها في كل آن بما كتب عليها من حرمان .

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء اخوتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة كي لا يرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء « عبد الله ابن الزبير » منزلة الأبن، وبه كانت تكنى فيقال : «أم عبد الله» . وحين مات أخوها « عبد الرحمن » ضمت اليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

« فما رأيت والدة قط أبرّ منها » .

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع في قلب الرسول لم تبلغه أخرى بعد خديجة ، وما ظفرت به من حب الزوج ، وتدليله ، وايثاره ...

❁

واذ هي سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا حرمانها ، آملة أن تستطيع به يوما تناسي ضرتها التي ماتت، فوجئت بزوجة جديدة تفد الى بيت النبي ، وتشغل الحجـرة التالية لحجرتها وحجـرة « سودة » ، وتشاركها في حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

ومن الزوجة الجديدة ؟

انها « حفصة » بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله الاسلام به !

وروع « عائشة » أن يتزوع « محمد » صلى الله عليه وسلم ــ عليها ، وما تزوج قط على خديجة ، حتى ماتت في الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها ، وحب الرسول لها ، من ذلك الهم البغيض المرير الذي لم يرض الرسول لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

وجاءت من بعد «حفصة» زوجات أخريات، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة ..

كان فيهن « زينب بنت جحش » الهاشمية الجميلة ، و « أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب » ، الحسناء الأبية المترفعة، و «جويرية بنت الحارث» التي تأخذ العين بروعتها، و «صفية بنت حيي» اليهودية الناعمةالساحرة، و « أم حبيبة » بنت أبي سفيان زعيم مكة وقائد جيشها ..

ثم كانت هناك « مارية » المصرية الجذابة ، أم ابراهيم بن محمد .

وريحانة بنت عمرو .. حسناء بني قريظة، لم يتزوجها الرسول، لكنها أقامت في ملكه ما عاش .

وكان هذا بحيث يجعل « عائشة » تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام ، لكن يكذب من يزعم أن « عائشة » أساغت يوما مرارة الضرائر ، ويجهل البشرية من يظن أن « عائشة » استراحت من ألم حرمانها من الأبنـاء

ووجدت في كنيتها بأم عبد الله ، أو في أمومتها للمؤمنين جميعا ، ما يخمد شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب عزَّ مثله في الأزواج .

ولم تدر « عائشة » أول الأمر كيف يدفع هذا الضر المحتوم ، فقد كانت تعرف ـ كما لم يعرف سواها ـ أن الرسول يتزوج عن حكمة ، وان لم تبرأ بشريته من رغبة .

وكانت تعلم ـ ويعلم الناس جميعا ـ أن عائشة هي الزوجة الحبيبة المفضلة ، رغم تعدد الزوجات .

فهل تسكن عن رضى واستسلام ؟

كلا ، وانما عليها أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها في قلب الرسول مهما يكلفها الأمر ، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها ، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه .

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يتجرد من بشريته ولا يحمل « عائشة » أو غيرها من نسائه على التجرد منها .

فلتستجب « عائشة » لفطرتها دون كبت أو قهر ، ولتكن لزوجاته مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية ، ولو جمحت بهن الغيرة ، وكلفته صلى الله عليه وسلم من أمرهن شططا .

* * *

وكانت « عائشة » بين زوجات النبي أشدهن غيرة عليه ، ونضالا في سبيل الاستئثار بحبه .

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد « خديجة » ، وأنها وحدها التي تزوجها بكرا ، وأنها « عائشة بنت أبي بكر » .

وقد نظرت الى ضرائرها تقيس نفسها اليهن ، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بانصاف ، لا لأنها تريد أن تعترف لهن بفضل أو ميزة ، ولكن لأن معرفة قوة الخصم أول سلاح للمحارب !

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل « سودة بنت زمعة » ، و « زينب بنت خزيمة » التي لم

تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات .

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات ، تظاهرهن « فاطمة بنت الرسول » التي أرادت لها « عائشة » منذ جاءت بيت محمد ، أن تكون لها ضرة وخصما .

وقررت أن تختار من هؤلاء ، أبعدهن عن الخطر في ميدان المنافسة ، فتوددت في شجاعة ولباقة الى « حفصة بنت عمر » (١) متخذة من تقاربهما في الأبوة سبيلا الى هذا التودد .

واستجابت « حفصة » لهذا التودد وقد سرها أن تؤثرها « حبيبة الرسول » ، بالمودة ، وأن تعترف بأن بنت عمر ، أقرب زوجة الى بنت أبي بكر .

واتخذت « عائشة » من « حفصة » موضع سرها منذ سمعت بزواج الرسول من « أم سلمة » فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس .

وهونت « حفصة » من خطر « أم سلمة » فانها على جمالها كبيرة السن، وان الجمال ليذبل سريعا في مثل سنها ، فلتُبق عائشة غيرتها لمن تستحق وفعلت عائشة ..

ادخرت غيرتها للشابة الهاشمية الحسناء « زينب بنت جحش » وتأهبت لها قبل أن تجيء، فما أعلن الرسول زواجه من بنت عمته، بعد أن عاتبته فيها السماء ، حتى قالت عائشة في غيرة وغضب :

« ما أرى ربك الا يسارع في هواك » (٢)

وراحت «عائشة» ـ تؤازرها حفصة ـ ترقب الزوجة الجديدة وتحصي الدقائق والساعات التي يقضيها الرسول معها ، فلما رأته يطيل المكث لديها ، فكرت في حيلة تصرفه صلى الله عليه وسلم عنها .

---

(١) في حديث السيدة عائشة عن حزب النساء ، أن حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية (رضهن) والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر الأزواج (رضهن) أنظر السمط الثمين ص ٣٩ .

(٢) ذكرت رواية أخرى في كلمتها هذه . أنظر السمط الثمين ٨٢ .

وأشركت (١) معها ، حفصة وسودة ، أيتهن دخل الرسول عليها اثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له :

« أكلت مغافير ؟ »

والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يطيق الرائحة الكريهة .

وجاء الرسول «عائشةَ» فتشممت أنفاسه وقالت : « انني أشم رائحة مغافير ، أكلت مغافير ؟ »

وكذلك قالت حفصة ..

ولما مر بسودة سألته مثل ذلك فأجاب : « لا » .

قالت :

« فما هذه الريح ؟ »

قال :

« سقتني زينب شربة من عسل » .

فقالت سودة بلهجة الخبيرة بمراعي البادية :

« رعَتْ نحلُه العرفطَ » .

والعرفط : الشجر الذي يثمر المغافير .

فما كان من الرسول الا أن حرم شرب العسل عند « زينب » من يومه وأحست « سودة » ندما فقالت لصاحبتيها : « سبحان الله ! والله لقد حرمناه ! » (٢)

فنظرت اليها عائشة ، أن اسكتي !

* * *

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن « عائشة » حينا عن أم سلمة وزينب ، وان عرفت أن هاتين أحب زوجات الرسول اليه بعدها .

واحدى هؤلاء الوافدات من كندة ، وثانية من مصر .

أما الأولى فكانت « أسماء بنت النعمان » التي أحست « عائشة » خطر

(١ ، ٢) السمط الثمين : ٨٠ ، ٨١ ـ وفي رواية ان التي سقته شربة العسل هي السيدة حفصة (رضها) .

جمالها منذ وقعت عليهـا عيناها ، وقدرت أنها اذا لم تحل بينهـا وبين زوجها الرسول ، فسوف تكلفها من أمرها عسرا .

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل ان يتم الزواج !

وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها !

دعت اليها حفصة ، وأخرى ممن يحرصن على ارضائها ، فقالت لهما : « قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا » .

واتفقن على خطة موحدة : أقبلن على العروس مهنئـات ، يجلونهـا للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضا الزوج العظيم ومحبته ، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله اذا ما دخل عليها !

وفعلت المسكينة !

لم تكد ترى الرسول مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله (١) وفي حسابها انها تستجلب محبته ورضاه !

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :

« لقد عـُذتِ بمعاذ »

وغادرها من لحظته ، وأمر أن تلحق بأهلها .

فبعثت اليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام الا أن يبتسم ويقول :

« انهن صواحب يوسف ، وان كيدهن عظيم ! »

وبقي عند كلمته ، فلم يمسك تلك التي عاذت بمعاذ ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

* * *

أما « مارية » المصرية ، فلعل « عائشة » لم تأبه لها أول الأمر ، أن كانت أمة قبطية أجنبية وضعها الرق في منزل دون منازل أمهات المؤمنين.

---

(١) اختلفت الروايات في اسم التي استعاذت بالله عندما دخل عليها الرسول ، فقيل هي اسماء بنت النعمان ، وقيل هي ابنة عم لها من كنده كذلك ـ السيرة ٤/٢٩٧ • وفي الطبري انها مليكة بنت دواد الليثية ـ ٣/١٢٣ ـ أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية ـ ٣/١٣٩ •

وربما استكثرت « عائشة » عليها أن تعدها منافسة لها ، وهي التي تعيش خارج بيت النبي .

لكن « مارية » لم تكد تحمل من رسول الله ، حتى هاجت غيرة «عائشة» وغيظها ، فبدأت تكيد لها ، والرسول يحاول أن يحميها من كيد الحبيبة المدلة بمكانتها ، لكن الأمر خرج من يده ذات يوم : جاءت «مارية» تلتمس لقاءه في شأن لها ، فخلا بها في بيت حفصة التي كانت اذ ذاك تزور أباها. فلما عادت «حفصة» ألفت الستر مسدلا وعلمت أن مارية هناك، فأقامت تنتظر على أحر من الجمر ، حتى اذا انصرفت « مارية » دخلت « حفصة » على الرسول باكية مقهورة ، ولم تهدأ حتى حرم الرسول « مارية » على نفسه ، موصيا حفصة بكتمان ما كان (١) .

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة ، فكأنما أشعلت فيها النار . واندفعت « عائشة » تستثير ضرائرها ، فما زالت بهن حتى انضممن اليها وقد تناسين غيرتهن منها ، وكانت كلمتهن :

« صبرنا على ايثار الرسول لابنة أبي بكر ، وما بقي الا تلك الأمة القبطية ، فأي هوان ! »

ولجَّت عائشة في غيرتها ، والنساء يظاهرنها على زوجهن الرسول ، غيظا من « مارية » التي حملت دونهن بضعة من رسول الله ، وترفق الرسول بهن ما استطاع ، مقدرا بواعث هذا التظاهر ، لكنهن تمادين في اللجاج الى حد الشطط ، مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن ..

وما كان صلى الله عليه وسلم فارغ البال اذ ذاك لهذا العبث النسوي المسرف ، ولا كان يستطيع أن يرخي لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل ، فاعتزلهن في صرامة لم يألفنها ، وأعلن في حزم وتصميم ، أنه منقطع عنهن ، منصرف عن مؤامراتهن الصغيرة الى شئونه الكبار .

وسرى الهمس بين المسلمين أن النبي مطلق زوجاته ، وانكمشت المتظاهرات في بيت النبي حزينات نادمات ، أن جاوز الأمر ما قدرن ،

---

(١) السمط الثمين : ٨٥ .

وأوشكن على الوقوع في الهوة التي حفرنها لمارية ، وما لهن من عاصم يقيهن سوء المصير ، اذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله .

على أن « عائشة » ــ قائدة الثــورة وزعيمة المتظاهرات ــ لم تفزع لغضب رسول الله ، بقدر ما فزعت لما مسه صلى الله عليه وسلم من مشقة. وكان قلبها يتمزق ، كلما تمثلت الحبيب يعــود من ميدان الكفاح مثقل الكاهل بأجسم المسئوليات ، فيأوي الى خزانة له ذات مشربة ، يرقى اليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه « رباح » على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها ، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، وتنفض عنه غبار المعركة ، ولا من صوت ناعم يهدهد مضجعه حتى ينام !

ومضى شهر بأكمله والرسول في شغل بنشر الدعوة ، و «عائشة» في شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم في عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته في موضوع زوجاته .

* * *

ولكن الرسول لم يطلق نساءه .

والسماء لم تتخل عنهن ، بل اكتفت بانذارهن ان لم يتُبن فعسى ربه ان طلقهن ، أن يبدله أزواجا خيرا منهن ! (١)

وطارت البشرى الى أمهات المؤمنين أن الرسول صلى الله عليه وسلم عائد الى بيته ، فوقفن بأبوابهن في لهفة يلتمسن نظرة الى وجهه الكريم اذ يعود من معتزله ، على حين بقيت « عائشة » داخل مخدعها تستعد للقاء الحبيب العائد ، اذ كانت تعرف عن يقين أن اليها أولَ المطاف ! (٢)

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها ، ولاذت بكل ما استطاعت من تماسك لتتلقاه قائلة في عتاب رقيق :

---

(١) سورة التحريم .
(٢) السمط الثمين : ٥٣ .

« بأبي أنت وأمي يا نبي الله ! قلتُ كلمة لم ألق لها بالاً فغضبت عليَّ ؟! »

واذ اقبل عليها مصغيا ، استطردت تقول في دلال ودعابة حلوة :

« أقسمت أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين » .

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام بابتسامة عذبة ، وقد سرَّه أن يعرف أنها كانت تحصي ليالي الفراق عدا .

وأجابها بأن شهرهما ذاك ، تسع وعشرين ليلة !

* * *

نجت «عائشة » من محنة الهجر ، ومن قبل نجاها الله من محنة أدهى وأفدح ، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع ..

❋

محنة الإفك

حدث ذلك في السنة السادسة للهجرة ، بعد أن تزوج الرسول « زينب بنت جحش » .

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب لغزو بني المصطلق ، فأقرع بين نسائه على عادته كلما خرج في سفر أو غزوة ، فخرج سهم « عائشة » .

وانطلقت في صحبته سعيدة هانئة ، وقد سرها أن تنفرد بزوجها الحبيب أياما وليالي لا تشاركها فيه أخرى .

وكانت فألا حسنا على البطل الغازي ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير الى « المدينة » التي كانت اذ ذاك تهزج بأغاني النصر .

وفي الطريق ــ قريبا من المدينة ــ أناخ العسكر فباتوا الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا .

وبلغ الركب المدينة في مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين الى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج في رفق ، فاذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث الرسول وصحبه ساعة من نهار ، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم في الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة ..

حتى بدت من بعيد ، تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه « صفوان ابن المعطل السلمي » .

واطمأن الرسول أن وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه حرفا .

قالت : (١)

---

(١) السيرة : ٣/٣١٠ ــ وتاريخ الطبري : حوادث السنة السادسة للهجرة (٣/٦٧) .

« خرجت لبعض حاجتي ، قبل أن يؤذّن في الناس بالرحيل ، وفي عنقي عقد لي فيه جزع « ظفار » ـ مدينة باليمن ـ فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت الى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل ، فرجعت الى مكاني الذي ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم ـ وأنا بعيدة ـ فرحلوا بعيري وأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه ـ اذ كنت خفيفة لم يثقلني اللحم ـ فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكوا أني فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت الى العسكر وما فيه من داع ، ولا مجيب ، قد انطلق الناس

« فتلففت بجلبابي ، ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو قد افتُقِدتُ لرُجع الَيّ . فوالله اني لمضطجعة ، اذ مر بي صفوان بن المعطل السلمِي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليّ ـ وقد كان يراها قبل أن يضرب عليها الحجاب ـ فلما رآني قال :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما خلّفكِ يرحمك الله ؟!

« فما كلمته ...

« ثم قرب البعير فقال : اركبي .

« واستأخر عني ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتُقدت حتى أصبحت ونزل الناس، وطلع الرجل يقود بي » (١) .

وأوت « عائشة » الى فراشها فنامت هادئة ، والمدينة يقظى لا تنام !

ذلك أن قوما من ذوي الهوى ، على رأسهم « عبد الله بن أبي بن سلول » ـ الذي ما برىء من حقده على الرسول وما فتىء يكيد له ـ تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات ، ليشفوا وترهم وأحقادهم .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٠ ـ وتاريخ الطبري : ٣/٦٨ .

وانتقل حديث الافك من دار « ابن سلول » ، ومن لفّ لفه ، الى أحياء المدينة ، وردده ناس من المسلمين ، فيهم « حسان بن ثابت » شاعر الرسول ، و « مسطح بن أثاثة » قريب أبي بكر وموضع بره ، و «حمنة بنت جحش» ، ابنة عمة النبي وأخت زوجته زينب !

وبلغ الحديث أذني محمد صلى الله عليه وسلم، كما بلغ مسامع أبي بكر وأم رومان فصكها صكا ! لكن أحداً منهم لم يستطع أن يواجه « عائشة » بالشائعة الرهيبة ، أن كانت منذ عادت من غزوة بني المصطلق ، معتلة تشتكي شكوى شديدة ، فظلت لا تدري ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شيء ، الا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة ، وقد عودها اذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنان وافر ، فأمست هذه المرة ولا حظّ لها من ذلك اللطف والحنان الا أن يدخل عليها من حين الى حين ، وعندها أمها تمرضها فيسأل : (١)

« كيف تيكم ؟ » ، لا يزيد على ذلك !

ولم تشأ أن تسأل الرسول عما يريبها من جفائه ، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال ، وكانت تحس بقلبها أنه صلى الله عليه وسلم يكابد هما ثقيلا ، فتماسكت متجلدة ، وهي تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التي غشيت دنياها . حتى جاوز جفاؤه احتمالها ، فقالت للرسول : « لو أذنت لي ، فانتقلتُ الى أمي ، فمرضتني ؟ »

فكان جوابه أن قال في جفاء : « لا عليكِ »

فتقول « عائشة » : (٢)

« فانتقلت الى أمي ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ...

« فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي « أم مسطح » بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، كانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد

---

(١) السمط الثمين : ٦٤ وتاريخ الطبري : ٦٨/٣ ط مصر .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣١١/٤ ـ والسمط الثمين ص ٦٥ وتاريخ الطبري ٦٨/٣ .

ابن تيم ، خالة أبي بكر . فوالله انها لتمشي معي اذ عثرت في مرطها فقالت :

ـ تَعِسَ مِسْطَح !

قلت :

ـ بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً .

فسألت في دهشة :

ـ أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟

قلت :

ـ وما الخبر ؟

قالت :

ـ نعم والله ، لقد كان ...

فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ، ورجعت فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي ، قلت لأمي :

ـ يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ؟

قالت :

ـ أي بنية ! خفضي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، الا كثَّرن وكثر الناس عليها ! (١)

لكن « عائشة » باتت مسهدة فما يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم.

* * *

وبعيدا عنها كان الرسول يعاني مثل الذي تعانيه : قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم فادح ، وأذناه تصغيان الى الشائعات المرجفة بالسوء .

وقد قام في الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير

---

(١) السيرة : ٣/٣١١ والسمط الثمين ٦٥ ـ وتاريخ الطبري ٣/٦٨ .

الحق ؟.. والله ما علمت منهم الا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه الا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتي الا وهو معي » .

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم في محنته وعذابه ، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة ، وعقيلة حرة ، فتختلط أصواتهم في طلب الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الافك من هؤلاء وأولئك ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الاوس والخزرج شر (١) .

وتمضي عائشة في وصف محنتها فتقول :

« ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليَّ ، فدعا « علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد » فاستشارهما .

فأما أسامة فأثنى عليَّ خيرا وقال :

ــ يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منها الا خيرا، وهذا الكذبُ والباطل.

وأما « علي » فانه قال :

ــ يا رسول الله ، النساء لكثير ، وانك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فانها ستصدقك .

« فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريتي « بريرة » ليسألها . فقام اليها « علي بن أبي طالب » فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

ــ اصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقول بريرة :

ــ والله ما أعلم الا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا الا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله !

ويخرج الرسول مثقل الكاهل محزون الفؤاد .

ثم يعود بعد حين الى بيت ابي بكر ، فاذا عائشة هناك مقرحة الأجفان تبكي ، فتبكي لها زائرة عندها من الأنصار ، وأبواها ينظران اليها في صمت وأسى .

---

(١) انظر حديث الافك بالتفصيل في (صحيح البخاري) : ٢٧/٣ ط الشرفية وفي (السمط الثمين) ص ٦٣ وتاريخ الطبري في حوادث السنة السادسة : ٦٧/٣ : ٧١ .

ولأول مرة منذ شاع حديث الافك ، جلس الرسول يحدث عائشة ..
قال : (١)

« يا عائشة ، انه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتقي الله . وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبي الى الله ، فان الله يقبل التوبة من عباده »

فما هو الا أن قال لها ذلك حتي جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت . وحاولت أن تتكلم فعصي لسانها ، واذ ذاك تلفتت الى أبويها، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله .

واذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها :

« ألا تجيبان ؟ »

قالا معا بصوت تخنقه العبرات :

« والله ما ندري بم نجيب ! »

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل في كيانها ، ثم اتجهت الى زوجها الرسول تقول : (٢)

« والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ! والله اني لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس ، والله يعلم أني منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني » .

وحاولت أن تتذكر اسم « يعقوب » لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : « ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ثم صمتت .

فلم يبرح الرسول مجلسه عندها ،حتى تغشَّاه ما كان يتغشاه من نزول الوحي ، فسُجي بثوبه ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه .

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقا

(١ ، ٢) السمط الثمين ٦٧ ــ وتاريخ الطبري ٣/٦٧ .

وقلقا ، وأما هي فما فزعت ولا خافت ، أن كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها .

ثم سري عن رسول الله ، فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول : « أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك ! »

وتنفس أبو بكر كمنأزيح عن صدره كابوس جاثم، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح ، فأشارت الى عائشة أن تقوم الى زوجها ، فقالت عائشة في عزة واباء : « والله لا أقوم اليه ، فاني لا أحمد الا الله عز وجل ، هو الذي أنزل براءتي » (١) .

ثم التفتت الى أبيها ، وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا، فقالت له : « يا أبتاه هلا كنت عذرتني !؟ » فأجاب : « أي سماء تظللني وأي أرض تقلني ان قلت بما لا أعلم ؟ »

أما الرسول ، فرنا اليها في عطف وهو يتذكر ما كابدت من افك ظالم ، وخرج الى المسجد وتلا على الناس من وحي السماء :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولَّى كِبَرَه منهم له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا : هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ، لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » .

«اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ، ويبين لكم الآيات والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن

(١) السمط الثمين : ٦٧ .

تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١)

وجُلِد الذين أفصحوا بالفاحشة : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » (٢) .

❋

(١) سورة النور : آيات : ١١-١٩ .
(٢) سورة النور : آية ٤ .

وعادت السيدة « عائشة » الى مكانها في بيت الرسول ، تحف بها هالة من آيات النور ، ويزدهيها النصر الالهي الذي جعل براءتها قرآنا يتعبد به المسلمون ما بقيت الحياة ..

وعادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة ، وتمرح ما شاء لها صباها ودلالها في ظل الحبيب ، وتباهي ضرائرها قائلة :

« أية امرأة كانت أحظى عند زوج مني ! »

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام :

« حبك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى » .

أو تنقل اليهن ما كان من سؤال عمرو بن العاص للرسول : (١)

ـ يا رسول الله من أحب الناس اليك ؟

أجاب عليه الصلاة والسلام :

« عائشة » .

قال عمرو :

« انما أقول من الرجال » .

فأجاب الرسول : « أبوها ! »

وكان (٢) المسلمون يعلمون حب الرسول لعائشة وايثاره اياها ، فينتظرون حتى يكون في بيتها ويبعثون اليه بالهدايا . ومع أن الرسول كان يرسل لكل زوجة من زوجاته نصيبها مما يتلقى وهو في بيت عائشة، الا أن الغيرة استفزتهن، فتشاورن في وضع حد لما يلقين من بنت أبي بكر وانتهى بهن الرأي الى أن يلتمسن من «السيدة فاطمة الزهراء» مخاطبة

(١) صحيح البخاري : ٢٠١/٢ ط الشرفية .
(٢) السمط الثمين للطبري : ص ٣٩ .

أبيها صلى الله عليه وسلم في الأمر ، واستجابت رضي الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت :

« يا أبي ، ان نساءك أرسلنني اليك ، وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة » .

فسألها الرسول : (١)

« أي بنية ، أتحبينني ؟ » .

فهتفت بملء ايمانها :

« بلى يا أبي » .

قال :

« فأحبيها » .

وعادت الزهراء الى زوجاتِ الرسول فنقلت اليهن ما سمعت ، فألححن عليها أن تعاود الحديث في الموضوع ثانية، لكنها أبت أن تحدث أباها عليه الصلاة والسلام بما يكره .

واخترن من بينهن احدى اثنتين ، هما أحب نساء الرسول اليه بعد عائشة : زينب بنت جحش (٢)، أو أم سلمة . فتحدثت اليه صلى الله عليه وسلم فيما يشكو نساؤه ، مرة ثانية وثالثة ، الى أن قال :

« لا تؤذيني في عائشة .. » (٣)

وهكذا رد الرسول عن عائشة ضرائرها .

وكذلك رد عنها « أبا بكر » حين كان يحاول في عنف أن يخفف من غلوائها . .

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان الرسول يوسع لها العذر فيقول :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وقد يسألها :

ـ أغرتِ ؟

(١ ، ٢) السمط الثمين للطبري : ص ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٤١ .

فتجيب :

ـ وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك ؟ (١)

وصدقت « عائشة » ..

وكذب الذين ادعوا تجردها من البشرية وترفعهـا عن أهواء حواء وبراءتها من فطرة الأنثى .

وأخطأت الزميلة « الدكتورة زهية قدورة » ، حين قالت في رسالتها عن « عائشة أم المؤمنين » : « ان الغيرة لم تكن لتتغلغل الى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل .. وان الأمر لم يكن ليدخل في باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الاسلامي من الافرنج (٢) أن يصفوها .. ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن في ارضاء زوجهن رسول الله »

سبحان الله !

وهل كان تحزبهن في قصة المغافير ، وتظاهرهن ضد مارية ، من صنع الفرنجة ؟

أو كانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله اذا دخل عليها الرسول ، داخل ما تسميه الزميلة : الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل ؟

أو كان اتفاقهن على مغاضبة الرسول اذ خلا بمارية وهي حِلٌّ له ، من بين هذه الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر ؟

اللهم لا ، وانما كانت «عائشة» أنثى سليمة الفطرة، ينزع بها ميراثها العاطفي الى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة .

وما غيرتها المحتدمة ـ بعد هذا كله ـ الا مظهر حب عميق لرجلهـا الأوحد ، ودليل تعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ورغبة لا تقاوم في الاستئثار به ..

---

(١) السمط الثمين : ٨٠ .

(٢) في السمط الثمين للمحب الطبري ص ٣٩ حديث عن عائشة رضي الله عنها .. ان نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كن حزبين .

ونظلمها ، ونظلم نبينا الكريم، اذا تكلفنا نفي هذه الغيرة عنها ووصفنا ما بينها وبين ضرائرها « بالاتفاق الرائع »
وما لها ألا يغار مثلها على مثله ؟!

* * *

كانت السنوات التي تلت محنة الافك حافلة بجليل الأحداث ..
وقد أقامت « عائشة » ما عاش الرسول تشهد أمجاده ، وتتلقاه عائدا مظفرا من غزواته ، وترقب دعوته وهي تنتشر وتمتد ، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل .
ثم آن للبطل أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة ..
وآن للرسول البشر ، أن يرقد بعد طول نصب وسهاد .
عاد من حجة الوداع الى « المدينة » فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة ، فخرج الى البقيع يحيي الراقدين هناك ..
فلما أصبح مر بعائشة في الغداة فوجدها تشكو صداعا وتئن متوجعة:
« وا رأساه ! »
قال وقد بدأ يحس ألم المرض :
« بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! »
فلما كررت الشكوى داعبها بقوله :
« وما ضرك لو مُتِّ قبلي فقمتُ عليك ، وكفنتك ، وصليت عليك ، ودفنتك ؟ »
فصاحت وقد هاجت غيرتها :
« ليكن ذلك حظ غيري ! والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعتَ الى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك » (١) .
فأشرق وجهه صلى الله عليه وسلم بابتسامة لطيفة ، وسكن عنه الألم هونا ما ، ثم قام يطوف بزوجاته ، لكن الألم ما لبث أن عاوده واشتد عليه حتى اذا وصل في طوافه الى بيت « ميمونة » لم يعد يحتمل مغالبة ألمه ،

---

(١) السمط الثمين : ٥٥ ـ والسيرة : ٢٩٢/٤ ـ وتاريخ الطبري : ١٩١/٣ .

فنظر الى زوجاته وقد تجمعن حوله ، ثم قال متسائلا :

« أين أنا غدا ؟ .. أين أنا بعد غد ؟ »

وأدركت نساؤه على الفور ما وراء سؤاله من تطلع الى يوم « عائشة » فطابت نفوسهن بأن يمرض رسول الله حيث أحب ، وقلن جميعا :

« يا رسول الله ، قد وهبنا أيامنا لعائشة » (١) .

وانتقل الرسول الى بيت الحبيبة ، فسهرت عليه تمرضه وبودها لو تفتديه بالروح ، وحانت لحظة الرحيل ، ورأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها .

قالت (٢) عائشة تصف اللحظة الرهيبة :

« وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري ، فذهبت أنظر الى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول :

ـ بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قلت :

ـ خُيِّرتَ فاخترت والذي بعثك بالحق .

« وقبض رسول الله بين سحري ونحري .. فمن سفهي وحداثة سني أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي » .

* * *

وكادت تكون فتنة ، عصم الله المسلمين منها حين ألهم « أبا بكر » أن يقف في المسلمين فيقول :

ـ أيها الناس ، انه من كان يعبد محمدا فان محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ..

ثم يتلو فيهم قوله تعالى في كتابه المنزل على محمد بن عبد الله :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٩٢/٤ والسمط الثمين : ٥٥ . وفي تاريخ الطبري انه صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه ان يمرض في بيت عائشة ، فأذن له (١٩١/٣) .

(٢) تاريخ الطبري : ١٩٧/٣ .

انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين » (١) .

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها «ابو بكر» يومئذ !

ودفن الرسول في بيت « عائشة » ..

وتولى أبوها الخلافة من بعده ..

* * *

وعاشت « عائشة » لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة ، وليأخذ المسلمون عنها نصف دينهم كما مر رسول الله .

قال الامام « الزهري » : لو جمع علم عائشة ، الى علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل (٢) .

عاشت لتصحح رأي الناس في المرأة العربية ، وتعرض لها صورة أصيلة رائعة ، ستظل تبهر الدنيا ما أدبر ليل أو أقبل نهار ..

عاشت لتشارك في حياة الاسلام أعنف مشاركة ، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التي صنعت التاريخ الاسلامي منذ مقتل « عثمان بن عفان » رضي الله عنه ، وتقود الجيوش لمحاربة « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه .

ثم ماتت في السادسة والستين من عمرها ، بعد أن تركت أعمق الآثار في الحياة الفقهية ، والاجتماعية ، والسياسية للمسلمين .

وكانت وفاتها ـ على الأرجح ـ ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان عام ثمانية وخمسين (٣) ، وصلى عليها « أبو هريرة » ثم شيعت جنازتها في غسق الليل الى البقيع ـ كما أوصت ـ على أضواء مشاعل

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٤ .

(٢) الاستيعاب : ١٨٣٣/٤ .

(٣) تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٥٨ هـ ـ والسمط الثمين ص ٨٢ ـ والاستيعاب : ١٨٨٥/٤ .

من جريد مغموس في الزيت ، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة ، فلم تر ليلة أكثر ناسا منها .

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين ، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذي احتدم أعواما في ذلك الكيان الرفيق اللطيف .

ونزل معها الى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير . والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن (١) .

ونامت أخيرا، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت في السادسة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التي عاشتها ملء الحياة !

❁

---

(١) تاريخ الطبري : وفي الاستيعاب : ١٨٨٥/٤ أنه نزل في قبرها خمسة : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم ، وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن .

الفصل الخامس



« يا بنية ، لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب الرسول صلى الله عليه وسلم لها . والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

عمر بن الخطاب



الأرملة الشابة

لم يشهد « بدرا » من بني سهم غير رجل واحد ، هو (١) الصحابي الجليل « خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي القرشي » ، وكان من مهاجري الحبشة وقد شهد « أحدا » كذلك ، ثم مات بعدها في دار الهجرة ، وترك من ورائه أرملته « حفصة بنت عمر بن الخطاب » .

وتألم « عمر » لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها ويخنق صباها وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ، ورأى ابنته في حزنها ، فبدا له ــ بعد تفكير طويل ــ أن يختار لها زوجا ، قد تأنس لصحبته فتسترد بعض الذي أضاعت في حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد ..

ووقع اختياره على « أبي بكر بن قحافة » صفي الرسول وصهره ، وصاحبه الصديق .

وارتاح للفكرة ، فان أبا بكر في رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه ، كفيل بأن يحتمل « حفصة » بما ورثت عن أبيها من حدة المزاج ، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر .

وأرضاه أن يصهر الى أحب رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يتردد عمر ، بل سعى من فوره الى أبي بكر ، فحدثه عن «حفصة» والصديق يصغي في عطف ومواساة .

ثم عرض عليه أن يتزوجها ، وفي يقينه أن « أبا بكر » سيرحب بالشابة التقية ، ابنة الرجل الذي أعز الله الاسلام به .

لكن « أبا بكر » أمسك لا يجيب .

---

(١) انظر السيرة لابن هشام : ٦/٣ ، ٣٤١ وتاريخ الطبري : ١٧٧/٣ ــ والاستيعاب والاصابة ، حرف الخاء

وانصرف « عمر » واجداً ، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض «حفصة» بعد أن عرضها أبوها عليه .

وسارت به قدماه الى بيت « عثمان بن عفان » وكانت زوجته «رقية» بنت الرسول قد مرضت بالحصبة ــ بعد عودتها من الحبشة ــ والمسلمون يلقون عدوهم في بدر ، ثم ماتت بعد أن تم النصر لأبيها والمؤمنين (١) .

وتحدث عمر الى عثمان ، فعرض عليه « حفصة » وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبي بكر ، وان حاول جهده أن يكظم غيظه ، فلعل الله قد اختار لحفصة « عثمـان » وهو ــ تعالى ــ يعلـم أي الرجلين أصلح للأرملة الشابة .

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما ، جاءه بعدها فقال :

« ما أريد أن أتزوج اليوم ! » (٢) .

فكاد « عمر » يتهاوى من قسوة الموقف ، ثم فار دمـه ، فانطلق الى الرسول يشكو صاحبيه .

أمِثلُ حفصة ــ في شبابها وتقواها وشرفها ــ تُرفَض ؟

وممن ؟ من أبي بكر وعثمان ، صاحبي الرسول وصهريه ، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر ، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا ؟

ودخل « عمر » على الرسول ، وما يملك نفسه من غيظ وألم ، فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله في عطف ومودة عما يؤلمه ..

ونفض « عمر » لدى الرسول الأكرم ما يرهقه ويضنيه ، وكشف له عما كان من « أبي بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان » ..

فابتسم الرسول قائلا :

« يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هي خير من حفصة »

---

(١) انظر حديث السيدة رقية في كتابنا « بنات النبي » .

(٢) هذه رواية الاستيعاب (١٨١١/٤) وفي رواية أن عمر عرض حفصة على عثمان ثم على أبي بكر ــ رضي الله عنهم . ارجع الى السمط الثمين ص ٨٣ .

وردد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : « يتزوج حفصـــة من هو خير من عثمان ؟ »

وأشرقت في خاطره لمحة مضيئة : أيتزوج الرسول من ابنته ؟

ذاك والله شرف لم تتطاول اليه أمانيه .

ونهض الى الرسول يصافحه متهللا ، وقد زال عنـــه ما كان يجـد من مهانة الرفض .

وخرج مسرعا ليزف الى ابنته ، والى أبي بكر وعثمان ، والى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة .

وكان أبو بكر أول من لقيه ، فما نظر اليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته ، فمد يده مهنئا معتذرا يقول : (١)

« لا تَجِدْ عليَّ يا عمر ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر حفصة ، فلَم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها لتزوجتها » .

ومضى كلاهما الى ابنته :

أبو بكر ليهون على « عائشة » من وقع الخبر .

وعمر ليبشر « حفصة » بأكرم زوج .

وباركت المدينة يد الرسول وهي تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جرح ابنته حفصة .

كما باركت بعد قليل زواج عثمـــان من « أم كلثوم بنت محمـــد » في جمادى الآخرة ، من السنة الثالثة للهجرة .

وتهيأ بيت النبي لاستقبال العروس الجديدة ...

---

(١) السمط الثمين : ٨٣ ـ والاستيعاب : ١٨١١/٤ .

وجاءت العروس ، وفي البيت « سودة » و « عائشة » .

أما « سودة » فرحبت بها راضية ، وأما « عائشة »فغاظها أن يأتيها الرسول بضرة ، وما فعل ذلك قط مع « خديجة » .

وضايقها ألا تجد في « حفصة » مغمزا ، فهي مَنْ هي ، شبابا وتقى ، وعزة نسب .

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الدافق وأبيها الصدِّيق ، وحظ «حفصة» من هذين ، ليس بالذي ينكر أو يجحد

و « عائشة » كانت تضيق حين يمضي الرسول ليلة بعد أخرى فيبيت عند « سودة » التي ما اكترثت لها عائشة كثيرا ، فكيف يكون موقفها حين يبيت الرسول عند حفصة ؟

واحتارت ماذا تفعل ، اذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضي عمر ويباركه الاسلام والمسلمون .

وسكتت على مضض وغيرة ، الى أن وفدت على بيت النبي زوجات جديدات ، فتناست « عائشة » ما كانت تجد من « حفصة » ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها اليها ، وأجدرهن بأن تقف معها في وجه الخطر المشترك .

وأدركت حفصة ، أنها اذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هي « عائشة » وقد سبقتها الى بيت الرسول ، والى قلبه ..

وربما جرح شعورها ان تعرف حب الرسول لعائشة، لكنها حين تتابعت الضرائر ، وقفت دون تردد ، الى جانب بنت أبي بكر .

وكان « عمر » يرقب موقفها في قلق مبهم ، فيريبه هذا التقارب ــ غير

الطبيعي ـ بين ابنته وبين بنت أبي بكر ، حتى اذا استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ولا مكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية المدللة ، ويردها عن جموحها في انكار :

« أين انتِ من عائشة ، وأين أبوك من أبيها ؟ »

واذ يسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول حتى يظل يومه غضبان ، ينطلق من فوره حتى يدخل عليها فيسألها ان كان ما سمعه حقا ؟ فاذا أجابت بأنه حق ، صاح يزجرها :

ـ تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية ، لا يغرنَّك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

ويمضي عن « حفصة » ، بعد أن نكأ في أعماقها جرحا حاولت جهدها أن تداريه وتطويه ، فتستسلم لشجنها فترة ، ثم تثوب الى رشدها فتدرك أن ليس أمامها الا الرضوخ للواقع ، وتحاول من جديد أن تلتمس في صحبة الشابة المرحة ، ومشاركتها في معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية ، ما يشغلها عن ذاك الجرح المطوي ..

ويرخي لهما الرسول ما استطاع ، ويشفع لهما عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته ، وبنوتهما لأعز صاحبين .

حتى خلا يوما بمارية في بيت « حفصة » فعاد جرحها يقطر دما ، وتمثل لها أبوها يقول :

« والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ، ولولاي لطلقك ! »

فلما انصرفت «مارية» دخلت «حفصة» حجرتها وقالت للرسول : (١)

« لقد رأيتُ من كان عندك ، والله لقد سببتني ، وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك ! »

---

(١) السمط الثمين : ٨٥ .

ثم استعبرت باكية ..

ووقعت كلمتها من الرسول موقعا أليما ، فما كان ليهين بنت عمر ، وقد تزوجها تكريما لصاحبه .

وأقبل عليها يترضاها (١) ، وهان عليه أن يُسر اليها أن « مارية » حرام عليه ، فلتتناس « حفصة » ما كان ، ولتعتبره كأن لم يكن .

ورضيت « حفصة » ..

وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه ، حتى اذا مضى عنها الغداة ولمحت عائشة قريبة منها ، لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوي من سر خطير ، فنبأت به صاحبتها التي انتهزت الفرصة السانحة ، لتنال من غريمتها « الأمة القبطية » .

ولم تقدر « حفصة » وهي تذيع السر لعائشة ، أنها بسبيل اشعال نار في بيت الرسول ، فان عائشة لم تهدأ حتى جمعت نساء النبي في مظاهرة ثائرة بمارية ، مصرة على ألا يبقى لها في مدينة الرسول مكان .

وتلا ذلك ما نقلنا عند الحديث عن عائشة (٢) ، من اعتزال الرسول نساءه مدى شهر من الزمان ، شاع فيه أنه صلى الله عليه وسلم مطلق زوجاته .

والذي يعنينا هنا ، هو ما يتصل بحفصة وأبيها « عمر » فقد كانت هي التي نبأت بالسر الذي أوصاها الرسول أن تكتمه ، فأشعلت النار من حيث لا تدري ولا تقدّر .

فيقال ان الرسول طلق «حفصة» فعلا ، وهو خبر يرويه « ابن حجر (٣) من طرق شتى ، اتفقت على أن الرسول طلق حفصة تطليقة واحدة ، ثم ارتجعها ..

وفي هذا الارتجاع تختلف الروايات ، فتذهب رواية الى أن ذلك كان رحمة بعمر الذي حثا التراب على رأسه وقال : « ما يعبأ الله بعمر وابنته

---

(١) السمط الثمين : ٨٥ .

(٢) ص ٢٦٩-٢٧١ من هذه الموسوعة .

(٣) الاصابة : ٨/٥٢ ـ وانظر معه الاستيعاب : ٤/١٨١٢ .

بعدها » . فنزل جبريل من الغد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

« أرجع حفصة فانها صوامة قوامة ، وانها زوجتك في الجنة » (١)

ويبدو لي أن هذا الطلاق والارتجاع ، قد كانا قبل أن تستفحل ثورة « عائشة » ومن معها من نساء النبي ، فلما اعتزلهن الرسول ، كان من الطبيعي أن يكون احساس « حفصة » بالندم أوفر من احساس أمهات المؤمنين الأخريات ، وشعورها بالخطأ في حق الرسول ، أفدح من شعورهن . فما كان لها ـ وهي التقية العابدة ، بنت عمر بن الخطاب ـ أن تذيع سرا ائتمنها عليه الرسول ، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان، ولا كان لها أن تلقى ترضية الرسول لها ، واكرامه اياها ، بمثل ذاك الجحود والنكران .

وفي الاصابة : (٢)

« دخل عمر على ابنته وهي تبكي فقال :

ـ لعل رسول الله قد طلقك ؟ انه قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، فان كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً .

وخرج الى المسجد قلقا ، فألفى المسلمين هناك ينكتون الحصا مطرقين ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه .

ولم يكن أحد قبل ذلك قد جرؤ على أن يكلم الرسول فيهن منذ اعتزلهن . لكن « عمر » ـ وابنته هي السبب ـ لم يطق على ذلك صبراً ، بل قصد الى الخزانة التي يقيم بها الرسول ، وغلامه « رباح » قائم على عتبتها ، فاستأذن عمر في الدخول على الرسول ، وكرر النداء ، و «رباح» لا يجيب .

هنالك رفع « عمر » صوته وقال في ضراعة وأسى :

« يا رباح ، استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاني أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها » .

---

(١) جاءت الروايتان في السمط الثمين : ٨٥ ، والاستيعاب : ١٨١٢/٤ .
(٢) الجزء الثامن : ص ٥٢ .

وبلغ صوته سمع الرسول فتأثر ، وأذن له فدخل ، وأجال بصره في الخزانة وبكى ..

قال الرسول :

ـ ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟

فأشار « عمر » الى الحصير الذي كان الرسول مضطجعا عليه وقد أثر في جنبه ، والى قبضة من شعير ومثلها من قرظ ، كانتا كل ما بالخزانة من طعام .

ثم أمسك عبرته وقال :

ـ يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ ان كنتَ طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

فابتسم له الرسول، ورد اليه طمأنينته، فما طلق نساءه وانما هجرهن شهراً ..

ورُدَّت الروح الى « عمر » ، فاستأذن الرسول ونزل الى المسجد فنادى بأعلى صوته :

« لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه » ..

وجاء الرسول من بعده فتلا قوله تعالى :

« يا يها النبي لِمَ تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . واذ أسرَّ النبي الى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه ، عرَّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ .. قال : نبأني العليم الخبير . ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن : مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ، ثيبات وأبكاراً » (١) .

(١) سورة التحريم : الآيات ١ : ٥ ، وانظر الاقوال الأخرى في سبب النزول ، في تفسير الطبري ، وفي الكشاف للزمخشري ، الجزء الرابع ط مصر .

الوديعة الغالية

ووعت نساء النبي هذا الدرس السماوي ، وثابت « حفصة » الى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما .

ولا نعرف أنها من ذلك الحين ، قد اشتركت في مؤامرة نسوية ببيت الرسول ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلما انتقل صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه الأعلى كانت « حفصة » هي التي اختيرت من بين المؤمنين جميعا ــ وفيهن عائشة ــ لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم.

ذلك أن « عمر » نصح « أبا بكر : خليفة الرسول » أن يبادر فيجمع ما تفرق من القرآن الكريم في صحف شتى ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضي حفظته الأولون .

فاستجاب « أبو بكر » ، وجمع المصحف الكريم وأودعه عند أم المؤمنين « حفصة بنت عمر » .

وبقي المصحف لديها في مأمن ، حتى أخذه أمير المؤمنين « عثمان بن عفان » في خلافته ، فنسخ منه النسخ الأربع التي وزعت على الأمصار ، وأمر باحراق ما عداها ، حسما لما يحتمل من اختلاف المسلمين في قراءة كتاب الاسلام .

وتفرغت « حفصة » من بعد ذلك للعبادة ، حتى اذا كانت « الفتنة » وتهيأت « عائشة » للخروج من مكة ، في الجيش المطالب بدم عثمان ، أرادت ان تصحب « حفصة » معها ، فكرهت هذه أن ترد طلبا للزميلة التي آثرتها بمودتها حين جمعهما بيت الرسول ، وتهيأت لمصاحبتها ثم عادت فعدلت عن الخروج في الفتنة ، بعد أن حذرها أخوها « عبد الله بن عمر » من هذا الخروج .

وعاشت صوامة قوامة ، حتى ماتت في أخريات عهد « عثمان » أو في السنين الأولى من عهد « معاوية » (١) .

وخلدت في التاريخ : أم المؤمنين الحافظة لأول نسخة من المصحف الشريف ، كتاب العربية الأكبر ، ومعجزة الاسلام الخالدة .

❁

(١) رواية الواقدي أنها ماتت رضي الله عنها في شعبان سنة ٤٥ ، وفي رواية أخرى أوردها المحب الطبري في السمط (٨٦) أنها ماتت سنة احدى وأربعين ، وقيل ماتت في خلافة عثمان (رضه) ـ وانظر الاستيعاب : ١٨١٢/٤ .

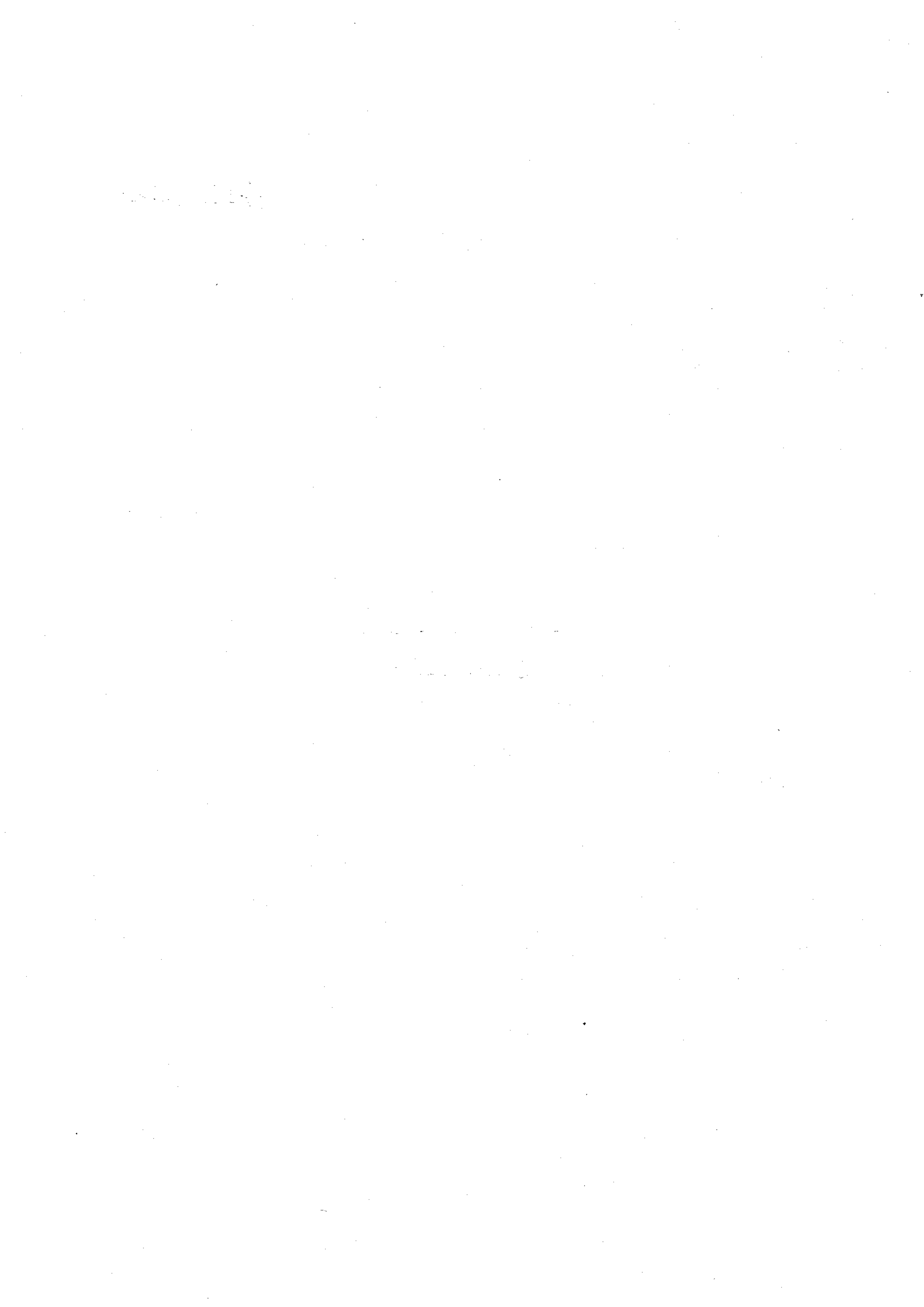
الفصل السادس

زينب بنت خزيمة

أم المساكين

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ، ورقتها عليهم »

ابن هشام : ٤/٢٩٦



أرملة الشهيد

لم يكن قد مضى على مجيء « حفصة » الى دور النبي غيرُ وقت قصير ، حين وفدت زوجة رابعة ، كانت هي الأخرى أرملة شهيد عزيز من شهداء « أحد » .

تلك هي « أم المؤمنين ، زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر » .

ويبدو أن قصر مقامها ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد صرف عنها كتّاب السيرة والتاريخ ، فلم يصل الينا من أخبارها سوى بضع روايات متناثرة شتى ، لا تسلم من تناقض .

وكأنما كان الذي يعني المؤرخون من أمرها ، أنها زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية ، وقد استشهد زوجها في أحد فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ثم لم تلبث أن ماتت .

أما اسم الزوج الذي استشهد ومات عنها فيختلفون فيه :

قيل (١) هو « عبد الله بن جحش » ابن عمة الرسول وأخو زوجته زينب .

وقيل (٢) : « كانت عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف » وأضاف ابن حجر وابن عبد البر : « ثم خلف عليها شقيقه عبيدة بن الحارث » .

وقيل ثالثة : « كانت قبل الرسول عند عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها » (٣) .

---

(١) ابن حجر : الاصابة ٩٤/٨ ـ والاستيعاب : ١٨٥٣/٤ .
(٢) تاريخ الطبري : ٣٣/٣ ، ١٧٩ ـ والاصابة ٩٤٤/٨ ـ والسمط الثمين : ١١٢ .
(٣) السيرة لابن هشام : ٢٩٧/٤ .

واختلفوا كذلك في وقت استشهاد زوجها :

ففي « الاصابة » انه عبد الله بن جحش ، وقد استشهد بأحد .

وعن « ابن الكلبي » : كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها ، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها ببدر ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي «الطبري» :

« وفي هذه السنة ــ الرابعة ــ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم **زينب بنت** خزيمة من بني هلال ، في شهر رمضان .. وكانت قبله عند **الطفيل** بن الحارث فطلقها » (١) .

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من الرسول :

فعن « ابن الكلبي » أن الرسول خطبها الى نفسها فجعلت أمرها اليه فتزوجها ..

وعن « ابن هشام » : (٢)

« زوجه اياها (عمها) قبيضة بن عمرو الهلالي ، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم » .

واختلفوا رابعة في المدة التي أقامتها ببيت النبي :

ففي «الاصابة» رواية تقول : « كان دخوله صلى الله عليه وسلم بها ، بعددخوله علىحفصة بنتعمر،ثم لم تلبثعنده شهرين أو ثلاثة وماتت».

ورواية أخرى عن ابن الكلبي :

« فتزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث ، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت في ربيع الآخر سنة أربع » .

ويقول ابن العماد :

« وفيها ــ يعني السنة الثالثة ــ دخل بزينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت » (٣) .

* * *

ولم تكن عناية المحدثين بتتبع أخبارها وتحقيق هذا الاختلاف فيها ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٣ . (٢) السيرة : ٢٩٦/٤ .

(٣) شذرات الذهب : اخبار السنة الثالثة .

أكثر من عناية الأقدمين : يجزم « الدكتور هيكل » بأنها قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذي استشهد يوم بدر ، فلم تلبث الا سنة أو سنتين ، ثم قبضها الله فكانت بعد خديجة ، الوحيدة من أزواج النبي التي توفيت قبله » (١) .

وينقل بودلي :

« .. تبع زواجَ محمد من حفصة زواجٌ آخر ، وكان زواجا شكليا اكثر من أي شيء آخر . كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث ـ ابن عم لمحمد سقط في بدر ـ وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وما ضمها محمد الى نسائه الا بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر (٢) .

ومر آخرون بزينب ، فلم يذكروها في كثير أو قليل .

* * *

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتاب السيرة في أمر زينب بنت خزيمة ، فقد اتفقوا جميعا على شيء واحد لم يختلف فيه اثنان ، ذاك هو وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد يعرض اسمها في اي كتاب مما أوردنا الا مقرونا بلقبها الكريم : أم المساكين (٣) .

فيقول ابن هشام :

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم » (٤)

وفي الاصابة : (٥)

« وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم » .

ومثل ذلك في الطبري (٦) وشذرات الذهب (٧) والاستيعاب (٨) .

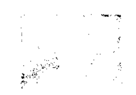
---

(١) حياة محمد : ٢٨٨ ـ وانظر تاريخ الطبري : ١٧٩/٣ .
(٢) الرسول : ١٧٦ .
(٣) السمط الثمين : ١١٢ وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد .
(٤) السيرة : ٢٩٦/٤ .
(٥) الجزء ٩٤/٨ .
(٦) ٣٣/٣ .
(٧) شذرات الذهب : ١٠/١ .
(٨) حـ ٤ ص ١٨٥٣ ط نهضة مصر .

وقال بودلي : « وكانت طيبة خيرة »
وذكر هيكل : « ولم تكن ذات جمال ، وانما عرفت بطيبتها واحسانها حتى لقبت بأم المساكين » .
والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر « الواقدي » ونقل « ابن حجر » في الاصابة ، وهي سن رآها المحدثون : متوسطة قد تخطت الشباب » .
ويفوتهم أن حكمهم عليها بتخطي الشباب وهي بعد في الثلاثين أو ما حولها ، يكفي ردا على ما أطالوا في الحديث فيه من طفولة « عائشة » .

* * *

ولو حاولنا أن نسأل كتب السيرة والتراجم مزيداً من أخبار «زينب» في بيت الرسول ، لما ظفرنا وراء ذلك بشيء ذي بال ، فحسبنا ان نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبي وأمومة المؤمنين ، منصرفة عن شواغل الحريم ، بما كان يشغلها من أمر المساكين ، قانعة بما ينالها من تقدير الرسول ، لا يرهقها طمع ولا تنهكها غيرة ..
ولم تطل (١) المقام ، بل مرت كطيف رقيق عابر ، ثم رقدت في سلام كما عاشت في سلام ، وخلدت في تاريخ الاسلام أما للمؤمنين ، وفي تاريخ الانسانية أما للمساكين ...





(١) السمط الثمين ١١٦ .

الفصل السابع



« .. لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم «أم سلمة» حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها ، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت والله أضعاف ما وصفت بـه .. »

عائشة بنت أبي بكر
الاصابة : ٨/٢٤١



خلا بيت « أم المساكين » في دور النبي ، وقتا غير قصير ، حتى جاءت « أم سلمة » فشغلته .

قالت ، فيما روى ابن سعد في (طبقاته) :

« ... فتزوجني ، فنقلني الى بيت زينب بنت خزيمة ، أم المساكين » .

واسمها : هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: القرشية المخزومية (١) .

ودخل بها الرسول في شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة ، كما نقل الطبريّ (٢) .

وأحدث دخولها ضجة في دور النبي ، وأشاع قلقا ـ وأي قلق ! ـ في الزوجتين الشابتين ، « عائشة وحفصة ، ابنتي أبي بكر وعمر » .

ولم لا ، وهذه زوجة جديدة عزيزة ، عريقة المنبت ، ذات جمال واباء وفطنة ، تزفها الى بيت النبي أمجاد طوال عراض .

أبوها : أحد أبناء قريش المعدودين ، وقد ذهب دونهم على الدهر بلقب « زاد الركب » أن كان اذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد ، بل يكفي رفقته من الزاد .

وأمها (٣) : عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية ، من بني فراس الأمجاد .

وزوجها الذي مات عنها قبل أن يتزوجها الرسول : أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة الصحابي الفارس ، ابن عمة الرسول : برة

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣٤٥/١ ، ٢٩٤/٤ ـ وتاريخ الطبري ١٧٧/٣

(٢) تاريخ الطبري : ٤٢/٣

(٣) السمط الثمين : ٨٦

بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخوه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة ، مولاة أبي لهب (١)

وكان لأبي سلمة ، ولزوجه هند ، الى جانب هذا النسب العريق ، ماض مجيد في الاسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا معا الى الحبشة حيث ولدت هند هناك ابنهما « سلمة » (٢) .

ثم قدما مكة ، حتى ضاقت بالمسلمين وألحت في اضطهادهم ، فأجمع « أبو سلمة » أمره على أن يهاجر ثانية فيخرج بأهله الى يثرب ، فكانت قصة خروجهما مأساة لا تزال ــ على بعد العهد بها وتطاول الآماد ــ عنيفة الاثارة أليمة الوقع .

ولندع « أم سلمة » تروي المأساة فتقول : (٣)

« ... لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحل بعيرا له وحملني وحمل معي ابني سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا اليه فقالوا :

ــ هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

« ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا الى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجي :

ــ والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا .

« فتجاذبوا ابني « سلمة » حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسني بنو المغيرة عندهم .

« ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة . وفُرِّق بيني وبين زوجي وابني ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريبا منها .

---

(١) السيرة : ٣/١٠٢ ، والاستيعاب والاصابة ٨

(٢) السيرة ١/٣٤٥

(٣) ابن هشام : السيرة ٢/١١٢ ، والسمط الثمين ٨٧

« حتى مر بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني فقال لبني المغيرة :

ـ ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها !

« وما زال بهم حتى قالوا :

ـ الحقي بزوجك ان شئت .

« وردَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ..

« حتى اذا كنت بالتنعيم ـ على فرسخين من مكة ـ لقيت (١) عثمان ابن طلحة فقال :

ـ أين يا بنت أبي أمية ؟

قلت :

ـ أريد زوجي بالمدينة .

فقال :

ـ هل معك أحد ؟

فقلت :

ـ لا والله ، الا الله وابني هذا .

فقال :

ـ والله ما لك من مَتْرَك .

« وأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه . اذا نزل المنزل أناخ بي ثم تنحى الى شجرة فاضجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام الى بعيري فقدمه ورحله ، ثم استأخر عني وقال : اركبي .

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وانما اسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليـــد

فلما فتحت مكة ، دفع الرسول مفاتيح الكعبة الى عثمان بن طلحة والى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، وقتل عثمان شهيدا بأجنادين في خلافة عمر ـ الروض الانف : ١/٢٨٥

« فاذا ركبت واستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة ، فلما نظر الى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ــ وكان بها منزل أبي سلمة في مهاجره ــ قال :

ــ ان زوجك في هذه القرية ، فادخليها على بركة الله .

« ثم انصرف راجعا الى مكة » (١)

فكانت أم سلمة ــ بين المهاجرات ــ أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت أول مسلمة هاجرت الى الحبشة (٢)

وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، أول من هاجر الى يثرب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)

* * *

وفي المدينة ، ولدت هند لأبي سلمة : عمر ودرة وزينب (٤)

وعكفت على تربية صغارها ، وتفرغ زوجها لمعركة الاسلام .

وحين خرج الرسول في غزوة العشيرة ــ في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وهي الغزوة التي وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة ــ اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة (٥)

وشهد مع الرسول غزوة « بدر » الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تم بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين ، في أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد .

وحين تنكر المتنكرون لمحمد والاسلام عقب موقعة « أحد » وبلغ الرسول بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بني أسد يدعون الى مهاجمة محمد في داره بالمدينة ، دعا الرسول اليه « أبا سلمة » فعقد له لواء سرية عدتها مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص .

---

(١) السيرة ١١٢/٢ والاصابة : ٢٤٠/٨

(٢) الاصابة : ٢٤٠/٨

(٣) السيرة : ١١٢/٢

(٤) الطبري ١٧٧/٣ ــ وفي رواية ، انها ولدت له عمر وزينب

(٥) السيرة : ٢٤٨/٢ ، وتاريخ الطبري ، حوادث السنة الثانية للهجرة

ونفذ الفارس « أبو سلمة » ما أمر به الرسول من أخذ العدو على غرة، فأحاط بهم في عماية الصبح على غير أهبة منهم لنضال ، وقاد معركة ظافرة ، ثم رجع وصحبه الى المدينة غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت « أحد » من هيبة المسلمين .

وكان « أبو سلمة » يقود معركته وفيه جرح خطير أصابه يوم «أحد» ثم التأم التئاما سطحيا ، فلما أجهده النضال مع بني أسد ، عاد الجرح فنغر وظل به حتى قضى عليه .

وحضره النبي وهو على فراش موته ، وبقي الى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبر عليه تسع تكبيرات .

قيل له : يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟

فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبَّرتُ على أبي سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك (١)

وترك من بعده ، « أم سلمة » ، «هند بنت زاد الركب» أولى المهاجرات الى الحبشة ثم الى المدينة .

* * *

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة « أم سلمة » فتقدم اليها منهم « أبو بكر الصديق » خاطبا ، فرفضت في رفق .

وتلاه « عمر بن الخطاب » فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه .

ومن بعدهما ، بعث اليها النبيُّ يخطبها ، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم ، لكنها أشفقت ــ وقد جاوزت سن الشباب ، ومعها عيال لها صغار ــ ألا تملأ مكانها في بيت النبي ، الى جانب عائشة وحفصة .

وأرسلت الى الرسول تعتذر ، وتقول : انها غيرى ، مسنة ، ذات عيال

فأجاب محمد عليه الصلاة والسلام :

ــ أما انك مسنة ، فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما

---

(١) تاريخ الطبري : ١٧٧/٢ والاصابة : ٢٤٠/٨

العيال فالى الله ورسوله (١)

* * *

وتم الزواج ..

وتكلفت « عائشة وحفصة » ما أطاقتا من شجاعة ، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشيء من المجاملة ، لكن « عائشة » لم تطق صبرا على هذا التكلف ، فكشفت لحفصة عما تطوي من ألم وغيرة ، وفي ذلك تقــول عائشة :

« لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة ، حزنت حزنا شديدا لما ذُكِرَ لنا مِن جَمالِها . فتلطفتُ حتّى رأيتُها فرأيتُ والله أضعافَ ما وُصِفَتَ به فذكَرتُ ذلك لحفصة فقالت :

« ما هي كما يقال .. » ـ وذكرت كبر سنها ..

« فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة ، ولكني كنت غيرى » (٢)

وما من شك في أن « أم سلمة » قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ، الزوجة المفضلة ، ولعلها ـ لذلك ـ قد رضيت أن تبعث بطفلتها « زينب » الى حاضنة ، كي تفرغ لزوجها الرسول .

وكانت قد جاءت بها صغيرة الى بيت النبي ، فبقيت معها حتى جاء عمار ابن ياسر ـ أخو هند من الرضاعة ـ فانتزعها من حجرها قائلا لها :

« دعيها فقد آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣)

وفي (الاصابة) أن رسول الله كان يأتي أم سلمة فيقول : «أين زناب؟» ـ تدليلا للصغيرة ـ حتى جاء عمار بن ياسر فقال : « هذه تمنع رسول الله حاجته » (٤) .

* * *

وبدا واضحا أن «أم سلمة» تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على «عائشة» أو سواها المساس بكرامتها ، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب .

---

(١) السمط الثمين : ٨٩

(٢) الاصابة : ٢٤١/٨

(٣) السيرة : ١٧١/٢ والسمط الثمين ٩٠

(٤) الاصابة : الجزء الثامن ص ٢٤٠

وكذلك أبت على « عمر » أن يتكلم في مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن الرسول ، وقالت له منكرة :

« عجبا لك يا بن الخطاب ، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ »

وما قالت كلمتها هذه الا وهي مدلة بمكانها عند زوجها الرسول وفي بيته ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعدها من أهله : حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك ، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضي الله عنهم ، فضمهما اليه ، ثم قال : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد . فبكت « أم سلمة » فنظر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألها في حنو : ما يبكيك ؟ .. أجابت يا رسول الله ، خصصتهم ، وتركتني وابنتي . قال : انك وابنتك من أهل البيت (١)

وبلغ من اعزازه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لابنها « سلمة » أن اختاره زوجا لابنة عمه « حمزة : سيد الشهداء » (٢)

* * *

وكان الوحي ينزل على رسول الله في بيت « عائشة » فتباهي بذلك ضرائرها ، حتى جاءت « أم سلمة بنت زاد الركب » فأوحي الى الرسول وهو لديها قوله تعالى :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم » (٣)

وفي سبب نزول الآية يروون حادثة لا بأس من ذكرها هنا : حدثوا (٤) أن الرسول حين غزا بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله في قلوبهم الرعب فبعثوا الى رسول الله أن يرسل اليهم صاحبه « أبا لبابة بن عبد المنذر » ليستشيروه في أمرهم .

---

(١) السمط الثمين ٢

(٢) تاريخ الطبري : ٣/١٧٧ ط مصر ــ والسمط الثمين ١٦

(٣) سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٤) تاريخ الطبري : حوادث السنة الخامسة للهجرة (٣/٥٤ ط مصر)

فأرسله الرسول أليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم .

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

فأجاب : « نعم ، انه الذبح » . وأشار بيده الى حلقه .

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله .

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه الى عمود من عمد المسجد وقال :

« لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت » .

وبلغ الرسول خبره ــ وكان قد استبطأه ــ فقال عليه الصلاة والسلام :

« أما انه لو جاءني لاستغفرت له ، فأما اذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » .

روى ابن هشام : (٣)

« .. أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ..

« حتى نزلت توبة أبي لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من السحر وهو في بيت أم سلمة ، فقالت ، وقد سمعته يضحك :

ــ ممَّ تضحك يا رسول الله أضحك الله سِنَّك ؟

قال :

ــ تيب على أبي لبابة .

قالت :

ــ أفلا أبشره يا رسول الله ؟

فقال :

ــ بلى ، ان شئت .

فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين ، فقالت :

ــ يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك .

---

(٣) السيرة : ٣/٢٤ .

« فثار الناس ليطلقوه ، فأبى وقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده .

«فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه»

* * *

وفي العام السادس للهجرة ، صحبت « أم سلمة » زوجها الرسول في رحلته الى « مكة » ، وهي الرحلة التي صدت فيها قريش « محمدا » وأتباعه عن دخول البلد الحرام ، وتم عهد الحديبية الذي عده المؤرخون نصرا مبينا .

وكان « لأم سلمة » في « هدنة الحديبية » (١) دور جليل لم ينسه لها تاريخ الاسلام .

ذلك أن أصحاب الرسول تذمروا حين بلغهم نص العهد ، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون ، **ويكفي أن نذكر** من مظاهر ذلك التذمر ، أن عمر بن الخطاب ـ حين تم الاتفاق على شروط الصلح ولم يبق الا تسجيله ـ وثب فأتى أبا بكر يسأله :

« أليس برسول الله ؟

« أو لسنا بالمسلمين ؟

« أو ليسوا بالمشركين ؟

فيجيب أبو بكر في كل مرة : بلى .

قال عمر :

« فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ »

فحذره أبو بكر ثم قال :

« اني أشهد أنه رسول الله »

قال عمر :

« وأنا أشهد أنه رسول الله »

ثم مضى « عمر » فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسأله مثل ما سأل أبا بكر ، حتى اذا بلغ قوله :

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/٨٠ ـ والسمط الثمين : ٦٥

« فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ »
أجابه الرسول :
« أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني » (١)
واستفحل الأمر الى حد منذر بخطر ، حتى أن الرسول أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا ، فما قام منهم رجل ، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من يستجيب . فدخل على زوجته « أم سلمة » فذكر لها ما لقي من الناس فقالت :
« يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ .. اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك » .
وأصغى الرسول لمشورتها ، فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر وحلق ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وندما (٢) .
وثاب المسلمون الى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم فأدركوا أي صلح خطير عقد الرسول ، وانه ما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، فلقد دخل في دين محمد بعد الحديبية ، مثل من كان قبل ذلك وأكثر .

* * *

وصحبت « أم سلمة » الرسول كذلك في خروجه لفتح مكة ، ثم في حصاره الطائف (٣) وغزو هوازن وثقيف ، حتى اذا عادت الى المدينة في السنة الثامنة للهجرة ، أثارت نساء النبي غيرتها على « مارية » وما زلن بها الى أن استجابت لمنافستها الأولى « عائشة » ورضيت أن تظاهرها في الكيد « لمارية » .
ووضعت « مارية » غلامها ابراهيم ـ رضي الله عنه ـ في السنة الثامنة للهجرة ، ورأت أم سلمة ، وعائشة ، وحفصة ، وزينب ، وبقية النساء ،

(١) ابن هشام : السيرة ٣/١٣١ ـ وتاريخ الطبري : ٣/٧٩
(٢) تاريخ الطبري : حوادث السنة السادسة للهجرة (٣/٨٠ ط مصر)
(٣) المرجع نفسه : حوادث السنة الثامنة للهجرة (٣/١٣٣ ط مصر)

مبلغ فرح الرسول به، فكانت المغاضبة التي حملت الرسول على اعتزالهن شهرا ..

وساد الهدوء بيت النبي بعد تلك العاصفة ، حتى اذا مرض الرسول أذنت له « أم سلمة » وبقية زوجاته عليه الصلاة والسلام ، أن يمرض حيث أحب ، في بيت غريمتها عائشة .

❁

ثم حاولت من بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تتجنب الخوض في الحياة العامة ، الى أن كانت الفتنة الكبرى فاندفعت بالرغم منها تؤازر ابن عم الرسول ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبا الحسن والحسين .

وودت لو تخرج فتنصره ، لكنها كرهت أن تبتلي وهي أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج ، فجاءت «عليا» كرم الله وجهه وقدمت اليه ابنها عمر قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله مني ، لخرجت معك . وهذا ابني عمر ، والله لهو أعز عليَّ من نفسي ، يخرج معك فيشهد مشاهدك » (١)

ثم مضت الى « عائشة » فقالت لها في عنف وانكار :

« أي خروج هذا الذي تخرجين ؟.. الله من وراء هذه الأمة !.. لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي : ادخلي الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه عليَّ » .

* * *

لكن « عائشة » مضت في طريقها لا تلوي على شيء ..

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتحنت ، كما امتحن الاسلام كله ، بمأساة « كربلاء » ومذبحة أهل بيت الرسول هناك ، وتقول رواية أنها ماتت في آخر سنة احدى وستين بعد ما جاءها نعي الامام الحسين بن علي (٢) .

وقيل بل امتد بها الأجل عاما آخر ، وماتت حين سمعت بالجيش الذي جهزه « يزيد بن معاوية » للفتك بآل علي في « المدينة » سنة ثلاث وستين

وشيع المسلمون بنت زاد الركب ، آخر من مات من نساء النبي ، وصلى عليها « أبو هريرة » الصحابي الجليل ، ودفنت بالبقيع ، ولم يبق بعدها من أمهات المؤمنين غير ذكرى وتاريخ !

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ـ والاصابة ٢٤٤١/٨
(٢) الاصابة : ٢٤١/٨

الفصل الثامن

زينب بنت جحش

الشريفة الحسناء

« يا رسول الله ، ما أنا كاحدى نسائك ليست امرأة منهن الا زوجها أبوها او أخوها أو أهلها غيري ... زوجنيك الله من السماء »

زينب بنت جحش



شريفة ومولى

حين دخلت « أم سلمة » بيت النبي ، وتحدثت «عائشة» الى «حفصة» عما تجد من لواذع الغيرة ووطأة الألم لما رأت من جمال العروس ، لفتتها « حفصة » الى أنها على جمالها كبيرة السن ، ثم أوصتها أن تستبقي غيرتها لمن هي أولى .

وكأنما كانت « حفصة » تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج الرسول من « أم سلمة » بضعة أشهر ، حتى دخلت بيت الرسول من هي أولى بغيرة عائشة ...

تلك هي « زينب بنت جحش » الشابة الهاشمية الحسناء ، حفيدة عبد المطلب ، وابنه عمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وصفتها الرواية بأنها «كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش (١) » وكانت معتزة بهذا الجمال ، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع ، حتى لقد سمعت تقول : « أنا سيدة أبناء عبد شمس (٢) »

* * *

ولو كانت «زينب» قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للرسول فحسب ، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من في بيت النبي من زوجات ، فكيف وقد كان زواجها من الرسول سماويا ، ووحيا من عند الله جل في علاه ؟

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها مدينة الرسول مثل « زينب بنت جحش » ، ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من ظروف خاصة ، وما أثاره من شبهة وخلاف ، حسمتهما السماء بوحي منزل.

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ص ١٠٧
(٢) المصدر نفسه : ص ١١٢

ولبيان هذا لا بد من استطراد يسير ، نرجع به الى ما قبل المبعث ، حين رجع « حكيم بن خزام بن خويلد » من رحلة له بالشام ، ومعه رقيق ، فيهم غلام في الثامنة يدعى زيدا .

وما كان « زيد » عبــدا ، وانما هو « زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب » من بني زيد اللات ، خرجت به أمه « سعدى بنت ثعلبة » لتزيره أهلها بني معن بن طيىء ، فأصابته خيل من بني القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان حكيم بن خزام هو الذي اشتراه (١)

وجاءت « خديجة » ــ وهي يومئذ زوجة محمد بن عبد الله ــ تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان ، فأخذت « زيدا » وعادت به الى بيتها . ورآه سيدنا « محمد » فاستوهبه منها فوهبتــه له راضية (٢) .

وكان أبوه « حارثة » قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه في مكة ، فانطلق مع أخيه « كعب » حتى وقفا على محمــد بن عبد الله فقالا له :

« يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم جيران الله، تفكون العاني وتطعمون الجائع ، وقد جئتك في ابننا ، فتحسن الينا في فدائه ؟ » .

سأل الرسول :

« أو غير ذلك ؟ »

قالا :

« ما هو ؟ »

أجاب :

« أدعوه وأخيره ، فان اختاركما فذاك ، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا » .

هتفا معا :

---

(١) انظر تفصيل الخبر في السيرة : ٢/٢٦٤

(٢) هذه رواية ابن هشام في السيرة : ٢/٢٦٤ ــ وفي السمط الثمين رواية اخرى ان محمدا صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا في الجاهلية ، في سوق عكاظ ، ثم اعتقه وتبناه ــ ص ١٠٨

« قد زدتَ على النصفة » .

ودعي زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيره الرسول : ان شاء ذهب معهما وان شاء أقام معه .

فاختار سيده !

وتوسل اليه أبوه بصوت متهدج :

« يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟ »

فتماسك « زيد » ليجيب :

« اني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذي أفارقه أبدا » .

فعند ذلك أخذ سيده بيده ، وقام به الى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

ودعي الغلام « زيد بن محمد » .

وكان أول من أسلم ، بعد « علي بن أبي طالب (١) » .

وبلغ « زيد » سن الزواج ، فاختار له الرسول زينة الهاشميات : « زينب » بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب .

وكرهت زينب ، وكره أخوها « عبد الله بن جحش » ، أن تزف الشريفة القرشية الى مولى من الموالي .

وفزعا الى الرسول يسألانه ألا يلحق بهما مثل ذلك العار ، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موال وان أعتقوا .. وقالت زينب فيما قالت يومئذ : « لا أتزوجه أبدا وأنا سيدة أبناء عبد شمس (٢) »

فحدثهما الرسول عن مكان « زيد » منه ومن الاسلام ، وعن أصله العربي النقي ، لكنهما ــ على حبهما للرسول وحرصهما على طاعته ــ لم يذعنا حتى نزل فيهما قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (٣)

---

(١) السيرة : ٢/٢٦٤ ــ وتاريخ الطبري ٢/٢١٥

(٢) السمط الثمين : ١١٢

(٣) سورة الاحزاب : آية ٣١

وتزوجت « زينب » زيدا ..

وتم للرسول ما أراد من تحطيم فوارق الطبقات ، واعلاء كلمة الاسلام.

* * *

لكن حياة الزوجين لم تصف لهما ، فما نسيت « زينب » قط انها الشريفة لم يجر عليها رِق ، ولا أساغت لحظة أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيت آلها رقيقا !

وقاسى « زيد » من صدها وابائها وترفعها ما استنفد صبره، فشكا الى الرسول غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، والرسول يطلب اليه مزيدا من الصبر والاحتمال ، ويأمره أن « أمسك عليك زوجك واتق الله .. » (١)

ثم حدث ما يرويه « الطبري » بسند مرفوع الى محمد بن يحيى بن حبان ، أن الرسول افتقد زيدا فجاء منزله يطلبه ، فهرعت « زينب » تستقبله، وقد أعجلتها اللهفة عن استكمال ثيابها للقاء الرسول، فقالت :

« ليس هو ها هنا يا رسول الله ، فادخل بأبي أنت وأمي » (٢)

وفي رواية أخرى ، نقلها الطبري كذلك « أن الرسول جاء يطلب زيدا وعلى باب « زينب » ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهي في حجرتها حاسرة ، فوقع اعجابها في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم » (٣)

ودعته الى الدخول فأبى ، وولى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يهمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » .

وأقامت « زينب » في مكانها تفكر فيما سمعت من قول ابن خالها ، حتى جاء « زيد » فكان أول ما لقيته به ، أن الرسول أتى منزله !

سألها زيد :

---

(١) الآية : « واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك .. » سورة الاحزاب آية ٣٧

(٢) تاريخ الطبري : ٤٢/٣ وانظر كذلك السمط الثمين ص ١٠٧

(٣) تاريخ الطبري : ٤٣/٣ ط مصر

« ألا قلت له : ادخل .. »

فأجابت : « بلى ، قد عرضت عليه ذلك فأبى »

واستطرد « زيد » مستفسرا :

« فسمعتِه يقول شيئا ؟ »

قالت :

« سمعتــه يقول حين ولى : سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » (١)

فأطرق « زيدٌ » برهة ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليــه وسلم فقال :

« يا رسول الله ، بلغني أنك جئت منزلي ، فهــلا دخلت بأبي أنت وأمي ؟ »

ثم أضاف متسائلا : (٢)

« فأفارقها ؟ »

فقال الرسول :

« مالك ؟ أرابك منها شيء ؟ »

فأجاب زيد :

« لا والله يا رسول الله ، ما رابني منها شيء ولا رأيت الا خيرا ، ولكنها تتعظم عليَّ لشرفها ، وان فيها كبرا ، تؤذيني بلسانها » (٣)

قال الرسوْل : « أمسك عليك زوجك » .

وأذعن زيد ، وعاد ليجرب الاحتمال من جديد ، ويكابد مزيدا من المر والشقاء .

لكن زينب هجرته ، فما استطاع اليها سبيلا بعد ذلك اليوم (٤) حتى نفد احتماله ففارقها وكان الطلاق (٥) .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤٢/٣ حوادث السنة الخامسة من الهجرة
(٢) تاريخ الطبري : ٤٢/٣
(٣) السمط الثمين : ١٠٧
(٤) تاريخ الطبري : ٤٣/٣
(٥) السمط الثمين ١٠٨ وتاريخ الطبري ٤٣/٣

زواج بأمر السماء

وأحس محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عطفا غلابا على الشابة التي أكرهت على الزواج ممن لا ترضى اذعانا لأمر الله ورسوله ، وود لو يستطيع أن يجبر خاطرها المكسور ، وحدثته نفسه أن يتزوجها ، ولكن كيف ؟ أو لم يعلن في الملأ من قريش أن زيدا ابنه ؟ .. فماذا يقول الناس اذا تزوج ممن كانت زوجة ابنه ؟ .. وهل تراهم يصغون له اذا ذكرهم بأن المتبنى غير الأبن ، وقد جرت تقاليدهم على أن يلصقوا المتبنى بأبيه ، ويجعلوا له حقوق الابن وحرمة النسب ؟

وآثر الرسول أن يكتم رغبته ، وأن يقاوم عاطفته نحو بنت عمته التي انتزعها زهرة غضة من أشرف بيت في قريش ، فزفها بالرغم منها الى زوج ملصق ، يدعى لغير أبيه !

فبينا هو صلى الله عليه وسلم يحدث مع عائشة ، اذ أخذته غشية الوحي ، ثم سري عنه وهو يبتسم ويقول :

ــ من يذهب الى زينب يبشرها بأن الله زوجنيها ؟ (١)

وتلا ــ عليه الصلاة والسلام ــ ما أنزل اليه من وحي السماء :

« واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » (٢)

قالت « عائشة » : فأخذني ما قـرُب وما بعـُد ، لما يبلغنا من جمالها ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٤٣/٣

(٢) سورة الاحزاب : آية ٣٧

وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها ، ما صنع الله لها : زوَّجها .. فقلت .. تفخر علينا بهذا .. (١)

* * *

تلك هي قصة زينب ، نقلنـاها من تاريخ الطبري ، وكتب السـيرة والصحابة ، لم نكد نتصرف فيها بكلمة . ولست أدري ما الذي أنكره « الدكتور هيكل » منهـا حتى اندفع يردها الى مفتريات المستشرقين والمبشرين « الذين أضفوا عليها من أستار الخيال ، حتى جعلوها قصة غرام ووله » ، ثم يقول : « ويكفي لهدم كل القصة من أساسها ، أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه ، هي ابنة عمة رسول الله عليه السلام ، وانها ربيت بعينه وعنايته.. وانه كان يعرفها ويعرف أهي ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وأنه شهدها في نموها تحبو من الطفولة الى الصبا الى الشباب ، وانه هو الذي خطبها على زيد مولاه . اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل الخيالات والأقاصيص ، من أنه مر ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب. أو أنه لما فتح باب « زيد » عبث الهواء بالستار على غرفة « زينب » فألفاها في قميصها وكأنها «مدام ريكاميه» فانقلب فجأة ونسي سودة ، وعائشة ، وحفصة ، وزينب بنت مخزوم ، وأم سلمة ، ونسي كذلك ذكر خديجة » (٢)

وعند الدكتور هيكل ، أن زواج الرسول من زينب لم يدفع اليه ميل ولا عاطفة ، وانما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبني والادعاء ، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس في خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة، فلم يرض له الله أن يخفي في نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

« أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التي يكررهـا المستشرقون والمبشرون .

« ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ،

---

(١) العبارة بنصها منقولة من تاريخ الطبري ٤٣/٣

(٢) حياة محمد : ٢٩١

والخصومة القديمة للاسلام تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية ، هي التي تملي على هؤلاء جميعا ما يكتبون ، وتجعلهم في أمر زواج النبي، وفي أمر زواجه من زينب بنت جحش ، يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه مما دُسَّ عليه ونسب اليه » (١) .

وما أنبله من رد ، لولا أن قصة اعجاب الرسول بزينب ، وحكاية الستر من الشعر الذي رفعته الريح، وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول: سبحان الله مقلب القلوب ، قد كتبت قبل أن تسمع الدنيا بالحروب الصليبية ، بأقلام نفر من مؤرخي الاسلام ورواة السيرة ، لا يرقى اليهم اتهام بعداء النبي والدس على الاسلام .

فمن الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين أمثال موير ، ومرجليوث ، وارفنج ، وسبرنجر ، لنقرأ القصة على مهل في (٢) « تاريخ الطبري » وفي « الاصابة » وفي كتب « التفسير » وفي « السمط الثمين » .

* * *

ثم فلننظر :

هل فيها ما يريب ؟

ان آية العظمة في شخصية نبينا ، انه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وما نعرف في تاريخ الأبطال ـ ولا أقول الأنبياء ـ من أصر على اعلان بشريته وتقريرها اصرار محمد بن عبد الله ، ولا عرفت الانسانية كتابا سماويا يجعل من بشرية المبعوث به ، آية تتلى وقرآنا يتعبد به المؤمنون ، كما فعل كتاب الاسلام المعجز .

ولن يكون أحدنا مؤمنا وهو ينكر هذه البشرية وينزه عنها رسولا أوحي اليه : « قل انما أنا بشرٌ مثلكم » (٣)، « قل سبحان ربي، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ » فقالها ، ثم اعتز بأنه « ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

---

(١) حياة محمد : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

(٢) راجعها بالتفصيل في تاريخ الطبري : ٤٢/٣ ، ٤٣ وفي النهاية لابن الأثير : حوادث السنة الخامسة للهجرة ، وفي السمط الثمين ١٠٧ ـ وفي الاصابة جـ ٨

(٣) من آية ١١١ سورة الكهف ـ وانظر معها الآيات : ٦ فصلت ، الاسراء ٩٣ ، القمر ٢٤ ، الانبياء ٣٤

أفينكر على بشر رسول ، أن يرى مثل زينب فيعجب بها ؟

وماذا يطلب من مثله ــ في سمو خلقه وعفة ضميره ــ أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته ، وهو يسبح باسم الله العظيم ، مقلب القلوب ؟

وأي ضبط للنفس ينتظر من بشر رسول ، أكثر من أن يجيئه زيد فيستأذنه من جديد في طلاقها ، فيأبى عليه الا أن يمسكها ويتقي الله !؟

ان القصة ــ وقد نقلها الينا رواة غير متهمين ــ لترتفع برسولنا عليه السلام الى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس واعتقال للهوى، وانها لجديرة بأن تعد مفخرة لمحمد والاسلام ، فما ادعى نبينا قط أن قلبه بيده يصرفه حيث شاء ، ولا زعم مرة ، أنه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم ، وقد كان يقول في ايثاره عائشة على غيرها من زوجاته اللاتي أمره ربه بالعدل بينهن :

« اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

فكيف نخاف عليه لوما أن مال قلبه الى « زينب » ثم أبى ــ مع هذا الميل ــ الا أن يأمر زوجها بامساكها ، على ما يعرف من شقائهما بهذا الامساك ؟

أما كونه رآها طفلة وصبية وشابة ، وزفها بيده الى زيد ، فسبحان مقلب القلوب .

وأما ان المسألة خلت خلوا تاما من أي ميل أو هوى ، وان « قصة الحب » من مفتريات المبشرين ، وان الله لم يعاتب الرسول الا لأنه أشفق من مواجهة العرب بنقض عادتهم في التسوية بين البنوة والتبني ، أما هذا كله ، فيكفي للرد عليه أن ننقل هنا تفسير الزمخشري للآية، منذ أكثر من ثمانية قرون ونصف قرن ، بأن رسول الله « أبصر زينب بعد ما أنكحها زيدا فوقعت في نفسه ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب . وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادتها لاختطبها .

« فان قلت : ما الذي أخفى في نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها ، وقيل مودة مفارقة زيد اياها ...

« فان قلت : كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به ، وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع على زينب وتتبعها ، ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة ؟ قلت : كم من شيء يحتفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ... لأن طموح قلب الانسان الى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع ، لأنه ليس بفعل الانسان ، ولا وجوده باختياره » (١)

هل لي أن أقول بعد هذا ، ان « الدكتور هيكل » أخطأ من حيث أراد الدفاع عن الرسول ؟ .. ذلك أنه بانكاره ميل الرسول الى زينب، ورفضه أن يكون صلى الله عليه وسلم تعلق بها ، قد ألقى على المسألة ظلالا من الريبة ، توهم أن هذا التعلق خطأ لا يجوز على الرسول ومنقصة يجب أن ننزهه عنها . وما في الأمر شيء من ذلك قط ، انما هي البشرية تتعرض لما لا تملك دفعه من أهواء ، فتتسامى وتترفع في نبل وعفة ، ثم تأبى الا المضي في الامتناع عما أحل الله دفعا لمقالة الناس ، ويأبى الله على رسوله ألا يقدم على زواج كهذا أباحه الشرع ، وقضت به مصلحة عامة هي «ألا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » (٢) ومصلحة أخرى خاصة « هي أن تأمن زينب ــ بنت عمة الرسول ــ الأيمة والضيعة ، وتنال الشرف بأن تغدو من أمهات المؤمنين . ومن هنا كان عتاب الله لرسوله ، حين كتم الأمر وبالغ في كتمه ، والله لا يرضى له الا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات في مواطن الحق ، حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وان كان مرا » (٣)

---

(١) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب : ج ٢٣٧/٣ ط التجارية
(٢) سورة الاحزاب ، من آية ٣٧
(٣) تفسير الكشاف ٢٣٨/٣

حجاب

طار البشير الى « زينب » بالخبر السعيد ، قيل حملته اليها سلمى خادم الرسول (١) وقيل بل مضى به اليها « زيد » نفسه، (٢) فتركت ما بيدها وقامت تصلي لربها شاكرة .

وكانت وليمة العرس حافلة : ذبح الرسول شاة ، وأمر صلى الله عليه وسلم خادمه « أنس بن مالك » أن يدعو الناس الى الوليمة ، فترادفوا أفواجا ، يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج . الى أن قال أنس : يا رسول الله ، دعوتُ حتى ما أجدُ أحدا أدعوه. فقال صلى الله عليه وسلم : ارفعوا طعامكم (٣) .

وللمرة الثانية ، تدخلت السماء في الحياة الزوجية للرسول صلى الله عليه وسلم بسبب « زينب » .

ذلك أن المدعوين قد طابت لهم الجلسة بعد أن فرغوا من الطعام ، فأقاموا يتحدثون حتى ولّى النهار وانصرم ، وحين طال مكثهم ، بدا الرسول كأنه (٤) يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك منهم قام يزور نساءه ريثما ينفض المجلس ، فانصرف القوم اثر قيامه ، الا ثلاثة نفر ظلوا حيث هم ، الى أن طاف الرسول ـ كعادته ـ بنسائه جميعا وتلقى تهنئتهن بالعروس الجديدة ، وآن له أن يخلو الى « زينب » فاذا الثلاثة جلوس ما يزالون يسمرون . ومنعه حياؤه الشديد أن يصرفهم من بيت العروس التي كانت تجلس هنالك مولية ظهرها الى الحائط (٥) ، فخرج

(١) تاريخ الطبري : ٣/١٢٧ .
(٢) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب ـ والاستيعاب ١٨٥١/٤٠
(٣) تفسير الكشاف ٣/٢٤٤ .
(٤) السمط الثمين ١٠٧ .
(٥) السمط الثمين ص ١١٠ وتفسير الكشاف ٣/٣٤٤ .

منطلقا نحو حجرة عائشة ، وبقي خادمه « أنس » منتظرا مع الضيوف حتى انصرفوا، فأسرع الى الرسول ينبئه بذلك، فجاء صلى الله عليه وسلم واتجه نحو حجرة زينب ، حتى اذا بلغ عتبتها أرخى الستر بينه وبين أنس ، وتلا ما أنزل عليه حينئذ من وحي السماء : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبيَّ فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما » (١)

ومن تلك اللحظة ، فُرض الحجاب على نساء النبي ، وعلى المؤمنات جميعا ، رمز تصوُّن وعزة ، وسمة وكرامة وترفع عن الابتذال ..

❋

(١) آية ٥٣ سورة الاحزاب ٠

أكرمهن وليًّا وسفيرًا

ودخل محمد صلى الله عليه وسلم بتلك التي زوجته اياها السماء .

وباتت « عائشة » ليلتها فريسة الغيرة ، قد أخذها ــ فيما قالت ــ ما قرُب وما بعد ، لما تعرف من جمال زينب ، ولما هي حرية أن تفخر به من صنع الله لها .

وكذلك غارت نساء النبي رضي الله عنهن، وضقن جميعا بهذه العروس الجديدة : تعتز بجمال وشباب وشرف ، وبأن الله هو الذي زوجها .

ولم تكذب زينب ظنهن ، فانها ما لبثت أن واجهتهن ــ وقد ادركت ما يطوين لها ــ مباهية : « أنا أكرمكن وليا ، وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات ! » (١)

واذا كانت « أم سلمة » قد سرها أن ترى أثر دخولها على عائشة ، الزوجة المفضلة ، فلا ريب أن زينب قد أرضاها أن تجيء فتتقدم « أم سلمة » غريمة لعائشة !

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب ، كما لم تكتمها من أم سلمة ، بل اعترفت بأنهما : « كانتا أحب نسائه اليه ــ فيما أحسب ــ بعدي » .

ثم تؤثر زينب وحدها بخصومتها فتقول : « لم تكن واحدة من نساء النبي تناصيني غير زينب »(٢) أو تقول : لم يكن أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تساميني في حسن المنزلة عنده ، غير زينب بنت جحش (٣) .

أي تنازعني وتباريني ، من قولك : ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٧٣/٨ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣١١/٣ .

(٣) الاستيعاب : ١٨٥٠/٤ .

وقد مر بنا ما كان من ضيق «عائشة» بميل الرسول الى زينب « واطالته المكث لديها » ثم تآمرها مع حفصة وسودة ، أيتهن دخل عليها الرسول اثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « اني أجد ريح مغافير » (١)

وكان يحدث أحيانا أن تحتدم بينهما المنافسة في حضرة الرسول ، فيدعهما وشأنهما لعل في هذا راحة لهما وتنفيسا عن مشاعرهما . وقد استطاعت « عائشة » مرة أن تغلب « زينب » فما زاد الرسول على أن تبسم وقال : (٢)

« انها بنت أبي بكر » .

وحدث مرة أخرى ، أن أفلت لسان « عائشة » بكلمة غضب لها الرسول . فقد تلقى هدية وهو في بيتها ، فأرسل الى كل زوجة نصيبا منها . لكن زينب ردت ما جاءها ، فلم تملك عائشة لسانها :

« لقد أقمأت وجهك حين ترد عليك الهدية » .

فقام عنها مغضبا وهو يقول :

« أنتن أهون على الله من أن تقمئنني » .

❁

(١) ارجع الى صفحة ٢٦٩ ـ والى السمط الثمين ص ٨٠ .
(٢) السمط الثمين ص ٤٠ .

وَأطولهن يـدًا

على أن هذه الخصومة المحتدمة بين الزوجتين الأوليين ، لم تمنع حفيدة أبي طالب من الدفاع عن « عائشة » في محنة الافك ، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت :

« وكان كِبر ذلك ـ الافك ـ عند عبد الله بن أبيٍّ بن سلول في رجال من الخزرج ، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها . فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل الا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها ، فشقيت بذلك » (١)

أجل عصمها الله تعالى بدينها ، وقد كانت « زينب » صالحة تقية ، صادقة التدين .

شهدت لها بذلك كله غريمتها السيدة عائشة فقالت :

« ولم أر امرأة قط خيرا في الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي يُتَصَدَق به ويُتقرب به الى الله عز وجل » (٢)

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب « ان زينب بنت جحش أواهة » فقال رجل : يا رسول الله : ما الأواه ؟ .. قال : الخاشع المتضرع. ثم تلا عليه الصلاة والسلام : « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » (٣)

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٢ .
(٢) السمط الثمين : ص ١١٠ ـ والاستيعاب : ٤/١٨٥١ .
(٣) المرجع نفسه : ص ١١١ ، والاستيعاب : ٤/١٨٥٢ ـ والآية من سورة هود (٧٥) .

وكانت كذلك كريمة خيرة ، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذي أكرمها وأعزها ، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها .

* * *

وألغى موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما بين « زينب » وبين ضرائرها من أثر التنافس على زوجهن الرسول ، فلم يعدن يذكرن الا انها كانت له صلى الله عليه وسلم زوجا حبيبة ، وللمؤمنين أما رحيمة ، ولربها عابدة قانتة .

ذكرتها « أم سلمة » فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين « عائشة » ثم قالت :

« كانت زينب لرسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة ، تعمل بيديها وتتصدق بذلك كله على المساكين » .

وسُمعت « عائشة » تقول حين بلغها نعي « زينب » :

« ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل » .

ثم قالت :

«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا ..

« فكنا اذا اجتمعنا في بيت احدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نمد أيدينا في الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبي صلى الله عليه وسلم انما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امـرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق في سبيل الله » (١)

ويروون أن «عمر بن الخطاب . أمير المؤمنين» أرسل اليها عطاءها اثني عشر ألفا ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركني هذا المال في قابل ، فانه فتنة » (٢)

---

(١) السمط الثمين : ص ١١٠ ــ والاستيعاب : ١٨٥١/٤ .
(٢) السمط الثمين : ١١١ .

ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة ، فبلغ « عمر » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل اليها بالسلام وقال :

« بلغني ما فرقتِ ، فأرسل ألف درهم تستبقينها » .

وأرسل الألف ، فتصدقت بها جميعا ، لم تبق منها درهما .

وحين حضرتها الوفاة ــ سنة عشرين ــ (١) قالت :

« اني قد أعددت كفني ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث اليَّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما » (٢)

وكانت سنها يوم ماتت ، ثلاثا وخمسين سنة .

❋

(١) في رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية (الاستيعاب ١٨٥٢/٤) .
(٢) الاصابة حـ ٨ .



الفصل التاسع

جويرية بنت الحارث

سيّدة بني المصطلق

« لما قسم رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها . وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا اخذت بنفسه ، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها ، فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أن سيرى فيها صلى الله عليه وسلم ما رأيت ! »

عائشة بنت ابي بكر



الأسيرة الحسناء

شغل الرسول عن منازعات زوجاته وتنافسهن ـ اثر زواجه بزينب بنت جحش ـ بأحداث هامة كبار ، ملأت النصف الثاني للعام الخامس الهجري ، ففي شهر شوال كانت وقعة « الخندق » التي لقي فيها الرسول والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين أغراهم بالخروج لحرب الرسول في مدينته ، نفر من اليهود وعدوهم بالنصر .

لقيهم الرسول في ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذي حفره حول المدينة ، وقد أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد (١)

ونقض اليهود العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالحياد ، وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، وقال قائلون : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن علـى نفسه أن يذهب الى الغائط » (٢) .

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال مع الرسول طمعا في الغنيمة ، فلما ظنوا أنه مهزوم ، كروا راجعين الى ديارهم .

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما، ثم دارت الدائرة على المشركين ، وتم النصر للرسول والذين معه .

* * *

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة ، وأووا الى بيوتهم في

(١ ، ٢) ابن هشام : السيرة ٣/٢٣٠ .

الصبح يلتمسون راحة طويلة، فما انتصف النهار حتى تناهى الى أسماعهم صوت داعي الرسول يؤذن في الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا في بني قريظة » (١)

واستأنفوا القتال ، وحاصروا يهود بني قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم في شهر ذي القعدة وصدر ذي الحجة .

وأقبلت السنة السادسة ، لتشهد الرسول يغزو بني لحيان ، ثم يتبعها غزوة ذي قرد ، (٢) ويعود الى المدينة فما يقيم بها شهرا وبعض شهر ، حتى يبلغه أن بني المصطلق ـ وهم حي من خزاعة ـ يجمعون الجموع لقتال الرسول ، بقيادة زعيمهم « الحارث بن أبي ضرار » (٣)

وخرج اليهم الرسول ومعه من نسائه « عائشة بنت الصديق » حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع ، فكان قتال مرير ، انتهى بهزيمة بني المصطلق .

وسيقت نساؤهم سبايا ، وفيهن « برة بنت الحارث بن أبي ضرار » زعيم القوم وقائدهم ، أو « جويرية » كما سماها الرسول بعد .

وقفل الرسول راجعا الى المدينة ، ليفتقد « عائشة » ثم لا يلبث أن يراها تدخل المدينة على بعير «صفوان بن المعطل السلمي» فيطمئن عليها ، ويخرج ليوزع الغنائم على من اشتركوا في قتال بني المصطلق .

ثم انصرف الى بيته خالي البال الا من شئون الدعوة التي أوشكت أن تقضي على الوثنية المشركة والضلال الموروث .

فبينا هو جالس يوما في حجرة عائشة ، سُمِعت أنثى تستأذن في لقاء الرسول بصوت شجي مؤثر .

وقامت « عائشة » الى الباب لترى مَنْ تلك ، فاذا شابة حلوة ، مفرطة الملاحة ، « لا يراها أحد الا أخذت بنفسه » (٤) ، في نحو العشرين (٥)

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٣/٣ ـ والسيرة : ٣٠١/٣ .
(٢) تاريخ الطبري ، حوادث السنة السادسة للهجرة .
(٣) تاريخ الطبري : ٦٤/٣ ـ السيرة : ٣٠٢/٣ .
(٤) ابن اسحاق في السيرة : ٣٠٧/٣ ، وتاريخ الطبري : ٦٦/٣ والاستيعاب ١٨٠٤/٤ .
(٥) السمط الثمين : ص ١١٧ .

من عمرها ، ترتجف قلقا وذعرا ، وقد زادها انفعالها حيوية وسحرا .

وكرهتها « عائشة » من النظرة الأولى ، فوقفت حيالها وبودها لو تحول بينها وبين زوجها الرسول ، الذي كان اذ ذاك يستريح .

لكن الغريبة ألحت في الاستئذان على الرسول ، فلم تملك « عائشة » الا أن تستأذن لها كارهة ، وفي نفسها خاطر مقلق .

ودخلت الشابة المليحة على الرسول فقالت في ضراعة تمازجها عزة :

« يا رسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس .. فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على أمري » (١)

فتأثر الفارس العربي للكريمة المهانة والعزيزة المستذلة . واستثار شهامتَه موقفُ سيدة حرة أصيلة ، تلوذ به ـ وهو الذي أذل قومها ـ لتنجو من مهانة السبي وعار الرق .

ورق قلبه لبرة ، العربية الخزاعية ، بنت سيد بني المصطلق ، اذ تقف ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق ، تترنح على حافة الهاوية ، ولا مَن ينقذها سواه .

ولم يهن عليه أن يقطع ذلك الخيط من الرجاء ، تتشبث به في محنتها ليعصمها من الانهيار .

* * *

وتكلم محمد صلى الله عليه وسلم أخيرا :

« فهل لك في خير من ذلك ؟ »

سألت في لهفة وحيرة :

« وما هو يا رسول الله ؟ »

---

(١) السيرة ٣٠٧/٣ ـ وتاريخ الطبري ٣ : ٦٦ ـ والاستيعاب : ١٨٠٤/٤ .

أجاب :

« أقضي عنك كتابتك ، وأتزوجك ! »

فتألق وجهها الجميل بفرحة غامرة ، وهتفت وهي لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان : (١)

« نعم يا رسول الله ! »

ورد عليها الفارس الرسول :

« قد فعلت ! »

❋

(١) السيرة : ٣/٣٠٧ ـ وتاريخ الطبري : ٣/٦٦ ـ والاستيعاب : ٤/١٨٠٤ .

بركة العروس

وما أسرع ما خرج الخبر الى الناس أن رسول الله قد تزوج بنت الحارث ابن أبي ضرار ، فتداعى أصحاب محمد لتكريم السيدة التي أعزها نبيهم بالزواج (١)

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون : (٢)

«أصهار رسول الله » .

ودخلت العروس بيت النبي ، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها : أعتق بزواجها من الرسول ، أهل مائة بيت من بيوت بني المصطلق (٣)

وسماها (٤) الرسول « جويرية » كراهة أن يقال : خرج من عند « برة»

وظلت جويرية ما عاشت ، تبارك تلك اللحظة السعيدة التي لقيت الرسول فيها ، فنجت من العار، وأعتقت قومها من الأسر، وكرمت بالزواج من سيد البشر .

وكذلك ظلت « عائشة » تذكر تلك اللحظة ، لكن في مرارة وألم ، فتقول في صراحة مؤثرة :

« ... وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها ، فوالله ما هو الا ان رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أن سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيت .. » (٥)

---

(١) السيرة : ٣٠٧/٣ ـ وتاريخ الطبري : ٦٦/٣ ـ والاستيعاب : ١٨٠٤/٤ .
(٢) ، (٣) ابن اسحاق في السيرة : ٣٠٧/٣ ـ وتاريخ الطبري : ٦٦/٣ والسمط الثمين ١١٦ .
(٤) السمط الثمين : ١١٧ .
(٥) الاصابة : ٤٤/٨ وتاريخ الطبري ٦٦/٣ ـ والاستيعاب : ١٨٠٤/٤ .

وهل من حرج على الرسول في أن ينظر لجويرية ، وهي أسيرة حرب أنزلها السباء منزلة الاماء ؟

لو كانت حرة ، لأمنت عائشة من أن يملأ الرسول عينه منها ، اللهم الا أن تتجه نيته الى نكاحها ، وقد كان يرخص في النظر الى المرأة عند ارادة نكاحها ، وقال للواحد من صحابته استشاره في نكاح امرأة :

« لو نظرتَ اليها ، فان ذلك أحرى أن يدوم بينكما » .

وقد كان ما توقعت « عائشة » وخافت :

نظر الرسول الى الأسيرة الحسناء ، وأصبحت « جويرية بنت الحارث » شريكة لعائشة في بيت الرسول .

كما أصبحت ــ وقد أسلمت وحسن اسلامها ــ أما للمؤمنين .

يروون أن أباها « الحارث » جاء المدينة قبل أن يعلن الرسول زواجه بها ، فقال للنبي :

« يا محمد ، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها ، فان ابنتي لا يسبى مثلها ! »

فقال له الرسول :

« أرأيتَ أن أخيرها ، أليس قد أحسنتْ ؟ »

فأجاب :

« بلى » .

فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت :

« اخترت الله ورسوله » .

وقيل كذلك أن « الحارث » سمع من الرسول حديثا عما جاء فيه من فداء ابنته ، فصاح بصوت جهير :

« أشهد أن لا اله الا الله ، وأنك محمد رسول الله » .

فخطب الرسول اليه ابنته ، فزوجه اياها وأصدقها أربعمائة درهم (١)

---

(١) السيرة : ٣/٣٠٨ والسمط الثمين ١١٧ .

على أن « عائشة » ما لبثت أن شغلت عن « جويرية » وغير جويرية ، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بني المصطلق ، من قيل وقال .

حتى اذا انجلت غمة الافك ، وعادت عائشة الى بيت النبي معتزة بما أنزل الله في براءتها من آيات ، واجهتها « جويرية » بملاحتها الأخاذة ، فما كان من عائشة الا أن قالت في زهو وهي تنقل بصرها بين جويرية ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وحفصة ، وطيف ماثل من خديجة :

« لم يتزوج ، صلى الله عليه وسلم ، بكرا سواي » (١)

ذلك أن « جويرية » كانت قبل أن تسبى ، زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقي (٢) .

وقد عاشت الى أن استقر الأمر لمعاوية ، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجري (٣)

وعرفت في تاريخ الاسلام ، بأم المؤمنين التي لم تكن امرأة أعظم على قومها بركة منها .

❁

---

(١) السمط الثمين : ص ٨٧ .

(٢) كذا جاء في الاستيعاب (١٨٠٤/٤) والسمط الثمين ص ١١٦ ـ وفيه كذلك (ص ١١٧) انها كانت عند ابن عم لها يقال له عبد الله ، ومثله في سيرة ابن هشام (٢٩٦/٣) .

(٣) السمط الثمين : ١١٨ ـ وانظر الاصابة : ٤٤/٨ ـ والاستيعاب : ١٨٠٤/٨ .



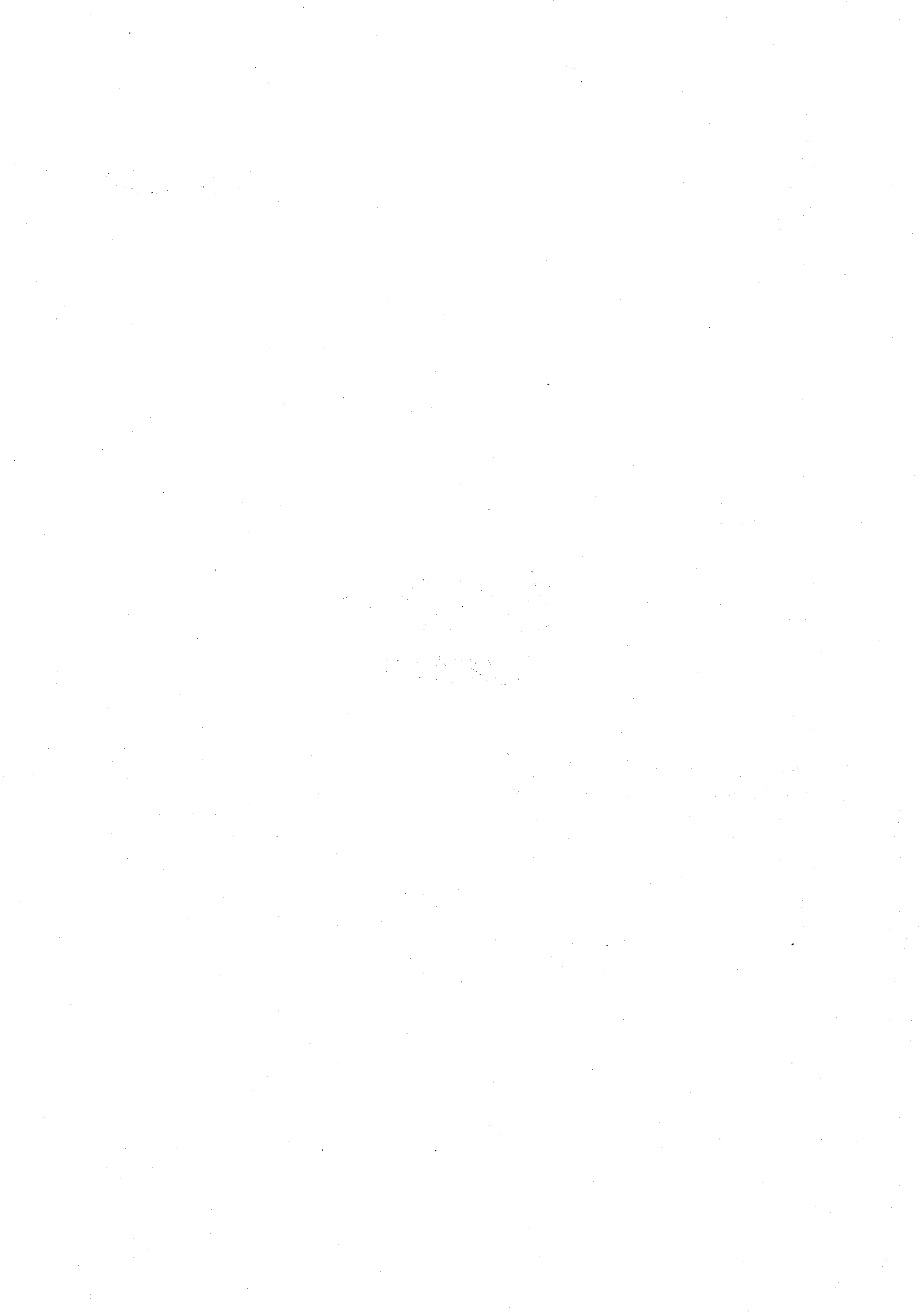
الفصل العاشر

صفية بنت حيي

عقيلة بني النضير

« وأمر صلى الله عليه وسلم بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه ، فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه »

السيرة النبوية



معركة ظافرة

انتهت السنة السادسة للهجرة ، بعد أن أحدثت في بيت النبي ضجة ما مثلها ضجة : تزوج فيها الرسول بجويرية بنت الحارث، وابتلي بمحنة الافك في أعز زوجاته صلى الله عليه وسلم وأحبهن الى قلبه بعد خديجة .

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع ، والرسول يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يبيتون للاسلام من شر ، أي شر !

وخرج الرسول في النصف الثاني من المحرم الى « خيبر » معقل العدو ، فما أشرف عليها حتى هتف :

« الله أكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١)

وخربت خيبر : فتحت حصونها حصنا حصنا ، وقتل رجالها ، وسبي نساؤها ، وفيهن عقيلة بني النضير : صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، التي ينتهي نسبها الى هرون أخي موسى عليه السلام ، وأمها برة بنت سموءل (٢)

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها .

لكنها ــ على صغر السن ــ تزوجت مرتين :

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم : « سلام بن مشكم » (٣)

ثم خلف عليها « كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق (٤) » صاحب حصن « القموص » أعز حصن في خيبر .

---

(١) السيرة : ٣٤٤/٣ .

(٢) السيرة ٣٤٤/٣ وانظر غزوة خيبر في تاريخ الطبري : ٩٢/٣ ــ والاستيعاب : ١٨٧١/٤ .

(٣) السمط الثمين : ١١٨ ــ والاصابة : حـ ٨ ــ والاستيعاب : ج ٤ .

(٤) كذافي الطبري « ٩٥/٣ » ولكن الذي في الاستيعاب (١٨٧١/٤) ان اسمه « كنانة ابن ابي الحقيق »

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال مرير ، وجيء الرسول بكنانة حيا ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله الرسول عنه فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فقال الرسول :

« أرأيتَ ان وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ »

قال : نعم ..

فلما اكتُشف مخبأ الكنز عنده ، دفعه الرسول الى « محمد بن سلمة » فضرب عنقه بأخيه « محمود بن مسلمة » الذي قتله اليهود في المعركة (١)

وسيقت نساء القموص سبايا ، وفي مقدمتهن « صفية » زوج كنانة ، وابنة عم لها ، يقودهما « بلال » مؤذن الرسول .

ومر بهما بلال على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود ، فهمَّت « صفية » أن تصيح ، لكن الصيحة احتبست في حلقها لا تنطلق .

أما ابنة عمها فأعولت صارخة ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ..

وجيء بهما الى الرسول :

« صفية » في حزنها الصامت وجزعها المكبوت ، تحاول أن تتماسك في ترفع وكبرياء ، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر ، وان بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة وجلال .

والأخرى ، شعثاء الشعر ، معفرة بالتراب، ممزقة الثياب، لا تكف عن عويل ونواح .

صاح الرسول وهو يشيح بوجهه عنها :

« اغربوا عني هذه الشيطانة » (٢)

ثم دنا من صفية ، وقد بدا عليها أنها راغبة في أكثر من حماية النبي الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

« أنُزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ »

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/٩٥ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/٩٤ والسيرة ٣/٣٥٠ .

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك اعلانا بأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد اصطفاها لنفسه .

وفي حديث (١) عن « أنس ــ رضي الله عنه » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ صفية بنت حيي، قال لها: هل لك فيَّ؟ قالت: يا رسول الله .. قد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف اذا أمكنني الله منه في الاسلام ؟ ..

فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها .



(١) السمط الثمين : ص ١٢٠ .

حلم العروس

وانتظر الرسول بخيبر حتى هدأت المناحة ، وظن أن الروع قد ذهب عن « صفية » أو كاد ، فحملها وراءه وانطلق بها الى منزل في أطراف خيبر ــ على بعد ستة أميال منها ــ فمال (١) يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل .

فوجدها ــ صلى الله عليه وسلم ــ في نفسه ، وعز عليه تمنُّعُها ورفضها ، ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره الى المدينة ، فلما كان بالصهباء ــ بعيدا عن خيبر ــ نزل هناك يستريح ، فبدا له أن « صفية » متهيئة للعرس :

جاءتها ماشطة ــ يقول ابن سحق أنها أم أنس بن مالك (٢) ــ فمشطتها وجملتها . وظهرت « صفية » عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول ماشطتها انها لم تر بين النساء أضوأ منها (٣) .

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التي ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من حصن « القموص » ذليلة أسيرة ، تساق بين السبايا !

وثمت ، أقيمت وليمة العرس حافلة ، وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا ، ثم دخل الرسول على « صفية » وما يزال في نفسه شيء من رفضها الأول .

وأقبلت عليه العروس بادية اللهفة تحدثه حديثا عجبا :

قالت (٤) انها في ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت في المنام أن قمرا

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠ .
(٢) السيرة : ٣/٣٤٥ .
(٣) الاصابة : جـ ٨ .
(٤) السيرة : ٣/٣٥٠ ــ والسمط الثمين : ١٢٠ ــ وتاريخ الطبري : ٣/٩٤ .

وقع في حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضبا :

« ما هذا الا انك تتمنين ملك الحجاز محمدا ! »

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه .

ونظر الرسول الى أثر اخضرار في عينها، وقد سره ما سمع من حديثها، وهـمَّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :

« ما حملك على الامتناع أولا ؟ » أو قال : ما حملك على ابائك في المنزل الأول ؟ (١)

وأجابت العروس على الفور :

« خشيتُ عليك قربَ اليهود » (٢)

فزال ما كان يجد في نفسه من جفوة ، وأشرق وجهه الكريم بابتسامة راضية .

* * *

وهناك خارج القبة التي دخل فيها الرسول على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو « أبو أيوب خالد بن زيد » ساهرا يقظا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من الرسول ، حتى أصبح صلى الله عليه وسلم فرأى مكانه فسأله :

« مالك يا أبا أيوب ؟ »

أجاب :

« يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتُها عليك » (٣)

فيقال ان الرسول دعا له قائلا :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » (٤)

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، تلك الفعلة الشنعاء لامرأة من يهود

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠ .

(٢) السمط الثمين : ١٢٠ .

(٣) السيرة : ٣/٣٥٤ ـ وانظر الاصابة جـ ٨ .

(٤) ابن هشام ، السيرة : ٣/٣٥٥ .

خيبر ، هي « زينب بنت الحارث » ، امرأة سلاّم بن مِشْكم ، أحد زعمائهم القواد .

دخلت « زينب » هذه على الرسول وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر ، فأهدت اليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أي عضو من الشاة أحب الى رسول الله ؟ قيل لها : الذراع ، فأكثرت السم في الذراع حتى سرى منها الى سائر الشاة .

ووضعتها بين يديه صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه « بشر بن البراء » ، فتناول الرسول الذراع ، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب .

لكن الرسول لم يسغ الذراع ، بل لفظها وهو يقول : « ان هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » .

ودعا بامرأة سلام، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة. ولما سألها صلى الله عليه وسلم عما حملها على ذلك أجابت :

« بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك ، فقلتُ : ان كان نبيا فسيخبر ، وان كان ملكا استرحت منه » .

فتجاوز عنها الرسول ، ومات «بشر بن البراء» من أكلته التي أكل ..(١)

ولا شك أن « أبا أيوب الانصاري » ذكر هذه الفعلة اليهودية ، حين بات ساهرا ، حول القبة التي دخل فيها الرسول على «صفية» عقيلة بني النضير .

* * *

وبلغ الركب المدينة ..

وآثر النبي ألا يدخل على زوجاته بالعروس ، فأنزلها في بيت لصاحبه وتسامعت نساء الأنصار بها ، فجئن ينظرن الى جمالها ، ولمح الرسول

(١) ابن هشام ، السيرة : ٣٥٢/٣ ـ وتاريخ الطبري : ٩٥/٣ .

زوجته « عائشة » تخرج متنقبة على حذر ، فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان .

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

« كيف رأيتِ يا شقيراء ؟ »

فأجفلت عائشة ، وقد هاجت غيرتها ، ثم هزت كتفها وهي تجيب :

« رأيت يهودية ! »

ورد عليها الرسول :

« لا تقولي ذلك ، فانها أسلمت وحسن اسلامها ! » (١)

ولم تعلق « عائشة » بكلمة ، بل سارت الى البيت حيث كانت حفصة في انتظارها ، مشوقة الى أن تسمع رأيها في العروس .

ولم تنكر « عائشة » أنها جميلة حقا ، وزادت فحدثت « حفصة » عما كان من تتبع الرسول لها وحواره معها .

❁

(١) سنن ابن ماجة ـ والاصابة : حـ ٨ ـ والسمط الثمين : ص ٨٠ .

ثم انتقلت « صفية » الى دور النبي فواجهتها هناك مشكلة محيرة : كانت عائشة ومعها حفصة وسودة في جانب ، والزوجات الأخريات في جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء ، بنت النبي .

وكان على « صفية » أن تختار ، وانها لمهمة دقيقة شاقة ، فما كانت في ذكائها بالتي تناصب « الزوجة الأثيرة » أو « الابنة الغالية » عداء أو شبه عداء !

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث ، فقررت أن تتقرب من عائشة وحفصة والزهراء جميعا !

وكان مظهر تقربها الى ابنتي أبي بكر وعمر ، اظهار استعدادها للانضمام اليهما ..

أما « الزهراء » فأهدتها (١) « صفية بنت حيي » حلية لها من ذهب ، رمزا لمودتها واعلانا لمسالمتها !

وما من شك في أن « صفية » أرادت أن تحتمي بهذا الموقف اللبق ، مما كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودي ، وتذكر بما بين قومها والاسلام من عداء مستحكم مرير .

وما كان لها ، في الحق ، أن تخشى أذى من « الزهراء بنت الرسول » فانها ــ رضي الله عنها ــ كانت أحرص الناس على سلام ، وأبر بأبيها الرسول من أن تشارك في هذا الضجيج النسوي ، اللهم الا أن تدفع الي شيء من ذلك دفعا ، كالذي أشرنا اليه من سفارتها لزوجات النبي عند أبيها صلى الله عليه وسلم في أمر السيدة عائشة (٢)

(١) الاصابة : جـ ١٢٧/٨ .
(٢) انظر صفحة ٢٨٣ من هذه الموسوعة والسمط الثمين ص ٣٧ .

وانما الخوف كل الخوف من « عائشة » في غيرتها العارمة ، وضيقها بكل حسناء تدخل بيت الرسول وتشاركها فيه !

ولم يعصم «صفية» مما كانت تخاف، تقربها من عائشة وحفصة، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودي الذي يجري في عروقها ؟! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام مسمومة ، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن ، في ظل أكرم زوج ورعاية أعز رجل !

والذي آلم « صفية » أن عائشة وحفصة ـ اللتين انضمت اليهما ـ كانتا تشاركان الزوجات الأخريات في النيل منها ، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات ، وهي الأجنبية الدخيلة .

* * *

وبلغ « صفية » كلام عن حفصة وعائشة ، فلما حدثت النبي به وهي تبكي ، قال صلى الله عليه وسلم وهو يمسح (١) دموعها بردائه ويده :

« ألا قلت : وكيف تكونان خيرا مني ، وزوجي محمد ، وأبي هرون ، وعمي موسى ؟ » (٢)

ونزل كلام الرسول على « صفية » بردا وسلاما ، وكان لها منه حمى وملاذ .

* * *

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحس غربة « صفية » في دوره بين زوجاته العربيات القرشيات ، فيتأهب للدفاع عنها كلما أتيحت له فرصة .

حدثوا (٣) أنه كان في سفر ومعه « صفية » و « زينب بنت جحش » فاعتل بعير « صفية » وفي ابل زينب فضل ، فقال لها :

« ان بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا ؟ »

أجابت في ترفع وازدراء :

« أنا أعطي تلك اليهودية ؟ »

---

(١) السمط الثمين : ص ١٢٢ .
(٢) الاصابة : ١٢٧/٨ ـ والسمط الثمين : ص ١٢١ ـ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤ .
(٣) الاصابة : ١٢٧/٨ ـ والسمط الثمين ١٢١ ـ وسنن أبي داود .

فولى الرسول عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها ، أو قيل : « فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد، وعاد الى ما كان عليه معها » (١)

ولم تحرم « صفية » هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام يروون أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول في مرضه الأخير ، فقالت صفية :

ـ اني والله يا نبي الله ، لوددت أن الذي بك بي .

فتبادلت الأخريات نظرات ذات معنى ، فما راعهن الا أن قال الرسول :

« مضمضن ! »

تساءلن في دهشة :

« من أي شيء ؟ »

أجاب :

« من تغامزكن بها ، والله انها لصادقة » (٢)

* * *

ولحق الرسول بربه الكريم ، وافتقدت «صفية» تلك الحماية الطيبة، فما نسي الناس لها أنها منحدرة من سلالة يهود ، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التي لم يكفِ لسدِّها حسنُ اسلام صفية ، وزواجها من نبي المسلمين .

حدثوا (٣) أن جارية لها أتت « أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، ان صفية تحب السبت وتصل اليهود » .

ـفبعث « عمر » الى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :

« أما السبت فاني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فان لي فيهم رحما فأنا أصِلُها ! »

---

(١) الاستيعاب : ١٨٥٠/٤ .

(٢) الاصابة : ١٢٧/٨ .

(٣) السمط الثمين : ١٢٢ ـ والاصابة ١٢٧/٨ ـ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤ .

ثم انثنت الى جاريتها فسألتها عما حملهـا على مثل ذلك الافتـــراء ، فأجابت الجارية : « الشيطان ! »

وردت « صفية » :

« اذهبي فأنتِ حرة » (١)

* * *

واندفعت « صفية » راضية أو كارهة ، تشارك في المعركة السياسية التي بدأت في عهد « عثمان » وكـان موقفها اذ ذاك شبيها بموقفهـا بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التي كانت حينذاك ذات نفوذ سياسي قوي ، ومكانة في الدولة الاسلامية رفيعة ، لم تأل « صفية » جهدا في الولاء لأمير المؤمنين « عثمان » الذي ما فتئت « عائشة » تحرض عليه ، حتى بلغ بها الأمر أن دلت قميص رسول الله من بيتها وصاحت في المسلمين :

« أيها الناس ، هـذا قميص رســول الله لم يبلَ ، وقد أبلى عثمـان سنته .. »

حدث مولى لصفية يدعى كنانة ـ وقيل هو ابن أخيها ! ـ قال :

« قدمت صفية ـ في حجابها ـ على بغلة لترد عن عثمان ، فلقينا الأشتر فضرب وجه البغلة ـ وهو لا يعرف راكبتها ـ فقالت لي صفية :

ـ ردني لا تفضحني !

ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل اليه الطعام والماء وهو في محنة الحصار » (٢) .

وماتت « صفية » حوالي سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ..

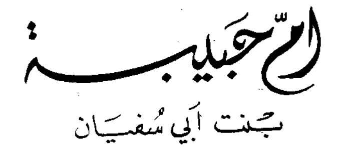
ودفنت بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين .. (٣)

وتركت اسمها في كتب الحديث ، ومن بين الـذين رووا عنها : ابن أخيها ومولاها كنانة ، ومولاها الآخر يزيد بن متعب ، والامـــام زين العابدين علي بن الحسين ، ومسلم بن صفوان ..

---

(١) السمط الثمين : ١١٢ ـ والاصابة ١٢٧/٨ ـ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤ ٠
(٢) الاصابة : ١٢٧/٨ ٠
(٣) السمط الثمين : ١٢٣ ٠

الفصل الحادي عشر



أم حبيبة

بنت أبي سفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » .. فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه » .

ابن اسحاق : السيرة ٣٨/٤



عـودة المهـاجرين

عاد البطل المظفر الى مدينته وقد تم له النصر على « خيبر » ، وتزوج عقيلة بنت النضير ، وسيقت بين يديه غنائم اليهود .

وتأهبت « المدينة » للقاء الجيش العائد ، وقد أعدت للبطل أسعد مفاجأة ترضيه !

فهناك في « المدينة » ، والرسول غائب في خيبر ، كان مهاجرو الحبشة قد جاءوا في صحبة « عمرو بن أمية الضمري » الذي بعثه النبي الى « النجاشي » ليعود بمن بقي في بلاده من المهاجرين الأولين (١) .

وحملهم (٢) « عمرو » في سفينتين ، فبلغ بهم « المدينة » حيث الأهل والأنصار ، ومعركة « خيبر » اذ ذاك في ذروة احتدامها .

وأعقب وصولَهم اعلانُ فتح « خيبر » والنصر الساحق على يهودها ، وخرج أهل « المدينة » لاستقبال العسكر المنتصر ، فضاقت بهم أرجاء الوادي ، وقد بحت أصواتهم من هتاف ودعاء .

وأهلّ عليهم الرسول البطل ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من « مكة » أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كان آخر عهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهم ، يوم تسللوا من « مكة » أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم في سبيل الله ، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الاسلام غريبا مهاجرا فتكون له الجنة .

وكانوا قد تواعدوا على اللقاء في الدار الآخرة ، حيث النعيم الذي وعد به المؤمنون ، وها هم أولاء يلتقون في أرض الوطن ، يوم الاحتفال بفتح خيبر ، وقد صارت لهم الكلمة العليا في جزيرة العرب !

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/٨٩ .
(٢) سيرة ابن هشام : ٤/٣ .

ووثب الرسول من فوق راحلته ، فالتزم ابن عمه « جعفر بن أبي طالب » معانقا ، وقبل عينيه وهو يقول في غبطة :

« ما أدري بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ » (١)

والتفت الرسول من بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين ، وقد كانوا فيما أحصى « ابن اسحق » ستة عشر رجلا (٢) .

وهناك بين المهاجرات العائدات ، كانت « أم حبيبة ، بنت أبي سفيان ابن حرب » تنتظر الرسول ليحملها الى بيته !

ذلك أن الرسول قد تزوجها وهي ما تزال بالحبشة، في السنة السادسة للهجرة (٣) . ولهذا الزواج قصة تبدأ منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا ...

❋

---

(١) ، (٢) السيرة : ٣/٤ .
(٣) تاريخ الطبري : ٣/٩٠ .

محنة الغربة

كانت « رملة » بنت أبي سفيان زعيم مكة وقائد المشركين ، زوجة لابن عمة الرسول ، عبيد الله بن جحش الأسدي ، أخي السيدة زينب أم المؤمنين .

وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه « رملة » ، وأبوها « أبو سفيان » على الكفر .

وخشيت أذى أبيها، فهاجرت مع زوجها الى الحبشة وهي مثقلة بحملها، وتركت أباها « بمكة » وقد جن غيظه وقهره ، أن أسلمت ابنته وليس له اليها سبيل .

وهناك في الحبشة ، وضعت « رملة » بنتها « حبيبة بنت عبيد الله » التي كنيت بها فصارت تدعى « أم حبيبة » .

واذ هي في غربتها تكتم حنينها الى الوطن ، وتحاول أن تجد في زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة ، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة ، فقد روعت في الحلم برؤية « عبيد الله » بأسوأ صورة (١) ، واستيقظت لتعلم أن « عبيد الله » قد ارتد عن دينه الذي من أجله هاجر الى الحبشة ، واعتنق « النصرانية » دين الأحباش .

وحاول أن يردها عن الاسلام فصبرت على دينها (٢) .

وكادت « بنت أبي سفيان » تهلك غما وأسى وحسرة :

فيم كانت هجرة عبيد الله اذن ، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وهذا هو

---

(١) السمط الثمين : ٩٦ .

(٢) السيرة ٦/٣ وتاريخ الطبري : ١١٧/٣ .

يصبأ عن الاسلام الذي من أجله احتملت « رملة » كل ذلك ، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم ؟

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته ، دفاعا عن مقدسات موروثة عن الأجداد من قديم الحقب والآباد .

أما أن يكفر بهذا كله ، ويجحد هذا كله ، ويرضى بالاسلام دينا ليجيء الى الحبشة فيكفر بالدين الجديد ، ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، في بساطة ودون تحرج ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية مهانة وأي عار ؟

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكي تولد لمثل هذا الأب الصابىء المرتد ؟ وما جريرتها لتخرج الى الحياة في أرض غريبة ، وقد انبتّ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلَها ديانات شتى : فأبوها نصراني ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الاسلام !

واعتزلت « رملة » الناس شاعرة بالخزي لفعلة الرجل الذي كان لها زوجا ، ولا يزال لطفلتها والدا ...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها « حبيبة » مضاعفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس في دار هجرتها ، ولا سبيل لها الى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حربا شعواء على النبي الذي صدقته وآمنت به ...

وأين تراها تقيم في « مكة » لو عادت ؟

أفي بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت ؟

أم في دار « آل جحش » رهط زوجها ، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء ؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن عتبة بن أبي ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة ، مروا بدار بني جحش وهم مصعدون الى أعلى مكة ، فنظر اليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال :

« وكل دار وان طالت سلامتها يوما ستدركها النوباء والحوب !

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها » .

فقال أبو جهل :

« وما تبكي عليه ؟ » ثم قال :

« هذا عمل ابن أخي، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا» (١)

كلا ، لا سبيل لرملة الى « مكة » والمعركة محتدمة بين أبيها والنبي الذي تتبعه ، ودار بني جحش تخفق أبوابها يبابا !

❋

(١) ابن هشام ـ السيرة : ١١٥/٢ .

رسالة من الحجاز

ومرت حقبة من الزمن وهي في عزلتها الحزينة ، فما شعرت ذات يوم الا وطرقات تلح على بابها الموصد، مستأذنة لجارية من جواري النجاشي، تدعى « أبرهة » .

وفتحت «أم حبيبة» الباب، فدخلت أبرهة وأدت اليها رسالة النجاشي:

« ان الملك يقول لك : وكِّلي مَن يزوجك من نبي العرب ، فقد أرسل اليه ليخطبك له ! »

واستعادت « رملة » حديث الجارية مرة ومرتين وثلاثا ، حتى اذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما الى «أبرهة» حلاوة البشرى (١) ، ثم أرسلت الى « خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ابن عبد شمس» ـ كبير المهاجرين من قومها بني أمية ـ فوكلته في زواجها.

وفي المساء ، دعا النجاشي اليه من بالحبشة من المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبي طالب ، ابن عم الرسول ، وخالد بن سعيد ، وكيل رملة .

وتكلم النجاشي وترجم المترجم :

« ان محمد بن عبد الله كتب لي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فمن أولاكم بها ؟ »

أجاب القوم :

« خالد بن سعيد ، قد وكَّلتْه »

فاتجه اليه النجاشي قائلا :

« فزوِّجْها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار » .

وسكب الدنانير ، فقام خالد وقال :

---

(١) السمط الثمين : ٩٧ ، والاصابة جـ ٨ .

« قد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوجته أم حبيبة » .

وقبض الصداق .

وأولم لهم النجاشي وليمة الزواج قائلا : « اجلسوا ، فان سنة الأنبياء اذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج » (١) .

ثم أتوا باب « أم حبيبة » مهنئين مباركين .

وباتت بنت أبي سفيان ، وهي « أم المؤمنين » !

وأصبحت فجاءتها « أبرهة » تحمل اليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت اليها « أم المؤمنين » خمسين دينارا من صداقها قائلة :

« كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدي شيء من المال ، وقد جاءني الله عز وجل بهذا » .

فأبت « أبرهة » أن تمس الدنانير ، وردت السوارين وهي تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن اليها مما عندهن من طيب .

وتقبلت « أم حبيبة » الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها الى بيت النبي ، فكان صلى الله عليه وسلم يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره (٢) .

❁

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤/١٩٣٠ .
(٢) الاصابة : جـ ٨ ـ والسمط الثمين : ٩٧ ، ٩٨ ـ والاستيعاب : ٤/١٩٢٩ ، ١٩٣١ .

بين الأبِ وَالـزوج

واحتفلت « المدينة » بدخول بنت أبي سفيان بيت الرسول .

وأولم « عثمان بن عفان » وليمة حافلة ، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم .

وباتت المدينة في أفراحها ساهرة، تبارك العرس وتحيي القائد وتحتفل بفتح خيبر ..

وباتت « مكة » ساهرة مؤرقة ، تردد قول زعيمها أبي سفيان وقد بلغه النبأ :

« هذا الفحل لا يجدع أنفه ! » (١)

ولم يكن قد مضى على زواج محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عقيلة بني النضير ، غير أيام معدودات !

واستقبلت نساء النبي زميلتهن « أم حبيبة » بشيء من المجاملة ، ولم تر « عائشة » فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها ، أن كانت « رملة » تدنو من عامها الأربعين ، وليس لها سحر صفية ، ولا ملاحة جويرية ، ولا حسن أم سلمة ، ولا جمال زينب ..

وأبدت « عائشة » استعدادها لقبول الزوجة الجديدة في صفّها ، لكن « بنت أبي سفيان » أنفت أن تكون تابعة لأخرى ..

وبقدر ما أنكرت « عائشة » ألا تسارع « رملة » الى كسب رضاها كما فعلت « حفصة بنت عمر » ، أنكرت « بنت أبي سفيان » على « عائشة » الزهو الطامح الى الاستئثار بالنفوذ في بيت النبي ..

لكن الجفوة بينهما لم تشتد الى درجة الخصومة السافرة المعلنة ، وان

---

(١) الاصابة : ج ٨ ــ والسمط الثمين ٩٩ ــ والاستيعاب ١٨٤٥/٤ .

بقيت « عائشة » تهاب « رملة » وتخشى وقوفها في سبيل ما تشتهي من تفرد بالكلمة العليا بين زوجات النبي !

وكانت « رملة » بحيث تفعل ما تخشاه « عائشة » لولا أن ظلت تحس في أعماقها حزنا قاسيا ، لأن أباها لا يزال على الوثنية الضالة .

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة ، تأكل من رجال أعزة عليها ، فما من قتيل الا وهو من شيعة أبيها ، وما من شهيد الا وهو من صحابة زوجها ، أبنائها المؤمنين !

* * *

وتناهى اليها يوما أن قريشا نقضت عهد « الحديبية » (١) وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها الرسول ، أنه صلى الله عليه وسلم لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يغدر به أو ينقض له عهد ، فهل تراه يغزو « مكة » ليهدم الأصنام على رءوس المشركين ، وفيهم أبوها ، واخوتها ، وكل أهلها وعشيرتها ؟

كذلك لاحت نذر الخطر في « مكة » فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر « محمد » الذي يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به ، لقد كانوا منذ قليل يستهينون بمحمد ومن اتبعه ، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ ، وصار له السلطان الاكبر في شبه الجزيرة ؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم الى المدينة يفاوض محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون رسولهم ؟

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع « أبو سفيان » الا أن يذعن ، وأنى له أن يعتذر وهو الذي أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ؟ .. فليصطلِ اليوم حرَّها ، وليمض الى « محمد » خصمه الألد ، يسأله الموادعة والمسالمة !

---

(١) تاريخ الطبري : ١١١/٣ .

وخرج « أبو سفيان » يريد المدينة صاغرا مكرها ، فلما بلغها أشفق من لقاء « محمد » وذكر أن له ابنة هناك في بيت خصمه ، فتسلل اليها يستعين بها على ما جاء من أجله .

وفوجئت به « أم المؤمنين » يدخل بيتها (١) ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة ، فوقفت تجاهه بادية الحيرة ، لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول ..

وأدرك « أبو سفيان » ما تعانيه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس ، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش ، فما راعه الا أن وثبت « رملة » فاختطفت الفراش وطوته في اعزاز ، ثم وقفت تلهث .

سألها وهو يلوذ بالصبر :

« أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عني ؟ »

وجاءه جوابها :

« هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه ! »

قال والألم يفري كبده :

« لقد أصابك يا بنية بعدي شر » (٢)

وانصرف غاضبا ..

واستندت هي على جدار بيتها ، عصية الدمع ، معطلة الحواس .

حتى جاء رسول الله أخيرا فحدثها بما كان من أمر « أبي سفيان » .

ذهب (٣) الى النبي فكلمه في العهد فلم يجبه بشيء ..

فتوسل بأبي بكر الى الرسول لكن أبا بكر رفض ..

فكلم « عمر بن الخطاب » فرد عليه في غلظة وجفاء :

«أنا أشفع لكم الى رسول الله ؟.. فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به!»

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤ وتاريخ الطبري : ١١٢/٣ والسمط الثمين : ص ١٠٠ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤ وتاريخ الطبري : ١١٢/٣ .

وانطلق (١) أبو سفيان الى بيت « علي بن أبي طالب » وعنده فاطمة بنت رسول الله وولدها الحسن يدب بين يديها ، فقال : « يا علي ، انك أمسَّ القوم بي رحما ، واني قد جئت في حاجة .. فاشفع لي الى محمد »

أجاب « علي » :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

فالتفت أبو سفيان الى السيدة فاطمة وسأل في ضراعة :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ »

أجابت رضي الله عنها :

« والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

واذ سدت السبل في وجهه ، التمس نصيحة ابن عم الرسول ، علي بن أبي طالب ،فقال كرم الله وجهه :

« والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، لكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . وما أظن ذلك مغنيا ، ولكني لا أجد لك غيره » (٢)

فذهب « أبو سفيان » الى المسجد ، وهناك أعلن انه أجار بين الناس ، ثم أسرع الى راحلته وانطلق بها يعدو في طريق مكة ، كأنه يفر من مطارد .. (٣)

* * *

سمعت « أم المؤمنين » ما جرى لأبيها ، فما زادت على أن دعت لزوجها الرسول بالنصر ، وقد رأته يتخذ أهبة للمعركة الحاسمة في البلد الحرام

ولعل نساء النبي راقبنها وهي في موقفهـا ذاك الدقيق الحرج ، ترى جيش المدينة يتأهب لأخـذ قومها على غرة ، ومكة لا تزال في حيرة من

---

(١) ، (٢) السيرة : ٣٩/٤ وتاريخ الطبري : ١١٣/٣ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤ ـ وتاريخ الطبري : ١١٢/٣ .

الأمر ، تستمع لما كان من أمر أبي سفيان الذي رجع من وفادته خائبا على غير قرار ، يقول : (١)

« جئت محمدا فوالله ما رد عليَّ شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو » .

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة ، دقيقا أشد الدقة ، فانتصار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني القضاء على أبيها وعشيرتها ، وان « أم المؤمنين » لتناصب قومها العداء ، وتبرأ منهم الى الله ورسوله ، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سيطت به ؟ .. وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذي ينتظرهم ؟!

واذ هي في حيرتها المضنية ، لاح لها شعاع من الأمل :

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان ، كما أسلم عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وأبو العاص بن الربيع ، زوج بنت الرسول ؟

انه لأمل واه ، أقرب الى أن يكون سرابا ، ولكن زوجة النبي تشبثت به ليعصمها من الحيرة والجزع ، فتوجهت الى السماء ، تدعو الله أن يهدي أبا سفيان الى الاسلام !

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما ، فتلت ما نزل من آي الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم » (٢) .

وكان هذا أقصى ما تملك «أم المؤمنين، بنت أبي سفيان» لأبيها وأهلها.

على حين بلغ الجزع برجل من صحابة النبي الذين شهدوا بدرا ، أن بعث كتابا مع امرأة من « مكة » تدعى « سارة » ووعدها مكافأة سخية اذا هي أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذي يوشك أن يدهمهم (٣)

وعلم النبي بكتاب صاحبه « حاطب بن أبي بلتعة » فبعث علي بن أبي

---

(١) السيرة : ٣٩/٤ وتاريخ الطبري : ١١٣/٣ .

(٢) السمط الثمين : ١١٠ والآية من سورة الممتحنة (٧) .

(٣) سيرة ابن هشام : ٤٠/٤ ـ والاصابة : حرف الحاء .

طالب والزبير بن العوام فأدركا « سارة » وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها .

ودعا النبي اليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك . قال حاطب :

« يا رسول الله ، أما والله اني لمؤمن بالله وبرسوله، ما غيرتُ ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس له في القوم من أهـل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » .

فوثب به « عمر بن الخطاب » واستأذن الرسول في أن يضرب عنقه ، لكنه صلى الله عليه وسلم حال دونه ، أن كان أحد أصحاب « بدر » (١)

وانما جئت بحديث « حاطب » هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على « أم المؤمنين بنت أبي سفيان » حين ودعت زوجها الرسول وهو خارج في عشرة آلاف مقاتل يريد « مكة » !

* * *

وتم الفتح ..

وطارت البشرى الى « المدينة » بما أفاء الله على رسوله من نصر ..

وتسامعت « دار الهجرة » بما كان من لقاء الرسول بأبي سفيان ، الذي أرسلته مكة ــ حين رأت نيران العسكر الغـازي تتوهج قريبا منها ــ ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام .

وعرف « العباس بن عبد المطلب » أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر : (٢)

« ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله في الناس ، واصباح قريش اذا دخل مكة عنوة ! »

قال أبو سفيان :

« فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ »

فأردفه « العباس » وراءه ، وسار به خلال المعسكر ، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلوب المشركين .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤/١٠ ــ والاصابة : حرف الحاء .

(٢) السيرة : ٤/٤٥ ــ وتاريخ الطبري : ٣/٤٠ .

فلما مرا بنار « عمر بن الخطاب » عرف أبا سفيان فأسرع الى خيمة النبي مستأذنا في أن يضرب عنقه ..

وجاء العباس ، على أثره فقال :

« اني يا رسول الله قد أجرته » .

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول :

« اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فائتني به » .

وقضى « أبو سفيان » ليلته مؤرقا يترقب حكم « محمد بن عبد الله » في كبير قريش .

فلما كان الصبح (١) جيء بأبي سفيان الى حضرة النبي ، وفي مجلسه كبار المهاجرين والأنصار .

وتكلم النبي صلى الله عليه وسلم :

« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ »

أجاب الرجل :

« بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد ! »

قال الرسول :

« ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ »

أجاب « أبو رملة » :

« بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه ، فوالله ان في النفس منها حتى الآن شيئا ! »

ولكن « أبا سفيان » ما لبث أن أعلن اسلامه ..

فالتمس « العباس » من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكرم الرجل بشيء يرضي حبه للفخر ، فأجاب النبي الكريم :

« نعم .. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » (٢)

---

(١) السيرة : ٤٥/٤ - وتاريخ الطبري : ٤٠/٣ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٤٦/٤ - وتارريخ الطبري : ١١٧/٣ .

وبعث أبو سفيان من نادى في مكة هذا النداء :
« من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .. »
فما زالت أصداء الهتاف تنتقل في الآفاق حتى بلغت « المدينة » .
وصاحت « أم حبيبة » وقد هزها الفرح :
« من دخل دار أبي فهو آمن ! »
ألا ما أكرم زوجها الرسول ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !
وسجدت لله شاكرة ..
وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة ، وحفصة ، وكل زوجات الرسول ..

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها « عائشة » ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة .
وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت في غلوائها واشتطت في اعتدادها بمكانتها .
حتى اذا حان الرحيل ، دعت اليها « عائشة بنت أبي بكر » فقالت لها وهي تحتضر :
« قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتحللينني من ذلك ؟ »
أو قالت : « قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك » (١)
فحللتها عائشة واستغفرت لها ، واذ ذاك أضاء وجهها الشاحب بنور الرضا وهمست : « سررتِني سرك ِ الله »
وفعلت مثل ذلك مع « أم سلمة بنت زاد الركب » (٢)
ثم رقدت بسلام ، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب ، في مدينة زوجها الرسول ، سنة أربع وأربعين من الهجرة في خلافة أخيها معاوية (٣) .

---

(١) ، (٢) السمط الثمين ، ص ١٠١ .
(٣) الاستيعاب : ٤/١٩٢٩



الفصل الثاني عشر

مارية القبطيّة

أم إبراهيم

« استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما »

حديث شريف



هدية من مصر

وغير بعيد من بيت النبي ، في منزل خاص، كانت تقيم واحدة من نساء النبي ، لم تلقب بأم المؤمنين ، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع انها لم تقم في دور النبي الملحقة بالمسجد ، الا أن أثرها في هذه الدور وساكناتها كان جد بعيد ، وحسبنا أن نذكر أنها وحدها التي تظاهرت عليها أزواج النبي جميعا ، فكدن يظفرن بتحريمها على زوجهن الرسول ، لولا أن نزلت فيها آيات التحريم : (١)

« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك » .

فمن تكون هذه السيدة ؟ وكيف دخلت حياة الرسول ؟ وأي موضع كان لها في هذه الحياة ؟

* * *

في قرية من صعيد مصر ، تدعى « حفن » قريبة من بلدة « أنصنا » (٢) الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، ولدت « مارية بنت شمعون » لأب قبطي ، وأم مسيحية رومية .

وأمضت بها حداثتها الأول قبل أن تنتقل في مطلع شبابها الباكر مع أختها « سيرين » الى قصر « المقوقس » عظيم القبط .

وقد سمعت هنالك بما كان من ظهور نبي في جزيرة العرب يدعو الى دين سماوي جديد ، وكانت في القصر حين وفد « حاطب بن أبي بلتعة » موفدا من هذا النبي العربي يحمل رسالة الى المقوقس .

وأذن له في الدخول ، فأدى الرسالة :

---

(١) **من** آية ١ سورة التحريم ـ وانظر السمط الثمين ص ١٤١ .

(٢) **سيرة** ابن هشام : ١/٧ ـ وراجع معه القاموس الجغرافي لرمزي حـ ١ ط دار الكتب المصرية .

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون»

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه في عناية وتوقير ، ووضعه في حُق من عاج دفعه الى واحدة من جواريه .

والتفت من بعد ذلك الى « حاطب » يسأله أن يحدثه عن النبي ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مليا ثم قال لحاطب :

« قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعني ، وأنا أضن بملكي أن أفارقه .. »

ثم دعا بكاتبه فأملى عليه رده :

« .. أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ..

« وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم ، وبثياب ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك » .

ودفع «المقوقس» كتابه الى «حاطب» معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم ، وموصيا اياه بأن يكتم ما دار بينهما ، فلا يسمع القبط منه حرفا واحدا .

وانطلق « حاطب » عائدا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، (١) ومعه « مارية » وأختها « سيرين » وعبد خصي ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرون ثوبا لينا من نسج مصر ، وجواد مسرج ملجم ، وحمار أشهب ، وجانب من عسل « بنها » وبعض العود والند والمسك .

---

(١) هذا هو المشهور ، وفي رواية ان المقوقس بعث الى الرسول أربع جوار منهن مارية وسيرين . انظر تاريخ الطبري ٨٥/٣ .

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن ، فسارتا تملآن أعينهما من الوادي الحبيب ، حتى اذا غابت عنهما آخر معالمه ، ألقتا نظرة وداع دامعة ، على الأرض التي حُلِّت فيها تمائمهما ، ودرج عليها صباهما .

وأحس « حاطب » ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق ، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق ، ويروي لهما ما وعي من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها ، ثم انثنى يتحدث عن النبي الرسول ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب ، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للاسلام ونبيه الكريم .

واستغرقهما التفكير في الحياة الجديدة التي توشك أن تستقبلهما ، وفي السيد النبي الذي ينتظر في « المدينة » رجوع صاحبه « حاطب » برد المقوقس .

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة، وقد عاد الرسول وشيكا من « الحديبية » بعد ان عقد الهدنة مع قريش .

وتلقى صلى الله عليه وسلم كتاب المقوقس ، وهدية مصر ..

وأعجبته « مارية » فاكتفى بها ، ووهب أختها « سيرين » لشاعره « حسان بن ثابت » .

وطار النبأ الى دور النبي ، أن شابة مصرية حلوة ، جعدة الشعر ، جذابة الملامح ، قد جاءت من أرض النيل هدية للرسول ، فأنزلها صلى الله عليه وسلم بمنزل لحارثة بن النعمان ، قرب المسجد .

وتكلفت « عائشة » ما استطاعت من جهد ، لكي تعلل نفسها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة ، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة ، أهداها سيد الى سيد .

لكنها راحت ترقب في كثير من القلق ، مظاهر اهتمام الرسول بتلك المصرية الطارئة ، وقد أثار جزعها أن تراه صلى الله عليه وسلم يكثر من التردد عليها ، ويمكث لديها طويلا (١)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ـ وانظر السمط الثمين ص ١٤٠ .

طيف وأمل

ومضى عام أو نحو عام ، و « مارية » سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، قد اطمأن بها المقام في كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب ، شأن زوجاته أمهات المؤمنين .

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله في شخص ذلك السيد العظيم الذي ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه .

وكانت تحمل في كيانها سحر مصر ، وفي أعطافها أريج الوادي العطر ، وفي عقلها ذكاء أجداد لها عظام قاوموا الفناء وطمحوا الى الخلود ، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف شائقة لايزيس في حبها العبقري ، ونفرتيتي في جمالها الباهر ، وحتشبسوت في ملكها العتيد ، وكليوباترا في جاذبيتها المثيرة .

ولم يغض أبدا ذلك النبع الدافق الذي كان يمدها في كل آن بعذب الحديث وشهي السمر ، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة « هاجر » زميلتها المصرية التي جاءت من أرض النيل(١) ، وحملت من سيدها « ابراهيم » فأثارت غيرة زوجته السيدة « سارة » فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها الى البيت العتيق ، حيث تركهما هنالك : وحيدين بواد غير ذي زرع .

وطالما شاق « مارية » أن يحدثها السيد الرسول عن نجدة السماء التي هدت « هاجر » الى نبع زمزم ، وأن يصف لها كيف بدأت الجزيرة

---

(١) ابن هشام : ٧/١ .

العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت « هاجر » ملء التاريخ ، وصارت هرولتها ومسعاها بين الصفا والمروة ، شعيرة مقدسة من شعائر الحج في الاسلام .

وألفت « مارية » حين كانت تخلو بنفسها ، أن تفكر في « هاجر » ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب (١) ، فلم تخطىء فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت « هاجر » هبة من سارة للنبي ابراهيم ، كما أن « مارية » هبة من المقوقس للنبي محمد ، وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات في بيت السيد النبي ، ابراهيم أو محمد

ولكن « هاجر » كانت أما لولد ابراهيم ، فهل تغدو « مارية » أما لولد محمد ؟!

ما أبعد الأمنية ، بل ما أدناها من المستحيل !

لقد تزوج الرسول منذ ماتت السيدة خديجة ، عشر زوجات ، منهن الشابة الفتية ، والمرأة الناضجة ، ومنهن من كانت ذات ولد . ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للزعيم النبي الذي تخطف الموت أبناءه من خديجة ، فلم يدع له سوى ابنة واحدة ، هي السيدة « فاطمة الزهراء » .

وقد شارف السيد الرسول الستين من عمره ، وبدا كأنه كف عن تمني الولد ، بعد سنين مجدبة ، مع زوجات ذوات عدد .

فأنـَّى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لاسماعيل !

يا لها من أمنية أبعد من الوهم ، ويا له من أمل أوهى من السراب !

---

(١) ابن هشام : ١/٧ .

بشرى !

استقبلت « مارية » عامها الثاني في حياة الرسول ، وما تكف عن ذكر هاجر واسماعيل وابراهيم .

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن ، فكذبت احساسها واتهمت يقظتها ، وخيل اليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شوقها الملح الى الأمومة ، وتفكيرها الدائم في هاجر واسماعيل .

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهي في ريب من الأمر ، لا تدري أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام ؟ حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم .

هنالك أفضت به الى أختها « سيرين » فأكدت لها أن ليس في الأمر وهم ولا شبه وهم ، وانما هو جنين حي .

وكاد يغشى على « مارية » من فرط الانفعال وعنف الفرحة ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا ، وتحقق أملها الذي بدا عقيما واهيا كالسراب .

واستغرقتها نشوة حالمة ، حتى جاء السيد الرسول، فأفضت اليه بالسر الخطير الذي تجنه أحشاؤها .

وتذكر بغتة ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها في الطعام ، وهي أعراض عرفها من قبل في « خديجة » في مستهل كل حمل ، لكنه حسبها في « مارية » وعكة طارئة لا تلبث أن تزول .

ورفع الى السماء وجها مشرق الأسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجميل الذي منّ به على عبده الرسول ، اثر فقده لابنته الغالية « زينب » بعد أن ماتت قبلها رقية ، وأم كلثوم ، ومات عبد الله ، والقاسم ..

واذ حدثته مارية عن ريبتها الأولى في حملها، ذكر قوله تعالى عن زكريا :

« قال رب أنَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ .. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » (١)

ثم ذكر من بعدها قوله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما ، قال : سلام ، قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم ، قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ، وبشروه بغلام عليم • فأقبلت امرأته في صَرَّة فصكَّت وجهها وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلكِ قال ربك ، انه هو الحكيم العليم » (٢)

فضحكت مارية وقالت مدلَّة بشبابها الدافق :

ــ لكني لست عجوزا يا رسول الله !

وفاض عالمهما المشترك بالهناءة والغبطة .

وسرعان ما سرت البشرى في أنحاء المدينة أن رسول الله ينتظر مولودا له من « مارية المصرية » ، وما بقارىء حاجة الى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبي .

أتحمل هذه الغريبة الطارئة ، ولما يمض عليها في المدينة سوى عام واحد ، وان منهن من أمضت في بيت الرسول عدة أعوام بلا حمل ؟

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى ، وأمهات المؤمنين ، وفيهن بنتا أبي بكر وعمر ، وبنت زاد الركب ، وحفيدة أبي طالب ، محرومات لا يلدن ؟

واشتعلت غيرتهن فما يدرين ما يقلن وما يفعلن ، وسرت همسة (٣) خبيثة تتهم «مارية» بمثل ما اتُّهِمت به قبلها ، أمُّ المؤمنين، عائشة بنت الصدِّيق !

ولقد برئت السيدة عائشة بنت أبي بكر ، بآية من السماء ، فهل تطمع بنت شمعون في آية كهذه تشهد ببراءتها ؟

---

(١) سورة مريم : الآيتان ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الذاريات : الآيات : ٢٤ ــ٣٠ .
(٣) السمط الثمين : ١/١٤ ــ والاستيعاب : ١٩١٢/٤ .

ولم يتخلَّ عنها الله تعالى في محنتها هذه ، بل أتاح لها دليلا حاسما على كذب ما رُميت به : حدث محمد بن عبد الله الزهري عن أنس بن مالك قال : كانت أم ابراهيم سرية النبي صلى الله عليه وسلم في مشربتها، وكان قبطي (١) يأوي اليها ويأتيها بالماء والحطب ، فقال الناس في ذلك : علج يدخل على علجة . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فوجد القبطي على نخلة هناك، فلما أخذ « سيدنا علي » سيفه ، وقع في نفسه وألقى الرداء الذي كان يستره فتعرى ، فاذا هو مجبوب . فرجع « علي » الى النبي (صلعم) فأخبره بما رأى من القبطي (٢) .. ثم جاء جبريل أمين الوحي فقال : السلام عليك يا أبا ابراهيم ، فاطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)

وخاف الرسول على « مارية » فنقلها الى « العالية » بضواحي المدينة ، توفيرا لراحتها وسلامتها ، وعناية بصحتها وصحة جنينها .

قالت عائشة : (٤)

« ما غِرتُ على امرأة الا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان ، فكانت جارتنا ، فكان عامة الليل والنهار عندها ... فجزعت ، فحوَّلها الى العالية ، وكان يختلف اليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا ، ثم رزقه الله منها الولد وحرمناه منه » .

وسهر الرسول عليها يرعاها ، وكذلك فعلت أختها « سيرين » حتى بلغ الجنين أجله، وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة .

ودعا الرسول قابلتها « سلمى : زوج أبي رافع » ثم انتحى ناحية من الدار ، يصلي ويدعو ..

---

(١) هو الذي جاء معها من مصر ، هدية من المقوقس .
(٢) الاستيعاب : ٤/١٩١٢ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ـ والسمط الثمين : ص ١٤١ .
(٤) السمط الثمين : ص ١٤٠ .

فلما جاءته أم رافع بالبشرى (١) أكرمها كل الاكرام ، وخف الى مارية فهنأها بولدها الذي أعتقها من الرق (٢) ، ثم حمل وليده بين يديه مستثار الفرح والحب ، وسماه « ابراهيم » تيمنا باسم جد الأنبياء .

وتصدق صلى الله عليه وسلم على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد ورقا ، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه، وأحبوا أن يفرِّغوا مارية للنبي صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من هواه فيها ، فاختار الأب الرسول مرضعة ولده ، وجعل في حيازتها سبعا من الماعز كي ترضعه بلبنها اذا شح ثدياها (٣)

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته ، ويود لو شاركته دنياه كلها في هذا الأنس .

حمله يوما بين ذراعيه الى « عائشة » ودعاها في تلطف وبشر لترى ما في الصغير من ملامح أبيه ، فأحست « عائشة » كأن سهما نفذ الى قلبها ، وكادت تبكي مما تجد ، لكنها أمسكت عبرتها وقالت في غيظ :

ـ ما أرى بينك وبينه شبها !

وأدرك الرسول على الفور مدى ما تكابد ، فانصرف بولده وهو يرثي لعائشة .

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمداراة ، حتى كان اليوم الذي اجتمع فيه الرسول بمارية في بيت « حفصة » فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا ، وكان ما كان من قصة التحريم .

وخيل لمارية أنها بلغت مناها ، فهذه هي تلد للنبي ولدا كما ولدت « هاجر » لابراهيم ابنه اسماعيل .

وهذه هي محنة الغيرة تنتهي على خير لها ، فتكون حادثة تحريم الرسول اياها على نفسه ، ثم عودته اليها ، آية تتلى في الكتاب المنزل ، وقرآنا

---

(١) وفي رواية ان الذي حمل البشرى الى الرسول ، زوج سلمى ، وانه (صلعم) وهب له عبدا . السمط : ١٤٠ ـ وانظر الاستيعاب : ١/٥٤ .

(٢) السمط الثمين : ١٤٢ ـ وانظر الاستيعاب : ٤/١٩١٣ .

(٣) الاصابة لابن حجر : ج ١ ـ والاستيعاب : ١/٥٥ .

يتعبد به المسلمون كما كان الأمر مع «هاجر» حين ألقت بها غيرة «سارة» الى القفر المجدب والوادي الموحش الأجرد .

ولم يُسعد « مارية » شيء قدر ما أسعدها أن تهب السيد الرسول على اليأس والكبر غلاما تقرّ به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة ...

❋

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المرير ..

مرض « ابراهيم » ولما يبلغ عامين من عمره ، فجزعت أمه ودعت اليها أختها ، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق ، لكن الحياة أخذت تنطفىء رويدا رويدا (١) ، فجاء أبوه معتمدا على يد « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه في حجره محزون القلب ضائع الحيلة ، لا يملك الا أن يقول في أسى وتسليم :

« انا يا ابراهيم لا نغني عنك من الله شيئا » .

ودمعت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ، ثم أصغى واجما الى حشرجة احتضاره ، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة وانحنى على جثمان فقيده فقبله والدمع يفيض من عينه ثم تمالك نفسه فقال :

«تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب، وأنا يا ابراهيم عليك لمحزونون ، وانا لله وانا اليه راجعون » .

ثم نظر الى مارية في عطف راث ، وقال يواسيها :

« ان له لمرضعا في الجنة » (٢)

وأقبل ابن عمه صلى الله عليه وسلم « الفضل بن عباس » فغسل الصغير الميت ، وأبوه الرسول جالس يرنو اليه في حزن بالغ (٣) .

---

(١) الاستيعاب : ١/٥٧ .

(٢) الاصابة لابن حجر : ابراهيم بن محمد .

(٣) انظر الاستيعاب : ١/٥٥ ـ والسمط الثمين ١٤٣ .

وحمل جثمان « ابراهيم » من منزل أمه على سرير صغير وسار وراءه أبوه وصحابته الى البقيع ، فصلى عليه النبي ، وأضجعه بيده في قبره ، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء .

وآب المشيعون الى « المدينة » واجمين ، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلهم : « انها انكسفت لموت ابراهيم » .

وبلغت الكلمة مسمع الرسول ، فالتفت الى أصحابه يقول :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ... » (١) .

وطوى جرحه في قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه، واعتكفت « مارية » في بيتها تحاول أن تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح في قلب السيد الرسول ، فاذا عزَّ الصبر خرجت الى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها ، والتمست راحة في البكاء .

* * *

ولكن أيام الرسول لم تطل بعد موت « ابراهيم » في السنة العاشرة للهجرة ، فما أهلَّ ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا صلى الله عليه وسلم ، ثم لحق بربه الأعلى ، وترك « مارية » من بعده تعيش خمس سنوات في عزلة عن الناس ، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين ، ولا تكاد تخرج الا لكي تزور قبر الحبيب بالمسجد ، أو قبر ولدها بالبقيع .

فلما ماتت سنة ست عشرة من الهجرة ، أخذ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحشد الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع (٢) .

وكل نفس ذائقة الموت ، فحسب « مارية » أنها دخلت في حياة النبي العظيم ، وان السماء تدخلت لحمايتها حين تظاهرت نساء النبي عليها ، وان الله آثرها بفخر أمومتها لابراهيم عليه السلام .

---

(١) السمط الثمين ١٤٣ ــ والاصابة ج ٨ .

(٢) الاصابة : ج ٨ والسمط الثمين ، ص ١٤٣ .

وَصيّة الرّسُول

ثم حسبها بعد هذا كله ، أن دعّمت ما بين مصر والجزيرة العربية من صلة عريقة بدأت بهاجر من أعماق الماضي الموغل في القدم ، فجعلت نبي الاسلام يوصي أتباعه بقوم مارية فيقول :

« اللهَ اللهَ في أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فإن لهم نسبا وصهرا » .

ويقول :

« استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » .

ولقد ترك صلى الله عليه وسلم هذه الوصية ميراثا بعده ، فيقال ان الامام الحسن بن علي ــ رضي الله عنه ــ طلب الى معاوية في مفاوضات الصلح بينهما ، أن يرفع الخراج عن أهل قرية «حفن» وفيها خئولة ابراهيم عليه السلام .

كما يقال ان « عبادة بن الصامت » لما جاء مصر بعد فتحها ، بحث عن تلك القرية وسأل عن موضع بيت مارية ، فبنى به مسجدا ...

❃



الفصل الثالث عشر

ميمونة بنت الحارث

آخر نساء النبيّ

«ذهبت والله ميمونة .. أما إنها والله كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم ! »

عائشة بنت أبي بكر
الاصابة : ٨/١٩٢

قلب يهفو

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح «خيبر» وعودة المهاجرين الى الحبشة ، مثل التفكير فيما نص عليه « عهد الحديبية » الذي عقد آخر سنة ست ، من أن « يعود محمد وأصحابه الى مكة في العام الذي يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا شيء غيرها » (١) .

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة الى « أم القرى » ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا الى أرض الوطن ، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد .

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذي جُعل مثابة للناس وأمنا ، يأتون اليه من كل فج عميق .

فلما سعوا اليه في العام السادس للهجرة حاجين مسالمين وصاروا من « مكة » قاب قوسين أو أدنى ، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام ، وان قبلوا أخيرا أن يتركوا المسلمين يعودون اليه في قابل ..

* * *

ومرت الأيام بطيئة والليالي طوالا ، حتى استدار العام ونادى الرسول في الناس كي يتجهزوا للخروج الى مكة .

وركب ناقته « القصواء » وتبعه ألفا راكب يتلهفون شوقا الى أقدم بيت عُبِد الله فيه ، وحنينا الى أول أرض كانت لهم مهدا وموطنا ومراحا

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة ، للقرية المباركة : مولد الرسول ومهبط الوحي .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/٧٩ .

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم باليوم الموعود ، وأمامهم « عبد الله ابن رواحة » آخذا بخطام « القصواء » ينشد حاديا : (١)

خلّوا بني الـكفار عن سـبيله
خلوا ، فكـلُ الخير في رسوله
يا رب اني مؤمن بقيلـه
أعرف حـق الله في قبولـه

حتى دخلوا مكة ، آمنين محلّقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد .

وتلوا آية الوعد الحق :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتَدخُلُنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » (٢)

ثم هتفوا في صوت واحد ملبين :

«لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك » .

فتجاوبت أرجاء « مكة » بالهتاف المؤثر ، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام ، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال ...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

« لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

فما بقي مكي الا وقد أيقن أن يوم النصر الأكبر للمؤمنين جد قريب ..

* * *

وفعل المشهد المهيب في مكة فعل السحر ...

فاذا سيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبهـا الى « محمد » صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ابن اسحق في السيرة : ١٣/٤ .
(٢) آية ٢٧ سورة الفتح .

تلك كانت « برة بنت الحارث بن حزن الهلالية » احدى أخوات أربع قال فيهن الرسول : « الأخوات المؤمنات » .

واحدة منهن شقيقة لها، هي «أم الفضل، لبابة الكبرى بنت الحارث» زوج العباس بن عبد المطلب ، وأول امرأة آمنت بالرسول بعد خديجة عليها السلام ، والسيدة التي يذكر لها الاسلام (١) أنها ضربت أبا لهب عدو الله ورسوله ، حين دخل بيت أخيه العباس فاحتمل مولاه « أبا رافع » فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه لأنه أسلم . فقامت أم الفضل الى عمود هناك ، فشجت رأس أبي لهب شجة منكرة وهي تقول :

« استضعفتـه ان غاب عنه سيده ؟! » فقام موليا ذليلا ، فما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله بداء قتله .

والأخريان أختان لبرة من أمها : « أسماء بنت عميس الخثعمية » زوج جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين ، وأم ابنه عبد الله ، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الامام علي بن أبي طالب فولدت له يحيى ، رضي الله عنهم » .

و « سلمى بنت عميس » زوج حمزة بن أبي طالب ، شهيد أحد .

وأمهن جميعا ، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ، التي كان يقال فيها : « أكرم عجوز في الأرض أصهارا هند بنت عوف : أصهارها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضي الله عنهما ، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب رضي الله عنهما (٢) .

وكان لهند غير هؤلاء ، أصهار آخرون من ذوي المكانة ، الوليد بن المغيرة المخزومي ، زوج لبابةالصغرى بنت الحارث ، أم خالد ، وأبي بن خلف الجمحي ، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث ، أم أبان ، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالي ، زوج عزة بنت الحارث (٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٠١/٢ .

(٢) السمط الثمين : ١١٣ ــ والاستيعاب : ١٩١٥/٤ .

(٣) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة : ١٩٦/٤ ، وانظر الاستيعاب ١٩١٥/٤ ، السمط الثمين ١١٥ .

كانت « برة » اذ ذاك أرملة في السادسة والعشرين من عمرها ، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى ، القرشي العامري(١) .

وأفضت « برة » الى شقيقتها « أم الفضل » بما يهفو اليه قلبها ، فتحدثت به الأخت الى زوجها العباس ، وجعلت له يدها .

وما كان « العباس » ليتردد في حمل رسالة كهذه الى نبي الاسلام ، بل مضى من فوره الى ابن أخيه ، فخاطبه في أمر « برة » وعرض عليه أن يتزوجها ، واستجاب الرسول ، وأصدقها أربعمائة درهم ، وبعث ابن عمه جعفر ــ زوج أختها أسماء ــ يخطبها ...

وفي رواية أن « برة بنت الحارث » هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى وتبارك فيها : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي » (٢) .

* * *

وكانت الأيام الثلاثة التي نص عليها عهد الحديبية (٣) ، قد قاربت نهايتها ، فود الرسول لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج ، فيكسب بهذا الامهال مزيدا من الوقت ، ليمكن للاسلام من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا ...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان اليه أن يخرج ، اذ انقضى الأجل المنصوص عليه في العهد ، قال مسالما :

« ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟! » (٤)

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة : ٤/١٩٦ . وفي اسم الزوج خلاف ــ راجع السمط الثمين ص١١٥

(٢) سيرة ابن هشام : ٤/٢٩٦ والاية من سورة الاحزاب (رقم ٥٠)

(٣) نص العهد على ان يرجع الرسول واصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ (السنة السادسة هـ) ثم يدخلها بأصحابه في عام قابل ، فيقيموا بها ثلاثة ايام ــ راجع نص العهد في تاريخ الطبري ٣/٧٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ٤/١٤ ــ وتاريخ الطبري : ٣/١٠٠ .

لكن رسولي قريش ، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابهـا لمحمد طائعة ، اذا امتد مقامه بها أياما أخريات .

وأجابا في جفاء :

« لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا » .

فنزل الرسول على كلمتهما وفاء بعهده ، وأذّن في المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه « أبا رافع » بمكة ، ليلحق به في صحبة « برة » (١)

❋

(١) السيرة : ١٤/٤ ـ وتاريخ الطبري : ١٠١/٣ ـ والسمط الثمين ١١٤ .

وفي « سرف » ـ قرب التنعيم ـ جاءت « برة » يصحبها مولى الرسول فبنى بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هناك (١) ، ثم انصرف بها راجعا الى « المدينة » .

وسماها « ميمونة » أن كان زواجه بها في المناسبة الميمونة الغراء، التي دخل فيها أم القرى ،لأول مرة منذ سبع سنين ومعه أتباعه آمنين لا يخافون .

ودخلت « ميمونة » بيت النبي مسالمة ، قد اكتفت من دنياها بما منّ الله عليها به من نعمة الاسلام ، وشرف الزواج بالرسول الكريم .

وما من ريب في أن الغيرة من « عائشة » ثم من « مارية » لذعتها : أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب الرسول ، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم .

وما من ريب كذلك في أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة ، حين جمحت الغيرة بنساء الرسول ، وهي منهن ، فكانت المغاضبة والهجر .

لكن مؤرخي الاسلام وكتّاب السيرة ، لا يذكرون لها ـ فيما عدا ذلك ـ حادثة خصومة انفردت بها ، أو شجار شبّته في بيت الرسول .

وانما يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم كان في بيتها حين اشتد به الألم في مرض الموت ، فرضيت أن ينتقل الرسول حيث أحب ، الى بيت عائشة

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام الى جوار ربه الأعلى ، عاشت « ميمونة » تذكر اليوم الميمون الذي جمعها بالرسول ، وتحن الى البقعة المباركة في « سرف » حيث بنى بها ..

---

(١) السيرة : ٤/١٤ ـ وتاريخ الطبري : ٣/١٠١ ـ السمط الثمين ١١٤ ـ والاستيعاب : ٤/١٩١٨ .

وقد أوصت أن تدفن في موضع قبتها هناك ، فلما ماتت ـ بعد منتصف القرن الاول للهجرة ـ أرقدوها حيث أحبت .. (١)

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة ..

حدث « يزيد بن الأصم » :

« تلقيت عائشة من مكة، أنا وابنٌ لطلحة من أختها، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان « المدينة » فأصبنا منه .. فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت عليَّ فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت : أما علمتَ أن الله ساقك حتى جعلك في بيت من بيوت نبيه ؟ .. ذهبتْ والله ميمونة ، ورُمِي بحبلك على غاربك . أما انها كانت والله من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم » .

سلام على ميمونة ...

وسلام على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، أمهات المؤمنين .



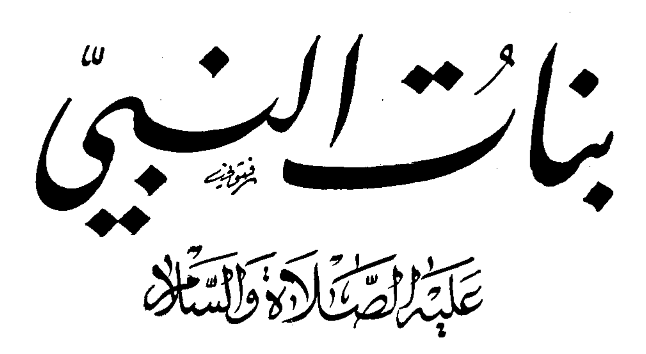
(١) السمط الثمين : ص ١١٥ ـ والاستيعاب : ١٩١٨/٤ .



الكتابُ الثالث

بناتُ النبيّ
عليه الصلاة والسلام




بنات النبي
عليه الصلاة والسلام



مقـــدّمة

تمضي القرون والأدهار ، وشخصية « محمد صلى الله عليه وسلم » موضع اهتمام الكتاب والدارسين عـلى اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمـة الانسانية كما تمثلت في بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وانه ليأكل الطعام ويمشي في الاسواق ..

ذلك لأن الانسانية ـ عـلى كثرة من عرفت في تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال ـ ستظل أبد الدهر ترنو الى هـذا النبي العربي الذي لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته ، بل أصر على الاعتراف بها في اعتزاز مؤثر ، لا يعرف التاريخ له مثيلا ..

وحين تختلف بالنـــاس الاديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والاهواء أحزابا وشيعا ، فان البشرية ستظل ما بقيت، تباهي بأن يكون منها نبي، حمل الى الدنيا رسالة التوحيد التي رفعت عنها وصمة الوثنية ولعنـة الشّرك،وجاء الناس بدين الاسلام الذي أصرعلىتقرير بشرية الانبياء :

« قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

« قل انما أنا بشرٌ مثلكم يوحى اليَّ أنما الهكم اله واحد » .

« قل سبحان ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا » .

« وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » .
« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلنا بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غني حميد » .

* * *

وهذا الايمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذي وجّه دراساتي للجوانب التي اخترتها من شخصيته الفذة : فكان كتابي عن « أم النبي » محاولة لفهم جانب البنوة في الوليد اليتيم الذي وضعته امرأة من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أنثى من البشر ، ليكون بعد أن يبلغ أشده ، المصطفى المبعوث بآخر رسالات السماء ..

وكان كتابي عن « نساء النبي » محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، اذ يمارس حياته الزوجية في بيته ببشرية سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والمشاعر والرغبات ، ولم تنكر على نسائه ـ أمهات المؤمنين ـ نوازع الفطرة وأهواء الجنس وميراث حواء !

وهذا كتابي عن « بنات النبي » أحاول فيه أن أستجلي ملامح شخصية الأب الرسول ، وأن أعرض صورة أمينة لعاطفة الأبوة ، ممثلة في شخص نبي انسان ، سواه الله بشرا وأراد له أن يكون والدا لبنات أربع ، في بيئة وأدت الاناث وفُتِنت بالبنين ...

* * *

وبعد ، فأحسب أن قارئي يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلي ، ما يحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أراني في حاجة الى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الاولى ، وأن ليس لي من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والأداء ..

لكنما يعنيني هنا أن أقول : انه اذا كان بعض قومي يتحرجون من التحدث عن الجانب البشري في حياة الرسول زوجا وأبا ، فاني لأحمد الله على أن عصم ايماني من مثل هذا التحرج المنكر الذي يشعر بأن من أنباء الحياة الخاصة لخاتم الانبياء ، ما يحتاج الى ستر أو كتمان ! .. ومعاذ الايمان بعظمة الرسول الكريم الذي تلا علينا من هذه الأنباء ، آيات قرآنية يتعبد بها منا من يؤمن بالله ، ويصدق برسالة محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ، عليه الصلاة والسلام ..

مصر الجديدة

رمضان : ١٣٨٢

مارس : ١٩٦٣

بنت الشاطئ

❁



الفصل الاول

الأبوّة في المجتمع العربيّ

- الأبوة في الجاهلية
- الأبوة العربية في الرسالة المحمدية وفي شخص الرسول الكريم

الأبوة في الجاهلية

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبي صلى الله عليه وسلم ، بدأت أقرأ في كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريمات اللواتي شُرفن بأمجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت. غير أني ما كدت أمضي في القراءة ، حتى وجدت أني لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع ، اذا لم أبدأ قبل كل شيء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهي دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربي ومعرفة مكان الأبوة فيه ، لكي يكون لنا من هذا كله ما يجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا ادراكا لنواحي السمو والجلال فيها .

والحديث عن الأبوة في المجتمع العربي ، حديث يطول ، وأخشى اذا أنا أرسلت قلمي يكتب فيه ملء عنانه، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الأصيل الذي يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه في أجزاء ثلاثة : ألم في أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تبدو في الرسالة المحمدية ومن ثم في شخص الأب الرسول ..

* * *

أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكنا اذا ذكرنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن في الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، اذا ذكرنا هذا ثم أضفنا اليه ما نعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية في الجاهلية » بموضوعنا ،

قوية وثيقة الى حد لا يسمح لنا بتجاهلها أو التغاضي عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن « محمد » في أبوته ..

ذلك لأنه اذا كان المنهج العلمي ، يأبى علينا أن نبتر شخصا من بيئته التي صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل في أصلابهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى بألا نقترف هذا الخطأ ، في الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة في مثل قوله : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » أو قوله : « .. لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما » كما طالما اعتز بأصله القرشي وبأمهاته « العواتك من سُليم » ، وباهى بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

وهذه الفطرة البشرية السوية في رسولنا ، التي تعدها الانسانية ـ كما قلت غير مرة ـ على اختلاف الأديان والأجناس ، وعلى مر الأحقاب والأدهار ، من آيات عظمته وأسرار بطولته، هذه الفطرة السوية هي التي تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوة « محمد » الى ماض قريب وبعيد ، ملتمسين من صميم البيئة العربية منذ جاهليتها ، الأصول الأولى للأبوة التي تجلت لنا في « محمد بن عبد الله » قبل مشرق الاسلام ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا ورسولا ..

والملحظ الأول الذي نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربي في الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة في هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة في أصلها لا تعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذي تنتمي اليه . ثم، بمضي الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما نرى في انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الأول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الأصل ..

ويحدث أحيانا ، وبخاصة في الأطوار البدائية ، أن تنتمي القبيلة الى الأم ، وهو طور عرفته العربية في جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار

فيها حتى بعد أن تطورت الى الدور الأبوي ..

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة ـ الذي هو في الواقع أبوها الكبير ـ ملكا غير متوج ، وحاكما لا يُعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان الخلع والطرد والنبذ من مجتمع القوم ..

وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للأب من مكانة في الجاهلية العربية ، فما ذاك بالأمر الذي يخفى ، ولنا أن نقول بعد هذا ان لقريش على وجه الخصوص ، أن تدعي فضل تمثيلها لأعز ما عرف المجتمع العربي من تكريم للأبوة ، أن كانت هي القبيلة التي ذهبت بأكثر ما للعرب في الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها . فلا ريب أن اعتزت بالأصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الأرحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به الى آلاف السنين ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على ما نعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ، والعهد بهم جد قديم . ولمن شاء أن يطعن في صحة هذا المروي عن سياقة النسب من قريش الى اسماعيل جدهم الأعلى (١) ، فلن نبذل جهدا لننفي شيئا من هذا أو نثبته ، ولا علينا أن نجادل المنكرين في الذي زعموا من أن سلسلة النسب هذه من صياغة الرواة واختراع كتاب السيرة في عصور متأخرة ، بعد الذي تم لقريش من مجد الدهر باصطفاء الرسول العربي منها ونزول القرآن المعجز بلسانها ، وانما حسبنا أن نقول ان حرص القوم على سياقة النسب ، يحمل وحده دليل احتفالهم بالأصول وعنايتهم بالأعراق ، وليس يضعف هذا الدليلَ أن تكون الأنساب قد اختُرعت بأخرة ، بل ان هذا الاتهام ـ ان صدق ـ أبلغ في الدلالة على ما للأبوة من خطر في تقدير القوم ، والا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الأنساب يسدون بها الثغرات التي تركتها أنامل الزمن في تاريخ العرب الطويل ..

---

(١) راجع في هذا كتاب « نسب قريش » لابي عبد الله المصعب الزبيري · وقد حققه بروفنسال ونشرته دار المعارف (ذخائر) ·

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهر ما يميز المجتمع العربي ، وأن تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب في هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الديني بقصة جدهم الذبيح الذي جاد بالحياة طاعة لأبيه، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق (١)، ثم يختمون تاريخهم الديني في الجاهلية ، بقصة بني عبد المطلب الذين ما ترددوا في طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة ، لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم الى الكعبة ، حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح (٢) .

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى التوحيد ، الا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ! » (٣)

وما نقموا على « محمد ، صلى الله عليه وسلم » شيئا كما نقموا عليه أن غضَّ من آبائهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل ان « أبا طالب » نفسه ـ عم النبي وكافله ـ ودَّ لو تبع ابنَ أخيه ، لولا أن وجد غضاضة في مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « اي ابن أخي ، اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص اليك شيء تكرهه ما بقيت » (٤)

وكذلك فعلت العرب البائدة في سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ » (٥)

---

(١) تاريخ الطبري ١٩١/٢ ط الحسينية .
وانظر آية ١٠٢ سورة الصافات ، وأقوال المفسرين فيها .
(٢) ابن هشام : السيرة ١٦٠/١ : ١٦٤ ط الحلبي .
وتاريخ الطبري : ١٧٤/٢ .
(٣) البقرة ١٧٠ ، وانظر معها آيات : لقمان «٢١» والمائدة «١٠٤» والاعراف (٢٨)
(٤) ابن هشام : السيرة ٢٦٤/١ . وتاريخ الطبري ٢١٤/٢ .
(٥) سورة الاعراف آية ٦٩ .

وقوم شعيب قالوا : « يا شعيب ، أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء .. انك لأنت الحليم الرشيد ! » (١)

هم الآباء دائما : سُنتهم عبادة، ودينهم ميراث، واتباعهم فرض محتوم

ونظام القبيلة ، الذي جعل للأبوة مثل تلك المكانة في المجتمع العربي القديم ، هو نفسه الذي جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد ، اذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة في مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة ، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ..

ونذكر هنا ـ للمرة الثانية ـ حديث « عبد المطلب » جد الرسول ، وقد انتهت اليه سقاية الحجيج وراثة عن جده « قصي » فكان يلقى في سبيل ذلك كل المشقة والعناء . واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم التي طمرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى في أن يمضي للتنقيب عن البئر المباركة التي بثت الحياة في الوادي الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضي « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره ، فما كاد يجيء بالمعول ويبدأ في الحفر حتى قامت اليه قريش ، تقسم ألا تتركه يحفر في ذلك المكان الذي شاءت الأقدار أن يقع بين الوثنين الكبيرين : « أساف ونائلة » . وأدرك عبد المطلب أن قريشا انما استضعفته لقلة ولده، فنذر لئن ولد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من انطلاقه ببنيه العشرة الى الكعبة وخروج السهم على عبد الله ـ أصغر بنيه ـ فهمَّ بذبحه لولا أن كان الفداء ! (٢)

وأعود فأقرر هنا ما ذكرته آنفا ، من أن الشك في حدوث هذه القصة ،

---

(١) سورة هود آية ٨٦ .

(٢) ابن هشام : السيرة ١/٢٦٤ ـ تاريخ الطبري ٢/١٧٤ .

لا ينفي بحال ما ، دلالتها الصادقة الأمينة ، على الاعتزاز بكثرة الولد في مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لاحداها في البقاء ، اذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعوها ويحمون حماها ..

ولا أريد أن أدع الحديث عن الابوة والبنوة عند العرب الاولين ، دون أن أعرض هنا مشهدا انسانيا مؤثرا ، سجل به القرآن ما لعاطفة الأبوة من سلطان قاهر لا قبل لبشر بمقاومته ـ حين يدعو الواجب ـ ولو كان من الأنبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين وقف ومن اتبعوه في سفينته وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ينادي ولده الذي اعتزله وأبى أن يصدق برسالته :

« يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه ، فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك،انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » (١) .

فيا للأبوة الرحيمة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه ..

ويا للآيات المعجزة ، تأبى أن تجحد بشرية الآنبياء أو تبرئهم من نوازع الغريزة الأبوية التي لولاها لما قامت حياة ..

ويا للاله الكريم ، يصغي الى دعاء الأب للابن الضال ، فلا يجد ـ سبحانه ـ في هذا المظهر الانساني ما يستحق به نوح ان ينحى عن

(١) سورة هود ، الآيات ٤٢ : ٤٨ .

مكانه رسولا يدعو الى الحق ، بل يكتفي بأن يعظه ، ثم يأذن له في أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على ابراهيم اذ يدعو ربه : « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم » (١) .

* * *

هل لنا أن نقول بعد هذا كله ، ان علاقة الآباء بالأبناء في المجتمع العربي بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا العصري الحديث ، الذي يميل بالتدريج نحو الانفصام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة في الأبوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم في تحديد النسل كما يعترف للأبناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم احيانا بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغد ، وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق؟

وقلما يفتش مجتمعنا العصري عن آباء الرجل وأجداده ، بل انه ليميل الى تحطيم الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ، على حين كان المجتمع العربي القديم يعتز بكرم الأبوة وعراقة الأصل وشرف المنبت ، ويرى في هذا ومثله مدعاة للفخر الذي ما بعده فخر .



(١) سورة ابراهيم ، الآيات ٣٥ : ٣٧ .

في الرسالة المحمدية ، وفي شخص الرسول

أشرق نور الاسلام ، حين اختار الله من بين العــرب من يبعثه بآخر رسالات السماء ، فبدا من اللحظة الأولى ، أنها رسالة تدعو الى نبذ دين الآباء ، وتعلن الحرب على الأصنام والأوثان التي ظلوا لها عاكفين ..

وما كانت قريش لتأبى أن تصغي الى فتاها الأمين الذي ما عهدت عليه كذبا قط ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون .. » (١) .

على أن هذا لا يجوز أن يصرفنا عما حف بالأبوة في الرسالة المحمدية من جلال ، أو ينسيننـــا أن الاسلام جعل بر الوالدين تاليــــا للتوحيد : « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا أما يبلغنَّ عندك الكِبَرَ أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » (٢) ، ولم يأذن للابن بعقوق الأبوين حتى مع الشرك ، بل أقصى ما يباح له في هذا الموقف ، هو ألا يطيعهما في ذلك ، دون أن يهدر حقهما عليه في أن يصاحبهما في الدنيا معروفا : « وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا » (٣) .

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح في مواضيع شتى بأن البنـين

(١) آية ١٧٠ سورة البقرة .
(٢) الاسراء : آيتا ٢٣ ، ٤٢ وانظر معهما آية : ٣٦ النساء ، ١٥١ الانعام .
(٣) من آية ١٥ سورة لقمان .

زينة الحياة الدنيا ، وعدهم من النعم الكبرى التي منّ الله بها على عباده :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »

ـ نوح ١٢

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

ـ الكهف ٤٦

« ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ! .. انه كان لآياتنا عنيدا » (١) .

ـ المدثر ١٣

ويقال هنا أن القرآن الكريم حذرنا من الافتتان بالأبناء ، لما يعلم من اسرافنا في حبهم والتعلق بهم :

« زيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » (٢) .

ـ آل عمران ١٤

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » .

ـ الانفال ٢٨

لكن هذا التحذير ليس ـ في الواقع ـ الا اعترافا صريحا بما للبنين علينا من سلطان تعز مقاومته ، وما لهم في قلوبنا من حب يعمي ويصم .

* * *

والعلاقة بين الأبناء والآباء تأخذ في الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لا يهدرها اختلاف الدين ولا يفصمها تباين العقيدة . وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أنه في تحذير الناس من هول اليوم الآخر ، وصفه بأنه اليوم الذي :

« يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه » .

ـ المعارج ١١

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى

---

(١) وانظر آيات : ٧٢ ـ المؤمنون ٥٥ ـ الشعراء ١٢٣ .

(٢) انظر معها آيات : الحديد ٢٠ ـ سبأ ٣٥ المنافقون ٩ ـ التغابن ١٥ .

الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »
ـ الحج ١

وقد تلقى محمد رسالة ربه، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم ، ومضى ينظم حياة الجماعة الاسلامية بوحي من ربه ، ويضع لها التشريع الصالح على هدى الكتاب السماوي الكريم، فرأى العرب من فعاله صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا من أحاديثه، ما لمس أعمق مشاعر الأبوة فيهم ، واستثار أنبل ما في نفوسهم التي جبلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء ..

وروى « عبد الله بن عمرو » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

وقدَّم الرسول بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله : « جاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركت ابـــويَّ يبكيان . فقال : ارجع اليهما فاضحكهما كما أبكيتهما » ..

قد يقال هنا ان قلبه الرحيم رق لبكائهما ، لكننا نسمع أن صحابيا جاءه يسأل الاذن في الجهاد ، فسأله الرسول : ألك أبوان ؟.. قال : نعم .. قال : ففيهما فجاهد .

وحدث الصحابي « معاوية بن جاهمة السلمي » قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، اني كنت اردت الجهاد معك ابتغي وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحــك ، أحيَّـــة أمك ؟.. قلت : نعم .. قال : ارجع فبِـرَّها .

« ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله اني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة ، قال ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله .. قال : فارجع اليها فبرها ..

« ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : ويحك !.. الزم رِجلها، فثَمَّ الجنة ! » (١)

(١) وفي (الاستيعاب) انه صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : فالزمها ، فان الجنة تحت قدميها ـ ١٤١٣/٣ ط نهضة مصر .

نسمع هذا ومثله ، فنرى الاصرار النبيل على وضـــع البر بالوالدين قبل الجهاد في سبيل الله ، ورفع الابوة الى منزلة لا تساميها منزلة ...

عن أبي أمامة أن رجلا قـــال : يــا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟.. قال : « هما جنتك ونارك » .

وانه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبي بـــكر رضي الله عنهما : « قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيته قائلة : ان أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصِل أمي ؟.. قال : نعم .. صِلي أمَّك »

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : « عن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟.. قال : نعم .. الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانـــفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما » .

وانما استحقت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل في سبيل الأبناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان خالص ، ولانها في جوهرها بذل وتضحية وايثار ، ورسول الله في انسانيته الرفيعة أكرم من يقدِّر هذا وينفعل به . حدثوا أن سبيا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، اذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبي صلى الله عليــه وسلم لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟.. قالوا : لا ، وهي تقدر ألا تطرحه . فقال : الله ارحم بعباده من هذه بولدها » (١) .

وعن عبد الله بن عمر قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته، فمرَّ بقوم، وامرأة فيهم تحصب تنُّورها ومعها ابن لها ، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت به، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت:

---

(١) صحيح البخاري : ك ٧٨ باب ١٨ وسنن ابن ماجة : ك ٣٧ باب ٣٥ .

أنت رسول الله ؟ .. قال : نعم.. قالت : بأبي أنت وأمي، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ .. قال : بلى .. قالت : أو ليس الله أرحم بعبـاده من الأم بولدها ؟ .. قال : بلى .. قالت : فان الأم لا تلقي ولدها في النار . فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ثم رفع رأسه لها وقال : ان الله لا يعذب من عباده الا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا اله الا الله » .

وعن أبي هريرة قال : « أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم بصبي لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة .. قال : دفنتِ ثلاثة ؟ .. لقد احتظرت بحظار شديد من النار » .

ولا أجد ما أتوج به هـذا الفصل ، أفضـل من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يقاد والد بولده » فلقد سما بالأبوة الى حيث لا يجوز أن تتهم بقتل الولد عامدة أو مختارة ، فالأصل في الأب أن يفتدي ولده بالمهجة والروح ، ومحال أن يقتله الا في لحظة يغيب فيها عن وعيه ويفقد رشده ، أو تحت وطأة ظروف فادحة ، تشل ارادته وتخرجه عن أبوته بل عن انسانيته ، وفي الحالين لا يكون مسئولا عن الجريمة البشعة ! ..

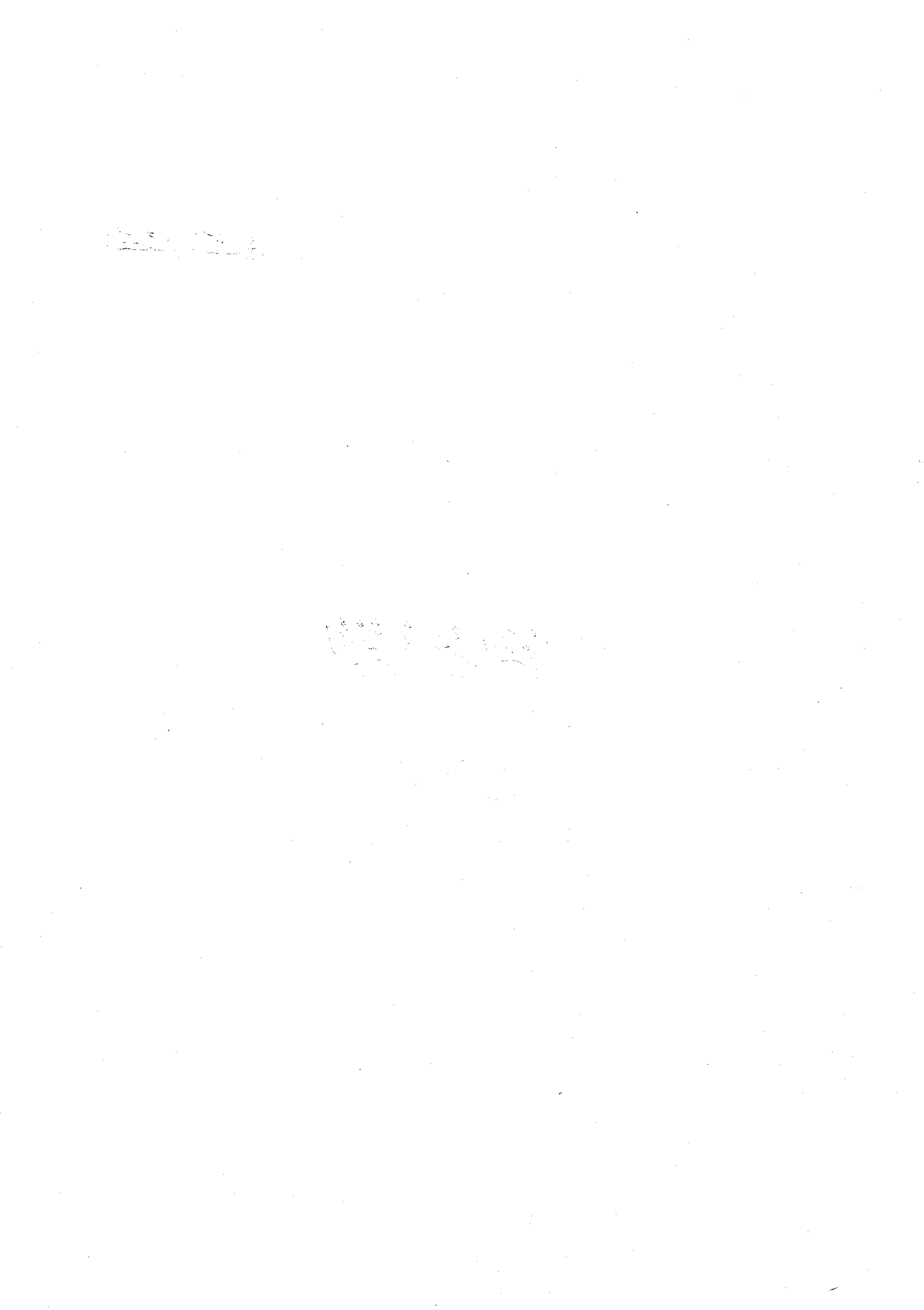
❁



الفصل الثاني

الأنثى في المجتمع العربي

- كراهية الاناث
- الموءودة
- أمر من السماء
- ونبي انسان ..



كراهة الاناث

قلنا ان طبيعة نظام القبيلة ، قد حببت العرب الأقدمين في الانجاب وأغرتهم بالحرص على كثرة الولد . واذا قيل هذا عن البنين ، فالأمر ليس كذلك بالنسبة الى الاناث ، بل هو جد مختلف : فما هن بحيث يمنعن الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يجد الجد وتتأزم الأمور . وهن بعد ذلك هدف العدو اذا أغار ، يقصدهن أول ما يقصد فيكون السبي الذي يورث القبيلة الذل والقهر ، ويجللها بالعار ...

ومن أجل ذلك ، كرهوا أن تولد لهم أنثى ، وهي كراهة تتمثل في صور شتى ، أهونها الغيظ المكبوت أو المعلن ، وأقساها الوأد . وقد سجل القرآن الكريم ذلك المشهد البغيض الذي كان ينتظر الأنثى ساعة ولادتها ، بأسلوب يجل عن الوصف ويفوت البيان روعة وعنف واثارة :

« واذا بُشِّر احدهم بالانثى ظلّ وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هُون أم يدسُّه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (١)

ووعى ديوان الشعر العربي ، ذلك النشيد الحزين لأمٍّ هجرها زوجها ، وأقام عند جيران له حين ولدت له أنثى :

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا !
وانما نأخذ ما أعطينا

(١) سورة النحل ، الآيات ٥٧ : ٥٩ .

ونحـــن كالأرض لزارعينـــا

ننبت ما قد زرعوه فينـــا (١)

ومن مأثور قولهم لمن رزىء بأنثى :

« آمنكم الله عارها ، وكفاكم مئونتها ، وصاهرتم القبر » ..

وما أكثر من رجوا لبناتهم هــذا الصهر الرهيب ، ورأوا فيه خــير الأصهار ، قال شاعرهم :

لـــكل أب بنت يرجى بقـــاؤها
ثلاثة أصـــهار اذا ذكر الصهر :
فبيت يغطيهـــا ، وبعل يصونهـــا ،
وقبر يواريها ، وخيرهم القبر !

وانشد آخـــر :

انـــي وان ســـيق اليَّ المهـــرُ :
ألفٌ ، وعبـــدان ، وذو : عشـــر
أحب أصهاري اليَّ القبر !

وشاعت فيهم القولة المأثورة : « دفن البنات من المكرمات » ..

❋

(١) هو ابو حمزه الضبي ، وقصة هجره زوجته ، والشعر الذي قالته ، في كتاب (البيان والتبيين للجاحظ) ـ ١٦٣/١ ط التجارية ١٩٣٢ .

المـوءودة

وما كنا لنطيل الوقوف عند هـذه الكراهة التي نراها أثرا محتوما للبيئة ، لولا أنها تمثلت في مأساة الوأد البشعة ، التي ما تزال حتى اليوم تؤرق الضمير الانساني ..

ولقد قيل في تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئـدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة .

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفا من الفضيحة والعار ..

ويقال ان أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ، وذلك أنه روع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، واذ انحدر الى الطريق اثر المذبحة ، لقي ابنته فوثب عليهـا وقتلها متأثرا بما جرب على النساء من خيانة وسوء ..

ويذكرون كذلك في هذا المقام قصة رواها غير واحد من المؤرخـين وأئمة المُفَسرين كالنيسابوري، والزمخشري، والقرطبي، وخلاصتها : أن « النعمان بن المنذر » غار على تميم حين منعته الاتاوة، فحاربهم وسبى نساءهم . ولما ذهب قيس بن عاصم، شيخ تميم، ليسترد سباياه، تخلفت بنت له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد « قيس » وقد جن غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولد له بنت الا وأدها ، واقتدى به رجال من تميم وغيرهم .

ووأدوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن لمـا يعرفون من عجز الأنثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت ، على التعرض لعوادي الزمن وأفاعيل الحدثان ، واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال

همّ الأنثى ، والقلق عليها ، ومعاناة الكرب الذي صوره الشاعر في قوله :

وزادني رغبـــة في العيش معرفتي
ذلّ اليتيمــة يجفوهــا ذوو الرحم

أخشى فظاظـة عمٍّ أو جفـــاء أخ
وكنت أبكـــي عليها من أذى الكلــم

تهوى حياتي وأهوى موتهـا شفقا
والمــوت أكــرم نزّال عــلى الحرم

اذا تذكــرت بنتي حــين تندبنـــي
فاضتْ لعبــرة بنتي عبــرتي بدم

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فـــالآن نمت ، فـــلا همٌّ يـــؤرقني
بعــد الهدوء ولا وجـــد ولا حلم

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قُدمت فيها الأناث قرابين الى الآلهة ، على نحو ما عرف عن مصر قبل الاسلام من تقديم عروس للنيل ضحية وقربانا . ولعــل لهذا صلة بما يشير اليه القرآن الكريم في آيات عدة ، نعى فيها على القوم أن يجعلوا لله البنات ويستأثروا بالبنين :

« ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون » — النحل ٥٧

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » — الطور ٣٩

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ؟ انــكم لتقولون قولا عظيما » . — الاسراء ٤٠

كما عجب لهم : يحبون البنين هذا الحب ، ثم يسمون أصنامهم بأسماء اناث ، زاعمين أنها بنات الله — سبحانه :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومنــاة الثالثة الاخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى ! » . — النجم ١٩ : ٢٢

« ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا » (١)

ولو كان الأمر في مثل هذا يخضع للعقل والمنطق ، لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماء اناث ، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة والأنانية العشواء لا تدع لصاحبها عقلا . وما دام الناس من ذكر وأنثى ، فليتقاسموها مع الله : لهم البنون ولله الاناث :

« فاستفتهم ، ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ، ألا انهم من افكهم ليقولون ! .. ولد الله ، وانهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ » .

ـ الصافات ١٤٩ : ١٥٣

ووأدوا خشية فقر واملاق ، والرواة يذكرون في ذلك مئات ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية » من الوأد لهذا السبب وحده ، وأخريات فداهن « عمرو بن زيد بن نفيل القرشي » ..

فأما صعصعة ، فيقال ان أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيد منه امرأة تبكي متشبثة بوليدة لها . فلما سألها صعصعة عما بها ، أشارت الى الرجل وقالت : هذا زوجي يريد أن يئد ابنتي . وانثنى صعصعة الى الرجل يسأله : ما حملك على هذا ؟

أجاب : الفقر ..

فافتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لا يسمع بموءودة عن فقر الا سعى في فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيده « الفرزدق » قائلا :

وجدّي الذي منع الوائدات
وحيا الوئيد فلم يوأدِ (٢)

---

(١) سورة النجم ، آيتا ٢٧ ، ٢٨ . وانظر معها : النساء ١١٦ ، والاسراء ٤٠ والزخرف ١٩ ـ وانظر كذلك مادة (انثى) في (مفردات الراغب الاصفهاني) .

(٢) في رواية ـ ومنا الذي منع الوائدات ـ انظر هامش ص ٢٤٠ من السيرة ج ١ .

أجـار بنـات الوائدين ومن يجـر
علـى الفقـر يعلم أنـه غـير مخفـر

وكذلك حدثوا أن « زيد بن عمرو بن نفيل » ، كان اذا سمع بفقير يهم بوأد ابنته ، مضى اليه فقال : « لا تقتلها ، أنا أكفيك مئونتها » . فاذا كبرت عاد بها الى أبيها فراجعه في أمرها ، وخيَّره بين استردادها أو بقائها حيث هي ، في كنف الذي استحياها (١) ..

قال « ابن اسحاق » في السيرة :

« حدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ـ وهو ابن عمه وصهره ـ قالا لرسول الله : أنستغفر لزيد ؟ .. قال : نعم ، فانه يبعث أمة وحده » ..

* * *

والوأد عن فقر ، هو الذي آثره القرآن الكريم بالذكر الصريح في قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » .
ـ الاسراء ٣١

وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » .
ـ الانعام ١٥١

والقرآن في هذا ، يمضي بالوأد الى سببه الأهم والأبعد ، ويتجه به الى التفسير الاقتصادي الذي يعد من أحدث النظريات في فهم التاريخ ، سواء في ذلك التاريخ السياسي ، والاجتماعي ، والفني ..

فمهما تتعدد الأسباب التي قيلت في تعليـل الوأد ، فمن اليسير ردها جميعا الى العامل الاقتصـادي ، وتفسيرها واحدا بعد الآخر ، بالبيئـة المادية :

فوأدهم ذوات العاهات ، يُفسَّر بخوفهم عليهن من البوار ، فيكنَّ عالة على الآباء ..

والوأد تأثرا بعبادة قديمة ، يعلل اقتصاديا اذا ذكرنا أنهم خصـوا الاناث به ولم يجودوا بالبنين الا في حالات نادرة لا نكاد نعرف منها في

(١) السيرة : ١/٢٤٠ .

العصور المتأخرة الا ما كان من نذر « عبد المطلب » ليذبحن أحد بنيه لله في الكعبة ، اذا كملوا عشرة وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، فهو ـ كما تقول الرواية ـ لم يرض أن يجـود بأحد أبنائه ، الا بعد أن اشترط عـددا معينا من البنين ، وأن يبلغوا بحيث يمنعونه . ومع ذلك لم تكد الشفرة تدنو من عنق الولد ، حتى قامت قائمة قريش وهبوا صائحين :

« والله لا تذبحه حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » ..

ومن ثم اتجهت القصة اتجاها آخر ، وانتهت بافتداء « عبد الله » من الذبح بمائة من الابل ، نحرت هنالك عند الكعبة ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! (١)

ولو أن الذبيح كان فتاة ، لما اهتزت قريش ، ولا عناها الأمر في كثير أو قليل ، وانما ريعت لأن ذبح ولد ـ ولو كان الذبح زلفى الى الله ووفاء بنذر مقدس ـ يهدد القبيلة بخطر الفناء ، أو كما قالت لعبد المطلب : « فما بقاء الناس على هذا ؟! »

والوأد خوف العار ، يمكن كذلك أن يُرَد الى سبب اقتصـادي : فالأغنياء يكرهون الأناث خوفا من تفتت ثرواتهم ، وهو بعينه السبب الذي جعل الواحد منهم يخلف على نساء أبيه أو أخيه ، احتفاظا بالمال ، أو تركيزا للعزة ، ودرءا لأسباب التصدع .

وما وأدهم البنات خوفا من العار ، الا حمـاية لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، من مذلة السبي و الزواج من غير كفء . ويبين هذا بوضوح ، في حديث « قيس بن عاصم » حين وفد على الرسول واعترف بأنه ما ولدت له بنت الا وأدهـا ، فسأله أحـد المهاجرين : فما الذي حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك ! .. قالوا : فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر (٢) .

هو العامل الاقتصادي اذن ، يُرَد اليه كل ما قيل عن أسباب الوأد فلا

---

(١) ابن هشام : السيرة : ١/١٦٠ : ١٦٤ .
(٢) ابن هشام : السيرة : ١/١٦٠ ، ١٦٤ .

يتخلف سبب منها ، وعلى هذا مضى القرآن المعجز ، فخص هذا العامل بالذكر ، وفسر الوأد تفسيرا اقتصاديا ، راجعا به كما قلت الى السبب الأول والأبعد ..

ويصف لنا « الزمخشري » كيف كان يتم الوأد : « يخرج الرجل وليدته وقد حفر لها بئرا في الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر . وقيل كانت الحامل اذا أوشكت على الوضع حُفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض ، فاذا ولدت بنتا رموا بها في الحفرة ، وان ولدت ذكرا أمسكوه وعادوا به » (١) .

* * *

تلك صورة بشعة غبراء لوضع الأنثى في الجاهلية ، وليس بالغريب أن تواري بشاعتها أوضاعا أخرى كريمة لبنات العرب كن فيها موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الأخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من ايثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والأرواح ، وأن يظل الصدى الحزين الذي يرجع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الثكالى ، يصدع سمع الانسانية ، بحيث تتوه فيه أصداء أخرى ، تتناهى الينا من قديم العرب البائدة ، حيث تروي الأساطير قصة فتاة جديس ـ وقد نقلها المسعودي في مروج الذهب ـ التي حررت قومها من جبروت ملك طسم واذلاله ، حين ثارت على الشرط المشئوم الذي كان يقضي بألا تزف عروس من جديس الى زوجها ، الا بعد أن تقضي ليلة في فراش الطاغية . وخرجت الثائرة ، من المخدع الملكي ، مخضبة بالدم ممزقة الثياب وهي تصرخ :

لا أحد أذل من جديس
أهكذا يفعل بالعروس !

ثم أبت أن تمضي الى زوجها ، وقادت معركة باسلة انتهت بنصر جديس ومقتل الطاغية ..

---

(١) الكشاف : ١٨٨/٤ .

وكذلك تاه في غمار مأساة الوأد ، مثل حديث « بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائي » حين خطبها « الحارث بن عوف » سيد بني عبس ، فلما أراد الدخول عليها كرهت أن يمسها ، واستنكرت أن يخلو للنساء ورحى الحرب تطحن الحيين من عبس وذبيان ، فلم يجد وسيلة الى ارضائها ، الا أن يخرج فيحتمل ــ هو وهرم بن سنان ــ ديات القتلى من الفريقين .

بل كدنا ننسى ــ في غمرة الأسى لمأساة الوأد ــ أن من الآباء من كنوا بأسماء بنــاتهم ، كأبي أمامة النابغة الذبياني ، وأبي الخنساء قيس بن مسعود الشيباني ، وأبي سلمى ربيعة بن رباح ــ والد زهير ــ وأبي عفراء حنظلة الطائي ، وأبي سفانة حاتم طيء ، وأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي .

وغاب عنا كذلك ــ أو كاد ــ أن من سادة العرب من كرموا بمدح بناتهم ، وان من هؤلاء البنات من اســتجير بها فأجارت ، كبنت عوف الشيباني ، وفكيهة بنت قتاد التي أجارت « السليك بن السلكة » فأثنى عليها في شعره الثناء المستطاب .

ويزيد في فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صداها ، أن قيل ان الوأد كان عاما في القبائل كلها ، على ما نقل «الميداني» (١) و «النويري» (٢) وان أكد رواة آخرون ، ان الوأد لم يكن في غير تميم وقيس وأســد وهذيل وبكر بن وائل ، وانها جميعا تخلصت منه قبــل الاسلام ، الا تميم ، فقد جاء الاسلام وفيها الوأد لا يزال .

ومن المحزن حقا ، أننا اذا استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولا واسع النطاق ــ وهذا لا يهون من بشاعته ــ فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن أسلافنا العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياب في أمره وقد تواترت به الأنباء وسجله عليهم كتابنا الكريم .

---

(١) مجمع الامثال : ١/٣٨٩ .
(٢) نهاية الارب : ٣/٤٢ .

كل الذي نملكه هو أن ننفي عموم الوأد ، ونأبى القول بأنه كان في نطاق واسع ، والا كان ضربا من الانتحار الجماعي ، والاستسلام المخبول للفناء والانقراض .

على أننا لا نكتفي بهذا في نفي عموم الوأد ، بل نضيف اليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع :

كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » تخلفت بقاياه كما قلنا في انتماء القبائل والأفراد الى أمهاتهم ، وفي تسمية العشيرة باسم «البطن» وفي تسمية الأصنام والملائكة والآلهة بأسماء اناث ، وهذه البقايا المتخلفة كانت تضفي على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الابادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض هو وأد الفتاة تأثرا ـ في رأي بعض علماء الاجتماع ـ بالطقوس الدينية القديمة ، على نحو ما كان يحدث لعروس النيل ..

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمي بقوتها التي لا تدانيها قوة غريزة أخرى ، بنات العرب من الوأد قدر المستطاع .

وكانت هناك أنثى في حياة كل رجل : أم ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أخت ، تلطف من النظرة البغيضة الى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة.

ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العامل الاقتصادي الذي يجعل البنت حين تكبر ، وعاء للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب في نظرتهم الجانبية الى البنت قد اعتبروها كلاً عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا الى الجانب الآخر ، وهو أنه لا سبيل الى ولد لا تحمله أنثى جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه رجلا ، الا أن الحياة كانت تسير بمقتضى أوضاعها الطبيعية ، مقدرة ضرورة وجود البنت لبقاء البشرية وعمار الكون ، غير معنية بما اذا كان القوم منتبهين الى هذا أو غير منتبهين .

ومن هنا رجحنا في اطمئنان ، أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق،

وقدرنا الجانب الآخر من حياة الأنثى في المجتمع العربي بالجاهلية ، حيث عاشت الناجيات من الوأد ، ملء عيون القوم وقلوبهم . ومن شاء فليرجع الى الفصل الذي كتبته عن « الأنوثة والأمومة » في كتابي « أم النبي » ليقرأ بعض ما نقلت من أخبار تكريم الأناث وتقديرهن واعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة في أن تجمع البيئة الواحدة في الزمن الواحد بين النقيضين ، فتئد البنت كراهة لها أو لفرط حبها اياها وخوفها عليها ، وتزهد في ولادة البنت ، في الوقت الذي تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ، وتضيق ببنت تولد ، مع أنها تسمو بها « أما » الى حيث لا مزيد من التكريم والاكبار . لا غرابة في هذا ، فالحياة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب سير الفلك . والأمر في وأد الأنثى أو اعزازها ، مردُّه الى العادة والعرف والى التقليد الاجتماعي الذي لا يعتمد على شيء من التفكير ، وانما يتم بتوجيه الرأي الجماعي دون أن يكون للفرد مستقلا مجال للتفكير فيه ، ولذلك نرى في الجماعة عرفين متناقضين في الوقت الواحد : كالذي شهدنا في البيئة العربية القديمة من تسمية الأصنام بأسماء اناث ، وهذا مظهر تقديس وتكريم ، ومن وأد البنات زهدا فيهن وضيقا بهن .

وكالذي نشهده اليوم في البيئة الرجعية المحافظة ، تعلم الفتاة وتأذن لها في الخروج والاحتراف ، ثم تأبى في الوقت نفسه على خاطبها أن يراها . وشبيه به ما نشهده في المجتمع الشرقي ، يحرم على الفتاة المسلمة باسم المحافظة على الدين دخول المعاهد الدينية ، ويأذن لها في الالتحاق بمعاهد الرقص والتمثيل ، ويحدث أحيانا أن تطالب الجامعيات من المتخرجات في كلية الحقوق ، بمناصب القضاء ، فتثور ثائرة المحافظين ، مع انهم في الوقت نفسه لا يحركون ساكنا اذ يرون من بنات المسلمين من تشتغل في الملاهي الليلية أو تشرب الخمر علنا في الحانات والمراقص ..

وانما يحدث هذا التناقض ومثله ، لأنها كما ذكرت مسائـل تقليدية وليست منطقية ، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة ، ويتأثر بعقلية القطيع فيسيغ ما يأباه عقله ، ويتحمس لتأييد ما كان زعيما بمعارضته لو نجا من احكام العادة وسلطان التقليد واستهواء الرأي العام .

* * *

ونعود الى ما كنا فيه من حديث عن مركز الأنثى في المجتمع العربي فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الاخبار المروية في اعزاز الأنثى وتكريمها ، والتماس الأدلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الوأد لم تكن عملية ابادة بالجملة ، أقول : لا نملك بعد هذا كله الا أن نعترف بأن منزلة البنات كانت دون منزلة البنين ...

وكذلك غبر العرب زمانا ومنهم من يدس وليدته في التراب ، ومنهم من يمسكها على مضض وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها مهموما بها ، حتى يدفعها الى زوج كفء ، أو يسلمها الى القبر خير الأصهار ...

*

أمرٌ مِنَ السَّماء

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التي جاوزت في بشاعتها أقسى المدى ، وأول ما نزل من آياته تعالى في الوأد ، قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الأكبر :

« واذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قُتلت » (١)

ثم حكم بالخسران والضلال على السفهاء المفترين الذين قتلوا أولادهم :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

والآية من سورة الأنعام وهي مكية .

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى في سورة الاسراء وهي مكية كذلك :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا .. ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خِطئا كبيرا »

ثم قوله تعالى في سورة الأنعام المكية :

« قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصَّاكم به لعلكم تعقلون » .

والمفسرون ، على أن قتل الأولاد في الآيتين ، يعني وأد البنات .. (٢)

* * *

على أن تحريم الوأد لم يكن ليمنع من الضيق بالبنات أو يحول دون

(١) سورة التكوير آيتا ٨ ، ٩ .
(٢) الكشاف : ٢/٣٥٩ .

الزهد فيهن ، وقد جرت البشرية على ذلك من قديم العصور والآباد : فمن أعماق الدهر الأول ، بقي صوت نوح عليه السلام ، اذ يعُد نعم الله على قومه فيؤثر البنين بالذكر قائلا :

« يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون الله وقارا » .

ولم تنج من محنة الزهد في ولادة الأنثى ، مريم العذراء ، المصطفاة على نساء العالمين :

« اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، واني سميتها مريم » (١)

هي اذن نزعة قديمة في البشر ، وعادة تأصلت على مر الزمن حتى صارت طبيعة فينا يعز التخلص منها ولو بعد زوال الأسباب الأولى التي دعت اليها ، والعوامل القديمة التي قضت بها في أول الأمر : فخروج المرأة الجديدة الى ميدان العمل ، وقدرتها على الكسب المادي ، واتاحة الفرص أمامها لتظفر بأعلى المناصب وترقى الى أقصى الدرجات ، كل هذا ومثله معه ، لم يضع المولودة الأنثى والوليد الذكر بمنزلة سواء ، ولا أعفاها ساعة ولادتها من الاستقبال البغيض الذي تسجله أغانينا الشعبية .

قد يقال هنا ان تغيير الوضع الاقتصادي لا يمنع كراهة الأنثى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، أو خشية تفتت مال الأسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن البنات مكروهات حتى في البيئات المتحللة التي لا تكترث بالسلوك ، وفي الأسر الفقيرة التي لا جاه لها ولا مال ، وفي المجتمعات الاشتراكية التي تحد من الملكية ، وتحدد الدخل ، وما ذاك الا لأن كراهتهن ميراث قد انحدر الينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت في الأصل بحكم البيئة وأثر العوامل المادية ، ثم أخذت مجراها في مشاعرنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع

---

(١) سورة آل عمران : ٣٥ ، ٣٦ .

تغير البيئة وزوال العوامل المادية .

والقرآن الكريم في خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، أدرك ما يشق على القوم من قهر الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التي صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها في نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الأجيال ، لكنه كذلك ، في تساميه بالانسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضا بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة حاثة على اتقاء الله فيهن ، حاضة على انصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطبائع والأوضاع .

❋

النبيّ الانسان

وما أحسبني في حاجة هنا الى عد الحقوق الانسانية والشرعية والمدنية التي حماها الاسلام للمرأة ، أو بيان المنزلة الكريمة التي وضعها فيها ، فقد كثر القول في هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة (١) ، وكانت الشريعة الغراء هي النبع الأول الذي استمد منه دعاة التحرير أدلتهم وأسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية في العصور المتأخرة من ظلم ، وتحطيم الأغلال التي كبّلتها باسم الدين، والدين منها براء، لكن يطيب لي مع ما أعرف ويعرف القراء من هذا كله ، أن أروي بعض ما قرأت من وصايا الرسول الكريم بالاناث ، وأعرض هنا من حديثه معهن ، ما أراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن أبوته لبنات أربع .

نقل « البخاري » في صحيحه ، أن السيدة عائشة قالت : « جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني ، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، أخذتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته بأمرها فقال : من بُلِيَ من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن ، كن له سترا من النار » .

وفي صحيح « مسلم » عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو ـ وضم أصابعه » .

وفي سنن « أبي داود عن ابن عباس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يُهنها ولم يؤثر ولده عليها ـ يعني الذكور ـ أدخله الله الجنة » .

---

(١) للاستاذ سعيد الافغاني كتاب عن « الاسلام والمرأة » ، عرض فيه هذا الجانب عرضا وافيا .

وروى البخاري كذلك حديث الصحابي الذي جاء يستأذن الرسول في أن يوصي بماله للمسلمين ، اذ كان لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن أحكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد ، فسأله الرسول : هل له بنات ؟.. فلما أجاب بنعم ، أبى عليه الرسول أن يوصي بماله ، وله بنات .

وكذلك فعل الرسول مع امرأة من الأنصار جاءته بابنتين لها فقالت : « يا رسول الله ، هاتان ابنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم أحد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالا الا أخذه ، فما ترى يا رسول الله، فوالله لا تنكحان أبدا الا ولهما مال» فقال الرسول متأثرا : « يقضي الله في أمرك » وأمهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث، فقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا لي المرأة وصاحبها . فلما جاءا ، قال لعم البنتين : أعطهما الثلثين، وأعط أمهما الثمن ، وما بقي فهو لك» (١)

* * *

وما رؤي أكرم منه قط في معاملة الأناث والترفق بهن والانتصاف لهن، ولقد يكفيني هنا أن أشير الى موقف نبيل ، لا أعرف أدل منه على مدى ما كانت الأنثى تطمح اليه من عزة وكرامة في كنف الرسول : عن عائشة رضي الله عنها ان فتاة دخلت عليها فقالت وهي بادية الانفعال والغضب : ان أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة . فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ،

وجاء النبي ، وسمع شكوى الفتاة ، فأرسل الى أبيها حتى اذا حضر جعل أمر الفتاة اليها. فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة:

« قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم : أللنساء من الأمر شيء ؟ » .

ولقد أجارت زينب بنت الرسول ، أبا العاص بن الربيع عندما أسر بالمدينة قبل أن يسلم (٢) . واستأمنت «أم حكيم بنت الحارث بن هشام» ــ عام الفتح ــ لعكرمة بن أبي جهل ، فأمنه الرسول مع أنه كان قد

---

(١) سنن ابن ماجة : ١٨/٤٨ .
(٢) ابن هشام ١ السيرة : ٥٣/٤ .

ذكر اسمه بين الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . وفي صبيحة يوم الفتح ، لاذ رجلان من بني مخزوم ببيت أم هانىء بنت أبي طالب ، فدخل أخوها « علي » في أثرهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت الى الرسول وهو بأعلى مكة ، فأخبرته خبر الرجلين من بني مخزوم ، واصرار أخيها « علي » على قتلهما ، فقال الرسول :

« قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما » (١)

* * *

ثم كانت معاملة النبي للاناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذي طمعن فيه أو رنون اليه من عزة وكرامة ومروءة ..

وما من ريب في أن البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة في شخص الرسول الكريم لتقاوم ما ألفته في معاملة الأناث ، ويكفي لنقدر تلك الحاجة ، أن نسترجع هنا حديث عمر بن الخطاب :

« والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا في أمر أئتمره اذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا ؟ .. فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ؟ .. وما تكلفك في أمر أريده ؟ .. فقالت لي : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ ..

« فأخذت ردائي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها :

ــ يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فأجابت :

ــ انا والله لنراجعه !

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/١٠٤ ط بريل ــ ابن هشام : السيرة ٤/٦٠ .

« ثم خرجت حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتي منها ، فكلمتها ، فقالت لي :

ـ عجبا لك يا ابن الخطاب ! .. قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ..

فأخذتني أخذا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد » (١) ..

وهذا الخبر وحده ، يغنيني عن مزيد من البيان لمدى الحاجة القصوى في بيئة الرسول ، لمثل أعلى يروضها على تغيير موقفها من الأناث ، فهذا عمر ، صهر النبي وصاحبه الذي أعز الله به الاسلام، قد وعى ما نزل من آيات الله في النساء ، وكان من أفقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك كره أن تشترك معه زوجته في أمر له ، وأنكر منها أن تشير عليه برأي ، فلما تمثلت بابنته حفصة استفظع واستنكر، وانطلق اليها مغضبا يسألها فيما سمع ، وانه ليطمع في أن تجيب بلا ، لكنها أكدت له أنها ، ونساء النبي ، يراجعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق أذنيه ، الى أن ردته « أم سلمة » بكلمتها التي تفيض عزة واباء :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه » ؟ (٢)

وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت الرسول ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب أن رأينا « أبا دجانة » الفارس ، يأخذ سيف الرسول في معركة أحد ، وينطلق به مختالا وقد عصب رأسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى أحدا من المشركين الا صرعه ، حتى يبلغ « هند بنت عتبة » تزأر في قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ١٨٣ ط حلب .
(١) وانظر مناقشة ام المؤمنين حفصة ، للرسول عليه الصلاة والسلام في (طبقات ابن سعد : ٧٣/٢)

عنها وهو يقول : « أكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة » (١)

* * *

هذا هو « محمد بن عبد الله » في انسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التي تفيض بأرق المشاعر وأنبل العواطف ، وأحسب أن قد آن الأوان لنتحدث عنه صلى الله عليه وسلم أبا لبنات أربع ، رزقهن جميعا قبل أن يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدنـه في نضاله الاقدس ومعركته الظافرة الخالدة ..

❁

(١) هو الصحابي الفارس ، سماك بن خرشه .
وانظر قصته مع هند في السيرة : ٣/٧٣ .

الفصل الثالث

الأخوات الأربع

- البيت والأبوان
- ابو البنات
- الشقيقتان
- الشقيقات الأربع
- في بيتهن الأول



البَيتُ والأبوَان

في جوار الحرم الأقدس ، حيث دور قريش حافَّـة بالمسجد الحرام مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسنى ، قامت الدار التاريخية التي كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمي ، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ، بعد أن تلقى رسالة السماء ..

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فينزل اليها بعدد من الدرجات ، توصل الى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قدم ، وطولها عشرة أمتار ، أما عرضها فأربعة ..

وعلى اليمين باب صغير ، يُصعد اليه بدرجتين ، يؤدي الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب : يفتح أولها – من الجانب الأيسر – على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبي المختار محرابا ومعبدا ، ويؤدي الباب الأمامي الى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، أما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح في غرفة مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة ، وقد جعلت لبنات محمد . وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا في سبعة أمتار ، ويرتفع عن الأرض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة «خديجة» تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة مضيفة لاستقبال الضيوف (١) .

هذه هي الدار التي استقبلت محمدا – أول ما استقبلته – يوم اختارته

---

(١) نقلنا هذا الوصف ملخصا من « الرحلة الحجازية » – وفي تاريخ الطبري « ١٩٧/٢ » تحديد لمنزل خديجة الذي تزوجت فيه من سيد البشر .

السيدة خديجة ليخرج في مالها الى الشام متاجرا ، ثم أستقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش وأخذها منه بهاء طلعته وجلال شخصيته ، حتى اذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل ـ ١٥ قبل المبعث ـ دقت الطبول في الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش شرفا وأمانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العزّى بن قصيّ، سيدة نساء قريش وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا (١) .

وقضت مكة أياما وليالي ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود . ولم تكن بهجة الحفل وحدها هي التي استأثرت بحديث القوم ، وانما أذهلتهم المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد أحدهم أن ترغب « السيدة خديجة » في الزواج من جديد بعد الذي عُرف من زهدها في الرجال وانصرافها عنهم وردّها سادة قريش واحدا بعد الآخر ردا موئسا ، ولا خطر ببالهم أن يكون « محمد » ـ ابن الخامسة والعشرين ـ هو الزوج المختار للأرملة الثرية ، ذات الأعوام الأربعين ..

واذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذ على العقيلة الغنية ، أن تؤثر عليهم شابا غير ذي مال ، فلعل بنات هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا النديّ والحسن النضير ..

على أن أحدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم ـ صادقا ـ أن خديجة في عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ، أو أن محمدا في عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ، غير كفء لخديجة ، وانما أقصى ما قيل عنهما ، انها كهلة ثرية في الاربعين ، وانه شاب فقير في الخامسة والعشرين (٢) .

وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدي حديث عن فارق السن والثروة بينهما، كفّت أندية قريش ومسامر مكة عنذلك الحديث العقيم، وبدأت

(١) ابن هشام : السيرة ٢٠١/١ .

(٢) لم نطل الحديث هنا عن الزوجين ، وانما اقتصرنا على القدر الذي نحتاج اليه في الحديث عن الابوين . ولمن شاء ان يرجع الى الفصل الخاص بالسيدة خديجة رضي الله عنها في كتاب « نساء النبي »

تستعيد ذكريات ماضية أثارتها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين ..

وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة عمٍّ لخديجة ثرية ناضجة ، اختــارت هي الأخرى فتى هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وان كان لم يستجب لها ..

تلك هي « رقية بنت نوفل » الاسدية ، أخت ورقة : لمحت عبد الله ابن عبد المطلب اثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتُدِي من الذبح وفاء لنذر أبيه ، فلمحت عليه مخايل مجد مرجو ، وعرضت عليه نفسها ، وله مثل الابل المئة التي نحرت عنه ، فاعتذر في تلطف ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، فتاة آل زهرة (١) ..

وهذه هي خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها وثرائها وعزتها ، الى ابن عبد الله ، تعرض عليه أن يتزوجها ..

وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسهما ، بعد أن شهد بالأمس البعيد انصراف عبد الله أبي محمد ، عن أخته رقية بنت نوفل ..

وحين كانت مسامر مكة في شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين، كان « ورقة » يستعيد ما ذكرته له « خديجــة » من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد في مالها الى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام أخته « رقية » عن النور الذي رأته في وجه عبد الله ، فيكاد « ورقة » يلمح في صهره الشاب ، ملامح النبي المنتظر الذي شاع أن زمانه قد أظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججت وكنت في الذكرى لجوجــا
لهمٍّ طـــالمـــا بعث النشيجـا
ووصف من « خديجة » بعد وصف
فقد طال انتظاري يا خديجا ! (٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٦٤ ـ تاريخ الطبري ٢/١٧٤ وقد عرضت هذا الموضوع مفصلا في كتاب « أم النبي » .

(٢) ابن هشام : السيرة ١/٢٠٢ .

وبدأت حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضي على زواجهما عامان أو ثلاثة ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، اذ يوشك للمرة الأولى أن يغدو أبا ! وأثارت الأبوة المرتقبة أعمق مشاعره ، وأرق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التي لا يكمل وجود الرجل بغيرها ، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة في كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التي عرفها منذ عرف « خديجة » .

وذكر أمه التي رحلت عن الدنيا وهو صبي في السادسة ، وذكر اباه الذي ثوي في « يثرب » وولده ما يزال جنينا في رحم أمه « آمنة بنت وهب » ، فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملآ أعينهما من مولوده المنتظر .

ولم ينس جدّه الشيخ « عبد المطلب » الذي كان له من بعد ابيه أبا ، فرق قلبه وهو يستعرض ذكراه ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يرقب زوجته الحبيبة وهي تروح وتغدو في الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالي ، ووجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحنان ..

لم تكن هذه تجربتها الأولى في الأمومة ، فقد ولدت البنين والبنات من زوجيها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومي، وأبي هالة التميمي (١)، فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فيمن ولدت ما يرضي أمومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟ ..

معاذ الحب أن تقنع أمومة خديجة بأبنائها الأولين ، فلا يشوقها أن

---

(١) الاصابة : ٨/٦١ ـ الاستيعاب ٤/١٨١٧ وانظر « جمهرة انساب العرب » ١٣٣ ، ١٩٩ ط الذخائر وكذلك « نسب قريش » ٢٢ ذخائر ، و « تاريخ الطبري ٣/١٧٥ » .

يكون لها ولد من زوجها الحبيب محمد بن عبد الله ..

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة ، أن تزهد خديجة في الأبناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها ، ويثبت أنها ما تزال فتية منجبة !

وكيف يُظن بها الزهد في الولد ، وهي ترى زوجها العزيز في ذروة فتوته ونضرة شبابه ، وقد بدأت هي العقد الخامس من عمرها ، في بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة ، وتكتهل نساؤها دون الأربعين ؟ ..

كلا ! .. فما كانت امرأة في قريش أشد لهفة على الحمل ، من هذه السيدة التي جربت الأمومة من قبل وكان لها بنون وبنات . وما كانت هي نفسها ، في زواجها الأول أو الثاني ، بأشوق منها الى الولد في زواجها هذا الثالث والأخير ، اذ كانت في المرتين الأوليين ، أبعد من أن تُتهم بالجفاف أو يُظن بها اليأس أما في هذه المرة فالأمل في الانجاب أبعد ، والاتهام باليأس قريب ..

وما أرتاب في أن المخاوف ساورتها في مطلع حياتها الزوجية الجديدة ، وأشفقت أيما اشفاق من أن تمسك رحمها فلا تجود بعقب لهذا الحبيب الذي لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد ..

ولم يرُعها أن تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الأيام ليملأن أشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتها الناضبة ، ولا أهمها أن تتصور سيدات بني هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الأسرة في حرمانه من الذرية ، بقدر ما أهمها وراعها أن تكون هي السبب في هذا الحرمان ، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا عنها في بعض شئون العمل أو التجارة ، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها ، ولا تجد ما يسري عنها الا أن تلوذ بالسماء ضارعة الى الله أن يتم عليها نعمته ، ويهبها ولدا من أحب الأزواج . وما تزال كذلك حتى يؤوب اليها زوجها العزيز ، فتشعر بالحيوية تسري اليها منه ، وتحس نفحة عطرة تنسيها هواجسها التي شغلت بالها ، وترد اليها ثقتها في

نفسها ، واطمئنانها الى حيويتها المذخورة الخصبة ..

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة هائمة تزف اليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد في دور بني هاشم وينشرونه في أحياء قريش ، وأغدقت عطاءها على ذوي الحاجة ، وكأنما أرادت أن تشاركها « مكة » كلها في فرحتها فلا يبقى فيها جائع ولا محروم ..

❋

أبو البنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال أشهره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له المرضع قبل أن يولد . (١)

حتى اذا آن أوان الوضع ، واجهت التجربة ـ التي تعرف شدتها وقسوة آلامها ـ في شجاعة فذة واحتمال نادر ، على حين وقف الزوج في محرابه ، ينتظر اللحظة الحاسمة بلهفة مشوبة بشيء من القلق ، لم يلبث أن تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ، معلنة قدوم الوليد السعيد ..

وتبعتها صيحات ابتهاج عالية ، سرت مع الهواء الى الحرم ، وبلغت أسماع الحي القرشي ، فعرف القوم أن خديجة بنت خويلد وضعت مولودها الأول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

ومضت فترة من الوقت والأب الكريم يرنو الى مخدع زوجته مستثار الشوق الى رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع عن القابلة « سلمى : مولاة صفية بنت عبد المطلب » (٢) تحمل الى الأب طفلته الأولى ، فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من زوجته الراقدة في فراش الوضع ، مسترخية الاعضاء من فرط الاجهاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذاك ..

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا .

---

(١) الاصابة : ٨/٦١ .

(٢) ذكر ابن عبد البر في « الاستيعاب » ٤/١٨٦٢ : ان سلمى كانت قابلة ابراهيم وبني فاطمة رضي الله عنهما .

وسماها أبوها « زينب » (١) .

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها ! ..

***

ترى هل مر ببالهما في تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو أن الله رزقهما بأنثى ، وليس الذكر كالأنثى ؟ ..

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟

ربما ، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ، في فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذي يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، فقد عظمت حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الأولى ، وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل أن تدفع بها الى المرضع المختارة ، على المألوف من عادة أشراف مكة ..

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعها ، حتى عادت أشبه بزهرة غضة باسمة ، أضفت على البيت مزيدا من السنا ، والبهجة ..

***

ولم يطل بها المقام في البيت ، حتى استقبل أختها « رقية » (٢) فاتصل بها الأمل في نماء الأسرة ، واعتدها الأبوان الكريمان بشرى خير وبركة ..

ثم جاءت من بعدهما « أم كلثوم » وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة ، في بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما أدركا ان الأمر في هذا لله وحده ، وكرها أن يجحدا نعمته عليهما فيبوءا بالخسران ، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة ، شاكرين لله ما أعطى ، طامعين مع هذا في مزيد من كرمه ..

---

(١) جاء في الاستيعاب ١٨٥٣/٤ ، عن ابي عمر : « وكانت زينب اكبر بناته صلى الله عليه وسلم ، لاخلاف أعلمه في ذلك الا ما لا يصح ولا يسلم » .

(٢) لم يتفق الاخباريون وكتاب السيرة والنسابون ، على ترتيب ولادة ابناء محمد «ص» وما هنا ليس الا ما اطمأننت اليه بعد مقابلة المرويات في مختلف المصادر الأصيلة ، على ما سوف نبين في الفصل التالي . ونكتفي هنا بالاشارة الى ما جاء في الاستيعاب « ١٨٣٩/٤» : « زعم الزبير وعمه مصعب أن رقية كانت أصغر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأباه صحح الجرجاني النسابة . وقال غيرهم : أكبر بناته زينب ثم رقية » أ هـ

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة ..

وصادف مولدها ، حادثا جليلا في تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الديني أجمع ..

فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، أن أجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد أن طال ترددها في ذلك ، تهيبا واشفاقا ..
وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة احدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذي بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ، لا تدري ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذي جعل من « مكة » محج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ، وأنزل قريشا ، بحكم جوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها ..

وشاع اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل قبطي مصري نجار بناء (١) .

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءها الأول ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومي فأخذ المعول وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم انا لا نريد الا الخير ! » ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، أبوا مع ذلك الا أن يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون . وأصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسسه شر ، فهدم وهدم الناس معه ..

وتنافست القبائل في جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك « محمد »

(١) السيرة ٢٠٥/١

في ذلك العمل المجيد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى اذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش في الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه الى موضعه . واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب ، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « أبو أمية بن المغيرة المخزومي » — وهو يومئذ أسنُّ قريش كلها — فقال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه » ..

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالباب تنتظر الحكم المجهول ، وانهم لكذلك ، اذ أقبل رجل شاب ، تام الفتوة ، متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهي الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما أن رأوه :

« هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي ، رضينا بحكمه » ..
وأقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف ، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة في الثوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا » ..
ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه ..
وكانت سنه يومئذ، خمسا وثلاثين سنة، على ما روى ابن اسحاق (١)..

* * *

وآب « محمد » الى بيته ، حيث ترك زوجته في الغداة على وشك الوضع ، وسعى الى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة » ..

واقترنت هذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب ودمار ..

---

(١) السيرة : ٢٠٤/١ — ومثله في تاريخ الطبري ٢٠١/٣

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشي : (١)

تشاجرت الأحيـاء في فصـل خطة
جرت بينهم بالنحس من بعد أسـعد

تلاقوا بهـا ، فالبغض بعـد مـودة
وأوقـد نـارا بينهـم شر موقـد

فلما رأينـا الأمـر قد جـد جده
ولم يبـق شيء غير سلّ المهـند

رضينـا وقلنا : العـدل أول طالـع
يجيء من البطحـاء من غير موعـد

ففـاجـأنا هـذا الأمـين محمـد
فقلنـا : رضينـا بالأمين محمـد

وأقبل « محمد » على زوجته مهنئا بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها في ذلك اليوم الأغر ، وكأنما رأى في ذلك الاتفاق، آية من الله ، تحبب اليه رزقه ، وتصرف سمعه عما كان يقـال حينذاك عن أبوته لاناث أربع ! ..

وتطلع الى السماء شـاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيـه من عند الله ، مستثار الرحمة والحنان على تلك المخلوقات اللطيفة البريئـة ، يتلقاها القوم كارهين ، وما جاءت الى الدنيـا مختارة ، ولا هي بمسئولـة عن تخلف البنين ! ..

ثم رنا الى زوجته في عطف وتأثر ، يريد أن يبث في نفسها الطمأنينـة والرضا ، وأن يهون عليها أمرا لا يد لها ولا لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على ارادته ..

ولكن « خديجة » لم تكن في حاجة الى مواساة ، فانها ما كادت تملأ

(١) هو أبو عبيرة بن أبي وهب المخزومي ، راجع السيرة : ٢٠٩/١

عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها ، وقد رأت فيها صورة من أبيها ! (١) ..

فأدركت أن الله سبحانه حبا هذه الوليدة بعناية منه ، حين برأها على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبهها الغريب به ، كافيا وحده لأن يحميها من جفوة الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والأعزاز ، في قلب هذه الأم التي اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجة محمد ، وأرضاها كل الرضا ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على يأس ..



(١) أنظر سنن ابي داود ، كتاب ٤٠ الباب ١٤٣
ومسند احمد بن حنبل : ٣/١٦٤ ، ١٩٧

الشقيقان

وبقي للأبوين ـ كي تتم سعادتهما ـ مطلب واحد : أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن من عليهما باناث أربع ..

وبدا الأمل بعيدا ، اذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت بعد مولد فاطمة سن الخمسين ، لكنها مع ذاك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولا أخلفتها عادتها الشهرية المؤذنة بصلاحيتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء في فضل الله ..

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما «القاسم» ثم تلاه «عبد الله» فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظن أن لا رجاء ..

لكن الله لم يشأ لهما أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر ..

أما متى ولدا ، وكيف وأنّى ماتا ، فالمؤرخون وكتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد في ذلك الأمر مع ما له من أهمية قصوى في حياة الأسرة المحمدية والتاريخ الاسلامي ، وعلى قرب عهد ابني محمد ، بمبعث الأب الكريم ..

وأعجب من هذا ، انهم اختلفوا في عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ؟

فالذي في (السيرة) (١) قول ابن اسحاق : « أكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر .. فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الاسلام فأسلمن وهاجرن معه .. »

وفي (تاريخ الطبري) ما نصه : « فولدت ـ خديجة ـ لرسول الله

---

(١) السيرة ١/٢٠٢

ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله ، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة » (١) .

وجاء في (الاستيعاب) : (٢) .

« وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الاسلام وهاجرت ، فهن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم ..

« وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنَّى صلى الله عليه وسلم . هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر ..

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له الا القاسم ، وولدت له بناته الأربع . وقال عقيل عن ابن شهاب :

« ولدت له خديجة : فاطمة ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، والقاسم ، والطاهر ، وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنى .. وعبد الله مات صغيرا » .

وفي «الروض الأنف» (٣) رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمي بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة، واسمه الذي سمي به أولا عبدالله»

« وبلغ القاسم سن المشي غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات »

وفيه كذلك ، في الموضع نفسه ، ان خديجة رضي الله عنها : « دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد المبعث ، وهي تبكي ، فقالت : يا رسول الله ، درت لبينة القاسم ـ تصغير لبنة ، تعني بها بقايا اللبن في ثديها ـ فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه لهوَّن عليَّ . فقال الأب الرسول : ان له مرضعا في الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهوَّن عليَّ . فقال النبي : ان شئت أسمعتك صوته في الجنة . فأجابت : بل أصدق الله ورسوله » ..

---

(١) حـ ١٧٥/٣

(٢) حـ ٤ ص ١٨١٨

(٣) السهيلي : ١٢٣/١

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا في الاسلام كأخيه عبد الله ، الذي لقب بالطاهر والطيب لمولده في الاسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخي السيدة خديجة ..

وفي (الاصابة) في ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين : (١) .

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمي بذلك لأنها ولدته في الاسلام » ..

واذا رجعنا الى كتب الأنساب ، وجدنا في (نسب قريش) (٢) :

« فولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية » .

وفي (جمهرة أنساب العرب) (٣) : « ولم يعقب عليه السلام ذكرا الا ابراهيم بن رسول الله ، مات صغيرا لم يستكمل عامين في حياة النبي عليه السلام .. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الولد سوى ابراهيم : القاسم ، وآخر اختلف في اسمه فقيل : الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله .. ماتوا صغارا جدا . وكان له عليه السلام من البنات : زينب أكبرهن ، وتاليتها رقية ، وتاليتها فاطمة ، وتاليتها أم كلثوم . أم جميع ولده ـ حاشا ابراهيم ـ خديجة أم المؤمنين » ..

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبناء محمد، فقد يقال ان اللقب التبس بالاسم ، وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر ـ على الأرجح ـ سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبي من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور المسلمين ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك المرويات ..

* * *

أما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فالتوفيق فيهما أشق

---

(١) الاصابة : ٨/٦١

(٢) للمصعب الزبيري : ٢١ ط الذخائر

(٣) لابن حزم : ١٤ ط الذخائر

وأعسر ، فقد انفرد « ابن اسحاق » بالرواية ـ دون اسناد ـ عن موتهما في الجاهلية ، على حين روى غيره أن القاسم ولد في الجاهلية ومات في الاسلام ، وأما عبد الله فولد ومات في الاسلام . وذكروا في سندهم « الزبير بن العوام » وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحد العشرة السابقين الى الاسلام ..

* * *

وأيا ما كان الأمر ، فالذي لا ريب فيه أن البيت المحمدي لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين قبيل المبعث أو في مستهله ، ولعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا ، لوجدناه في « سورة الكوثر » حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم :

« انا أعطيناك الكوثر . فصلِّ لربك وانحر . ان شانئك هو الأبتر » .

وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، فهي الخامسة عشرة في ترتيب تاريخ النزول ، بين السور المكية التي بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة . وجمهرة المفسرين على أن الكوثر نزلت في « العاص بن وائل السهمي » ، أحد أشراف مكة الذين ساروا الى أبي طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن دعوته (١) ..

وكان العاص ـ فيما نقل ابن اسحاق كذلك ـ « اذا ذُكر الرسول قال لقومه : دعوه ، فانما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم من ذكره » فأنزل الله في ذلك سورة الكوثر (٢) ..

ويقول « الزمخشري » في تفسير سورة الكوثر : « ان من أبغضك هو الأبتر لا أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين الى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك ، فمثلك

---

(١) راجع أقوال المفسرين في سبب نزول هذه السورة
(٢) السيرة : ٢/٣٤

لا يقال له أبتر ، وانما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة ، وان ذكر ذكر باللعن » (١) ..

وما نرتاب في أن ذلك الشانيء ، لم يدُر بخلده يوم عيَّر محمدا ، أن ذكر ابن عبد الله سوف يبقى خالدا عاطرا ما عبد الله في الارض ..

لقد كان أقصى ما يتصور هو والمشركون من قريش ، أن يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمي دونهم بالزعامة في مكة ، وربما امتد سلطانه الى القبائل القريبة المجاورة فيبقى له الأمر ما عاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، أما أن يمتد سلطانه من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه وقد عاشوا حتى ذلك الحين محصورين في جزيرتهم لا يكادون يخرجون عنها الا رحلا أو متاجرين ..

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهوِّن عليهم انتقال السلطان اليه ، فان المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على أشدها ..

حدثوا أن الأخنس بن شريق الثقفي أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فأجاب : « ماذا سمعت ؟! .. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ــ يعني الديات ــ وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الرُّكب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ! .. فمتى ندرك مثل هذه ؟! .. والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » (٢) ..

على أن النزاع بين بني عبد مناف أنفسهم لم يكن الا شبيها بهذا أو أمرَّ منه ، فقد كان هناك البيت العبشمي والبيت الهاشمي ، يتنازعان ما استرده أبواهما « عبد شمس وهاشم : ابنا عبد مناف » من ميراث جدهم « قصي » الذي كان قد وصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده

---

(١) الكشاف : ٤/٢٣٧

(٢) السيرة : ١/٣٣٨

« عبد الدار » كي يلحقــه بأخيه « عبد مناف » الذي شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد ظهر محمد بدعوته السماوية ، وفي بني هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة، وفي بني عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا ما مر بنا من خبر قيام قريش في وجه « عبد المطلب ابن هاشم » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف، فهل تراهم تاركين حفيد عبد المطلب يظهر بدعوته نبيا ورسولا من السماء ؟ ..

الى ذلك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضـــاء ذكر محمد بمــوته ويقول قائلهم مهونا عليهم الأمر :

« دعوه فانما هو أبتر ! .. »

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يعلم أن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة الى ولد من صلب الرســول ، المختار ، يرثها وينهض بها من بعده ، فالنبوة اصطفاء لا وراثة ، وهو صلى الله عليه وسلم قد بعث بخاتم الرسالات ..

* * *

ولست بالقائلة مع هذا كله ، ان محمدا تجرد من حب البنين، فما كانت بشريته ، صلى الله عليه وسلم ، لتسمح له بذاك، ولا كانت فطرته النقية السوية بالتي تخمد فيها أسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة كهذه يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون ..

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : أولهما « علي ابن أبي طالب » وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس أغنى بني عبد المطلب :

« ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجــلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه » ..

ووسَّع محمد لابن عمه «علي» مكانا في بيته ، وفي قلبه ، ثم زوَّجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه (١) ..

أما الثاني فزيد بن حارثة الكلبي ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائي ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها في طيىء فأصابته خيل من بني القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ثم قدمه الى عمته خديجة التي وهبته زوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، وأذاع في الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد ، حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدُعي زيد ابن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرا عند الرسول مقربا اليه عزيزا عليه ! ..

ثم كان هناك بنو خديجة من زوجيها السابقين ، والراجح أن واحدا منهم ــ على الأقل ــ كان يعيش مع أمه في رعاية زوجها الهاشمي الأمين.

فكتب طبقات الصحابة ، تترجم للصحابي « هند بن أبي هالة التميمي » فتذكره بأنه : « ربيب رسول الله صلعم ، أمه خديجة بنت خويلد » (٢)

وعن « هند » رويت صفة الرسول الكريم ، رواها الحسن بن علي ابن أبي طالب عن خاله هند بن أبي هالة ربيب النبي ، أخي فاطمة الزهراء (٣)

وقد ظل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى أخريات أعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة اليه ، حتى اذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا أن الله لم يمهل « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه اليه ، فحزن الأب الثاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتم ألمه ، ولا ملك دموعه ، وان ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذي شاء لحكمة سامية ، الا يكون لمحمد في تلك البيئة المفتونة بالبنين ولد ذكر ، وان دان برسالته ملايين البشر في مشارق الأرض ومغاربها ..

---

(١) ابن حجر : الاصابة ــ والسيرة : ١/٢٦٣

(٢) الاستيعاب : ٤/١٥٤٤ · وقد كان هند فصيحا بليغا · شهد أحدا ، وقيل شهد بدرا

(٣) وانظر جمهرة انساب العرب ١٩٩

حبّ النبيّ لبناته

آن لنا أن نستأنف الحديث عن بنات محمد ، اللواتي كتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وأن يتزوجن جميعا في حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يثكل ثلاثا منهن ، ولا يبقى له غير الزهراء ..

ولا نعلم أحدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيا رسولا ، قد جحد حب محمد لبناته جميعا ، أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيأبون أن يصدقوا أنه أحب بناته ذلك الحب الغامر الذي يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الأنباء المستفيضة بحب الرسول لفاطمة، زاعمين ــ كما سنرى بعد في الفصل الخاص بالزهراء ــ أنها أنباء اخترعت بعد عهد الرسول بزمن ، عندما ظهرت فكرة التشيع !

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانما حسبنا ــ مؤقتا ــ أن نقدر حين نذكر حب محمدا لبناته الأربع ، أثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتي دخلن حياته قبل أن يغدو أبا : أمه « آمنة بنت وهب » وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها ، و « فاطمة بنت أسد بن هاشم » زوجة أبي طالب التي كانت له من بعد أمه أما ، والتي سُمع رسول الله يقول انه لم يجد أبرَّ به منها بعد أبي طالب (١) ، و « خديجة بنت خويلد » زوجته الحبيبة التي أنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وحنانا وطمأنينة وسلاما ..

---

(١) ابو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبيين

سبحانه جلَّت حكمته ، لكأنما أراد أن يروض الرجل الـذي سوف يصطفيه نبيـا ، على احتمال أبوة الأنوثة والصبر عليهـا ، كيما يعده للرسالة الجليلة التي سـوف يعهـد اليه بتبليغها ، ولكي يعلمه الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، ويجعله في أبوته لبنات أربع ، قدوة صالحة للمصدقين برسالته التي أعزت الأنوثة ، وقررت لها من الحقوق ما لا تزال نساء من الغرب الحديث ، يناضلن في سبيل مثله !

❋

خرجن الى الدنيا في أكرم منبت ، وأنبتتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى ، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لداتهن ، فقد كن ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التي انسته بحنانها الغامر كل ما ذاق في طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان ..

وتجد فيهن الأم ، فلذات حية من رجلها العزيز الذي بهرها منذ عرفته بجلال طلعته ، وأسرها بنبل شخصيته ، وفتنها بجميل خصاله ، فتفتح له قلبها المغلق ، وأقبلت على الحياة من جديد ..

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا أذبلها الحرمان ..

ودرجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتُمست لهن ـ واحدة بعد الأخرى ـ خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى اذا أدركن سن الفطام عدن الى حضانة الأم ، التي كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت « محمدا » من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج الأمين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، وأقبلت هي بكل كيانها ترعى دنياها الجديدة ، غير ملقية بالا الى ما وراء جدران بيتها السعيد ..

وأكسبتها تجربتها السابقة في الأمومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها الى النمو بفضل ما تهيأ لهن من رعاية

مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر في المنبت الطيب . واذا كانت ثروة الأسرة قد اتاحت لها استخدام من تشاء من الخدم والغلمـان ، فالحق ان عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة الى حضانة الأطفال ، اذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة العظيمة ، كيما تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن، وما في مكة من تدانيهن شرفا ونعمة..

حتى اذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت أمهـا بتمرينها على المشاركة في العبء الكبير ، واخذتهـا مبكرة مأخذ الجد ، ونأت بها عما يشغل لداتها وأترابها من عبث الطفولة ولهوها ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » أما صغيرة ، ترعى شئونها وتمضي فراغها في ملاعبتهـا ، كيما تعفي أمها من بعض مشاغلها وقـد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها ..

وقرب هـذا الوضع ما بين زينب وفاطمة ، كما أوجد تقارب السن ألفة بين الأختين رقية وأم كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما الملعب المشترك والفراش الواحـد ، والطبـاع المتشابهة ، والسمت المتماثل ، حتى لكأنهما توأمان !

وسارت حيـاة الشقيقات هكذا رخية هانئـة حتى تزوجت كبراهن « زينب » فافتقدتها أخواتها وشعـرن بالوحشة لغيابها ، ولبثن ليالي عديدات ينظرن الى فراشها الخالي فيخامرهن احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالأسى ، ودار سمرهن طوال هاتيـك الليـالي ، حول الزواج ، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا النظام الذي ينتزع الفتاة من أحضان أسرتها ، ويلقي بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صغراهن « فاطمة » بحكم طفولتها ، أجهلهن لحكمة الزواج وأشدهن سخطا عليه ، فما أرضاها قط أن يبعدوا عنها « أمها الصغيرة » التي طالما لاعبتها ودللتها واعتنت بها ، وانها لتسائل أختيها كيف هان على الأسرة ان تستقبل حادثا كهذا ، بالفرح المعلن ، وتحتفل به في بهجة

وسخاء ، وكان أولى بها أن تتمسك بزينب ، او لا فلتودعها كارهة ، بغير احتفال !

وتحاول رقية ــ متأثرة بشعورها ان الدور عليها ــ ان تهون الأمر على أختها الصغرى فاطمة ، وأن تقنعها أن أبويها ما كانا ليسلما «زينب» الى زوجها في احتفـــال بهيج كالذي كان ، لولا ثقتهما ان في هذا خيرها وسعادتها ...

لكن فاطمة تصر على رأيها في الزواج ، حتى يبدو لأم كلثوم ان تدلي برأيها فتقول لأختيها :

ــ من يدري ؟ .. لعل هذا الفرح مفتعل ، ولعل ضجة العرس انمــا قصد بها شغل العروس عن التفكير في قســـوة التجربة الجديدة التـــي تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها ..

واذ تحس من أختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تمضي مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيهــا الى ما بدا على أمهما بعـــد فراق زينب من شـــجو تحاول أن تكظمه ، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه .

ثم تسألهما :

ــ اما سمعتماها غير مرة تـــنادي « رقية » باسم « زينب » ثم تنتبه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحي ! .. لقد نسيت ان زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة في أسى :

ــ هو ما تقولين ..

أما رقية فتجيب :

ــ انك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع أن أمنـــا قد ألفت أن تنطق باسم زينب ، وليس في سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الالف وسلطان العادة ..

ولكن «أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

ــ فما قولك اذن في أبينا ؟.. أو ما تلاحظين عليه منذ حين أنه يأنس

الى الخلوة ويميل الى الوحدة ويجنح الى الصمت والتأمل ؟ أو ما يبدو عليه في هذه الأيام أنه مشغول البال بهمٍّ يطويه ؟

فهتفت « فاطمة » وهي تنتفض حبا وحنانا :

ــ يا لأبي العزيز ! .. انه لكما ذكرتِ يا أم كلثوم ..

وقالت رقية :

ــ وما يدريكما أن لفراق « زينب » صلة بميل أبينا الى العزلة وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » رأسها وهي تقول بلهجة ذات مغزى :

ــ ما أراك يا رقية الا تعدين نفسك لمثل مصير زينب، وقد جاء دورك !

فردت « رقية » في غير انفعال :

ــ ما خطر لي هذا يا أخت ببال ..

وعقبت فاطمة :

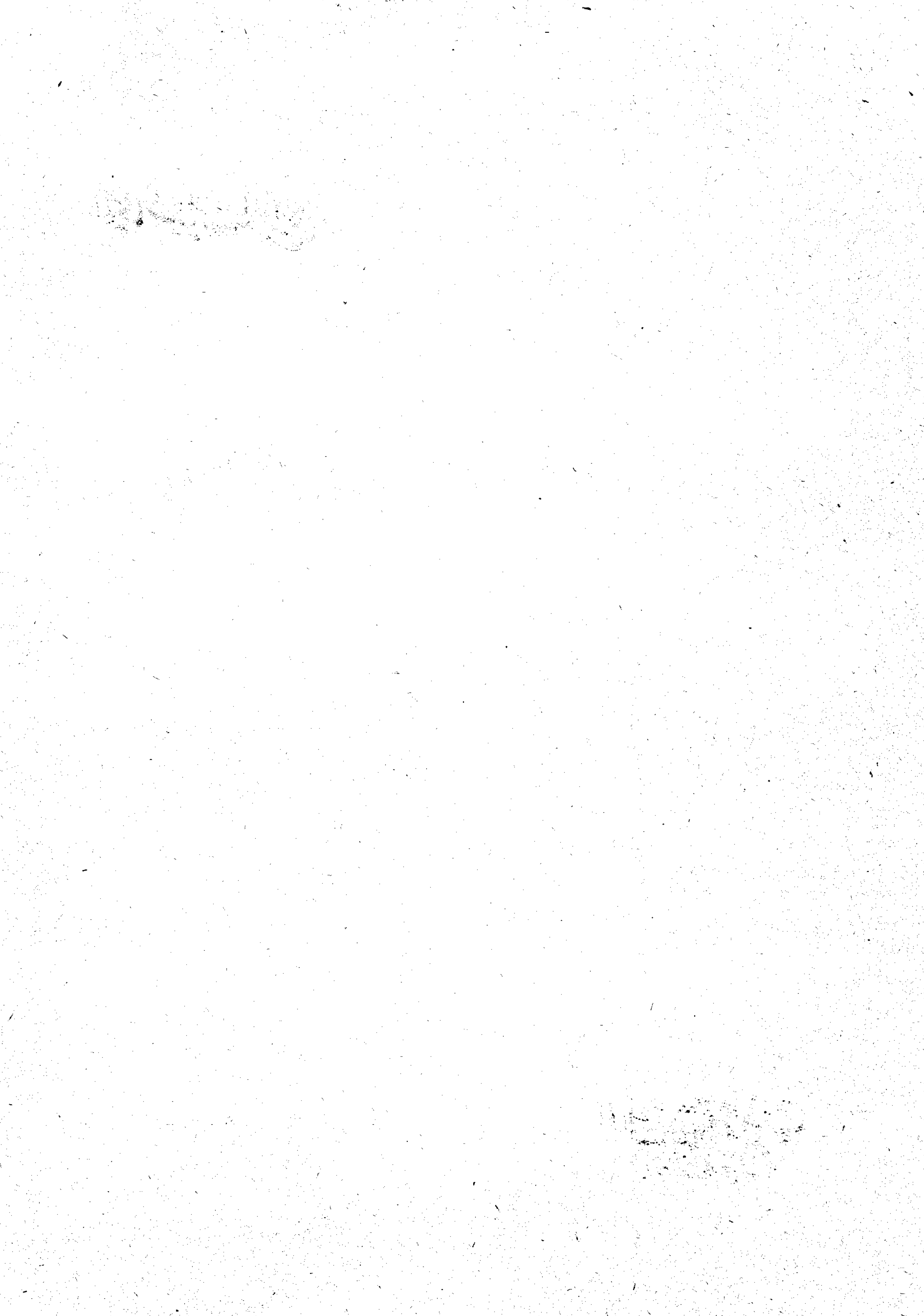
ــ فلتتزوجا أنتما وليبارك الله لكما ، أما أنا فلست بتاركة أبوي ما استطعت الى ذلك سبيلا ..

ولم تدر «فاطمة» وهي تلقي هذه العبارة أنها كانت تنطق بلسان القدر!

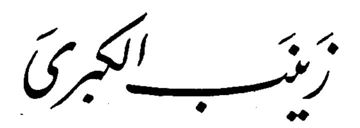
فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت أختاها رقية وأم كلثوم ، وبقيت هي في بيت أبيها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..

* * *

الى هنا ينتهي الفصل الأول من حياة الشقيقات الأربع ، بانتهاء حياتهن المشتركة في بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن قد واجهت دنياها الجديدة واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن على حدة ، لنصحبها في ذلك الدور الثاني من حياتها ، ونرى ما فعلت بها الأيام ..



الفصل الرابع



- العروس الهاشمية
- ابن الخالة
- سعادة لم تطل
- ليل لا يبدو له آخر
- الأسير والقلادة
- مسلمة ومشرك
- طارق بليل
- لقاء .. وفراق
- ذكرى ...



زينب الكبرى

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت اليها عيون الهاشميين ، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين ..

ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الأمل في الزواج من « زينب » مثل ما لابن خالتها « أبي العاص بن الربيع » أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواه ، اذ كانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن ، فتهيأ له بذلك ان يغشى بيت « محمد » كلما أراد ، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، ما يطمعه في أن يكون الزوج المختار لزينب ، تلك التي خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة ، فراح يرمقها وهي ترقى سراعا في مدارج النمو ، وتتفتح للصبا ملء البهاء والاشراق ..

وكان مكانها في بيت أبيها ، كبرى بنات أربع ، قد أسرع بها الى النضج قبل الأوان ، بما ألقي عليها من عبء المشاركة في حضانة اخواتها ، مع الأم الكريمة التي كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين ، واجهدتها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكا في العقد الخامس من عمرها ، فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الأنوثة الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الاهاب ..

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم ببيت خالته فيؤخذ بجلال مرآها وعذوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح انوثتها ..

وكانت مشاغله الجسام تمسكه احيانا عن الالمام ببيت خالته، وبخاصة في المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين اليها من الحجيج والتجار ، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، الى الشمال والى

الجنوب ، في الصيف والشتاء ، تحبسه عن « أم القرى » فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ احداها أشهرا ذوات عدد ، لكنه كان أبدا يرنو الى « أم القرى » على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين ، يؤنسه طيف من تلك الصبية الرقيقة الوديعة ، التي يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة ساحرة ..

ولم يغب عن باله قط ، أن الفتية الأمجاد من آل هاشم يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن الى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من يتاح له مثل مكانته في بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف في كسب ود « زينب » والوسيلة الى الظفر باعجابها وتقديرها ..

وأبت عليه ثقته في نفسه أن يدخل مع منافسيه في معركة مكشوفة، بل اكتفى بأن يودع سره الغالي لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا ، الى تدعيم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين ..

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فتاته في عجلة ، أو ان يطرق باب قلبها البكر في عنف ، فهي على نضجها واتزانها ما تزال الصبية الغريرة الخجول ، وأي تسرع في الكشف لها عن حبه قد يخدش حياءها العذري ويجرح براءة صباها ، وهو ما كان ابن الخالة يتجنبه ويتقيه ..

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غير قليل ، وفرض عليه قيودا ثقالا من الكبت والحرص والتأني ، ولكنه في الوقت نفسه جعل « زينب » تطمئن اليه وتأنس له في غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التي أنضجتها التجربة والرحلة ، ما جعلها تعتز به أخا ، ولا ترى في فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وان وزنوا به أصالة ونسبا ، وربما مالا كذلك ..

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت « محمد » قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب » ترتاح الى محضره ، ويطيب لها

أن تصغي الى ما في جعبتـه من طرائف وغرائب التقطهـا من مدرسـة الأسفار ، وكأنما كانت ترى في وعيهـا لحديث رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدها الذي تميزت به عن لداتها وأترابها ..

وربما جاءها في بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة، فتتلقاها في بشر حلو ، وترى فيها تحية جميلة لمـا يربطهما من أواصر المودة والقربى ..

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل ، فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها في رفق ولطف ، وكانت أمها الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لا تنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » والا فما كانت خديجة بالتي تفرضـه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه ..

و « خديجة » قد عرفت الحب الطاهـر ونهلت من رحيقـه العذب وخرجت من تجربتها العبقرية الفذة ــ التي بدت في حينها أشبه بمغامرة ــ أشد حماسة للزواج القائم على الحب المتبـادل ، وأعمق ايمانا بأنه النعمة الكبرى التي تهبها السماء للموعودين السعداء ..

وتلطفت السيدة الأم ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التي لمست قلب فتاته الأولى ، فـرق قلب الأب النبيـل للحبيبين العزيزين ، وتمثلهما وهما يترشفان في حياتهما الزوجية ، مـن ذاك النبع العذب المبارك الذي شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يضجر أو يمل ..

هنالك أشارت « خديجة » على ابن أختها أن يتقدم الى محمـد أبي زينب خاطبا ، وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقي ابنتها الكبرى الى جانبهـا ، لكنها رأت حرص الفتيـة القرشيين على مصاهرة الهاشمي الأمين ، وخشيت اذا هي تريثت امدا ، ان يسبقوا « ابا العاص » الى طلب يد « زينب » فيكون ثمت شيء من الحرج لا ترضـاه لزوجهـا العزيز ..

* * *

وقد أحسن « محمد » لقاء « أبي العاص » كما اعتاد دائما أن يفعل ،

وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته في الزواج من «زينب» ثم كان جوابه ، انه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو ان يمهله ريثما يعلن هذه الرغبة الى ابنته ، فانها لأهل لأن تكون صاحبة الكلمة الأولى في أمر جليل كهذا ، يعنيها أكثر مما يعني أي فرد سواها .

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو « ابي العاص » ورأيها فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هذا كله ، لم يشأ ان يقطع في الأمر دونها ، وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى أمها أن تسبقه اليها بالنبأ السعيد ، ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

ـ بنيتي زينب ، ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك ..

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا أن كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الأمر على ما تكره ..

وتلبث الأب برهة يصغي ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الأم الحنون ، واذ ذاك عاد الى حيث ترك « ابا العاص » ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا ..

* * *

وذاع النبأ السعيد في مكة ، فوجمت له قلوب شبان طمعوا في الظفر بالعروس الهاشمية ، ولكن أحدا منهم لم يسعه أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ ان بني العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبي العاص الا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا الا خيرا ؟ ..

قرشي صميم ، يلتقي نسبه من جهة الأب مع «محمد بن عبد الله» عند عبد مناف بن قصي ، فهو « أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي » (١) ..

---

(١) نسب قريش ٢٣١ وجمهرة انساب العرب : ٧٠ ـ ذخائر

ويلتقي نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد ، عند جدها الأدنى : خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب ..

وكان الى جانب ذلك الأصل والعرق الطيب ، كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالأمين ، (١) ، كما لقبوا محمد ابن عبد الله ..

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه ، ما جعله يثب الى الصف الأول من صفوف التجار ، وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها (٢)

ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب ، ولآخر أن يقول أن محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهي من هي في حياة محمد وفي قلبه وفي دنياه ..

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ، فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ما يزكيه ويغنيه ، ويفتح له أي بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف اليه أي عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشي العالي ..

* * *

تهيأ البيت المحمدي للعرس ، وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذي يقترن عادة باعداد بيت جديد . وقد بعث « محمد » في طلب أزكى العطور والأطياب ، كما أرسلت خديجة من يجوبون الأسواق القريبة ، ويترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس . على حين مضى « أبو العاص » يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية ، ويسخو في هذا السبيل بما يتيحه له ثراؤه العريض ..

* * *

وآن موعد الزفاف ، ورددت أرجاء مكة أصداء العرس ، ونحرت

(١) المصعب الزبيري : نسب قريش ٢٣١ ط الذخائر
(٢) السيرة : ٣٠٦/٢ وانظر معها الاصابة لابن حجر : ترجمة أبي العاص

الذبائح ودعي اليها كل من أظلته سماء البلد العتيق ..

وصحبت الأسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد ، ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الأول الذي حُلت فيه تمائمها ..

ثم تركتها في رعاية زوجها الكريم ..

وهناك أظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة غامرة ، وأتاح لهما الحب المتبادل أن ينعما بالعيش في ظل الزوجية الموفقة ، وان مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت ، ذلك أن أبا العاص كان مضطرا الى السفر في تجارته فيمضي تاركا قلبه في مكة، وتحاول «زينب» أن تتجلد للفراق ، وتستعين عليها بزيارة بيت أبيها ، فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلي ، واستروا حا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد ما يلوح في أفق الأسرة من طلائع ذلك الغد المغيب ، وقد كثر انقطاع أبيها الى التعبد والتأمل في خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها الا أن ترمقه على البعد ، وتهييء له ما في طاقتها من اسباب الراحة والهدوء ..

وتتشاغل « زينب » بالمشاركة في تدبير شئون الدار لكي تتيح لأمها الفراغ للتفكير في الحبيب واعداد زاده والسهر على سلامته ، حتى يعود « أبو العاص » من سفره فترجع زينب الى بيتها حيث تفضي الى زوجها بما يساورها من قلق ، فيبث في نفسها الطمأنينة ، ويردها الى مألوف حالتها من دعة واشراق ، وربما أنشدها بعض ما كان ينشده في سفره ، وهو عنها بعيد :

ذكرتُ زينب لما وَرَّكْتُ أرَما
فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة
وكل بعل سيثني بالذي علما (١)

(١) طبقات ابن سعد : ٢٠/٨ ــ والاستيعاب ١٨٥٤/٤

ثم من الله عليهما (١) بوليدهما «علي بن أبي العاص» ثم جاءت من بعده أخته « أمامة » ففاض عالمهما بالغبطة والفرح .

وذات صباح ، سعت « زينب » مبكرة الى بيت أبيها وأبو العاص على سفر ، فالتقت لدى الباب بأمها عائدة من زيارة عجلى لابن عمها « ورقة ابن نوفل » .

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من اللهفة والاهتمام والاشتغال ، وقد راعها أن مرت بها فلم تكد تراها ، بل اندفعت لا تلوي على شيء نحو مخدع زوجها، حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة ، قبل أن تخرج الى بناتها وقد عاودها هدوؤها وبانت عليها الطمأنينة ..

وأصغت « زينب » الى أمها وهي تحدثها حديثا عجبا عن نزول الوحي على أبيها صلى الله عليه وسلم اذ كان يتعبد في حراء ، فأخذَتْ بما سمعت حتى لم تحر جوابا ، ذلك ان الأمر كان من الخطر والجلال بحيث قصرت عن ادراكه وأعياها أن تبلغ مداه ..

ولبثت في مكانها ساكنة لا تريم ، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهي ، بل خيل اليها أنها تسبح نائمة في بحر لجي لا تدرك عبره !

حتى ردها الى يقظتها صوت اختها فاطمة تقول :

ـ أو ما يسرك يا أختي أنك بنت نبي هذه الأمة ؟

اجابت بعد تأمل صامت :

ـ أجل والله يا فاطمة ، وأي فتاة لا يزدهيها هذا الشرف الذي ما بعده شرف ؟ لكنه الذي سمعتُ وسمعتِ من قول خالي «ورقة» : ليكذبن أبي ، وليؤذين ، وليخرجن ، وليقاتلن ! (٢)

ففكرت « فاطمة » مليا وقد عز عليها أن يؤذي أبوها ، ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :

---

(١) نسب قريش ٧٠ ـ وجمهرة انساب العرب ١٥٨ ـ والاستيعاب ١٨٥٤/٤
(٢) تاريخ الطبري ٢٠٧/٢

ـ هو والله ما قالت أمي لأبي :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، والله لا يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتحمل الكلَّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١)

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وان أحست كلتاهما ان لهذا الأمر ما بعده !

* * *

عاد « ابن الربيع » من رحلته ، وملء سمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد ..

وأسرَّت اليه زوجته «زينب» بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وتأملا وفخرا ، فما راعها الا أن أمسك صامتا لا يعقب .

وسألته :

ـ ما بك يا ابن الخالة ؟

أجاب وهو يضمها الى صدره :

ـ بي يا حبيبة أني خائف ..

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه :

ـ لو تبعته لقال القوم : فارق دين آبائه ارضاء لزوجه وحميه ، ولو خالفته ..

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته في لهفة وضراعة :

ـ لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق ..

ورنت اليه طويلا قبل أن تستطرد قائلة :

ـ وأنا بعد قد أسلمت يا ابن الخالة ..

قال وقد أسقط في يده :

ـ أو قد فعلتهاَ يا زينب ؟

أجابت :

---

(١) ابن حجر : الاصابة : ٨/٦١ ، وتاريخ الطبري ٢/٢٠٥

ـ ما كنت لأكذب أبي ، وانه والله لكما عرفْتَ : الصادق الأمين ..
ثم أضافت :
ـ وكذلك أسلمت أمي وأخواتي ، وعلي ابن العم أبي طالب ، وأبو بكر، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية ابن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد ..

فلم يبد عليه أنه أصغى الى ما تقول ، بل استطرد متسائلا وفي صوته رنة أسى وملام : « فهل فكرت يا زينب حين تبعتِ دين أبيك ، فيما يحدث لو أني بقيت على دين آبائي ؟ »
فهزت رأسها وهي تجيب :
ـ كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق الى الاسلام كما سبق اليه من قومك عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك ..

فانثنى موليا ، وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هي تنتظر على جمر ..
آب اليها في غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :
ـ لقيت أباك اليوم في الكعبة يا زينب ، ودعاني الى الاسلام ..
ثم لم يزد ..
وكان في وجوم ملامحه ، وترنح صوته ، ما يغني زينب عن سؤاله : بم أجاب الدعوة (١) .
ووقفا في أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والأسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى همَّا بعناق ، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئي يقف بينهما فيحول دون ما يبغيان من شعور بالتداني ، والتماس كل منهما في صاحبه ملاذا وسكنا ..

ولم يناما ليلتهما ، ولا ما بعدها من ليال ، اللهم الا أن يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين ، غفوات خاطفة ، حائرة ممزقة .

---

(١) السيرة : ٢/٢٠٦

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ما تكابد :

ـ والله ما أبوك عندي بمتهم ، وليس أحب الي من أن أسلك معك يا حبيبة في شعب واحد ، لكني أكره لك أن يقال أن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه ارضاء لامرأته ، فهلا قدرت وعذرت !؟

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وان خايلها الأمل في ان تنجلي الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة ..

***

على أن الغمة لم تنجل سراعا ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى ، وهذه قريش قد لجت في عداوتها للرسول ، وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى أثخنتهم بالجراح وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم لم يكفها كل ذاك الذي فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الأذى الى بني هاشم وبني عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا رجلهم الى أعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التي سجلت في صحيفة علقت بالكعبة وخرجت بالهاشميين الى شعب أبي طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك في حصار طويل منهك (١) .

ولم تكن « زينب » فيمن خرج الى الشعب ، لكن أنباء من فيه كانت تأتيها في دار زوجها ، فتروعها بالذي يكابده أهلها هنالك ..

ولم تنجل محنة الحصار ، الا لتسلم الى ليل طويل ، لا يبدو له آخر ! ..

ماتت « خديجة » ..

ومات « أبو طالب » ..

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين في النصر على النبي ، وعادت معركة الاضطهاد التي فترت هونا عقب فك الحصار ، الى أشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا ..

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٢٢٥

وبدأ أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، يهاجرون تباعا فرارا بدينهم من الفتنـة والأذى ، حتى لم يبق مع الرسول بمكة الا من حبس أو فتن ، غير علي بن أبي طالب ، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما ..

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس في مكة ان المشركين قد ائتمروا بمحمد ليقتلوه ويستريحوا منه ..

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكـة من أدناها الى أقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذي خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبي بكر الصديق ..

وأوجست في قلبها خيفة « زينب » وهي تصغي الى أنباء المطاردة العنيفة العنيدة ، حتى اذا بلغها وصول أبيها صلى الله عليه وسلم الى مأمنه في دار الهجرة ، اطمأن بالها ..

وجاء رسول من يثرب فصحب اختيها « فاطمة وام كلثوم » الى هناك ، وكانت « رقية » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت زينب في دار ابن الربيع بمكة ، اذ لم يكن الاسلام قد فرق بينهما بعد ..

وتلفتت حولها فاذا مكة قد خلت من كل الأهـل ، واذا دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم الا من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين ..

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسألها : أين من كانوا بالأمس يملئونها بهجة وأنسا ؟

أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم والطيب ؟

رحلوا جميعا ، فاما خديجة وولداها فالى غير مآب ، وأما محمد وبناته فالى هجرة واغتراب ..

والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروي الثرى بدمعها ، حتى اذا أراحها البكاء هونا أغرقت في تأمل صامت حزين :

واعجبا .. الأحياء من أهلها وأحبابها جد نائين ، والموتى منهم هم الجيران القريبون !

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتصدع : ان زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه، ولو كان قد أسلم لما تمزق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدا عن أبيها وأخواتها . .

* * *

وتتابعت النذر معلنة عن دنو عاصفة عاتية ، فمحمد صلى الله عليه وسلم قد وجد في « يثرب » نصرا ومقاما ، وأصحابه يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوي بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم في الظفر بعير تحمل تجارة لقريش ، فيها عمر بن الحضرمي ، فعاد المسلمون الى يثرب بالعير وبعض الأسرى ، وتركوا ابن الحضرمي صريعا بسهم على أديم الصحراء (١) .

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب في أمر هذه القلة المغتربة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفاري » ـ وكان مسافرا في تجارة بالشام مع أبي سفيان ـ فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحَوَّل رحله وشق قميصه وصاح مستفزا :

ـ يا معشر قريش .. اللطيمة اللطيمة ! .. أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها .. الغوث الغوث ! (٢) ..

فجاءته الأصوات من كل جانب :

ـ أيظن محمد وأصحابه أن تكون عير أبي سفيان كعير ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع « زينب » فأدركت أنها الحرب ..

الحرب بين قريش والمسلمين ..

وفي الأولين زوجها ووالد طفليها علي وأمامة : أبو العاص بن الربيع

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٢ وتاريخ الطبري : ٢٦٣/٢ ـ والسيرة : ٢٥٣/٢
(٢) السيرة لابن هشام : ٢٦٠/٢

وفي الآخرين أبوها : محمد رسول الله !

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة أشقى منها وأفدح هما وقلقا ..

فلما أصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهي تسير في ألف مقاتل كاملي العدة شاكي السلاح لتمنع عيرها ..

كم ترى يكون عدد الجيش مع أبيها في يثرب ؟ مائة ؟ مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ يا لزينب مما تتمخض عنه المعركة الرهيبة غير المتكافئة ..

وانثنت الى مهد صغيريها ، علي وأمامة ، فرنت اليهما بعين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين أبح :

ـ لن تطلع علينا الشمس في مثل يومنا هذا ، الا وأنتما يتيمان ، أو أنا ..

ثم أرخت يديها ، وجمد الدمع في مقلتيها ، واستسلمت لقضاء الله وقدره ..

ولم تحاول أن تتبع أنباء القتال الدائر أو تتلمس ما يصل الى مكة من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد » الا اليتم أو الترمل !

واذ هي منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة أبيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة :

ـ أو ما بلغكِ النبأ العجيب ؟

فنظرت اليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب ..

واستطردت العمة :

ـ انتصر محمد في قلة من صحابته ، على قريش في كثرتها وعدتها ..

فانتفضت زينب هاتفة :

ـ انتصر أبي !؟ .. وافرحتاه ! ..

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفليها الى صدرها واستعبرت باكية ..

لكن العمة عجلت اليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص ، بل وقع في أسر صهره الكريم ..

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح ..

* * *

وأتتها بقية من الأنباء بعد حين ..

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذي ترك هامات قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر ..

وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم في الفداء ..

وكان « أبو العاصي » ذا مال ، وقد أراد أهله أن يغلوا في فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتديه بما هو أعز من المال ..

* * *

سيق أسرى بدر الى يثرب في أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم الرسول صلى الله عليه وسلم مليًّا ، ثم نحَّى عنهم صهره « ابن الربيع » وفرق الباقين بين أصحابه وقال :

« استوصوا بالأسارى خيرا » ..

وبقي أبو العاصي عند النبي ، حتى جاءت رسل قريش في فداء أسراها ..

وغالوا في الفداء ، حتى ان المرة لتسأل عن أغلى ما فُدي به قرشي ، فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها في فداء ابنها (١) ..

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو أبي العاصي ، فقال للنبي (٢) .

بعثتني « زينب بنت محمد » بهذا ، في فداء زوجها : أخي ، أبي العاصي بن الربيع ..

---

(١) السيرة : ٣١٦/٢ ، والطبري : حوادث السنة الثانية للهجرة • وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١/٢ ـ ولاحظ أن ابن الربيع ، يذكر في بعض المصادر باسم « أبي العاصي » وفي بعض آخر باسم « أبي العاص »

(٢) مسند أحمد : ٢٧٦/٦ والسيرة ٣١٧/٢

وأخرج من ثيابه صرة قدمهـا الى الرسـول ، فاذا بها « قلادة » لم يكد « محمد » يراها حتى رق لها رقة شديدة ، وخفق قلبه للذكرى ..

لقد كانت قلادة « خديجة » أهدتها الى ابنتها زينب يوم عرسـها حين زفتها الى أبي العاصي ، ابن أختها « هالة » ..

وأطرق أصحاب الرسول خشعا وقد أخذوا بجلال الموقف وروعته : قلادة الحبيبة ، تبعثها بنت النبي الى أبيها . في فداء زوج حبيب ! ..

وتكلم الأب النبي بعد فترة صمت ، فقال في حنان :

ـ ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا (١)

فهتفوا جميعا بملء قلوبهم :

ـ نعم يا رسول الله ..

وأدنى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليه صهره الذي غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسرَّ اليه حديثا لم يعلم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا ، ثم حيَّا ومضى ، فلما بعد ، التفت الرسول الى أصحابه من حوله ، فأثنى على أبي العاصي خيرا وقال :

ـ والله ما ذممناه صهرا !

* * *

دخل « أبو العاص » بيته فما رأته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها اليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفهـا قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعال ، فرفعت وجهها الجميـل الى السماء تحمد الله أن رده سـالما اليها والى طفليه ، وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للاسلام ..

وشـغلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشي وجه زوجهـا من وجوم واكتئاب ، الى أن قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يـرى وقع كلماته عليها :

ـ جئتك مودعا يا زينب ..

---

(١) السيرة : ٣١٧/٢ ـ وتاريخ الطبري ٢٩١/٢ والاستيعاب : ١٧٠١/٤

فسألت بقلب واجف :

ـ هكذا ولما نكد نلتقي !

قال وما زال يتحاشى النظر اليها :

ـ لست راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة ! ..

وهالها ما تسمع .

كانت تعرف أن قريشا أرادت أصهار الرسول على أن يردوا بناته اليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجا أختيها « رقية وأم كلثوم » فرداهما الى أبيهما ، وأما أبو العاصي فتركهم يقولون :

ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش ..

ثم روعهم بجوابه :

ـ لا والله اني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش (١) .

فهل تراهم عاودوه اليوم في أمر فراقها فاستجاب لهم بعد الذي كان في « بدر » ؟

وشعرت ببرودة تجمد أطرافها وتسري الى قلبها ، فاستندت الى جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر في استسلام يائس ، ماذا بعد ..

وأدرك « أبو العاص » ما خطر ببالها ، فبادرها قائلا في حنو وكأنما ذاب قلبه في صوته :

ـ رحماك يا حبيبة ، ان أباك هو الذي طلب أن أردك اليه ، لأن الاسلام فرق بيني وبينك ، وقد وعدت محمدا أن أدعك تسيرين اليه ، وما كنت لأنكث عهدي ..

وحملها صوته الى بعيد ..

وتمثلت نفسها في يثرب ، تقبل أباها وتعانق أخواتها ، وتلقى النازحين من الأهل ..

---

(١) السيرة : ٣٠٧/٢ وانظر معه ترجمة ابي العاصي وسعي قريش في طلاقه في «الاصابة بالاستيعاب»

وانتشت بالحلم الهنيء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على « أبي العاصي » غارقا في شجنه ، فسألته مترفقة :

ـ كم بقي لنا من وقت نقضيه معا ؟

أجاب بصوت واهن :

ـ ليس بالكثير .. ان هي الا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون الفراق المحتوم ..

وبقي سؤال لزينب :

ـ وترافقني الى يثرب ؟ ..

فأمسك دموعا تحيرت في مقلتيه وأجاب :

ـ كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتي أخوك زيد بن حارثة ورفيق له من أنصار أبيك حتى يبلغا « بطن ياجج » ـ على بعد ثمانية أميال من مكة ـ فينتظرا هناك حتى تمري بهما فيصحباك الى أبيك بيثرب (١) .

* * *

وخرجت « زينب » في الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها « هند بنت عتبة » التي روعها مصابها في بدر ، وأخرجها من بيت زوجها أبي سفيان الى محافل مكة وأنديتها تدعو للثأر من المسلمين الذين قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان ابن حرب ..

ولم يخفَ على هند ـ في ذكائها اللماح ـ أن زينب انما تتجهز لتلحق بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر ، فدنت منها وقالت متلطفة :

ـ يا بنت محمد ، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ ..

فتحيرت « زينب » لا تدري بماذا تجيب . وأضافت هند مجاملة :

ـ أي ابنة عمي ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك

(١) السيرة : ٣٠٨/٢ ـ وتاريخ الطبري : ٢٩١/٢

فان عندي حاجتك ، فلا تضطني مني فانه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال (١) ..

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، المبرأ من الكيد والخبث ، فهمت بأن تفضي الى هند برحيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها ...

ومضت كلتاهما لشأنها ..

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك الا لتفعل ، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب » (٢) ..

وأما هند ، فراحت تؤجج في قريش نار الثـأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والبغضاء ..

* * *

وسرعان ما حل الموعد المضروب ..

وودعت « زينب » أبا العاص وداع محبـة غير قالية ولا هاجـرة ، وخرجت وفي أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع ..

وحاول « أبو العاص » أن يتجلد فقال :

ـ مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى عـلى حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التي شهدت أيامنا الحلوة ..

ثم خانه تجلده ، فأرخى بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضي بزينب الى حيث ينتظرها زيد وصاحبه ..

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم في أثر المهاجرة حتى أدركوها بذي طوى ، فكان أسبقهم اليهـا « هبار بن الأسود الأسدي » الذي روعها بالرمح وقد جُن حزنه على اخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا في بدر بأيدي أصحاب محمد ..

ونخس البعير ، فألقى براكبته على صـخرة هناك ، واذ ذاك بـرك

(١ ، ٢) السيرة : ٣٠٨/٢ وتاريخ الطبري : ٢٩٢/٢

« كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :
ــ والله لا يدنو مني رجل الا وضعت فيه سهما ..
فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :
ــ كفّ عنا نبلك حتى نكلمك ..
فكفّ كنانة ..
وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :
ــ انك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وان ذلك منا ضعف ووهن . ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسُلَّها سرّا فألحقها بأبيها (١)

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع في الناس أن قد ردّها قريش ، لولا أن سمع توجعها فالتفت اليها فاذا هي تنزف دما ، وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء ! ..

وعاد بها الى مكة ، حيث بقي « أبو العاص » الى جانبها أياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أونهار ، فلما تمالكت بعض قواها، خرج بها « كنانة » حتى أسلمها الى « زيد بن حارثة » وما تزال تنزف دما ..

ولم يتبعها في هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم ، وقد ركبهم الخزي والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :
ــ معركة مع أنثى عزلاء ؟ .. فهلا كانت هذه الشجاعة في بدر ؟ ..

أفي السلم أعيارٌ ، جفاءً وغلظةً
وفي الحرب أشباه النساء العوارك (٢) ؟

(١) السيرة : ٢/٣٠٩ ــ وتاريخ الطبري : ٢/ ٢٩٢
(٢) السيرة : ٢/٣١٠

ورجع «كنانة» الى أخيه بعد أن اطمأن عليها وهو يردد بملء صوته :

عجبت لهبار وأوباش قومه
يريدون اخفاري ببنت محمد !..
ولست أبالي ، ما حييت ، عديدهم
وما استجمعت قبضا يدي بالمهند (١) !..

* * *

استقبلت « يثرب » بنت الرسول باحتفال مهيب ، شابت فرحة اللقاء فيه ، سورةُ الغضب لما أصاب العقيلة الكريمة أول خروجها من مكة ، وحملت الركبان الى قريش قول شاعر الأنصار منذرا متوعدا :

أتاني الذي لا يقدر الناس قدره
لزينب فيهم من عقوق ومأثم
فأقسمت لا تنفك منا كتائب
سراة خميس في لهام مسوَّم
نزوع قريش الكفر حتى نعلَّها
بخاطمة فوق الأنوف بميسم
تنزِّلهم أكناف نجد ونخله
وان يُتهِموا بالخيل والرَّجْل نُتْهِمِ
يَد الدهر حتى لا يعوج سربنا
ونلحقهم آثار عاد وجرهم
فأبلغ أبا سفيان اما لقيته
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم
فأبشر بخزي في الحياة معجل
وسربال قار خالدا في جهنم !.. (٢)

كذلك تحدثت الركبان بغضب الأب الرسول لابنته ، حتى لقد أمر أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الأثيمين ـ هبارا وزميله ـ اذا هم

(١ ، ٢) السيرة : ٢/٣١٠

ظفروا بهما ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكد يخلو الى نفسه ويتدبر ما كان من أمره باحراق الرجلين ، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يجب لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالاحراق عقوبة القتل ..

حدث أبو هريرة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أنا فيها ، فقال لنا : ان ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي سبق معه الى زينب ـ سماه ابن اسحاق فقال : هو نافع بن قيس ـ فحرقوهما بالنار ..

« فلما كان الغد بعث الينا فقال : اني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين ان أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار الا الله ، فان ظفرتم بهما فاقتلوهما » (١) ..

* * *

ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الأحداث ، و « زينب » في حمى أبيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر « أبي العاص » للاسلام ..

وليس بمستغرب ألا نسمع عنها خبرا في هاتيك السنين ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها صلى الله عليه وسلم من مظاهر الغيرة والتنافس ، وألا نعرف لأبي العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة في تلك الحرب الطاحنة التي لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين في يثرب والمشركين في مكة ..

حتى كانت ليلة من ليالي جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ،

وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكريات ألمت بها فذادت النوم عن عينيها . وطاب لها أن تحلم في يقظتها بالغد الذي طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل في دين محمد ألوف

---

(١) السيرة : جـ ٢

وألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر الأكبر آت دون ريب ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟ ..

ودنا الفجر وما تزال في يقظتها الحالمة . فلم تكد تشعر ببابهـا وهو يفتح في تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه القلق ..

وارتابت « زينب » في يقظتها وظنت أن ما ترى ليس الا طيفَ من تحب ، يسري اليها في هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما سعيد ، ولى وراح ..

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألم بها ، وغمغمت في شجو ورقة :

ــ أبو العاص ...

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

ــ أجل يا أعز من لي .. أبو العاص ، ألقت به المقـادير قريبا من يثرب ، فسعى اليك والمطاردون في أثره ..

ولم تصدق « زينب » أذنيها ، بل ظلت ترمقـه بنظرة حالمة وهي ما تزال أشبه بمنومة ، واستمرأت أن تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ، الى أن لمحت نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار ، وسمعت بلال بن رباح يؤذن للصلاة بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا دعاء السماء :

« الله أكبر » ..

وميزت خطوات قريبـة ساعية الى المسجد فعرفت أنه أبوها يخرج ليصلي بالناس ..

وقالت كمن تحدث نفسها :

« رباه ، لكأني في يقظة ، ولكأني بك يا أبا علي الى جانبي ! .. » .

فرد عليها صوتُ من حسبته طيفا :

ــ أجل يا زينب ، وهـذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعـد أن أجهـده

السرى ، وأرهقته المطاردة ، وأضناه الفراق ! ..

فسرت رعدة في جسدهما ، وقامت اليه تريد أن تحييه ، حتى اذا لم يبق بينها وبينه الا خطوة واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنت اليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام ..

وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها الصامت :

ـ كلا يا زينب ، لم آت يثرب مسلما ، وانما خرجت تاجرا الى الشام في أموال لي وأخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتي وأقبلت قافلا ، لقيتني سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فأصابوا كل ما معي وأعجزتهم هاربا ، حتى اذا جُنَّ الظلام جئتك متخفيا مستجيرا ! ..

فعادت الى مكانها الأول ، وهي تقول بصوت يقطر أسى ويأسا :

ـ مرحبا بابن الخالة ، مرحبا ألف مرحب بأبي علي وأمامة ..

ولفهما صمت مشحون بالشجن ، وغرق الكون من حولهما في سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها لحظة ، ثم تناهى الى سمعها صوت النبي يكبر في المسجد ، فجمعت زينب نفسها وقامت الى الباب ، ثم صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس ، اني أجرت أبا العاص بن الربيع » (١) ..

وحمل نسيم الفجر صوتها الى من في المسجد ، فلما سلم الرسول صلى الله عليه وسلم أقبل على من معه فقال :

« أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ .. »

أجابوا :

« نعم يا رسول الله » ..

قال :

« أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم » ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٣/٢
والاصابة : ٩١/٨ ـ والسيرة : ٣١٢/٢

وأضاف بعد صمت قصير :

« انه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت » (١) ..

« ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن‌خالتها، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة :

ـ يا رسول الله ، ان أبا العاص ان قرُب فابن عم ، وان بعُد فأبو ولد ، واني قد أجرته ..

فرنا اليها الأب الكريم في عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :

ـ أي بنية ، أكرمي مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فانك لا تحلين له (٢)..

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما ، فأتبعاه بصريهما حتى اذا بعد ، التفت كل منهما الى صاحبه ، وقالت زينب لائمة :

ـ هان عليك فراقنا يا أبا العاص ..

فأجابها وهو يمسك قلبه :

ـ معاذ الحب يا زينب ، أما والله ما طاب لي من بعدك عيش ..

فسألته :

ـ ففيم اذن هذا العذاب ؟ .. وحتام ؟ ..

أجاب :

ـ حتى يقضي الله فينا أمره ..

وأخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت في مقلتيه ..

همست في ضعف :

ـ يرحمنا الله يا ابن الخالة ..

فرفع وجهه اليها وقال متمهلا :

ـ لقد عرضوا علي بالأمس أن أسلم وآخذ ما معي من أموال فانها

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٩٢/٢ ـ السيرة : ٣١٣/٢ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ ـ وطبقات ابن سعد : ٦٣/٢

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ ـ وتاريخ الطبري : ٢٩٣/١ ـ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤

أموال المشركين ، فأبيت قائلا : بئس ما أبدأ به اسلامي ، أن أخون أمانتي (١) ..

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه ، لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفليه النائمين في سلام ..

* * *

وفي الصبح ، بعث الرسول من يصحب « أبا العاص » الى المسجد ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يجلس في جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال أبي العاص ..

وقال لهم الرسول :

ـ ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذي له فانا نحب ذلك ، وان أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به ..

فأجابوا بصوت واحد :

ـ يا رسول الله ، بل نرده عليه ..

وأسرعوا يفعلون ، حتى ان أحدهم ليأتي بالدلو ، وبالاناء الصغير ، وبالسقاء البالي ، الى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئا (٢)

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

ـ حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي ..

والتفت « أبو العاص » الى دار زينب مودعا من بعيد ، ثم مضى وقد اعتزم أمرا ! ..

* * *

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش اذ رأته يعود بتجارتها رابحة ، وبأموالها مثمرة لم تمس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء في يثرب ، لكنه استمهل القوم حتى أدى الى كل ذي مال منهم ماله ، ثم وقف بحيث يسمع وصاح بأعلى صوته :

---

(١) ابن هشام : السيرة : ٣١٤/٢

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ ـ وتاريخ الطبري : ٢٩٣/٢

ـ يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ ..
أجابوا :
ـ لا .. فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما !..
فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :
ـ فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . والله ما منعني من الاسلام الا تخوف أن تظنوا أني انما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها ، أسلمت (١) ..
وخلف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ، وانطلق مستقبلا يثرب ..

* * *

هَلَّ هلال المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول وصحبه من الحديبية ـ على بعد مرحلة من مكة ـ بعد أن عقدوا الصلح التاريخي الذي بدا كأنه المحاولة الأخيرة لمشركي مكة ، قبل المعركة الحاسمة الفاصلة ..
وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول يوم حالت قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة ليحج الى البيت العتيق مسالما لا يريد قتالا :
« يا ويح قريش ! .. لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فاذا هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ .. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! »
وأشار الى صفحة عنقه ..
وصدق رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب وما يزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين أنها معركة خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون الا أن يلقوا بفلذات أكبادهم وقودا لنار الحرب ..

---

(١) السيرة : ٣١٣/٢ ـ وتاريخ الطبري : ٢٩٣/١ ـ والاستيعاب : ١٧٠٣/٤

وفي قريش أهل وعشيرة ، وفي مكة للمسلمين المهاجرين وطن ورحم وقربى ، وان يثرب لتفتح قلبها قبل ذراعيها لكل من يفد اليها من هؤلاء مسلما ، وتوطيء له في رحابها منزلا وسكنا ..

وها هي ذي تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذي اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة نبي الاسلام ..

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، الى مسجد الرسول ، مارا في طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه : أترى الرسول يرد اليه « زينب » بعد الذي كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الاسلام يجُبُّ ما قبله ، فجمع شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته في استرجاع زينب ..

وأثنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ، وسار الى بيته ومعه ابن الربيع ..

ودعا اليه ابنته ، فردها علي أبي العاص : قيل ردها اليه على النكاح الأول ، وقيل ردها عليه بنكاح جديد (١) .

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال مداه حتى استنفد الصبر وغلب التجمل وأفنى الاحتمال ..

* * *

ومضى عام واحد ..

عام واحد فحسب ، ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا

ماتت « زينب » في مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التي لزمتها منذ طرحت جنينها على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة .

وريع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيها

---

(١) على القول الاول اقتصر الطبري « ٢/٢٩٣ » ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب ١٧٠٣/٤ عن ابن عباس . ثم اتبعه بالقول الآخر وقال : وهو قول الشعبي وطائفة من أهل السر .

ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ أحد منهم على ابعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها محزونا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :

ـ اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن في الآخرة كافورا ..

هنالك غادر « أبو العاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ، ووقف بالباب ملتاعا شارد النظرات ، الى أن جهزوها للرحلة التي لا يئوب منها مسافر ..

وصلى عليها أبوها الرسول في مسجده ، ثم شيعها الى مرقدها حيث أودعوها ثرى يثرب وسوّوا عليها الرمال ..

ورجع « أبو العاص » الى داره التي كانت بالأمس جنة الحب ، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والأشجان ..

وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد في ولده « علي » بعض عزاء ، وفي ابنته « أمامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب ..

وكذلك وجد الرسول في « أمامة » ما يخفف حزنه على « زينب » فكان يأنس بها ويهش لها ، وقد يحملها على عاتقه ويصلي بها ، فاذا سجد وضعها حتى يقضي صلاته ثم يعود فيحملها ..

وحدثت السيدة عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهديت اليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لأدفعنها الى أحب أهلي اليّ . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبي قحافة ! .. لكن رسول الله دعا « أمامة » بنت زينب ، فأعلقها في عنقها ..

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذي يوصف ، فلقد راحت تبكي فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها، وتذكر أيامهما السعيدة في مكة اذ البال خليّ وشمل الأسرة ملتئم ، ثم كان لها ـ بعد سنين ـ بعض عزاء في تسمية وليدتها باسم « زينب » احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذي لا يمل ..

ولحق « أبو العاص بن الربيع » بزينب ، أيام أبي بكر ، في ذي الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة (١) ..

وأوصى بابنته أمامة الى « الزبير » ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد . وقد زوجها الزبير من علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها الزهراء (٢) ، وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهي تطيف به اذ هو مسجى على فراشه ، يمزق القلوب ويفتت الأكباد ..

قالت « أم الهيثم النخعية » :

أشاب ذؤابتي وأذلّ ركبي
« أمامة » حين فارقت القرينا (٣)
تطيف به لحاجتها اليه
فلما استيأست رفعت رهينا

* * *

وكان الامام الشهيد قد قال لأمامة حين حضرته الوفاة : « اني لا آمن أن يخطبك هذه الطاغية ـ يعني معاوية ـ بعد موتي ، فان كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا » ..

فلما انقضت عدتها ، كتب « معاوية » الى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه ، وبذل لها مائة ألف دينار . فلما ذكرتْ ذلك للمغيرة المطلبي الهاشمي ، قال مغضبا :

ـ أتتزوجين ابن آكلة الأكباد ؟ فلو جعلتِ أمرك اليّ ؟

أجابت وقد ذكرت وصية زوجها الامام الراحل :

ـ نعم ..

فقال المغيرة :

ـ قد تزوجتك ..

(١) الاستيعاب : ١٧٠٤/٤ ـ وجمهرة انساب العرب : ٧٠
(٢) المصعب الزبيري ـ نسب قريش ٢٢
(٣) تاريخ الطبري ـ في مقتل الامام علي

وأقامت معه حتى ماتت ، عن غير خلف (١) وكذلك مات أخوها «علي» مراهقا ، كما نص على ذلك المصعب الزبيري ، وابن حزم (٢) .

وكل ما وصل الينا من أخباره ـ فيما بين مولده وموته ـ خبر «زعموا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه خلفه يوم فتح مكة » (٣) .

وبموتهما انقطع عقب « زينب الكبرى بنت النبي » وبقيت قصتها المثيرة ملء سمع الزمان ..

❁

(١) المصعب الزبيري : نسب قريش ـ ٢٢ ـ جمهرة انساب العرب ١٤
(٢) نسب قريش : ١٢ ـ وجمهرة الانساب ١٥
(٣) نسب قريش : ٢٢

الفصل الخامس

رقية ذات الهجرتين

- الخاطبان
- ظلال على الافق
- في بيت أبي لهب
- مع حمالة الحطب
- النجاة
- زواج .. وهجرة
- الهجرة الثانية
- مأتم في يوم النصر !
- الثري الطهور



رقيّة ذات الهجرتين

لم يكن قد مضى على زواج « زينب » من أبي العاص بن الربيع غير وقت قصير ، حين استقبل البيت المحمدي وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين ، وقد خافوا أن يسبقهم اليه كفء كريم من شباب قريش ..

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

ـ ما أرى دورك الا قد حان يا رقية ..

وقبل أن تهم رقية بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردًّا على ما سمعت من كلام أختها : « بل جاء دوركما معا !.. »

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفي حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل ، فستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها ..

وأتيح لها بذاك أن تسمع قول شيخهم أبي طالب :

ـ انك يا ابن العم قد زوجت زينب لأبي العاص بن الربيع ، وانه لنعم الصهر ، غير أن بني عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا ..

أجاب محمد : « صدقت يا عم .. »

واستطرد الشيخ يقول :

ـ وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم ، وما أراك تضن بهما على ابني عمك ..

قال محمد :

ـمعاذ القرابة والرحم، ولكن هلا أمهلتني يا عمّ حتى أتحدث في هذا الى ابنتيَّ ؟..

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل أسرعت تعــدو الى أختيها في بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير ..

ووجمت الاختان لما سمعتا ، فقد كان الأمر مفاجأة غير متوقعة ، ومن ثم تعطلت مشاعرهما واستغرقهما جمود صامت ، ثم راحت كل منهما تنظر الى الاخرى ، وكأنها تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتد اليهما بغير جواب ..

هنالك التفتتا معا الى « فاطمة » وقالتا بصوت واحد :

ـ فهل عرفت لأي أبناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

أجابت الصغيرة :

ـ كلا ، فما أطقت صبرا بعد أن سمعت حديث الجد ، وبادرت اليكما بالنبأ دون انتظار لما وراءه ..

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها تحدث نفسها :

ـ وماذا يعنيني من اسم الخاطبين ؟ ليكونا من يكونا ، فلن يتغير الموقف في كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسي ، وتنتزع رقية وأم كلثوم من بيتنا كما انتزعت زينب من قبل ، وتنتقلان الى دار أخرى غير هذا الدار ، وأبقى هنا وحدي ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلتمس أختيها ، ولم يفت الأم في اشتغالها بالأمر المهم ، أن صغيرتها فاطمة تبكي ، فانعطفت اليها تسألها في حنان :

ـ ما يبكيكِ يا صغيرتي ؟..

أجابت وهي تتشبث بها معانقة ·

ـ لا تدعي أحدا ينتزعني منك ومن أبي ، فلست أطيق فراقكما ..

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، وأجابتها :

ـ كلا ، لن تتركينا يا حلوة ، حتى تريدي أنت !..

فصاحت « فاطمة » بملء سذاجتها :

ـ لكني لن أريد !..

وعقبت الأم هامسة في دعابة وشجو :

ـ كذلك تقولين الآن يا صغيرتي ، وكذلك كنا نقول من قبل ..

وأسبلت جفنيها حالمة ، وارتدت بها الذكرى الى أربعة عشر عاما مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وصممت على ألا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم اليها خاطبا ، بل كانت هي التي سعت اليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس، ولا ملقية بالا الى ما يحتمل أن يلقاها به المجتمع القرشي ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهي التي ردّت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هي تقف بعد بضعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذي لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهي تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين !..

وآبت من حلمها الهنيء الذي ما تزال في نشوة منه ، فاذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

ـ من يكون الخاطبان يا أم ؟..

أجابت في ايجاز وهي ترنو الى رقية وأم كلثوم ، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان :

ـ عتبة وعتيبة ، ابنا العم عبد العزّى (١) .

وأطالت النظر الى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا الى غرفتهما في سكون ، دون أن تنبسا ببنت شفة .

وتبعتهما فاطمة ..

وبقيت الأم وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدري سببه ، فعللته

---

(١) هذا هو اسمه ، وقد غلبت عليه كنيته « ابو لهب » بعد ذلك . وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية ، وجدته لامه : هند بنت عمرو بن كعب ، من تيم بن مرة ـ راجع جمهرة انساب العرب : ١٨ ـ ذخائر

بقرب فراقها لابنتيها ، على انها ما لبثت بعد فترة تأمل ، أن عرفت فيم انقباضها . لقد كانت لا تستريح الى « أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس » زوجة عبد العزى وأم ولديه ، ففيها شيء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان .. وفيها كذلك صلف أحمق وطيش أهوج ينأيان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السمت الجليل الذي يغلب على السيدات القرشيات ، وقد أشفقت « السيدة خديجة » على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما لهما بها قبَل وما تزالان صغيرتين ، ولو أن الأمر بيديها لحالت دون اتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى ان هي فعلت ، أن تثير الهاشميين عليها ، وتتعرض لاتهامهم أياها بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وآله من أواصر القربى ..

والسيدة خديجة الى جانب هذا ، تعرف لأم جميل انتماءها الى بيت قرشي كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وانها لقادرة على أن تفعل ، وحسبها أن تتناولها بلسانها السليط وتنطلق في المجتمع القرشي متحدثة بما شاءت وشاء لها حقدها من مفتريات ..

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضي الى زوجها بمخاوفها ، فما اعتادت قط أن تخفي عنه شيئا مما يهجس به خاطرها أو يجول في سريرتها لكنها كرهت أن تشغل محمدا بهذه الهواجس ، وهي تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وانها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ، أن هناك أمرا خطيرا يشغله ، وان لم تدر كنه هذا الأمر ، ولا هي بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبل أن يفعل ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها أن توفر له ما يحتاج اليه من هدوء وسلام ، وأن تحوم حوله من غير أن تثقل عليه ، وترمقه في وحدته بعين ساهرة ، دون أن تقتحم عليه هذه الوحدة ..

وما كان لها وهي الحريصة على طمأنينته أن تعكر هدوءه بمخاوفها من أم جميل بنت حرب ، أو تشغله بالصراع بين حرصه على هناءة ابنتيه ،

وبين برّه بقومه واحترامه لأعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشمية ، أو تعرضه ـ وهو في حالته تلك ـ لعداوة عمه عبد العزي وبغضاء امرأته.

وفي الغرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، وأختهما الصغرى ترقبهما في حيرة : ان الأمر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح في غبطة وعلى استحياء ، أما رقية وأم كلثوم فتبدوان أقرب الى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة أن تميز بين زواج قام على المودة والتعارف والألفة، وآخر تعقده أواصر العشيرة وروابط الدم لا غير ..

ولم تتبادل الأختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن أفكارهما كانت تدور بلا ريب في مدار واحد : ما بال الأسرة تتعجل زواجهما ، هلا أتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار أم جميل ؟..

وفي الحق انهما ما أنكرتا من أمر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما بعد من فتية آل هاشم الأمجاد ، ولهما كذلك في بني عبد شمس عز الخؤولة وصراحة النسب القرشي الكريم ، أما العم عبد العزي ، فله ـ الى جانب حسبه وثرائه ـ مكرمة سابقة هيهات أن يجحدها آل محمد ، فانه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله ، حتى أعتق جاريته « ثويبة » التي حملت اليه البشرى السعيدة ..

وما غاب شيء من هذا عن بال رقية وأم كلثوم ، لكنهما رغم ذاك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم ، أيكون هذا لأنهما لم تألفا بعد الوضع الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ أم لعلهما تكرهان أن تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « أم جميل » ذات السمت السوقي والطبع الجامح الحاد ؟.. أو من يدري ، لعلهما أحستا بهدى الفطرة ، فطرة حواء التي قلما تخطىء في مثل هذا ، أن لأم جميل على ولديها من السلطان ما يجرح عزة رجولتهما ، ان لم يهدر شخصيتهما اهدارا ..

وقالت أم كلثوم لرقية :

ـ انك لتعلمين أن أبانا لن يقضي هذا الأمر دوننا ، فماذا ترينك فاعلة ؟ ..

فشحب وجه رقية وهي تجيب :

ـ لست بالتي تعق أباها ، فتعرضه للحرج أمام أهله وعشيرته الأدنين ..

ثم رنت الى أختها وقالت تشجعها في رقة وعطف :

ـ لا عليك يا اختاه ، فسنكون معا ..

* * *

وكذلك تم الأمر في هدوء مشوب بالقلق ، وبارك محمد ابنتيه ثم تركهما في حراسة الله ورعايته ، وانصرف الى ما كان يشغله من تعبد وتأمل ..

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير في زوجها الحبيب، وقد ازداد ميلا الى الوحدة واغراقا في التأمل ونزوعا الى الصمت ، وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذي يكتمه حتى عن خديجة ، موضع حبه وثقته وسكنه ..

ليته يدعها تشاركه الهمّ وتحمل معه العبء الذي تحسه ثقيلا باهظا ! ليته يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفضي اليها بالذي يشغل باله!

وفجأة ، لاح لها في هدأة الليل قبس من نور أضاء الظلمة التي أغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها في ذلك الصمت العميق ، صدى من قول ابن عمها « ورقة بن نوفل » لها ، وقد استبطأ أمرا توقعه ، بعد أن سمع حديث ميسرة عن محمد في رحلتهما الى الشام :

لججتُ وكنت في الذكرى لجوجا
لهَمٍّ طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجـــة بعـــد وصف

فقـــــد طـــال انتظـــاري يا خديجا

ببطـــن المـــكتين على رجـــائي

حديثك أن أرى منـــه خـــروجا !

ويظهـــر في البـــلاد ضـــياء نـــور

يقيـــم به البـــرية أن تمـــوجا

فيـــاليتني اذا ما كـــان ذاكـــم

شهدتُ فكنت أولهـــم ولوجـــا (١)

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهـاجع ، فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد أن ألح عليها السهاد ..

ومضت أيام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وان بقيت بجسمها في البيت ، تعد له زاده، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب.

وقد تذكر ابنتيها رقية وأم كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لهما واشفاقا عليهما مما قد تلقيان في عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث أن تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الأمر الجليل المرتقب ..

* * *

ولم يكذب السيدة خديجة ظنُّها ..

فما كاد محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو الى الدين الجديد ، حتى أخرجت « رقية وأم كلثوم » من بيت أبي لهب ، وردتا الى بيت أبيهما ..

وكانت قريش قد ائتمرت بالرسول في بناته قائلة :

ـ انكم قد فرغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن ..

---

(١) السيرة : ٢/٢٠٣

ومشوا الى أصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :
ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت ..
فأما « أبو العاص » فأبى مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا ، وأما ابنا أبي لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد » (١) .

وفي الحق ، ان ابني أبي لهب لم يكونا بحاجة الى سعي من قريش في طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « أم جميل بنت حرب » من قبل ، حين أقسمت ألا يظلها وبنتي محمد سقف ، ثم ما زالت بزوجها « أبي لهب » حتى أثارت حفيظته على البنتين البريئتين ، فقال لولديه :

ـ رأسي من رأسيكما حرام ان لم تطلقا ابنتي محمد ..
وكان الظن بابني العم ألا يفعلا ..
بل كان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف من حفيدتي أخيـــه عبد الله ، وابنتي محمد الذي ابتهج بمولده وأعتق جاريته حين بشرته به ..
لكن « أم جميل » كانت وراءه ، تسوقه أمامها مسلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الارادة ، وتسمم الدم الهاشمي الذي يجـري في عروقه ، وتنسيه ما توجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ ..

لكأنما أرادت هذه العبشمية أن تكيد لبني هاشم ، الذين استأثروا بأكثر المجد والسلطان دون قومها بني عبد شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق أواصرهم وتضرب بعضهم ببعض ..

أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود ، أن تشفي غليلها من « خديجة بنت خويلد » التي كانت ملء العيون مهابة وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليها سعادتها التي كانت مضرب الأمثال ..
ولم يكفها أن ردت اليها ابنتيها طالقين ، بل خرجت ومعها زوجها أبو

---

(١) السيرة : ٢/٣٠٧ ـ وانظر معها الاصابة : جـ ٨

لهب الى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما رؤي أحد أشـد عداوة منهما لنبي الله ، ولا بلغ أحد من أذاه قدر ما بلغا ، ولا سُمع أن أحدا من بني هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب !..

وانه لموقف يدعو حقا الى الدهشة والعجب ..

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقي أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله او يسلموه ..

أقبل حمزة بن عبد المطلب ، أخو أبي لهب ، ذات يوم متوشحا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :

« يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم ابن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره » ..

فاحتمل حمزة الغضب ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ واندفع غير ملق بالا الى أحد في الطريق ، حتى عثر بأبي الحكم جالسا في القوم بالبيت العتيق، فأقبل نحوه حتى اذا قام على رأسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

« أتشتمه وأنا على دينـه أقـول ما يقول ؟.. فردَّ ذلك علـيَّ أن استطعت ! » (١) .

وهكذا أسلم حمزة ، لأنه لم يطق أن يؤذَى ابنُ أخيه بمرأى منه أو مسمع !

وكذلك لم يطق أحد من بني هاشم أن يخذل محمدا ، سواء في ذلـك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير أبي لهب !

نقل السهيلي رواية عن ابن عباس :

« لما انزل الله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين ، خرج رسول الله صلى الله عليـه وسلم حتى أتى الصفا فصعد عليـه وهتف : واصباحاه ! فلما اجتمعوا اليه قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا

---

(١) السيرة ٣١٢/١ ، ومعها الاصابة ، ترجمة حمزة « رضه » وتاريخ الطبري : ٢٢٤/٢

الجبل ، أكنتم مصدقيّ ؟.. قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فانبرى له أبو لهب قائلا : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟.. فأنزل الله تعالى :

« تبَّت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » ..

ذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر ..

قال ابن اسحاق :

« فذكِر لي أن أم جميل حمَّالة الحطب . حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر من حجارة ـ قطعة تملأ الكف ـ فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ، فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله اني لشاعرة . ثم قالت :

مذمما عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

وانصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني (١) .

وفي حمالة الحطب ، يقول « الأحوص ، الشاعر الأنصاري » :

ما ذات حبل يراه الناس كلهم
وسط الجحيم ولا يخفى على أحد

كل الحبال، حبال الناس، من شَعَر
وحبلها وسط أهل النار من مسد (٢)

---

(١) السيرة : ١/٣٨٢

(٢) نسب قريش : ٨٩

وربما استيقظ ضمير أبي لهب مرة ، وغلا في عروقه الدم الذي يحن الى ابن الأخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بني هاشم . حدثوا أن أبا سلمة المخزومي ابن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله أبي طالب ، حين أرادت قريش أن تفتنه عن اسلامه ، فمشى رجال من بني مخزوم الى أبي طالب فقالوا له :

ـ لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : انه استجار بي وهو ابن اختي ، فان أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي ..

وكان أبو لهب حاضرا ، فقال مغضبا : يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ !.. ما تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنَقومَنَّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد ..

فآثروا أن يبقوا على نصره لهم وقالوا :

« بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة » (١) .

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة أن « أبا لهب » وقف مثلها مرة أخرى ، بل ظل على مظاهرته أعداء قومه حتى مات ..

وأعشى سحر « أم جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته ورجولته ، بل وراء الانسانية جميعا ..

حدثوا أن بني هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار في شعب أبي طالب ، كانوا اذا قدمت العير مكة وأتى أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي ، فأنا ضامن ألا خسار عليكم ..

فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع المسلم او الهاشمي الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء

---

(١) السيرة : ٢/١٠

يطعمهم به . ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بني هاشم جوعا وعريا (١).

وأدع الخبر بغير تعليق ، وأدع معه ذلك الاستطراد الطويل الذي مضيت فيه بالرغم مني ، مستثارة بما قرأت عن أبي لهب وأنا ألتمس أخبار ابنتي محمد ، في زواجهما الخائب بابني ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما الى أبويهما ، شفاء لحقد حماتهما أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب ..

وبين هاتيك السطور التي نقلتها ، أقرأ ما لم يكتب عن معاملة هذه العبشمية لابنتي محمد ، اذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما الى بيت أبي لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية أخرى (٢) ..

وأكاد ألمحهما وراء هذا كله ، في تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الأول الذي تظله أجنحة الحب والسلام ، الى بيت كهذا حيث تتلقاهما ــ وهما في جلوة العرس ــ امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقي عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى في سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها ..

فاذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، أساءت الظن بوداعتهما فحملتهما محل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء ..

ولم تفكر احداهما في الشكوى لأبويهما ، فقد كانتا أبر بهما من أن تروعهما بالحديث عن أفاعيل « أم جميل » ..

وكان الظن أن تجد كل منهما في أختها متنفسا لكربها وموضعا لسكاتها ، لولا أن « أم جميل » كانت هنالك دائما ، تقف لهما بالمرصاد ،

---

(١) السيرة جـ ١ وانظر كذلك مسند أحمد ٣/٤٩٢ ، ٤/٣٤١ ، وتاريخ الطبري : ٢/٢٢٥

(٢) ابن حجر : الاصابة : ٨/٣٨

وتأبى ما وسعها الجهد ان تخلو الأخت الى أختها ، ولو استطاعت لأقامت بينهما سدا ..

وهكذا احتملت ابنتا محمد في صمت وصبر ، حتى أراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها النكدة !..

على أن الحياة في بيت أبيهما ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت قد تغيرت عما ألفتا في أمسهما السعيد ، فولى عنهما ما كانت تنعم به من راحة وهدوء ..

أو لم يقل الرسول لزوجته : « مضى عهد النوم يا خديجة ! » بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب في سبيل الله ، وان النبي ليعود الى بيته كلما خرج ، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله ، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى ، حتى يزول ما به من حزن ..

ومع كل هذا العذاب ، طاب لرقية وأم كلثوم ان تشاطرا أبويهما ما يلقيان في سبيل الله ، وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الأذى ، واستعذبتا الألم والتضحية في تلك المعركة المقدسة ..

* * *

وخاب ظن حمالة الحطب وظن المشركين من قريش ، فلم يُشغل «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما الى بيته ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابني حمالة الحطب وأبي لهب ، ثم ما لبث أن أبدلهما خيرا منهما : زوجا صالحا كريما ، من النفر الثمانية الذين سبقوا الى الاسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ذلك هو « عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس » (١)

أعزه الله في الجاهلية فكان من أعرق فتيان قريش نسبا ، يلتقي مع الرسول الكريم من جهة الأب عند عبد مناف بن قصي ، ومن ناحية الأم

---

(١) نسب قريش : ١٠ صحيح مسلم : ٢٨/٤ ، ٢٩ وصحيح البخاري : ك ٦٢ باب ٥ ، ٧ ، ١/٨ باب ١١٩

عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لأمه ، هي البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبي (١) ..

وكان الى هذا النسب العريق ، بهي الطلعة ، فخم السمت موفور المال، رضي الخلق ..

ثم أعزه الله في الاسلام فكان من السابقين الأولين (٢) ..

* * *

تقدم « عثمان » الى رسول الله يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه صلى الله عليه وسلم ابنته « رقية » ، ولم يُر زوجان قط أجمل منهما ولا أبهى ..

ولم تشارك « مكة » هذه المرة في الاحتفال بالعرس الكريم ، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر في هذا الخصم العنيد الذي يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا ، ويتحدى في قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والبأس ! ..

وعجبت لهؤلاء النفر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولا يترددون في افتدائه بالمهج والأرواح ، بل يرون الاستشهاد معه أو في سبيله مجدا وانتصارا ..

من هؤلاء ، من كان بالأمس له عدوا، ومنهم من تردد أمدا قبل أن يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا ..

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة التعذيب في مستهل المبعث ، فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد الى دين الكثرة الغالبة ! (٣) ..

---

(١) الاستيعاب : ١٠٣٨/٤ ـ ونسب قريش ١٨
(٢) السيرة : ٢٦٧/١
(٣) تاريخ الطبري : ٢٣٠/٢ ـ والسيرة : ٢٣٩/١

وطال ليل قريش وهي تذكر « عثمان بن عفان » الذي رضي أن يبيع أهله وعشيرته ودنياه في سبيل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلقى أصحاب « محمد » من أذى ، ويقدر أنه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بالنبذ من المجتمع القرشي الذي أحله مكانا مرموقا ..

* * *

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى أمية : « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، موطن آبائه ومهد طفولته ومناط عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء ..

« ذلك أن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ! » ..

فكان « عثمان بن عفان » أول من هاجر الى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة « رقية » على قرب عهدهما بالزواج (١) ..

وتجلد المهاجر وهو يلقي نظرة وداع على البلد الحبيب ..

أما « رقية » فلم تملك دمعها ، وهي تطوف بمغاني صباها مودعة ، وتعانق أباها وأمها وأخواتها الثلاث ، قبل أن تتبع زوجها الى ذلك البلد النائي المجهول ..

وتمهلت في مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ما تبغي ..

وكذلك سارت الجمال وئيدة تريد أن تتزود من عبير أم القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارية الجرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادي :

الأهل والأوطان ... فراقهم صعب
لكنه الايمان ... فداؤه القلب

---

(١) السيرة : ١/٣٤٤ والطبري : ٢/٢٣١

والروح والأبدان فليقبل الـــربُّ
فليقبل الربُّ

وهز الصوت الشجي قلب « رقية » فأصغت اليه وهي ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة لا يزال يلوح من بعيد ، فاذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو اليها في عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس في خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة وضيئة وقالت :

ـ الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا في جوار البيت العتيق ..

ثم استدبرت أحب أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق أن « عثمان » الى جانبها ، وأكرِمْ به صاحبا وعشيرا ..

* * *

وفي أول مرحلة من الطريق ، أناخت الابل ريثما تجمـع المهاجـرون الأولون في سبيل الله ، فبلغت عدتهم عشـرة (١) ، فيهم من بنـي عبد شمس ـ آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبي سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية ..

ومن بني أسد بن عبد العـزى بن قصي ـ أخـوال رقية : الزبير بن العوام بن خويلد ..

ومن بني عبد الدار بن قصي ـ أبنـاء عم عثمان ورقيـة : مصعب ابن عمير بن هاشم عبد مناف بن عبد الدار ..

ومن بني زهرة ـ أخوال الرسول : عبدالرحمن بن عوف الزهري ..

ومن بني مخزوم : عبد الله بن عبد الأسد ، ابن عمة الرسول ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجته « هند بنت زاد الركب ، أبي أمية بن المغيرة المخزومي » التي تزوجها الرسول بعد « أحد » ..

---

(١) السيرة : ١/١٤٥ · وفي رواية انهم كانوا احد عشر رجلا وأربع نسوة « الطبري : ٢/٢٣١ »

وتبادل المهاجرون الأولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحي صاحب الرسول ، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحمي رسوله من كيد المشركين ..

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة في سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوض عمن فارقوا من الأهل والأحباب ، في هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والاخوان في الدين والهجرة ..

* * *

ورحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ، وأوسعت لهم في أرضها مكانا سهلا ، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا في مهاجرهم ..

وسر « رقية » أن تجد فيهم من بني هاشم : ابن عم أبيها « جعفر بن أبي طالب » ، ومعه امرأته « أسماء بنت عميس » ..

ومن بني أمية ، آل زوجها عثمان : عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخاه خالدا ، ومعهما زوجتاهما ..

ومن بني أسد : عبد الله بن جحش ـ ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ـ وأخاه عبيد الله ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، التي تزوجها الرسول بعد سنين ..

ومن أخوالها بني زهرة : عامر بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف ابن زهرة ..

ومن بني عامر : ثمانية نفر منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته « سودة بنت زمعة بن قيس » التي تزوجها الرسول بعد عام الحزن ..

* * *

وأحاط المهاجرون العشرة الأولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا

الرسول ، وكيف حال الأهل والصحابة بمكة ؟!

قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا ..

وحدثوا أن « النبي » افتقد أنباء ابنته ، حتى أتت امرأة أخبرته صلى الله عليه وسلم أنها رأت رقية وزوجها ، فقال :

« منحهما الله ، ان عثمان أول من هاجر بأهله » (١) .

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل أمنهم « النجاشي » وأحسن جوارهم ، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا ..

هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس » صوته منشدا وهو يرجو أن يسمع من بمكة : (٢)

يا راكبا بلغن عني مغلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدينِ

كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتون

انا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجي من الذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ي في الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى الى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغي قريش ، وقال : (٣)

أبت كبدي ، لا أكذبنْك ، قتالهم
عليَّ ، وتأباه عليَّ أناملي

وكيف قتالي معشرا أدبوكم
على الحق أن لا تأشبوه بباطل

وقال « عثمان بن مظعون » يعاتب ابن عمه وكان شريفا في قومه :

---

(١) الاصابة : ٨٣/٨

(٢ ، ٣) السيرة : ٣٥٤/١ ، وانظر معه في الاصابة ترجمة عبد الله بن الحارث

أأخرجتني من بطن مـــكة آمنـــا
وأسكنتني في صـرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لا يواتيـك ريشهـــا
وتبري نبالا ريشُهـا لك أجمعُ
وحاربت أقوامـــا كرامـــا أعـزة
وأهلكتَ أقواما بهـــم كنت تفزع
ســـتعلم ان نابتْك يومـا مُلـمَّة
وأسلمكَ الأوباش، ماكنت تصنع! (١)

وبلغت هذه الأصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا فوق ما بها من فزع ..

وأطار النومَ من عيونها ، أن أصحاب محمد قد أمنوا بأرض الحبشة وأصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون بينهم أن يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكي يفسدوا ما بين النجاشي وبين المهاجرين المغتربين ..

ووقع اختيارهم على « عبد الله بن أبي ربيعة » ــ والد عمر ــ و «عمرو ابن العاص بن وائل » وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن بقي الى جانبه من أصحابه وآله ..

وأشفق « أبو طالب » على من بأرض الحبشة ــ وفيهم ولده جعفر ، وولدا ابنتيه أميمة وبرة ، ورقية حفيدة أخيه عبد الله ــ من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشي » ويحضه على أن يحمي جواره :

ألا ليت شعري كيف في النـأي « جعفر »
وعمرو ، وأعـداء العـدو الأقاربُ ؟..
وهـل نالت افعـال النجـاشي جعفـرا
وأصـــحابه ، أو عاق ذلك شـاغب ؟

(١) السيرة : ١/٣٥٥

تعلم ، أبيت اللعن ، أنك ماجد
كريم ، فلا يشقى لديك المجانب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة
ينال الأعادي نفعها والأقارب (١)

فهزت قريش رأسها لمّا سمعت نداءه ، وقال قائلها مستهزئا : ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وماذا تجدي الكلمات مع الهدايا التي حملها مبعوثا مكة الى النجاشي وبطارقته ؟

* * *

وكان المهاجرون في مقامهم النائي ، يرهفون أسماعهم الى ما تناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون اليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبي ربيعة الى هناك والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر ..

ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشي ليتحدث اليهم في أمر ذي بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

ـ ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟

وكان الجواب الذي أجمعوا عليه :

ـ نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ..

وسعت المهاجرات الى منزل رقية بنت النبي ، وقد خامرهن شيء من القلق ، فاذا لديها « أم سلمة » هند بنت زاد الركب » (٢) تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين ..

قالت :

ـ هو ما سمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها أنا جاورنا بالحبشة خير جار : أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما النجاشي فينا ،

---

(١) السيرة : ٣٥٧/١
(٢) تزوجها الرسول بعد وفاة زوجها أبي سلمة المخزومي ، الطبري : ٤٢/٣

ثم يقدما الى النجاشي هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا.

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا .. وقالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ـ أبصر بهم ـ وأعلم بما عابوا عليهم ..

فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم ..

« فغضب النجاشي وقال : لاها الله !.. اذن لا أسلمهم اليهما ولا يُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني .. » (١)

وهذا هو قد أرسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا ..

* * *

وطال انتظارهن قبل أن يعود الرجال من قصر النجاشي ويحدثوا عما كان ..

استقبلهم النجاشي وقد جمع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسألهم :

ـ ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟..

---

(١) السيرة : ١/٣٥٧ ـ ومعه السمط الثمين للمحب الطبري ٨٦

فأجاب عنهم « جعفر بن أبي طالب » :

ـ أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » (١) .

فصمت النجاشي مليا ثم سأل :

ـ هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

أجاب جعفر : نعم ..

قال النجاشي : فاقرأه علي ..

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم ..

قالوا : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

ـ ان هذا والذي جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة . والتفت الى عمرو وعبد الله ، رسولي قريش ، قائلا :

ـ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم اليكم ولا يُكادون ..

فانصرفا ، أما عمرو بن العاص فلم يفقد ثقته في دهائه ولا استسلم

---

(١) السيرة : ١/٣٥٩ ، وتاريخ الطبري ، حوادث الهجرة الى الحبشة

للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم ـ يعني شجرتهم التي منها تفرعوا ـ ..

وأما عبد الله بن أبي ربيعة ، فأخجله أن يكون النجاشي الغريب ، أبر بجيرانه منه ، وما فيهم من لا يمت اليه بقربى أو رحم ..

قال لعمرو : لا نفعل ، فان لهم أرحاما وان كانوا قد خالفونا ..

ورد « عمرو » في اصرار :

ـ والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ! (١)

ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص يدبر لغده ، أما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشي غدرا ، وقد أجمعوا رأيهم أن يجيبوه اذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم به نبيهم محمد ، وليكن بعد ذلك ما يكون ..

فلما أصبحوا دعاهم النجاشي وسألهم عما يقولون في عيسى فأجاب جعفر :

ـ نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول ..

قالوا : فمد النجاشي يده الى الأرض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :

ـ والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ..

ثم أمسك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعمرو وصاحبه، حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي ، من سبَّكم غرم ـ كررها ثلاثا ـ وما أحب ان لي جبلا من ذهب ، واني آذيت رجلا منكم » ..

والتفت من بعد ذلك الى بطارقته قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حتى رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناسَ فيَّ فأطيعهم فيه » (٢) ..

(١) السيرة : ١/٣٦٠ ، ٣٦١
(٢) السيرة : ١/٣٦٢

ورجع عمرو وعبدالله الى قريش بخفَّيْ حنين ..
وأقام المهاجرون مع خير جار ما شاء الله لهم أن يقيموا ..

* * *

على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع الى مكة ، وتحن الى من تركوا بها من الأهل والأحباب ..

وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على أنباء الرسول وصحبه في حربهم المقدسة مع عبدة الأوثان ..

ولعل السيدة «رقية» كانت أشد المهاجرين حنينا الى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما افتقدتهم آنذاك ، فلقد أثرت الأحداث الشداد التي مرت بها في صحتها أيما تأثير ، فأسقطت جنينها الأول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والاعياء ..

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الأنباء من مكة ، ان قريشا يئست من الرسول وصحبه ، فرفعت الحصار المنهك الذي ضربته على الهاشميين ..

وأضافت الشائعات أن قريشا ثابت الى رشـدها لما رأت من عجيب ثبات النبي وصدق ايمان الذين أتبعوه ، فمالت طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت أخرى فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو أمر محمد وينتشر الدين الجديد ..

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذي قيل وشاع ، فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن ..

ولم يقو بعضهم على مغالبـة ذلك الحنين المستثار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق الى أحب أرض وأعز موضع ، على حين آثر آخرون أن يتلبثوا في مهاجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قريش للرسول صلى الله عليه وسلم ، واسلام كثرة منها ..

سار الركب في طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجته السيدة « رقية » والزبير بن العوام ابن أخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ، وأبو سلمة بن عبد الأسد معه امرأته « أم سلمة ، هند بنت أبي أمية » ، والسكران بن عمرو معه امرأته « سودة بنت زمعة » ..

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون انفسهم بلقاء الأحباب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم في الوطن من أنس وطمأنينة ..

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين الى البلد العتيق ، خدرتهم النشوة وتركوا خيالهم يحملهم على أجنحته السحرية الى الوطن.

الى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..

فهناك على الصخور الملتهبة . رأوا بعيونهم التي ما زالت بها بقية من خدر الحلم ، نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تسومهم زبانية قريش سوء العذاب ..

وأخذت العائدين صيحات من هنا ومن هناك ، تعدهم بالويل والهلاك وصمت الحادي ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الأحلام ..

* * *

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا أدبر النهار دخل بعضهم مكة في جوار من الوليد بن المغيرة المخزومي ، أو أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي..

وعلى أثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الأقدس، وعلى وجوههم نور الاستشهاد ..

وآبت « رقية » الى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد ..

وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ـ أين أبي ، وأين أمي ؟..
أجابتا :
ـ أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة ..
ثم اختلجت شفاههما في تأوه مكتوم ..
وعادت رقية تسأل وقد أوجست خيفة :
ـ وأمي ، أين هي ؟
فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، أما « فاطمة » فغادرت الغرفة وهي تنشج باكية ...
هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الأطراف ..
الى ان جاء أبوها صلى الله عليه وسلم ، فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخري الذي جثم على قلب فتاته ..
وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأساها ، ثم أوت الى الصدر الرحب الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر ...

* * *

لم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ..
هاجر أبوها النبي الى يثرب ، وكذلك هاجرت هي في صحبة زوجها « عثمان بن عفان » .
وفي دار الهجرة ،وضعت طفلها عبد الله بن عثمان (١) ، فملأ عليها منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد أن تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصابها في أمها ، وما ذاقت في هجرتها من شجن الغربة ..
وحسبت انها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد ..

---

(١) نسب قريش : ٢٢ والاصابة جـ ٨٣/٨ . والاستيعاب : ١٠٣٧/٣ .

مات « عبد الله » طفلا بنقرة من ديك ، فترنحت رقية تحت وطـأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى ..

وأقام « عثمان » الى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى اذا تناهى الى سمعه صوت داعي الرسول يؤذن أن حي على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والأنصار للقاء عدوهم في « بدر » ود عثمان لو لبى الداعي الكريم ، لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التي كانت تعالج مـا يشبه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر مكرها ، وراح يشهـد معركة الموت في أعز من له ! (١)

وقسا الصراع وطال ، ثم رفت روحها على شفتيها في حشرجة وانية ، فحطت عيناها على زوجها وغابت عن الوجود ..

وقام « عثمان » فأغمض عينيها ولثم جبينها وأناملها ثم أصغى الى هتاف البشرى بانتصار المسلمين في « بدر » ..

* * *

وجاء الأب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادي الحزن والأسى ، ثم انثنى في رفق نحو ابنته « فاطمة » التي أكبت على مضجع أختهـا تبكي ، فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح دموعها بطرف ثوبه (٢) ..

وهنا لم تتمالك النساء أنفسهن أمام المشهد الفاجع ، فانسحبن خارج الغرفة مجهشات بالبـكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصطنعن في حضـرة الرسول من تجمل وتصبر ..

وهاج نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فزجرهن في عنف وقسوة محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينة ووقار ، لكن الرسول الرحيم كفه عنهن قائلا :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » ..

---

(١) الاصابة ٨٣/٨ ـ وتاريخ الطبري : حوادث السنة الثانية للهجرة • والطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢ •

(٢) الاصابة : ٨٣/٨ •

وصلى الأب النبي على ابنته رقية ..

وشيعت « يثرب » جثمان بنت الرسول ، ذات الهجرتين ، حتى ووريت الثرى الطيب الذي ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء « بدر » ..

وضرب أبوها الرسول ، لصهره « عثمان » بسهمه وأجره ، مما أفاء الله على المسلمين في « بدر » اذ كان انما تخلف عن شهودها ، لمرض « رقية » الراحلة (١) ..

❋

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢ .

الفصل السادس

أمّ كلثوم

- عودة الى البيت
- الهجرة
- مع رقية دائما
- الرجل



امّ كلثوم

أراد الله بها خيراً ففارقها « عتبة بن أبي لهب » عدو الله ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها أختها العزيزة « رقية » التي ما لبثت أن تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه الى الحبشة ..

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » في بيت أبيهما الرسول بمكة ، تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل ، وتستقبلان معها البطل النبي اذ يعود كل يوم الى بيته ، وعلى جسمه الكريم ندوب المعركة ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها ، فيحطن به في بر وحنو ، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه الآثار ، وان يروحن عنه في الفترات القليلة التي كان يسكن فيها الى بيته وأهله ..

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع أسرتها في صميم معركة الاضطهاد الأولى التي بلغت أقسى ذروتها حين يئست قريش من خذلان أبي طالب لابن خيه ، وخاب سعيها لديه كيما يسلمه الى أعدائه فيبطشوا به ..

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وأسلم عمر بن الخطاب ، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم، فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بني هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم في وثيقة علقوها في جوف الكعبة (١) ،و خرج محمد بأسرته ومن تبعه الى شعب أبي طالب ، وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، الا أبا لهب ..

وهناك عاشوا في ضيق الحصار ، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط

---

(١) انظر حديث « الصحيفة » في السيرة ١/٣٧٥ وفي تاريخ الطبري : ٢/٢٢٥ .

وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل اليهم شيء الا سرا ..

حدثوا (١) أن أبا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي ، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهي مع زوجها الرسول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة في الشعب ، فتعلق به أبو جهل وصاح :

« أتذهب بالطعام الى بني هاشم ؟ .. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » !

* * *

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن أبي وقاص بعد محنة الحصار بسنين :

« لقد جُعت حتى اني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعتُه في فمي وبلعته ، وما أدري ما هو الى الآن ! » (٢) ..

ومن عجب أن ذلك السهم الذي راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع ايمانهم مثقال ذرة ، أو يزحزحهم عن موقفهم من نصرة الرسول قيد شعرة ، وعاد منطلقا الى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا !

ذلك أن نفرا من مشركي قريش ، روعهم الحصار الوحشي المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب ..

وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير ..

حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامري ــ وكان ابن أخي نضلة ابن هاشم لأمه ــ كان يأتي ليلا بالبعير قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير على بني هاشم وبني عبد المطلب ، بما يحمل (٣) ...

وذات ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب يستقبل البعير

---

(١) السيرة : ٣٧٩/١ . تاريخ الطبري : ٢٢٥/٢ .
(٢) ١٧/٢ .
(٣) السيرة : ١٤/٢ .

الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه في ذوي العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش أمها التي علت بها السن وأنهكتها الأحداث وأحست دنو أجلها ، وان بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة ..

وقالت تناجي ابنتها :

ـ ليت الأجل يمهلني حتى تنجلي المحنة ، فأموت قريرة العين راضية .

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

ـ لا بأس عليك يا أماه !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد ..

واستطردت الأم :

ـ أي وربي لا بأس عليّ يا ابنتي ! .. ما من امرأة في قريش ذاقت ما ذقت من نعيم ! .. بل ما من امرأة في هذه الدنيا نالت مثل الذي نلت من مجد : حسبي من دنياي أني زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبي من آخرتي أنني المؤمنة الأولى ، وأني أم المؤمنين ..

ثم أسبلت عينيها وهمست :

ـ اللهم اني لا أحصي ثناء عليك ! .. اللهم اني لا أكره لقاءك ، ولكني أطمع في مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت علي ! ..

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذي كانت تبعثه ذبالة واهية هناك ، وشمل الكون سكون خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه سوى أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التي راحت تتعبد صامتة ..

ثم .. فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع ، ودخل رسول الله بهي الطلعة متهلل الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى في بدنها الكليل فيض من القوة والعافية ..

وأصغت « أم كلثوم » الى ما كان أبوها عليه الصلاة والسلام يحمل من الأنباء ، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد ..

فلقد عاد العم « أبو طالب » في ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس ، ليحدث من في الشعب عما رأى هنالك وما سمع :

قال ان هشام بن عمرو ــ ذاك الذي كان يحمل المئونة الى المحاصرين ليلا ــ مشى الى زهير بن أبي أمية المخزومي ، أخي هند أم سلمة ، وابن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له :

ــ يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ؟ .. أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ، ثم دعوتَه الى مثل ما دعاك اليه من مقاطعتهم ، ما أجابك اليه أبدا ! ..

فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

ــ ويحك يا هشام ! .. فماذا أصنع ؟ .. انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى أنقضها ..

قال هشام :

ــ قد وجدتَ رجلا ..

فسأله : من هو ؟ ..

أجاب : أنا ..

قال زهير : أبغنا رجلا ثالثا ..

فذهب هشام الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟.. أما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدُنهم اليها منكم سراعا ..

فكان جواب مطعم كجواب زهير ..

ومضى هشام بعد ذلك الى أبي البختري بن هشام ، فحدثه بمثل ما

حدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو البختري :

ـ وهل أجد من يعين على هذا ؟ ..

أجاب هشام :

ـ نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدي ، وأنا ، معك ..

فطلب اليه أبو البختري أن يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب الى زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه في بني هاشم وذكر له قرابتـه منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة ..

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخطم الحجون ـ بأعلى مكة ـ وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ «زهير» فيكون أول من يتكلم في مجتمع القوم..

فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :

ـ يا أهل مكة ، أنأكل الطعـام ونلبس الثيـاب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتـاع منهم ؟ .. والله لا أقعد حتى تشق هـذه الصحيفة القاطعة الظالمة ..

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان في ناحية المسجد :

ـ كذبتَ ، والله لا تشق !

فأجابه صوت « زمعة بن الأسود » :

ـ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كُتِبت !

وثنّى أبو البختري :

ـ صدق زمعة : لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ..

وأيدهما المطعم ..

ـ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها..

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقّل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

ـ هذا أمر قُضِي بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان ..

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم ـ بمرأى من القوم ، وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد ـ والتمس الصحيفة ليشقها ، فاذا الأرَضة قد أكلتها فلم تدع منها الا : « باسمك اللهم » (١) ! ..

ووجمت قريش ، وأسقط في يديها وأحست بالسهم الذي راشته يرتد الى صدرها فيمزقه ..

ونهض أبو طالب يسعى الى الشِعب بالبشرى ، وقد ذكر ـ وهو في طريقه من البيت العتيق ـ بنيه الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو ان يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحرَّينا صنعُ ربنا
على نأيهم ، والله بالناس أروَدُ
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت
وأن كل ما لم يرضه الله مُفسَدُ
تراوحها افك وسحر مجمع
ولم يُلْفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا
على ملأ ، يهدي لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم
مقاولة ، بل هم أعز وأمجد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا
على مهل ، اذ سائر الناس رُقَّد (٢)

وأيقظ صوته كل من في الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون للبشرى السعيدة ، وصاح المسلمون منهم : « الله أكبر » ..

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال .. وأصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا الى بيوتهم في

---

(١) انظر حديث « نقض الصحيفة » في السيرة : ٢/١٤ : ١٦ والحوار بنصه منقول منه .

(٢) القصيدة رواها ابن اسحاق ، وعدد ابياتها ستة وعشرون ـ السيرة : ٢/١٧ ، ١٨ .

مكة، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار..

* * *

وفي بيت النبي بمكة ، رقدت السيدة خديجة في فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم ما لبثت روحها أن فاضت ، والنبي الى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم (١) ..

وبناتها الثلاث : زينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل ..

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة ، حملت الى الحجون ، وهنالك أضجعها زوجها الرسول بيديه في حفرتها ، ثم ودعها وآب الى بيته محزونا ، فضم اليه ابنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب الفادح ..

وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به ، فلم يعد له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته في وطنه ، حتى أذن الله له في الهجرة الى يثرب ..

وودع الرسول بناته ، ثم ذهب في ضحوة النهار الى بيت الصديق أبي بكر فاستصحبه ..

وتلبث لحظة قبل أن يفصل عن مكة ، فأشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور ، ثم قال :

« والله انك لأحب أرض الله الى الله ، وانك لأحب أرض الله اليّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما فارقتك » ..

ومضى في طريقه الى الغار يصحبه الصديق ، وترك ابنتيه أم كلثوم ،

(١) الاصابة جـ ٨ ، والسمط الثمين ١٧ .

وأختها فاطمة ، وحيدتين في البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الأسى لولا رحمة الله ..

* * *

وتلكأت الأيام في سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت الليالي حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبي سالما الى يثرب ، ثم ما لبث زيد بن حارثة أن أقبل ، ليصحب أم كلثوم وشقيقتها الصغرى الى دار الهجرة (١) ..

وأمضت بنتا النبي يومهما الأخير بمكة مع أختيهما زينب زوجة أبي العاص ، ورقية زوجة عثمان، يذكرن الأمس السعيد الذي ولَّى وراح..

ثم أغلقن الدار التي شهدت ماضيهن الخلي ، وسعين الى الحجون فروين قبر الأم بدموعهن ..

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها الى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل ..

وألقتا نظرة وداع على مغاني مكة وما تدريان أتكون اليها عودة !

ثم اندمجتا في الركب المهاجر ، وقد خفف عنهما مصاب الفراق أنهما ذاهبتان الى أبيهما الرسول في منزله الكريم بين الأنصار !

* * *

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث ..

وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصرا من « بدر » ، كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية » يوم النصر ..

وأهلّ العام الثالث وما يزال الحزن على رقية جديدا ، وما تزال قريش تبكي قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة ..

وكانت « أم كلثوم » تلمح « عثمان » في هذه الفترة ، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية . .

---

(١) تاريخ الطبري ، حوادث الهجرة .

الى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى الرسول الى بيته يستريح ، فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستثار الغضب ليشكو اليه صاحبيه أبا بكر وعثمان ..

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته «حفصة» بعد أن مات عنها زوجها حصن بن حذافة ، فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم (١) ..

وسمعت « أم كلثوم » أن أباها الرسول قال لعمر ملاطفا :

ـ يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة ! (٢) ..

وخفق قلبها لما سمعت !

فما من امرأة خير من بنت عمر الا بنت النبي ، فهل تشغل مكان أختها « رقية » في بيت عثمان ؟

وعجبت لأن أباها لم يحدثها في هذا الأمر من قبل ، وقد عهدته لا يزوج احدى بناته دون أن يعرف رأيها ..

وعادت بها الذكرى الى ماض بعيد ، يوم وقفت هي وأختها الراحلة « رقية » تصغيان الى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابني أبي لهب في الزواج منهما ..

وقد عُقد الزواج ، ثم واجهت الأختان حظهما المشترك ، الى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب في وقت واحد ..

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأي قدر عجيب يجمع بين الأختين ، لو كُتب لأم كلثوم أن تتزوج هي الأخرى من زوج شقيقتها : عثمان بن عفان ؟!

وبينا هي تحدق ــ شبه نائمة ــ في الخيوط الخفية التي ينسجها القدر ليربط بينها وبين أختها رقية ، دخلت عليها « أم عياش » خادم النبي ، تدعوها للقاء أبيها صلى الله عليه وسلم ..

(١ ، ٢) الاستيعاب ٤/١٨١١ ، ١٩٥٢ . المحب الطبري : السمط الثمين ٨٣ .

وتم عقد زواجها من عثمان ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها » ..

وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب عرس ، شبيه بذاك الذي دخلت به رقية على عثمان ..

وبعث النبي معها « أم عياش » كما بعثها مع أختها من قبل ..

فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها في يقظة أو منام ..

همست في شجن :

« لم يبق يا رقية الا أن ألحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! » ..

* * *

لكنها عاشت ست سنوات ، رأت فيها الاسلام يبلغ أوج انتصاره ، وشاهدت أباها البطل يخرج من معركة في اثر معركة ، مؤيدا مظفرا .. و « عثمان » زوجها معه ، صاحبا ومجاهدا ..

وفي ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، خرج أبوها صلى الله عليه وسلم على راحلته القصواء ، مع نحو ألف وخمسمائة من صحابته ، يريدون « مكة » لقضاء العمرة ، وليس معهم سلاح الا السيوف في القِرَب ..

وتصدت قريش لهم ، تأبى أن يدخلوا مكة ..

وقال الرسول لصهره ذي النورين « عثمان بن عفان » : اذهب الى قريش فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد ، وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهَدْيُ ننحره وننصرف ..

وأمسكت « أم كلثوم » قلبها ، وهي تخشى على زوجها غدر المشركين وساورها القلق ، وهي في انتظار أوبة عثمان ، بعد أن طال غيابه ..

فما راعها الا نبأ ذاع : أن عثمان قد قتل ..

وبادر النبي صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغه النبأ ـ فدعا المسلمين

الى « بيعة الرضوان » وفيها بايع لعثمان رضي الله عنه ، فضرب بشماله على يمينه وقال :

ـ انه ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله (١) ..

لكن لم يطل بأم كلثوم الحزن !

فلقد عاد « عثمان » من رحلته ، ولم يصبه أذى ..

وتم صلح الحديبية . .

وكان « عثمان » ممن لم يرضوا شروطه ..

وحين نحر الرسول هديه وحلق رأسه ، حلق عامة الصحابة ، وقصر نفر ، منهم « عثمان بن عفان » ! (٢)

وقد عز الموقف على « أم كلثوم » وهي تسمع أباها يقول : رحم الله المحلقين ..

قالها ثلاثا :

ولم تطمئن ابنته ، حتى قال من بعد ذلك :

ـ والمقصرين .. (٣)

* * *

وتم النصر الأكبر ..

فتحت مكة ، بعد عامين من صلح الحديبية ، وأدركت « أم كلثوم » هذا الفتح ، كما أدركته أختها « فاطمة » ..

ورق قلباهما لذكرى الراحلات الغاليات : أمهما خديجة ، وشقيقتيهما زينب ، ورقية ..

ثم رحلت « أم كلثوم » .. ماتت في بيت عثمان ، في شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد (٣) ..

ووسدوها ثرى « يثرب » الى جانب ما بقي من رفات أختها ، ووقف النبي (٤) على قبر ابنتيه دامع العينين ، مثقل القلب بألم الثكل المتتابع ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٧٠ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٧٥ .

(٣) تاريخ الطبري ، حوادث سنة تسع ، والاصابة ج ٨ . والاستيعاب ٤/١٩٥٢ .

(٤) مسند احمد : ٥/٢٥٤ .

ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتي اليتم والترمل ، فلم تشهد أباها النبي بعد عام واحد يرحل عن الدنيا ، ولا شهدت زوجها «عثمان» يلـقى مصرعه الدامي بعـد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجتيـه اللتين جاءتا الدار بعـدها : أم البنين بنت عبيدة بن حصن ، ونائلة بنت الفرافصة الكلبية (١) ..

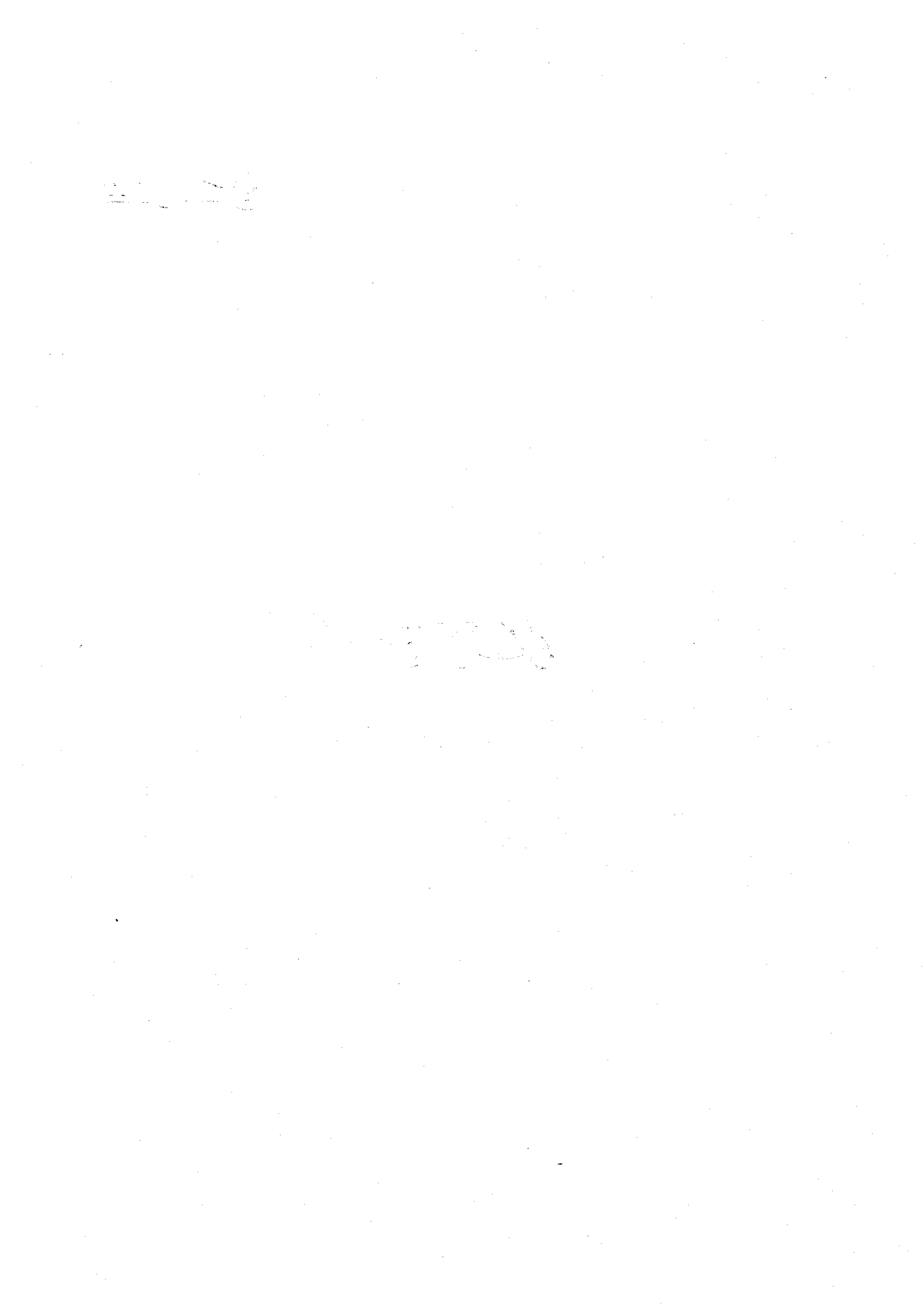
❋

(١) تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٣٦ هـ ـ ونسب قريش : ١٠٢ .

الفصل السابع

فاطمة الزهراء

- أحب البنات
- في دوامة الأحداث
- الهجرة
- البيت الجديد
- سحابة صيف
- محنة ثقيلة
- حلم هنيء
- يقظة مروعة
- التئام الشمل
- بدء تاريخ !



فاطمة الزهراء

كانت رابعة البنات في تلك البيئة التي عرفناها مفتونة بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسلامي كما لم يدخله أحد قط بعد أبيها النبي، وتركت فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدي وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات ..

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش « محمدا » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود ، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » في مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ، وبخاصة كبراهن « زينب » التي كانت لها بمثابة أم صغيرة ..

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية ، وأم كلثوم » من ابني أبن اللهب ، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة في اثر أخرى ، وأعياها — في طفولتها الباكرة — أن تدرك حكمة هذا الزواج الذي يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الأخت وأختها ، وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالي ذات عدد ، حتى تركت أثرا عميقا في مشاعرها الغضة وقلبها البكر ، وكان للظروف التي طرأت على الأسرة حينذاك ، يد في تقوية ذلك الأثر ، فلقد شغل الأب بتأملاته التي انتزعته من دنيا الناس ومضت به الى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت الأم بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها في أثره اذا غاب ، وشغلت الأخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة ، وتركت « فاطمة » شبه وحيدة مع خواطرها التي انفردت بها وراحت تؤثر في وجدانها على مهل ..

وكانت بحيث تجد في ابن العم ، علي بن أبي طالب ـ ذاك الذي اختاره أبوها فضمه اليه واتخذه ولداً (١) ـ أخا وصاحبا ، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استحيت أن تفضي اليه بهمومها التي تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها ..

ثم كان الحادث الأجل الذي هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها في عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها في دوامة الأحداث الهائلة التي أعقبت المبعث ..

ووجدت نفسها ـ ولما تتجاوز الخامسة من عمرها ـ تواجه الصدمة العنيفة ، وتقف في مهب الأعصار المارد الذي أثارته الوثنية العتيقة العاتية ، في وجه الدين الجديد ..

لكنها لم تأس قط على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلَّت تمائم صباها في رضى ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها في غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهي تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبي الذي اصطفاه الله رسولا ، وتعي فداحة العبء الذي يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من البطل الذي يلقى قريشا مجتمعة ، أعزل الا من ايمانه بالحق ، وحيدا الا من فئة قليلة مضطهدة .

ولم تعد « فاطمة » تشعر بالوحدة التي كانت فيها قبل المبعث ، فلقد ربط الاسلام بينها وبين أبيها النبي ، ووالدتها أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسي كل فرد في البيت المحمدي شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد ، لا يدينون بغيره ، ورب واحد ، يجثون له سجدا ، لا يشركون به الها آخر ولا يعبدون ربا سواه ..

وسرها أن « علي بن أبي طالب » لم يتردد في الايمان بأبيها الرسول ، اذ كان بمثابة أخ لها عزيز ، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين

---

(١) السيرة : ٢٦٣/١ .

فتحظى هي بنعمة الاسلام دونه ، ويترك هو مكانه في بيت سيد البشر ، ليلحق بالعصبة الكافرة التي باءت بغضب من الله ..

وودت لو أسلم شيخ الهاشميين « أبو طالب » فانه لكما قال أبوها الرسول : « وأنت أي عم ، أحق مَن بذلتُ له النصيحة ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه » .

ودت لو أسلم كذلك أبو العاص بن الربيع ، ابن خالتها هالة ، وزوج شقيقتها العزيزة زينب ، بل ودت لو أسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشيرته الأقربون ، يعز عليه فراقهم ، ويشق عليه حربهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يمتحن آل النبي ويصهرهم في بوتقة الآلام ، وشاء تعالى ـ جلت مشيئته ـ أن يضرب رسوله المصطفى المثَل الأعلى في قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية ..

كما آثر ـ سبحانه وتعالى ـ فاطمة بنت محمد بالحظ الأوفى من الألم العبقري ، فكتب لها أن تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون اخواتها جميعا ، حتى يجود أبوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الأعلى ..

وكانت لذلك كله أهلا ..

وهذه هي ، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من أبيها في قلب الميدان ، وكان صغرَ سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتبع أباها اذ يسعى كل يوم الى أندية قريش ومحافلها ليبشر بدعوته ، ويلقى في سبيلها ما يلقى من كيد الطغاة وأذى السفهاء ..

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم أقبل يمشي الى الكعبة حتى استلم الركن ، فما لمحه المشركون حتى وثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ ـ وعدّوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ..

فيقول الرسول : نعم ، أنا الذي يقول ذلك ..

وأمسكت « فاطمة » أنفاسها وهي ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء

أبيهـا ، وشـل الذعر حركتها فوقفت حيث هي ، وقام أبو بكر دون الرسول وهو يقول منكرا :

« أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟! » ..

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه بلحيته ، ثم لم يدعوه الا وقد صدعوا رأسه ! (١) .

وغادر محمـد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ البيت الحرام ، ومشى في الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب ، فلم يلقه أحد من الناس ، لا حر ولا عبد ، الا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته . فتدثر في فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه..

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله ، اذ هو ساجد في الحرم ، وحوله ناس من مشركي قريش ، فجاء « عقبة ابن أبي معيط » بسلى جزور ، فقذفه على ظهره ، فلم يرفع ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلى ودعت على من صنع ذلك ، واذ ذاك رفع النبي رأسه وقال :

« اللهم عليك الملأ من قريش ! .. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأبيّ بن خلف »..

فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف الى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة ..

ولو نظرت ـ رضي الله عنها ـ بظهر الغيب ، لرأت هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم أبوها الرسول ، صرعى مجندلين حول ماء بدر ، بعد سنوات معدودات !

وكانت هناك ، يوم خرج أبوها النبي الى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى : « وانذر عشيرتك الأقربين » فجعل ينادي :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا ..

« يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئا ..

---

(١) السيرة : ١/٣١٠ .

« يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا ، ويـا صفية بنت عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا ، ويـا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » ..

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :

ــ لبيك يا أحب والد وأكرم داع ..

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الأسارير ، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها النبي ، من بين أخواتها جميعا ، بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا يغني من الله شيئا عن أعز الناس عنده وأحبهم اليه وأدناهم منه ..

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببني مناف عشيرته الأقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنتـه فاطمة هي آخر من يتخذه الرسول مثلا في ذلك الموقف الجليل ، فعندها اذن ، ينتهي أقصى ما يبلغه صلى الله عليه وسلم في العظة والاعتبار ، واذا كان محمد لا يغني عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها ــ كائنا من كان ــ في أن يغني عنه أحد من الله شيئا ؟!

وليست هذه هي المرة الوحيـدة التي يضرب النبي فيها المثل بابنته فاطمة ، تأكيدا لما يريد نشره في أمته من الحق ، فلقد حدثوا أن امرأة من قريش سرقت بعد أن أسلمت ، وبلغ الرسولَ أمرُها فاشفقت قريش أن تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا «أسامة بن زيد» ليشفع فيها وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكلمني يا أسامة ، فان الحدود اذا انتهت اليّ ، فليس لها مترك ، ولو كانت بنتَ محمد فاطمة لقطعت يدها » (١) ..

ولم يقل الرسول : « لو كانت بنت محمد » على الاطلاق والتعميم ، بل سمَّى « فاطمة » وهي من عرفت قريش مكانتها الأثيرة عنـد أبيها الرسول ، ولقد سُمع صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) الاصابة : ٨/١٦٠ .

« خير نساء العالمين أربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة » ..
وسُمع كذلك يقول لها : « ان الله ليرضى لرضاكِ ويغضب لغضبك »
وعن ابن جريج : « قال لي غير واحد : كانت فاطمة أصغر بنات النبي صلى الله عليه وسلم وأحبهن اليه » (١) ..

* * *

وهذه المرويات تلفتنا الى ما سبق أن أشرنا اليه من موقف متعصبي المستشرقين في اتهام ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبي لابنته فاطمة ، والزعم بأنها مرويات صُنعت بأخَرة ، بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسي والديني ، ذا الأثر البالغ في التاريخ الاسلامي كله ..

وفي ذلك يقول « لامنس » :

« ان المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الأمر ، حتى اذا ظهرت فكرة التشيع في الاسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ، وأخذت شهرتها تذيع وتنتشر على حين ظلت أخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث » ..

ويرد أحد الكتاب المسلمين ــ الاستاذ عمر أبو النصر ــ على هذا الزعم قائلا :

« فأما عدم ذكر مؤرخي السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرده أن مؤرخي السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا وانهن لم يخضن حربا ولا اندفعن في معركة ولا كان لهن من الشأن في سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى ذكرهن والتبسط في تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه ألا يذكر المؤرخون من أخبارهن الا ما كان له كبير شأن أو عظيم أثر » (٢)

وهو رد لا ينفي زعم « لامنس » بل لعله أقرب الى أن يؤيده ..

---

(١) انظر صحيح البخاري : فضائل اصحاب النبي ، ومسند احمد ٥/٢٠٤ وصحيح مسلم : كتاب المناقب
(٢) فاطمة بنت محمد : ٦٠ .

وكان الأستاذ أبو النصر مرجوا عندنا لأن يدحض الفرية بما في كتب السيرة والحديث عن فاطمة بصفة خاصة ، وهذا الذي جئنا ونجيء به من أخبارها في حياة أبيها النبي ، ومكانتها لديه ، لم نأت به من عندنا ، ولا نقلناه عن مصادر متأخرة قد تظن بها الظنون وتحمل على أنها من مخترعات الشيعة أو مختلقات الرواة ، بعد أن دخلت الزهراء في تاريخ الاسلام وشارك اسمها في سيره واتجاهه أعنف مشاركة ، كلا ... وانما كان مرجعنا الأول هو « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، و « ابن سعد الزهري » أول مؤرخ لطبقات الصحابة ، والطبري عميد مؤرخي الاسلام المتقدمين ، وكتب الحديث الستة الأمهات (١) . ولا أذكر أني سقت خبرا واحدا غير مأخوذ من هذه الأصول ..

وليس يغيب عني ما قيل في حاجة هذه المراجع الى التحرير والتوثيق ، ولا أنا بجاهلة ما حف بها من ظلال لم تسلم من مثلها الآثار النقلية قط ، لكني هنا انما أرد على الزعم القائل بأن المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة ، تناسوا فاطمة كما تناسوا أخواتها ، ثم عادوا فآثروها بأكبر العناية والاهتمام بعد ظهور التشيع ..

فهذه هي كتبهم بين يدي ، اقرأ فيها وأنقل منها ما أنقل من أخبار « الزهراء » ثم لا أرى بي حاجة الى رد الزعم الأحمق بأكثر من هذا ، اللهم الا أن أعرض مثلا آخر من تهافت هذه العصبة الحاقدة من المستشرقين ، في حديث الحلية التي روي أن الرسول قال عنها : « لأهبنها أحب أهلي اليّ » ثم دفعها الى حفيدته أمامة بنت أبي العاص بن الربيع . فلقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث ، يريدون أن ينقضوا به كل ما تواترت به الأخبار من حب الرسول لابنته فاطمة ، وأعشى الحقد بصيرتهم فحملوا خبر الحلية محمل الثقة التي لا يرتفع اليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، وتلقوا أخبار « فاطمة » بالتكذيب والاتهام ، مع أن راويها واحد !

(١) راجع مفتاح كنوز السنة : ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

ولو رشدوا ، لما رأوا في أمر الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه صلى الله عليه وسلم على حفيدته الطفلة التي حرمت من أمها زينب ، ولفتة كريمة من لفتاته التي طالما أسعدت النساء من أهله وعشيرته ، وسنجده صلى الله عليه وسلم في موقف آخر ، يُهدَى حلة من استبرق، فيقول لابن عمه علي : « اجعلها خمرا بين الفواطم » فشقها « علي » أربعة أخمرة ، أحدها لفاطمة بنت محمد ، والثاني لفاطمة بنت أسد بن هاشم ، زوج أبي طالب وأم بنيه علي وجعفر وعقيل ، والثالث لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت أبي طالب « أم هانيء » ، وفي رواية ، لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، زوج عقيل بن أبي طالب ..

* * *

وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عندأبيها صلى الله عليه وسلم ؟

وهو سؤال يعرض دائما لكل من يكتب عن الزهراء ، أما متعصبو المستشرقين فأراحوا أنفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو أن ما روي عن حب محمد لفاطمة انما اخترعته الشيعة بعد وفاته ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعشرات السنين. وما هذا بمستغرب من بعض المستشرقين، فهكذا يلتوي تاريخ الاسلام في أيديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبرأون ــ ولا نحن نبرأ ــ من ضعف وهوى ، وان كنا في الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الانسانية من جهود هؤلاء العلماء الذين نقدر ما أتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب في الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر ، لو برئا مما شابهما من شوائب هذا الضعف البشري ، وهيهات !

وأحسب أنهم لو حاولوا كظم حقدهم ليواجهوا موضوع حب الرسول لابنته « فاطمة » ، لاستطاعوا أن يصلوا الى نتائج أعمق وأبعد من هذه التي وصلوا اليها ارتجالا من أقرب الطرق ، وربما أتيح لهم أن

يربطوا بين هذا الحب للبنت الرابعة ، وبين ما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للاناث ، فهل كان الرسول في حبه لفاطمة ، متأثراً بما كان يُظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث ؟

لست أستبعد هذا ، فمحمد في أبوته الرحيمة وانسانيته المهذبة ، أهل لأن يغمر بحبه هذه البنت التي شاء لها القدر أن تجيء حيث لا تلقى ترحابا ، وأحق بأن يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس – ولو على سبيل الوهم – انها غير مرغوب فيها . ونحن الأمهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية أو ثالثة ، فكيف اذن يكون موقف الأب الكريم الذي اختير ليبعث رسولا ؟ .. مثله بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التي تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الذي قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها ..

ولنا أن نقول بعد هذا ، ان تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند أبيها ، لم تنقص حبه لأخواتها الثلاث ، ولنا أن نقول كذلك ان حظ مكانة الزهراء من حب أبيها صلى الله عليه وسلم قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم في نسل هذه الابنة الوحيدة التي بقيت له !

* * *

دخلت « فاطمة » على أمها السيدة خديجة ، تحدثها – والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها – عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا أنفسهم ، فان أحدا لن يغني عن أحد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغني عنها أبوها النبي شيئا اذا لم تؤمن ..

وهي قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وأبقى ..

ومرت الأم الطيبة بيدها الرقيقة على جبين ابنتها الطفلة ، وغمغمت في رفق :

ـ ماذا ستلاقين من بعدي يا صغيرتي ؟ .. لقد نلتُ حظي من الدنيا فأنا هامة اليوم أو غد ، وأختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما في كنف أكرم زوجين ، ولأم كلثوم من سنها وتجربتها ما يغري بشيء من الطمأنينة عليها ، وأما أنت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا في مستهل الصبا ، حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والآلام ..

فردت فاطمة وهي تذكر أباها البطل :

ـ اطمئني ، فلا بأس عليَّ يا أماه ، لتطغ قريش ما شاءت لها وثنيتها أن تطغى ، ولتمضين في اضطهادها للفئة المسلمة الى أقسى وأفدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم لاحتمال هذا العذاب الجليل ، و «فاطمة» أجدر بأن تحمل منه ما يكافيء ما نعمت به من بنوتها للنبي ، واستئثارها بالحظ الأوفى من محبته واعزازه ..

* * *

واستجاب الله لها ، فامتحن ايمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الأذى ، وتروَّع بالذي يكابده أتباعه من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة التي كانت تلقى عليهم حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها أثر السياط التي كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المستضعفين

وصحبت « فاطمة » أبويها الى شعب أبي طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمها خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب ، بعد أن لم يبق له في مكة مكان !

وعلى أثره هاجر « علي » ابن العم أبي طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام في مكة ، ريثما ادى عن النبي المهاجر ، الودائع التي كانت عنده للناس (١) ..

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيهما فصحبهما

---

(١) السيرة : ١٢٩/٢ .

الى يثرب ، وأغلقت دار محمد بمكة ، كما أغلقت دور المسلمين فيها هجرة ، ليس فيها ساكن ..

ولم تمر رحلتهما بسلام : فما كادتا تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال، حتى طاردهما اللئام من مشركي قريش، وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصي » ـ وكان ممن يؤذي أباهما النبي بمكة ـ باثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما الى الأرض (١) ..

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد أنهكتها الأحداث الجسام التي لقيتها قبل أن تمتلىء شبعا وريا ، وترك الحصار المنهك أثره في صحتها وان زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشي » فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، الى أن بلغت « المدينة » وما تكاد ساقاها تنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمر السنوات وأبوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه في العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر ، ويسميه مع النفر الذين عهد النبي الى أمرائه أن يقتلوهم وان وُجِدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان علي بن أبي طالب ، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويرث ، وقد فعل ! (٢) ..

* * *

كان الرسول قد شرع في بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله الى دار الهجرة ، ونزل صلى الله عليه وسلم ريثما يتم البناء ، في دار أبي أيوب الانصاري ، وهي الدار التي صارت من بعده الى مولاه « أفلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة ..

---

(١) السيرة : ٥٢/٤ .

(٢) السيرة ٥٢/٤ ـ وتاريخ الطبري ، حوادث السنة الثامنة للهجرة .

وكان صلى الله عليه وسلم يعمل في بناء مسجده وبيته الجديد ، مما أثار همة المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا يتنافسون في العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبي يعملُ
لَذاك منا العملُ المضلل

فيجيبه المسلمون :

لا عيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الأنصار والمهاجره!

ورؤي الرسول يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة « عمار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبن ..

وسُمع علي بن أبي طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوي من يعمر المساجدا
يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يُرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء ..

ولم يكن البيت الجديد للرسول قصرا فخما ولا صرحا مشيدا ، بل كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد النبوي ، بعضها من حجارة مرصوصة ، وبعضها من جريد يمسكه الطين ، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد ..

أما ارتفاعها فيقول الحسن بن علي ، حفيد الرسول وابن بنته الزهراء : كنت أدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي .

وفي البخاري : ان بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافر ـ يعني : لاحلق له !

أما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطة وخشونة وتواضعا :

كان سريره صلى الله عليه وسلم ، خشبات مشدودة بالليف ، بيع زمن بني أمية ، بأربعة آلاف درهم ..

أما البيوت ، فلما توفيت زوجات النبي ، جاء كتاب عبـــد الملك بن مروان الى واليه بالمدينة ، يأمره أن تُخلطَ الحجراتُ المسجد ، فضج أهل المدينة بالبكاء ، كيوم وفاته صلى الله عليه وسلم ..

* * *

الى هذا المنزل المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباها صلى الله عليه وسلم في أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى الرسول بين الأنصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ، ويشد أزر بعضهم بعض ..

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت بيثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباها صلى الله عليه وسلم يقف في أصحابه فيقول :

« تآخوا في الله أخوين أخوين » ..

ثم يأخذ بيد علي بن أبي طالب ويقول :

« هذا أخي » (١) ..

ويختار لعمه جعفر ــ وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة ــ معاذ بن جبل ، ولأبي بكر الصديق خارجة بن زهير الخزرجي ، ولعمر بن الخطاب، عتبان بن مالك العوفي ، ولأبي عبيدة بن الجراح ، ســـعيد بن معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بني النجار ، وللزبير بن العوام ابن خويلد ، سلمة بن سلامة ..

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب علي بن أبي طالب بسيد البشر أخـــا !

ولن يمضي وقت طويل ، حتى ترى عليا ، صهرا لأخيه النبي ، وزوجا لأحب بناته اليه ..

* * *

---

(١) السيرة : ٢/١٥٠ وتاريخ الطبري : حوادث الهجرة .

كانت « فاطمة » اذ ذاك قد قاربت عامها الثـــامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه، متأثرة بنفورها القديم منه، يوم انتزعوا أختها الحبيبة « زينب » من بيت أبويها ، وزفوها الى دار أبي العاص بن الربيع ، وفاطمة طفلة في عامها الرابع ..

ولقد مضت الأعوام ، نمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعي الذي بلته كل أنثى قبلها : من حواء ، الى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ..

وكانت الى ذلك كله ، تحس ابن العم ، علي بن أبي طالب ، قريبـــا منها في المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها الرسول وفي نفسه أمر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه ، على أن « فاطمة » لم تكن بالتي يخفى عليها ســر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهي تحس بالهام فطرتها ووحي قلبها ، أن «عليا» متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب في سواها من بنات المسلمين ..

وكذلك هي : لم تشعر في عالمها النفسي بمن هو أقرب اليها من «علي» وأعز موضعا ، وهو بعد أكثر من أخ عزيز وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين شباب المسلمين جميعا من هو أسبق منه الى الاسلام أو أقرب الى رسول الله (١) ..

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقتـــه دون الرجال جميعا ، مؤثرة مكانها الى جانب أبيها الحبيب ، متشبثة بموضعها في بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة خديجة » ـ رضي الله عنها ـ وهي ترى نفسها ربة هذا البيت التي تحمل عبء ادارته ، وخليفة الأم الراحلة في الوقوف الى جانب البطل المجاهد ، تهيء له راحة وسكنا ، وقد بلغت في ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجل كنية ، فتدعى « أم أبيها » !

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الأعز ، موضعا سواه !

لكن الى متى ؟

---

(١) السيرة : ٢٦٢/١ وانظر معها ترجمة الامام علي في الاستيعاب وسنن الترمذي : كتاب المناقب .

هذا ما لم تفكر فيه فاطمة بنت محمد ، أو لعلهـــا فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه ، كيلا تفسد حاضرها بما يحتمل أن يأتي به الغد المجهول !

حتى دخلت « عائشة بنت أبي بكر » في حياة محمـــد ــ صلى الله عليه وسلم ــ زوجة وربة بيت ، فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية أو كارهة ، لكي تخلي المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !

ولا أرتاب في أن الزهراء رضي الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زُفت « عائشة » الى محمد ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ، وأخذت مكان خديجة في داره ودنياه ، ولعل الزهراء بكتها أحر بكاء في ليلتهـا تلك ، ثم هون عليها الأمر أن يجد أبوها ــ الذي تؤثره على نفسها ــ في عروسه اللطيفة ، ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسري عن فؤاده بعض الشجن الذي أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ خمســة أعوام ..

* * *

وزواج « أبي الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لأحـد من قومه ، فهو صلى الله عليه وسلم قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت اليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :

« يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! » ..

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضي فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبي بكر (١) ..

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبي من تسكن اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من أعبـــاء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يكابده من محنة الغربة عن الوطن ، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته ..

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة ــ كما لم يشعر

---

(١) تاريخ الطبري : ١٧٦/٣ ــ وانظر معه السمط الثمين ٣١ ــ والاصابة ج ٨ وانظر الفصل الخاص بالسيدة عائشة ، في كتابي « نساء النبي »

سواها ــ ان الفراغ في حياة النبي زوجا ، ما يزال كما كان قبل أن تجيء بنت زمعة ، فان الرسول لم يتزوجها الا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » الذي لم يكد يعود بهــا من مهاجرَها في الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن قواها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف ..

ولم يغب عن فاطمة ، ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » في مكانها الأول ، دون أن تشعر بأن وجود « سودة » يغني عنها ..

أما حين جاءت « عائشة » فالأمر جد مختلف !

فلا عجب ان لم يمض على دخولها بيت زوجها النبي أربعة أشهر ، حتى كانت « الزهراء » في طريقها الى بيت علي بن أبي طالب (١) ..

* * *

والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصـــة مواتية كهذه ، يستطيع فيها أن يطمع في قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية ..

وطال انتظاره سنين عددا ، حتى اذا دخل الرسول بعائشة الحبيبة ، خامره الرجاء في تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فتــرة ، لا يدري بم يمهرها وليس في يده مال . ثم زاد احجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر ــ رضي الله عنهما ــ قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم في رفق بالغ (٢) ..

وشعر خاصة أصحاب « علي » بما يهمه ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانته عنده ، ومكانة أبويه من قبلــه : والده أبي طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف (٣) ..

---

(١) الاصابة : ٨/١٥٧ ، والاستيعاب : ٤/١٨٩٣ .
(٢) طبقات ابن سعد ٨/١١ وسنن النسائي : ٢٦ ك / ٧ ب .
(٣) نسب قريش ٤٠ ــ وهي احدى الفواطم الاربع التي أثرهن الرسول بهدية جاءته . انظر صفحة ٥٦٦

قال « علي » منكرا يائسا :

« بعد أبي بكر وعمر ؟ »

أجابوه :

« ولم لا ؟ ووالله ما بين المسلمين ـ وفيهم أبو بكر وعمر ـ من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ، ورعته أمك ، ثم نشأتَ في كنفه وربيت في بيته ، وكنت أسبق رجل الى الاسلام به » ..

وتشجع « علي » وأخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذا جاءه حيَّاه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته ..

وأدرك صلى الله عليه وسلم أن أخاه وابن عمه وصاحبه ، جاء لأمر لا يقوى على الافصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله في تلطف :

ـ ما حاجة ابن أبي طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

ـ ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

قال الرسول وما يزال على بشره وتلطفه :

ـ مرحبا وأهلا !

ثم أمسك لا يزيد ..

وطال صمته ، فانصرف « علي » حائرا قلقا ، لا يدري بم يجيب أهله وأصدقاءه الذين كانوا في انتظاره ، يترقبون عودته برأي الرسول ..

فلما ألحوا عليه ، قال :

ـ ما أدري والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالأمر ، فما زاد على قوله : مرحبا وأهلا !

هتفوا جميعا :

ـ يكفيك من رسول الله احداهما !

ثم تركوه مستجد الأمل ، حيّ الرجاء !

* * *

وأقبل في غد فوقف غير بعيد من الرسول ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :

« أردتُ أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالي من شيء ، ثم ذكرتُ صلته وعائدته فخطبتها اليه » ..

فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :

ـ وهل عندك شيء ؟

أجاب علي :

ـ لا ، يا رسول الله ..

لكن الرسول ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغانم بدر ، فعاد يسأله:

ـ فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا ؟

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبي ورعايته :

ـ هي عندي يا رسول الله ..

قال عليه الصلاة والسلام :

ـ فأعطها اياها (١) ..

فانطلق « علي » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره النبي أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها (٢) ..

وتقدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهما، حملها « علي » ووضعها أمام الرسول ، فتناولها بيده الكريمة ثم رفعها الى « بلال » ليشتري ببعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقي الى « أم سلمة » لتشتري جهاز العروس (٣) ..

ودعا الرسول صحابته فأشهدهم أنه زوج فاطمة من علي بن أبي طالب ، على أربعمائة مثقال من فضة ، على السنة القائمة والفريضة

---

(١) طبقات ابن سعد ١٢/٨ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب البيوع . ومسند احمد ١٤٢/١ .

(٣) مسند احمد : ٩٣/١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ وسنن النسائي : كتاب النكاح باب ٨١ .

الواجبة ، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة ..

ثم قدم الى الضيوف وعاء تمر ..

* * *

وعلى هذا النحو من البساطة ، تمت خطبة الزهراء بنت النبي لابن عمه علي ، وعقدت أخطر مصاهرة عرفها الاسلام في تاريخه الحافل الطويل ..

وتمَّ عقد النكاح في شهر رجب من السنة الأولى للهجرة ، فلما أهلَّ المحرم من السنة الثانية ، كان « علي » قد وفق الى منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء ..

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل ، وجاء حمزة ــ عم محمد وعلي ــ بشارفين فنحرهما وأطعم الناس بمدينة الرسول ..

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين ، ودعا الرسول « أم سلمة » فطلب اليها أن تمضي بالعروس الى بيت علي ، ولينتظراه هناك ..

وأذن « بلال » لصلاة العشاء ، فصلى النبي بالمسلمين في المسجد ، ثم مشى الى دار علي،حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آي الذكر الحكيم ثم أمر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقي ونثره على رأسيهما (١) ، وهمَّ بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

ــ اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما في نسلهما !

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الأمر بأنه انما تركها وديعة عند أقوى الناس ايمانا وأكثرهم علما وأفضلهم أخلاقا وأعلاهم نفسا .. (٢)

ثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس في ليلتها الأولى ، ويحوم حولها ، ويسري عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ، وشجن لغياب الأم ..

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٥/٨

(٢) طبقات ابن سعد : ١٦/٣ .

واستجاب الله لدعاء نبيه في تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية المباركة التي شاء الاله أن تنحصر في ثمرها ذرية نبيه المصطفى ..

* * *

كانت سن « الزهراء » عندما تزوجت ثمانية عشر عاما ، ولكن الهوى جمح بالمستشرق «لامانس» فخيل اليه أنها كانت أسنَّ من ذلك بكثير ، « وانما عمد بعض كُتَّاب السيرة الى تأخير ميلادها ، كيلا يقال انها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها الى أن فاتت سن الشباب » ..

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل كُتَّاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ .. لِمَ لم يجعلوا الأولى أصغر سنا ويضيفوا الى الأخرى عشر سنين أو عشرين، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبي في السن ؟.. أقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ..

و « لامانس » ـ فيما أرجح ـ قد اعتمد في ذلك على خلاف يسير الشأن في تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله الى أبعد حد في ارضاء حقده ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع أصبعه على قول نقله «المسعودي» بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبي » بأنها ولدت بعد نزول الوحي . يضع « لامانس » أصبعه على هذا القول أو ذاك ، ثم يصوب الطعنة المسمومة ، متجاهلا أقوال الكثرة من الثقات الذين عليهم المعتمد في هذا الشأن ، كابن اسحاق ، وابن هشام ، والطبري ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين.

والخلاف ـ كما قلت آنفا ـ يسير الشأن ، لأننا تعودنا أن نلقى مثله وأكثر منه في تاريخنا النقلي ، وبخاصة ذاك الذي يعتمد على المروي شفاها قبل عصر التدوين ، حيث لا تكاد تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة في سنة مولده ، اذ المألوف ألا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية، وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ما شاء ، لا أن يتمسك

بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيىء التأويل ..

وما أظن « لامانس » بالذي يغيب عنه الموقف المنهجي حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » وهو مرجعنا الأول في السيرة ، لأنه أقرب كتابها عهدا بالرسول وبناته ، وابن اسحاق لم يذكر في مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر عليه ، وهو السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو أن بنات محمد ولدن جميعا قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول أغفله « لامانس » كما أغفل من بعده أقوال الأئمة من رجال الحديث والثقات من المؤرخين ، ليتمسك برواية المسعودي ــ ثم اليعقوبي من بعده ــ حتى اذا استغلها ما شاء له التعصب والهوى ، واتكأ عليها في الزعم بأن كتاب السيرة أخروا مولد فاطمة لكي ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فناقض نفسه وأبطل الرواية المرجوحة التي اختارها ، بنقد طبيعي للخبر ، اذ يقضي القول بولادة فاطمة بعد المبعث ، أن تكون أمها ولدتها وهي في نحو الستين من عمرها !

الى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبي المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا في غنى عن هذا كله ، ليصلوا الى ما شاءوا تقريره من تأخر زواج فاطمة ، مستندين الى قول ابن اسحاق نفسه ، فسن الثامنة عشرة جد متأخرة اذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهي أبعد تأخرا اذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبي بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهي بنت الأمين الطاهرة ، وهي أخت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، اللواتي تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن في مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شبها بأبيها في الخلقة ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وانما عرف القوم زهد الزهراء في الزواج ، وتشبثها بمكانها الى جانب أبيها الرسول ، وقدّروا موضعها من البيت المحمدي وحاجته اليها بعد وفاة أمها رضي الله عنها .

ثم ، لم لا نقول ــ اذا لم يكف كلّ ما قدمنا ــ ان تأخر زواجها كان عن تهيب لها ؟ .. لقــد بعث أبوها صلى الله عليه وسلم ، وهي وحدها التي لم تتزوج ، اذ كان عمرها خمس سنوات ، والناس بعد المبعث أحد رجلين : اما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر في مصاهرته ، وقد علمنا ما كان من سعي قريش الى أصهار محمد في رد بناته الثلاث اليه كي يشغلوه بهن ، واما مسلم يؤمن بنبوة محمد ويصدق برسالته ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم والى أي مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتــدونه بالمهج والأرواح ، فغــير مستغرب ألا يروا أنفســهم كفئا لمصاهرته ، وأن يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » اجلالا وتهيبا

ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى في نفســه كفئا لرقية ، فلقــد قل في أصحاب الرسول ــ بل قريش بعامة ــ مثل عثمان ثراء وشرفا وجاها ، وهو بعد قد طمع في الزواج من بنت النبي ، بعد أن طلقهــا ابن أبي لهب كيدا وحقدا ، وليس الأمر كذلك مع الزهراء ..

ونحن ــ حتى يومنا هذا ــ نرى بنات الأسر الكريمة يتأخر زواجهن في انتظار الأكفاء وهم عادة القلة ، اذ القاعدة المطردة هي أنه كلما تميزت الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها ، قل أكفاؤها ..

ولم يكن « علي » مع ذاك أول من طمع في الزواج من « فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى الى ذلك الشرف قبله ، صاحبا الرسول أبو بكر وعمر ، على ما روى « البلاذري » في « أنساب الأشــراف » ، وابن سعد في طبقاته (١) ، والنسائي في سننه (٢) ، فردهما أبوها ردا كريما ..

ويأبى « لامانس » بعد ذلك كله الا أن يعلــل الزهــد المزعوم في « الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال ، والذكاء والمرح (!!) ولست

(١) جـ ٨ ص ١١ .
(٢) كتاب النكاح ، الباب السابع .

أطيل الوقوف عند هذا الزعم المريض ، بعد أن تهاوى كلام صاحبه على ما بيّنّا ..

* * *

لم تكن حياة « الزهراء » في بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ، وهي في ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتي أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادي ، فقد تزوجت « زينب » من أبي العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولا من ابني أبي لهب ذي المال الوافر ،ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » الواسع الغنى ، أما « علي بن أبي طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث ، اذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه ، قليل المال كثير العيال ، مما دفع ابن أخيه محمدا الى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبي طالب ، بأن يأخذ كل منهما أحد بنيه فيكفله عنه . وكان من نصيب « علي » أن يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم ..

وبُعث « محمد » صلى الله عليه وسلم رسولا ، فكان « علي » أول من آمن به صبيا ، اذ كان عمره عشر سنوات على ما نقل ابن اسحق (١) وهكذا اشترك « علي » في الحرب المقدسة بمجرد أن شب عن الطوق ، وشُغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة الرسول وهو يواجه المشركين ، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التي هي حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الأشراف في مكة ، وسبيل الثراء بالوادي الأجرد غير ذي الزرع ، فلا عجب أن رأيناه يطلب يد « الزهراء » وليس في يده ما يمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغانم « بدر » التي أبلى فيها « علي » خير البلاء ، على ما هو معروف في تاريخ الاسلام ، ومشهود له من أئمة الاخباريين والمؤرخين (٢) .

---

(٢) تاريخ الطبري : حوادث غزوة بدر . والسيرة ٢/٣٧٢ .
(١) السيرة : ١/٦٢ .

ولم يغب شيء من ذاك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها صلى الله عليه وسلم طلب « علي » يدها ، ولو صحت الرواية التي انفرد « البلاذري » ـ فيما أعلم ـ بذكرها ، وهي أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها يزكيه :

« انه سيد في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وأفضلهم حلما وأولهم اسلاما » ..

أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة في مثل هذا الموقف ، لكن « لامانس » لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام كرم الله وجهه ، حتى اذا أحس أن الفقر لا يمكن أن يعاب على الامام ، وقد نشأ النبي نفسه يتيما فقيرا ، راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، وأخذ يبدي ويعيد عن ضآلة حظ « علي » من جمال الصورة وحسن الشكل ! .. ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه في أن شخصية فاطمة رسمت بأخرة ، وأضيفت اليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، مع هذا الذي ينقله من روايات عن الامام علي ؟ .. أقول : لو راجع نفسه ، لاستوقفه هنا أن مؤرخي الاسلام لم يضيفوا الى امام الشيعة من الثراء والجمال ما يرفع قدره عند أمثال «لامانس» ، بل انهم ـ بشهادته ـ قد ذكروا أنه كرم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا أفطس الأنف دقيق الذراعين » دون أن يجدوا في ذلك ما يغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الأبطال !

* * *

ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل في عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفي عنها ما كانت تجده من شظف العيش ، أو يجيء في جهازها بسرير وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجها بخميلة ، ووسادة

حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وشيء من العطر والطيب ..

وكان زوجهـا من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أن تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها ــ رضي الله عنها ــ أن تنفرد بهذا العبء الثقيل (١) ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة ، فحاول ان يساعدها في بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى أن يستنفد العبء ما بقي لها من قوة جسدية ، بعد الذي كابدته ــ منذ عامها الخامس ــ من محنة الحصار ومشقـة الهجرة ومتاعب الجهاد ..

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهز كرم الله وجهه فرصـة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها النبي عاد من احدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

ــ لقد شقوتِ يا فاطمة حتى أسليت صدري ، وقد جاء الله بسبي ، فاذهبي فالتمسي واحدة تخدمك ..

أجابته وهي تنحي الرحى جانبا في تعب وكلال : أفعل ان شاء الله ..

ثم لبثت ساعة حيث هي في ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية ، فلما رآها صلى الله عليه وسلم هش لها وسأل :

ــ ما جاء بك يا بنية ؟ ..

أجابت :

ــ جئت لأسلم عليك ! ..

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله ..

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجهـا أنها استحت أن تطلب من أبيها شيئا ..

فقام كرم الله وجهه وصحبها الى بيت الرسول ، وتولى عنهـا السؤال وهي مطرقة من استحياء ..

---

(١) صحيح البخاري ٦/٦٩ ، ٧ وصحيح مسلم : ٨٠/٤٨ .

أجاب صلى الله عليه وسلم :

ـ لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن ..

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب الحنون، وشغلته نهاره كله ! ..

وجن الليل وكان البرد قارسا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، فاذا بالباب يفتح « ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا في غطائهما مقرورين، اذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما، واذا غطيا أقدامهما انكشفت رأساهما » . فهبّا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه وسلم ابتدرهما قائلا :

ـ مكانكما ! ..

ثم أضاف في رفق وهو يقدر حالهما :

ـ ألا أخبركما بخير مما سألتماني ؟

أجابا معا :

ـ بلى يا رسول الله ..

قال :

ـ كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، واذا أويتما الى فراشكما ، تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين ..

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الالهي ، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التي تغلب المصاعب وتهزم المتاعب ..

ولقد سمع « الامام علي » بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات الرسول ويقول :

« فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ! » .

سأله رجل من أصحابه :

« ولا ليلة صفين ؟ » ..
فأجاب مؤكدا :
« ولا ليلة صفين ! » ..

* * *

وتأبى سنة الله التي فطر النـاس عليها ، ألا تؤثر هـذه الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضي الله عنها في صميم المعركة منذ طفولتها ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم أحزنها موت أمها أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنـا ، وكانت الى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبي ، تفكر فيه على البعد والقرب ، وتتبعه قلبها في غزواته ومعاركه ، وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث في موقعة « أحد » اذ رؤيت هنالك تضـمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقي المحتضرين من الشهداء ..

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانشراح ، ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوي ، وهي ترى مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضفي على بيت زوجها اشراقـا وتبث فيه حيوية وأنسا ، وتلقى البطل اذ يعود الى سكنه ، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها اللطيفة ومرحها الحلو ..

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحي عن بيتها الخاص ظلال الكآبة التي كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على أبيها وزوجهـا ، لكنما أعوزها ـ لكي تنجح في محاولتها هـذه ـ أن تجد الى جانبها ، زوجا لطيفا وديعا هينا لينا ، و « علي » كرم الله وجهـه لم يكن من هذا الصنف من الأزواج ، بل كانت فيه شدة أقرب الى أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة ، واذا كانت رضي الله عنها في حاجة الى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها ما لقيت في مستهل صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف

أشجانها لفراق بيتها الأول الحبيب ، فقد كان « علي » كرم الله وجهه لا يقل عنها حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التي تنفض عنه غبار المعارك التي خاضها منذ كان صبيا ..

فليس يروعنا اذن ، ما تحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحيانا سمع الأب الرسول فيهتم له ويحاول جهده أن يغريهما بمزيد من الاحتمال ..

حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم ، رئي ذات مساء وهو يسعى الى دار بنته فاطمة ، بادي الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة : يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك ! .

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

ــ وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين الي (١) ؟ ..

وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة زوجها وصلابته فقالت له :

« والله لأشكونَّك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

وخرجت ، و « علي » في أثرها ، حتى جاءت أباها فشكت اليه ما أنكرت من زوجها (٢) ، فتلطف الأب النبيل في ترضيتها وحملها على الرفق بعلي واحتماله ..

قال كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتهما :

ــ والله لا آتي شيئا تكرهينه أبدا !

* * *

لكنه كاد يأتي ــ غير متعمد ــ شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره ، وتألم منه أفدح الألم ..

(١ ، ٢) طبقات ابن سعد : ١٦/٨ .

وأي شيء أبغض الى زوجة كالزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة !؟

لقد همّ « علي » بالزواج على فاطمة ، وفي حسبانه أنه انما يجري على مألوف عادة قومه في الجمع بين زوجتين وأكثر ، ويفعل ما أباحه له الاسلام من تعدد الزوجات ، دون أن يخطر بباله أن في هذا ما تنكره بنت نبي الاسلام !

لكن الأمر جرى على غير ما قدّر « علي » ..

فما كاد يهم بالزواج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ، حتى راعه أن يرى أبا الزهراء يقبل على المسجد مغضبا ، ويخطب في الناس منكرا على «ابن أبي طالب» أن يتزوج على فاطمة، بنت عمرو هذا..

لكن كيف والاسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يجمع في بيته يومئذ بين زوجات ثلاث أو أربع ، فيهن عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله به الاسلام ؟

كيف يحرم النبي ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه ؟

ليكن هذا الزواج مؤذيا لفاطمة، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبي بكر وعمر؟

وهل يأبى النبي أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة ، وهو القائل في المرأة السارقة : «لو كانت بنتَ محمد فاطمة ، لقطعتُ يدها» ؟

وهل استثنى الاسلام من تعدد الزوجات ، بنات نبيه الذي بلّغ رسالته ؟

يا له من موقف بالغ الدقة والصعوبة والحرج !

فالنبي يعلم حق « علي » في الزواج ولو على فاطمة بنت محمد .. ومحمد ، في أبوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن تُروّع أحب

بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه ، يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها ..

ألا ليت «عليا» قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجةً ، مدى ربع قرن من الزمان ! .. اذن لأعفى الأب النبي من الحرج ، وأغناه عن ذلك الموقف الشائك الحرج الصعب ..

واني لأتمثله صلى الله عليه وسلم ، يرنو الى بنته الغالية وهي تترقب المحنة في خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها وقلقها ، تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع أن يدفع عنها ما تكره ، وأن يحميها من الخوف الذي يقرح أجفانها ويروع أمنها ويؤرق لياليها ، لكن الأمر يبدو معقدا ، فما كان لنبي أن يحرم ما أحل الله !

وفي ظلمات الحيرة ، يلوح شعاع من الضوء ينير السبيل : ان عليا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومي » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت « علي » بين بنت رسول الله ، وبنت عدو الله ؟

فعمرو هذا ، هو « أبو الحكم بن هشام » أبو جهل ، الذي لم ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام في اضطهاد الدعوة الاسلامية ..

هو عدو الله الذي قال لقريش : « يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، واني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فاذا سجد فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » (١) ..

هو هو القائل مستهزئا بالرسول :

« يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها ، تسعةُ عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ » فنزلت فيه الآية :

---

(١) السيرة : ٣١٩/١ .

« وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا » (١) ..

ثم هو هو القائل لمن سأله رأيه فيما سمعه من محمد :

« ماذا سمعت ؟ .. تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا كنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؟ .. فمتى ندرك هذه ؟ .. والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! .. »

وهو هو الذي كان اذا سمع برجل أسلم ، من ذوي الشرف والمنعة ، أنّبه واخزاه ، وقال : « تركتَ دين ابيك وهو خير منك ؟ .. لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وان كان الذي أسلم تاجرا ، قال « والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك » . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به .

وهو هو ، الذي لقي حكيم بن حزام بن خويلد ، يحمل طعاما يريد به عمته خديجة في محنة الحصار ، فتعلق اللعين به وقال : أتذهب بالطعام الى بني هاشم ؟ .. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه ..

وفيه نزل قوله تعالى :

« ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم ! » (٢) ..

وهو هو الذي اعترض وفدا من النصارى جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ، فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به ، فلقيهم اثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم : « خيَّبكم الله من ركب ! .. بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم

(١ ، ٢) الزمخشري ، الكشاف .. والسيرة ١/٣٣٣ ، ٣٣٥ .

وصدقتموه ؟! .. ما نعلم ركبا أحمق منكم ! (١) ..

وهو هو الذي رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا جليدا نسيبا ، ثم يُعطَى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا الى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه في القبائل جميعا (٢) ..

فلما هاجر الرسول ، غدا القوم وفيهم أبو جهل ، فوقفوا بباب أبي بكر ، فخرجت اليهم أسماء فقالوا لها :

« أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ » .. أجابت :

ـ لا أدري والله أين أبي ..

فرفع « أبو جهل » يده ـ وكان فاحشا خبيثا ـ ولطم خدها لطمة طرحت قرطها ..

وحين تهيأ الفريقان للقتال في بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو ، فرجع اليها محذرا ، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد الى عتبة ابن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس ، فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل « حكيما » أن يذهب الى أبي الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه ، فلما سمع أبو جهل بهذا ، أبى الا القتال ! ..

وكان أحد سبعة ، سُمع الرسول يدعو عليهم يوم بدر (٣) ..

وظل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول لأصحابه : اطلبوه (٤) ..

وقتل كافرا ملعونا ، وجيء برأسه الى « محمد » فحمد الله ! ..

واستبقى ـ عليه الصلاة والسلام ـ جمل أبي جهل ، حتى اذا توجه للعمرة ـ بعد أربع سنوات ـ ساق الجمل هَديا ، ونحره يوم الحديبية (٥) ..

أتكون بنت هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبي ؟ ..

(١ ، ٢) السيرة ج ٢ صفحات : ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٥/٢ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٧/٢ .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٩/٢ .

يأبى الرسول ذلك ! .. ويأباه الاسلام ! ..

وانطلق صلى الله عليه وسلم الى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب في صحبه قائلا :

« ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ ابن أبي طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم الا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فان ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها ، واني أتخوف أن تفتن في دينها » ..

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره أبا العاص – وهو من بني عبد شمس ، لا من بني عبد المطلب كعلي – فأثنى عليه في مصاهرته اياه أحسن الثناء وقال :

« حدثني فصدقني ، ووعدني فأوفى لي ، واني لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا » ..

ولقد ورد هذا الحديث في الكتب الستة الأمهات (١) ولكن أحدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه في المدينة .

فهل ترى يعيينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمِّن على قول النبي ، وترى فيه مظهرا جميلا من مظاهر بشريته التي طالما أصر على الاعتراف بها ، وآية ناطقة بأبوته الرحيمة التي كانت مضرب الأمثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذي شاء الله أن يملأ به قلب النبي المختار ، في بيئة وأدت بناتها ؟! ..

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « علي » وهو ينصرف من المسجد اثر سماعه خطبة صهره النبي ، ويأخذ طريقه الى بيته بطيء الخطو ، مثقل القلب يفكر فيما كان ؟! ..

---

(١) صحيح البخاري ٢٩/٥٣٨ ، وصحيح مسلم : سنن أبي داود « كتاب ١٢ » وفي سنن الترمذي « كتاب ٤٦ » وفي سنن ابي ماجة ٥٦/٩ وفي مسند احمد ٣٢٦/٤ ، ٣٢٨ .

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الاسلام ؟ ..

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل في سبيل الدعوة المحمدية ؟ .. بل كيف هان عليه أن يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج كهذا لا يمكن أن يؤول الا بالرغبة في متاع حسي مادي ، لا يجده لديها ؟ ..

لقد كان لزواج « محمد » من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، والا فما باله صلى الله عليه وسلم ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، وقد بلغ الخمسين من عمره ، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد في سبيل الدين الجديد يملأ وقته ؟ ..

ألا فلتكن بنت أبي جهل من حظ غيره ، أما هو ، فليس بالذي يحبط جهاده الباسل ، فيستبدل بالنبي ، أبا جهل بن هشام صهرا ! .. وليس هو بالذي يؤذي نبيه وأباه وابن عمه ، في أحب بناته اليه ، ولن يكون أبو العاص بن الربيع ، قبل اسلامه ، أبر منه ببنت محمد ، ابن عمه عبد الله بن عبد المطلب ، ولا أرعى في مصاهرته للنبي ذماما ! ..

* * *

وينتهي به المسرى الى البيت ، حيث يجد « الزهراء » في وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لا يدري ماذا يقول ..

واذ رآها تبكي ، همس معتذرا :

ـ هبيني أخطأت في حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة ..

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب :

ـ غفر الله لك يا ابن العم ..

فلثم أطراف أناملها ، ثم راح يروي لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها مشاعره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره أن يتزوج علي من بنت أبي جهل مع الزهراء ،

وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا ! ..

واغرورقت مقلتا «فاطمة» بالدموع تأثرا بحب أبيها، وانفعالا بموقفه، ثم قامت للصلاة ! ..

* * *

وبقي سؤال ذو بال :

متى همَّ « علي » بالزواج على الزهراء بنت النبي ؟ ..

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكنا نطمئن الى أنها كانت في الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلي ، وانما يغرينا به فهمُنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه أقرب احتمالا ، قبل أن يُرزقا الولد ، حين كانت فاطمة وعلي في مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرُض هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول ! ..

وبهذا الاطمئنان ، نميل الى توقيت الحادثة على وجه التقريب ، بالعام الثاني من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج ..

* * *

انقشعت السحابة التي ظلَّلت أفق «الزهراء» حينا لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة : فاطمة في الدار تقوم على خدمة زوجها ، ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعليٌ الى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح في جو « المدينة » الذي لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شيء من اللين واليسر ..

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها ، فوضعت بكرها « الحسن بن علي » في السنة الثالثة من الهجرة (١) ، وسعى البشير الى أبيها النبي بالنبأ السعيد ، فخف اليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا الأذان في مسمعه ، ثم أقبل عليه يتأمله في غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام ! ..

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده صلى الله عليه وسلم على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة في هذه الفلذة الغالية منه ، فما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقه « الحسين » في شهر شعبان ، سنة أربع من الهجرة (٢) ..

وتفتح قلب النبي لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها « الزهراء » ، ورأى فيهما امتدادا لحياته الخاصة على هذه الأرض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التي يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضي الله عنها ..

كان الرسول اذ ذاك ـ في العام الرابع الهجري ـ في نحو السابعة والخمسين ، وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب من سبع عشرة سنة ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهلة الأرملة ، وعائشة بنت أبي بكر الصبية العذراء ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب ، وقد دخل بها في شوال من السنة الرابعة للهجرة (٣) ، وكان لها من زوجها الأول ، عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب : سلمة ، وعمر ، ودرة ، وزينب ، ومع ذلك ، لم يرزق النبي بولد من احدى هاتيك الزوجات

(١ ، ٢) الاستيعاب وطبقات ابن سعد : ترجمتا الحسن والحسين . رضهما .
(٣) تاريخ الطبري : ٤٢/٣ .

الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، الا أن يكون عن طريق ابنته « الزهراء » ..

فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء ..

بل لا عجب أن دعاهما ابنيه ، فعن أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم « كان يقول لفاطمة رضي الله عنها : ادعي لي ابنيَّ . فاذا ما جاءا اليه شمَّهما وضمهما » ..

ونقل الترمذي في (سننه) عن « أسامة بن زيد » أنه قال :

« طرقت باب النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو ، فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ ..

« فكشفه ، فاذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم اني أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما » ..

وكان اسماهما ــ رضي الله عنهما ــ نغمة حلوة في فم أبي الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد أنسه وسلوته عمن فقد من الأبناء !..

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر في ولدها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ..

كما كرم الله وجه « علي » ، فجعل في صلبه نسل خاتم الأنبياء ، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد ..

ولعل محمدا صلى الله عليه وسلم لو خُيِّر أي بناته تكون وعاء لنسله الطهور ، وأي أصهاره يكون أبا لأهل البيت الشريف ، لاختار ما اختاره له الله !..

فعليٌ ، أقرب أصهاره اليه مكانا وأمسهم رحما ، في عروقه ، يجري

الدم الهاشمي الأصيل ، وعند عبد المطلب يلتقي نسبه بنسب الرسول، فكلاهما له حفيد !

وقد كان لمحمد عند أبي طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى اذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ، ضم اليه عليا ابن العم أبي طالب ، وأنزله من بيته وفي قلبه منزلة الولد

وليس لأبي العاص بن الربيع ، ولا لعثمان بن عفان ، مثل هذه الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى ، وان كان لكل منهما موضعه الذي لا يسامى في قريش ، ومكانه الذي لا يجحد في الاسلام .

وكان « علي » يعرف منزلته عند صهره النبي ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

ـ أيهما أحب الى رسول الله : ابنته الزهراء ، أم زوجها علي ..

فأجاب الرسول في ابتسامة لبقة :

ـ فاطمة أحب اليَّ منك ، وأنت أعز عليَّ منها ! ..

وليس بمستغرب بعد هذا ، أن يعي الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلي وبنيهما ، ما نستطيع معه أن نتمثله صلى الله عليه وسلم وهو يرنو الى بيت صهره « علي » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فاذا وجد من وقته سعة ، عرج على دار الأحبة ، فأسعد أهلها بعطفه ، وأسبغ على حفيديه فيضا من حنانه الغامر ! ..

وحدث في احدى المرات أن الفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس ، والحسن يبكي ويطلب طعاما، فلم يهن على الأب النبيل أن يوقظ العزيزين النائمين ، بل أسرع الى غنمة كانت تقف في ساحة الدار ، فحلبها وسقى « الحسن » من لبنها حتى ارتوى !..

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا :

ـ أو ما علمتِ أن بكاءه يؤذيني ؟..

* * *

ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الأبوي من أثر عميق في اسعاد « فاطمة » التي أرهقها الحزن صغيرة ، وأنهكها العبء شابة ، بل لا أصف هنا مدى ما بعث في حياتها الزوجية التي عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا، من بهجة وأنس واشراق . فلقد أسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين الولدين الأثيرين عند أبيها صلى الله عليه وسلم ، وأرضاها ان تستطيع بفضل الله أن تهيىء لأبيها الحبيب ــ بعد أن انتقلت من بيته ــ هذه المتعة الغامرة التي يجدها في سبطيه الغاليين ..

ولم يكن علي ــ كرم الله وجهه ــ أقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل ازدهاه ، أن تتصل به حياة ابن عمه النبي هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبي الزكي ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو بنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبي وآل بيته الأكرمين ..

* * *

وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الأولى في العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التي لم ينسها أبوها ، ولا نسيتها أختها « فاطمة » قط !..

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » ، طفلة ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين !..

وبذلك قدر للزهراء أن تحيي بابنتيها ذكرى أختيها زينب وأم كلثوم بنتي النبي ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عَزَّ الولد ..

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم يفجعه في

الزهراء ولا في أحد بنيها حتى لحق ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى ..

لقد مات ولداه « القاسم وعبد الله » صغيرين ، ثم رزقه الله على الكبر غلامه الثالث « ابراهيم » في ذي الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة، فقرت به عيناه صلى الله عليه وسلم ، لكن الفرحة به لم تتم ، اذ ما لبث الهلال أن غرب ، وثكل النبي ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثاني ، وأبوه اذ ذاك قد جاوز الستين من عمره ! (١)

وكذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وهن في ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون ، واحدة بعد الأخرى ، في ثرى يثرب الذي ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لا يزال جنينا في رحم أمه « آمنة بنت وهب » ..

وعاشت له فاطمة، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وأنسا، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التي آدها ثكل البنين والبنات ، ولم يبق لها الا هذه البنت الحبيبة ، تعوض أباها عمن فقد ، وتعزيه عمن غاب ..

عاشت « الزهراء » ليظل محمد ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت ! ».

وعاش ولداها ليظل النبي الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب : « ابني » ..

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم ، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد أن أقام زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما ! ..

ووقف التاريخ الانساني يرقب مبهورا هذا النبي الانسان ، في أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية في فخر واعتزاز ، الى ما تواترت به الأنباء من حديث ذلك الحب الكبير ، الذي يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى من السماء !..

وما تزال حتى اليوم ، وحتى غد ، والى الأبد ، تتلو هذا الحديث ،

---

(١) الاصابة ج ١ ـ ابراهيم بن محمد ، والطبري حوادث السنة الثامنة ، والسمط الثمين ١٤٣ .

وترى فيه آية من آيات الله الذي سوّى ذلك البطل ، بشرا رسولا ! ..

وهيهات لها أن تنسى مشهد النبي وهو يمشي في أسواق المدينة حاملا أحد حفيديه على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه في رفق وأقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل السجود على غير المألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

ــ يا رسول الله انك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك ..

فقال :

ــ كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته !

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين، فجاء الحسن والحسين، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

ــ صدق الله : انما أموالكم وأولادكم فتنة ! .. نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما !..

أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفي الحسين ، وقدماه على قدمه صلى الله عليه وسلم ، يرقصه قائلا : « ترق ، ترق » فما يزال الصبي يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده، فيقول له : افتح فاك ! .. فيفتحه، ويقبله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « اللهم أحبه ، فاني أحبه ! »..

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما في نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين في السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بحفيده ، والغلام يفر ها هنا ، وها هنا ، فما زال ــ عليه الصلاة والسلام ــ يضاحكه حتى أخذه ، فوضع

احدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال :

« حسين مني وأنا من حسين ، أحب اللهم من أحب حسينا ! » ..

والناس من حوله خاشعون اجلالا ، يقول قائلهم : أراه صلى الله عليه وسلم يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لي ولدا وما قبَّلته قط !..

فيرد النبيِ الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يـَرحم ، لا يُرحم ! » ..

* * *

ويرخي الزمن للزهراء ، لتشهد أباها البطل وهو يغزو الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذي وعده الله به والمسلمين ، وتمسي رضي الله عنها ذات ليلة ، وهي تتأهب للسفر الى مكة ، وقد ذاد الكرى عن عينيها قربُ الأوبة الى الوطن الذي غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها المهاجر ، وتستعيد واياه ذكريات صباهما الحلو الذي مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيَّرها كرُّ الغداة ومر العشي ، ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لكليهما بالأمس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللا دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الشريفة ، أما يزال الحمام الأبيض الجميل يرتع في حماها آمنا ملء الحرية والطلاقة والحياة، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هنالك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر مَن رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟ ..

ومثوى خديجة ، وقبر أبي طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ،

أما تزال محتفظة بودائعها الغالية، أم نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفات الأعزة الراحلين ؟

وإذ هما في غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض علي ـ كرم الله وجهه ـ ليرى من الطارق بليل ، وتفتح « الزهراء » عينيها وان فيهما لبقية من خدر الذكرى ، فاذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد التي صنعت ما صنعت بشهداء أحد، ثم راحت تغري قومها بنبش قبر «آمنة أم محمد» اشتفاء وحقدا..

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر مجيئه الى المدينة لمَّا بلغ قريشا تأهبُ « محمد » للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روَّعه . فدخل على ابنته « رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول » فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهة أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى أبي بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلا : أأنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. فوالله لو لم أجد الا الدر لجاهدتكم به ! (١)

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبي طالب :

ـ يا علي ، انك أمَسُّ القوم بي رحما ، واني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئتُ خائبا ، فاشفع لي الى رسول الله ..

فقال علي :

ـ ويحك يا أبا سفيان ! .. والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ..

فالتفت « أبو سفيان » الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها « الحسن » الذي استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدي أمه :

---

(١) السيرة : ٤/٣٨

ـ يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بُنيِّك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

أجابت في هدوء :

ـ والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وقام « أبو سفيان » لينصرف محسورا ، لم يلبث لدى الباب برهة وقال في انكسار :

ـ يا أبا الحسن ، اني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ ، فانصحني

قال علي :

« والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك » .. (١)

قال :

« أوَ ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ »

فصمت « علي » يفكر لحظة ثم أجاب :

ـ لا والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك ...

فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار « علي » ، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان في عجائب القدر وتصاريف الأيام ، حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة الى أم القرى : مقر الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قريش ! ..

* * *

وسار النبي الى مكة في عشرة آلاف من المسلمين ، ميمما شطر البلد الحرام الذي تسلل منه منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه الا صاحبه وحموه الصديق ..

وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل الرسول ، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين ..

---

(١) السيرة : ٤/٣٩ .

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار، تلك البقعة التي كادت تلقى فيها حتفها وهي في طريقها الى دار الهجرة ، مع أختها « أم كلثوم » ..

وهاجت شجونها للذكرى : أين رقية ، وأين زينب ؟ .. لقد هاجرتا مثلها من مكة ، لكن الى غير رجعة أو مآب ..

وهذه هي ، تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث ، غير واحدة ، وثوت الأخريان في ثرى يثرب ..

غير أن الأطياف بقيت معها ، وهي تقترب من أم القرى ، فما انفكت في غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب « مَرّ الظهران » حيث عسكر النبي بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة ..

* * *

غير أن النهار لم يكد يولي ، حتى أقبل « أبو سفيان بن حرب » قائد لواء المشركين ، فبات ليلته بباب النبي انتظاراً لأمره صلى الله عليه وسلم في أهل مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا الى مكة فوقف بحيث يُسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » (١) ..

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام ، ووقف الرسول على راحلته بذي طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التي بين شفته وذقنه تمس الرَّحْل ..

ونظَّم دخول جيشه الى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على رأس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد بن عبادة ، فقال الرسول لعلي :

ــ أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها ! (٢) ..

---

(١) السيرة : ٤٧/٤ ــ والاستيعاب : ابو سفيان بن حرب وقد فصلنا الحديث عن اسلامه في الباب الخاص بابنته « أم حبيبة رضها » في كتاب « نساء النبي » .

(٢) السيرة : ٤٨/٤ وتاريخ الطبري . فتح مكة .

ومن قبل ، كان « علي » حامل « العقاب » في خيبر ، وهي أول راية للرسول (١) .

وكذلك حمل « علي » لواء الرسول في غزوة بني قريظة ، ولواء المهاجرين يوم أحُد (٢) .

ودخل الرسول من « اذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضُرِبت له قبة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة » ..

وصحبته اليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألم بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذي نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهي مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الأرض ..

لكن أباها لم ينس !

وهذا هو يعهد الى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان من هؤلاء الحويرث بن منقذ ، وقد تولى قتله زوجُ الزهراء ..

وسجد الرسول لله شاكرا ..

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهي تصغي الى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله والله أكبر ....

* * *

ثم أوى البطل الظافر الى قبته ، حيث كانت «الزهراء» تنتظره هناك ..

حدثت أم هانىء بنت أبي طالب ــ وكانت زوجة لهبيرة بن أبي وهب المخزومي ــ قالت :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٧/١ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧/٢ .

وقد حمل « علي » بعد ذلك لواء الرسول يوم حنين « الطبقات الكبرى ١١٧/٢ » .

« لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فرَّ اليَّ رجلان من بني مخزوم ـ قال ابن هشام : هما الحارث بن هشام ، وزهير بن أمية بن المغيرة ـ فدخل عليَّ أخي ، علي بن أبي طالب ورآهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم انصرف اليَّ فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانيء ، ما جاء بك ؟ .. فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرتِ ، وأمَّنا من أمنتِ ، فلا يقتلهما » (١) ..

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس اثر موجة الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة . فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب في الناس خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ .. قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

وأقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الضخم الذي لم تشهد قط مثله حول قائد نبي ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان ..

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها البطل ، ترقد ساهرة في فراشها ، يقظى لا تنام ..

كم شاقها في ذلك الليل الساجي أن تتمثل أمها خديجة وهي تطل من علاها على حبيبها النبي في يومه الأغر الميمون .. ؟!

---

(١) السيرة : ٤/٥٥ .

وكم شجاها أن تتمثل شقيقتيها الراقدتين بيثرب ، تسري روحاهما الى البلد العتيق الذي لم يكتب لهما رجعة اليه ، فتطيفا بمن بقي من الأهل والأحباب ، وتشاركا في فرحة النصر المؤزر ؟!

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة في البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وكم استهواها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام ، ليؤدوا للمرة الأولى في تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح في البيت العتيق المطهر من الأوثان !

وقال « علي » وهو يتهيأ للخروج الى صلاة الصبح :

ـ أما نمتِ يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

ـ بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة ، وكأني أشفق اذا نمت ، أن يكون الأمر كله حلما في الكرى ..

ثم قامت تصلي ، وغفت قليلا بعد أن طال بها السهر ..

* * *

وأصبحت تمني نفسها بالعودة الى دار مولدها ، ومرتع صباها وصبا « علي » ربيب النبي ، ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة الى ملك « عقيل بن أبي طالب » وقد سئل الرسول يومئذ : ألا تنزل منزلك ؟

فقال :

ـ وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ (١)

وتساءلت الزهراء : ترى أي دار يختار أبي لتكون لنا في مكة منزلا ؟ وكذلك تساءل الأنصار ، وقد ظنوا أن الرسول مقيم بمكة ، لما

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٩٨ .

رأوا من ابتهاجه صلى الله عليه وسلم باسلام قريش ، وحرصه على تألفهم ، وغبطته بالرجوع الى مكة بعد طول اغتراب ..

وقال قائلهم :

« لقد لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ! » ..

وأنشد شاعرهم « حسان بن ثابت الانصاري » يعاتب الرسول على ايثاره قريشا وقبائل العرب بالعطاء والفيء دون الأنصار :

وأتِ الرسول فقل : يا خير مؤتَمَن
للمؤمنين اذا ما عدد البشر

علام تُدعى « سليم » وهي نازحة
قُدّامَ قوم همو آووا وهم نصروا ؟

سماهم الله أنصارا بنصرهم
دينَ الهدى وعوان الحرب تستعر

وسارعوا في سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا

والناس الب علينا فيك ، ليس لنا
الا السيوف وأطراف القنا وَزَرُ

فما ونينا ، وما خُنّا ، وما خبروا
منا عثارا وكل الناس قد عثروا ! (١)

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمع كل من في مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، وأشفقت من الموقف الصعب ، وان اطمأنت الى أن أباها صلى الله عليه وسلم سوف يجد منه مخرجا ..

لكن أي مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت أباها يسأل « سعد بن عبادة » وقد شكا له ما تجد الأنصار :

ــ فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

---

(١) السيرة : ١٤٠/٤ .

أجاب الرجل :

ــ يا رسول الله ، ما أنا الا من قومي ..

فلم تبد على النبي العربي بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب اليه أن يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » ، خرج اليهم الرسول فحمد الله وثنى عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ .. ألم آتكم ضُلاّلا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ » ..

أجابوا :

« بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل » ..

قال :

« ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ » ..

قالوا مشفقين :

« بماذا نجيبك يا رسول الله .. لله ولرسوله المَنّ والفضل » .

فما راعهم الا أن قال النبي الكريم :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم : أتيتَنا مكذّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! .. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم ، في لعاعة ــ بقلة خضراء ناعمة ــ من الدنيا تألفتُ بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟ .. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ .. فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكتُ شِعبا لسلكت شعب الأنصار ! .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! » ...

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء ايمانهم : رضينا برسول الله قسما وحظا ! (١) ..

---

(١) السيرة : ١٤٢/٤ وتاريخ الطبري ، غزوة الطائف ، حوادث السنة الثامنة

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد رأوا الرسول يوشك أن ينصرف راجعا الى دار الهجرة التي اختارها منزلا ومقاما ..

وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل ! ..

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها الى مدينة الأنصار ، في أخريات ذي الحجة من العام نفسه ..

لكأنما كان الأمر كله ، كما قالت فاطمة في الليلة الأولى بعد الفتح ، حلما في الكرى أو رؤيا منام ..

وقد امتد الحلم الهنيء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة أبيها تستجلي طلعته البهية في الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها أن تنعم . وقد أتيح لها في تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت من الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها ـ أحفاد الرسول وأحبابه ـ تاركة شؤون الدار لخادم جاء بها « علي » بعد أن أيسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر !

* * *

ثم كانت اليقظة المروعة !

شكا أبو الزهراء صلى الله عليه وسلم من مرض ألم به ، في ليال بقين من صفر في السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت ! ..

غير أن « أم أبيها ، الزهراء » لم تكد تسمع بشكوى أبيها النبي ، حتى أجفلت وكأنما لسعتها نار ! ..

ذلك أنها ذكرت حديثا أسَرَّ به صلى الله عليه وسلم اليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند أم المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة، أشبهَ أحد به سمتا وهديا، على ما وصفت عائشة ، هشَّ للقائها

قائلا : « مرحبا بابنتي » ..

ثم قبلها وأجلسها الى يمينه وأسر اليها أنه يحسب أن قد حان أجله ، فلما بكت هون عليها بقوله : (١)

« وانك أول أهل بيتي لحوقا بي » ثم أضاف : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة ؟ » ..

فسرَّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت عائشة وقالت : « ما رأيت كاليوم فرحا أقرب الى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسر به الرسول اليها . فأجابت أم أبيها :

« ما كنت لأفشي على رسول الله سرَّه ! » ..

وانصرفت يومئذ الى دارها ، وقد رد اليها بعضَ طمأنينتها أن رأت أباها صلى الله عليه وسلم صحيحا معافى ..

فلما بلغها بعد أيام أنه يشكو ، ساورها قلق مشوب بالخوف ، وأسرعت الى بيت أبيها وهي تحس أن قلبها قد سقط من موضعه في صدرها ..

ورأته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت « أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية » تتامَّ به وجعه فدعا زوجاته اليه واستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة (٢) ..

وأقامت « الزهراء » الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال ..

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول : « واكرباه ! ..

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

« واكربي لكربك يا أبتاه ! » ..

---

(١) صحيح البخاري : ١٢/٦٢ ـ وصحيح مسلم : ٦٧/٤٤ وطبقات ابن سعد ، ١٦/٨ .

(٢) الاستيعاب : ج ٨ ترجمة السيدة عائشة وانظر معه السيرة ج ٤ وتاريخ الطبري .

فرد عليها وهو يرنو اليها في عطف وحنو : « لا كرب على أبيك بعد اليوم ! » ..

ثم حم القضاء ، ولحق محمد بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا ! ..

* * *

وأذهلها المصاب الفادح ، فما أفاقت من غشيتها الا وقد تمت البيعة « لأبي بكر الصديق » في السقيفة ، ولما يكد يمضي على وفاة الرسول غير ثمان وأربعين ساعة فحسب ! ..

وجمعت كيانها الممزق ، وتحاملت تسعى الى قبر الحبيب وما تقوى قدماها على حملها ، حتى اذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرحهما البكاء (١)، ثم راحت تشمها وهي تقول متفجعة:

ماذا على مَن شمَّ تربة أحمد
ألا يشم مدى الزمان غواليا ؟ ..
صُبَّت عليَّ مصائب لو أنها
صبت على الأيام عُدنَ لياليا ! ..

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها في حركة يائسة ، ثم تحدق في يديها الفارغتين ، وتمضي ، كمن فرغت من الدنيا ! ..

وأتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا بلغت دارها استأذن عليها « أنس بن مالك : خادم أبيها النبي » وراح يسألها الصبر الجميل ..

قالت له معاتبة :

ـ كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟ ..

---

(١) صحيح البخاري : ٦٤ ك ، ٨٣ باب وطبقات ابن سعد ٢/٢ ومسند احمد : ١٤١/٣ .

فشهق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواه على أن يعاود الحديث في الصبر والعزاء ! ..

الصبر والعزاء ؟ .. كيف وكل مصاب بعد مصابها لم !؟ ..

* * *

ودخل على أثره زوجها « علي » كرم الله وجهه ، وفي صحبته رجال من بني هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذي كان من أمر البيعة ..

وتذاكروا بلاء « علي » في نصرة الاسلام ، ومكانه من رسول الله :

لقد شهد « علي » مع الرسول مشاهده كلها ..

وكان يحمل لواء المهاجرين يوم أحد ، ولواء الرسول يوم غزوة بني قريظة ، وحمراء الأسد ، ويوم حنين ..

وحمل يوم خيبر ، أول راية للاسلام .. وكان صلى الله عليه وسلم قد اتخذها من برد لزوجه « عائشة » أم المؤمنين ، وقال :

« لأدفعن الراية الى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ويفتح عليه .. »

فتطاول « عمر بن الخطاب » لها واستشرف ، رجاء أن يدفعها الرسول اليه . فلما كان الغد ، دعا الرسول « عليا » ودفعها اليه (١) ..

ويوم الفتح ، كانت الراية مع « سعد بن عبادة » فقال الرسول لعلي : « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها » (٢) ..

وقاد سرايا الرسول الى «فدك» في شعبان من السنة السادسة للهجرة..

والى « الفُلس : صنم طيىء » في السنة التاسعة ..

والى « اليمن » في السنة العاشرة ..

وعاد منها جميعا مظفرا منصورا ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٨٠ .
(٢) السيرة : ٤/٤٨ .

وعلى « القصواء » ناقة الرسول المباركة ، خرج « علي » الى الحج بعد الفتح بعام (١) ..

ويوم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، اصطفى « عليا » أخا

ويوم خرج الى « بدر » غازيا ، ومعه أصحابه ، كل ثلاثة على جمل ، أختار عليا وأبا لبابة زميلين ، وقد عرضا عليه صلى الله عليه وسلم أن يمشيا ليستريح في مركبه ، فأبى وقال :

« ما أنتما أقوى على المشي مني ، وما أنا أغنى عن الأجر منكما » (٢)

وتذاكر القوم أحاديث الرسول لعلي ، وفي علي :

« أنت مني بمنزلة هرون من موسى » (٣)

« أنت مني وأنا منك » (٤)

« أنت وليّ كل مؤمن بعدي » (٥)

« من كنت مولاه ، فعليّ مولاه » (٦)

« لا يحبه الا مؤمن ، ولا يبغضه الا منافق » (٧)

أهنـاك من هو أحق بالخـلافة من « علي » ربيب النبي ، وابن عمه أبي طالب ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبي الحسنين ريحانتي الرسول ، وأول الناس اسلاما ، وأطولهم في الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما؟ ..

وأمسكت « الزهراء » صامتة لا تعقب ، ومضت أيام وهي في عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذي أباه عليها أبو بكر ، وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال ؟ ..

وكانت بحيث تظل منطوية على جراحها وحزنها ، لو لم يدعها الواجب ان تؤدي حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى في رد الأمر الى أهل بيت الرسول ..

وحملها « علي » فوق دابة ، وخرج بها ليلا فطافت بمجالس الأمصـار مجلسا مجلسا ، تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب من حق جُحِد .

(١) طبقات ابن سعد : ١٢١/٢ . (٢) طبقات ابن سعد : ١٤/٢ .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حنبل .
(٤) رواه البخاري ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حنبل . (٥) رواه الترمذي وابن حنبل .
(٦) رواه ابن حنبل ، في اكثر من موضع . (٧) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حنبل .

أجابوا جميعا :

« يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبي بكر ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق الينا لما عدلنا به أحدا » ..

فكان الامام يقول :

« أفكنت أدع رسول الله في بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع في سلطانه ؟ » (١) ..

وترد فاطمة :

«ما صنع أبوالحسن الا ما ينبغي، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»..

* * *

ورجعت الى بيتها فلزمته ، فما راعها حين أصبحت الا ضجة قد علت قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت « عمر » يحاول أن يدخل ، وهو يقسم منذرا ، أن سوف يحمل « عليا » على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا من تفرق كلمة المسلمين وانتثار قواهم . فصاحت الزهراء بملء لوعتها :

« يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة ؟ » ..

فضج الناس بالبكاء ، ومضى « عمر » محزونا مغلوبا على أمره . فأتى « أبا بكر » وسأله أن ينطلق معه الى « الزهراء » لعلهما يحاولان استرضاءها ..

واستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، حتى جاء « علي » وأدخلهما فسلما ، لكنها أشاحت بوجهها عنهما واستدارت الى الحائط معرضة مغضبة ..

واستطاع « أبو بكر » رضي الله عنه أن يجد صوته ويقول :

ـ يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الي من قرابتي ، وانك لأحب الي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك ، وأعرف فضلك وشرفك ،

---

(١) كان علي رضه ـ هو الذي غسل الجسد الشريف ، انظر طبقات ابن سعد ٢/٦٠ ومسند احمد ٢٦٧/١ ـ والسيرة ج ٤ .

وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، الا أني سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركنا صدقة ؟ ..

فقالت فاطمة :

ــ أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعرفانه وتعملان به ؟ ..

أجابا بصوت واحد : نعم ..

قالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضى فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟

أجابا : بلى ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

قالت : فاني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ...

فارتاعا لما سمعا ، وخرج أبو بكر الى الناس والدمع ينساب من مقلتيه ، فسألهم أن يقبلوه من بيعتهم ، لكنهم أبوا حتى لا تكون فتنة ! .. (١)

* * *

ولا يذكر المؤرخون ــ فيما قرأت ــ أن الزهراء قد حاولت بعد ذلك أن تسترجع ما فات ، وانما الذي وعاه التاريخ أنها أسلمت نفسها للحزن ، فلم تر قط منذ مات أبوها صلى الله عليه وسلم ، الا محزونة باكية ..

وعز العزاء ، وغلب الصبر ولم يبق لها من رجاء الا أن تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل ..

وما أسرع ما لحقت به ! ..

أصبحت يوم الاثنين ، الثاني من رمضان سنة احدى عشرة ، فعانقت بنيها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت اليها « أم رافع » مولاة أبيها عليه

---

(١) انظر صحيح البخاري ك ١/١٥٧ وصحيح مسلم ٥٢/٣٢ وطبقات ابن سعد : ج ٢ ، ج ٨ . وسنن الترمذي ٤٤/١٩ .

الصلاة والسلام ، فقالت لها بصوت واهن خفيض :

ـ يا أمه ، اسكبي لي غسلا ..

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

« اجعلي فراشي في وسط البيت » ..

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب ...

ثم أغمضت عينيها ونامت ! ..

وقام «علي» فاحتملها باكيا ، ودفنها بالبقيع ، ثم ودعها وعاد محزونا الى صغاره ، والى البيت الذي أوحش من بعد « الزهراء » ..

وبات المسلمون محزونين ، بعد أن شيعوا الى القبر آخر بنات النبي ، ولما تمض ستة أشهر بعد وفاته ، على أرجح الأقوال (١) .

* * *

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن في غير هذا العالم ، فضم ثرى يثرب جثمـان فاطمة كما ضم جثمان أبيها صلى الله عليه وسلم وأخواتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، رضوان الله عليهن ..

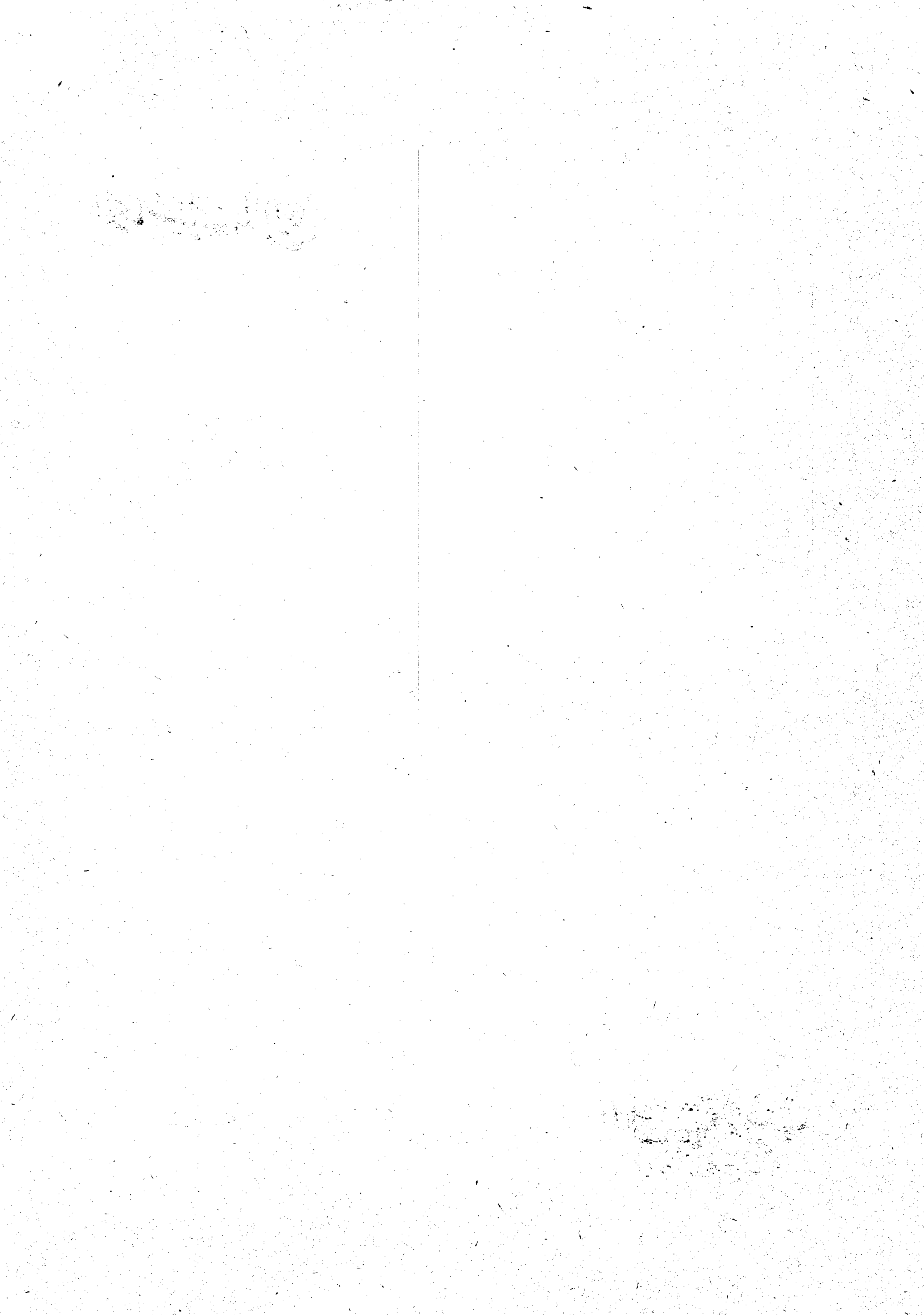
وطوى القدر الصفحة الأولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث أن عاد بعد حين الى الكتاب التاريخي الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين ، وخدعة الدعوة العباسـية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك كله من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار في حيـاة العقيدة الاسلامية ، وفي التاريخ المذهبي والسياسي للمسلمين ! ..

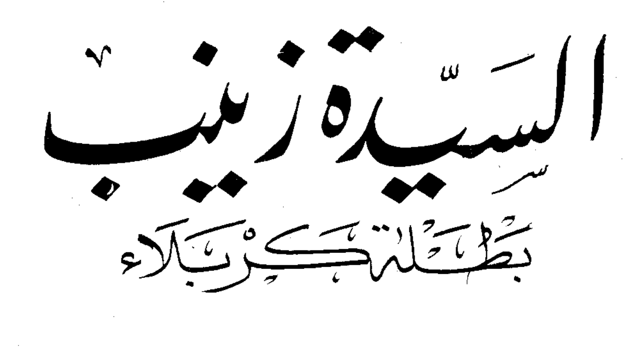
---

(١) طبقات ابن سعد : ١٧/٨ ـ وجمهرة انساب العرب ١٤ والاستيعاب : ١٨٨٨/٤ .

الكتاب الرابع

السيدة زينب
بطلة كربلاء




السيدة زينب
بطلة كربلاء



الإهداء

الى أبي ...

فضيلة الأستاذ « الشيخ محمد علي عبد الرحمن »

ذكرتك يا أبي وأنا أكتب كل كلمة في هذا الكتاب ، فلما فرغت منه شعرت كأنما كنت معي : تكتبه لي وتمليه علي ...

ها هو ذا ، أهديه اليك ، تحية ذكرى ووفاء لعهد خلا ، أيام كنت صبية أباهي بك لداتي وأترابي جميعا ، حين نمر «بمعهد دمياط الديني» ــ في جامع البحر بدمياط ــ في طريقنا الى مدرسة اللوزي للبنات ، فنراك من نافذة المعهد ، في حلقة من طلاب العلم ، يصغون الى درسك بكل عقولهم وكل جوارحهم. فاذا عدنا من المدرسة، ألفيناك في حلقة أخرى من صحبك ومريديك يأخذون « العهد » عليك، ويصغون وأصغي معهم الى حديثك المؤثر عن طريق الوصول الى الحق ، فأشعر ــ على صغر السن ــ أنني أتطاول الى ذاك الأفق العالي الذي تحلق فيه، وأستشرف له طامحة مريدة!

ولم أنس يا أبي ، على بعد العهد وتطاول الأيام ، مجلسك فينا تحدثنا عن آل البيت الكرام أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبَّهم ، وعلمتنا أن نزهو بشرف انتسابنا اليهم !

أذكرها يا أبي ليلة من ليالي شهر رجب ، وقد رأيناك تتهيأ للسفر في غد الى القاهرة ، لحضور المولد الزينبي ، وأمنا الغالية ــ نضر الله وجهها ــ تترقب ساعة الوضع . فالتمسناك ــ أنا وشقيقتي الكبرى فاطمة ــ

وأنت في خلوتك تتجهد ، ورجوناك أن تلغي سفرك ذاك أو ترجئه ، فقد كنا خائفتين ..

قلت لنا :

ــ لا تخافا ولا تحزنا ، فالله معها ...

ثم أفسحت لنا مكانا الى جانبك على سجادة صلاتك ، ومضيت تحدثنا عن رحلتك التي لم تكن تستطيع أن ترجئها ، لأنك تؤدي بهـا واجبا مفروضا ، هو المشاركة في الاحتفال بذكرى « السيدة زينب » ..

ومضى وهن من الليل ونحن في مجلسنا منك ، نسمع قصتها المؤثرة ، فلما أسفر الصبح ودعتنا وأنت تقول لأمي :

ــ ان وضعتـها أنثى ، فسميـِّها زينب ....

ثم تركتها وأيانا لرعاية الله ..

ومن تلك الليلة يا أبي وعيت اسم « السيدة زينب » وبعض ملامحها اللافتة المؤثرة ، ثم لم أنسها أبدا ..

واليوم شاقني أن أكتب عن « السيدة » فلما تهيأت للكتابة ، ألفيتني أعود الى أمسي ذاك البعيد ، فأتمثله شاخصا أمامي ملء الحياة ، وظل هكذا : شاخصا ، ماثلا ، حاضرا ، حتى فرغت من الكتابة ، فوضعت قلمي وأنا أشعر بشيء من الاجهاد ، وغفوت حالمة ، أذكر الماضي الذي ولى وراح ..

واستمرأت طعم هذا الشجن ، فكدت أسلم له نفسي ، لولا اني سمعت نداء طفلتي من بعيد ، فصحوت من اغفاءتي وأنا أردد :

أبقاك الله يا أبي ...

ورحم الله أمي ...

عائشة

مقدّمة

هذا الكتاب ليس تاريخا بحتا ، وان أخذ مادته كلها من مراجع تاريخية أصيلة ، كما انه ليس قصة خالصة ، وان اصطنع الأسلوب القصصي ـ غالبا ـ في العرض والأداء .

وانما هو صورة لأنثى قُدِّر لها أن تعيش في فترة تعج بجليل الأحداث، وأن تلعب على مسرح الدولة الاسلامية دورا ، أقل ما يوصف به انه دور ذو شأن :

اقترن اسمها في تاريخنا، والتاريخ الانساني ، بمأساة فاجعة هي مأساة « كربلاء » . وهي مأساة أجمع المؤرخون على أنها كانت احدى المعارك الحاسمة في تاريخ الشيعة بخاصة ، والتاريخ الاسلامي بعامة ، ثم ذهب بعضهم بعد ذلك ، الى أنها كانت أخطر تلك المعارك جميعا، وعدوها الطور الحاسم الذي أصَّل التشيع ومكَّن له مذهبا ، ومن ثم فهم يرون أن الدم المسفوح في تلك الواقعة المشؤومة ، هو الذي صبغ تاريخنا السياسي والمذهبي بتلك الصبغة الدامية التي نعرفها في « مقاتل الطالبيين » ونضال « الشيعة » .

ولم يجحد هؤلاء ولا أولئك دور « السيدة زينب » في المأساة ، بل ان منهم من سماها « بطلة كربلاء » لأنها السيدة الأولى التي ظهرت في اللحظة الحرجة ، تأسو الكلوم ، وتواسي المحتضرين ، وتثور للضحايا الشهداء الذين نبذوا هناك في العراء : أشلاء مبعثرة تنهشها الطيور الجارحة ووحش الفلاة .

لكني أرى دورها الحقيقي قد بدأ بعد المأساة ، اذ كان عليها أن تحمي

السبايا من الهاشميات اللاتي فقدن الرجال ، وان تناضل مستميتة عن غلام مريض ــ هو علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ــ كاد لولاها أن يذبح ، فتفنى بذهابه يومئذ سلالة الامام . ثم كان عليها بعد ذلك ألا تدع الدم المسفوك يذهب هدرا ...

وما أحسبني أغلو أو أسرف ، اذا زعمت أن موقف السيدة زينب بعد المذبحة ، كان من بين المواقف التي جعلت من « كربلاء » مأساة خالدة !

ولم تعش « زينب » طويلا بعد الفاجعة ، فما كان الذي كابدته من محن وآلام بحيث يُحتمل أو يطاق ، لكنها استطاعت في تلك الفترة القصيرة التي عاشتها ، أن تشعل في نفوس الشيعة حزنا مستعرا لم يخمد لهيبه حتى اليوم ، وان ترهق الذين أسلموا آل البيت بوخز الحسرة والندم ، وتجعل التكفير عن خطيئتهم ميراثا رهيبا مقدسا ، يتوارثونه جيلا بعد جيل ...

* * *

وأعود فأقول ان هــذا الكتاب لا يعدو أن يكــون صورة لحياة تلك « السيدة » ، رسمها المؤرخون الثقاة من قبلي ، ثم جاء « المنقبيون » فأضافوا اليها ظلالا شبه أسطورية ، لها روعتها وسحرها ، وعميق ايحائها ، وصدق دلالتها على مكانة العقيلة الهاشمية في قلوب محبيها ، وصورتها في وجدانهم .

* * *

وقد حرصت ما استطعت ، على أصالة الألوان التاريخية في الصورة ، دون أن أهدر هذه الظلال أو أهون من شأنها : لأنها ــ مهما يكن رأي العلم والتاريخ فيها ــ عنصر في صورة « السيدة » كما تمثلها السابقون وكما رأوها ، ولا أرى من حقي أن أستهين بأي ظل منها ، الا اذا كان من حق الدارس النفسي أن يسخر بالأوهام والأحلام .

وكل عملي في الكتاب ، اني ألفت بين الألوان التاريخية والظلال المنقبية لأجلو منها صورة لتلك التي شاركت في صنع تاريخنا الاسلامي ، وذهبت في تاريخ الانسانية ، قصة وعبرة ومثلا ..

الفصل الاول

في بيت النبوة

- آباء وأجداد
- ظلال على المهد
- الصبا الحزين

آباءٌ وأجدادٌ

كان البيت الكريم ينتظر ساعة الوضع في لهفة وترقب ، ومن ورائه عشرات الألوف ممن أسلموا ، يترقبون النبأ السعيد وقلوبهم تحف بالسيدة الوالدة اجلالا ومحبة ، وألسنتهم تلهج لها بالدعاء الحار ...

انها « الزهراء » بنت النبي ، توشك أن تضع في بيت النبوة مولودا جديدا ، بعد أن أقرت عيني الرسول بسبطيه الحبيبين : الحسن ، والحسين ، وثالث لم يقدر له أن يعيش ، هو المحسن بن علي (١) .

وحانت الساعة المرتقبة ...

وأذيعت البشرى أن « الزهراء » قد وضعت أنثى باركها جدها النبي واختار لها اسم «زينب» احياء لذكرى ابنته الراحلة « زينب » التي كانت قد توفيت قبل ولادة الطفلة بقليل ، فوجد الرسول عليها ، وحزن لفقدها حزنا ثقيلا ! ..

تلك الراحلة ، هي كبرى بناته صلى الله عليه وسلم (٢) ، تزوجت ابن خالتها « أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس » قبل النبوة، فلما كان المبعث أسلمت هي ولم يسلم ، على انه ظل رفيقا بها محبا لها ، وأبى أن يستجيب لطلب قريش أن يفارقها كما فعل ابنا « أبي لهب »

---

(١) لم يذكره « ابن عبد البر » مع والد الزهراء ، في (الاستيعاب) والزبيري في (نسب قريش) وذكره ابن حزم في (جمهرة انساب العرب : ١٤ ، ٢٣) ذخائر . والطبري في تاريخه (٦/٤٠ ط مصر) .

(٢) أنظر ترجمة « زينب بنت النبي » بمزيد تفصيل ، في كتابنا (بنات النبي) . وراجع ترجمتها في (الاستيعاب) لابن عبد البر : ٤/١٨٥٣ ط نهضة مصر .

زوجا أختيها « رقية ، وأم كلثوم » . حتى كانت غزوة « بدر » وأسر « أبو العاص » فيمن أسر من مشركي قريش ، فأرسلت « زينب » ــ وهي لا تزال بمكة ــ تفتديه ، وبعثت قلادة كانت أمها « خديجة » ــ رضي الله عنها ــ قد أهدتها اياها يوم زواجها بأبي العاص ، فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم القلادة ، رق قلبه لها وقال لصحابته :

ــ ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا .

قالوا :

ــ نعم يا رسول الله ...

وأطلق النبي أسيره ، على أن يرسل « زينب » الى المدينة ، فما عاد لها مكان في بيت « أبي العاص » وقد فرق اسلامها بينها وبينه ..

وهاجرت « زينب » الى المدينة تطوي جوانحها على شجو وشجن ، وبقي « أبو العاص » بمكة ، يغالب شوقه الى زوجه النائية .

ثم خرج من بعدذلك في تجارة الى الشام ، فأسرته حين عودته سرية للمسلمين ، غلبت على القافلة المكية بمن فيها من رجال وعير ومال ، لكن « أبا العاص » تمكن من الافلات ودخل « المدينة » مستخفيا يلتمس زوجه « زينب » فلما بلغ دارها ، لاذ بها مستجيرا فرحبت به وأمنت روعه ، ثم تمهلت حتى صلى الرسول صلاة الصبح بالمسجد فصاحت بأعلى صوتها :

ــ أيها المسلمون ، اني قد أجرت « أبا العاص بن الربيع » .

وتناهى صوتها الى أبيها فمس قلبه ، وأقبل على من حوله يسألهم :

ــ هل سمعتم ما سمعت ؟

أجابوا :

ــ نعم :

قال :

ــ فوالذي نفسي بيده ما علمت بذلك حتى سمعت ما سمعتم !

ثم صمت برهة ، عاد بعدها يردد ما قرره من قبل :

« يجير على المسلمين أدناهم ... »

وقام يسير صامتا ، متمهلا ، حتى دخل على ابنته « زينب » وهي جالسة تترقب ، وكأنها تصغي الى صدى صيحتها ...

قال لها أبوها :

ـ أكرمي مثواه ، ولا يخلص اليك فانك لا تحلّين له !

قالت وقد هزها الفرح :

ـ أي وربي ، ولكن ، هلاّ رددتم عليه ماله ؟

فلم يجب أبوها ، وانما انطلق عائدا الى صحبه، فدعا اليه رجال السرية التي أسرت قافلة قريش وقال :

ـ ان هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذي له ، فان أبيتم فأنتم أحق .

قالوا : بل نرده عليه .

وودع « أبو العاص » تلك التي كانت زوجه ...

وأثنى على ذاك الذي كان صهره وصديقه وزوج خالته .

وانطلق الى « مكة » وقد اعتزم أمرا ...

وهناك ، أدى الى الناس ما كان في عهدته من أمانات لهم ، ثم تساءل عما اذا كان لأحد في ذمته بقية مال ؟

أجابوا : لا .

قال : اذن فاعلموا أني قد أسلمت ...

وقفل راجعا من حيث جاء : الى « المدينة » ليبايع صاحبه ، ويتزوج « بزينب » مرة ثانية ...

لكن « زينب » ما لبثت أن ماتت ــ في السنة الثامنة للهجرة ــ متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من « مكة » الى « المدينة » بعد « غزوة بدر »، ذلك أن أحد المشركين لقيها وهي في الطريق الى دار الهجرة ، فنخسها في بطنها وكانت حاملا فأسقط حملها (١) .

ماتت ، وظل أبوها صلى الله عليه وسلم ، يجد في قلبه لوعة الحزن ، حتى اذا ما ولدت أختها « الزهراء » أنثاها الأولى ، سماها « زينب »

وتعالى هتاف « المدينة » للوليدة : مدينة الرسول التي استقبلته منذ ستة أعوام مهاجرا بدينه اليها من « مكة » بعد اضطهاد مريــر دام نحو ثلاثة عشر عاما ، فتلقاه أهلها في حماس منقطع النظير، وأنزلوه وصحابته المهاجرين منزلة عزيزة ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يذكرها ما عاش لأولئك الأنصار الذين آووه ومنعوه وأتاحوا له أن يذيع رسالة السماء .

أجل ، تعالى هتاف « المدينة » في العام السادس من الهجرة ، للوليدة الغالية « زينب بنت علي » تلك التي تلاقى فيها أعز ما عرفت قريش والعرب من كريم الأصول ونقي السلالات :

* * *

أمها « الزهراء » : أحب بنات الرسول اليه وأشبههن به في خَلق وخُلق، آثرها الله بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث : «زينب ، ورقية ، وأم كلثوم» فكتب لها أن تكون ــ وحدها ــ الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت ...

* * *

وأبوها : « علي بن أبي طالب » ابن عم النبي ووصيه ، وأول من آمن به صبيا ، وفتى قريش شجاعة وتقى وعلما .

* * *

(١) الاستيعاب ٤/١٨٥٥ .

وجدّاها لأمها : « محمد رسول الله » و « خديجة بنت خويلد » : أولى أمهات المؤمنين ، وأقرب زوجات النبي اليه وأعزهن عليه حية وميتة ، انفردت بحبه واعزازه خمسا وعشرين سنة ، لا تشاركها فيه امرأة أخرى ، ووقفت الى جانبه في سني الاضطهاد الأولى تؤازره وترعاه ، وتهون عليه ما يلقى من قريش في سبيل رسالته .

كانت وحدها الى جانب « محمد » لما آب من غار « حراء » مرتعدا مقرورا وقد نزل عليه أمين الوحي رسولا من عند الله ، يلقي الى الأمي اليتيم الآية الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

ولدى « خديجة » ـ قبل سواها ـ سكنت نفسه واطمأنت ، وزايله ما عراه من رهبة الوحي ، فعلم انه المصطفى المختار للأمر الجليل ، وهي الى جانبه مؤمنة مصدقة ، واثقة راجية ، محبة متفانية ، لا يزعزع ثقتها فيه وايمانها به أن قريشا تنكر ما جاء به ، وأن شيوخ قومها قد يظنون به الظنون ويتهمونه بالسحر أو بالجنون ، فكانت ثقتها في الرجل الذي أحبته وصدقته وآمنت به حتى الرمق الأخير ، تضفي ـ كما يقول «بودلي» في كتابه (الرسول) جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد من كل ستة من سكان العالم . (١)

وما كانت « خديجة » في سن تهون عليها احتمال المتاعب والآلام ، ولا كانت قد تعودت طوال حياتها شظف العيش أو شقوة الحرمان ، لكنها رضيت ـ وهي في تلك السن العالية ـ أن تستبدل بحياتها الناعمة المترفة الهادئة ، حياة القلق والخشونة والجهاد ، واحتملت في بطولة ، محنة الحصار الذي فرضه القرشيون على بني هاشم حتى كادوا يهلكونهم جوعا !

ولقد ماتت « خديجة » ومحنة الاضطهاد في ابانها ، لكنها كانت قد

---

(١) وانظر معه كتاب (حياة محمد : لدرمنجم : ص ٥٨ من الترجمة العربية للمرحوم عادل زعيتر .

مكنت للدعوة وتركت الى جانب رجلها صحابة مخلصين ، يؤمنون بـه ويؤثرون الموت على التخلي عنه . وكان فقدها في هذه الفترة العصـيبة بدء مرحلة جديدة من مراحل الجهاد ، اذ نبا بالرسول بعدها مكانه بمكة، فكانت « الهجرة » التي يؤرخ بها المسلمون حتى اليوم ، والى الأبد .

هاجر وفي قلبه ذكرى باقية لتلك الحبيبة الأولى ، ولم تستطع واحدة من زوجاته اللواتي جئن بعدها ـ حتى عائشة نفسها ـ أن تمحو هـذه الذكرى الحية في قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، أو تؤذي جلالها :

أقبلت « هالة » ـ أخت خديجة ـ ذات يوم لزيارة الرسول في « المدينة » فلما سمع « محمد » صوتها في فناء دوره ـ وكان يشبه صوت العـزيزة الراحلة ـ اهتز انفعالا وشجوا ـ فقالت له « عائشة » بعـد انصراف « هالة » :

ـ ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها ؟

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، ورد على « عائشة » زاجرا :

ـ والله ما أبدلني الله خيرا منها : آمنت بي حين كذبني الناس وواستني بمالها حين حرمني الناس ... (١)

* * *

وجد « زينب » لأبيها : أبو طالب بن عبد المطلب : عم الرسول بل أبوه ، فلقد مات « عبد الله » وابنه « محمد » جنين في بطن أمه ، ومات الجد « عبد المطلب » ، وكان له الأب والحامي والصديق ، لم يتخل عنه لحظة في سني المحنة كما فعل عمه « عبد العزى : أبو لهب » ذاك الذي كان أشد على ابن أخيه « محمد » من المشركين البعداء ، وكانت زوجه « أم

---

(١) راجع ترجمة السيدة خديجة رضي الله عنها في (الاستيعاب حـ ١٨١٧/٤) والسيرة النبوية لابن هشام (جـ أول ط الحلبي) وانظر الفصل الخاص بها في كتابنا (نساء النبي) .

جميل بنت حرب » تحمل اليه الحطب فيقذف به « محمدا » وهو يسبه ويلعنه ، ولقد أبى ـ وأبت زوجه ـ أن يُظل سقف بيتهما ابنتي الرسول « رقية وأم كلثوم » اللتين تزوجهما « عتبة وعتيبة ، أبنا أبي لهب » قبل المبعث ، فطلقاهما ، ليتزوجهما « عثمان بن عفان » الواحدة بعد وفاة أختها .

أجل ، لم يتخل « أبو طالب » عن ابن أخيه كما فعل « أبو لهب ، ولم يسلمه الى أشراف قريش عندما ألحوا في طلبه . وانه ليصغي الى « محمد » يقول :

« والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » .

فيتناول الشيخ يد ولده في حنو وتأثر وهو يقول :

ـ اذهب وقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا ..

وصدق وعده :

ظل يحميه ابان المحنة ، غير مكترث بانذار قريش أن تنفي الهاشميين جميعا اذا لم يسلموا ابنهم « محمدا » ليقتل ...

والى شِعب « أبي طالب » أوى «محمد» وزوجه وأصحابه وعشيرته ، طوال الفترة التي حاصرهم فيها القرشيون وحاولوا القضاء عليهم جوعا . ثم مات « أبو طالب » بعد أن ماتت « خديجة » بقليل ، ففقد الرسول بموتها أحب اثنين اليه ، وسمى عام وفاتهما عام الحزن ، وبعده بثلاث سنين كانت الهجرة (١) .

* * *

وجدّة « زينب » لأبيها : « فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف » زوجة أبي طالب عم الرسول، وأول هاشمية تزوجت هاشميا وولدت له،

(١) ابن هشام : السيرة ٥٧/٢ حلبي .

أدركت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وحسن اسلامها ، وأوصت اليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها ، وصلى عليها ، ونزل في لحدها ، واضطجع معها فيه ، وأحسن الثناء عليها . ذكر « ابن سعد » في (طبقاته) و « ابن هشام » في (السيرة) و « أبو الفرج الاصبهاني » في (مقاتل الطالبيين) عن « ابن عباس » رضي الله عنه أنه قال : « لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب ، ألبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه ، واضطجع معها في قبرها ، فقال له أصحابه : يا رسول الله ، ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة . فقال : انه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرَّ بي منها ، اني انما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها » (١) ..

* * *

وجد « زينب » الأعلى لأبويها عليٍّ وفاطمة : « عبد المطلب بن هاشم » أمين الكعبة وصاحب السقاية والرفادة ، انتقل اليه هذا الشرف ميراثا عن آبائه وأجداده كابرا عن كابر ، فما كان لأحد من غير أسرته ـ الى مئات السنين ـ أن يتولى حراسة الكعبة وسقاية الحجيج .

منعه الله من « أبرهة » حين هاجمه في جيش من الأحباش والفيلة ، فجعل الله كيدهم في تضليل « وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٨٩١/٤ نهضه مصر • ونسب قريش (٤٠ دخائر) ومقاتل الطالبيين (٧ ط الحلبي) •

ظِلال على المهد

تلك هي الوليدة التي استقبلتها « مدينة الرسول » في العام السادس للهجرة ، وهو العام الذي شهد استقرار الأمر لصاحب الدعوة ، وخروجه على ناقته القصواء ــ التي حملته من « مكة » أيام الاضطهاد مع صاحب واحد ، شيــخ مخلص ــ في ألف وخمسمائة من صحابتــه المهاجرين والأنصار في ملابس الاحرام البيضاء ، يريدون مكة ــ معقل أعداء محمد والاسلام ــ ثم يعودون بصلح « الحديبية » مع « أبي سفيان » والمشركين من قريش . (١)

* * *

وبدا كأن كل شيء يعد الوليدة بحياة سعيدة ، وأقبل المهنئون من بني هاشم والصحابة ، يباركون هذه الزهرة المتفتحة في بيت الرسول ، تنشر في المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح في طلعتها المشرقة ووجهها الوضيء ملامح آباء وأجداد لها كرام .

لكنهم فوجئوا ــ لو صدقت الأخبار ــ بظلال حزينة تحوم على المهد الجميل ، ظلال ربما لا يكون لأكثرها مكان في كتاب تاريخ يكتب للتحقيق العلمي ، لكن لها مكانها في النفس البشرية ووقعها على الوجدان الانساني

حدثوا أن نبوءة ذاعت عند مولد الطفلة ، تشير الى دورها الفاجع في

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٢/٦٩ ـط بريل .

مأساة « كربلاء » ، وتُحدِّث بظهر الغيب عما ينتظرها في غدها من محن وآلام ..

كانت المأساة معروفة فيما يقولون ، قبل موعدها بأكثر من نصف قرن من الزمان ! ففي (سنن ابن حنبل) ان جبريل أخبر « محمدا » صلى الله عليه وسلم بمصرع الحسين وآل بيته في كربلاء (١) .

وينقل « ابن الأثير » في (الكامل) أن الرسول أعطى زوجه «أم سلمة» ترابا حمله له أمين الوحي من التربة التي سيراق فوقها دم « الحسين » وقال لها صلى الله عليه وسلم : « اذا صار هذا التراب دما فقد قتل الحسين » وان « أم سلمة » حفظت ذلك التراب في قارورة عندها فلما قتل « الحسين » صار التراب دما ، فعلمت أن « الحسين » قتل ، وأذاعت في الناس النبأ (٢) .

وسوف نسمع المؤرخين بعد ذلك في حوادث عامي ٦٠ ، ٦١ ، يذكرون أن « زهير بن القين البجلي » ــ وهو عثماني الهوى ــ خرج من « مكة » بعد أن حج عام ٦٠ هـ ، فصادف خروجه مسير « الحسين » الى العراق ، فكان « زهير » يساير « الحسين » الا أنه لا ينزل معه ، فاستدعاه « الحسين » يوما فشق عليه ذلك ، ثم أجابه ، فلما خرج من عنده أقبل على أصحابه فقال : « من أحب منكم أن يتبعني والا فانه آخر العهد »

ثم راح يروي لهم قصة قديمة من عهد الرسول : قال « زهير » انه خرج مع جماعة من المسلمين في غزوة لهم ، فظفروا وأصابوا غنائم فرحوا بها ، وكان معهم « سلمان الفارسي » فأشار الى أن « الحسين » سيقاتل يوما ويقتل ، ثم قال سلمان لأصحابه : « اذا أدركتم سيد شباب أهل محمد ، فكونوا أشد فرحا بقتالكم معه ، منكم بما أصبتم اليوم من الغنائم » ..

---

(١) ابن حنبل : السنن ٨٥/١ .

(٢) تاريخ ابن الاثير ٣٨/٤ : أنظر معه (خصائص السيوطي) و (مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق الموسوي : ص ١٩ النجف الاشرف ١٣٧٦) .

قال ابن الأثير : « وتوجه زهير ــ بعد ان حدث أصحابه بحديث سلمان الفارسي ــ فودع أهله ، وطلق زوجته مخافة أن يلحقهـــا أذى ، ولزم الحسين حتى قتل معه » (١) ..

وكان « الحسين ــ فيما يروي عدد من المؤرخين والاخباريين ــ يعلم منذ طفولته بما قدر له (٢) ، كما كان دور أخته « زينب » حديث القوم منذ ولدت . فهم يذكرون أن « سلمان الفارسي » أقبل على « علي بن أبي طالب » يهنئه بوليدته ، فألفاه واجما حزينا ، يتحدث عما سوف تلقى ابنته في كربلاء ..

وبكى « علي » الفارس الشجاع ، ذو اللواء المنصور ، والملقب بأسد الاسلام !

* * *

أكانت هذه المرويات جميعا من مخترعات الرواة ومبتدعات السمار ؟ أكانت من اضافات المنقبيين وتصورات المتحدثين عن كرامات آل البيت ؟ أكانت من شطحات الواهمين ورؤى المغرقين في الخيال ؟

ذلك ما اطمأن اليه المستشرقون وقرره « لامنس » في (فاطمة وبنات محمد) و « رونلدسن » في (عقيدة الشيعة) (٣) ..

أما المؤرخون المسلمون فمنهم من لا يشك في أن هذه المرويات كلهـــا صادقة لا ريب فيها ، وليس الأقدمون وحدهم هم الذين نزهوا مثل هذه المرويات عن الشك ، بل ان من كُتَّاب العصر من لا يقل عنهم اطمئنانا الى صدق ما يروى عن تلك الظلال التي أحاطت بمولد « زينب » : فهــذا الكاتب الهندي المسلم « محمد الحاج سالمين » يصف في الفصل الأول من كتابه « سيدة زينب Sayyidah Zeinab » كيف استقبلت الوليدة بالدموع

(١) ابن الاثير : الكامل ١٧/٤ .
(٢) راجع (مقتل الحسين للموسوي) ص : ٤ .
(٣) راجع الباب الرابع من عقيدة الشيعة : ص ٥٨ ، ٩٥ الترجمة العربية ط السعادة بمصر .

والهموم ، ثم يمضي ـ بعد أن ينقل بعض المرويات عن النبوءة المشئومة ـ فيتمثل «النبي العظيم وقد انحنى على حفيدته يقبّلها بقلب حزين وعينين دامعتين ، عالما بتلك الأيام السود التي تنتظرها وراء الحجب » ..

ويمضي « سالمين » فيتساءل : « ترى الى أي مدى كان حزنه صلى الله عليه وسلم حين رأى بظهر الغيب تلك المذبحة الشنعاء التي تنتظر سبطه الغالي ! وكم اهتز قلبه الرقيق الحاني وهو يطالع في وجه الوليدة الحلوة ، صورة المصير الفاجع المنتظر ؟! »

أما نحن فلا نحيل أن يكون شيء من هذه الشائعة قد شاع ، ثم هي اليوم ـ بعد ما شاعت ـ ظلال على الصورة المعروفة المتناقلة عبر الاجيال، وانها لظلال يلقي مثلها على مهد الوليدة ، كآبة ووجوما ، ويثير لها عواطف الرحمة المشوبة بالقلق ..

* * *

ونستطيع أن نضيف الى هذا ، ان « الزهراء » لم تكن أيام الحمل مشرقة مطمئنة ، فلقد كانت تعتادها من حين الى حين ، نوبات من القلق والاكتئاب ، وهي نوبات قديمة غير طارئة ، لعلها بدأت بموت أمها « خديجة » رضي الله عنها ، ثم أخذت تزداد في بطء ، منذ جاءت «عائشة» الى بيت الرسول وشغلت مكان الأم الراحلة ، وهو المكان الذي تُرِك بضع سنين لفاطمة ، الابنة العزيزة الغالية ..

ثم كان بين الابنة وزوجة الأب ، ما يشبه الذي يكون بين مثيلاتهما في الناس ، وهو ما اعترفت به « عائشة » بعد سنين ، وتحدث عنه بعض المؤرخين المسلمين(١) ونقله عدد من المستشرقين ـ مثل بودلي ولامانس ـ في حديثهم عن معسكرين بدور النبي : أحدهما معسكر « عائشة » الزوجة الحبيبة ، والآخر معسكر « فاطمة » الابنة الغالية ..

وليس ببعيد أن يكون لحالة الحمل أثر في اشتداد ما كانت « فاطمة »

---

(١) انظر (السمط الثمين للمحب الطبري) ص ٣٩ ، ٣٠ ط حلب .

تعاني من ذاك ، مع ما تجد لفقد الأم ...

ونرمق « زينب » وهي تدرج في ساحة البيت الشريف ، محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم ، وعطف سابق من آلها الكرام ، فنراها على البعد صبية حلوة في حضانة « الزهراء » تتلقّى عنها الدروس الأولى في الحياة ، فاذا جاوزت دور الحضانة ألفت أمامها أعظم من أنجبتهم الجزيرة في زمانها من المعلمين ، جدها صاحب الرسالة ، وأباها الفارس أمير البيان ، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام ..

ولم تظفر صبية من لداتها ـ فيما نحسب ـ بمثل ما ظفرت به في تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضي «زينب» في صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة مزهوة ، ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال انها عرفت النبوءة الأليمة : قيل أنها كانت تتلو شيئا من القرآن الكريم بمسمع من أبيها ، فبدا لها أن تسأله عن تفسير الآيات ففعل ، ثم استطرد ـ متأثرا بذكائها اللامع ـ يلمح الى ما ينتظرها في مستقبل أيامها من دور ذي خطر . ولشد ما كانت دهشته حين قالت له « زينب » في جد رصين :

ـ أعرف ذلك يا أبي ... أخبرتني به أمي ، كيما تهيئني لغدي .

ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتا وقلبه يخفق رحمة وحنانا ..

* * *

وأراني قد تركت الحديث عن صبا « زينب » لألمح امتداد هاتيك الظلال الحائمة حول مهدها . فلأترك هذا الى حين ، ولأعد الى طفولتها الباكرة ، فأراها تستقبل من الأحداث الكبرى ظلال الواقع ، ولما تزل طفلة في نحو الخامسة من عمرها .

الصِبَا الحزين

لم تكن « زينب » بلغت الخامسة من عمرها ، حين لبَّى جدها صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر في غرفة « عائشة » بعد أن فتح « مكة » وطهر البيت الحرام من الأوثان ، وتلقى بيعة قومه الذين دخلوا في دين الله أفواجا .

ولعل الطفلة تابعت المشهد الرهيب ورأت جدها العزيز يحمل على الآلة الحدباء حتى يُوارى الثرى . ولن نمضي مع المنقبيين فنقول أنها أدركت في هذه الحداثة الغضة ، مغزى تلك الرحلة الأليمة المحتومة ، أو فهمت مدار ذلك الصراع بين الصديقين الصاحبين : « عمر وأبي بكر » ، يصيح أولهما :

ـ ان محمدا لم يمت ، ووالله ليرجعن كما رجع موسى !

فيتلو صاحبه ، من الكتاب المنزل على خاتم الأنبياء :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومَن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » .

ثم اذا رأى اصرار صاحبه ، صاح في الجمع الحاشد :

ـ من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت .

أجل ، لا أقول ان بنت الرابعة أدركت مغزى هذا أو ذاك ، ولكنها رأت ــ دون شك ــ مشاهد الذهول والحزن والجزع ، وأصغت الى عويل الباكيات وصراخ المفجوعين . ومن يدري ما الذي كان يدور بخلد الصغيرة الذكية وهي تلفي جدها الكبير صامتا في تلك المناحة المفجعة ، ساكنا والدنيا من حوله ضاجة صاخبة ، مائجة فائرة ، كأنما قد لفَّها اعصار ؟!

أي خوف غامض قد غزا قلبها الخلي اذ ذاك ، وروّع روحها الساذجة الآمنة ؟

أي طائف من الحزن المبهم قد طاف بها في طفولتها فأسمعها لحن الموت ، وأراها موكب الرحيل ؟

اني لأتمثلها واقفة هناك ، تشهد جدها في ضجعة الموت ، وترى رأسه يسقط في حجر « عائشة » فتضعه في رفق على وسادة ، وتسبل عليه ثيابه ، وتغمض عينيه، وتقبل الجبين العزيز، ثم تنطلق الى الرحبة فيرتفع الصياح والعويل ، متنقلا من حجرة « عائشة » الى دور النبي ، ومنتشرا من بعد ذلك الى أرجاء المدينة .

ويُغسل الجسد ويطيَّب بالمسك ، ويكفن بأثواب ثلاثة ، ثم يؤذن للناس فيدخلون جماعات ليودعوا أعز راحل ...

أتمثلها هناك ... تحدق في القوم وهم يحفرون حفرة عميقة في حجرة الزوجة الأثيرة ، ثم يأتي ثلاثة من الصحابة ــ تعرف فيهم زينب أباها عليا ــ فيدلون الجسد في الحفرة مترفقين ويبنون لبنات فوقه ، ثم ... يهال عليها الرمل والتراب !

أتمثلها كذلك ، ثم أرنو اليها وهي تلوذ بحضن أمها « الزهراء » تلتمس مأمنا من خوف وفزع ، فاذا الأم حزينة ولهى ، ذاهبة الصبر ، مصدعة الكيان .

وتنعطف الطفلة الى أبيها ، فتراه بادي الهم والحزن ، يتحدث شاكيا

عن حقٍ للأسرة اغتصب ، ومكانة جحدت ، وقربى من الرسول أهدرت ، وينظر في قلق وجزع الى زوجه الغالية ، وقد أضناها حزنها على ابيها ، وآلمها جحود القوم لحقها ، فهي تخرج في المساء على دابة يقودها « علي » وتطوف بمجالس الأنصار مجلسا مجلسا ، تطلب لزوجها النصرة والتأييد، فاذا جوابهم جميعا :

« يا بنت رسول الله ، لقد مضت بيعتنا لهذا الرجل ـ يعنون أبا بكر ـ ولو ان عليا سبق الينا لما عدلنا به » .

فيقول ابن عم النبي :

ـ أفكنت أدع رسول الله في بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟

وتعقب « الزهراء » :

ـ ما صنع أبو الحسن الا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم .

* * *

حدث هذا بمرأى من الصبية أو مسمع ، وما أحسبها نسيت مع الأيام ، مشهدا أليما طالعته في صباها حينذاك ، يوم حاول « عمر بن الخطاب » أن يقتحم بيت « الزهراء » كي يحمل « عليا » على البيعة لـ « أبي بكر » خشية تفرق الكلمة وتمزق الشمل ، فلما سمعت «فاطمة» أصوات القوم تقترب نادت بأعلى صوتها :

ـ يا أبتِ رسولَ الله ، ماذا لقينا بعدك من « ابن الخطاب » و « ابن أبي قحافة » ؟

فانصرف القوم باكين ، ومضى « عمر » محزونا يسأل « أبا بكر » أن ينطلق معه الى « فاطمة » ليسترضياها .

وانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا «عليا» فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما أخذا مجلسيهما حولت « فاطمة » وجهها الى الحائط ، دون أن ترد عليهما السلام !

وتكلم « أبو بكر » فقال :

ـ يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب اليّ من قرابتي، وانك أحب اليّ من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك اني مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، الا أني سمعته صلى الله عليه وسلم وآله يقول :

« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة » (١) .

فأدارت « فاطمة » اليهما وجهها الشاحب الحزين وسألت :

ـ أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، تعرفانه وتعملان به ؟

قالا معا : « نعم » .

فقالت :

ـ نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : «رضى فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ »

قالا : « نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله » .

قالت :

ـ فاني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه .

وعادت فأشاحت بوجهها الحزين .

---

(١) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وخرج الزائران يبكيان !

حتى اذا لقيا القوم ، سألهم « أبو بكر » أن يقيلوه من البيعة فأبوا ! ...

* * *

وتمضي الأيام التي أعقبت وفاة الرسول ، كئيبة مثقلة بالأحزان و « زينب » جالسة الى فراش أمها العليلة بادية اللهفة والخوف والاشفاق ..

وغشيت البيت سحب من الوجوم والانقباض ، « فما يذكر التاريخ أن فاطمة ضحكت بعد وفاة والدها حتى لحقت به » ، وما يعرف انها غادرت مخدعها الا الى قبر الرسول ، تندبه وتبكيه ، وتأخذ بيدها حفنة من تراب القبر فتجعلها على عينيها ووجهها وهي تنشج :

ماذا على مَن شمَّ تربةَ أحمد
ألا يشمَّ مدى الزمان غواليا

صُبَّت عليَّ مصائب لو أنها
صبت على الأيام عُدْنَ لياليا

فيبكي الناس لبكائها .

وجرؤ « أنس بن مالك » يوما فاستأذن على « فاطمة » ومضى يتوسل اليها أن تترفق بنفسها ، وأن تلوذ بالصبر الجميل على المصاب الجليل ، فتجيبه سائلة :

ـ كيف مكَّنك قلبُك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟

فيبكي « أنس » بكاء شديدا ، وينصرف عنها متفجعا محزونا ..

وضربوا بها المثل في الحزن ، وعدوها من البكائين الخمسة أو الستة في التاريخ : بكى «آدم» ندما ، وبكى «نوح» قومه ، وبكى «يعقوب»

ابنه « يوسف » ، وبكى « يحيى » خوف النار ، وبكت « فاطمة » أباها ..

وسيأتي حفيدها بعدها فيأخذ مكانه الى جانبها في هذه السلسلة الأليمة للبكائين ، ويضاف اسمه الى أسمائهم فيقال : « ... وبكى علي زين العابدين أباه الحسين » .

* * *

ثم أدركتها رحمة الله فلحقت بأبيها بعد قليل : قيل بعد ستة أشهر ، وقيل بل ثلاثة ، وقيل بل أقل من ذاك ٠ (١)

وتكرر المشهد أمام « زينب » .

ولكنها في هذه المرة كانت أنضج ادراكا وأرهف حسا ، وفقد الأم جدير بأن ينضج الوعي ويذيق الطفولة مرارة الكأس .

لم يعد خوفها غامضا ولا حزنها مبهما . فهي تعرف أن أمها ترحل الى غير عودة ، وتمضي الى غير رجعة ، وهذه هي ـ الابنة الباكية ـ تحدق في القوم وهم يودعون جثة أمها « الزهراء » في ثرى « البقيع » ، ثم يهيلون الرمل والتراب ، كما فعلوا بجدها صلى الله عليه وسلم من قبل ...

وتصغي « زينب » يومئذ الى أبيها ، وقد تمهَّل عند قبر « الزهراء » يندبها مودعا :

« السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي، الا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز!..

« انا لله وانا اليه راجعون ، فلقد استُرجعت الوديعة وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ، الَى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم .

(١) الاستيعاب : ١٨٩٨/٤ .

« والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم ! فان أنصرف فلا عن ملالة ، وان أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

* * *

وتعود « زينب » الى الدار ، فتلفي الدار من أمها قفرا

وتفتقدها اذا جن الليـــل واذا طلع النهـــار ، فلا تجد الا الوحشـــة والفراغ ..

ويحدثها قلبها أن قد فقدت أعز وأجمل ما في الحياة ، فتحس لذلك ألما مرهقا يحاول أبوها أن يخففه عنها بفيض من رعايته .

وقد وفدت على دار « علي بن أبي طالب » من بعد وفاة « فاطمة » زوجات أخريات :

«أم البنين بنت حِزام العامري» وقد ولدت لعلي : العباس، وجعفرا ، وعبد الله ، وعثمان .

و « ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلي التميمي » ، وقد ولدت له : عبيد الله ، وأبا بكر ..

و « أسماء بنت عميس الخثعمية » ، وقد ولدت له : محمدا الأصغر ، ويحيى ..

و « الصهباء بنت ربيعة التغلبية » ، وقد ولدت له : عمر ، ورقية

و « أمامة بنت أبي العاص بن الربيع » ــ وأمها زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ــ فولدت له : محمدا الأوسط .

و « خولة بنت جعفر الحنفية » ، وقد ولدت له : محمدا الأكبر المعروف بابن الحنفية .

و « أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية » ، وقد ولدت له : أم

الحسن ورملة الكبرى .

و « المحياة بنت امرئ القيس بن عدي الكلبية » وقد ولدت له : بنتا ماتت صغيرة . (١)

وفدت هؤلاء الزوجات العديدات ، لكن مكان « الزهراء » ظل شاغرا في بيت « علي » ، وفي قلوب أبنائها : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأم كلثوم ..

وتريد الرواية أن تنفرد « زينب » من دون هؤلاء الاشقاء ، بوصية من أمها « فاطمة » على فراش الموت وهي : أن تصحب أخويها وترعاهما وتكون لهما من بعدها أما ..

ولم تنس « زينب » هذه الوصية أبدا .

واذا استطعنا أن نتناسى الى حين ، أحزان تلك الصبية التي رُوِّعت طفولتها بشهود مأساة المـــوت مرتين ، في أعز الناس لديها وأحبهم اليها ، اذا استطعنا أن نكف لحظة عن التحديق في تلك الظلال التي حامت على مهدها ، والأحزان التي أرهقت صباها ، ألفينا جانبا آخر من الصورة مشرقا ، حيث تبدو « زينب » في بيت أبيها ذات مكانة أكبر من سنها : أنضجتها الأحداث ، وهيأتها لأن تشغل مكان الراحلة الكريمة ، فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم ، أما لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وايثار ، وان أعوزتها التجربة والاختبار .

وما بالغريب أن تشغل « زينب » مكان الأم ولما تبلغ العاشرة من عمرها ، وانما الغريب أن نقيس زمانها بزماننا ومكانها بمكاننا، فنزعم أن هذه سن اللهو واللعب ! ان حياة القوم اذ ذاك كانت كفيلة بأن تجعل من يوم الفتاة شهرا ومن شهرها عاما ! وقد تزوجت « عائشة بنت أبي بكر » من رسول الله ، قبل أن تبلغ العاشرة ، وتزوجت « أم كلثوم بنت

---

(١) راجع تاريخ الطبري : ٦/٩١ ونسب قريش : ٤٠ ذخائر ـ وجمهرة انساب العرب : ٣٣ ط أولى ذخائر

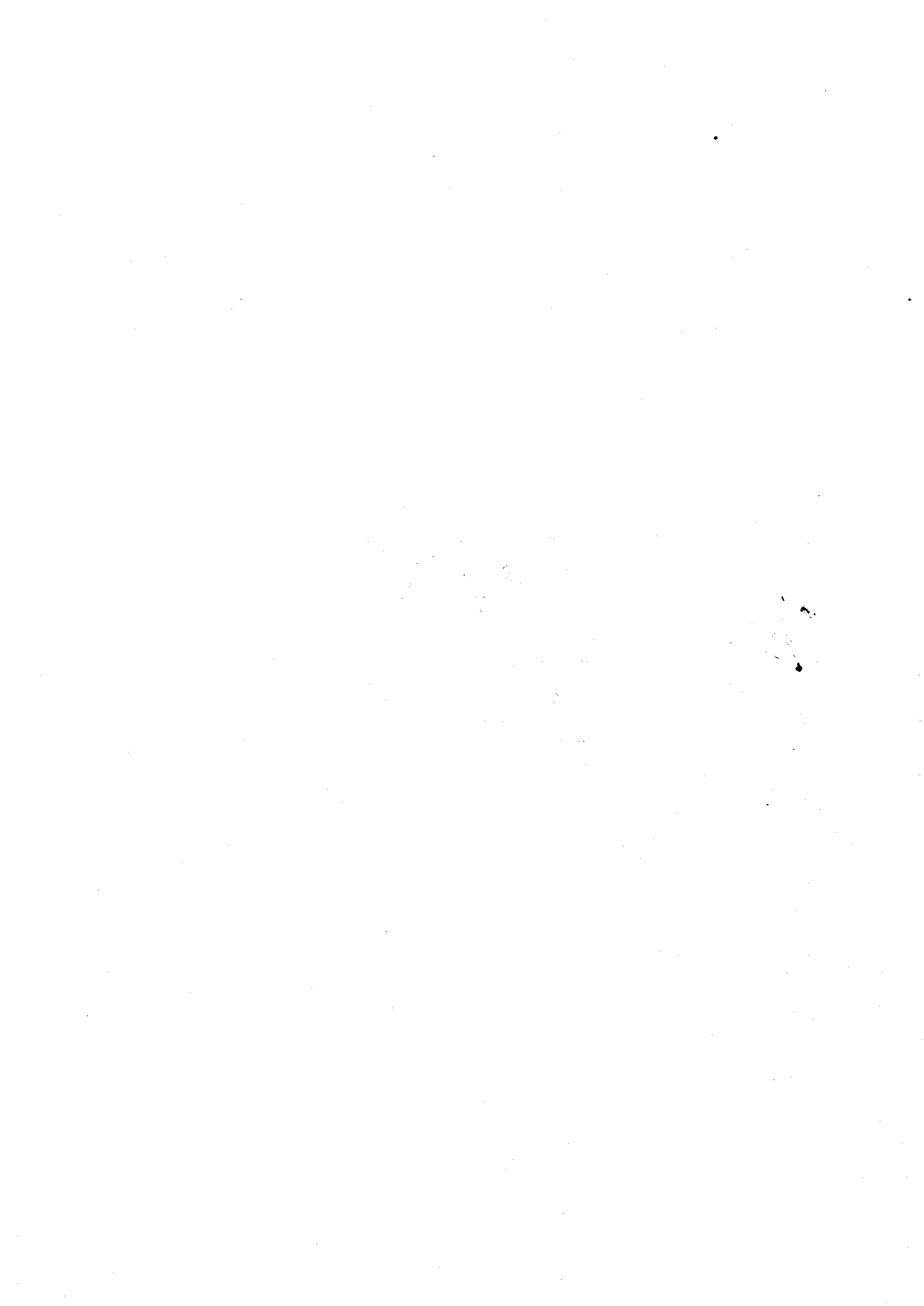
علي ، أخت زينب » في مثل هذه السن ، من عمر بن الخطاب ، ودخلت
أمامة بنت أبي العاص بن الربيع » بنت خالة زينب ، بيت أبيها الامام
علي ، صبية في عمر بناته .

❃

الفصل الثاني

عقيلة بني هاشم

- الزوجة
- الأبناء
- البيت



الزَوجَـة

شارفت زينب سن الزواج ، وتطلع اليها الطلاب من شـبـاب هاشم وقريش ، ذوي الشرف والثراء ، لكن أباها الامام ، اختار لها من بينهم جميعا من رآه أحقهم بزهرة آل البيت.

وكان « عبد الله بن جعفر » هو الفتى المختار .

أبوه : جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، ذو الجناحين وأبو المساكين أخو « علي » وحبيب « النبي » .

هاجر بدينه الى الحبشة ابان الاضطهاد ثم رجع بمهاجرة الحبشة من المسلمين الأولين ، وصادف وصوله الى « المدينة » فتح خيبر ، فالتزمه الرسول معانقا وجعل يقبله بين عينيه وهو يقول :

« ما أدري بأيهما أنا أشد فرحا : بقدوم جعفر أم بفتح خيبر » (١)

وسيره الرسول في الجيش الذي توجه الى « مؤتة » — بأدنى البلقاء من بلاد الروم — وقد جعل صلى الله عليه وسلم لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، « فان أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس ... » (٢)

ومضى جنود الاسلام حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم جموع «هرقل» ودارت المعركة طاحنة : قاتل « زيد » براية الرسول حتى مزقته رماح العدو ، فأخذها « جعفر » وقاتل بهـا حتى قُطعت يمناه فحملها بيسراه حتى قطعت ، فاحتضنها حتى استشهد .

وأم عبد الله بن جعفر : أسماء بنت عميس ، من مهاجرات الحبشـة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٣/٤ وطبقات ابن سعد ٧٨/٢ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٩٢/٢ ، ٣/٤ وانظر معـه (أسد الغابة : ٢٨٨/٢) والكامل لابن الاثـير (١٦٠/٢) ومقاتل الطالبيين : ١٢ .

الأوليات ، واحدى « الاخوات المؤمنات » ـ كما سماهن رسول الله : أسماء زوج جعفر ، وميمونة أم المؤمنين ، وسلمى زوج حمزة بن عبد المطلب ، ولبابة زوج أخيه العباس بن عبد المطلب .

تزوجها جعفر ، فكانت أم أولاده جميعا ، فلما استشهد في « مؤتة » تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم مات عنها فخلفه عليها « علي بن أبي طالب » فولدت له يحيى ومحمدا الأصغر ، وفي رواية الواقدي أنها ولدت له عونا ويحيى (١) ..

* * *

ولد « عبد الله بن جعفر » بأرض الحبشة ، وفي الخبر أن النجاشي ولد له ولد بعد أيام من مولد عبد الله ، فأرسل الى جعفر وسأله عن اسم ابنه، وسمى ولده « عبدالله » وأخذته أسماء فأرضعته حتى فطمته بلبن ابنها (٢) ..

وأمضى عبدالله طفولته في مهاجر أبويه بالحبشة، تربا لولد النجاشي. حتى عاد معها الى المدينة في السنة السادسة للهجرة مع البشرى بفتح خيبر ، فكانت فألا سعيدا لهذا الصبي الهاشمي الذي يرى وطنه لأول مرة ..

ومن يوم أن وصل ، كان وأهله موضع رعاية الرسول واكرامه . فلما استشهد جعفر في مؤتة ، كان صلى الله عليه وسلم لآل الشهيد راعيا وأبا ، يفيض عليهم من بره وحنانه ما يؤنس يتمهم . وينقل «ابن حجر» أن رسول الله قال في عبدالله بن جعفر : « وأما عبد الله فيشبه خُلقي وخَلقي » ثم أخذ بيمينه فقال : اللهم اخلف جعفرا في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه ـ قالها ثلاث مرات ـ وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة » (٣) ..

---

(١) وانظر الاستيعاب لابن عبد البر (١٧٨٥/٤) وتاريخ الطبري (٩١/٦) وطبقات ابن سعد (٢٠٥/٨) وجمهرة أنساب العرب : ٣٣ .

(٢) المصعب الزبيري : نسب قريش ٨١ .

(٣) ابن حجر : الاصابة ٤٩/٣ .

وقد ظل عبد الله الى آخر حياته ، يحتفظ بذكريات ما لقي من عطف الرسول الكريم ، ويسترجعها في حرص واعتزاز .. نقل البلاذري : « عن المدائني أن عبد الله بن الزبير سأل عبد الله بن جعفر : أتذكر يوم لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا وأنت وأحد ابني فاطمة ؟ فقال ابن جعفر : نعم ، فحَملنا وتركك » (١) ..

ونقل المصعب الزبيري :

« وذُكر عن عبد الله بن جعفر أنه قال : أنا أحفظ حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمي فنعى لها أبي . فأنظر اليه يمسح على رأسي وعيناه تهرقان بالدموع حتى تقطر لحيته . ثم قال : اللهم ان جعفرا قدم اليَّ أحسن الثواب فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك في ذريته . ثم قام صلى الله عليه وسلم الى المسجد وأخذ بيدي حتى رقي المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى والحزن يُعرف عليه ، فتكلم وقال : ألا ان جعفرا قد استشهد وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة . ثم نزل صلى الله عليه وسلم فدخل بيته وأدخلني معه وأمر بطعام فصُنع لأهلي ، وأرسل الى أخي ، فتغذيناه عنده .. وأقمنا معه ثلاثة أيام في بيته » (٢) ..

* * *

كان عبد الله حين خطب زينب ، في مقتبل شبابه ، قد لاحت مخايل سؤدده وتميزت ملامح شخصيته التي لفتت المؤرخين والاخباريين ، فاحتفلوا بالمرويات المأثورة عن مروءته وكرمه وسماحة خلقه ونبل طباعه ، وقد لقب « قطب السخاء » اذ كان لا يبيع معروفا ولا يرد سائلا: عن « محمد بن سيرين » أن رجلا من التجار جلب سكرا الى المدينة ، فكسد، فبلغ خبره عبد الله بن جعفر فأمر قهرمانه أن يشتريه ويفرقه في الناس ..

---

(١) البلاذري : أنساب الاشراف ١٩٧/٥ ط القدس .
(٢) نسب قريش : ٨١ ، مع اختصار يسير .

ونقل « المبرد » في الكامل :

« وأنشد عبدُ الله قولَ الشاعر :

ان الصنيعة لا تكون صنيعة
حتى يصاب بها طريقُ المصنع

فقال عبد الله : هذا رجل يريد أن يبخل الناس : أمطر المعروف مطرا فان صادف موضعا فهو الذي قصدتَ له ، والا كنتَ أحق به » (١) ..

وقد أسرف عبد الله في الجود ، حتى قال له الحسن والحسين رضى الله عنهما : قد أسرفت في بذل المال . قال : « بأبي أنتما وأمي ، ان الله عودني أن يفضل عليَّ ، وعودتُه أن أفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني » (٢) ..

وتشهد مرويات عن عبد الله بن جعفر ، أنه كان عالي المكانة لدى معاصريه من بني هاشم وبني أمية على السواء ..

ففي الخبر أن معاوية لما قدم المدينة منصرفا من مكة ، بعث بهداياه وصلاته الى الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، تألفا وتقربا « ثم أوصى رسله أن يتريثوا حتى يروا ما يفعل كل رجل بهديته . فلما خرج الرسل قال معاوية لمن في مجلسه :

ـ ان شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب ويهب ما بقي مَن حضره ، ولا ينتظر غائبا . وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قُتل في صفين .. وأما عبد الله بن جعفر فيقول لمولاه : يا بديح ، اقض به ديني ، فان بقي شيء فأنقذ به عداتي ..

قالوا : وعاد الرسل فحدثوا بما رأوا وسمعوا ، فكان الأمر كما قال معاوية » (٣) ..

(١ ، ٢) الكامل للمبرد : بغية الآمل ٢/١٢٣ .
(٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٣/٤٠ ط دار الكتب المصرية .

ولقد كان عبد الله ، من النفر الذين امتنعوا عن بيعة يزيد حين أخذها له أبوه معاوية ، لكن هذا الموقف لم يحل دون حرص معاوية على اكرامه، لما علم من سؤدده ومنزلته . وكذلك فعل « يزيد » : يروون أنه أرسل الى عبد الله فسأله كم كان عطاؤه ؟ ثم ضاعف له العطاء مرتين ، ولما سئل يزيد في ذلك قال : انه يفرق ماله ، فاعطائي اياه لأهل المدينة (١).

وبعث اليه مع عبد الرحمن بن زياد ، مالا كثيرا ، فلما تلقى عبد الله المال فرقه في أهل المدينة ولم يدخل بيته منه شيئا » (٢) ..

فذلك قول عبد الله بن قيس الرقيات :

وما كنت الا كالأغـــر ابن جعفـــر
رأى المـــال لا يبقى ، فأبقى له ذكـــرا

وقول الشماخ ، معقل بن ضرار :

انك يا ابن جعفـــر نعـــم الفتـــى
ونعم مـــأوى طـــــارق اذا أتـــى
ورُبَّ ضيفٍ طـــرق الحـــيَّ سُرى
صادف زادا ، وحديثا ما اشتهـــى

هكذا أضاف عبد الله الى ميراثه من مجد آبائه وامهاته ، ما أثل من مجد طارف مكسوب ...

* * *

كيف كانت « زينب » عروس عبد الله ، تبدو في ريعان صباها ...

تمسك مراجعنا عن وصف صورتها في تلك المرحلة من عمرها ، اذ هي في خدرها محجبة لا نكاد نلمحها الا من وراء ستار . غير أنها سوف تُرى بعد نحو ربع قرن ، على مسرح المأساة في كربلاء ، وقد أخرجتها المحنة من خدرها ، فيصفها من رآها :

---

(١) انساب الاشراف للبلاذري : حـ ٤ قسم ٢ ص ٣ .
(٢) أنساب الاشراف للبلاذري : حـ ٤ قسم ٢ ص ٣٥ .

« ... وكأني أنظر الى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس طالعة ... فسألت عنها فقالوا : هذه زينب بنت علي » (١) ..

ويصفها عبد الله بن أبي أيوب الأنصاري ، وقد رآها بعد المأساة :
« ... فوالله ما رأيت مثلها وجها كأنه شقة قمر » .
كانت حينذاك ، في كهولتها المثخنة بالجراح ، مفجوعة ثكلى .. فكيف بها في عز صباها قبل أن تطحنها الأحزان وتجرعهـــا الكأس المرة حتى الثمالة ؟

* * *

أما شخصيتها ، فيبدو أن علينا أن ننتظر ــ هنا أيضا ــ ريثما تكشف الأحداث عن جوهرها الأصيل ، اذ يقف التاريخ تجاهها متمهلا يجلـو ملامح العقيلة الهاشمية، ويرصد خطواتها وحركاتها ويصغي الى كلماتها « فما رؤيت خفِرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب » كما نقل الجاحظ في البيان والتبيين ، عن خزيمة الأسدي ..

ويقال انها كانت تشبه أمها لطفا ورقة ، وتشبه أباها علما وتقى .
وكان لها ــ فيما تقول بعض الروايات ــ مجلس علمي حافل ، تقصده جماعة من النساء اللواتي يردن التفقه في الدين ــ كما ذكر العبيدلي النسابة ..

وهكذا اجتمع لها ما لم يجتمع لسواها من نســـاء عصرها ، فكانت « عقيلة بني هاشم » . يروي عنها ابن عباس فيقول :
« حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي » ..
وغلب عليها هذا اللقب ، فكان يقال « العقيلة » فيُعرف أنها هي !

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٥٦/٦ ، ومقاتل الطالبيين : ١١٥ .

الأبناءُ

وأثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت العقيلة لعبد الله بن جعفر ثلاثة بنين : جعفرا وعليا وعونا الأكبر . وبنتين : أم كلثوم وأم عبد الله (١)

وتقتصر بعض المراجع على « علي بن عبد الله » اذ فيه البقية من ولد عبد الله والعقيلة (٢) و « أم كلثوم بنت عبد الله » وقد خطبها معاوية لولده يزيد ، حرصا على كرم المصاهرة والتقرب من قطب السخاء ، لكن أباها عبد الله جعل أمرها الى خالها الحسين ، فزوجها من ابن عمها القاسم ابن محمد بن جعفر . ثم مات القاسم عن أم كلثوم فتزوجها الحجاج بن يوسف وهو يومئذ أمير على المدينة ومكة ، فكتب اليه عبد الملك يأمره بطلاقها فامتثل (٣) ..

وفي خبر هذا الطلاق يروي « المبرد » أن الحجاج لما خطب ابنة عبد الله ابن جعفر استأجله في نقلها سنة ، لعله يجد وسيلة للانفكاك منه . فكتب الى خالد بن يزيد في الأمر ، فورد كتاب عبد الله على خالد ليلا ، فاستأذن من ساعته على عبد الملك ، فأذن له وسأله : فيم السرى يا أبا هاشم ؟ قال : أمر جليل لم آمن أن أؤخره فتحدث حادثة فلا أكون قضيت حق بيعتك ... كيف أذنت للحجاج أن يتزوج في بني هاشم وأنت تعلم ما يقولون ويقال فيهم والحجاج من سلطانك بحيث علمت ؟

(١) كذا في نسب قريش (٨٢) وقابله على ما في جمهرة أنساب العرب (٦١) .
(٢) جمهرة الانساب ٨٢ .
(٣) نسب قريش (٨٢) وجمهرة أنساب العرب (٣٣ ، ٦١) .

وبادر عبد الملك فكتب الى الحجاج يأمره أن يطلقها فطلقهـــا ، فغدا الناس عليه يعزونه عنها (١) ..

فان صح ما رواه المبرد ، فابنة عبد الله هي أم كلثوم بنت العقيلة .
وتضيف رواية أخرى أن « خالد بن يزيد معاوية : عالم بني أمية » تزوج بنت عبد الله بن جعفر ، فقال فيها :

مَنَافيَّة غــراء جــادت بودِّها
لعبــدٍ منــافيٍّ أغـــــرٍّ مشــهَّرِ
مطهـــــرة بــين النبي محمـــد
وبين الشــهيد ذي الجناحين جعفر

قال أبوها ابن جعفر معلقا : ما صنع خالد في قوله : « لعبدٍ » شيئا ! لو كان قال : « لقرم منافيّ » (٢)

❋

(١) بغية الامل من كتاب الكامل : ٤/٢٣ .
(٢) أنساب الاشراف للبلاذري حـ ٤ قسم ٢ ص ٦٩ . وفيه : وقد قيل ان خالدا لم يتزوجها وان الشعر منحول .

البَيْتُ

وتشح الأخبار بعد هذا فلا تحدثنا بشيء مباشر عن الحياة الزوجية لعقيلة بني هاشم ، فيما عدا بضعة أخبار متناثرة ، يمكن أن تلقي ضوءا على حياة زينب في هذه المرحلة من عمرها .

من ذلك خبر عن موت جعفر ، بكر عبد الله وزينب ، وبه كان يكنى أبوه . وكذلك موت ابنهما عون الأكبر ، وقد كان عبدالله شديد الوجد به ، فحزن عليه حزنا قاسيا (١)

وأم عون وجعفر ولدي عبد الله ، هي السيدة زينب بنت علي ، والخبر لا يحدد وقت وفاتهما ، اللهم الا أنهما ماتا في حياة أبيهما ، وقد امتدت به الحياة الى ما بعد وفاة زينب ، فهل ذاقت هي أيضا لوعة الثكل في ولديها ؟ وماذا كان من وقع المصاب على قلبها المرهف ، وأثره في حياتها ؟ أسئلة لا تجد جوابا ..

ونقرأ كذلك عن زوجات أخريات لعبد الله بن جعفر ، دون تحديد لوقت زواجه بهن ، لكنا نستطيع أن نستنتج أن عبد الله تزوج في حياة زينب من :

جمانة بنت المسيب بن نجبة الفزاري ، ولدت لعبد الله : الحسين وعونا الأصغر ، وقد قتلا شهيدين بالطف مع الامام الحسين (٢)

و « الخوصاء بنت حفصة البكري » ولدت لعبد الله : أبا بكر ومحمدا وعبدالله الاصغر وقد قتل محمد مع الامام الحسين بالطف (٣) .

---

(١) نسب قريش : ٨٢

(٢) جاء في (مقتل الحسين : ٣٠٤) أن عون بن عبد الله المقتول بالطف ، أمه العقيلة « زينب » وهذا مخالف لما أجمعت عليه روايات الطبري (تاريخ ٦/٢٧٠ ومقاتل الطالبيين (١٣٤) ونسب قريش (٨٣) من أن أم عون هي « جمانة بنت المسيب بن نجبة الفزاري » ومثله في الكامل لابن الاثير مع تحريف في اسمها « جماعة بنت المسيت بن نجبة » ٤/٣٨ وراجع ترجمة أبيها في طبقات ابن سعد (٦/٥١٠) .

(٣) نسب قريش ٨٣ ، ومقاتل الطالبيين ٩١ ، وتاريخ الطبري (٦/٢٧٠) .

و « ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلي » كانت زوجة للامام علي بن أبي طالب فلما استشهد خلفه عليها ابن أخيه : عبدالله بن جعفر . وقد ولدت له يحيى وهارون وصالحا وموسى ، وأم أبيها ، تزوجها عبد الملك ابن مروان ، وأم محمد تزوجها يزيد بن معاوية (١) .

وبلوغ بنت عبد الله بن جعفر سن الزواج في عهد يزيد ـ المتوفي سنة ٦٤ هـ ـ هو ما يرجح أن أمها ليلى بنت مسعود ، دخلت بيت عبد الله في حياة العقيلة بنت الامام علي .

فهل امتحنت العقيلة الهاشمية بهؤلاء الضرائر ، وهي في بيت زوجها عبد الله بن جعفر ؟

ما كنا لنسأل مثل هذا السؤال ، لولا ما رأينا من تباعد ما بين زينب وعبد الله ، فلا نكاد نجدهما معا منذ بدأت قضية الامام الحسين .

وانما تُرى زينب في صحبة أخيها حيثما رحل وأنـّى أقام .

وسنظل حتى آخر يوم من حياتها ، نلقاها هكذا بعيدة عن عبد الله بن جعفر .

* * *

ونسأل كتب التاريخ والتراجم ، هل كان شيء بين الزوجين ؟

أما كتب التاريخ فتصمت عن زينب ، حتى يأتي دورها في مأساة كربلاء ..

وأما كتب التراجم ، فتجيب عن السؤال بخبر قصير عابر ، رواه « العبيدلي النسابة » في كتابه « السيدة زينب وأخبار الزينبات » عند حديثه عن زينب الوسطى بنت الامام علي بن أبي طالب ، قال : « وهي المعروفة بأم كلثوم ، تزوجها عمر بن الخطاب صبية صغيرة ، ولما قتل أمير المؤمنين عمر تزوجت بعده محمد بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها فتزوجها عبد الله بن جعفر ، وكان زواجه بها بعد طلاقه لأختها زينب الكبرى ، فماتت عنده » .

---

(١) نسب قريش : ٨٣ .

ونرجع الى كتب الأنساب، فنقرأ في الفصل الخاص بولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الحسن أبا محمد، والحسين أبا عبد الله، وزينب وأم كلثوم: أمهم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم...

« وتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، بنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمر بن الخطاب فولدت له زيدا لم يعقب، ثم خلف عليها محمد بن جعفر بن أبي طالب.. ثم خلف عليها بعده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بعد طلاقه لأختها زينب » (١)

فأي طائف من الهم والشقاء، طاف بهذه الحياة الزوجية المثمرة؟

ومن أي الثغرات، نفذت ريح نكباء الى هذا البيت الهاشمي الكريم الكريم فتصدع بنيانه؟

ومتى تمزق الشمل بالطلاق؟

أسئلة لا نملك أن نجيب عنها بخبر يقين، مع صمت المؤرخين وشح المرويات، وكل ما نطمئن اليه، بعد مقابلة الذي لدينا من أخبار شحيحة هو أن نرجح أن الطلاق كان بعد وفاة الامام علي، لتمضي على الزوجين فترة كافية لانجاب ما ولد لهما من بنين وبنات.

ويبدو أن حياتهما المشتركة بدأت في مرحلتها الأولى ـ في حياة الامام علي ـ مستقرة راضية، حيث نجد الزوجين مع الامام علي في مقر خلافته بالكوفة، ونرى عبد الله بجانب عمه وصهره ـ في نضاله السياسي والحربي ـ أميرا من أمراء جيشه في « صفين ».

وعرف الناس مكانة عبدالله من صهره، فكانوا يلتمسون لديه الوسيلة الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فلا يرد له طلبا ولا يخيب رجاء. جاء في (الاصابة) نقلا عن ابن سيرين: أن دهقانا من أهل السواد كلم عبد الله بن جعفر في أن يكلم « عليا » في حاجة، فكلمه فقضاها. وبعث الدهقان الى ابن جعفر أربعين ألفا ردها اليه قائلا: انا لا نبيع معروفا (٢)

* * *

(١) جمهرة انساب العرب: ٣٣ ط أولى ذخائر
(٢) ابن حجر: الاصابة ٤/٤٨

والى يوم صفين ، كانت أم كلثوم بنت علي ، أخت زينب ، لا تزال في بيت زوجها محمد بن جعفر الذي قتل في الموقعة ، تحت راية صهره وابن عمه ، الامام علي ..

« وخلفه عليها أخوه عبد الله بن جعفر بعد طلاقه لأختها زينب » كما نقل ابن حزم ، والعبيدلي النسابة ..

وسواء أطالت « بعد » هذه أم قصرت ، فسوف نرى « عبد الله بن جعفر » صافي المودة لبني عمومته وأصهاره ، مقربا منهم وفيًّا لهم ، وقد امتنع عن بيعة يزيد ، تأييدا لحق ابن عمه الحسن في الخلافة ، ولما مات الحسن رضي الله عنه ، أراد آل البيت أن يدفنوه ، كما أوصى قبل وفاته، مع جده الرسول . فكادت تقع فتنة ، لولا تدخل عبد الله بن جعفر .

نقل أبو الفرج الاصبهاني ، أن بني أمية لمَّا علموا بعزم آل الحسن على دفنه مع جده صلى الله عليه وسلم « ركب بنو أمية في السلاح وجعل مروان بن الحكم يقول : يا رب هيجا هي خير من دعة ! أيدفن عثمان في أقصى البقيع ، ويدفن الحسن في بيت رسول الله ؟ لا يكون ذلك أبدا وأنا أحمل السيف » .

وأبي الحسين الا أن ينفذ وصية أخيه ، فكادت الفتنة تقع ، لولا كلمة من عبد الله بن جعفر للحسين ابن عمه . قال :

« عزمتُ عليك بحقي ألا تكلم كلمة » .

ومضى عبد الله بجثمان ابن عمه الحسن الى البقيع ، حيث مثوى أمه الزهراء رضي الله عنها (١) .

وسوف يلقانا «عبد الله بن جعفر» بعد مقتل الامام الحسين في كربلاء، يجلس في المدينة ليتلقى العزاء فيه ، وكل سلواه أن ولديه « محمدا وعونا » قد كانا مع الامام الشهيد ، حتى قتلا معه في كربلاء ، مواسيين له صابرين معه (٢) .

---

(١) مقاتل الطالبيين : ٧٤

(٢) تاريخ الطبري : ٢٦٨/٦ ومقاتل الطالبيين : ٩١ والكامل لابن الاثير : ٣٧/٤

الفصل الثالث

بطلة كربلاء

- نذر العاصفة
- رحيل
- دليل الركب
- محاولة ‥ واصرار
- نحو وادي الموت
- يوم الطف



نُذُرُ العَاصِفةِ

لم نكن لنلقي بأنفسنا في غمار الأحداث السياسية العنيفة التي شهدها البيت العلوي والدولة الاسلامية ، لو أن « زينب » ظلت بعيدا عن ميدان الأحداث وبقيت في الحجاز عاكفة على حياتها الخاصة متفرغة لهمومها العائلية ..

أما وقد ساقتها الظروف الى صميم الدوامة الهائلة التي رأيناها تلف الدولة الاسلامية في عنف ، فنحن مضطرون الى أن نمضي فنرقب تلك النذر التي آذنت بالعاصفة العاتية الهوجاء .

* * *

وقد تمر فترة طويلة تغيب « زينب » خلالها في غمرة هذه الأحداث ، بل قد نفقد أثرها أحيانا في ضجة الدوي الراعد الذي كان يصم الآذان ويدير الرؤوس ، لكنا سنجدها أخيرا بعد أن تكون الأحداث العنيفة قد هيأت المسرح لظهور (بطلة كربلاء) .

ومن هنا يبدو عذرنا اذ نطيل الحديث عن معارك سياسية قد يظن ظان انها لا تمس « زينب » الا من حيث صلتها بالقادة والأقطاب ، ومكانها من البيت الهاشمي ، على حين نرى في كل هذه المعارك ، مقدمات لها خطرها في توجيه حياة « زينب » وأثرها في اعدادها لدورها الرهيب .

* * *

قُدِّر « لزينب » أن ترى مجرى الحوادث عن كثب : شهدت الأمر ينتقل من « أبي بكر » الى « عمر » ثم الى « عثمان » عام ٣٥ هـ ، لتبدأ المعركة الطاحنة ، معركة الفتنة التي لعل نارها لم تخب حتى يومنا هذا .

سمعت أصداء صوت « عائشة أم المؤمنين » وهي تحض على الثورة ، وتطالب بدم الشهيد ، وتصيح في الناس : « ان الغوغاء من أهل امصار وعبيد أهل المدينة ، قد سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام ، واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، فنجاةً من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم .. » (١)

ثم تخرج « عائشة » على الجمل الانكد ، قائدة لجيش الخارجين على « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » .

وما كان « علي » قاتل « عثمان » أو المحرض على قتله أو الراضي به ، ولا كانت « عائشة » راضية عن « عثمان » أو ولية دمه المسفوك ، فلطالما حرضت عليه وتحدثت فيه بالنقد المثير ، والمؤرخون لم ينسوا لها انها غضبت على « عثمان » يوما لأنه نقص عطاءها ، فتربصت به حتى رأته يخطب في الناس ، فدلَّت قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ونادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلي عثمان سنته » !

وطالما سُمعت تقول : « اقتلوا نعثلا ــ عثمان ــ فان نعثلا قد كفر » ..

ولا أعرف من المؤرخين من يشك في أنها ما كانت لتثور ، لو أن الأمر لم ينتقل الى « علي بن أبي طالب » . روى « المدائني » أنه لما قتل « عثمان » كانت « عائشة » بمكة ، وبلغها النبأ وهي خارجة ، فقالت وهي لا تشك في أن « طلحة » صاحب الأمر : « بعدا لنعثل... ايه صاحبَ الاصبع ــ وكانت تلك كنية طلحة منذ قطعت اصبعه دفاعا عن الرسول يوم أُحد ــ ايه أبا شبل ، ايه يا ابنَ عم ! لكأني أنظر الى اصبعه وهو يُبايعَ له حثوَ الابل » ..

وكان « طلحة » قد أخذ مفاتيح بيت المال عقب مقتل « عثمان » وأخذ

---

(١) تاريخ الطبري : ١٦٥/٥ والكامل لابن الاثير ٨٠/٣

نجائب كانت للخليفة القتيل في داره ..

ثم لما عرفت « عائشة » بما تم من البيعة « لعلي » أمرت برد ركائبها الى مكة وهي تقول :

ـ قتلوا ابن عفان مظلوما !

فقال لها من يسمعها :

ـ ألم أسمعك تقولين : بعدا لنعثل ، وقد رأيناك من أشد الناس عليه ؟ ..

وروى « الطبري » في تاريخه أنه لما قتل « عثمان » تساقط الهراب الى « مكة » و « عائشة » هناك تريد عمرة المحرم ، فأخبروها أن قد قتل « عثمان رضي الله عنه » فقالت ما معناه :

ـ هذا غِب ما كان بينكم وبينه من عتاب الاستصلاح ..

حتى اذا قضت عمرتها وخرجت ، لقيها ـ عند سَرَف ـ رجل من أخوالها من بني ليث ، يقال له « عبيد بن أبي سلمة » المعروف بـ « ابن أم كلاب » ، فقالت متسائلة : « مهيم ! » .

فأصم ودمدم ..

فقالت : « ويحك ، علينا أو لنا ؟ »

قال : « لا ندري ، قُتِل عثمان » وسكت .

قالت : « ثم صنعوا ماذا ؟ » فقال :

ـ أخذها أهل « المدينة » بالاجماع فجازت بهم الأمور الى خير مجاز : اجتمعوا على « علي بن أبي طالب » .

فقالت :

« والله ليت ان هذه انطبقت على هذه ـ تعني السماء على الأرض ـ ان تم الأمر لصاحبك . رُدّوني ، ردوني » (١)

---

(١) الحوار بنصه من « تاريخ الطبري ١٦٥/٥ ، ١٧٢ ومثله في « الكامل لابن الاثير ٨٠/٣ »

وارتدت الى مكة وهي تقول كلمتها :

ــ قتل والله « عثمان » مظلوما . والله لأطلبن بدمه .

فسألها « ابن أم كلاب » :

ــ ولمَ ؟ فوالله ان أول من أمال حَرْفه لأنت ! ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر ..

أجابت :

ــ انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ..

فقال لها « ابن أم كلاب » :

منك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام ... وقلت لنا : انه قد كفر !
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم تنكسف شمسنا والقمر (١)

فأدارت « عائشة » راحلتها وعادت الى « مكة » لا تلوي على شيء ...

وأثارتها فتنة عمياء صماء ، انتقاما من « علي » الذي لم تسالمه أبدا منذ دخلت بيت محمد ــ صلى الله عليه وسلم وآله ــ صبية في العقد الأول من عمرها ، ولم تنس له قط أنه زوج « فاطمة » بنت « خديجة » الودود الولود التي شغلت من قلب رجلها ــ في حياتها وبعد الممات ــ مكانا لم تستطع « عائشة » بكل شبابها وجمالها ونضرتها وحيويتها وذكائها ، أن تزحزحها عنه .

كذلك لم تغفر « عائشة » لـ « علي » أبدا موقفه من قصة الافك ، فقد كان ممن أشار على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم وآله ــ بطلاقها ، فالنساء غيرها كثيرات . وقيل انه قال للرسول عليه الصلاة والسلام : « سل الخادم وخوِّفنها ، وان أقامت على الجحود فاضربها » (٢) .

(١) تاريخ الطبري : ١٧٢/٥ والكامل لابن الاثير : ٨١/٥ ط الشرقية

(٢) انظر موقف علي رضي الله عنه من حديث الافك في السيرة ج ٣ وتاريخ الطبري ٦٧/٣ : ٧١ والسمط الثمين ٦٥ • وراجع صحيح البخاري : ٢٧/٣ ط الشرفية

وقيل كثير وكثير .. سمعته « عائشة » ووعته ، ولم تستطع أن تتناساه !

كانت « زينب » حين شبت الفتنة ، في نحو الثلاثين من عمرها ، تعيش مع زوجها وبنيها في دار الخلافة ، وترقب عن كثب وميض تلك الثورة التي شبتها « عائشة » وتولت كبرها ، وتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة على مدى خمس سنوات طوال ..

ولا يذكر التاريخ هنا لـ « زينب » مشاركة فعلية في المعركة ، وانما انفردت « عائشة » بدور البطولة في تلك المأساة المعروفة في التاريخ باسم موقعة « الجمل » الذي ركبته أم المؤمنين على رأس الجموع المعارضة الثائرة ، وكانت هي القائدة العليا للجيش : تصدر الأوامر ، وتعين الأمراء ، وتوجه الرسل بكتبها ذات اليمين وذات اليسار : الى أهل الكوفة ، وأهل اليمامة ، وأهل المدينة (١) مصدرة بالعبارة التالية :

« من عائشة ابنة أبي بكر ، أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، الى ابنها الخالص فلان ...

«أما بعد فان أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا ، فان لم تفعل فخذّل الناس عن علي » (٢) .

ولباها من لبى ، ورد عليها من يقول :

« ... أما بعد فانا ابنك الخالص ان اعتزلت ورجعت الى بيتك ، والا فانا أول من ينابذك » (٣) .

أو يقول :

« رحم الله أم المؤمنين ! أمِرت أن تلزم بيتها ، وأمرنا أن نقاتل ، فتركت ما أُمرت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه ! » (٤)

---

(١) تاريخ ابن الاثير ٣/٨٦

(٢ ، ٣ ، ٤) تاريخ الطبري : ٥/١٨٣ ، ١٨٤
والكامل لابن الاثير ٣/٨٤ ، وفيهما أن الذي كاتبته السيدة عائشة ، ورد عليها بهذا الجواب ، هو زيد ابن صوحان

وبذل بنو أمية لهذا الخروج أموالهم في سخاء ، وأقبلوا من كل حدب وصوب الى حيث وقفت « عائشة » بمكة تدعو للثورة ، فلما فصل جيشها من « مكة » كانت عدته ثلاثة آلاف ، سارت حتى دخلت « البصرة » ووقفت تخطب في الجمع المحتشد هناك :

« ... كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا .. فننظر في ذلك فنجده بريئا تقيا وفيا ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا تِرة ولا عذر ..

فهاج الناس وماجوا ، وصرخت عائشة : اسكتوا أيها الناس .
فأسكتَ لها الناس ، فقالت :
« انَ أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوما تائبا .. قتلوه مُحرِما ، ذبحا كما يذبح الجمل . الا وان قريشا رمت غرضها بنبالها ، وأدمت أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها اياه شيئا ولا سلكت به سبيلا قاصدا . أما والله ليرونَّها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب ..

« أيها الناس :

« انه ما بلغ من ذنب « عثمان » ما يستحل دمه ، مُصتموه كما يماص الثوب الرحيض ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم « ابن أبي طالب » بغير مشورة من الجماعة ، تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ؟

« الا ان عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتلته ، فاذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان » .

ووجدت « عائشة » في السامعين من يرد عليها : (١)

« يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون ... انه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وأبحت حرمتك ! »

وعقب شاب من بني سعد ، وجه كلامه الى « طلحة والزبير » :

ـ أما أنت يا زبير فحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى معكما أم المؤمنين ، فهل جئتما بنسائكما ؟

قالا :

ـ لا ..

قال :

ـ فما أنا منكما في شيء . واعتزل .

وقال « جارية بن قدامة السعدي » معقبا :

صُنْتم حلائلكم وقُدتم أمَّكم	هذا ـ لعمرك ـ قلة الانصاف
أُمِرت بجرِّ ذيولها في بيتها	فهوَتْ تشق البيد بالايجاف
غرضا يقاتل دونها أبناؤها	بالنبل والخطيِّ والأسياف
هُتِكت بطلحة والزبير ستورُها	هذا المخبَّرُ عنهم والكافي (٢)

وتصدى لها « الأحنف بن قيس » يقول : « اني سائلك ومغلظ لك في المسألة ، فلا تجدي عليَّ : أعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، في خروجك هذا ؟ »

قالت : « لا » .

فسأل :

(١) هو جارية بن قدامة السعدي . انظر نص كلمته في تاريخ الطبري : ١٧٦/٥ وكامل ابن الاثير ٨٣/٣

(٢) تاريخ الطبري : ١٧٦/٥ وابن الاثير ٨٣/٣

« أفعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، أنك معصومة عن الخطأ ؟ » .

أجابت : « لا » .
قال :

« صــدقت ، ان الله رضي لك المدينــة فأبيت الا البصرة ، وأمرك بلزوم بيت نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، فنزلت بيت أحد بني ضبة . ألا تخبرينني يا أم المؤمنين ، أللحرب قدمت أم للصلح ؟ »

أجابت وهي تكظم غيظها :

ـ بل للصلح
فقال لها :

« والله لو قدمت وليس بينهم الا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ، ما اصطلحوا على يديك ، فكيف والسيوف على عواتقهم ؟ » .

فلم تدر بم تجيب ، واكتفت بأن تقول في ألم : « لقد استغرق حلم الأحنف هجاؤه اياي ، الى الله أشكو عقوق أبنائي » .

* * *

وحين تلاقى الجيشان واحتدم القتال ، جعلت « القائدة » تلهب حماس عسكرها ، فهي تلتفت يمينها وتسأل : من القوم ؟

أجابوا : بكر بن وائل .
قالت : لكم يقول القائل :

وجاءوا الينا في الحـــديد كأنهم
من العزة القعساء بـــكر بن وائل

وتنثني الى يسارها فتسأل : من القوم عن يساري ؟
فيجيبون : بنوك الأزد .

فتهتف بهم : يالَ غسان ! .. حافظوا على جلادكم الذي كنا نسمع به :

وجالد من غسانَ أهلُ حفاظهـــا
وكعبٌ وأوس جالدتْ وشبيب

وتقبل على كتيبة بين يديها فتقول : من القوم ؟

قالوا : بنو ناجية ..

فتقول : بخ بخ!.. سيوف أبطحية قرشية،، فجالدوا جلادا يُتفادى منه.

ثم أطافت بها بنو ضبة فقالت : ويْهن جمرة الجمرات (١) .

فكأنما أشعلت فيهم من الحماسة نارا ...

* * *

وتتابع حملة اللواء على خطام جملها مستبسلين ، يقول قائلهم :

يـا أمَّنـــا يـا زوجة النبي
يـا زوجـة المبارَك المهـــدي
نحـن بنــو ضبـة ، لا نفـر
حتى نــرى جماجمـــا تخـر

فيتصدى له من معسكر « علي » من يناجزه وهو يرتجز :

يـا أمَّنا ، أعـق أم نعلمُ !
والأم تغـــذوا ولـــدا وتـــرحم
أمـــا ترين كـــم شجـاع يكلم
وتختلـــي منه يدٌ ومعصم ؟!

ويتقدم آخر ، فيمسك خطام الجمل ويمر على جثـة واحد من جيش « علي » قائلا :

أسامـــع أنت مطيـــع لعلـــي
من قبل أن تذوق حدَّ المشرفي
وخاذلٌ في الحق أزواج النبي

(١) بنصه ، من تاريخ الطبري : ٢٠٨/٥ وابن الاثير ٩٧/٣

ثم يخلص الى « عائشة » وهو يهتف :

يا أمَّنا يا « عيش » لن تراعي
والأزد فيهــا كرم الطبــاع

فيلقاه من أصحاب « علي » من يُجندله مرتجزا :

جردتُ سيفي في رجـال الأزد
أضــرب في كهــولهم والمــرد
كلَّ طــويل الساعدين نهد (١)

حتى عقر « الجمل » ، وكادت « عائشة » تتلف لولا أن أنقذها «علي» ونادى مناديه :

« ألا يجهز على جريح ، ولا يتبع مُوَلٍّ ، ولا يُطعَن في وجه مدبر ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن . »

ووقف أمير المؤمنين بعد انتصاره ، يحدق في جثث القتلى وقد بلغوا فيما رُوِيَ ، نحو عشرة آلاف : كلهم عرب ، وكلهم مسلمون ، وفيهم صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وآله ، وحملة القرآن الكريم ، وحفاظ السنة النبوية :

ثم أشاح بوجهه عن الساحة المغطاة بالجثث ، ورفع يديه الى السماء هاتفا في ضراعة وابتهال :

اليك أشكو عُجَري وبجـري
ومعشرا غَشوا عليَّ بصـري
قتلت منهــم مضري بمضـري
شفيت نفسي وقتلت معشري(٢)

* * *

(١) النصوص من تاريخ الطبري : ٢٠٨/٥ وما بعدها ، وكامل ابن الاثير ٩٧/٣ وما بعدها بتصرف يسير في ترتيب ايرادها وسياق انشادها

(٢) تاريخ الطبري : ٢١٥/٥ والكامل لابن الاثير ١٠١/٣ .

ثم صلى على القتلى من أهل الكوفة والبصرة ..

وأعيدت « عائشة » الى « المدينة » بعد أن انفردت ببطولة المعركة ، فما تركت لامرأة سواها مكانا الى جانبها ، اللهم الا أن تكون كلمة عابرة أو مشهدا ثانويا :

ودت « أم سلمة » أن تخرج لتنصر « عليا » ، لكنها كرهت أن تبتلي ـ وهي أم المؤمنين ـ بمثل ذاك الخروج ، فجاءت « عليا » وقدمت اليه ابنها « عمر » قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصي الله عز وجل ، وأنك لا تقبله مني ، لخرجت معك . وهذا ابني عمر ـ والله لهو أعز علي من نفسي ـ يخرج معك فيشهد مشاهدك . » (١)

وأتت « عائشة » فقالت لها :

«أي خروج هذا الذي تخرجين؟.. الله من وراء هذه الأمة !.. لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي : ادخلي الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه علي ! »

لكن « عائشة » لم ترجع ...

بل مضت في طريقها ، وتخلفت أمهات المؤمنين عنها ـ وكن قد خرجن معها الى مكة ـ مؤثرات أن يرجعن الى « المدينـــة » ، الا « حفصة بنت عمر » فانها قالت : « رأيي لرأي عائشة تبـَع » .

وأرادت أن تخرج معها الى البصرة ، فحال أخوها « عبد الله بن عمر » دون ذاك ، ولم تجد « حفصة » بدا من القعود . وبعثت الى عائشة تقول معتذرة : ان عبد الله حال بيني وبين الخروج . قالت عائشة : يغفر الله

---

(١) تاريخ الطبري : ١٦٧/٥

لعبد الله ! (١)

وبعد المعركة الدامية ، ظهرت على مسرح الأحداث بميدان القتال ، أم مسلم بن عبد الله .. وكان أول من قتل بين يدي أمير المؤمنين ـ فقالت ترثي ولدها :

لاهُم ان مسلما أتاهم — مستسلما للموت اذ دعاهم
الى كتاب الله لا يخشاهم — فرملوه من دم اذ جاهم
وأمهم قائمة تراهم — يأتمرون الغي لا تنهاهم

قد خضبت من علَق لحاهم (٢)

وعلى هذا النحو ، استأثرت « عائشة » ببطولة الموقعة وقيادتها ، وتوارت « زينب » فلم نلمح لها أثرا ولم نسمع لها صوتا ..

ذلك أن القدر كان يدخرها لبطولة من نوع آخر ، ويحتفظ بها وراء الستار حتى يحين أوان ظهورها في « كربلاء » بعد ربع قرن من الزمان !

لكنها مع ذلك كانت هناك في دار الخلافة، حيث مركز الأحداث ، وقطب رحاها ! كانت هناك ـ كما قلنا ـ ترمق أباها أمير المؤمنين في حب وقلق ، وهو يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة « الجمل » ليلقى « معاوية » في « صفين » ثم يفرغ منه ليلقى « الخوارج » في « النهروان » وهكذا على مدى خمس سنوات ، لم يهدأ فيها يوما ، حتى كانت تلك الليلة المشؤومة ، ليلة الجمعة لتسع عشرة خلون من رمضان عام ٤٠ هـ ، وقد خرج الامام في الفجر يصلي بالناس في المسجد الأعظم بالكوفة، و «زينب في الدار ما تدري الا وضجة تعلو آتية من ناحية المسجد ، مبددة أصداء الأذان الذي جلجل منذ لحظات من مآذن الكوفة : حي على الصلاة حي على الفلاح !.. الله أكبر ، الله أكبر !

وأمسكت « زينب » قلبها في ذعر مبهم ، وأصغت في وجوم وقلق الى

---

(١) تاريخ الطبري : ١٦٧/٥
(٢) تاريخ الطبري : ٢١٦/٥

الضجة وهي تقترب من دار الخلافة شيئا فشيئا ، حتى اذا بلغت ساحة الدار ميزت « زينب » صيحات مروعة ، تعلن ملء الفضاء : أن قد قُتل أمير المؤمنين !..

وهنا جمعت « زينب » كيانها الموشك على التداعي ، وتحاملت تستقبل أباها الحبيب محمولا على الأعناق ، قد أصابته طعنة قاتلة مسمومة ، من سيف « عبد الرحمن بن ملجم » ..

وأكبت عليه تقبله ، وتغسل جرحه بدموعها وأختها « أم كلثوم » الى جانبها تصيح بالقاتل وقد جيء به مكتوف اليدين :

ـ أي عدو الله ، لا بأس على أبي ، والله مخزيك (١) ..

وما أحسب « زينب » الا سمعت من العواد قصة « ابن ملجم » هذا : سمعت انه ثالث ثلاثة من الخوارج (٢) ، ائتمروا « بعلي ومعاوية وعمرو » ثأرا لاخوانهم قتلى « النهروان » وحسما لذاك الداء الذي استشرى منذ مقتل « عثمان » ..

وقد خرج « ابن ملجم » من « مكة » وسار حتى قدم « الكوفة » فزار رجلا من أصحابه من « تيم الرباب » فصادف عنده « قطام بنت الأخضر » ـ وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر ـ وكانت فائقة الجمال ، تعد من أجمل نساء زمانها .. فلما رآها « ابن ملجم » أخذت قلبه ، وأراد أن يخطبها فسألته :

ـ ما الذي تسمي لي من الصداق ؟

أجاب :

ـ احتكمي ما بدا لك ..

فقالت في عزم وجد :

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/٨٥ ـ والكامل لابن الاثير : ٣/١٥٩

(٢) الآخران هما : البرك بن عبد الله ، لمعاوية ، وعمرو بن بكر التميمي ، لعمرو بن العاص ٠ انظر الخبر بتفصيل في تاريخ الطبري : ٦/٨٣ ومقاتل الطالبيين : ٢٠٦ والاستيعاب ٢/٢٨٢ ٠ وابن الاثير ٣/١٥٥

ـ أنا محتكمة عليك : ثلاثة آلاف درهم ، وعبدا ، وقينة ، وقتل « علي ابن أبي طالب » !

ففكر برهة ثم قال لها وهو يكتم أمره :

ـ لك جميع ما سألت ، فأما قتلي « عليا » فأنى لي بذاك ؟

قالت على الفور :

ـ تلتمس غرته ، فان أنت قتلته شفيتَ نفسك ونفسي وهناك العيشُ معي ...

فنظر اليها متأملا ثم قال :

ـ أما والله ما أقدمني هذا المصير ـ وقد كنت هاربا منه لا آمن مع أهله ـ الا ما سألتِني من قتل « علي » فلك ما سألت ! (١)

ثم مضت فندبت له من يساعده ويقويه ، وذهب هو فلبث أياما ثم أتاها مع صاحبيه في الليلة الموعودة ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وقلدتهم سيوفهم ، وأرسلتهم .. فكان ما كان .

فلم أر مهرا ساقه ذو سماحة
كمهر « قطام » ، من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينة
وضرب « علي » بالحسام المصمم

ولا مهر أغلى من « علي » وان علا
ولا فتك الا دون فتك «ابن ملجم»(٢)

* * *

وتكاثر العُواد يقفون بباب أمير المؤمنين جازعين داعين ، فلما لم يؤذن لهم في الدخول عليه ، عرفوا أنه الخطر قد اشتد والجرح قد غار ، وقال قائلهم لحاجب الامام :

(١) الحوار بنصه من الطبري ٦/٨٣ ومثله في الكامل لابن الاثير ٣/١٥٥ ومقاتل الطالبيين ٣٢

(٢) الابيات لابن ابي مياس المرادي . انظرها في تاريخ الطبري ٦/٨٧ ومقاتل الطالبيين ٣٧ وتاريخ ابن الاثير ٣/١٥٧

ــ قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حيا وميتا ، فوالله لقد كان الله في صدرك عظيما !..

وجاءوه بأطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من « أثير بن عمرو بن هانىء » وكان متطببا يعالج الجراحات ، أصابه « خالد بن الوليد » مع أربعين غلاما في « عين التمر » فسباهم .

ونظر « أثير » الى جرح الأمير ، فدعا برئة حارة وانتزع عرقا منها فأدخله في الجرح ثم استخرجه ، فاذا عليه بياض الدماغ ، فقال له يائسا:

ــ يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ، فان عدو الله قد وصلت ضربتُه الى أم رأسك ..

فدعا الامام ولديه « الحسن والحسين » ، وتهيأ لكتابة وصيته (١) ..
ومن تلك اللحظة ، لم تدع « زينب » فراش أبيها ...
كانت تريد أن تتزود منه قبل الرحيل ..
وما أسرع ما رحل أمير المؤمنين !..

ضرب في فجر الجمعة ، فمكث يومين اثنين ، وتوفي ليلة الاحد ، لاحدى وعشرين مضت من رمضان عام ٤٠ هـ ، على أرجح الأقوال .

وترك من ورائه ولديه الحسن ، ثم الحسين ، لخصمه الداهية « معاوية » ..

وترك العقيلة « زينب » لتشهد آل البيت وهم يَصْلون النارَ التي أشعلتها فتنةُ الثأر « لعثمان » ..

أما « عائشة » فحين أتاها النعي ، تمثلت بقول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالاياب المسافر

(١) انظر نص وصية الامام علي ، في تاريخ الطبري ٨٥/٦ وكامل ابن الاثير ١٥٩/٣ ومقاتل الطالبيين ٣٨

ثم سألت :

ــ من قتله ؟

فقيل لها : رجل من مراد ..

فقالت :

فان يك نائيا فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

وسمعتها « زينب بنت أبي سلمة : ربيبة الرسول صلى الله عليه وسلم » فسألتها منكرة (١) :

ــ ألعلي تقولين هذا ؟

فأجابت « عائشة » :

ــ اني أنسى ، فاذا نسيت فذكروني . ثم تمثلت :

ما زال اهداء القصائد بيننا
باسم الصديق ، وكثرة الألقاب
حتى تُرِكتَ كأن قولك فيهم
في كل مجتمع طنين ذباب

وفي رواية أنه : لما جاء « عائشة » قتل « علي » عليه السلام ، سجدت!

قالوا : وكان الذي جاءها بنعيه « سفيان بن أبي أمية » ..

أجل ، قالت « عائشة » حين نعي « علي » :

* فألقت عصاها واستقر بها النوى *

لكن دنيا القوم لم تلق عصاها ولم تستقر بها النوى، فان مقتل « علي » لم يكن سوى حلقة من سلسلة الفواجع التي ألمت بآل البيت ، ودفعت بهم وقودا لنار الفتنة العمياء التي شبتها « عائشة » وتولت كبرها .

* * *

(١) الحوار بنصه من تاريخ الطبري ٨٧/٦ ومقاتل الطالبيين ٤٢ ٠ وانظر طبقات ابن سعد ٢٧/٣ وتاريخ ابن الاثير ١٥٧/٣

ثكلت « زينب » أباها ..
وجاء دور شقيقها « الحسن » !
بدأ هذا الدور بخطبة مؤثرة قال فيها :

« ... لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل . ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح عليه . وما خلف صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقية من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله ! » (١)
ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه !
وانتهى هذا الدور — دور الحسن — بعد عشر سنوات ..
حاول في أولها أن يقف لخصمه الداهية « معاوية » ، فخذله أهل « الكوفة » وخانه قائد جيشه « عبيد الله بن عباس » فتسلل من معسكر الحسن في « مسكن » ولحق بمعسكر معاوية ، بعد مكاتبات سرية (٢) ..

واذ ذاك تنازل عن الخلافة « لمعاوية » بعد أن شد بعض أهل العراق على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وامتدت يد أحدهم فنزعت مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالسا متقلدا السيف بغير رداء ، وامتدت يد أخرى فأخذت بلجام بغلته وطعنته في فخذه فشقّته الطعنة حتى بلغت العظم ! (٣) فازداد لهم بغضا ومنهم رعبا ، وولى عنهم وهو يقول : « يا أهل العراق ، انه سخا بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم اياي ، وانتهابكم متاعي » (٤) ..

ومرّضت « زينب » أخاها الجريح ، فلما اندمل الجرح نسيت مواجعها

---

(١) أنظر نصها في : تاريخ الطبري ٩١/٦ ومقاتل الطالبيين ٥١ والكامل لابن الاثير ١٦/٣ — وانظر (صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين) ص ٤٣ ط الزهراء ببغداد ·
(٢) انظر « صلح الحسن » ص ٨٩ وما بعدها ، ومقاتل الطالبيين ٦٤
(٣) صلح الحسن : ٢١٦
(٤) تاريخ الطبري ٩٥/٦

الى حين ، وظنت أن نزول « الحسن » عن حقه منجيه من الهلاك ، وحاقن دماء آلها من سيوف السفاحين !

ولكن « معاوية » كان يريد الخلافة ملكا أمويا ، ولن يستطع أن يأخذ البيعة لابنه « يزيد » والحسن بن علي حي يتنفس !

ولم يكن عهده « للحسن » أن يلي الأمر من بعده (١) ، هو الذي يشغله ويهمه ، فما لمثل« معاوية » عهد ، وانما شغله وأهمه أن المسلمين لا يرضون بيزيد بن معاوية ، بديلا من « الحسن بن علي » سبط الرسول.

وان « معاوية » ليذكر تماما ، يوم خطب في الناس ـ بعد أن تنازل له الحسن ـ فذكر «عليا» فنال منه ، ونال من «الحسن» فقام «الحسين» ليرد عليه ، فأخذ « الحسن » بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذاكر عليا ، أنا الحسن وأبي علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدك حرب ، وجدتي خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكرا والأمنا حسبا وشرّنا قدما وأقدمنا كفرا ونفاقا .. » (٢)

فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين !

وردد آخرون : ونحن أيضا نقول : آمين !

أيمكن أن يحقق « معاوية » حلمه ، و « الحسن » ملء قلوب هؤلاء الناس وان خذلته سيوفهم رهبة من « معاوية » ؟!

* * *

قالوا : وانصرف « الحسن » بعد تنازله عن الخلافة الى « المدينة » فأقام بها نحو ثماني سنوات ، وأراد « معاوية » البيعة لابنه « يزيد » فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر « الحسن بن علي » فدس له سماً ..

وكان الذي تولى ذلك لمعاوية من « الحسن » زوجته « جعدة بنت الأشعث بن قيس » ..

---

(١) انظر نص العهد في صلح الحسن : ٢٥٢

(٢) صلح الحسن ٢٨١ وراجعه على المسعودي في المروج (هامش الكامل لابن الاثير ٦/٦١)

أرسل اليها « معاوية » : « اني مزوجك بيزيد ابني ، على أن تَسُمِّي زوجك الحسن بن علي » . ووعدها بمائة ألف درهم ، فقبلت ، وسمت « الحسن » ، فدفع لها « معاوية » المال ولم يزوجها من « يزيد » معتذرا اليها بأن حياته غالية عليه ! فخلف عليها رجل من « آل طلحة » فأولدها ، فكان اذا وقع بين أولادها وبين بطون قريش كـــلام ، عيروهم وقالوا : يا بني مُسمّة الأزواج (١) ..

* * *

وشيعت « زينب » أخاها ، ثم آبت الى البيت الحزين ، بعد أن أرقدوا فقيدها الى جوار أمها « الزهراء » بالبقيع عام ٤٩ هـ . وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، على أرجح الأقوال (٢) ..



(١) انظر الخبر بتفصيل في : مقاتل الطالبيين ٧٣ وصلح الحسن : ٣٦١ وذكر المسعودي ٢١/١٩٨ هامش ابن الاثير (والشريف الرضي في النهج : ١٢١/٢١) ان الذي سعى لمعاوية لدى بنت الاشعث في سم الحسن زوجها ، كان مروان بن الحكم

(٢) مقاتل الطالبيين ٧٩

رَحيلٌ

جاء دور « الحسين » فتهيأت « زينب » لترعى أخاها وهو يرى الأمر يخرج من بيت « النبي » الى بيت « أمية » ملكا موروثا ..

ذلك انه لم تكد تمضي على وفاة « الحسن » ست سنوات حتى دعا « معاوية » جهرا الى البيعة لابنه « يزيد » من بعده ، فاستوثق له الناس راضين أو مكرهين ، غير خمسة نفر لم يكن فيهم من هو أحق بالغضب لهذا العدوان من « الحسين بن علي » ولد « الزهراء » وسبط الرسول ..

وعاش « معاوية » أربع سنوات بعد أخذه الناس بالبيعة لابنه و « الحسين » ثابت عند موقفه ، لا يرضى أن يعترف بيزيد ولي عهد للدولة التي أقامها جد الحسين ..

ان يكن الأمر وراثة فمن أحق به من « الحسين » : غذيّ النبوة وابن بنت الرسول ، وابن الامام علي ؟

وان يكن اختيار للأصلح ، فمن أولى بالخلافة من « الامام الحسين » التقي النقي والعالم الفقيه ؟

أفأنكروا على آل الرسول حقهم في ميراث أبيهم ، لكي يرثها فتى من بني أمية رقيق الدين ، صاحب لهو وشراب ..

أتصرف الخلافة عن حفيد « خديجة » أم المؤمنين الأولى ، الى حفيد « هند » آكلة الأكباد وبطلة الانتقام الوحشي في موقعة « أحد » ؟

---

(١) انظر خبر البيعة في احداث سنة ست وخمسين من تاريخ الطبري : ١٨٧/٦ والكامل لابن الاثير (١٩٨/٣)

ان الاسلام لم يكن قد نسي بعد ما ناله من « هند » في « أحد » ، وان الجراح التي أحدثتها « هند » بالمسلمين لم تكن قد التأمت بعد ، فما زال فيهم ـ يومئذ ـ أحياء شهدوا « هندا » حين ظهرت في « مكة » تعير قريشا بهزيمتهم الشنعاء أمام فئة قليلة من المؤمنين ، انتصرت على جيش لأبي سفيان ـ زوج هند وزعيم المشركين ـ كامل العدة والعدد ، وتركت على الساحة الدامية حول ماء « بدر » جثث الأبطال الصناديد من قوم هند :

أبيها « عتبة » وقد أطاحت رأسه ضربة باترة من سيف حمزة بن عبد المطلب » ..

وأخيه « شيبة » وقد تكفل به « حمزة » أيضا ..

وابنه « الوليد » ، وقد صرعه « علي بن أبي طالب » ..

و « أبي جهل » قائد جيش الكفار ..

وعشرات آخرين ، تركوا هناك مجندلين !

يومئذ أقسمت « هند » ألا يقربها زوجها « أبو سفيان » حتى يثأر لقتلاها ، ثم ما زالت بالمكيين حتى تجمعوا في ثلاثة آلاف مقاتل ، يقودهم « أبو سفيان » ، وفيهم مائتا فارس تحت امرة « خالد بن الوليد » ..

وخرجت هي على رأس ذاك الجيش الزاحف الى « المدينة » تحف بهـا نسوة أخريات ، ينشدن أغنية الدم ويرتلن نشيد الثأر. وخلت هند بعبد لها حبشي اسمه « وحشي » فمنته ووعدته بالحرية ، ان هو جاء برأس « حمزة » ثمنا لفك رقبته من غل الرق !

وتراءى الجمعان عند سفح « أحد » فأشارت « هند » الى نسوتها فرحن يضربن على الدفوف وهي في وسطهن ترقص وتغني ، وتحرض وتثير !

ولما حمي وطيس القتال ، اقترب « وحشي » من « حمزة » وهو في شغل بالاجهاز على بعض المشركين ، وهز العبد حربته في الهواء ثم أطلقهـا فأصابت « حمزة » على غرة ، وأردته على الرمال يتخبط في دمه ، ثم رقد ساكنا ...

وهنالك انطلق « وحشي » يعدو نحو « هند » ، فلم تكد تلمحه على

البعد ، حتى عرفت ما جاء من أجله ، فسارت اليه صامتة ، وأسلمته يدها ليقودها الى حيث يرقد المحارب البطل ، فما رأته حتى صاحت صيحة فرح مجنون ، وانحنت على جثة الشهيد تمزقها ، وتجدع الأنف ، وتصلم الأذنين ، وتسمل العينين . ثم بقرت بطنه وانتزعت كبده التي كانت لا تزال حارة ، وجعلت تلوكها بأسنانها في غبطة واشتهاء ، والنسوة من ورائها يقلدنها ويتخذن لأنفسهم قلائد وأقراطا من آذان الشهداء وأنوفهم وأصابعهم ! (١)

وفي الحق أن « هندا » أسلمت بعد ذاك كما أسلم زوجها عام الفتح ، لكن هذا لم يمح صفحتها الأولى ، ولم يحل دون نبز أبنائها بلقب « بني آكلة الأكباد » ..

* * *

و « يزيد » حفيد « هند » تلك ، أورثه أبوه الخلافة ملكا عضودا هرقليا ، كلما مات هرقل قام هرقل ، وفي المسلمين صحابة أجلاء ، على رأسهم الامام « أبو عبد الله الحسين » ولد الزهراء ، وحفيد خديجة ، ولد الامام علي ، وحفيد أبي طالب ..

كلا !.. يأبى الاسلام ذلك ، ويأباه « الحسين » ..

وان « معاوية » ليعرف هذا حق المعرفة ، ويعرف مَن « الحسين » ومَن « يزيد » ، فكانت وصيته الأخيرة لولي عهده يزيد (٢) :

« اني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الاشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ...

« واني لست أخاف عليك من قريش الا ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » ..

ويمضي « معاوية » فينظر في أولئك الثلاثة ، ويقيس مدى خطرهم

---

(١) انظر خبر هند في وقعة أحد : في طبقات ابن سعد ج ٢ والسيرة لابن هشام ج ٢ وتاريخ الطبري ح ٢ والاستيعاب لابن عبد البر : ٤ /١٩٢٢

(٢) انظر نص الوصية في تاريخ الطبري : ٦/١٨٠

على وارثه وولي عهده ، فلا يرى فيهم من هو أخطر على « يزيد » من « الحسين » فان له رحما ماسة وحقا عظيما ، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ومن ثم فهو يوصي ولي عهده بأن يدع « ابن عمر لعبادته فانه رجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمسا شيئا قِبَلَ يزيد » وأن يأخذ « ابن الزبير » بالشدة « فانه خب ضب » أما « الحسين » فان « معاوية » يلوذ بالأمل ، ويدعو ليزيد : « أن يكفيه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه .. ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه » ..

* * *

استقبلت « زينب » مع بني هاشم ، خلافة « يزيد بن معاوية » في شهر رجب عام ٦٠ هـ ..

وما كان ليزيد حلم أبيه ، أو رزانته ، أو دهاؤه السياسي ..

ولم يكفه أنه ورث الخلافة عن أبيه ، فكان أول وارث لها عرفه الاسلام . ولم يشأ أن يدع « الامام الحسين » معتكفا في « المدينة » كما فعل « معاوية » من قبل ، وانما أصر على أن يأخذ بيعة « الحسين » والنفر الذين امتنعوا بالحجاز ، وأبوا أن يجيبوا « معاوية » الى بيعة « يزيد » ..

كان همه الأول أن يفرغ من هؤلاء ، فكتب الى أمير « المدينة » ـ الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان ـ غداة موت معاوية : « أن خذ حسينا ، وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن الزبير ، أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا ... » (١)

وكبر الأمر على « الوليد » فاستشار « مروان بن الحكم » فكان جوابه: « فاني أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى البيعة والدخول في الطاعة ، فان فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وان أبوا قدتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية .. »

---

(١) تاريخ الطبري ١٨٨/٦ والكامل لابن الاثير ٥/٤

وجاء « الحسين » في رهط من شيعته ومواليه ، فأبقاهم بباب «الوليد» على أهبة ، ودخل الى الأمير وعنده « مروان بن الحكم » . فدعاه الوليد الى البيعة ، فقال الحسين :

ـ ان مثلي لا يعطي بيعته سرا ولا أراك تجتزىء بها مني سرا دون أن تظهر على رؤوس الناس علانية ؟

قال الوليد :

ـ أجــل ..

قال الحسين :

ـ فاذا خرجتَ الى الناس فدعوتهم الى البيعة ، دعوتنا مع الناس فكان أمرا واحدا ..

فصمت « الوليد » وهمَّ « الحسين » بالانصراف ، لـــكن « مروان » انبعث يقول للوليد محذرا :

ـ والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه . أجلس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه ..

فوثب عند ذلك « الحسين » وهو يسأل في انكار :

ـ يا ابن الزرقاء ، أنت تقتلني أم هو ؟ كذبت والله وأثمت ..

ثم خرج .. و « مروان » يقول للوليد مؤنبا :

ـ عصيتني ؟ لا والله لا يمكنك من مثلها من نفسه أبدا ...

فرد عليه الوليد :

ـ وبِّخ غيري يا مروان ، انك اخترت لي التي فيها هلاك ديني ، والله ما أحب أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه ، من مال الدنيا وملكها ، واني قتلت حسينا . سبحان الله ! أقتل حسينا أن قال لا أبايع ؟ والله اني لأظن ان امرأ يحاسب بدم حسين ، خفيف الميزان عند الله يوم

القيامة (١) ..

خرج « الحسين » حتى أتى منزله فألقى الى أهله النبأ ، وأسرَّ اليهم بعزمه على الرحيل ...

ومر بمسجد المدينة ، فيقال انه سُمِع اذ ذاك يتمثل بقول ابن مفرغ:

لا ذعرتُ السوام في فلق الصبـ
ـح مغيرا ، ولا دُعيت يزيدا

يوم أعطي من المهانة ضيما
والمنايا يرصدنني أن أحيدا (٢)

ورنت « مدينة الرسول » في الليلة التالية ، الى ابن الزهراء يتسلل بأهله منها حذرا يترقب تحت جنح الظلام ، قبل أن يبرغ القمر .. لم يكد يترك منهم بالمدينة غير اخيه «محمد بن الحنفية» فانه قال للحسين :

ـ يا أخي ، انت أحب الناس اليَّ وأعزهم عليَّ ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك. تنحَّ بمن معك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رسلك الى الناس فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وان أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ، ولم تذهب به مروءتك وفضلك ، فاني أخاف أن تدخل مصرا من هذه الامصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفوا فيما بينهم ، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنَّة هدفا ، فاذا خير هذه الأمة كلها نفسا وأبا وأما ، أضيعها دما وأذلها أهلا ..

قال الحسين :

ـ فاني ذاهب يا أخي ..

قال محمد :

---

(١) الحوار بنصه ، من تاريخ الطبري ٦/١٩٩ ، وابن الاثير ٤/٦

(٢) تاريخ الطبري : ١/١٩١ ، وابن الاثير ٤٠/٧

ـ فانزل مكة ، فان اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك ، وان نبت ، لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد الى بلد حتى تنظر الى ما يصير اليه أمر الناس ويفرق لك الرأي ، فانك أصوب ما تكون رأيا حين تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور أبدا أشكل منها حين تستدبرها ...

فودعه « الحسين » وهو يقول متأثرا :

ـ يا أخي قد نصحت وأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديدا وموفقا ان شاء الله (١) .

* * *

وفي الطريق الى مكة ، جاز أهل البيت بالمواقع التي شهدت جدهم الرسول حين خرج من « مكة » مهاجرا منذ ستين عاماً !

ولفهم الليل ، وأسدل عليهم ستراً ، وساد الصمت فلم يعد يسمع سوى وقع أخفاف الابل تسير حثيثا على الرمال ..

ولم يكن ثمت حداء ولا غناء، وانما هو «الحسين» يتلو هامسا قوله تعالى : « رب نجني من القوم الظالمين » ..

فيؤمِّن رهطه وهم يلقون على مدينة جدهم ومغاني صباهم وشبابهم نظرة وداع ، فيرتد اليهم البصر خاشعاً دون أن يميز من معالم « المدينة » في الظلام الدامس ، سوى هامات النخيل ، وأعالي الجبال ..

ولو قدر للنساء أن ينظرن ما وراء ستار الغد ، لملأن سمع الليل عويلا ونواحا ، فان الحسين ، وآله وصحبه ، يخرجون الليلة من المدينة الى غير مآب ...

ومضت ساعات والركب يغذ السير ويشق الظلام ، حتى اذا أوغلوا

---

(١) الحوار بين الحسين ومحمد بن الحنفية ، بنصه من تاريخ الطبري : ٦/١٩٠
وفي رواية ابن الاثير (٤/٦) أن الحسين قال لاخيه محمد ، قبل أن يشير عليه بمكة : فأين أذهب يا أخي ..؟

في الصحراء وأوغل الليل ، بزغ القمر وأطـــل عليهم ، فاذا فيهم مع الحسين ، بنوه وأخوته ، وبنو أخيه ، وجل أهل بيته ...

وفي جانب ، كانت « عقيلة بني هاشم » تسير مع جماعة النساء ، تنتظر انبثاق نور القمر ، كيما يبدد الوحشة التي رانت عليها وعلى الدنيا من حولها ...

وأجهدهم السير أياماً وليالي ذات عدد ، حتى شارفوا « مكة » ، فتلا « الحسين » قول ربه :

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » (١)

... وجاءتـــه كتب القـــول تترى : « ان قد حبسنـــا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي ، فاقدم علينا » (٢) ..

وبدأ أهل البيت يتهيأون للسفر من جديد ..

❋

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/١٩١ والآية من سورة القصص : ٢٢
(٢) انظر كتب أهل الكوفة ورسلهم الى الامام الحسين ، في تاريخ الطبري ٦/١٩٤ ومقاتل الطالبيين ٩٥

دَليلُ الركبِ

تهيأوا للسفر ، لكنهم لم يشدوا الرحال قبل أن يبعثوا الى « الكوفة » دليلا منهم ، يستوثق من الأمر هناك ..

وقد اختار « الامام الحسين » ابن عمه « مسلم بن عقيل بن أبي طالب » (١) لهذه المهمة ، فخرج «مسلم» حتى أتى « المدينة » فأخذ منها دليلين ، فمرا به في البرية فأصابهم عطش ، فمات أحد الدليلين — وقيل مات الاثنان — وانقبضت لذلك نفس « مسلم » فكتب الى « الحسين » :

« ... اني أقبلت الى المدينة واستأجرت دليلين فضلا الطريق واشتد بهما العطش فماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا الى الماء فلم ننج الا بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبيث ، وقد تطيرت ، فان رأيت أعفيتني وبعثت غيري .. »

وكان جواب الامام : أن امضِ الى الكوفة قدما (٢) ..

وامتثل « مسلم » فسار حتى بلغ الكوفة ونزل على رجل من شيعتهم هناك . فأقبلت الشيعة تختلف اليه ، فكلما اجتمعت اليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب « الحسين » ، فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة ،

---

(١) انظر ترجمة مسلم بن عقيل في طبقات ابن سعد ٢٩/٤ واقرأ خروجه الى الكوفة ، ومقتله في تاريخ الطبري ١٩٤/٦ وابن الاثير ٨/٤ ومقاتل الطالبيين : ٩٦ وما بعدها • وراجع « مقتل الحسين » للسيد علي عبد الرزاق الموسوي ، ص ١٦٠ وما بعدها ط النجف

(٢) تاريخ الطبري : ١٩٤/٦ وانظر معه « مقتل الحسين : ١٤٩ »

حتى بايعه من القوم اثنا عشر ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك ، فعجل بايفاد رسول يحمل البشرى الى « الحسين » المنتظر بمكة ..

* * *

كان أمير الكوفة حين دخلها « مسلم » ، « النعمان بن بشير الأنصاري » وقد نقم عليه « يزيد بن معاوية » انه ترك أمر الشيعة يفلت من يده ، وانه نام عن « مسلم » حتى ضم بضعة عشر ألفا الى لواء « الحسين » ..

وبادر « يزيد » فعزل « النعمان » واستبدل به « عبيد الله بن زياد » واليه على البصرة ، وكتب اليه ان يطلب « مسلم بن عقيل » ويقتله (١)، فبدأ « ابن زياد » ب « هانيء بن عروة المرادي » ــ وكان « مسلم » قد انتقل الى داره ــ فحبسه ريثما يقتله ، وشاع الأمر فصاحت نسوة مراد: « يا عشرتاه ! .. يا ثكلاه ! »

فثار « مسلم » مغضباً ،ونادى بشعاره فاجتمع اليه أربعة آلاف من أهل الكوفة سار بهم يريد انقاذ « هانيء » عنوة (٢) ..

ثم كان موقف أهل « الكوفة » بعد ذلك عجيبا : روى « الطبري » في (تاريخه) وابن الأثير في (الكامل) و « أبو الفرج الأصبهاني » في (مقاتل الطالبيين) ان المرأة منهم كانت تأتي ابنها فتقول : « انصرف ، الناس يكفونك » ويجيء الرجل الى ابنه وأخيه فيقول : « غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب ؟ انصرف » ..

فما زالوا يتفرقون عن « مسلم » وينصرفون حتى أمسى وما معه الا ثلاثون رجلا ، صلى بهم المغرب وخرج نحو أبواب كندة فما بلغها الا ومعه عشرة ، ثم جاوزها فاذا ليس معه منهم انسان ! (٣)

فمضى ملتزرا في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب ، حتى أتى دار امرأة عجوز ، كانت قائمة بالباب تنتظر ولدها الذي خرج مع الناس.

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٠٠/٦

(٢) تاريخ الطبري ٢٠٧/٦

(٣) تاريخ الطبري ٢٠٧/٦ ومقاتل الطالبيين ١٠٠ وما بعدها والكامل لابن الاثير ١٣/٤

فسلم عليها « ابن عقيل » فردت السلام ، ثم سألها أن تسقيه فأخرجت اليه ماء فشرب ثم لم يبرح مكانه ، فاسترابت في أمره وسألته أن ينصرف الى أهله ، وكررت عليه مثل هذا ثلاث مرات حتى قال لها :

ـ يا أمة الله ، والله ما لي في هذا المصر من أهل ، فهل لك في معروف وأجر لعلي أكافئك به بعد اليوم ؟

فسألت :

ـ يا عبد الله ، وما ذاك ؟

أجاب :

ـ أنا مسلم بن عقيل ، كذبني القوم وخذلوني ..

فأدخلته دارها وعرضت عليه العشاء فلم يتعش ، وأخفت أمره الا عن ولدها ، فما أصبح الصبح الا وقد وُشِي به !

وحوصر « مسلم » فقاتل وحده مستبسلا ، ضد ستين رجلا مسلحا من شرطة « ابن زياد » أو سبعين ، فلما أعياهم أمره ، أخذوا يلهبون النار في القصب ويلقونها عليه ، واذ ذاك خرج اليهم يقتحم صفوفهم مقاتلا بسيفه ، فقال له محمد بن الأشعث :

ـ لك الأمان فلا تقتل نفسك ..

فأبى الا أن يمضي في قتالهم وهو يرتجز :

أقسمت لا أُقتَل الا حرا
وان رأيت الموت شيئا نكرا
كل امريء يوما يلاقي شرا
أخاف أن أكذب أو أغرا

فقال له ابن الاشعث : انك لا تُكذَب ولا تخدع . القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ..

وكان « مسلم » قد أثخن بالجراح ، فأسند ظهره الى الحائط والقوم

من حوله يؤكدون له الأمان ..

وأُتِيَ له ببغلة فحُمِلَ عليها ، وانتزعوا سلاحه ، فداخلته ريبة من أمان القوم ! (١)

* * *

وجيء به الى « ابن زياد » فأمر به فأُصعِد الى أعلى القصر ، فضربت عنقه وألقيت جثته من علٍ الى الناس ، وصلب صاحبه « هانيء بن عروة » في السوق ..

ونقل « الطبري » أيضا عمن شهد مصرع « هانيء بن عروة » بعد قتل « مسلم » انهم أخرجوه حتى انتهوا به الى مكان من السوق ، كان يباع فيه الغنم ، وهو مكتوف اليدين ، فجعل يقول :

« وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم ! وامذحجاه وأين مني مذحج ؟! »

فلما رأى ان أحداً لا ينصره ، جذب يده فنزعها من الكتاف ، ثم قال : « أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم ، يجاحش به رجل عن نفسه؟».

قال الراوي : ووثبوا اليه فشدوه وثاقا ثم قيل له : امدد عنقك .

فأبى أن يجود بها راضيا ، فضربه مولى لعبيد الله بن زياد بالسيف فلم يصنع شيئا ... ثم ضربه أخرى فقتله ، والناس يتفرجون !

فان كنتِ لا تدرين ما الموت فانظري
الى هانيء في السوق وابن عقيل

الى بطل قد هشم السيف وجهه
وآخر يهوي من طمار قتيل

ترى جسداً قد غير الموت لونه
ونضح دم قد سال كلَّ مسيل !

---

(١) تاريخ الطبري ٣١١/٦ وانظر معه (مقتل الحسين : ١٦٤ ومقاتل الطالبيين ١٠٤ والكامل لابن الاثير ١٣/٣

فان أنتـــم لم تثـــأروا بأخيكم
فكونوا بغـــايا أرضيت بقليــل (١)

* * *

حدث كل هذا ، وآل البيت في مكـة يقرأون كتـاب دليلهم « مسلم » بأخذ البيعة للحسين ، واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم اياه ...

وتحرك « الحسين » يريد الخروج بأهله متعجلا ، قبل أن تبلغه رسالة أخرى ـ شفوية ـ من الدليل الراحل

ذلك ان « مسلم بن عقيل » لما يئس من نفسه دمعت عيناه ، فقال له قائل : (٢)

ـ ان من يطلب مثل الذي تطلب ، اذا نزل به مثل الذي نزل بـك ، لم يبك !

قال :

ـ اني والله ما لنفسي أبكي ولا لها من القتل أرثي .. ولكن أبكي لأهلي المقبلين اليَّ .. أبكي لحسين وآل حسين .

ثم أقبل على محمد بن الأشعث ـ وهو الذي أعطاه الأمان مـن ابـن زياد ـ فقال :

ـ يا عبد الله ، اني أراك والله ستعجز عن أماني ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلا يبلغ « حسينا » خبرا على لساني ، فاني لا أراه الا وقد خرج اليكم مقبلا ، أو هو خارج غداً هو وأهل بيته ، وان ما ترى من جزعي لذلك .

أما نص الرسالة ـ فيما نقل المؤرخون ـ فهو ان يمضي الرسول فيقول للحسين : « ان ابن عقيل بعثني اليك وهو في أيدي القوم أسير ،

---

(١) في مقاتل الطالبيين : ١٠٨ أن الشعر لعبد الله بن الزبير الاسدي ٠ وأضاف الطبري : ويقال قاله الفرزدق : ٢١٤/٦ ومثله في الكامل لابن الاثير : ١٥/٤

(٢) في تاريخ الطبري : ٢١١/٦ انه عمرو بن عبد الله بن عباس وفي « مقاتل الطالبيين ١٠٥ » انه عبد الله بن العباس السلمي ، ومثله في الكامل لابن الاثير ١٤/٤

لايرى أن تمشي حتى تقتل . وهو يقول : ارجع بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فانهم أصحاب أبيك الذي كـان يتمنى فراقهم بالمـوت أو القتل . ان أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي » (١) ..

وقد أقسم « ابن الأشعث » لمسلم انه باعث الى « الحسين » بالرسالة.. لكن « الحسين » لم ينتظر ..

بل اكتفى بالكتاب الأول ، ومضى ..

فما كان أصدق ما تمثل به يوم هاجر من « المدينة » من قـول « ابن مفرغ » :

* والمنايا يرصدنني أن أحيدا *

(١) تاريخ الطبري ٢١١/٦ ، والكامل لابن الاثير ١٤/٤

محاولة وإصرار

أصبحت « مكة » ذات يوم وقد شاع فيها أن « الحسين » يوشك ان يخرج بآله منها ، يريدون العراق ، فأشفق بنو هاشم على « آل البيت » من تلك الرحلة التي لا يدرون عقباها ، وانطلق منهم من انطلق ، يتوسل الى « الحسين » ألا يخرج ، فان كان فاعلا فليترك أهله بمكة ، فانه لا يدري علام يقدم !

جاءه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي » فقال له : « اني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فان كنت ترى انك مستنصحي قلتها ... والا كففت عما أريد » .

فقال له :

« قل فوالله ما أستغشك وما أظنك بشيء من الهوى » .

قال له :

« بلغني انك تريد العراق ، واني مشفق عليك أن تأتي بلدا فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال ، وانما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه » .

فقال له أبو عبد الله : جزاك الله خيرا يا ابن عم، فقد علمت أنك مشيت بنصح وتكلمت بعقل ، ومهما يقض من أمر يكن ، أخذت برأيك أو تركت ، فأنت عندي أحمد مشير وأنصح ناصح (١) .

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢١٥ وابن الاثير ٤/١٥ ويضيف الخبر ، ان عمر لما خرج من عند الحسين دخل على الحارث بن خالد بن العاص المخزومي فحدثه بما كان ، فقال الحارث : نصحته ورب المروة الشهباء وأنشد :

رب مستنصح يغش ويردي   وظنين بالغيب يلفى نصيحا

وأتاه « عبد الله بن عباس » فقال له :

ــ يا ابن عم ، قد أرجفت الناس أنك سائر الى العراق فبين لي ما أنت صانع

قال « الحسين » :

ــ اني قد اجمعت العزم على المسير في أحد يومي هذين ان شاء الله تعالى ..

فتساءل « ابن عباس » :

ــ فاني أعيذك بالله من ذلك ! اخبرني رحمك الله ، هل تسير الى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ ان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبي بلادهم ، فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يُستنفروا اليك فيكونوا اشد الناس عليك

فأجاب « الحسين » في ايجاز :

ــ اني أستخير الله وأنظر ما يكون (١) ..

* * *

وخرج « ابن عباس » فلقيه « ابن الزبير » وكان لا يزال ممتنعا بمكة لا يبايع « يزيد » فأحس « ابن عباس » من « ابن الزبير » غبطة وابتهاجا أن يمضي « الحسين » فيخلو الجو

فلما كان المساء ــ أو من الغد ــ عاد « ابن عباس » الى « الحسين » فقال له في الحاح وتوسل :

ــ يا ابن عم ، اني أتصبر ولا أصبر ! اني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال .... أقم بهذا البلد فانك سيد اهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢١٦ ومقاتل الطالبيين : ١٠٩ وأبن الاثير ٤/١٥

لكن « الحسين » لم يرجع عن عزمه ، واذ ذاك توسل اليه « ابن عباس :

ـ فان كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله اني لخائف ان تقتل كما قتل « عثمان » ونساؤه وولده ينظرون اليه

وأبى « الحسين » الا اصرارا ...

فلم يبق لـ « ابن عباس » الا أن يقول محتدا :

ـ لقد أقررتَ عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك ، والله الذي لا اله الا هو ، لو أعلم أنك اذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليَّ وعليك الناس،أطعتني، لفعلت ذلك

وكان عبدالله بن الزبير ، وقد قال للحسين لما سمع عن عزمه التوجه الى الكوفة :

ـ فما يحبسك ؟ فوالله لو كان لي مثل شيعتك في العراق ، ما تلومت في شيء ! (١)

ثم خرج ابن عباس من عند الحسين ، فمر بعبد الله بن الزبير فقال له :

ـ قرَّت عينك يا ابن الزبير ! وأنشد مرتجزا! :

يا لك من قُبَّرةٍ بمعمر
خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري
هذا الحسين خارجا فاستبشري (٢)

* * *

ودنا موعد خروج « الحسين » والقوم ينظرون اليه في جزع واشفاق ،

---

(١) من مقاتل الطالبيين ١٠٩ وفيه : ولم يكن شيء أثقل على ابن الزبير من مكان الحسين في مكة ، ولا أحب اليه من خروجه الى العراق ، وجاء الطبري « ٢١٧/٦ » بالابيات الثلاثة الاولى ، وبعدها : « هذا حسين يخرج الى العراق ، وعليك بالحجاز »

(٢) تاريخ الطبري : ٢١٧/٦ والكامل لابن الاثير : ١٦/٤
ومثله في تاريخ الطبري ٢١٦/٦ وابن الاثير ١٥/٤

ثم كانت المحاولة الأخيرة لرده عن السفر

وكان صاحب هذه المحاولة « عبدالله بـن جعفر » زوج « السيدة زينب » التي أجمعت أمرها على أن ترحل مع أخيها الامام ، مهما تكن العواقب ...

وهنا نلحظ ــ للمرة الأولى ــ ان « عبدالله » يقيم بعيدا عن « العقيلة »، ويلفتنا أنه لما اراد صرف ابن عمه عن الهجرة ، لم يذهب اليه بنفسه كما فعل « ابن عباس » وانما آثر أن يبدأ فيبعث اليه كتاباً مع ولديه محمد وعون الأصغر .

هل كان عبد الله بن جعفر مريضا لا يقوى على الذهاب الى الحسين ؟

كلا ، فان نص كتابه كما حفظته لنا كتب التاريخ ، ينفي ان يكون به مرض ، وهذا هو الكتاب ، نقلا عن « الطبري وابن الأثير » :

« أما بعد ، فاني أسألك بالله الا انصرفت حين تنظر في كتابي ، فاني مشفق عليك من الوجه الذي توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، ان هلكت اليوم طفىء نور الأرض ، فانك عَلم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فاني في أثر الكتاب والسلام » (١)

فهل كان « عبد الله » يجد في نفسه شيئا من « الحسين » ؟

كلا ، فانه كما نقرأ في كتابه ، يرى الحسين « نور الأرض وعلم المهتدين ورجاء المؤمنين »

ففيم احتجابه اذن وايثاره أن يكتب الى « الحسين » بدلا من المبادرة بالذهاب اليه ؟

لعل الأمر أبسط من ان نقف عنده ، فغير بعيد أن يكون « عبدالله » مشغولا ببعض شأنه ، فكتب معجلا على أن يمضي في أثر كتابه ، وغير بعيد ان يكون قد آثر أن يبدأ محاولته مع أمير مكة قبل أن يذهب الى « الحسين » ..

---

(١) تاريخ الطبري : ٢١٩/٦ والكامل لابن الاثير : ١٧/٤

ولقد قام فعلا في أثر الكتاب ، لكنه لم يمض الى « الحسين » من فوره ، وانما مضى الى « عمرو بن سعيد »أمير مكة من قبل « يزيد » ..

وجلسا يتدبران الأمر ، فكان رأي « ابن جعفر » أن يكتب الأمير الى « الحسين » كتابا يؤمنه ، ويمنيه البـر والصلة ، ويسأله الرجوع عما اعتزمه من الرحيل .. فقال « عمرو » ملبيا :

ــ اكتبْ ما شئت وائتني به حتى أختمه

فكتب « عبد الله بن جعفر » ما جاء على لسان الأمير ، وسأله أن يبعث به ــ بعد أن يختمه ــ مع أخيه يحيى بن سعيد « فانه أحرى أن تطمئن نفسه اليه ويعلم انه الجد منك » .

ففعل الأمير ، ومضى « يحيى » في صحبة « عبدالله بـن جعفر » الى « الحسين » بالكتاب المختوم (١)

ورد « الحسين » رداً جميلا وأشار الى رؤيا له ، رأى فيها الرسول صلى اللهعليه وسلم يأمره بأمرٍ هو ماض اليه ، فلما سأله ابن جعفر ويحيى : ما تلك الرؤيـا ؟

أجاب : « ما حدثت بها أحـدا وما أنـا محدث بها أحـدا حتى ألقى ربي » (٢)

ثم مضى في طريقه لا يلوي على شيء ، فزار قبر جده مودعا وهو يقول :

« وقد غسلت يدي من الحياة ، وعزمت على تنفيذ أمر الله »

* * *

وقد أشرنا من قبل الى خبر طلاق السيدة زينب من زوجها عبدالله بن جعفر ورجحنا أن الطلاق كان قبل هذه الرحلة .

---

(١) نصه في الطبري : ٢١٩/٦ وابن الاثير : ١٧/٤

(٢) الكامل لابن الاثير : ١٧/٤

وهذه هي تتهيأ للسفر مع أخيها ، وسنظل نراها ــ حتى آخر يوم من حياتها ــ في صحبة آلها ، لا تفارقهم أبداً ، ولا تشغل عنهم بزوج أو ولد

ونرى « عبد الله بن جعفر » ــ في الوقت نفســه ــ يؤيد « الحسين » بقلبه ، ويبذل ما أطاق لنصرته ، وان تخلف عن الرحيل معه الى الكوفة .

ولقد ظل يوقره أبدا ، ويجاهد ليمنعه مما يخاف عليه منه ، فلما صمم « الحسين » على رحلة الموت بعث عبدالله ببنيه مع الامام ، وانه ليعلم أن الرحلة قد تردي بهم جميعا ...

وكان قلبه مع « الحسين » ، وسوف نراه بعد مصرعه يجلس ليتلقى العزاء فيه ، وكل سلواه أن ولديه « محمدا وعونا » قد استشهدا معه كما روى « الطبري » في (تاريخه) (١) وفي رواية ، أن الذين استشهدوا من أبناء « عبد الله » مع « الحسين » ثلاثة : محمد ، وعون ، وعبيد الله ..

❊

(١) ٢٦٨/٦ ابن الاثير ومثله في « مقاتل الطالبيين » لكنه ذكر أن المقتول بالطف عون الاكبر بن عبد الله ، وأمه هي السيدة زينب بنت الامام علي ٠ والذي في الطبري انه عون الاصغر وأمه جماعة بنت المسيب «٦/٢٧٠»

ولعل أصل الوهم ، تشابه الاسمين : عون الاكبر ابن زينب وعون الاصغر ابن جمانة ٠ وأحدهما قتل بالطف والثاني قتل يوم الحرة سنة ٦٣ هـ

نحو وادي الموت

فصل الركب من « مكة » في طريقه الى « الكوفة » في أمسية شاحبة راكدة الهواء ، ووجمت الجبال المشرفة على البلد الحرام حين رأت « آل محمد » عليه الصلاة والسلام ، يخرجون منها الى غير رجعة ..

وقد اعترضهم في أول الطريق جندُ « عمرو بن سعيد بن العاص : أمير الحجاز » وحاولوا أن يردوهم الى مكة ، وتضارب الفريقان بالسياط ، ثم انسحب الجند ، واستأنف الركب المسير ..

وكان سراهم حثيثا في بادىء الأمر ، وقد هون عليهم مشقة المسرى أن هناك بالعراق بضعة عشر ألفا ينتظرون مقدم ابن بنت النبي ، كما انتظر الأنصار منذ ستين عاما ، مقدم جدهم المهاجر ، محمد صلى الله عليه وسلم .

وتلفتت « زينب » ــ وكانت على رأس النساء ــ وراءها مرة ومرتين ، ترنو الى الربوع الغالية المقدسة ، وفي قلبها شجن !

لقد هاجرت الى « العراق » من قبل ، يوم كان لها أب ، ملء الدنيا ، وهذه هي تسير اليوم الى العراق مرة أخرى ، مثقلة بمتاعب أعوام زادت عن العشرين ، فقدت فيها أباها ، وأخاها الحسن ، وفقدت معهما المرح ، ثم الشباب !

وتترنح الدموع في مقلتي « زينب » وهي تلقي نظرة ملؤها الشجن والحب والحزن على الركب الذي يغذ السير : هؤلاء هم كل آلها : أخوها ،

وبنوها ، وبنو أخيها ، وبنو عمها .. بل هؤلاء هم آل الرسول ، وزهرة بني هاشم ، وزينة قريش ، يهجرون ديارهم الى مصير مجهول ، لكنه محتوم !

ترى ما ذاك المصير ؟

لم تنتظر « زينب » طويلا لتعلم ...

فان الركب لم يكد يقطع مرحلتين من الطريق أو ثلاثا ، حتى لقيه بالصفاح « الفرزدق » الشاعر ، فسأله الحسين أن يبين له خبر الناس خلفه ، فقال الفرزدق :

« الخبيرَ سألتَ : قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء » .

فعقب الحسين :

« صدقت ، لله الأمر يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا في شأن ، ان نزل القضاء بما نحب فالحمد لله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر ، وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتدِ من كان الحق نيته والتقوى سريرته » (١) .

* * *

ومضى ركب الامام يسير نحو الكوفة ، فانتهى الى ماء عليه « عبد الله ابن مطيع » فقام اليه مرحبا محتفيا ، ثم قال للحسين بعد أن حط الركب رحله :

« أذكرك الله يا ابن رسول الله ، وحرمةَ الاسلام أن تنتهك . أنشدك الله في حرمة قريش وحرمة العرب ، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنّك ، ولئن قتلوك لا يهابوا بعدك أحدا أبدا .. فلا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية . » (٢)

ولكن الحسين مضى بركبه نحو الكوفة ، لا يحيد ، حتى لقيه أعرابيان

(١ ، ٢) تاريخ ابن الاثير : ١٧/٤ وتاريخ الطبري : ٢١٨/٦ وانظر مقتل الحسين : ١٨٢

من بني أسد ، فبدا للحسين أن يسألهما عما تركاه وراءهما بالكوفة ، وفي حسابه أن يصفا له حشداً مهيئاً لاستقباله وأن يُرجِّعا أصداء هتاف القوم هناك ، بالنصرة والتأييد ...

ولكن ما أسرع ما تبدد الحلم وتلاشى الصدى !

قـال الأعرابيان :

ـ يرحمك الله ، ان عندنا خبراً ، فان شئت حدثنا علانية ، وان شئت سرا.

فنظر « الحسين » الى أصحابه وقال :

ـ ما دون هؤلاء سر !

فأخبراه بقتل ابن عمـه « مسلم بن عقيل » وصاحبه « هانىء بن عروة » وقالا : ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك الا انصرفت من مكانك هذا ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بـل نتخوف أن تكون عليك ! (١) .

فساد القوم وجوم حزين لم يطل .. ثم أعولت النساء وضج الجمع بالبكاء .

وكانت مناحة في العراء ..

وحين خفت ضجة النواح ، أراد « الحسين » أن يرجع بآله ، فوثب عند ذلك « بنو عقيل » وهم يصيحون :

ـ لا نرجع والله أبداً حتى ندرك ثأرنا ، أو نذوق ما ذاق أخونا ونقتل بأجمعنا !

فنظر «الحسين» الى الأعرابيين اللذين نصحا له بالرجوع ، وقال في جد وأسى :

ـ لا خير في العيش بعد هؤلاء ...

وأمن القدر على ما قاله « بنو عقيل » !

لم يرجعوا ، بل قتلوا أجمعين ..

* * *

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٢٥/٦ والكامل لابن الاثير : ١٧/٤

ولم يعجل الركب بالسفر هذه المرة :

انتظروا نهارهم كله ، وأكثر ليلهم ، حتى اذا كان السحر أمر « الحسين » فتيانه وغلمانه أن يكثروا من الماء ، فاستقوا وأكثروا .

ثم هموا يستأنفون المسير ...

وكان الشطر الباقي من الرحلة قصيرا :

لم يعد ثمت شك في المصير الرهيب الذي ينتظر الركب وشيكا ، وأبى « الحسين » الا أن يكشف لمن لحق به من الأعراب عن جلية الأمر ، فلعلهم ما تبعوه الا لظنهم أنه يأتي بلدا قد استقامت له طاعة أهله .

قـال :

« ... أما بعد فقد أتانا خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل ، وهانيء بن عروة .. وقد خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام » .

فتفرق عنه الأعراب يمينا وشمالا ، حتى بقي في أهله ونفر من أصحابه .

وتحركت القافلة من جديد : واجمة مُسَيَّرة ، تدفعها نحو مصيرها قوة لا تقاوَم ولا تدفع ..

وتوالت النذر ...

فما انتصف عليهم النهار وهم يسيرون في الفلاة ، حتى أتاهم في «زبالة» من ينعي اليهم « قيس بن مسهر الصيداوي « (١) ويأتيهم بخبره ، وكان

---

(١) **من تاريخ الطبري ٦/٢٢٤ • وذكر ابن الاثير في الكامل « ٤/١٧ » أنه « عبدالله بن بقطر أخو الحسين من الرضاعة** » على أنه عاد بعد ذلك ، في لقاء الحسين بنفر من أهل الكوفة ، فذكر أنه سألهم عن رسوله « قيس بن مسهر » ٤/٢٠

وفي المصادر الشيعية ذكر السيد عبد الرزاق الموسوي في « مقتل الحسين : ١٨٤ » ان الرسول الذي بعثه الامام الحسين من الحاجز الى مسلم بن عقيل ، كان « قيس بن مسهر الصيداوي » وبهامشه عن روضة الواعظين « ص ١٥٢ » : ويقال بعثه مع عبدالله بن بقطر » قال الموسوي : ويجوز أنه أرسل كتابين أحدهما مع عبد الله بن بقطر والاخر مع قيس بن مسهر • وفي الاصابة « ٣/٤٩٢ » أن قيسا كان مع الحسين لما قتل بالكوفة ، **وهو اشتباه ، فان ابن زياد قتله بالكوفة** •

وفي جواز ان الحسين ارسل رسولين ، قيسا وعبد الله بن بقطر ، نقول ان الطبري ذكر « عبدالله بن بقطر رضيع الحسين » بين قتلى الطف ، مع الامام الشهيد !

الامام قد سيره الى ابن عمه « مسلم بن عقيل » قبل أن يعلم بمقتله ، فسيق « قيس » الى « عبيد الله بن زياد » فأمره أن يصعد فوق القصر ويلعن « الحسين » ثم ينزل حتى يرى فيه رأيه .

وصعد « قيس بن مسهر » فأعلم الناس بقدوم « الحسين » ولعن « ابن زياد » وأباه فألقاه ابن زياد من أعلى القصر (١) فتكسرت عظامه وبقي به رمق ، حتى جاء من ذبحه ليريحه .

وقيل أن ابن زياد أمر بقيس أن يرمى مكتوفا ، فرمي من أعلى القصر وكان به رمق ، حتى قام اليه من ذبحه .. (٢)

لم يبك الراحلون هذه المرة ، كما بكوا عندما نعي اليهم « مسلم » ، بل أصغوا الى النبأ حيارى مطرقين، ثم مضوا في طريقهم لا ينثنون حتى بلغوا « شَـرَاف » .

ولاح لهم على البعد ما ظنه بعضهم نخلا ، فكبَّروا ، يمنُّون أنفسهم براحة قصيرة ، قبل المعركة المرتقبة .

سأل « الحسين » أصحابه :

ــ ما هذا التكبير ؟

أجابوا :

ــ رأينا النخيل ...

فارتفع صوت آخرين ، ممن لهم بالطريق معرفة سابقة :

ــ ما بهذا الموضع والله نخل ، ولا نحسبكم ترون الا هــوادي الخيل وأطراف الرماح ...

ففكر « الحسين » لحظة ثم قال :

ــ وأنا والله أرى ذلك ... (٣)

---

(١) تاريخ الطبري : ٢١٤/٦

(٢) مقتل الحسين ١٨٥ ، عن روضة الواعظين للنيسابوري · وفيه ان الذي ذبحه ، عبد الملك ابن عمير اللخمي ، فعيب عليه فقال : اردت ان اريحه ·

(٣) الطبري ٢٢٧/٦

وعاد الصمت الثقيل يلف الراحلين ، فما عادت الصحراء تسمع سوى تنهدات النساء ورغاء الأبل ..

وبدا كأن شبح الموت يجثم على هذه الكتلة البشرية الحزينة ، السائرة في بطء ـ ولكن في عزم وتصميم ـ نحو نهايتها المفجعة ، كأنما ترصدها المنايا أن تحيد ...

وكان حر الظهيرة مرهقا ، فمال « الحسين » بأصحابه الى جبل (ذي حُسَم) فأناخوا رواحلهم ...

واطبق على الجو غيم كثيف ، تكشف عن « الحر بن يزيد » في ألف فارس من عسكر « عبيد الله بن زياد : أمير الكوفة » جاء يبلغ الحسين رسالة الطاغية :

ـ اني أمِرتُ أن أنطلق بك الى ابن زياد ، أو أجعجع بك فلا أتركك تزول من مكَانك ..

قال الحسين :

ـ اذن أقاتلك ، فاحذر أن تشقى بقتلي ، ثكلتك امك !

فكظم « الحر » غضبه وأجاب :

ـ أما والله لو غيرك من العرب يقولها ،ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله ، كائنا من كان ، ولكن والله ما لي الى ذكر أمك من سبيل الا بخير الذكر ... (١)

وتحرك « الحسين » يريد السير ، فتصدى له « الحر » يسايره ويمنعه من التحرك ، فسأله « الحسين » عما يريد به ، قال :

ـ اني لم أؤمر بقتالك ، وانما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة ، فاذا أبيت فخذ طريقا لا تدخلك « الكوفة » ولا تردك الى « المدينة » حتى أكتب الى « ابن زياد » وتكتب أنت الى « يزيد » ان أردت ، فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك .

---

(١) الكامل لابن الاثير : ٩/٤ وتاريخ الطبري : ٢٢٩/٦

فتياسر « الحسين » عن طريق « القادسية » ونشر ما معه من كتب أهل « الكوفة » ، ثم نظر الى هؤلاء الذين جاءوا في جيش « ابن زياد » وقال :

— ... وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم ، فان أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلعمري لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل . والمغرور من اغتر بكم ... ومن نكث فانما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم والسلام .

فقال له « الحر » :

— اني أذكرك الله في نفسك ، فاني أشهد لئن قاتلتَ لتُقتلن !

فقال له « الحسين » :

— أبالموت تخوفني ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني ؟

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
فان عشت لم أندم وان مت لم أُلَمْ
كفى بك ذلا أن تعيش وتُرغَما! (١)

فلما سمع « الحر » قوله أطرق خاشعا متأثرا يدعو الله أن يعفيه من قتال « الحسين » ..

وكان قد بعث الى « ابن زياد » يسأله : هل يأذن للحسين وآله في الرجوع من حيث جاءوا ؟ وانه ليرجو أن يجيب بنعم !

* * *

وشاع نبأ قدوم « الحسين » بين أهل « الكوفة » فأقبل من أهلها أربعة نفر — أربعة فحسب ! — يريدون أن يكونوا معه ، فتصدى لهم « الحر » يمنعهم ، ثم كف عنهم لما قال له « الحسين » :

— لأمنعهم مما أمنع منه نفسي !

(١) تاريخ الطبري ٦/٢٢٩ وابن الاثير : ٤/٢٠ وانظر « مقتل الحسين : ١٩٦ »

وأقبل « الحسين » عليهم يسألهم أن يخبروه خبر الناس خلفهم ، فقال قائلهم :

ـ أما أشراف الناس فقد أُعظِمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم الب واحد عليك ! واما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك .

ثم حدثوه عما لقي رسوله الى الكوفة ، فلم يملك دمعته ، وتلا من آية الأحزاب :

« فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » اللهم اجعل لنا ولهم الجنة ، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك وغائب مذخور ثوابك .. »

ثم اطرق صامتا ... (١)

وباتوا جميعا ينتظرون ..

فلما كان الصبح وصلى « الحسين » الغداة ، تحرك ثم أخذ يتياسر بأصحابه و « الحر بن يزيد » يردهم الى « الكوفة » ردا شديدا ، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا الى « نينوى » فاذا راكب مقبل من « الكوفة » يحمل الى « الحر » أمر « ابن زياد » :

« أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، فلا تنزله الا بالعراء ، في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ، ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام » (٢) .

وحيل بينهم وبين الماء ، فباتوا على ظمأ ...

وفي الصبح لاحت لهم طلائع جيش « الكوفة » : أربعة آلاف مقاتل ، يقودهم « عمر بن سعد بن أبي وقاص » فلما شارفوا مكان « الحسين »

---

(١) الطبري : ٦/٢٣٠ • وذكر ابن الاثير في هذا الموقف ، أن الحسين سألهم عن رسوله « قيس بن مسهر » (٤/٢٠) وقد سبق فذكر حادثة مقتل رسول الحسين ، وسماه « عبد الله ابن بقطر أخا الحسين من الرضاعة » ـ ٤/١٧ ـ وقابله على ما في « مقتل الحسين » (ص ١٨٥ ، ص ٢٠٠) •

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٣٣٢

بعث « عمر » اليه رسولا يسأله : ما الذي جاء به ؟

أجاب « الحسين » :

ـ كتب اليَّ مصركم هذا ان أقدم عليهم ، فأمـا اذ كرهوني فاني أنصرف عنهم .

فكتب « عمر » الى « ابن زياد » يعرفه ذلك ، فلما قرأ « ابن زياد » الكتاب أنشد متمثلا :

الآن اذ علقت مخالبنا بـه
يرجو النجاة، ولات حين مناص ! (١)

ثم كتب الى « عمـر » يأمـره أن يعرض على الحسين « بيعـة يزيد ، فاذا فعل ذلك رأينا رأينا ، وأن يمنعه الماء ومن معه : فأرسل « عمر » خمسمائة فارس نزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وصحبه وبين الماء

فلما اشتد عليهم العطش ، أمر « الحسين » أخاه « العباس بن علي » فسار في عشرين راجلا وثلاثين فارسا ـ هم ثلثا صحبه تقريبا ـ فدنوا من الماء وقاتلوا عليه حتى ملأوا القرب وعادوا ...

وبدا أن الموقف يزداد دقة وحرجـا ، فبعث « الحسين » رسوله الى القوم ، يسألهم أن يختاروا له واحدة من ثلاث :

ـ أن يرجع الى الحجاز من حيث جاء .

ـ أو يمضوا به الى يزيد بن معاوية .

ـ أو يسيروا به الى أي ثغر من ثغور المسلمين ، فيكون رجلا من أهله ، له ما لهم وعليه ما عليهم (٢) ..

ففرح « ابن سعد » بذلك ، وظن أن ابن زياد يقبله منه ، فوجه اليه رسالة يقول فيها « لو سألك هذا بعض الديلم ولم تقبله ، ظلمته » (٣)

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٢٣٤ والكامل لابن الاثير ٤/٢٣

(٢) من تاريخ الطبري ٦/٢٣٥ ومثله في مقاتل الطالبيين ١١٣ والكامل لابن الاثير ٤/٢٢ ـ على ان الامامية تنفي هذا الخبر ، فيما نقل الموسوي « مقتل الحسين ٢٢٦ »

(٣) مقاتل الطالبيين ١١٤

ومضى الوقت ثقيلا مرهقا في انتظار جواب « ابن زياد » .

ثم وصل الى « عمر » الجواب المنتظر مع « شمر بن ذي الجوشن »: وفيه يقول ابن زياد لعمر :

« طمعت يا ابن سعد في الراحة ، وركنت الى الدعة ..

أما بعد فأني لم أبعثك الىحسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندي شافعا .

« انظر فان نزل حسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم الّي سلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون ، فان قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق شاق ، قاطع ظلوم ... فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر وبين العسكر والسلام » (١) .

قال « عمر » لشمر مرتابا فيه :

« ويلك : قبح الله ما جئت به . والله اني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كنت كتبت اليه به . أفسدت علينا أمرا كنا رجونا أن يصلح ، والله لا يستسلم الحسين ابدا . والله ان نفسا أبيّة لبين جنبيه .. » (٢)

---

(١) من تاريخ الطبري ٦/٢٢٦ وابن الاثير ٤/٢٣ مع مقابلته على ما في مقاتل الطالبيين ١١٤ ومقتل الحسين ٢١٥

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٢٣٧

يَوم ألطف

ونادى « عمر بن سعد » في جيشه ، ثم زحف نحو « الحسين » قبل الغروب ، و « الحسين » جالس حينذاك أمام خيمته ، محتبيا بسيفه وقد أخذته اغفاءة قصيرة من أثر الاجهاد ، وأخته العقيلة « زينب » الى جانبه ترعاه يقظى لا تنام ..

وسمعت « زينب » ضجة الجيش الزاحف عن كثب ، فدنت في رفق من أخيها فقالت :

ـ يا أخي ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت ؟

فرفع « الحسين » رأسه فقال :

ـ اني رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وآله ، في المنام فقال لي : انك تروح الينا ...

فلطمت الأخت وجهها وصاحت :

ـ يا ويلتاه ...

فقال لها الحسين :

ـ ليس لك الويل يا أخية ! اسكني يرحمك الله . (١)

* * *

واتجه الى أخيه « العباس » فطلب اليــه أن يمضي فيستطلع خبر الزاحفين ، فلما عرف أنه القتال ، بعث ثانية يسألهم أن ينصرفوا هذه العشية « لعلنا نصلي لربنا الليلة ونستغفره ، فاذا أصبحنا التقينا اذا شاء الله .. »

(١) بنصه من تاريخ الطبري : ٢٣٧/٦ وابن الاثير : ٢٣/٤

واستشار « عمر » أصحابه في أمر التأجيل ، فقال منهم قائل :

ـ سبحان الله ، والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم اليها . (١)

وأجلوا الى غد ...

* * *

وانثنى « الحسين » الى اصحابه ، فقال بعد أن أحسن الثناء على ربه :

« أما بعد فاني لا أعلم اصحابا أوفى ولا خيرا من اصحابي ، ولا أهل بيت أبـَرّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعا عني خيرا ...

« ألا واني قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ـ أي مركبا ـ وليأخذ كل رجل منكم برجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في البلاد حتى يفرج الله ، فـان القوم يطلبونني ، ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري » .

فهتفوا جميعا :

«معاذ الله والشهر الحرام! فماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا، تركناه غرضا للنبل وذريعة للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله ، بل نحيا بحياتك ونموت معك » .. (٢)

ثم سأله سائلهم :

« أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاح لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

فبكى الامام تأثرا ، وبكوا عليه !

---

(١) الطبري ٦/٢٣٨ وابن الاثير : ٤/٢٣ وانظر مقاتل الطالبيين : ١١٢

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٢٣٩ وابن الاثير .

وجاوبتهم دموع أخرى من الخيام ، حيث « السيدة زينب » ومن معها من نساء البيت الكريم ، يصغين في هم وقلق .

ثم أوى الجمع الى المضاجع ...

وأطبق على « كربلاء » صمت ثقيل مرهق ، مزقته صيحة تنبعث من فسطاط « الحسين » ، واذا امرأة تصرخ من أعماق قلب متصدع :

« واثكلاه ! واحزناه ! ليت الموت أعدمني الحياة ! يا حسيناه ! يا سيداه ! يا بقية أهل بيتاه ! اليوم مات رسول الله، وأمي فاطمة الزهراء ، وأبي علي ، وأخي الحسن ! يا بقية الماضين وثمال الباقين ... » .

انها « زينب » لا سواها ! عقيلة بني هاشم !

وندع « علي بن الحسين » الذي أنقذته عمته « زينب » من المذبحة يصف لنا ذلك المشهد فيقول : (١)

« اني والله لجالس في تلك العشية التي قتل أبي صبيحتها ، وعمتي زينب تمرضني ، اذا اعتزل أبي أصحابه في خباء له وعنده مولى أبي ذر الغفاري يعالج سيفه ويصلحه ، وأبي يقول :

يا دهر أف لك من خليل !
كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الأمر الى الجليل
وكل حي ، سالك السبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثا حتى فهمتها فعرفت ما أراد ، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي ... فأما عمتي « زينب » فانها سمعت ما سمعت .. فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس حتى انتهت اليه فصاحت :

---

(١) تاريخ الطبري ٢٣٩/٦ والكامل لابن الاثير ٢٤/٤

« واثكلاه .. ليت الموت أعدمني الحياة ... »

فنظر اليها « الحسين » عليه السلام مليا ثم قال لها :

ـ يا أخية ، لا يذهبن بحلمك الشيطان .

قالت :

ـ بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، نفسي فداك !

فرد غصته وترقرقت عيناه وتمتم :

ـ لو ترك القطا ليلا لنام ...

قالت :

ـ يا ويلتاه ، أفتغصبك نفسك اغتصابا ؟ فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي !

ولطمت وجهها وأهوت الى جيبها فشقته ، وخرت مغشيا عليها ، فقام اليها « الحسين » فصب على وجهها الماء وقال لها :

ـ يا أخية ، اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وان أهل السماء لا يبقون ، وان كل شيء هالك الا وجهه . أبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة .

فلما أفاقت من غشيتها ، قال لها :

ـ يا أخية ، اني أقسم عليك فأبري قسمي : لا تشقي علي جيبا ، ولا تخمشي علي وجها ، ولا تدعي علي بالويل والثبور اذا أنا هلكت .. (١)

فلم يزل يناشدها لتهدأ ، واحتملها حتى أدخلها الخباء وخرج الى أصحابه (٢)

---

(١) الطبري ٦/٢٤٠ وابن الاثير ٤/٢٤

(٢) مقاتل الطالبيين ١١٣

ولو علمت « زينب » ماذا كان ينتظرها وقومها غداة تلك العشية ، لادخرت دموعها الى غد !

* * *

وكانت ليلة ليلاء ... أمضاها الحسين وأصحابه يصلون ويستغفرون وشبح الموت جاثم لهم بالوصيد ، يتربص بهم مطلع النهار !

وراحت « زينب » ترسل عينيها في جمود شارد الى الظلام المخيم على الصحراء ، فاذا ارتد اليها وعيها قامت فطافت بمضاجع آلها واخوتها ، تتزود لفراق طويل .

وفي خبر أن « أبا عبد الله الحسين » خرج في جوف الليل يتفقد معسكره فتبعه « نافع بن هلال » فسأله الحسين عما أخرجه ، قال :

« يا ابن رسول الله أفزعني خروجك الى جهة معسكر هذا الطاغية »

فتلطف الامام وقال له :

« ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل وتنجو بنفسك ؟ »

أجاب ضارعا :

« ثكلتني أمِّي ! ان سيفي بألف وفرسي مثله ، فوالله الذي مَنَّ بك عليَّ ، لا فارقتك حتى يكلا عن فري وكري » .

ثم دخل الحسين خيمة أخته زينب ، ووقف نافع بازاء الخيمة ينتظره ، فسمع زينب تقول لأخيها :

« هل استعملت من اصحابك نياتهم فاني أخشى أن يسلموك عند الوثبة » .

قال لها :

« والله لقد بلوتهم فما وجدت فيهم الا من يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل الى محالب أمه . »

فلما سمع نافع كلمة الامام ، لم يملك دمعه ، وذهب الى حبيب بن مظاهر فحكى له ما سمع .

وقال :

ـ اني خلفته عند أخته ، وأظن النساء أفَقْنَ وشاركنها في الحسرة ، فهل لك أن تجمع أصحابك وتواجههن بكلام يطيب قلوبهن ؟

فقام حبيب ونادى : يا أصحاب الحمية وليوث الكريهة

فتطالعوا من مضاربهم كالأسود الضارية ، وحكى لهم ما شاهده نافع ابن هلال وسمعه ، فقالوا جميعا :

« والله الذي مَنَّ علينا بهذا الموقف ، لولا انتظار أمره لعاجلناهم بسيوفنا الساعة »

ومضى حبيب بأصحابه حتى شارف خيام النساء ، فصاح :

ـ يا معشر حرائر رسول الله ، هذه صوارم فتيانكم آلوا ألا يغمدوها الا في رقاب من يريد السوء فيكم ، وهذه أسنة غلمانكم أقسموا ألا يركزوها الا في صدور من يفرق ناديكم ..

فخرجت النساء اليهم ، فضج القوم بالبكاء حتى كأن الأرض تميد بهم (١) .

* * *

وتنفس الصبح ، وتلاقى الجيشان !

ولكن أي جيشين ؟!

« عمر بن سعد » في أربعة آلاف من جيش أمير الكوفة ، كامل العدة شاكي السلاح ...

ومن ورائهم الدولة والسلطان .

و « الحسين » في اثنين وثلاثين فارسا ، وأربعين رجلا من أهله وصحبه !

---

(١) مقتل الحسين : ٢٤١

ومن ورائهم ، الصبية والنساء !

أخذ « الحسين » يرقب هاتيك الآلاف وهي تزحف نحو اصحابه السبعين فلما دنوا منه دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته : أن اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم .. وحتى أعتذر اليكم من مقدمي عليكم ، فان قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد. وان لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم اقضوا الي ولا تنظرون . « ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

وتناهى صوته الى زوجاتــه واخواته وبناتــه ، فصحن وارتفعت أصواتهن حتى بلغته ، فأرسل اليهن ابنه عليا وأخاه العباس وقال لهما : « أسكتاهن ، فلعمري ليكثرن بكاؤهن » (١)

وذكر اذ ذاك ابنَ عمه « عبد الله بن عباس » ، وخيِّل اليه انه يسمع صدى صوته آتيا من بعيد ، يلح عليه ألا يخرج من الحجاز الى الكوفة :

« فان كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فاني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون اليه . » (٢) .

ولم ينقطع الصدى حتى سكت الصارخات الباكيات ..

فلما سكتن ، عاد فالتفت الى جيش الكوفة ، وقال بعد أن حمد الله :

« أما بعد ، فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا انفسكم فعاتبوها وانظروا ، هل يصلح ويحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكم ، وابن وصيه وابن عمه وأولى المؤمنين بالله ؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي ؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله قال لي

---

(١) مقتل الحسين : ٢٤١

(٢) تاريخ الطبري : ٢٤٢/٦ وابن الاثير ٢٥/٤

وانظر « مقتل الحسين » : ٢٥٤

ولأخي : أنتما سيدا شباب أهل الجنة وقرة عين أهل السنة ؟ أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟ »

فلما لم يلق القوم اليه سماعهم قال :

« فان كنتم في شك مما أقول ، أو تشكون في أني ابن بنت نبيكم ، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري ... »

فلم يجبه منهم مجيب .
واستطرد يسأل :

« أتطلبونني بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة ؟ » (١)
فسكتوا لا يحيرون جوابا ...
هنالك راح « الحسين » يتفرس في رؤوس جيش الكوفة وينادي :

يا فلان .. ويا فلان .. ويا فلان .. ألم تكتبوا الي : أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام وانما تقدم على جند لك مجند فأقبل ؟

فتمزقت كلماته بددا ، لم يكد يصغي اليها من القوم غير « الحر بن يزيد » فانه قام الى قائده « عمر بن سعد » يسأله : (٢)

ـ أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟
أجابه « عمر » :
ـ أي والله ، قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي !
قال « الحر » :
ـ أفما لكم في واحدة من الخصال الثلاث التي عرض عليكم رضى ؟
قـال « عمر » :

---

(١) الطبري ٢٤٣/٦ وابن الاثير ٢٥/٤
(٢) الحوار بنصه من الطبري ٢٤٤/٦ وابن الاثير ٢٦/٤

ـ والله لو كان الأمر اليَّ لفعلت ، ولكن أميرك قد ابى ذلك .
فلم يزد « الحر » .

وانثنى يدنو من « الحسين » قليلا قليلا وقد أخذته رعدة ، ولمحه رجل من قومه فقال :

ـ يا ابن يزيد والله ان امرك لمريب ! والله ما رأيت منك في موقف قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك !

فقال له « الحر » :

ـ اني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا اختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت !

ثم ضرب فرسه فلحق « بالحسين » وقال له :

« جعلني الله فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان ، والله ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا .. ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك الذي سألتهم ، ما ركبتها منك . واني قد جئتك تائبا الى ربي مما كان مني ، مواسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك » (١)

ثم التفت الى معسكر اصحابه فقال :

« يا أهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر ! أدعوتموه حتى اذا أتاكم أسلمتموه ؟ وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، وأحطتم به ومنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا ! ومنعتموه ومن معه من ماء « الفرات » الجاري الذي يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي ، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهو وأهله قد صرعهم العطش !! بئس

---

(١) بنصه من الطبري : ٦/٢٤٤ وابن الاثير ٤/٢٦

ما خلفتم محمد في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا .. » (١)

فكان جوابهم أن رموه بالنبل ، ورجع هو حتى وقف أمام « الحسين » فناضل عنه حتى استشهد ...

دارت المعركة بين الآلاف والعشرات !

وجعل أصحاب « الحسين » يتقدمون رجلا بعد رجل ، « فقاتلوهم حتى انتصف النهار ، أشد قتال خلقه الله » بنص عبارة الطبري .

وقام ـ رضي الله عنه ـ فصلى بمن بقي معه صلاة الخوف ظهرا ، وعادوا الى القتال ، ثم لما علموا انهم لا يقدرون أن يمنعوا امامهم ، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه ، حتى فنوا جميعا ولم يبق غير أهل بيته ، فتقدموا مستبسلين .

وكان أول قتيل منهم ، « علي الأكبر بن الحسين » أخذ يشد على الناس وهو يرتجز : (٢)

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن ، وبيت الله ، أولى بالنبي
أضربكم بالسيف حتى يلتوي
ضرب غلام هاشمي علوي
ولا أزال اليوم أحمي عن أبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي !

وكان يكر على الكوفيين، ثم يرجع الى أبيه يقول :

ـ يا أباه ، العطش !

فيقول له « الحسين » :

ـ أصبر بني ، فانك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بكأسه .

---

(١) بنصه من الطبري : ٦/٢٤٤ وابن الاثير ٤/٢٦

(٢) الابيات كاملة في « مقاتل الطالبيين » ١١٦ وانظر : تاريخ الطبري ٦/٢٤٥ وابن الاثير ٤/٢٧ وانظر « مقتل الحسين » : ٢٦٧

فعاد الشاب يشد على العسكر ، وظل يكر الكرة بعد الكرة حتى رُمي بسهم فوقع في حلقه فخرقه ، وأقبل يتقلب في دمه ، فتلقاه أبوه وهو يقول بصوت ثاكل :

ـ قتل الله قوما قتلوك يا بني ! ما اجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله ! على الدنيا بعدك العفاء .. (١)

قالوا : « ولم يكد يتم عبارته حتى اندفعت من خيام النساء امرأة كأنها الشمس طالعة ، تنادي في جزع :

ـ يا حبيباه ! يا ابن أخاه ..

فسأل عنها من لا يعرفها ، فقيل : هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآله » .

اندفعت « زينب » حتى انكبت على الفتى الشهيد ، فجاءها « الحسين » فأخذ بيدها فردها الى الفسطاط ، ثم عاد الى ولده ، وقد أقبل فتيانه اليه ، فقال مفجوعا :

« احملوا أخاكم » .

فحملوه من مصرعه الى الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه (١)

* * *

وأحاط القوم « بالحسين » فأقبل « القاسم بن الحسن بن علي » ـ وهو يومئذ غلام ـ يجري نحو عمه ، فجرت « زينب » اليه تريد أن تمنعه ، لكن الغلام أفلت منها حين رأى مجرما يهوي بالسيف الى « الحسين » ومد « القاسم » يده ليتقي ضربة السيف وهو يصيح بالمجرم :

« يا ابن الخبيثة ، أتقتل عمي ؟ »

فقطع السيف يده ، وبقيت معلقة بخيط من الجلد ..

صرخ الغلام الشهيد وهو يفحص برجليه :

ـ يا أماه !

---

(١) الطبري ٦/٢٥٦ وابن الاثير ٤/٣٠ والمقتل ٣٠١

فاجابته « زينب » من بعيد :
« لبيك يا ولدي ! »
وهرعت اليه ، فاذا «الحسين » واقف عند رأسه يقول :
« عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك صوته . والله هذا يوم كثر واتره وقل ناصره » .
ثم احتمله على صدره حتى القاه مع ابنه علي ، بين عيني « زينب »

ومن بعدهما ، جاء دور صغير رضيع من ولد الحسين ، هو عبد الله الأصغر ، وكان أبوه قد التمسه ، في محنة ثكله ، فوضعه في حجره ، فرماه رجل من بني أسد فذبحه ، فأخذ الحسين يتلقى دمه في كفيه ويرفعه الى السماء قائلا : رب ان تكن حبست عنا النصر فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين (١) .
وأخذت « زينب » تتلقى هذا المحتضر من آلها أو ذاك ، فلا يكاد يلفظ النفس الأخير حتى تحتضن أشلاء آخر .

وكان فيمن حُمل اليها ، عونُ ابن زوجها عبد الله بن جعفر ، وأخوه محمد (٢)، واخوتها : العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد الأصغر ، وأبو بكر ، وابنا أخيها الحسين : علي ، وعبد الله ، وابنا اخيها الحسن : أبو بكر والقاسم ، وبنو عمها عقيل : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله و ... و ...

والرحى دائرة في جنون ، لا تريد أن تكف وعلى أرض كربلاء من آل الحسين حي يتنفس !
وحين قاربت المعركة نهايتها ، اندفع عشرة رجال من جيش « ابن زياد » الى فسطاط « الحسين » الذي فيه عياله ومتاعه لينهبوه ، فردتهم

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٥٩/٦ وابن الاثير ٣١/٤ ومقاتل الطالبيين
(٢) ابن الاثير ٣٠/٤ مع مقابلته على ما في « مقتل الحسين » : ٣١٦
كذا في الطبري ٢٧٠/٤ وابن الاثير ٣٨/٤ وفي « مقاتل الطالبيين » ١٢٣ رواية عن مقتل ولد ثالث لعبد الله بن جعفر ، هو ابو بكر ، ونقل بعدها عن المدائني أن أبا بكر بن عبد الله بن جعفر قتل يوم الحرة

صيحة الامام الذي كان يقاتل وحده :

« ويلكم ! ان لم يكن لكم دين فكونوا أحرارا في الدنيا ، فرحلي لكم عن ساعة مباح ! » (١) .

وأبيح الرحل بعد ساعة ..

ويا لها من ساعة رهيبة ، جعل « الحسين » يقاتل فيها وحده بعد أن قتل عنه ولده وأهل بيته وأصحابه ، فلم يبق منهم أحد ..

قال من رآه يقاتل الجمع رابط الجأش : « فوالله انه لكذلك اذ خرجت زينب ابنة فاطمة ، وكأني أنظر الى قرطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهي تقول :

« ليت السماء انطبقت على الأرض » .

فلما دنا « عمر بن سعد » من « حسين » قالت : « يا عمر بن سعد ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟ » فكأني أنظر الى دموع « عمر » وهي تسيل على خديه ولحيته ، ثم أشاح بوجهه عنها .. » (٢) .

أجل « زينب » حتى اللحظة الأخيرة ، وفي كل لحظة ..

« زينب » دون سواها من الزوجات والأمهات والأخوات اللواتي شهدن « كربلاء » !

* * *

وبقي « الحسين » وحده ، « فما رؤي مكسور قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه ، أربط جأشا منه ولا أمضى جنانا ولا أجرأ مقدما » (٣)

ووقفت أخته « زينب » غير بعيد تملأ عينيها منه قبل أن يمضي ، حتى اذا أثخنته الجراح وأوشك أن يهوي ، خانها جلدها فلم تعد تقوى على النظر اليه ، فأغمضت عينيها وأصغت بملء جوارحها الى صيحته الأخيرة في الألوف المجتمعة عليه :

---

(١) تاريخ الطبري ٢٥٨/٦ ومقاتل الطالبيين : ١١٨

(٢،٣) الطبري : ٢٥٩/٦ وابن الاثير ٣٣/٤

« أعلى قتلي تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله ، الله أسخط عليكم لقتله مني . وايم الله اني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون . اما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم » .. (١) .

فكأنما زلزل الأرض تحت أقدام المنتصرين .

ومكث ــ رحمه الله ــ طويلا من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، لكنهم مضوا عنه واحدا في اثر واحد ، لا يكاد يهم به الرجل منهم حتى يضعف ويرعد .

* * *

ثم قضى الله امره ، وكانت النهاية المحتومة !

قتل « الحسين » ، وكان بجثته حين قتل ، ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ! (٢) .

ضربت كتفه اليسرى بالسيف فقطعت ..
وأجهزت ضربة أخرى على الشهيد ..
وتقدم ثالث فاحتز رأسه ! (٣) .
وكفت الرحى المجنونة بعد ان لم يبق من آل البيت من تطحنه !
ورُدت السيوف الى أغمادها حين لم يعد هناك من تذبحه .
وتركت جثث الشهداء بالعراء ..

« ومال الناس على الخيل والابل فانتهبوها ، ومالوا على نساء الحسين وثقله ومتاعه ، فان كانت المرأة لتنازَع ثوبها عن ظهرها حتى تُغلب عليه فيذهب به منها » كما في عبارة الطبري وابن الأثير (٤) .

(١ ، ٢) تاريخ الطبري ٦/٢٦٠
(٣ ، ٤) تاريخ الطبري : ٦/٢٦٠ وابن الاثير ٤/٣٢ وانظر فيهما أسماء من اشتركوا في قتل الامام الشهيد

وجعلت الخيل تطأ جثث الشهداء !

وغربت شمس العاشر من المحرم سنة احدى وستين ، وأرض « كربلاء » غارقة في الدماء ، قد تبعثرت فيها أكرم الأشلاء .

ولاح القمر من وراء الغيوم خابي الضوء شاحبه .

وعلى ذلك الضوء الشاحب بدت « زينب » في نفر من الصبية وجمع من الأرامل والثواكل ، عاكفات على تلك الأشلاء ، يلتمسن فيها ذراع ولد حبيب ، أو يد زوج عزيز ، أو قدم أخ غال .

وغير بعيد منهن ، كان عسكر « ابن زياد » يسمرون ويشربون ويحصون على ضوء المشاعل ما قطعوا من رؤوس وما انتهبوا من أسلاب ..

وسُمعت أصوات من هناك ، تقول لسنان بن أنس الذي احتز رأس الامام الشهيد :

« قتلت الحسين بن علي ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله . قتلت أعظم العرب خطرا .. اراد أن يزيل ملك هؤلاء ، فائت أمراءك واطلب جزاءك منهم فانهم لو أعطوك بيوت اموالهم في قتله كان قليلا » .

فكان جوابه أن وقف بباب فسطاط « عمر بن سعد » ثم نادى بأعلى صوته :

أوقر ركابي فضة وذهبا
اني قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا
وخيرهم،اذ ينسبون، نسبا (١)

* * *

(١) من تاريخ الطبري : ٦/٢٦١ وابن الاثير ٤/٣٣

وقيل انتهت القصة ...

قصة ثلاثة وسبعين شهيدا ثبتوا ساعات ذات عدد أمام أربعة آلاف حتى قتلوا عن آخرهم (١) .

وسيمر حين قبل أن تكون لهم قبور تجمع ما تناثر من أشلائهم ، ويقف بها الراثي منشدا :

وقفت على اجداثهم ومجالهم
فكاد الحشى ينفض والعين ساجمه

لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى
سراعا الى الهيجا ، حماة خضارمه

تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم
بأسيافهم ، آساد غيل ضراغمه

وما أن رأى الراءون أفضل منهم
لدى الموت سادات وزهرا قماقمة (٢)

ولم يبق من أشخاص القصة الذين ظهروا على المسرح الدامي سوى « زينب » .

« زينب » التي لم تكد تغيب عنا لحظة طول المشهد الفاجع ، والتي ذهبت وحدها في التاريخ بدور « بطلة كربلاء » ..

هي التي سمعت الصيحة الأولى ، وكانت الى جانب أخيها وقد أغفى ، وهي يقظى لا تنام !

---

(١) أنظر أسماء من قتلوا بالطف مع الامام الحسين في تاريخ الطبري ٢٦٩/٦ وابن الاثير ٣٧/٤ وقابلها على ما في مقاتل الطالبيين ٢١٠ وما بعدها

(٢) انظر القصيدة في تاريخ الطبري ٢٧٠/٦

وكانت الى جانب المريض تمرضه ، والمحتضر تواسيه ، والشهيـد تبكيـه ..

وهي التي رؤيت الى جانب « الحسين » ـ رضي الله عنه ـ منذ بـدأ القتال حتى انتهى ...

❋

الفصل الرابع

بعد المأساة

- موكب الأسرى
- أوبة الركب
- الرحلة الاخيرة
- طالبة الثأر
- الصدى الباقي



مَوكبُ الأَسـرَىٰ

وكر نفر من الجيش راجعا الى الكوفة ، موقرا بحمله الرهيب من رؤوس الشهداء ..

وكان الليل قد أوغل ، وقصر « ابن زياد » قد أغلق ..

قالوا : فذهب « خولي بن يزيد » حامل رأس الامام الشهيد الى منزله ، فوضع الرأس في مكان منه ودخل فراشه فقال لامرأته : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك في الدار !

فصاحت مرتاعة :

ـ ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله وآله ؟ والله لا يجمعني واياك بيت ابدا ! (١)

وانطلقت من الدار خارجة تعدو في ذعر ! ..

وسيق موكب الأسرى والسبايا ، فكان أبشع موكب شهده التاريخ منذ كان :

كان فيهم صبيان للحسن بن علي ، استصغرا فتركا بغير ذبح ..
وأخ لهما ثالث ، ارتث جريحا فحمل مع الركب .

وغلام مريض من أبناء الحسين ، هو « علي الأصغر ، زين العابدين » أنقذته عمته « السيدة زينب » بشق النفس ، فكان كل من بقي من سلالة شهيدها الغالي ..

---

(١) الطبري ٦/٢٦١ وابن الاثير ٤/٣٧

ومع « زينب العقيلة » سيقت أختها « فاطمة » و « سكينة بنت الحسين » وبقية نساء بني هاشم : سبايا أسيرات .

وجاز الركب بساحة المعركة حيث الأشلاء مبعثرة في الدماء ، فصاحت « زينب » :

« يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء !.. هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء ، يا محمداه ! هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا » (١)

فضجت النسوة من ورائها بالنواح ، وبكى كل عدو وصديق .

* * *

ودخل الموكب « الكوفة » .

ووقفت الجموع محتشدة تشهد نساء البيت النبوي ، في طريقهن الى « عبيد الله بن زياد » .

وسمعت آهة من هنا ، وشهقة من هناك ، وكلمة من هنالك : رثاء وعزاء ...

ورؤيت نساء « الكوفة » قياما يندبن ممزقات الجيوب ، وبكى الباكون على الكريمات المستذلات .

فلم تطق « زينب » على ذلك صبرا ...

لم تطق أن ترى أهل « الكوفة » يبكون وهم الذين خذلوا أباها « عليا » وأخاها « الحسن » ، وأسلموا ابن عمها « مسلم بن عقيل » وغرروا بأخيها « الحسين » فلما جاءهم باعوا سيوفهم ليزيد .

لم تطق أن ترى أهل الكوفة يبكون « الحسين » وآله وهم ضحاياهم ، ويرثون للأسيرات من بنات الرسول ، وما انتهك حرمتهن سواهم !

وذكرت ذم أبيها « علي » ـ كرم الله وجهه ـ أهل الكوفة وشكواه

(١) من الطبري ٦/٢٦٢ وابن الاثير ٤/٣٣ ومقابلا على ما في « مقتل الحسين » : ٣٦٧

منهم ، ثم سرحت بصرها بعيدا ، حيث جثث الشهداء من أهلها ممزقة منبوذة بالعراء ، حتى استقرت عيناها أخيرا على أولئك الباكين ، فأشارت اليهم أن اسكتوا ..

فطأطئوا رؤوسهم خزيا وندما ، على حين مضت هي تقول : (١)

« أما بعد يا أهل الكوفة ، أتبكون ؟ فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة ! انما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون ايمانكم دَخَلا بينكم ألا ساء ما تزرون .

« أي والله فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل ابدا . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ! ...

« أتعجبون لو أمطرت دما ؟! ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون ...

« أتدرون أي كبد فريتم ، وأي دم سفكتم ، وأي كريمة أبرزتم ؟ لقد جئتم شيئا ادًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا (٢) .

قال من سمعها : « ... فلم أر والله خفرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضج الناس بالبكاء ، وذهلوا ، وسقط ما في أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء » (٢) .

ثم لوت رأسها عنهم ، ومضت قدما ، الى حيث أريد لها أن تمضي ، هي والسبايا من آل البيت الكريم .

---

(١) أورد السيد الموسوي في « مقتل الحسين » خطبة في هذا الموقف · لعلي زين العابدين ، وخطبتين لفاطمة بنت الحسين ، ولاختها أم كلثوم : ص : ٣٧٦ وما بعدها

(٢) مقتل الحسين : ٣٧٣ من امالي الطوسي واللهوف ، ومناقب ابن شهراشوب ، والاحتجاج للطبرسي

مضت حتى بلغت دار الامارة ، فأحست شجاً في حلقها !

انها تعرف كل قطعة في هذي الدار ، فلقد كانت دارها ، أيام كان أبوها « الامام علي أمير المؤمنين » ، ملء الدنيا والحياة .

وترنحت الدموع فيمقلتيها، لكنها أبت عليها أن تذل، ولاذت بشجاعتها وهي تجتاز الساحة الكبرى حيث رأت ــ منذ أكثر من عشرين عاما ــ ولدها عونا يحبو لاهيا ، ورأت شقيقها الحسن والحسين ملء القلوب والأبصار ..

ووضعت يمناها على ما بقي من قلبها خشية أن يتصدع ، حين أشرفت على القاعة الكبرى ورأت « عبد الله بن زياد » جالسا حيث تعود أبوها أن يجلس : يستقبل الوفود ، ويجتمع بالرسل والأمراء والولاة ..

انها تدخلها اليوم أسيرة يتيمة ثكلى ، قد فقدت أباها ، وشقيقها ، وبقية آلها .

ودت اذ ذاك لو نفست عن اشجانها بدمعة ، أو أنة ، لكنها كرهت أن تلقى الطاغية ذليلة باكية ..

لم تكن قط كما هي اليوم ، في حاجة الى أن تلوذ بكل كبريائها وقوتها وعزة بيتها ، وشرف آلها ، وعراقة محتدها ، لكي تقف الموقف الجدير بحفيدة الرسول ، وعقيلة بني هاشم .

وهي أشد حاجة الى ذاك ، لتؤدي دورها الذي ينتظرها ، بعد أن اجتاح الاعصار كل من كان لها من الرجال ...

وأمر زياد برءوس القتلى فأحضرت بين يديه ، فأخذ ينكت بقضيب بين ثنيتي الامام الحسين ، فلما رآه « زيد بن الأرقم » لا يرفع قضيبه قال يزجره :

« اعْلُ هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوا الذي لا اله غيره ، لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما »

ثم استعبر باكيـا .

قال ابن زياد :

« أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك » .

فانطلق زيد خارجا وهو يقول :

« أنتم يا معشر العرب العبيدُ بعد اليوم . قتلتم ابن فاطمة وأمَّرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم فرضيتم بالذل ، فبُعدا لمـن رضي بالذل » (١) .

وكانت « زينب » قد تقدمت في مهابة وجلال ، لابسة أرذل ثيابهـا واماؤها تحف بها ، فأخذت مجلسها دون أن تلقي بالا الى الأمير الطاغية . .

وأخذتها عيناه وهي تجلس بادية الترفع ، قبل أن يؤذن لها في الجلوس ، فسأل : من تكون ؟ . .

فلم تكلمه ...

وأعاد السؤال مرتين وثلاثا ، وهي لا تجيب ، احتقارا له واستصغارا لشأنه !

وأجابت احدى امائها :

ـ هذه زينب ابنة فاطمة

قال لها « ابن زياد » وقد غاظه ما كان منها : « الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم ، وأكذب أحدوثتكم » .

فردت عليه ونظراتها تقطر احتقارا : « الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وآله ، وطهرنا من الرجس تطهيرا ، لا كما تقول أنت . انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله » .

فسألها :

---

(١) ابن الاثير ٣٣/٤ والطبري ٢٦٣/٦
وانظر مقتل الحسين : ٣٩١

ـ كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

أجابت وما يزايلها ترفعها :

ـ كتب عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون اليه فتختصمون عنده .

وهنا صغر الطاغية واضمحل ، لكنه قال في اشتفاء :

ـ قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة والمردة من أهل بيتك ...

فردت عبرتها وهي تقول :

ـ لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت .

قال ساخرا في غيظ :

ـ هذه سجاعة ، لقد كان أبوها سجاعا شاعرا .

فقالت في رزانة صارمة :

ـ ما للمرأة والسجاعة ؟ ان لي عن السجاعة لشغلا . (١)

فرد عنها بصره ، وعاد يتأمل وجوه أسراه حتى استقرت عيناه على « علي الأصغر بن الحسين » فأنكر بقاءه حيا وسأله :

ـ ما اسمك ؟

أجاب الغلام :

ـ أنا علي بن الحسين

فعجب « ابن زياد » وتساءل :

ـ ولكن ، أو لم يقتل الله علي بن الحسين ؟

فسكت الفتى ...

وعاد « ابن زياد » يستحثه :

ـ ما لك لا تتكلم ؟

قـال :

---

(١) الحوار بنصه من تاريخ الطبري ٢٦٣/٦ ، ومثله في ابن الاثير ٣٣/٤٠ ٠ لكن بتصحيف في عبارة ابن زياد للعقيلة : هذه شجاعة ، ولقد كان أبوها شجاعا شاعرا

ـ قد كان لي أخ يقال له أيضا « علي » فقتله الناس .

قال « ابن زياد » :

ـ **ان الله قد قتله .. !**

فأمسك الفتى لا يرد ، ثم قال حين استحثه « ابن زياد » :

ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا بإذن الله ..

فصاح الطاغية :

ـ أنت والله منهم ، ويحك !

ثم التفت الى شرطي من رجاله فقال :

ـ انظروا هل أدرك ؟ والله اني لأحسبه رجلا !

وامتثل الشرطي ، فتقدم الى « علي بن الحسين » فكشط ازاره عنه ثم قال : نعم !

فأمر به « ابن زياد » أن يقتل ، فاعتنقته عمته « زينب » وهي تقول :

ـ يا ابن زياد ، حسبك منا ! أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحدا ؟

ثم آلت عليه : ليدعن الغلام ، أو فليقتلها معه ...

فتأملها « ابن زياد » برهة ، ثم انثنى يقول لأصحابه :

ـ عجبا للرحم ! والله اني لأظنها ودت لو قتلتها معه . دعوا الغلام ينطلق مع نسائه . (١)

وأمر « ابن زياد » برأس « الحسين » فطيف به في الكوفة محمولا على خشبة .

ثم جعل الغل في يدي « علي زين العابدين » ورقبته ...

* * *

وسيق الموكب مرة أخرى الى دمشق ...

رأس الحسين، ورؤوس السبعين من آله وصحبه، والأسرى من الصبية

---

(١) الطبري ٢٦٣/٦ ، وابن الاثير ٣٢/٤

في الاغلال ، والسبايا من نساء البيت الكريم محمولات على الأقتاب في حراسة بعض رجال « ابن زياد » الأشداء .

لم يتكلم « علي بن الحسين » طوال الطريق .

ولم تتكلم عمته « زينب » .

كانت المحنة الفادحة قد الجمت لسانيهما فانطوى « ابن الحسين » على نفسه صامتا يحدق في الأغلال ..

وراحت « زينب » ترمق رؤوس الشهداء من آلها واجمة صامتة !

حتى اذا بلغوا « دمشق » سير بهم توا الى حضرة « يزيد بن معاوية » وصرخات النادبات من دوره تملأ الفضاء !

وكانت البشرى المشئومة ، قد سبقتهم الى « يزيد بن معاوية » .

حملها اليه « زخر بن قيس » فقال :

« أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله وبنصره : ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، فسرنا اليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال ، فاختاروا القتال فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى اذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يلوذون بالآكام والحفر كما لاذ الحمائم من صقر ... حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح ، زوارهم العقبان والرخم بقاع سبسب » .

فيقال ان يزيدا دمعت عيناه وقال :

« قد كنت أرضى من طاعتكم بما دون قتل الحسين . لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو اني صاحب الحسين لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين »

ولم يَصِل « زحر » بشيء ، على بشراه المشؤومة (١)

* * *

ودعا يزيد أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله :

---

(١) ابن الاثير : ٤/٣٤

ورأس « الحسين » بين يديه ، فالتفت الى أصحابه يقول :

ـ هذا وايانا كما قال الحصين بن الحمام :

أبَى قومنا أن ينصفـونا فأنصفت
قواضب في أيماننا تقطـــر الدمـا

يفلقن هامـا من رجـــال أعـــزة
علينا ، وهم كانوا أعق وأظلما (١)

ثم استطرد قائلا وهو يشير الى رأس الشهيد :

« أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال : أبي عليٌّ خير من أبيه ،وفاطمة أمِّي خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الامر . فأما قوله : أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له . وأما قوله : أمي خير من أمه ، فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي . وأما قوله : جدي رسول الله خير من جده ، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا أو ندا . ولكنه ـ أي الحسين ـ أُتيَ من قبل فقهه ، ولم يقرأ : « قلِ اللهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » (٢) ..

* * *

ثم أمر بادخال الأسرى والسبايا ..

وجعل أهل المجلس ينظرون الى بنات البيت النبوي ، وقد كن ـ حتى أمس قريب ـ عزيزات منيعات مصونات !

وذكروا عزة آلهن وشرف بيتهن ، فغضوا أبصارهم على استيحاء الا رجلا شاميا ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق في فاطمة بنت علي ـ وكانت شابة وضيئة ـ ويلتهمها بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة

---

(١) من تاريخ الطبري ٦/٢٦٤ وابن الاثير ٤/٣٥ وانظر مقاتل الطالبيين : ١١٩ ومقتل الحسين ٤١٧
(٢) الطبري ٦/٢٢٦ وابن الاثير ٤/٣٥ ٠ والآية عن سورة آل عمران : ٢٦

مذعورة ، وقام الرجل الى « يزيد » فقال : (١)

ـ يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه !

فأخذت فاطمة بثياب أختها « زينب » مذعورة ترتجف ..

قالت « زينب » وهي تحتضن أختها :

ـ كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك ولا له !

فغضب يزيد وقال :

ـ كذبت والله ، ان ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت !

قالت :

ـ كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا ..

فاستثاره قولها غضبا وتساءل منكرا :

ـ اياي تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك ..

فردَّت في صرامة :

ـ بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت يا يزيد ، أنت وأبوك وجدك !

قال محنقا :

ـ كذبت يا عدوة الله !

فهزت رأسها استخفافا وهي تقول :

ـ أنت أمير مسلط ، تشتم ظالما وتقهر بسلطانك ..

فلم يجب ...

وساد القاعة وجوم ثقيل ، ثم عاد الشامي يملأ عينيه من « فاطمة » ويقول :

ـ يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه الجارية !

فصاح به أميره :

---

(٢) الحوار بنصه ، من تاريخ الطبري ٦/٢٦٥ وابن الاثير ٤/٣٥ . وروى أبو الفرج الحادث بايجاز في مقاتل الطالبيين : ١٢٠

ـ أغرب ، وهب الله لك حتفا قاضيا ! (١)

* * *

ثم كان المشهد الرهيب :

كشف « يزيد » عن رؤوس الشهداء ، وانثنى يعبث بقضيب في يده ، بثنايا « الامام الحسين » وهو يتمثل بقول « ابن الزبعري » :

ليت أشياخي ب « بــدر » شــهدوا
جزع «الخزرج» من وقع الأسل (٢)

وأضاف :

لأهلـــوا ، واســـتهلوا فرحـــا
ثم قالوا : يا «يزيد» لا تشل ! (٣)

فبكت نساء هاشم الا « زينب » فانها انتفضت تصيح في الطاغية :

« صدق الله يا يزيد : « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ..

« أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن بنا هوانا على الله ، وأن بك عليه كرامة ؟ وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفيك جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك ؟ ان الله ان أمهلك فهو قوله : « ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » ..

« أمن العدل يا ابن الطلقاء ، تخديرك بناتك واماءك ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله كالأسارى قد هتكت ستورهن ، وأصلحت أصواتهن ، مكتئبات تجري بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادي

---

(١) الطبري : ٢٦٥/٥

(٢) من قصيدة لعبد الله بن الزبعري يوم « أحد » أنظرها في السيرة لابن هشام ، ج ٣ ـ وانظر ابن الاثير ٣٥/٤

(٣) من « مقتل الحسين » : ٤٢٩

من بلد الى بلد ، لا يُراقَبن ولا يؤوَين ، يتشوفهن القريب والبعيد ليس معهن قريب من رجالهن ؟ ...

« أتقول : ليت أشياخي ببدر شهدوا ، غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا « أبي عبدالله » بمخصرتك ؟ .. ولم لا وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة باهراقك هذه الدماء الطاهرة ، دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟

« ولتردَنَّ على الله وشيكا موردهم ، وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى ..

« أيزيد والله ما فريت الا في جلدك ، ولا حززت الا في لحمك ! وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته من حوله في حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعث : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »

« وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين ، اذ كان الحكَم ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك ، أينا شر مكانا وأضعف جندا ..

« فلئن اتخذتنا في هذه الحياة مغنما ، لتجدننا عليك مغرما حين لا تجد ألا ما قدمت يداك ، تستصرخ بابن مرجانة ـ عبيد الله بن زياد ـ ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان وقد وجدت أفضل زاد تزودت به : قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم وآله .

« فوالله ما اتقيتُ غير الله ، وما شكوت الا الله فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يُرحَض عنك عارُ ما أتيت الينا أبدا ! » (١) .

وسكتت ، فأطرق « يزيد » وأطرق كل من كان معه ، كأن على رؤوسهم الطير ...

* * *

(١) مقتل الحسين : ٤٢٨ عن بلاغات النساء لابن طيفور ٢/٦٤ والمقتل للخوارزمي ٢/٦٤

وقيل أن « هند ابنة عبد الله بن عامر : زوجة يزيد » سمعت بما يدور في مجلس زوجها ، فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين ، أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ؟

قـال :

ـ نعم ، فأعولي عليه وحُدِّي .. عجَّل عليه ابن زياد فقتله ، قتله الله (١) .

ورآه الصحابي « أبو برزة الأسلمي » وهو ينكت بقضيبه في ثغر « الحسين » فقال منكرا :

« أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ؟ أما لقد أخذ قضيبك مـن ثغره مأخذا لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يرشفه ! أما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ، ويجيء هذا ـ مشيرا الى الحسين ـ يوم القيامة ومحمد صلى الله عليه وسلم وآله شفيعه » ..

ثم قام فولَّى (٢) ..

وضاق « يزيد » بمرأى « زينب » وهزه ما سمع منها ، فأشاح عنها بوجهه وهو يشير اليها والى النساء معها أن يُخرجن الى داره ..

وأمر بـ « علي بن الحسين » فأدخل مغلولا فقال :

ـ لو رآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله مغلولين لفك عنا

قال « يزيد » وما يزال صوت « زينب » يدوي في أذنيه :

ـ صدقت .

وأمر بفك الغل عنه ، ثم قربه اليه وهو يقول كالمعتذر :

ـ ايه يا علي بن الحسين ! أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت .

فكان جواب « علي » ان تلا قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في

(١ ، ٢) تاريخ الطبري : ٢٦٧/٦ وابن الاثير ٣٥/٤

الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » . (١)

فهم « يزيد » بأن يتلو الآية :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ... » لكنه ما لبث أن سكت ، فقد كان صراخ النسوة يسمع من بعيد ، فاجعا مؤثرا ، عالي الرنين ..

لم تكن بنات هاشم وحدهن الباكيات ، بل واستهن نساء بني أمية بدموعهن .

فلم تبق من آل معاوية امرأة الا استقبلتهن تبكي وتنوح على « الحسين » .

وأقيمت المناحة ثلاثة أيام وصالا ، ثم أمر « يزيد » فجهزن للسفر الى « المدينة » في صحبة حارس أمين ، معه خيل وأعوان ...

وقيل ان « يزيد » دعا « عليا » فقال له مودعا :

« لعن الله ابن مرجانة ــ يعني ابن زياد ــ أما والله لو اني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن قضى الله ما رأيت » .. (٢)

وسأله أن يكتب اليه كلما عنت له حاجة ، ثم انسل الى مخدعه وصدى صوت « زينب » يطارده في قسوة والحاح !

وخرج الدليل بنساء « الحسين » وصبيته ، يسايرهم بالليل متلطفا فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، فاذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، بحيث اذا أراد انسان منهم وضوءا أو قضاء حاجة لم يحتشم ، فلم يزل ينازلهم في الطريق هكذا ، وهو يسألهم من حين الى حين : هل من حاجة ؟

---

(١) الطبري ٦/٢٦٥ ، وابن الاثير ٤/٣٥ . والآيتان من سورة الحديد : ٢٢ ، ٢٣ وانظر « مقتل الحسين » : ٤٣٣

(٢) الطبري ٦/٢٦٦ وابن الاثير ٤/٣٦

قالت « زينب » مرة : (١)

ــ لو عرجتَ بنا على كربلاء !؟

فأجاب محزونا :

ــ أفعل !

ومضى بهم حتى أشرفوا على الساحة المشؤومة .

* * *

كان قد مضى على المذبحة يومئذ أربعون يوما ، وما تزال الأرض ملطخة ببقع من دماء الشهداء ، وبقية من أشلاء عفنة ، عف عنها وحش الفلاة وناحت النوائح ، وأقمن هناك ثلاثة أيام لم تهدأ لهن لوعة ولم ترقأ لهن دمعة ، ثم أخذ الركب المنهك طريقه الى مدينة « الرسول » .

فلما كانوا بظاهر المدينة قالت « فاطمة بنت علي » لأختها « السيدة زينب » :

ــ يا أخية ، لقد أحسن هذا الرجل الينا في صحبتنا ، فهل لك في أن نصله ؟ ..

أجابت « العقيلة » :

ــ والله ما معنا شيء نصله به الا حلينا ...

واخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به الى الرجل ، معتذرتين اليه عن ضآلة الهدية ، بضيق الحيلة واليد .

لكن الرجل رد اليهما الحلى قائلا :

ــلو كان الذي صنعتُ انما هو للدنيا ، كان في حليكن ما يرضيني ، ولكن والله ما فعلته الا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٢) .

---

(١) من « مقتل الحسين » : ٤٣٥

(٢) تاريخ الطبري ٢٦٦/٦ وابن الاثير ٣٦/٤

أَوبَـةُ الركبِ

كانت « المدينة » في تلك الفترة ، واجمة تترقب أنباء سبط الرسول الذي خرج الى الكوفة ملبيا نداء شيعته هناك .

وكانت ذائعات قد شاعت عن المصير الفاجع ، مصدرها رؤى لنفر من أجلّة الصحابة ، حدثوا بها أهل المدينة، فأصغوا اليها في قلق كأنها النذير الذي لا يكذب ولا يتهم ..

من تلك الرؤى ، ما حدث به « عبد الله بن عباس » قال :

« رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ـ في الليلة التي قتل فيها الحسين ـ وبيده قارورة وهو يجمع فيها دما . فقلت : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هذه دماء الحسين وأصحابه ، أرفعها الى الله تعالى » ..

فأصبح ابن عباس ، فأعلم الناس بقتل الحسين وقص عليهم رؤياه (١)

وأخرى عن أم المؤمنين « أم سلمة بنت زاد الركب » ، وتقول الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاها في حياته ـ قدرا من تراب ، وقال لها : اذا صار هذا التراب دما فقد قتل الحسين . فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها ، الى أن كان يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦١ هـ ، فصار التراب دما ، فأعلمت الناس بقتل الحسين !

ومهما يكن من امر هذه المرويات ، فقد كانت « المدينة » مشحونة بالقلق على غذي النبوة ، ثم ما راعها الا مناد ينادي :

« ان علي بن الحسين قد قدم اليكم مع عماته وأخواته » ..

---

(١) تاريخ ابن الاثير : ٣٨/٤

علي بن الحسين ؟ والعمات والأخوات ؟
فأين الامام الحسين اذن ؟ وأين الاخوة والأعمام وبنو الأعمام ؟
أين نجوم الأرض من بني الزهراء ، وآل عبد المطلب ؟ .. وأين ؟ ..

وانتشر صدى النعي حتى بلغ سفح « أحد » ثم ارتد الى البقيع ، فقباء ، خافتا ممزقا ، وما لبث أن تلاشى في صراخ الباكين وعويل النادبات .

وبلغ العويل مسمع أمير المدينة « عمرو بن سعيد الأشدق » فابتهج وقال :

عجَّت نساء بني زياد عجة
كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

يوم بيوم عثمان ، وناعية بناعية عثمان (١)

ولم تبق مخدرة في « المدينة » الا برزت من خدرها نائحة معولة ، واندفعت « زينب بنت عقيل بن أبي طالب » ـ أخت مسلم ـ ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وتصرخ : (٢)

ماذا تقولون ان قال النبي لكم
ماذا فعلتم ، وأنتم آخر الأمم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي
منهم أسارى ، ومنهم ضرجوا بدم ؟

ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم
أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي ؟

---

(١) من تاريخ الطبري ٦/٢٦٨ وابن الاثير ٤/٣٦ ومقتل الحسين : ٤٠٥ ـ والبيت لعمرو بن معد يكرب والارنب وقعة كانت لبني زبيد على بني زياد ، من بني الحارث بن كعب

(٢) الابيات في الطبري : ٦/٢٦٨ وابن الاثير : ٤/٣٦ منسوبة لبنت عقيل بن أبي طالب دون تسميتها. وهي في مقتل الحسين : ٤٠٧ « زينب بنت عقيل » ـ عن عدد من المراجع ـ وجاء في المناقب ، لابن شهراشوب أنها لزينب بنت علي

وسُمع من بعيد صوتٌ ينوح :

أيهـــا القاتلون جهــلا « حسينا »
أبشـروا بالعـــذاب والتنكيـــل

كــل أهــل السماء يــدعو عليكم
مــن نبـي ، ومالـــك ، وقبيـــل

قـــد لعنتم عـــلى لســان داوو
د ، وموســى ، وحامــل الانجيل !

وأهلَّ الركب الحزين على الجموع التي خرجت لاستقباله ، فما رأت «مدينة الرسول » أفجع مشهدا ، ولا رأت مثل ذاك اليوم أكثــر باكيا وباكية !

* * *

وذكرت « المدينة » ليلة خرجوا منها الى « مكة » ــ في احدى أمسيات شهر رجب الفرد ــ جمعا كريما يتقدمه « زين شباب الجنة » في هالة من النجوم الزهر .. خرجوا يطاولون « يزيد بن معاوية » ليزيلوه عن عرش لم يروه له أهلا ...

لقد آب الركب من سفره بعد تلك الغيبة التي لــم تتجاوز أشهرا معدودات ، فيا لله ماذا فعلت بهم الليالي والأيام ؟

حثتهم الى مناياهم سراعا ، حتى اذا بلغوا وادي الردى ــ ذاك الذي خالوه وادي الأمل ــ حصدهم منجل الموت حصدا ، فلم يترك سوى هذه البقية التعسة من الصبية اليتامى والنسوة الثواكل !

أما الرجال والشباب فلم يؤب منهم مسافر ...

* * *

وأقامت « مدينة الرسول » أياما بلياليها تشهد المأتم الرهيب، وتصغي الى النواح الفاجع ، وتتلقى في ثراها الطاهر دموع البواكي ..

واذ ذاك نرى « عبد الله بن جعفر » ــ زوج زينب ــ يجلس ليتقبل العزاء في ولديه : عون الأكبر ، ومحمد . وفي ابن عمه « الحسين » وبقية الشهداء من آل جعفر وبني عبد المطلب ..

ويقول مولى أحمق من مواليه :

ــ هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين !

فيقذفه « عبد الله » بنعله ساخطا مغضبا يقول :

« يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ! والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه . والله انه لمما يسخي بنفسي عن ولديّ ويهون عليّ المصاب فيهما ، انهما أصيبا مع أخي وابن عمي ، مواسيين له صابرين معه .

ثم ينثني الى جلسائه فيقول : « أعزز عليّ بمصرع الحسين الا تكن يدي آست حسينا ، فقد آساه ولداي » (١)

ثم ينفض المأتم . وتبقى الأرامل والثواكل ، يسعين كل يوم الى القبور فيندبن الاعزاء الذين غودروا بكربلاء ، وترجع « المدينة » أصداء أصواتهن فيبكي لهن الأعداء والأصدقاء .

حدثوا أن « أم البنين بنت خزام : زوج الامام علي » كانت تخرج الى البقيع فتبكي بنيها الأربعة « عبد الله ، وجعفرا ، وعثمان ، والعباس » وقد قتلوا جميعا في كربلاء ، وتندبهم أشجى ندبة وأحرقها ، فيجتمع الناس اليها يسمعون منها ، فكان مروان بن الحكم ــ عدو الطالبيين ــ يجيء فيمن يجيء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي !

وقيل ان «الرباب بنت امرىء القيس : زوج الحسين وأم ابنته سكينة» عادت بعد مصرعه الى المدينة « فأقامت على قبره وبقيت بعده سنة لم يظلها سقف بيت حتى بليت وماتت كمدا » (٢) ..

* * *

(١) الطبري ٢٦٨/٦ ــ وابن الاثير ٣٧/٤

(٢) ابن الاثير ٣٦/٤ ــ وانظر « مقتل الحسين » : ٤٥٣

ونفتقد « السيدة زينب » في المأتم الذي أقامه « عبد الله بن جعفر » لولديه ، فيخيل الينا أنها أغفت مجهدة بعد أن ألح عليها السهاد ..

غير أنا لا نلبث أن نراها وقد أمسكت دموعها ، وهبت تطلب أمرا ...

ان لها اليوم لشأنا آخر ، غير البكاء :

فهذا الدم المسفوح ، لاينبغي أن يضيع هدرا ...

وأولئك الشهداء الكرام ، لا يجوز والله ان يذهبوا باطلا !

❁

الرّحلةُ الأَخيرَة

أرادت « السيدة زينب » أن تقضي ما أبقت لها الأيام من عمر في جوار جدها الرسول ، لكن « بني أمية » كرهوا ذلك المقام :

فلقد عادت هي ومن معها يقصون على المؤمنين ما لقي سبط الرسول من جيش « يزيد » ، ويصفون لهم المجزرة الشنيعة التي ذبح فيها الامام الحسين وشيعته ..

وكان وجود « السيدة زينب » في المدينة كافيا لأن يلهب الحزن على الشهداء ، ويؤلب الناس على الطغاة ، حتى كاد الأمر يفسد على بني أمية ، فكتب واليهم « بالمدينة » « عمرو بن سعيد الأشدق » الى «يزيد» : « ان وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وأنها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين » (١) ..

فأمره « يزيد » أن يفرق البقية الباقية من « آل البيت » في الأقطار والأمصار ..

وطلب الوالي الى « السيدة زينب » أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء ..

قالت غاضبة مستثارة :

« قد علم والله ما صار الينا : قُتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا وان أريقت دماؤنا »

---

(١) في الكامل لابن الاثير ٣٧/٤ ـ ومقاتل الطالبيين ١٢١ ، أن الاشدق هدم دور بني هاشم بالمدينة

لكن نساء « هاشم » أشفقن عليها من غضب الطاغية ، فأحطن بها يتلطفن معها في الكلام ويواسينها ويغرينها بالخروج . وقالت لها « زينب بنت عقيل بن أبي طالب » :

« يا ابنة عمي ، قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء وسيجزي الله الظالمين ... ارحلي الى بلد آمن » ..

فخرجت « زينب » من مدينة جدها الرسول ، ثم لم ترها المدينة بعد ذلك أبدا !

وأقفرت ـ أو كادت ـ دور النبي بمدينة النبي ، فيقول شاعرهم راثيا :

مررت على أبيات آل محمد
فلم أرها أمثالها يوم حلَّت

فلا يبعد الله الديار وأهلها
وان أصبحت من أهلها قد تخلت

وان قتيل الطف من آل هاشم
أذل رقاب المسلمين فذلت

وكانوا رجاء ثم أضحوا رزية
لقد عظمت تلك الرزايا وجلت (١)

* * *

رحلت تريد « مصر » ...

وما اكثر ما رحلت « زينب » !

أفتقضي العمر هكذا متنقلة من بلد الى بلد لا يطمئن بها على الأرض مكان ؟

وشعرت رفيقات السفر من الهاشميات ، ان عقيلتهن تبدو مجهدة كما

---

(١) تاريخ ابن الاثير : ٤/٣٧

لم تبد قط من قبل . فهي تقطع الطريق تائهة النظرات جامدة العينين ، كأن شيئا فيها قد تحطم أو مات ..

ويردن ليؤنسن وحشتها فلا تزداد الا وجوما وشرودا ..

ويعمدن آخر الأمر الى شيء زعمن انه قد يخفف عنهـا ، فمضين يتذاكرون ما كان في « كربلاء » كي ينكأن جرحها فتبكي ..

لكن الدمع كان قد تحجر في مقلتيها ..

وأوغل الجرح في قلبها : عميقا غائرا مميتا !

وكانت الليالي الأخيرة من السفر أشد المراحل كآبة وانقباضا ..

جاوز الركب الساري أرض الحجاز ، مرتع الصبا وموطن الآبـاء والأجداد ...

وأشرف على أرض النيل ، حيث لا أهل ، ولا وطن ...

الأفق مظلل بالغيوم وليس في السماء قمر ...

وعلى الصحراء الشرقية جثم الهواء راكدا فاترا ثقيلا ، كأنما جمد لمرأى الركب الساري الحزين ..

وملأت الوحشة ، ذلك الفضاء العريض ...

* * *

ثم تغير المشهد :

بزغ هلال شعبان (عام ٦١ هـ) في اللحظة التي وطئت فيها « السيدة » أرض النيل ، فاذا جموع من الناس قد احتشدت لاستقبالها ..

وساروا هكذا حتى بلغوا قرية قرب « بلبيس » فقابلتهم هناك جموع أخرى آتية من عاصمة الوادي الطيب ..

انه « مسلمة بن مخلد الأنصاري : أمير مصر » في وفد من أعيان البلاد وعلمائها قد خرجوا للقاء بنت الزهراء والامام علي ، وأخت الامام الشهيد ..

فلما اطلت عليهم بطلعتها المشرقة بنور الاستشهاد، اجهشوا بالبكاء ..

وحفوا بركبها ، حتى اذا بلغت العاصمة مضى بها « مسلمة » الى داره فأقامت بها قرابة عام ، لم تُرَ خلالها الا عابدة متبتلة ..

* * *

ثم كانت نهاية المطاف ...

ماتت « السيدة زينب » عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الأقوال ..

وأغمضت العينان اللتان شهدتا مذبحة « كربلاء » ..

وآن لَلجسد المتعب المضنى أن يستريح ..

فمهدت لها الأرض الطيبة مرقدا لينا ، في مخدعها من دار « مسلمة » حيث نزلت « السيدة » منذ جاءت ، وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة (١) ..

وبقي قبرها مزارا مباركا يفد اليه المسلمون ـ حتى يومنا هذا ـ من كل فج عميق ..

وبقيت قصة آلامها المثيرة ، حديث الأجيال والعصور .

---

(١) من شاء فليرجع الى « اخبار الزينبات ـ صفحات ٧ و ١٩ و ٥٩ » وما استدرك على «السخاوي» في « تحفة الاخبار ـ هامش ص ١١١ » وانظر أيضا « طبقات الشعراني ص ٢٩ » والخطط لعلي مبارك

طَالِبَةُ الثَّأر

لم تعش « السيدة زينب » بعد أخيها الشهيد سوى عام ونصف عام .. لكنها استطاعت في هذه الفترة ان تؤثر في مجرى التاريخ !

فلقد ظن « بنو أمية » أن مقتل « الحسين » وآله جميعا هو الفصل الأخير من قصة الشيعة ..

ولم يكونوا في ذلك الظن سذجا أو غافلين ، فما كان يرجى أن تقوم لآل « علي » قائمة بعد ان فني الرجال ولم يبق سوى الصبية اليتامى والنسوة الثواكل !

ولقد قتل « الامام علي » من قبل ، ومضت الحياة سيرتها لا تتوقف ولا تنحرف ...

واستوثق الأمر « لمعاوية » برغم ما شاع في الناس من أنه أغرى زوجة « الحسن بن علي » أن تدس السم لعميد البيت العلوي ..

وسارت الحياة غير ملتفتة ــ فيما يبدو ــ للذي مضى وفات !

ثم قتل « الحسين » على مرأى من شيعته بالكوفة ومسمع ، وكانوا بحيث يفعلونها مرة أخرى فيدعون ابنه « عليا » ثم يخذلونه ويسلمونه كما فعلوا بأبيه وعمه من قبل ، لولا أن « السيدة زينب » ظهرت على مسرح المأساة ــ قبيل اسدال الستار ــ لتقذف بلعنتها مَن خذلوا الامام الشهيد من أهل « الكوفة » والطغاة من بني أمية !

ومن ثم لم يسدل الستار أبدا ، وما أحسبه يسدل حتى تتبدل الأرض ومن عليها ! ..

* * *

لم تمض « زينب » الا بعد ان أفسدت على « ابن زياد ويزيد ، وبني أمية » لذة النصر ، وسكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس الظافرين !

فكانت فرحة لم تطل ...

وكان نصراً مؤقتا ، لم يلبث أن أفضي الى هزيمة قضت آخر الامر على دولة بني أمية ..

فلم تكد « زينب » تخرج من عند « يزيد » حتى أحس أن سروره بمقتل « الحسين » قد شابه كدر خفي ، ظل يزداد حتى استحال الى ندم كدر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته ..

ولحق منه بـ « ابن زياد » شر كثير ..

ويروي « الطبري وابن الأثير » أنه « لما قتل عبيد الله بن زياد ، الحسين ابن علي ـ عليه السلام ـ وبني أبيه ، بعث برؤوسهم الى يزيد فسر بقتلهم اولا ، وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده ، ثم لم يلبث قليلا حتى ندم على قتل الحسين فكان يقول : وما كان عليَّ لو احتملت الأذى وحكمتُه فيما يريد ؟ لعن الله ابن مرجانة ، فانه أخرجه واضطره ... ثم قتله فبغضني بقتله الى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلي حسينا ! .. ما لي ولابن مرجانة لعنه الله ! » .. وغضب عليه .. !

وسمع يحيى بن الحكم الأموي يقول :

لهامٌ بجنب الطف أدنى قرابةً
من ابن زياد العبد ذي الحسَب الوغلِ

«سمية» أمسى نسلها عدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل!(١)

* * *

---

(١) تاريخ الطبري : ١٩/٧ وابن الاثير ٣٦/٤ ، ٣٧ واقرأ فصل « حوادث بعد الشهادة » من كتاب « مقتل الحسين »

وشغل الناس بعد وفاة «السيدة زينب» بالحديث عن استجابة السماء لدعاء الأنثى الطاهرة ، وراحوا يملأون لياليهم بسمر عجيب عن غضب السماء للدم الطاهر المسفوح ، والبيت الكريم المستباح ...

وجاء المؤرخون فلم يستطيعوا أن يمروا بتلك الأقاصيص والأسمار دون أن يقفوا عندها وينقلوها الينا :

فما تركوا أحدا ممن شارك في مأساة « كربلاء » الا جاءونا بقصة عما سُلط عليه من غضب السماء وانتقام الجبار ..

وقد نتردد فيما جاءت به كتب غلاة الشيعة عن مصاير هؤلاء الآثمين، لكننا نصغي الى مؤرخين عرفوا بالحياد والاعتدال ـ كالطبري وابن الأثير ـ فنسمع العجب العجاب :

ذاك رجل من بني دارم حال بين « الحسين » وبين الماء ، فدعا عليه الشهيد بالظمأ . قال من رآه بعد ذلك : « فوالله ان مكث الا يسيرا حتى صُب عليه الظمأ فجعل لا يروى .. ولقد رأيته وبين يديه قلال الماء وعساس اللبن وانه ليقول : ويلكم ! اسقوني ، قتلني الظمأ ! فيعطى القلة أو العس فيشربه ، ثم يقول بعد هنيهة : ويلكم ! اسقوني قتلني الظمأ ، حتى انقد بطنه ..! » (١)

وآخر منهم ، دعا عليه الحسين : « اللهم اقتله عطشا » . فحدث من عاده في مرضه قال : « فوالله الذي لا اله الا هو ، لقد رأيته يشرب ثم يقيىء ، ثم يشرب .. فما يروى .. حتى مات » ..

وثالث من كندة أخذ (برنس) الامام الشهيد ، وأقبل على داره يغسله من الدم .. فقالت له امرأته : « أسلب ابن بنت رسول الله تدخل بيتي ؟ سأخرجه عني » . قيل : فذكر أصحابه انه لم يزل فقيرا بشرٍّ حتى مات (٢) .

ورابع ، سلب سراويل « الحسين » فتركه مجردا ، قالوا : « ان يديه كانتا في الشتاء تنضحان بالماء ، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود !» (٣).

(١ ، ٢) تاريخ الطبري ٦/٢٨٥ وابن الاثير ٤/٣١

(٣) المرجعان السابقان : ٦/٢٥٩ ، ٤/٣٢

وقد يكون اكثر هذا من صنع السمار والمنقبيين ، لكن الذي لا شك فيه عند المؤرخين أن دم « الحسين » الذي طلبته أخته « زينب » لم يذهب هدرا ! .

فما هي الا أعوام ثلاثة فحسب ، حتى كانت جذوة الغضب الكامنة قد اتـّقدت في بطء ، واحتدمت مستعرة ترمي بشرر كالقصر ...

وهبت الكوفة بأسرها تصيح : « يا لثارات الحسين » (١)

وشهد عام ٦٦ هـ ، مذبحة أخرى بالعراق ، ثأرا لمذبحة كربلاء ! (٢)

قتل من الذين شاركوا في قتل « الحسين » مائتان وثمانية وأربعون في موقف واحد ! (٣)

وطورد الهاربون في اصرار والحاح ، فاذا جيء بهم سئلوا : « أين الحسين بن علي ؟ قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه ؟! »

ثم اختيرت لكل منهم قتلة تناسب دوره في مصرع الشهيد :

فهذا يحرق بالنار ..

وذاك تقطع أطرافه ويترك ينزف دمه ، حتى يموت ..

وثالث يذبح ذبح النعاج ..

ورابع كان يقول : « لقد رميت فتى من آل الحسين بسهم ، فوضع كفـّه على كتفه يتقي النبل فاخترق النبل كفه » ..

قالوا : فاثبتت كفـّه في جبهته وضربت بالنبال ..

وكان « عبدالله بن زياد » فيمن قتِل يومذاك ..

وكذلك « عمر بن سعد بن أبي وقاص » وابنه حفص ..

وهرب « الأشعث بن قيس » فهدمت داره وبنيت بأنقاضها دار « حجر بن عدي الكندي » وكان « زياد بن سمية » قد هدمها !

حتى أفنوهم جميعا ..

وبعثت الرؤوس ــ في هذه المرة ــ الى « المدينة » ، لا الى « دمشق » (٤)

---

(١) الطبري ٢٥٩/٦ وابن الاثير ٣٢/٤

(٢) الطبري ٢٧/٧ وابن الاثير ٦٢/٤

(٣) الطبري ١٢١/٧ وما بعدها

(٤) ذكر « الاستاذ عمر ابو النصر » في كتابه «آل محمد في كربلاء ــ ص ١٠٤ » ان الرؤوس بعثت الى

لكن القصة لم تنته بأخذ الثأر ..

بل كان هناك بقية من فصول ذات عدد ...

كان منها ثورة « عبد الله بن الزبير » بالحجاز ، وخروج أخيه «مصعب» بالعـراق ..

ثم سقوط الدولة الأموية فيما بعد ، وقيام الدولة العباسية على دعوة ظنت الشيعة أنها للعلويين ، ثم ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب ، وما صاحب هذا كله ، وما أعقبه ، من معـارك وأحداث ، كتبت تاريخنا السياسي والمذهبي كله منذ مقتل « الحسين » :

ميت تبكـي لـه فاطمـة
وأبوهـا ، وعليٌّ ذو العـلا

لـو رسول الله يحيـا بعـده
قعـد اليـوم عليـه للعـزا

حملوا رأسـا يصلون عـلى
جـده الأكـرم ، طوعـا اِبا

يـا رسول الله لـو عـاينتهم
وهـمُ مـا بـين قتـلى وسبا

لـرأت عينـك منهم منظـرا
للحشـا شجـوا وللعين قـذى

ليس هـذا لرسول الله يـا
أمـة الطغيان والبغـي جـزا

جـزروا جـزر الأضاحي نسلـه
ثم ساقوا أهلـه سَوقَ الاِمـا

هاتفـات بـرسول الله في
بهَـرِ السـير وعثْـرات الخُـطا (١)

« علي بن الحسين » والذي في الخبر ، انها بعثت الى « محمد بن الحنفية » ـ تاريخ الطبري ١٢٧/٧ ، وابن الاثير ٦٤/٤ ـ والمسألة غاية في الدقة والخطر

(١) من قصيدة للشريف الرضي : انظرها في « مقتل الحسين » ص ٣٣٤

الصّدى الباقي

بدت « السيدة زينب » لأهل « الكوفة » غداة مصرع أخيها الامام ـ رضي الله عنه ـ صورة مثيرة لما اقترفوا في حق الشهداء من آل البيت ...

وتكلمت ، فهاجت فيهم شعورا لاذعا ممضا بالحسرة والخزي والندم ..

وبقي صدى صوتها يدوي في آذانهم ويملأ الفضاء من حولهم ، مذكرا اياهم بخطيئتهم الشنعاء !

ثم غادرتهم ...

وظل هذا الصدى باقيا لم يتبدد مع الأحداث التي اعقبت المذبحة وثأرت لقتلاها ..

لقد كان نصيب أهل الكوفة ـ شيعة الحسين وحزبه وأنصاره ـ من اثم كربلاء ، أبشع وأشنع من نصيب الآلاف الأربعة ، الذين تكاثروا على الشهداء السبعين !

هؤلاء دعوا امامهم ، وأخرجوه من حماه ، ثم أسلموه للأسنة والحراب وهم يتفرجون !

وأولئك خرجوا في جيش الدولة ، يقاتلون بأمر أمير المؤمنين ..

ولقد قتل أعداء الحسين ، وقتلته .. وبقي الأصدقاء الغادرون .

وكانوا بحيث يستأنفون العيش بعد فعلتهم سادرين لاهين ، غير شاعرين بفداحة خطيئتهم وبشاعة اثمهم ..

وهل ندموا قبلها على ما اقترفوا في حق « الامام علي » وولده « الحسن » من بعده ؟ .. كلا .. !

مضى « علي » ومضى « الحسن » .

وكادت فعلتهم « بالحسين » تمضي دون أن يبقى منها سوى بضعة أسطر في كتب التاريخ ، وبضع قصص في أحاديث السمار ...

لكن « السيدة زينب » وقفت على جثث الشهداء ، تصيح بأهل الكوفة

الذين بكوا عندما رأوا موكب الأسرى والسبايا من بنات الرسول :
« أتبكون ؟ فلا سكنت العبرة ! » .
واستجابت السماء ، فلم تسكن للقوم عبرة !
وقد بدأوا يحسون وخز النـدم منذ اللحظة الأولى التي وقفت فيها « بطلة كربلاء » موقفها الأليم الصارم
قال الطبري وابن الأثير « ... ومكثوا بعدها شهرين أو ثلاثة ، كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع .. »
وقالا : « لما قتل الحسين بن علي ، ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ، ودخل الكوفة – ليستقبل موكب رؤوس القتلى ، والسبايا من بنات الرسول – تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها قد اخطأت خطأ كبير بدعائها الحسين الى النصرة ، وتركه يقتل الى جانبهم لم ينصروه ».
ورددت حوائط الكوفة صدى من صوت « السيدة زينب » :
« ... أي والله ! فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل أبدا . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ... وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ » !
فأمنوا جميعا ! وتكلموا ، فكأنما كانوا ينزعون عن لسان « زينب » !
قال قائلهم :
« دعونا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم وآله ، وقد قتل فينا ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ؟ .. لا والله لا عـذر دون أن تقتلوا قاتلـه والموالين عليه ، أو تُقتَلوا في طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا ، وما أنا بعد لقائه ، لعقوبته بآمن » .
وعقب آخر :
« ... انا كنا نمد أعناقنا الى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وتربصنا وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ، ولدينا ، ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا الى الحلائل والأبناء حتى

يرضى الله ، ووالله ما أظنه راضيا دون ان تناجزوا من قتله أو تبيدوا !
« فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم .. » (١)
أي وربي ! .. لكأنما كانوا ينزعون عن لسان « زينب » .

وما زال أهل الكوفة منذ سنة ٦١ هـ ــ وهي السنة التي قتل فيها الحسين ــ يتلاومون ويتداعون ويجمعون آلة الحرب ، حتى تجمع جيش عرف في التاريخ بجيش « التوابين » الذين تنادوا : يا لثارات الحسين ..

ولم يكتموا أمرهم هذه المرة ، ولا عمدوا الى الخفاء ، بل قال المؤرخون : « خرج التوابون يشترون السلاح ظاهرين ويتجهزون ويتنادون من كل جانب : انا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، انما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله ، نبينا صلى الله عليه وسلم وآله . »

وما دخلت سنة ٦٥ هـ ، حتى كانت صيحتهم « يا لثارات الحسين » تزلزل الأرض تحت بني أمية ، وحتى كانت الكوفة تشهدهم في سلاحهم ينطلقون ساعين نحو قبر « الحسين » وهم يتلون الآية : « فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » (٢)

فلما بلغوا القبر ، صاحوا صيحة واحدة ، فما رئي أكثر باكين من ذلك اليوم . وأقاموا عنده يوما وليلة يبكون ويتضرعون قائلين :

« اللهم انا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم ، وأولياء محبيهم ..

« اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم وآله ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وغادروا القبر وقد ازدادوا ندما وحماسة، فاندفعوا كالموج مستبسلين، يلقون الألوف المؤلفة من جند بني أمية ، وأقصى أمانيهم أن يقتلوا في

(١) تاريخ الطبري : ٤٨/٧ والكامل لابن الاثير ٦٣/٤
(٢) انظر حركة التوابين في تاريخ الطبري : السابع • والآية من سورة البقرة : ٥٤

ثأر « الحسين » لعل ذلك يخفف عنهم وقر الندم . ولقد كانوا يومئذ يعطون الأمان فيأبون صائحين :

« قد كنا آمنين في الدنيا ، وانما خرجنا نطلب أمان الآخرة » ... وباعوا الحياة راضين ، واستبسلوا في قتال الدولة الأموية ، حتى أبيدوا جميعا ، فذلك قول أعشى همدان يرثي كل تائب منهم : (١)

تخلى عن الدنيا وقال : طرحتها
فلست اليها ما حييت بآيب
وما أنا فيما يكره الناس فقده
ويسعى له الساعون فيها براغب
فساروا وهم ما بين ملتمس التقى
وآخر مما جر بالأمس تائب
فجاءهم جمع من الشام بعده
جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم
فلم ينج منهم ثَم غيرُ عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا
تعاورهم ريح الصبا والجنائب
أبوا غير ضرب يفلق الهام وقعه
وطعن بأطراف الأسنة صائب
فيا خير جيش بالعراق وأهله
سقيتم روايا كل أسحم ساكب

مضى التوابون ، وابقوا الندم والتوبة ميراثا رهيبا لأبنائهم من بعدهم والأحفاد ..

وكانت « السيدة زينب » هي التي جعلت من مصرع « الحسين » مأساة خالدة ، لا نعرف ما هو أبعد أثرا في تطور العقيدة عند الشيعة .

(١) الابيات من قصيدة مطولة لاعشى همدان ، وهي من القصائد المكتمات ، أنظرها في تاريخ الطبري ٨٢/٧ وابن الاثير ٧٣/٤

وكانت هي التي صيرت من ليلة العاشر من المحرم ، مأتما سنويـــا للأحزان والآلام ، يحج فيه أحفاد « التوابين » الى المشهد المقـدس في « كربلاء » حيث يعيدون تمثيل المأساة ، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدي ، تكفيرا عن خطيئة الأجداد !

وكانت هي التي سلطت عليهم ــ من أنفسهم ــ نكالا أليما لا ينتهي بالموت ، وانما هي نار «الندم» الجامعة ، يصلاها منهم الجيل بعد الجيل..
وأن السنين لتمضي والقرون ، وهم مصرون على أن تبقى تلك الجذوة متقدة أبدا ، لا تخبو ولا تخمد ، كأنما يجدون في هذا العذاب كفـارة وتوبة وراحة للنفس اللوامة .. !

أجل ، ان السنين لتمضي والقرون ، وأهل العراق مقيمون على الحزن يستمرئون طعمه ، ويستعذبون مذاقه ، ويرهقون أنفسهم بالاصرار على احياء ذكرى خطيئة الذين ذهبوا باثم الامام الشهيد .

وما أحسب ان التاريخ قد عرف حزنا كهذا ، طال مداه حتى استغرق بضعة عشر قرنا دون أن يفتر، فمراثي شهداء كربلاء هيالأناشيد التي يترنم بها الشيعة العراقيون في عيد حزنهم يوم عاشوراء من كل عام ، اذ يتمثلون المأساة حية على مسرح كربلاء ، ويتحدون الزمن أن يغيبها في متاهة النسيان :

أأنســـاكم حـَرّى القلوب من الظمـا
تُذادون ذود الخمس عن سائغ الشرب ؟
أأنسى بـأطراف الرمـــاح رؤوسكم
تطلّع كالأقمـــار في الأنجـم الشهب ؟
أأنسى طراد الخيـــل فوق جسومـــكم
وما وطئت من موضع الطعن والضرب ؟
أأنسى دمـــاء قد سُفـــكن وأدمعـــا
سكِبن ، وأحرارا هُتـِكن من الحجْب ؟

أأنسى بيوتا قد نُهبْنَ ونسوة
سُلِبن ، وأكبادا أذبْن من الرعب ؟
أأنسى اقْتحام الظالمين بيُوتكُم
تروِّع آل الله بالضرب والنهب ؟
أأنسى لكُم في عرصة الطف موقفا
على الهضْب كنتم فيه أرسى من الهضْب ؟
تشاطرتم فِيه رجالا ونسوةً
ـ على قلة الأنصار ـ فادحة الخطب
فأنتم به : للقتل والنَّبْل والقنا
ونسوتكم : للأسر ، والسبي ، والسلب
وثاكِلة حنَّت فما العِيسُ في الفلا
وناحت فما الورقاء في الغصن الرطب
وتندب عن شجو فتعطي بندبها
لكل حشى ما في حشاها من الندب
وتنعي فتشجي الصمَّ « زينب » اذ نعت
وتصدع شكواها الرواسي من الهضب
تثير على وجه الثرى من حُماتها
ليوث وغى ، لكن موسَّدة الترب
تطارحهم بالعتب شجوا وانها
لتعلم بُعد القوم عن خطة العتب
حموا خِدرها حتى استبيحت دماؤهم
وطُلت وما طالت اليها يد النهب
ومن دونها أجسامهم ورؤوسهم
غدت نهب أطراف الأسنَّة والقُضب
فكم غرة فوق الرماح ، وحرة
لآل رسول الله سيقت على النجب

وكـم من يتيـــم موثـــق ليتيمـــة

ومسبية بالحبل شُدت الى مسبي ! (١)

وشاعرهم المفضل هو الذي يهيج لواعج شجنهم ويغذي النار المتقدة في أعماقهم بوقود جديد :

أناعي قتلى «الطف» لا زلت ناعيـا تهيج على طول الليالي البواكيـا

أعد ذكرهم في «كربلا» ان ذكرهم طوى جزعا ، طي السجل ، فؤاديا

ودع مقتلي تحمر بعد ابيضاضها بِعَدٍّ رزايا تترك الدمع داميا (٢)

وشاعرهم المختار ، هو الذي يعيد على أسماعهم ـ في اثارة عنيفة ـ قصة تلك الفئة القليلة المؤمنة التي آثرت الموت على التخلي عما تراه حقا :

فثوت بأفئدة صــواد لم تجـــد ريا يبل ســوى الردى أحشاءها

وأغنيتهم الأثيرة هي مناجاة الشهداء ، والبكاء على يتاماهم الصغار :

كم لكم من صــبية ما أبــدلت ثَم مــن حاضـــنة الا رمـــالا!

سل بحجر الحرب مــاذا رضعت ؟ فثُدِيُّ الحـــرب قد كــن نصالا

أجل هي «زينب» التي جعلت من مصرع أخيها الشهيد مأساة خالدة، وصيرت من يوم مقتله مأتما سنويا للأحزان والآلام ..

وكذلك كانت « زينب عقيلة بني هاشم » في تاريخ الاسلام وتاريخ الانسانية :

بطلة استطاعت أن تثأر لأخيها الشهيد العظيم، وأن تسلط معاول الهدم على دولة بني أمية ، وأن تغير مجرى التاريخ !

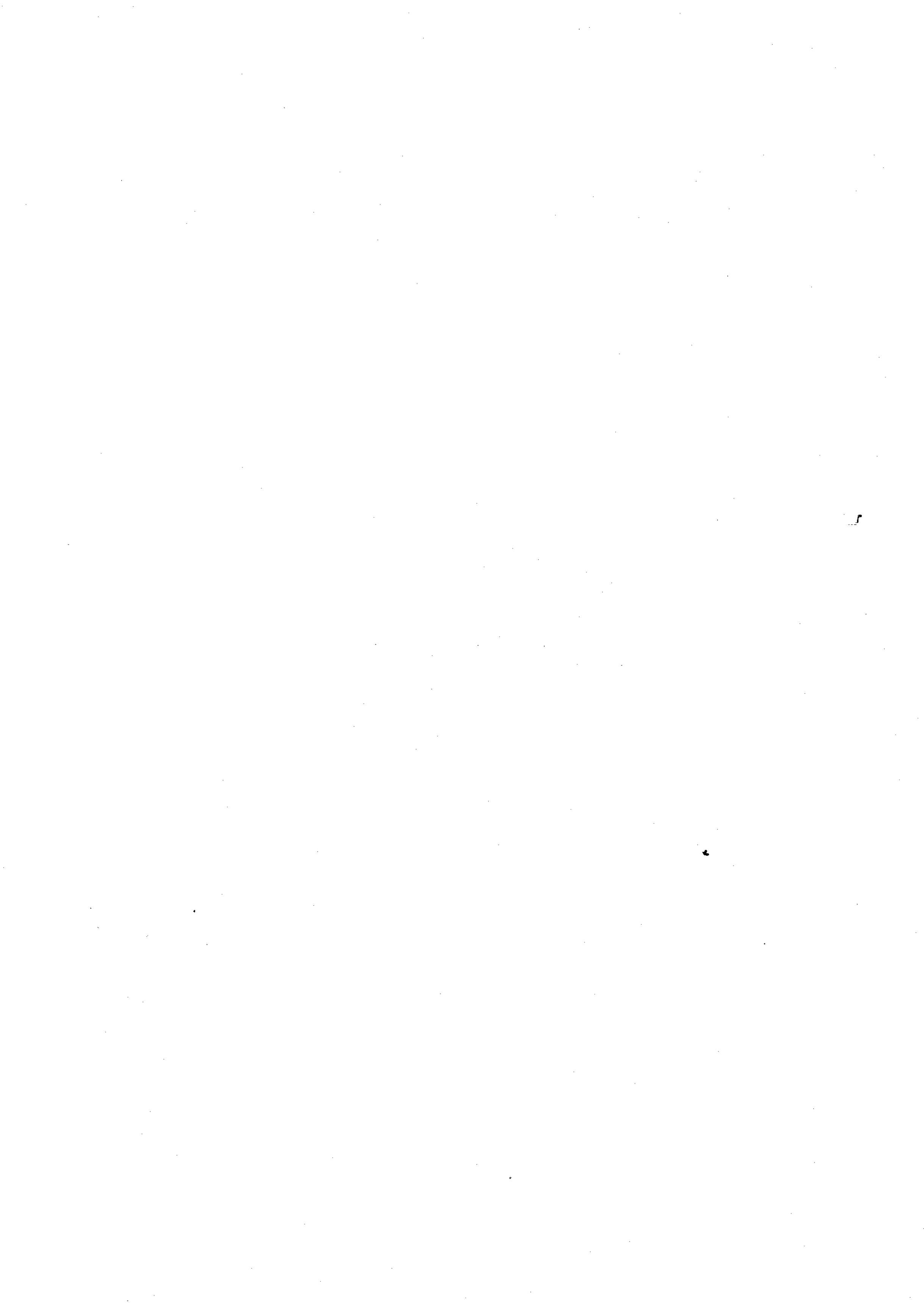
---

(١) من مرثية للشيخ السيد محمد حسين كاشف الغطاء ـ انظرها مع بقية مراثيه ، في « مقتل الحسين : ٤٥٥ »

(٢) في كتاب « مقتل الحسين » مجموعة من مراثيهم ، فمن شاء فليرجع اليها ص ٤٥٦ وما بعدها

الكتابُ الخامِسُ






سكينة
بنت الحسين



مقدّمة
بقلم
الأستاذ أمين الخولي

ينظر القارئ فيما كتب مؤرخو التاريخ الاسلامي ، كالطبري ، والمسعودي ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وغيرهم ، فتلفته ظاهرتان تسترعيان الانتباه ، وهما :

أولا : ان ما كتبه أولئك المؤرخون كانت توجهه الاعتبارات السياسية ، فهم انما يؤرخون في الحياة الاسلامية للخلفاء ، والولاة ، والحكام ، والقادة ، والفتوح ، والمعارك ، وما الى ذلك من أخبار الساسة المدبرين للشئون العامة ، متجاهلين في نفس الوقت حياة الشعوب الاجتماعية .

فكان التاريخ عندهم هو تاريخ حكام الشعوب ، لا تاريخ الشعوب نفسها ، ومن ثم لم نظفر الا بالنزر اليسير من تاريخ النشاط الحيوي لهذه المجتمعات في غير المجال السياسي والحكومي ، بل لم يقع ذلك الا عرضا في أخبار الحكام والمسيطرين ، أو حواشيهم ومن يرد ذكرهم من الطبقة التي حولهم .

فاذا أردنا أن نلتمس شيئا من أخبار النشاط الحيوي ، فيما عدا المجال السياسي الذي أشرنا اليه ، فليس أمامنا الا أن نلتمسها منثورة مبددة هنا وهناك في مثل كتب الطبقات التي وضعها أولئك الأقدمون للفئات المختلفة ، من محدثين ، ومفسرين ، وفقهاء ، ونحاة ، وأطباء ... وغيرهم ، مما نستطيع بعد الجهد الجهيد أن نستخرج منها ما يؤرخ النشاط الاسلامي في صورته الاجتماعية ، ومجالاته المختلفة ، ومع ذلك لن نظفر من ذلك بالبين الوافي ... لأسباب أخرى لا محل هنا للتعرض لها ..

ثانيا : يلاحظ على هذه الكتب التاريخية القديمة انها ـ بصفة عامة ـ تحوي من تاريخ الحياة الاسلامية أخبارا مجردة ، وحوادث مسرودة ، كان

أولئك المؤرخون ــ أول العهد ــ يصدرونها بسلسلة من أسماء الرواة ، يعدونها أسانيد لما يليها من متون تلك الأخبار والأحداث ..

على ان هؤلاء المؤرخين لم يلبثوا أن جردوا مروياتهم من الأسانيد أو سردوها بدونها ، مرسلة ..

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل هذا السرد القديم هو التاريخ ؟ .. وهل يعطي لقب المؤرخ ــ اليوم ــ من يجمع مثل هذه الأخبار فيقصها أو يسردها بسند أو بغير سند ؟ ..

لعل هذين السؤالين يبدوان غريبين على من لم يلفته ما صار اليه الأمر اليوم من مستوى عال للثقافة الانسانية . وان هذا المستوى قد جاوز الدور الذي كان فيه التاريخ قصا ، وسردا ..

ان التاريخ ــ اليوم ــ هو وصف لسير الحياة بالناس ، يبين السنن الاجتماعية في حياتهم ، والنواميس التي تحكم وجود مجتمعاتهم وأفرادهم في هذه الجماعات ، وأصناف نشاطهم فيها .

والتاريخ ــ اليوم ــ درس دقيق ينفذ الى ما وراء الأحداث المسرودة ، وما خلف الأخبار المروية ، ليستشف العوامل التي تسيرها والمؤثرات التي تتحكم فيها .

والتاريخ لذلك لا يتلقى الأخبار في استسلام ، ولا يتقبل المرويات في تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره ، وينقده .

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، ليرد المسبب الى سببه ، ويتبين المقدمة التي أدت الى النتيجة ، ويهتدي في ذلك بما عرف البحث الأصيل من حال الاجتماع البشري ، والسنن المقررة لحياة المجتمعات الانسانية .

واذا كان هذا هو شأن التاريخ اليوم ، فان القارىء يدرك اذن في وضوح ، ان الأخبار التي حفظتها تلك المؤلفات أو الموسوعات الأولى ، ليست هي التاريخ ، وانما هي مادة التاريخ . وخامات دراساته التي أشرنا الى وصفها اجمالا .

وتاريخ الحياة الاسلامية يحتاج منا الى هذا العمل الجليل والنشاط الفسيح ، ولعل أجيالا منا تتمه على وجهه الصحيح .

* * *

وهذا الكتاب حلقة من سلسلة عن شخصيات نسوية في حياة محمد عليه الصلاة والسلام ، تكتبها سيدة، ولهذه السلسلة صلة وأثر في تاريخ الحياة الاسلامية من نواح متعددة على ما أرجو وآمل .

لها هذا الأثر بموضوعها المختار ، وبالمؤلفة صاحبة الاختيار ، ولها هذا الأثر بمنهجها الذي تسلكه في اخراجها ، ولها هذا الأثر على حياة التاريخ بأسلوب أدائها (١) .

* * *

والى القارىء كلمات قصار ، في بيان هذه الآثار على تاريخ الحياة الاسلامية . فأما موضوع السلسلة التي منها هذا الكتاب فهو حياة سيدات في تاريخنا ، يجلن في غير المجال السياسي الذي عني الأولون بأخبار حركاته الظاهرة دون المؤثرات المستترة ، مهما تكن قوية .

والمرأة كما نعرف من أقوى تلك المؤثرات أو أقواها ، فهي ـ كما قيل ـ تهز المهد بيمينها وتهز العالم بيسارها ، وهي التي قيل عنها : « فتش عن المرأة » وما هذا التعرض للشخصيات النسوية الا التفتيش عنها باعتبارها عاملا فعالا في سير الحياة ، وفهم الأحداث وتصور شخصيات الرجال .

واذا اختارت احداهن هذا الموضوع النسوي فالمرجو أن تستشف من أسرار أرواحهن ما لا يستشف غيرها ... فالأنثى أفهم للأنثى .

هذه ناحية التأثير بالموضوع المختار ، ومن اختارته .. وهو تأثير كبير على فهم مجرى الحوادث ، وشخصيات أبطالها .

وأما أثرها بالمنهج الذي تتبعه ، ففيما يجب من نقد المرويات المتفرقة

---

(١) صدر عن هذه السلسلة ، كتب : أم النبي ، ونساء النبي ، وبنات النبي وبطلة كربلاء ، نشرتها دار الهلال ـ والتي جمعت كلها في هذه الموسوعة ـ وترجم اكثرها الى اللغات الفارسية ، والاردية ، والاندونيسية .

عن هذه الشخصيات نقدا يكشف عن صحتها والاستنتاج منها ، أو يبين انها أسطوريات لها دلالتها الاجتماعية على أنفس مخترعيها ـ وهو النقد الذي يتقدم الدرس التاريخي ..

وأما أثرها بأسلوب الأداء في اخراجها ، فلأنها تختار أسلوب العرض الأدبي ، المتحرر من جفاف الأداء المنطقي ، المسامت لآفاق العرض في القضية التاريخية . وفي هذا اللون من العرض يكمل الكاتب الحادث التاريخي بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ، ومألوف النفس الانسانية ، وسنة الاجتماع البشري . ولا يكون ذلك الا بعد تمثل تام للبيئة ، والمعيشة مع أشخاص الحادث ، والتمرس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها، والبصر بنظام المجتمع الانساني الذي ينتظمهم .

وفي كل أولئك فرص للتحليل ، الذي يسعف على تعليل الحوادث والانطلاق الى نتائجها وأهدافها .

وهو ما نرجو أن يكون في هذا الكتاب ، وسائر حلقات السلسلة شيء منه ، فتكون خطوة أو خطوات في ميدان الدرس التاريخي المحدث الذي يحتاج اليه تاريخ الحياة الاسلامية ، ولما يتم منه شيء كثير .

* * *

وبعد ..

فان صاحبة هذا الكتاب ، ربيبة مدرسة أدبية أنا أنتمي اليها . ثم هي ربة بيت أنا آوي اليه .. وفي بعض هذا ما يؤثر على التقدير ، ويهز سلامة الحكم .. ومن أجل ذلك أستغفر الحق والانصاف ، بين يدي القارىء الكريم ، من شيء يكون قد غلب فيه القلم على أمره ... وقد بلغت اذ نبهته الى منشئه .

الفصل الأول

في بيت النبوة

- وافد غريب
- اللقاء الأول
- في بدء الطريق
- طفولة مرحة
- في دوامة الأحداث
- مذبحة كربلاء
- بعد العاصفة



وَافِدٌ غَرِيبٌ

أخذ أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » مكانه في المجلس ، والى جانبه صهر الرسول وابن عمه « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه ، وولداه الحسن والحسين ، ابنا الزهراء وسبطا الرســول صلى الله عليه وسلم . ومن حولهم جلس نفر من أئمة الصحابة وأعلام المسلمين ، يتحدثون فيما أفاء الله على الاسلام من نصر ، وما أدال لهم من سلطان . وبينا هم في ذلك المجلس ، استأذن وافد غريب فأذن له أمير المؤمنين ، ومـا في المجلس يومئذ من كان قد رآه من قبل رأي العين. على انه ما كاد يظهر بالباب ، حتى تعلقت به الأبصار ، وهو يتخطى رقاب الناس الى الخليفة ، ليقدم اليه التحية .

وأمسك القوم عن الحديث ، وبودهم لو يعرفون من يكون هذا الرجل الذي تبدو عليه سمات الشرف والسؤدد ، وقد تولى عنهم الخليفة هذا الأمر فسأل زائره : من يكون ؟ ..

فأجاب الوافد في تؤدة ورزانة :

ـ امرؤ القيس بن عدي بن أوس .

وحينذاك عرف القوم فيه سيد بني كلب، وكان لا يزال على نصرانيته. فقال قائل منهم :

ـ يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بكر بن وائل الذي أغار عليهم في الجاهلية يوم فلج .

وتحدث « عمر » الى ضيفه مليا ، وملء خاطره سؤال واحد : أيكرمه الله بأن يدخل « امرؤ القيس بن عدي » الاسلام على يديه ؟ ..

وأسلم سيد بني كلب .

واذ ذاك لم يتردد أمير المؤمنين في أن يعقد له اللواء على من أسلم من قضاعة الشام (١) .

ودعا « عمر » برمح ، وقلده اياه ..

هكذا في أول لقاء ، وليس للرجل سابقة في الاسلام !

أو كما قال « عوف بن خارجة المري » ـ وكان يومئـذ بالمجلس : « فوالله ما رأيت رجلا لم يصلِّ لله ركعة قط ، أُمِّر على جماعة من المسلمين قبل امرىء القيس ! » (٢)

أجل ، ولكنه عمر الفاروق ، ذو البصر بالرجال ..

* * *

ونهض الرجل لينصرف ، فحيا الخليفة بتحية الاسلام ، وأخذ طريقه واللواء يهتز فوق رأسه ، والأنظار تتبعه حتى جاوز مجلس أمير المؤمنين منصرفا ..

❁

---

(١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ـ ٤٢٧ ط الذخائر .

(٢) الاغاني : ١٤/١٥٧ ساسي .

اللقاءُ الأوّل

ثم ما راع القوم الا أن رأوا « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه ، يستأذن هو الآخر ، ثم يسرع وولداه معه ، في أثر الوافد الذي خرج وشيكا يحمل لواء بني قضاعة بالشام !

وحث « علي » خطاه حتى أدرك امرأ القيس ، فاستوقفه محييا ، ثم تقدم اليه يقول :

ــ أنا علي بن أبي طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصهره ، وهذان ــ وأشار الى الحسن والحسين ــ ابناي من بنته الزهراء.

فأقبل امرؤ القيس عليهم بكل وجهه ، وراح يملأ عينيه من آل النبي الذي لم يكتب له شرف صحبته ونعمة رؤيته ، والذي آمن برسالته منذ لحظات .

واستطرد « علي » رضي الله عنه قائلا :

ــ وقد رغبنا في صهرك فأنكحنا !

فما تلبث امرؤ القيس أن قال :

ــ مرحبا بكم آل بيت النبي : قد أنكحتك يا علي ، ابنتي « المحياة » (١) .

ثم أقبل على سبطي الرسول وهو يضيف :

ــ وأنكحتك يا حسن ، « سلمى بنت امرىء القيس » ، وأنكحتك يا حسين « الرباب بنت امرىء القيس » .

وانصرف بعد حين الى الشام ، وترك من ورائه دويا !

فلا حديث للناس يومئذ الا عن هذا الرجل الذي لقي أمير المؤمنين عمر لأول مرة ــ وهو ما يعرفه ــ فخرج من حضرته بلواء من أسلم من

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ٥/٩٠ ط مصر .

بني قضاعة بالشام ، هو الذي لم يكن قد صلى لله ركعة قط ، كما قال « عوف المري » !

ولقي صهر الرسول وابن عمه ، فخرج من أول مقابلة لهما ، وقد أخطبه احدى بناته الثلاث ، وظفر بالحسن والحسين ــ سبطي الرسول وزين شباب بني هاشم ــ خطيبين لبنتيه الأخريين : سلمى والرباب (١)

* * *

كان « الحسين » يوم خطبت له « الرباب » في ريق شبابه ، يستقبل ربيعه الثامن عشر ، ملء العيون والقلوب فتوة ومهابة وجلالا ، يرى فيه المسلمون صورة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام ، ويجدون فيه نفحة عطرة من أثره ، وشعاعا بهيا من سناه ، حتى لقد بلغ من اعجابهم به ان ذاعت فيهم ذائعة تقول : انه معوذ بتعويذتين ، حشوهما زغب جناح جبريل !

أما « الرباب » فكانت ما تزال صبية غضة الصبا طرية العود ، مليحة وضيئة، ذكية الملامح، مرهفة الحس، بادية الاعتزاز بشخصيتها وأبيها . وقد أرضاها بلا ريب ، أن يتصل سببها بنبي العرب ، وأن تدخل أشرف بيت في قريش ، زوجة للحسين غذيِّ النبوة .

لكن صغر سنها حال دون التعجيل بالزواج ، فبقيت في بيت أبيها تتهيأ لدخول دنياها الجديدة ، وتستعد لتملأ ذلك المكان الرفيع الذي حباها به القدر ..

---

(١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ــ ص ٤٢٧ ذخائر .

في بَدءِ الطّريق

جدّت أحداث عقب ذلك أجلت زواج علي وابنيه من بنات امرىء القيس بضع سنين .

أحداث جسام ، شغل بها البيت النبوي ، كما شغل بها العالم الاسلامي الذي اتسع بالفتوح التاريخية الكبرى ، فبسط لواء الاسلام على ممالك الفرس والروم ، وورث عروش الأكاسرة والقياصرة والفراعين .

فمنذ طعن أمير المؤمنين عمر بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي ، لأربع ليال بقين من ذي الحجة عام ٢٣ هـ ، وتيارات المأساة ـ التي سوف تتمخض عنها الأحداث ـ تتدافع من هنا ومن هناك ، ماضية في بطء ولكن في عنف وشراسة ، الى مركز التجمع ومسرح المأساة .

منذ قتل عمر ، وصرفت الخلافة ـ لثالث مرة ـ عن علي بن أبي طالب، وسحب الفتنة الغاشمة تلوح على الأفق ، منذرة بالعاصفة .

فما رضي بنو هاشم قط ، أن تغدو الخلافة مرعى خصبا مستباحا لعصبة بني أمية بن عبد شمس ، وأن يلمحوا أيديهم ـ في خلافة عثمان رضه ـ وهي تتصيد أزِمّة الأمر العظيم ، في مهارة وتصميم ، وتلوي بها الى قبضة زعيمهم معاوية ، ابن آكلة الأكباد .

ولا رضي الصحابة قط ، أن يتحكم فيهم ولاة انحرفوا عن مبادىء الاسلام وسيرة الرسول ، وأقبلوا يستكثرون من الأموال ويعيشون عيشة البذخ والترف ، وقد تجسمت أطماعهم واستشرت ذاتيتهم وهم بمأمن من غضب الخليفة ، بل في طمأنينة الى لينه وتسامحه .

ولا هان على وجوه المسلمين ، أن تقوم فيهم ارستقراطية مشتطة ، باذخة مغرقة ، أو كما قال « مالك الأشتر » لسعيد بن العاص الأموي ، والي الكوفة لعثمان :

« أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا ، بستانا لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا الا أن يكون كأحدنا » (١)

وكان « عثمان » قد ولي سعيد بن العاص الكوفة ، بعد أن عزل « الوليد بن عقبة » فحزن الناس .. وتفجع عليه الأحرار والمماليك ، وسُمعت الولائد يقلن ، وعليهن الحداد :

يا ويلتا قد عزل الوليد   وجاءنا مجوِّعا سعيد (٢)

* * *

وطالت المغالبة ...

وخرج « الحسين وأخوه الحسن » ، في الجيش الزاحف الى افريقية ، بقيادة « عبد الله بن سعد بن أبي سرح » عام ٢٧ هـ ، في عشرة آلاف من قريش والأنصار والمهاجرين .

وأقام هنالك في غزوته ، عاما وبعض عام ، ثم عاد الى المدينة منصورا ، فاحتفل البيت الهاشمي بزواجه من « الرباب بنت امرىء القيس » احتفالا بسيطا متواضعا ، وما تزال السحب المتراكمة على الأفق ، وما يزال بنو أمية هناك في الشام ، وفي غيرها من الأمصار ، يعدون للغد عدته ..

وأثمر الزواج ثمرته المباركة ، فوضعت « الرباب » ولدها عبد الله ابن الحسين (٣) .

وشغلت الأم بحضانة وليدها ...

على حين عاد تيار الأحداث فجذب أبا عبد الله الى صميم المعترك ...

وكانت المدينة اذ ذاك قد ازدحمت بوفود الأنصار من شتى الأقاليم ، جاءوا يشكون انحراف الولاة واثرتهم وبغيهم ، والخليفة مغض ، والمغالبة بين الأحزاب تأخذ شكلا رهيبا وقويا شرسا ، والمرجل يهدر ويغلي ويلتمس الانفجار .

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/٥٠ ، ٨٨ وانظر معه حديث أبي ذر الغفاري في الشام : ٥/٦٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٥/٦٢ . والاستيعاب في معرفة الاصحاب ٦٢٣/٢ ط نهضة مصر .

(٣) المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري : نسب قريش .

وقتل أمير المؤمنين ، ذو النورين « عثمان » بسيوف الثائرين ، عصر يوم جمعة ، من الثامن عشر من ذي الحجة عام ٣٥ هـ (١)

وشبت الفتنة عاصفة هوجاء ...

وبويع أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » ليمضي خمس سنين ، في معارك متصلة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، فما يكاد رضي الله عنه يفرغ من إحداها ، الا ليخوض غمار فتنة أخرى على كره منه.

الى أن غص بمرارة النصر كما لم يغص سواه بمرارة الهزيمة . وكان « الحسن والحسين » أبدا الى جانبه ، يجرعان وإياه غصص النصر في حرب الفتنة العشواء التي راحت تمزق المسلمين بددا ، وتشيطر هم طرائق قددا .

والأمويون يزدادون على الهزيمة ، اصرارا على أن يثأروا من بني هاشم ، ذلك الثأر الذي ظلوا يتوارثونه أبا عن جد ، منذ انعقدت زعامة قريش في الجاهلية لبني هاشم دون بني عبد شمس ، وتأيدت باصطفاء نبي الاسلام منهم ، فمتى يبلغون مثلها كما قال قائلهم ؟

ــ الا تكن نبوة ، فخلافة !

وقد عاش « أبو سفيان » حربا على النبي الهاشمي ، فلم يُسلم الا مكرَها يوم فتح مكة ، بعد معارك طاحنة امتدت ثماني سنين وصالا .

وبقي ما عاش يرنو الى الأمر من بعيد ، بعد أن رأى انصراف الخلافة عن بيت النبي وبني هاشم ، ورأى الولاة من بني أمية يغلبون على الأمصار ، حتى لقد وقف يوما على قبر الشهيد « حمزة » صريع وحشي عبد هند ، فقال :

ــ رحمك الله أبا عمارة ، لقد قاتلتنا على أمر صار الينا .

ومات « أبو سفيان » وترك لابنه ذلك العهد البغيض .

وهذا هو « معاوية » يمضي في سبيل انفاذه ، وما يرتاب انه صائر اليه حتما ، مهما يطل الطريق وتلتو السبل .

---

(١) تاريخ الطبري : ١٤٥/٥ .

وكان الطريق يبدو طويلا ، وكأن لا نهاية له ..

فما كان لمعاوية أن يطمح في هزيمة خصمه البطل الذي لا يغلب « علي ابن أبي طالب » .

ولا كانت أمانيه لتجرؤ على أن يحلم بانتزاع الأمر ، من الامام البطل ، ما دام حيا ! فهل تمهله المنية ، الى ما بعد وفاة أمير المؤمنين علي ؟

أو يسبقه هو الى الرحيل ، ويدع الأمر بينه وبين بني هاشم ميراثا لولده « يزيد » ، كما تلقاه هو ميراثا عن أبيه « أبي سفيان » وأمه « هند بنت عتبة » ؟

وأجابت الأيام عن سؤاله !

لقد تولى « الخوارج » ــ عن غير عمد ــ تمهيد الأمر لمعاوية !

أرادوا أمرا ، وأراد الله غيره فكان ما أراد الله !

كانوا قد بدأوا يتمردون على أمير المؤمنين ، منذ قبل خدعة «التحكيم» وهو الظافر المنتصر .

وأنكر منهم هذا التمرد ، والتقى بهم في معركة النهر التي كلفتهم غاليا ، وجرعته مزيدا من مرارة النصر ..

وتآمروا فيما بينهم ، أن يريحوا المسلمين من ابطال التحكيم الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وعلي ..

قال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ..

وقال ثان منهم : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان

وقال ثالث : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص ..

وتعاهدوا وتواثقوا بالله : لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي توجه اليه ، حتى يقتله أو يموت دونه ..

وضربوا لهم موعدا ، لسبع عشرة ليلة تخلو من رمضان ، عام ٤٠ هـ (١) ..

وأصبح معاوية ، غداة يوم ١٨ رمضان سنة ٤٠ هـ ، والأمر منه قاب

(١) تاريخ الطبري ٦/٨٣ .

قوسين أو أدنى !

لقد بويع « الحسن بن علي » اثر مصرع أبيه ، لكن « معاوية » اعتصم بمعقله في الشام وأخذ البيعة لنفسه .

ولم يطل بهما الخلاف ، فان « الحسن بن علي » لم يلبث ـ في أول سنة ٤١ هـ ـ أن تنازل عن الأمر لمعاوية بشروط خاصة (١) حقنا لدماء المسلمين ، وارتيابا في ولاء العراق ، ولكي يضع حدا لتلك الفتنة التي خضبت ساحة العالم الاسلامي الكبير ، بدماء القتلى والشهداء .

وبايع « الحسين » معاوية ، حتى لا تكون فتنة ..

وأدى فريضة الجهاد ، فاشترك في غزو القسطنطينية عام ٤٩ هـ وأبلى فيها خير بلاء ..

ومن قبل اشترك في فتح افريقية وغزو طبرستان ..

وعاد فلزم « المدينة » ، يجلس في مسجد جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، يروي الحديث ، ويشتغل بأمور الدين « فيتحلق من حوله المسلمون وتهوي اليه أفئدتهم ، ويجدون فيه نفحات من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ويلتمسون لديه الخلاص ساعات من نوازع المادة ، وأسر الشهوات » ..

رآه « عبد الله بن عمر » ذات يوم مقبلا ، فهتف : « هذا أحب أهل الأرض الى أهل السماء اليوم » ..

ومعاوية ـ في دمشق ـ يمد بصره الى هذا المجلس على بعد ما بينهما ، ويحوم بفكره حوله ، حتى ليقول لرجل من حزبه استأذنه في السفر الى الحجاز :

« اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة ، فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين ، مؤتزرا الى انصاف ساقيه » ..

(١) تاريخ الطبري : ٩٣/٦ وانظر نص الصلح وتحليلها في كتاب « صلح الحسن » للسيد الشيخ راضي آل ياسين : ٢٥٢ ط بغداد ١٩٥٣ .

طفولة مرحة

في تلك الأيام ، كانت « آمنة بنت الحسين » (١) تحبو في رحاب البيت النبوي ، طفلة حلوة الملامح ، ذكيــة النظرة ، مرحــة الطبع ، آسرة اللفتات والبسمات ..

ولم يحدد لنا التاريخ عام ولادتها ، بل لا أعرف أحداً من كتاب السيرة الذين نقلوا الينا أخبارها ، قد التفت الى تاريخ مولدها أو أشار اليه . وكنا بحيث نمر بهذا الصمت غير مبالين ، لو أن الأمر ليس بذي أهمية ، لكنا سنرى هذه الطفلة عندما شبت ، تشغل في المجتمع القرشي مكان السيدة الأولى في عصرها ، وسوف تشغل هذا المجتمع ــ ورواة الأخبار على مر العصور ــ بما اشتهرت به من حسن وملاحة ، وبحياتها الزوجية الحافلة . ولن نستطيع أن نتمثل هذه الحياة الخصبة الحـــافلة للحسناء الهاشمية ، اذا لم نعرف تاريخ مولدها ، ان لم يكن على وجه التحديد ، فعلى وجه التقريب المستطاع . وموضوع حاجتنا الى هذا ، ان تاريـــخ المولد ، هو الذي يحدد لنا عمر « بنت الحسين » في مختلف مراحل حياتها التي لم يعرف زمنها حياة أحفل منها ، واذا أمكــن أن نتجاهل مسألة السن في حياة رجل ، فليس من الهين أن نفعل ذلك مع انثى ، وبخاصة اذا كانت هذه الأنثى ، هي « آمنة ، سكينة بنت الحسين » ! ..

وحين نحاول أن نلتمس من أخبارها ، ما يعين على تقـــدير تاريخ مولدها ، نجد ــ أول ما نجد ــ ذلك الخبر الذي يشير الى وفاتها وهي في نحو السبعين من عمرها ..

ولا خلاف بين كتاب السير ، في وفاتها عام ١١٧ هـ . ذكر ذلك « ابن خلكان» في وفيات الأعيان (١/ ٢٩٨) و «الطبري» في تاريخه (سنة ١١٧ هـ)

(١) سميت باسم جدة أمها الزهراء : آمنة بنت وهب ، أم الرسول صلى الله عليه وسلم . وسكينة لقب لها ، وبه اشتهرت . انظر الاغاني ١٤/ ١٥٧ ساسي .

و « الذهبي » في الشذرات (حوادث سنة ١١٧) وذكرته المصادر الشيعية في (مقتل الحسين : ٣٦٨) للسيد عبد الرزاق الموسوي ، ودائرة المعارف الاسلامية (مادة : سكينة) ولا نعلم أنهم اختلفوا في هذا التاريخ .

فالقول بوفاتها وهي في نحو السبعين من عمرها ، يجعل مولدها في حوالي عام ٤٧ هـ ، بعد سبع سنوات من مقتل جدها الامام « علي » كرم الله وجهه ، وانتقال الخلافة الى « معاوية » كبير البيت الأموي .

فاذا أضفنا الى هذا ، ما ذكره رواة سيرتها ، من أن ابن عمها «الحسن» تقدم الى عمه « الامام الحسين » يطلب أن يزوجه احدى ابنتيه : فاطمة أو سكينة فزوجه الامام أولاهما (١) ، كان مقتضى هذا أن « سكينة » أدركت سن الزواج في حياة أبيها رضي الله عنه ، وهو ما يؤيد الاستنتاج الأول الذي يبلغ بسنها أربعة عشر ربيعا ، عندما استشهد أبوها الامام في كربلاء ، في شهر المحرم سنة ٦١ هـ .

فلنا أن نطمئن اذن الى أن ولادتها كانت حوالي سنة ٤٧ هـ. وقد سميت باسم جدتها أم النبي ، ثم لقبتها أمها « الرباب » ، « بسكينة » ، ولعلها لحظت أن نفوس آلها الأكرمين كانت تسكن اليها لفرط مرحها واشراقها.

وقد استقبل البيت الهاشمي قبلها مولد أخيها الشقيق « عبد الله بن الحسين » الذي استشهد مع أبيه رضي الله عنه .

وكانت « سكينة » في طفولتها الحلوة اللاهية ، خلية البال من تلك الهموم الكبار التي كانت تشغل آلها وتلقي على الأفق من حولها ظلالا من الأسى ، منذ رزئوا ورزىء الاسلام بمصرع أمير المؤمنين « الامام علي » ، قبل مولد « سكينة » بنحو سبعة أعوام ، ثم بموت عمها « الامام الحسن » سنة ٥٠ هـ (٢) ، و « سكينة » في نحو الثالثة من عمرها ، فنأى بها صغر

---

(١) المصعب الزبيري : نسب قريش ـ ٥٧ والاغاني : ١٤/١٥٨ ط ساسي .
(٢) تاريخ الطبري : حوادث سنة ٥٠ هـ ونسب قريش : ص ٤٠ وصلح الحسن : ٣٦١

السن عن عمق الاحساس بالفاجعة المزدوجة التي ألمت بالبيت الكريم ..

والاخباريون يروون من أخبار « سكينة » في طفولتـــها المرحة ، ما يؤكد انها كانت مبعث انس لآلها الكرام ، ولأبيها « الحسين » بوجـــه خاص ، يسكن الى مرحها وظرفها في تلك الظروف العصيبة التي كانت تئوده . ويبدو انه عوتب في اهتمامه المفرط « بسكينة » ، واسرافه في الانس اليها والى أمها « الرباب » ، فلم يصغ فيهما الى عتاب ، بل قال :

لعمـــري انـــي لأحب دارا
تضيفها «سكينة» ، و «الرباب»
أحبهمـــا وأبذل بعـــد مالي
وليس للائمي فيهـــا عتـــاب
ولست لهم وان عتبوا مطيعـــا
حياتي ، أو يغيبني التراب (١)

والبيتان الأولان ، رواهما الأصبهاني في « مقاتل الطالبيين ص ٩٠ » ، وجاءا في « الأغاني ١٤/١٥٨ » هكذا :

لعمـــري انـــي لأحـــب دارا
تكون بها «سكينة» و «الرباب»
أحبهما وأبـــذل كل مـــالي
وليس لعاتب عنـــدي عتـــاب

وفي خبر رواه صاحب الأغاني (٢) عن « مالك بن أعين » ، انه سمع « سكينة بنت الحسين » ، رضي الله عنهما ، تقول : عاتب عمي «الحسن» أبي في أمي ، فقال هذه الأبيات . وان صح هذا الخبر ، كان فيه ما يدل على ان « الامام الحسين » بالغ في الاهتمام بزوجه وطفلته ، الى حد لفت أخاه الكبير ودفعه الى التدخل في أخص شؤون أخيه ، بالملامة والعتاب . ونحن قد اطمأننا الى أن « سكينة » ولدت حوالي سنة ٤٧ هـ . وقد توفي عمها « الحسن » ، في سنة ٥٠ هـ . و « سكينة » في السنة الثالثة من

(١) في نسب قريش : ص ٥٩ * لعمرك انني لاحب دارا *
(٢) ج ١٤/١٥٧ ساسي

عمرها . واذن فقد كانت منذ طفولتها ، مبعث أنس خاص لأبيها الامام الذي رأى أخاه ينزل عن الأمر « لمعاوية » ، ويبايعه أميرا للمؤمنين بعد كل الذي كان !

ترى هل كان « الحسين » في اقباله المسرف ، على « الرباب » ، و « سكينة » يريد أن يتشاغل عن نذر عاصفة أخرى بدأت تلوح له على الأفق البعيد ، وان ظن أخوه وظن كثير غيره ، ان تنازل « الحسن » قد وضع حدا للفتنة وعصم المسلمين من حرب هوجاء قاسية لا ترحم !؟

ترى هل كان يفر الى طفلته ، هذه الذكية المرحة الحسناء ، من خاطر كان يئوده حين يخلو الى نفسه ، مؤكدا له أن تضحية « الامام الحسن » ، لن تذهب هدرا فحسب ، ولكنها زادت بني أمية تشبثا بالأمر الذي استقر بين يدي « معاوية » وهيهات أن يتركوه يخرج من أيديهم مرة ثانية ، وهم الذين كافحوا في سبيله نصف قرن أو يزيد ؟

فقد بايع « الحسين » نفسه « معاوية » ــ بعد صلحه مع «الحسن» ــ وماله ، رضي الله عنه ، في الخلافة مطمع ، ولكنه لم يلبث أن أدرك ، أن الفتنة لم تهدأ الا الى حين ، فما كان « ابن هند » بالذي يرضيه أن يتولى الخلافة زمنا يطول أو يقصر، ثم يتركها لتعود الى البيت الهاشمي، أعداء الأمويين من قديم الزمان !

ولو قد فعلها ، لباء بلعنة أبيه « سفيان » ، الذي قال للعصبة الأموية يوم تولى « عثمان » رضي الله عنه الخلافة :

ــ يا بني أمية ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به «أبو سفيان»، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن الى صبيانكم وراثة ..

لو فعلها لطارده صدى من صوت أمه « هند » ، تصيح : ثكلته أمه ان رضي بهذا ..

هيهات هيهات !.. فما انتزع « معاوية » الخلافة الا ليثبتها في بيته ، ويستخلصها لقومه من بني أمية ..

ولكن كيف يجرؤ ، والعهد بينه وبين « الحسن » قائم ؟ (١)

ظل المسلمون في ريب من هذا . أما « الحسين » عليه السلام ، فما غاب عنه أن لذلك الأمر ما بعده ، وكلما أمعن النظر ، بدا له الليل طويلاً . لا نهاية له ولا آخر (٢)

وحلول مع ذلك ألا يسبق الأحداث ، وأعانه على هذا ، أن استغرقته العبادة وأمور الدين فاذا آب من المسجد إلى بيته ، فثمة « سكينة » تملأ الأفق من حولها اشراقاً وسنى ، وتكاد تنسيه - الى لحظات - ما يشغله من خواطر تسري به إلى ليل الهموم .

حتى مات « الحسن » .

وذاع انه مات مسموماً بيد زوجته « ابنة الأشعث » بتحريض من « معاوية » على ان يزوجها ولده « يزيد » ويعطيها مائة ألف درهم ، ففعلت ... وسوغها المال ولم يزوجها من ولده (٣) .

وتأهب « الحسين » لمعركته ضد هذا الجبروت الظالم الذي لا يلوي على شيء .

ضد هذا الباطل الغاشم ، الذي لا يرعى حرمة ولا عهداً ، ولا يخشى عاقبة ...

ضد هذه العصبة الباغية ، وقد خلا لها الجو الا من « أبي عبد الله الحسين » ..

* * *

ثم لم تك الا أعوام معدودات ، حتى أمسك التاريخ أنفاسه ووقف يرقب « معاوية » وهو يجلس في قصر الخلافة بدمشق ، ليأخذ البيعة علنا لابنه « يزيد » سنة ٥٦ هـ ، بعد أن مهد لها طويلا (٤) ، فلم يفتر دقيقة

(١) انظر الرسائل بين الحسن ومعاوية في (مقاتل الطالبيين : ص ٥٥ وما بعدها)
وانظر نص العهد في « صلح الحسن » ص ٢٥٢ وما بعدها
(٢) تاريخ الطبري : ٩٢/٦ وانظر مروج الذهب للمسعودي : ٢٣٠/٢
(٣) مقاتل الطالبيين ص ٧٣ وفيه ان ابنة الاشعث تزوجت رجلا من آل طلحة ، وولدت له ابنه عيروا بأنهم بنو مسمة الازواج . وانظر « صلح الحسن : ٣٦١ »
(٤) تاريخ الطبري : ١٦٩/٦

واحدة عن السعي لها منذ تم له النصر الحاسم بصلح « الحسن » ، ثم بموته بعد عشر سنوات من استقرار الأمر « لمعاوية » ..

وعشر سنوات ليست قليلة .. اذا حسبناها بالدقائق ، وما نام « معاوية » دقيقة عن هدفه ..

ولكن وجود « الحسين » جعله يحتاج الى ست سنوات أخرى من كفاح دائب عنيد ..

وكانت بين يديه خزائن المال يشتري بها من شاء ..

فمن عصي على المال اشتراه بالمداهنة والمكر والملاينة ..

وكل الباقين الى الخوف من هيبة السلطان وجبروت الحاكم ..

نقل « المبرد » في الكامل : أن « معاوية لما نصب « يزيد » لولاية العهد ، أقعده في قبة حمراء ، فجعل الناس يسلمون على « معاوية » ثم يميلون الى « يزيد » ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع الى « معاوية » فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تولِّ هذا ــ وأشار الى « يزيد » ــ أمور الناس لأضعتها .

وكان « الأحنف بن قيس » جالسا ، فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟.. فقال « الأحنف » : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت . فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيرا ، وأمر له بألوف .

« فلما خرج الأحنف ، لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بحر ، اني لأعلم ان شر من خلق الله ، هذا وابنه !.. ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال والأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع في استخراجها الا بما سمعت ! » (١)

اذن فقد فعلها ..

فعلها في جرأة عاتية ، فجعل الخلافة في بيته الأموي ملكا موروثا ، هرقلية كلما ذهب هرقل جاء هرقل ..

---

(١) بغية الآمل الكامل : ١٦٥/١ ــ ط ١٩٢٧

وأخذ البيعة « ليزيد » ، أميرا للمؤمنين من بعده ، وانه لينزع بالوراثة الى جدته آكلة الأكباد ، ويزدهيه هذا الملك العريض الذي خلص لآل «أبي سفيان » ، ويذهب في حياته مذهب الفتيان المترفين ، مجاهرا بالفسق معالنا بالمعصية !

ورنت القلوب ــ كل القلوب ــ الى « الحسين بن علي » سبط الرسول، وغذي النبوة ، والمثل الكامل للرجولة والعظمة والتقوى والايمان ..

وامتدت الأيدي ــ كل الأيدي ــ الى « معاوية » تبايعه على ولاية العهد « ليزيد » ، وهم أحد ثلاثة : رجل يعلم أن « يزيد » شر من خلق الله ، ولكن بيديه مفاتيح الخزائن وأقفال بيت المال ..

وثان يخاف الله ان كذب ، ويخاف « معاوية » ان صدق ..

وثالث حذر فطن ، قد يئس من خروج الأمر من الأمويين بعد أن صار اليهم ، فساير وداور ..

ولم يتخلف عن البيعة « ليزيد » الا خمسة من وجوه أهل المدينة : « الحسين بن علي » ، و « عبد الله بن الزبير » ، و « عبد الرحمن بن أبي بكر » ، و « عبد الله بن عمر » ، و « عبد الله بن عباس » (١) ..

وتكتلت حول بيت الرسول ، معارضة قوية ، أنكرت أن تغدو الخلافة هرقلية ، وأن يئول أمر المؤمنين الى مثل « يزيد » ..

ولم يعدُ « عبد الله بن همام » الحق ، حين قال :

فان تأتوا « برملــة » أو « بهنــد »
نبايعهـــــا أمـــــيرة مؤمنيـــنا
حُشينا الغيظَ حتــى لو شربنــا
دمـــاء بنـي أميـــة مـا روينـــا
لقـــد ضـاعت رعيتــكم وأنتـــم
تصيـــدون الأرانب غافلينــا ! ..

وأغضى « معاوية » عن ذلك النفر الخمسة ، الذين امتنعوا عن البيعة

---

(١) تاريخ الطبري : ١٧٠/٦

ليزيد، بقدر ما أسرف في التنكيل بمن شايعهم علنا. وبلغ به الأمر أن قتل « حجر بن عدي » وستة من أصحابه ، لأنهم أنكروا أن يسب الامـام « علي » على منبر الكوفة ! (١) وحين غضب عابد قريش « محمد بن أبي بكر » لهذا المنكر ، وكتب الى « معاوية » يذكره بفضل الامام « علي » وقديم سوابقه ، رد عليه يقول :

« قد كنا وأبوك فينا ، نعرف فضل « ابن أبي طالب » وحقه لازما لنا مبرورا علينا ، ثم كان أبوك ، و « عمر » ، أول من ابتزه حقه وخالفه على امره .. فان يك ما نحن عليه صوابا فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا « ابن أبي طالب » ولسلمنا اليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله .. فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك ، والسلام على من أناب » (١)

* * *

أين كانت « سكينة » من هذا كله ؟ ..

كانت هناك دائما الى جانب أبيها ، تتبعه خواطرها وقلبها اذا غاب عنها ، فاذا آب الى بيته كانت هي أسرع أهله اليه وأقدرهم على ايناسه ، فما يكاد يلمح ابتسامتها الوضيئة حتى يسكن اليها ويندمج لحظات في جوها المرح وعالمها الظريف .

وكانت في ذلك الوقت ، قد جاوزت مرحلة الطفولة وشارفت مطلع الشباب ، فما عادت بحيث يغيب عنها الذي يعانيه أبوها من هموم كبار ، لكنها كانت قادرة على أن تطوي همومها ساعة تلقاه ، لعلها بذلك تنسيه بعض همومه .

ولم تفتها صغيرة ولا كبيرة من أنباء ذلك الصراع المحتدم بين حق أبيها وباطل خصومه ، بل لقد شاركت في هذه المعركة بكل وجدانها اليقظ وحسها المرهف ووعيها الذكي ، وان بدت خلية البال ، لا هم لها

(١) تاريخ الطبري : ٦/١٤١ ـ وفيه ان السيدة عائشة قالت لمعاوية بعد مقتل حجر : يا معاوية ، أين كان حلمك عن حجر ؟ فأجاب : يا أم المؤمنين ، لم يحضرني رشيد

(٢) المسعودي : مروج الذهب : ٢/١٩٤

الا أن تملأ البيت بدعابتها المرحة ، والا أن تمنح أباها المناضل ـ الذي ما بات منذ وعى وأدرك ، الا على حق يذود عنه أو باطل يدفعه باليد واللسان والقلب ـ بعض أنس وراحة .

وربما شهدتها الليالي ساهرة مسهدة تحاول عبثا أن تذود عن مضجعها أشباح الهم التي تؤرق منام أبيها ومنامها معه ، لكنها ما سُمعت شاكية ، ولا رؤيت باكية ، بل تغدو مع مشرق الشمس ، ملء الاشراق والمرح ، حتى لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات مرة : « انك تمزحين كثيرا وأختك فاطمة لا تمزح ؟ » فأجابت من فورها : « لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة ، وسميتموني باسم جدتنا الأخرى » تعني « فاطمة الزهراء » ، و « آمنة بنت وهب » (١)

وفي جوابها ما يدل على وعيها لما ألم بجدتها من أحزان ، وتمثلها اياها في الأشهر الأخيرة من عمرها ، لا يرقأ لها دمع على أبيها العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى لحقت به .. (٢)

واذن فلم تكن بغافلة عن هموم آلها وأحزانهم ، ولكنها ما كانت تطيق أن تكتئب ، وهي تعلم أن أباها رضي الله عنه يلتمس لديها ما يعينه على احتمال عناء طال ، ولا تبدو له نهاية !

يلتمسه لديها وحدها ، في حضن أمها « الرباب » مع أن بيت « الحسين » اذ ذاك كان يضم زوجات أخريات وأبناء أخر ..

***

وهنا ، نقف لحظة لنلقي نظرة على أفراد البيت الكريم ، الذي كانت « سكينة » مبعث الأنس فيه .

فهناك كان « عبدالله بن الحسين » ، شقيق « سكينة » من أمها « الرباب بنت امرىء القيس بن عدي » (٣)

وكان هناك أخوها لأبيها ، « علي » الأكبر ، ابن « الحسين » ، وأمه

---

(١) الاغاني : ١٥٨/١٤ ساسي
(٢) انظر حديث الزهراء بعد وفاة ابيها الرسول ، في كتابنا « بنات النبي » .
(٣) نسب قريش : ٥٩

« ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي » ، وأمها « ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب » ، وفيه قال « معاوية » : « أولى الناس بهذا الأمر « علي بن الحسين بن علي » ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه شجاعة بني هاشم ، وسخاء بني أمية ، وزهو ثقيف » ! (١)

وكان هناك كذلك ، « علي » الأصغر « زين العابدين » مع أمه « سلافة بنت يزدجرد » آخر ملوك فارس ، وقد سبيت مع أختين لها في معركة فتح بلاد الفرس ، وجيء بهن الى « عمر » مع السبايا الأخريات ، فأمر رضي الله عنه ببيعهن جميعا ، لكن « الامام علي » تدخل لاعفائهن من هذا الموقف الأليم ، وقال للخليفة : « ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة السوقة » ، فسأله « عمر » : « وماذا أفعل بهن ؟ » فأجاب : يقوَّمن ومهما يبلغ ثمنهن يدفعه من يختارهن .

وقُومت بنات يزدجرد ، فأخذهن « علي بن أبي طالب » ، واختار لهن خير ثلاثة من شباب قريش ، فكانت الأولى « للحسين بن علي » . وقد ولدت له « عليا » الأصغر .

والثانية « لمحمد بن أبي بكر الصديق » ، فولدت له « القاسم » .

والثالثة « لعبد الله بن عمر » ، فولدت له سالما !

فيقال ان أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم « علي بن الحسين » ، و « القاسم » ، و « سالم » ، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس في اتخاذ السراري .

وقد كان «علي الأصغر» أكبر من أخته «سكينة» بنحو عشر سنوات ، اذ ولد رضي الله عنه سنة ٣٨ هـ (٢) فأدرك مقتل جده « الامام علي » ، وعُرف عنه — منذ صغره — العكوف على العبادة ، والزهد في ملاذ الدنيا ، والانصراف عن اللهو ، مما أعده ليكون — بعد استشهاد أبيه وبقية أهل بيته في كربلاء — من أشهر البكائين في تاريخ الاسلام (٣)

---

(١) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين — ٨٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/٤٥٥ بولاق وانظر معه (عيون الاخبار لابن قتيبة) ٤/٨ دار الكتب. وشذرات الذهب : ١/١٠٥ لابن العماد الحنبلي

(٣) ارجع الى كتاب « مقتل الحسين » ص ٤٥٠ : ٤٥٤

وانما سمي « عليا » الأصغر ، تمييزا له عن أخيه « علي » الأكبر ، وأمه « ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي » ، أحد صحابة الرسول (١) .

وأخ رابع « لسكينة » ، هو جعفر بن الحسين » ، وأمـه من قبيلة بَلِيٍّ (٢) .

ثم كانت هناك أختها لأبيها : « فاطمة بنت الحسين » ، قيل انها كانت منقطعة النظير في الجمال ، لكنها لم تكن مرحة كأختها « سكينة » ، ولعل ذلك راجع الى ظروف خاصة بها وبأمها « أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي » (٣) .

فلقد كانت « أم اسحق » ، احدى بنات تيم اللواتي اشتهرن بالجفوة والخشونة في معاملة الأزواج وفي « نسب قريش » انها تزوجت « الحسن ابن علي بن أبي طالب ، فولدت له ابنه طلحة ، ثم تزوجت أبا عبد الله « الحسين » فولدت له فاطمة (٤) ، وليس في مصادر سيرة بني علي ، ما يشير الى انفصال أم اسحاق عن الحسن ، هل كان بطلاق أو ترمل . لكنا نميل الى الظن بأنها طلقت منه ، لأن زواج بنتها فاطمة كان في حياة أبيها « الحسين » وقد قتل رضي الله عنه في المحرم من سنة ٦١ هـ ، ومن المستبعد أن يكون قد تزوج من أم « اسحاق » بعد موت أخيه الحسن عام ٥٠ هـ ، وولدت لهما فاطمة التي أدركت سن الزواج قبل عام ٦١ هـ .

وأيا ما كان الأمر ، فتجربة الطلاق أو الترمل ، غير هينة على مثل « أم اسحاق » ولعلها زادتها جفوة وصرامة ، حتى ليقول « الحسـين » رضي الله عنه فيها : « والله لربما حملت مني ووضعت وهي مصارمة لي ما تكلمني ! »

وفي ظرف كهذا ولدت له ابنته « فاطمة » ، وفيها ميراث بنات تيم ،

---

(١) نسب قريش : ٥٧ ــ والاصابة : ٧/١٧٤ مصر
(٢) نسب قريش : ٥٩
(٣) نسب قريش : ٥٠
(٤) نسب قريش : ٥١
ومثله في جمهرة انساب العرب : ٣٤ ، ١٢٩

وأثر تلك الظروف القاسية ، فأعوزها ما كان « لسكينة » من مــرح وبساطة وايناس .

هؤلاء هم أخوة « سكينة » : « عبدالله » شقيقها ، و « علي » الأكبر ، و « علي » الأصغر و « جعفر » ، و « فاطمة » .

ولم يفت القوم انه مُقـل ، اذ يروى ان رجلا قال لأحد بني الحسين : ما أقلّ ولد أبيك ؟ .. فكان جوابه : « العجب أن يكون له ولد ، وهو الذي ما رؤي الا عاكفا على العبادة والجهاد » .

وقد كانت حياة « الحسين » كلها جهادا : مع النفس ، ومع الباطـل أينما كان ..

وقد عاش بنوه الأربعة ، وبنتاه « فاطمة » و « سكينة » حتى بلغت معركته ذروتها الرهيبة ، ولكن « سكينة » هي التي استأثرت من دونهم جمعيا ، بأنها كانت مبعث أنسه وراحته ..

لعمـــرك انني لأحـــب دارا
تكون بهـا « سكينة » و « الرباب »

في دوامة الأحداث

من قريب ، وقفت « سكينة » ـ وقد جاوزت مرحلة الطفولة ـ ترقب الأحداث وهي تندفع نحو ذروتها المشئومة في عنف شرس ، وترنو الى ابيها الحبيب ، في صميم الدوامة ، يمضي الى المصرع الدامي ، دون أن يملك عنه حولا !

فمنذ أخذ « معاوية » العهد لابنه « يزيد » ، وغذي النبوة هو قطب الصراع ومحور الأحداث وهدف المعركة .. المعركة الطويلة العنيدة ، التي بدأت مرحلتها الأولى بين « أبي سفيان بن حرب » ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقلت الى صراع بين « معاويــة بن أبي سفيان » ، و « علي » صهر الرسول وابن عمه ، وها هي ذي تنتقل ـ كأنها ميراث محتكم ـ الى دورها العنيف ، بين « يزيد بن معاوية » ، حفيد « أبـي سفيان » و « هند » ، وبين « الحسين بن علي » ، حفيد الرسول وولد « الزهراء » :

عبــد شمس أضرمت لبنــي ها
شم حربــا يشيب منهــا الوليد
فابن حرب «للمصطفى»،وابن «هند»
« لعلي » ، و « للحسين » « يزيد »

والتاريخ المروي لا يذكر أن « يزيد » أخذ مكانه في الصراع ، أيام أبيه « معاوية » ، ولكن الذي لا ريب فيه انه لبث منذ بويع وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، الى وفاة « معاوية » سنة ٦٠ هـ ، يتدبر موقفه من « ابن الزهراء ، ويستعد على مهل لمعركة عاتية تحسم هذا الموقف المعلق الذي ظل أكثر من نصف قرن ، حائرا مترددا ...

ما من شك ، انه قدر أن الخلافة لن تصفو له ، وفي النــاس هــذا

« الحسين » الامام ، يفرض سلطانه على كل القلوب ، وكل الضمائر ، ويغزو المجتمع الاسلامي ، بجاذبيته الآسرة ، وشخصيته التي يحف بها سنا - أي سنا - من نور النبوة ، وجلال الايمـان ، وسمو الخلق ، ومهابة الحق ، ووقار السمت ، ونبل الطبـاع ، واكتمال الرجولة والانسانية

حتى مات معاوية بعد أن وطأ الأمر لولده ، ولم يعد يخاف عليه الا من بضعة نفر من قريش ، أولهم « الحسين بن علي » كما قال في وصيته ليزيد (١) .

وورثه « يزيد » ، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ، في هلال رجب ، سنة ٦٠ هـ .

واذ ذاك ، بدأ يقود المعركة في قسوة ضارية وشراسة محمومة ، فكتب الى عامله بالمدينة - الوليد بن عتبة - أن يأخذ لـه البيعة قسرا ممن تخلف عنها من وجوه المسلمين هناك (٢) .

فبايعه « عبد الله بن عباس »

وبايعه « عبد الله بن عمر » (٣)

وفر « عبد الله بن الزبير » الى مكـة ، مستعيذا بالبيت العتيق (٤) ، في طمأنينة الواثق أن دوره لم يحن بعد !

وأبى « الحسين » أن يبايع ، بل كان جوابه للوليد :

« يا أمير .. انا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، بنا فتح الله وبنا ختم ، و « يزيد » فاسق فاجر ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق ، مجاهر بالفجور ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون ، أينا أحق بالبيعة والخلافة » (٥)

ومضى ...

---

(١) انظر نص الوصية في تاريخ الطبري : ١٧٩/٦

(٢) انظر نص كتاب يزيد الى عامله الوليد ، في تاريخ الطبري ١٨٨/٦

(٣) تاريخ الطبري : ١٦٠/٦

(٤) تاريخ الطبري : ١٦٠/٦ ونسب قريش : ٢٣٩

(٥) السيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين ص ١٢

قال « مروان بن الحكم » ـ وقد كان حاضرا ـ « للوليد بن عتبة » :

ـ عصيتني حين قلت لك ألا تدعه يمضي أو تضرب عنقه ! .. لا والله ، لايمكنك مثلها من نفسه أبدا (١) .

فأجاب « الوليد » :

ـ ويحك ! .. انك أشرت علي بذهاب ديني ودنياي ، والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها واني قتلت «حسينا» !.. سبحان الله، أأقتل «حسينا» لما أن قال لا أبايع ؟ .. والله ما أظن أحدا يلقى الله بدم « الحسين » الا وهو خفيف الميزان عند الله (٢)

يبايع أو يقتل ؟ !

على هذا صمم بنو عبد شمس !

ومحال أن يبايع « الحسين » ...

محـال ان يبايع مثل « يزيد » أميرا للمؤمنين ، مهما يبلغ من طغيان السلطان وتحامل المتغلب وجبروت الحاكم :

ولست أبالي حـين أقتل مسلمـا
على أي جنب كـان في الله مصرعي ! ..

وما كان « الحسين » طامعا في أمر من أمور الدنيا ، ولا كانت له في الخلافة رغبة ، ولكن اذا انتهى الأمر الى أن يصير « يزيد » أميرا للمؤمنين، فلن يبالي « الحسين » ، على أي جنب يكون في الله مصرعه ، ليدفع هذا الباطل بقلبه ولسانه ، ثم بسيفه اذا لم يكن من القتال بد ! ..

واذ رأى من والي المدينة اصرارا على حسم الموقف ، هاجر بأهله الى مكة ، حيث « عكف الناس على الحسين ، يفدون اليـه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون الى كلامه وينتفعون بمـا يسمع منـه ويضبطون ما يروون عنه » (٣)

---

(١) بنصه من الطبري : ٦/١٩٠
وانظر معه « نسب قريش » : ١٣٣ و « مقتل الحسين : ١٢٨ »
(٢) الطبري ٦/١٩٠ ونسب قريش : ١٣٣
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية • ترحمة الحسين رضي الله عنه
وانظر معه (تاريخ الطبري) ٦/٢٢٤

وهناك ، في مهد الدعوة ، طافت « سكينة » بانحـــاء البلد العتيق ، ووقفت بالمشاهد التاريخية التي صنعت حياة أسرتها وحيـــاة العـــالم الاسلامي أجمع . وربما أتيح لها وقتئذ أن ترقب النشاط الأدبي الذي كانت مكة بوجه خاص ، والحجاز بصفة عامة ، مركزا من أهم وأحفل مراكزه ، وحيث كان عدد من شباب الأنصار وفتية قريش ، قد عمرت بهم أندية الشعر ومجالس الطرب والغناء ، وازدهرت في تلك البيئـة الأرستقراطية ، مدرسة خاصة في الغزل ، كما ازدهرت صنعة الألحان وفن الغناء .

وأهلّ موسم الحج من عـــام ٦٠ هجرية ، و « سكينة » مع آلها في مكة ، فأتيح لها أن تشهد بعينيها وتسمع بأذنيها ، كل ما كان يدور في مكة ، في ذلك الموسم بخاصة ، من ضجيج أدبي حافل صاخب ، وان راحت في الوقت نفسه تصغي بكل قلبها وفكرها ، الى نشاط من نوع آخر ، كان أبوها الامام مصدره ومركزه معا ، فمنذ وفد « الحسين » الى مهد الدعوة المحمدية ، وأوى الى مهبط الوحي الذي اصطفي له جده العظيم ، وجموع المسلمين تلتقي عنده ، تلتمس لديه ما يعصمها مـــن غلبة الضلال ، وتلوذ به في حيرتها بين يقظة الضمير وعجز الوسيلة ، وتستمد منه زادا من القوة المعنوية ، تقوى به على مواجهة الطغيـــان المستبد !

وحين كانت مكة تستقبل عددا من شبـــاب الحجاز وشعراء الغزل ، الوافدين عليها في موسم الحج ، كانت هناك جموع أخرى جاءت لغير ما جاء له شعراء الغزل . أولئك هم رسل العراق ، وفدوا عـلى مكة يبايعون « الحسين » ابن بنت النبي ، على الجهاد في سبيل الحق المغتصب من أولى الناس به ، واسترداد الخلافة من بين يدي الفتى الأموي الذي تلقاها عن أبيه ميراثا هرقليا ، وليس لها بكفء ولا هو بها جـدير . ونشطت الرسائل ما بين الكوفة والمدينة ، وأعين الأمويين يقظى لا تنام ...

* * *

وفي هذا العالم المضطرب بشتى الأحداث ، المائج بتيارات متناقضة ، المزدحم بحشد من طلاب الغناء وعشاق الأدب ، وآخر من طالبي الجهاد المتهيئين لبذل الحياة رخيصة في سبيل ما يؤمنون انه حق .. في هذا العالم المضطرب المتناقض ، استقبلت « سكينة » ربيعها الثالث عشر وتفتح صباها النضير عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال . وقد فرضت عليها الظروف أن تحيا بين التيارين المتجاذبين ، في مستهل هـذا الصبا الغض . وبقدر ما رأى فيها أبوها مبعث راحته وأنسه ، رأت فيها أم القرى نموذجا فريدا رائعا لا عهد لها بمثله أناقة وظرفا وبهاء ! وأقبلت عليها فتيات مكة ، يرمقنها في اعجاب مشوب بشيء من الحسد ، ورحن يرصدن لفتاتها الساحرة ، وحركاتها الرشيقة الفاتنة ، وذلك النمط الخلاب الذي استحدثته في تنسيق شعرها .

وفي هذا الموسم بالذات ، بدأت شخصيتها تظهر في المجتمع ، وتلفت اليها القلوب والأبصار . كانت مكة في موسم الحج ، تعتبر سوقا أدبية واجتماعية حافلة . فحين أقبل موسم الحج من عام ٦٠ هـ ، وسكينـة هناك ، شهد الموسم في دنيا النساء عجبا من العجب : ما من شابة حسناء الا حاولت أن تقلد « سكينة » فيما ظنته سر فتنتها ، وان كانت الآراء قد اختلفت في تحديد هذا السر ، وذهبت فيه كل مذهب ، فمن قائل انه أنس المحضر وظرف الحديث وسرعة البديهة والذكاء اللماح ، وآخر يرجع به الى حسنها الفريد وأناقتها الساحرة ، وثالث يرده الى ما حف بها من عظمة الأبوة وجلال النسب وسنا النبوة ، ورابع يراه في هذا كله مجتمعا متكاملا ، وخامس يحسبه جاذبية خاصة ، ليست مما يحدد أو يفسر أو يضبط !

واذا كانت حسان قريش، قد أعياهن أن يأخذن عنها نبل الملامح وجلال الطلعة ونور النبي ، فقد بقيت لهن بعـد ذلـك أناقتها يقلدنها حيثما استطعن ، وشاعت « الطرة السكينية » فلم تبق واحدة منهن لم تنسق شعرها على النسق المستحدث الذي ابتدعته الهاشمية الحسناء ، وراح المجتمع المكي يعرف في بناته أثر النموذج الفريد ، ويصغي الى ما يتناقله

من أنباء ظرفها ونوادر دعابتها الذكية المرحة

وخفقت قلوب الشباب الهاشمي والقرشي ، تسائل في لهفة : أيهم يسعده زمانه بأن تكون هذه الدرة الفريدة من نصيبه ؟ وبأيهم ترضى « سكينة » زوجا ؟

واذا كانت أمانيهم جميعا قد تعلقت ببنت الحسين ، فان واحدا منهم فقط ، هو الذي خطا خطوة حاسمة في سبيل الظفر بها ، ذلك هو ابن عمها « الحسن المثنى » (١) الذي يرشحه شرفه وبنوته للامام « الحسن ابن علي » لمصاهرة عمه الحسين .

وكان الحسن المثنى وصي أبيه .

لكنه لم يشأ أو لعله لم يستطع ـ أن يسمي « سكينة » حين تقدم الى عمه الحسين يطلب مصاهرته فرحب به العم وقال مجيبا : (٢)

ـ اخترت لك ابنتي فاطمة ، فهي أكثر ابنتيَّ شبها بأمي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانها لذات دين وجمال ·

ثم أردف بعد لحظة ، فيما تقول الرواية :

« وأما سكينة ، فغالب عليها الاستغراق مع الله ، فلا تصلح لرجل »

واذا صحت الرواية ، فان عبارة الامام في ابنته تلفت النظر ، فهذا الاستغراق مع الله قد يبدو مناقضا لما أشرنا اليه آنفا من مرح « سكينة » وأنس محضرها ، وما ذاع من أناقتها وميلها الى الدعابة ، لولا أننا نعود فنذكر أنها اعتادت ـ منذ وعت أن تلوذ بهذا المرح لتبدد بعض الغيوم التي كانت تخيم على البيت العلوي الكريم ، منذ مصرع الامام علي ، وما تلاه من أحداث أليمة حمل الامام الحسين عبئها الباهظ . وقد بلغ من حرص « سكينة » على اصطناع المرح ما استطاعت معه أن تطوي همومها في أعماقها ، وأن تحتفظ بهذه الابتسامة الوضاءة يتألق بها وجهها الصبوح ، دون أن يلهيها هذا المرح ، الذي فرضه عليها دورها

---

(١) نسب قريش : ٥١ ـ وأم الحسن هي خولة بنت منظور الهلالية الغطفانية

(٢) الاغاني ١٤/٥٩ أساسي · وفيه رواية اخرى ، كالتي في « نسب قريش : ٥١ » ان الامام خيره بين فاطمة وسكينة ، فكان هو الذي اختار فاطمة وانظر « مقتل الحسين : ٣٦٨ »

في المعركة ، عما تنزع اليه بحكم ميراثها النبوي ونشأتها في رحاب البيت المحمدي ، من تعبد يصل أحيانا الى درجة الاستغراق مع الله ، والاندماج في ذلك الجو الروحي المسعد الذي كانت تجد فيه ملاذها عندما يثقل عليها دورها الصعب . فما كانت ظروف الحياة في بيئتها تلك بالتي تعين على الابتهاج والمسرة ، فلا عجب اذا رأيناها تنتقل من حال الى حال فتلقى الدنيا بوجهها الضحوك وظرفها المرح ، ثم لا تكاد تخلو الى نفسها حتى تقبل على العبادة في خشوع واستغراق ، استجابة لما في طبيعتها المتدينة ، وميراثها من الآباء والأجداد ، ومتخففة من ثقل الدور الذي يفرض عليها ما لا تحتمله ظروف حياتها من تهلل واشراق .

ونطيل الوقوف عمدا عند هذه النقطة بالذات ، لأنها تعيننا على فهم شخصية « سكينة » ولعلنا ما اهتممنا بمسايرة أحداث العصر ، في تتبعنا لمراحل حياة بنت الحسين ، الا لكي نلقي من هذه المسايرة ضوءا على ما يبدو لسوانا تناقضا في تلك الشخصية التي حيرت كتّاب السير : فالأخبار عنها تصورها أحيانا خلية البال ، معنية بأناقتها ، مزهوة بملاحتها مندمجة في الحياة الاجتماعية ، ثم يقرءون مع ذلك وصف أبيها لها بأنها « يغلب عليها الاستغراق مع الله » (١) ويروون اخبارا أخرى تؤكد انها كانت مضرب المثل في العفة والتقوى والايمان .

وكان من السهل أن نفترض ، أن « سكينة » عاشت عهدين مختلفين ، كانت في أولاهما مستغرقة في الله مندمجة في حياة التعبد ، ثم تغيرت من بعد ذلك ، فانصرفت الى حياة المجتمع واندمجت فيه .

وكان من اليسير كذلك ، أن نحدد المرحلة الأولى ، بالفترة التي عاشتها في كنف أبيها الامام ، وأن نجعل مقتله ـ رضي الله عنه ـ هو الحد الفاصل بين العهدين .

أجل كان من اليسير أن نفترض هذا ، فيسهل علينا به أن نفسر تناقض الأخبار عنها بين الزهد المسرف والدعابة اللافتة ، بين قول أبيها رضي

---

(١) السيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين : ٣٦٨

الله عنه « انها يغلب عليها الاستغراق في الله » وبين هذه «الطرة السكينية» التي فتنت عصرها .. بين المشهور من تقواها وعفتها وايمانها ، وبين الذي ذاع من ظهورها في المجتمع الأدبي ، واحتفائها بالمغنيين والشعراء ..

لكن ما يحول بيننا وبين الاطمئنان الى هذا الافتراض ، ما أجمع عليه الذين كتبوا عنها ، من كون أبيها رضي الله عنه كان يأنس اليها ويحب مجلسها ، ويستطيب محضرها ، منذ كانت طفلة صغيرة ، وقد سجلت الأخبار ، أنها سئلت لِمَ تمزح ، وأختها فاطمة قلما تفعل ، فكان جوابها ما سمعناه من أن أختها سميت باسم جدتها الزهراء ..

ثم ان هذه المقارنة بين الأختين ــ اذا صح خبرها ــ قد كانت وهما بعد في بيت واحد ، قبل ان تمضي الحياة بكل منهما في سبيل • وفاطمة قد تزوجت في حياة أبيها الحسين ، واذن فقد كان ميل سكينة الى المرح مبكرا ، وقبل أن تفجع ــ ويفجع العالم الاسلامي ــ بمقتل أبيها في كربلاء ، ولم يمنع هذا المرح أباها رضي الله عنه، بأن يصفها بالاستغراق في الله ! .

من الممكن ان يقال ، أن سكينة كانت أكثر استغراقا في العبادة وأقل ظهورا في المجتمع ، أيام كانت تعيش في كنف أبيها الامام ، كما يمكن أن يقال كذلك ، ان الاحداث التي ألمت بها ــ بعد مقتل أبيها ــ قد وجهتها نحو الحياة الاجتماعية بضجيجها اللاغب ، على ما سوف نرى في الدور الثاني من حياتها . يقال هذا وذاك ، فيقبل في طمأنينة ، فمما لا ريب فيه أن مذبحة كربلاء ، قد كانت ذات أثر بعيد حاسم ، في حياة الشريفة الهاشمية الحسناء ، بل لا نغلو اذا قلنا انها الحد الفاصل بين طورين متميزين ، في حياتها الحافلة . لكن الذي لا نرتاب فيه كذلك ، أن بوادر هذا الازدواج في الشخصية ، دون أن أعني به ــ بحال ما ــ ذلك المدلول الاصطلاحي المستحدث للازدواج ، عند النفسيين ، وانما أقصى ما أريده به ، هو ذلك الجمع بين المرح والدعابة والمزاح ، وبين التقوى والتعبد والزهد أو ما يشبه الزهد !

هذا الازدواج ــ واضطر الى استعماله على كره مني ــ هو الطابع

المميز لشخصية سكينة . ظهرت بوادره في العهد الأول ، عندما كانت تلازم أباها وتعيش في كنفه ، ثم ازداد على الأيام وضوحا ، وان اتخذ صورة أخرى ، نراها بعد حين .

ولقد زفت « فاطمة » الى الحسن المثنى في حياة أبيها الحسين ، وقيل فيما قيل يومئذ : ان امرأة مردودتها سكينة، لمنقطعة القرين في الحسن(١)

وبقيت سكينة في بيت الحسين ، وقد ارضاها أن يستبقيها أبوها رضي الله عنه الى جانبه ، فما كانت لتؤثر على مكانها هناك أي مكان سواه ...

وتناقلت بيوتات مكة كلمة أبيها « فلا تصلح لرجل » فتقاصرت عنها أطماع الشباب ورأوها فوق منالهم ، وطويت قلوب كثير منهم على يأس ..

وأغلب الظن أن « مصعب بن الزبير » كان من بين الذين صكت الكلمة مسمعهم ، فلقد حدثته أمانيه (٢) أن يتزوج من سيدة نساء عصرها جمالا وظرفا وحسن خلق وعزة نسب وشرف منبت ، وكان يرى نفسه أهلا لها : أبوه الزبير بن العوام بن خويلد صاحب رسول الله وصهر أبي بكر الصديق ، وأمه الرباب بنت أنيف بن عبيد الكلبي ، وجدته لأبيه، صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام، وعمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، جدة سكينة لأمها .

وكان لمصعب من شرفه الخاص ، ما يظاهر هذا النسب العريق ويكافئه ، فهو الذي يتناقل المجتمع القرشي أنباء جوده وشجاعته ومروءته ، حتى لقد شاعت فيه القولة المشهورة : « لو أن مصعب بن الزبير وجد أن الماء ينقص مروءته لما شربه » وهو الذي قال فيه خصمه عبد الملك بن مروان : « متى تغذو قريش مثلك ؟ » .

وكان الى جانب ذلك كله جميلا في الرجال ، حتى ليقول « جميل بن معمر » : ما رأيت مصعبا يختال بالبلاط الا غرت على « بثينة » وبينهما

(١) نسب قريش : ٥١ ومقاتل الطالبيين : ١٨٠ والاغاني ٢٠٤/١٨
(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٥٨/١ ط دار الكتب المصرية

ثلاثة أيام ! (١) .

وقد حدث « مصعب » برغبته تلك في الزواج من سكينة ، ثلاثة من أصحابه ، هم أخوه عروة بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الملك بن مروان (٢) ــ ولم تكن المعركة قد انتقلت اليه والى آل الزبير ــ على أنه لم يبادر بخطبة سكينة ، ربما لأنه لم ير الظرف مناسبا وأبوها الحسين مشغول بهمومه الكبار ، وربما لأنها كانت لا تزال بعد صغيرة فلا بأس على مصعب في أن يتمهل انتظارا لفرصة مواتية ، وربما لأنه كان لا يرى في غيره من شباب قريش كفئا لبنت الحسين !

حتى ذاع نبأ خطبة الحسن المثنى لاحدى ابنتي الحسين ، ثم زواجه من فاطمة دون سكينة التي رأى أبوها انها باستغراقها مع الله لا تصلح لرجل ، فكف مصعب عن التعلق بأمنيته في الزواج منها ، وراح يغالب رغبته فيها ويأخذ قلبه بالانصراف عنها مخافة أن يرده الحسين خائبا فلا يستطيع مصعب أن يلقى الناس وقد كذب كلمتهم فيه : لو انه وجد الماء ينقص مروءته لما شربه !

فلتكن سكينة من تكون ! لتكن الماء الذي لا تقوم حياته بدونه ، فانه ليؤثر أن يهلك ظمأ على أن يطلب هذا الماء مع احتمال رده عنه !

والا لما كان مصعب بن الزبير ، ذاك الذي ضربت به قريش المثل في المروءة وعزة النفس !

ترى هل شعرت الغادة الهاشمية بذلك الصراع الذي احتدم في نفس الفارس النبيل بين عاطفته ومروءته ، بين وجدانه وعقله ؟!

مثل « مصعب » من لا يدع هواه المكبوت يغلبه أو تفلت منه بوادر تشي به وتنم عليه . ولعل سكينة لو درت بما يطوي لما ملكت له اكثر من الرثاء والعطف ، فقد كانت في شغل بدورها المزدوج ، عن شجون العواطف وشؤون الخطبة والزواج ، فهل يرضى مصعب أن يكون موضع

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ ٢١/٤
والبلاط موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين المسجد النبوي وسوق المدينة
(٢) عيون الاخبار : ٢٥٨/١

رثاء من فتاة حسناء ؟

الموت أهون من هذا !

وثمة سؤال آخر يعرض : هل لفتت سكينة في ذلك الموسم من مواسم الحج ، أعني سنة ٦٠ هـ ، عمر بن أبي ربيعة شاعر الجمال ؟ من المحقق أن عمر كان هناك ، يملأ مكة بغزلياته وأحاديث مغامراته الموسمية ، حيث اعتاد ــ فيما قالوا ــ أن يتعقب من يفد على مكة من ربات الجمال ، ليتغزل بأسمائهن في قصائد يتناقلها الرواة ويسري بها الركبان عبر البيد والقفار ، ويتغنى بها قيان المدينة ومغنوها الكبار : عزة الميلاء ، والغريض ، وابن سريج ،ومالك ، ومعبد .

على أن الموسم انفض، دون أن يتعرض«عمر» لاسم سكينة، وهو الذي لم يدع ذات جمال ، الا حياها باختيار اسمها لاحدى غزلياته .. ألجم لسانه فلم يقل بيتا واحدا فيه اسم « سكينة » زينة الموسم وأروع جميلاته ، ملاحة ونضرة وأناقة وسحرا ؟

وماذا يجديهأن يكونتغنـَّى بأسماء زينبوهند ورملة والثريا وفاطمة و ... و ... وترك اسم « سكينة » الذي صار بصاحبته أعذب الأسماء ؟

وما كان صمته عن جحود أو تجاهل ، انمــا ألجم لسانه فرط تهيبه لمكانها ، وهو يعلم ما كان يشغل أهلها وأهل مكة جميعا من تهيؤ « الامام الحسين » للسفر الى العراق ، بعد أن جاءته رسل الكوفة ببيعة عشرات الألوف من اهلها (١)

كلا ، لا سبيل لعمر الى التغزل بأعذب اسم لأجمل مسمـَّاة

وأقول اسم « سكينة » لأني مطمئنة الى أن عمر في غزلياته ، لم يكن يتحدث عن واقع بينه وبين الشريفات القرشيات ، وانما كان يختار أسماء الجميلات منهن لما ينظم من غزليات ، على ما سوف نوضحه بمزيد تفصيل وبيان ، في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

---

(١) تاريخ الطبري : حوادث سنة ٦٠ هـ و « مقتل الحسين : ١٤٧ »

مَذبحة كربلاء

خرجت مكة كلها تشييع سبط الرسول ، وقد خرج منها بأهل بيته جميعا غداة يوم من أخريات ذي الحجة سنة ٦٠ ﻫ يريد الكوفة ، بعد أن ألحت عليه شيعته هناك ، بأن يقدم اليهم ليجاهد بهم ضد الطغيان .

وقيل ان الذين أتته بيعتهم من العراق أربعون ألف رجل !

ولو استطاعت « مكة » لحالت دون خروج أهل البيت النبوي منها ، ولكن الامام قد وعد ، وعزم ، وقرر ، فما تستطيع قوة في الأرض أن تصده عن النضال في سبيل الحق ، وما يستطيع أي انسان ، أن يغريه بايثار السلامة والعافية ! (١)

ولقد حاول نفر من خاصة قرابته أن يحولوا دون استصحابه لأهل بيته في رحلته تلك : حاول ذلك ، أخوه محمد بن الحنفية ، وابن عم أبيه عبدالله بن عباس ، وعبدالله المخزومي ، وغيرهم .. (٢) ولكن ماذا تجدي المحاولة أمام من هانت عليه الدنيا وصمم على أن يبيعها بالآخرة ؟

وقيل فيما قيل : « ان أهل العراق هم الذين قتلوا أباه وأخرجوا أخاه » وذكروه برأي الامام الشهيد كرم الله وجهه فيهم ، ولكنه أبى الا أن يمضي وهو يقول لناصحيه :

« ان من هوان الدنيا على الله ، أن رأس يحيى بن زكريا أهدي الى بغي من بغايا بني اسرائيل » !

أو يقول :

« أني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما ، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن رد عليَّ هذا ، أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين » .

(١ ، ٢) تاريخ الطبري : ٢١٧/٦

وكان وداع ...

مضى فطاف بالبيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمـــروة وقضى عمرته (١)

كان وداع ضجت مشارف مكة من عنفه وقسوته ، فما هان على اهلها أن يحرموا من طلعة الحسين ، وفيها نور النبوة . ولا هان على مكة أن تمسي وقد ارتحل عنها خير بيت وأعز رهط :

بيت النبي ورهط الامام ...

ومضى الركب الحسيني في طريقه الى ما كتب له في الغيب المضمر

وآب المودعون الى البلـــد الحرام ، ومـــا فيهم من لا يجد في قلبه مس الحزن ولذع الفراق ، وقلقا مبهما لم يلبث أن خالطه شيء من الخوف ، منذ جاوز الركب الحمى الآمن وودعوا جيرة الحرم .

وكانوا جميعا يدركون أن لهذا الرحيل ما بعـــده ، وان اختلفت بهم الظنون فيما سوف يكون .

وتعلل أكثرهم بالأمل في أن « يزيد » لن يجرؤ على أن يبوء بـــدم الحسين ، لا تعففا أو تأثما أو تحرجا ، ولكن خوفا من ان يفسد عليه الأمر كله بمقتل الحسين ، ويبوء بلعنة المسلمين حيثما كانوا ...

ولكن قلة ــ منها عبد الله بن الزبير (٢) ــ كانت على شبه يقين من أن دور يزيد في الصراع العتيد بين بني عبد شمس وبني هاشم قد حان ، وانه في طيش شبابه ورعونة فتوته وجبروت سلطته ، لن يدع الحسين يفلت سالما ، وليس ليزيد حلم أبيه معاوية ، ودهاء رأيه ونضج خبرته .

* * *

ترى هل لمحت « سكينة » من هودجها ، وهي تتلفت نحو أم القرى لتتزود منها بنظرة طويلة قبل الفراق، هل لمحت بين الجموع التي احتشدت لوداع الركب ، مصعب بن الزبير يرسل عينيه اثر الراحلين ، في تجمل واجم ؟

---

(١) تاريخ الطبري : ٢١٧/٦

(٢) تاريخ الطبري : ٢١٧/٦ و « مقتل الحسين : ١٧٤ »

وهل استطاعت بأنوثتها الذكية اللماحـة ، أن تدرك وراء تجمله ما يطوي عليه جوانحه من سر لا يذاع ؟

وهل تراها لمحت بينهم كذلك ، عمر بن أبي ربيعة يشيع راحلتها وقد بان عليه اثر الخيبة والغيظ ، وعز عليه أن تمضي ربة الجمال والأناقة ، ولم يحيي اسمها تحية اعجاب وتمجيد واكبار ؟

أغلب الظن أنها كانت في شغل عن هذا كله بما يتوزع قلبها وبالها من شجن الفراق لأم القرى ، ومن تلك الهموم الكبار التي استغرقت الركب كله اذ يغذ السير عبر البيد والقفار ، الى مصيره المحتوم ، المقدر له عند عالم الغيب ...

* * *

ونطوي الأيام على عجل ، لنرى الركب وقد دنا من مشارف العراق ، وآن للراحلين المجهدين أن يحطوا الرحال بعد تلك المرحلة الشاقة المجهدة لكن أحدا منهم لم يهش لقرب المناخ ...

وتثاقلت رواحلهم ، وهي تقطع المرحلة الأخيرة الباقية ، وقد خرس الحادي منذ بلغ القوم في الطريق ـ عند زرود أميال من القادسية ـ نبأ مصرع الشهيد ، مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، ابن عم الامام الحسين ، ورسوله الى أهل الكوفة (١) .

وغشيتهم غاشية من حزن ثقيل ممض ، حين لاحت لهم مشارف العراق من بعيد ، فذكرتهم بشهيد الأمس الذي لم يجف دمه بعد ، وبشهيد قبله ، ثوي هنالك منذ عشرين عاما ...

ورددوا مرثية الحسين في ابن عمه عقيل ، حين أتاه نبأ مصرعه المثير :

فان تكـــن الدنيـا تعد نفيســـة
فـــان ثواب الله أعـــلى وأنبـــل
وان تكن الأبـــدان للموت أنشئت
فقتل امـــرىء بالسيف في الله افضل

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢٢٥
وزرود : في طريق الحاج من الكوفة ، أنظرها في (معجم البلدان لياقوت)

وان تكـن الأرزاق قسمـــا مقدرا

فقلـة حرص المرء في السعي أجمل !

وان تكـن الأموال للترك جمعهـــا

فما بال متروك ، به المرء يبخل؟ (١)

واذ هم في طريقهم ــ على ثلاثة أميال من القادسية ــ لاح لهم غبـــار مثار ، ما لبث أن تكشف عن جيش جرار ، عرفوا فيه جيش عبد الله بن زياد ــ والي الكوفة ليزيد ــ وعلى رأسه الحر بن يزيد التميمي (٢)

وعدل «الحسين» بصحبه عن طريق الجيش ، فاعترضه الحر بن يزيد ، وما زال الحسين يسير بأهله وأصحابه يمينا ويسارا ، والحر يعترضهم مرة ويخلي بينهم وبين الطريق أخرى ، حتى بلغ بهم كربلاء ، فتركهم ينيخون هناك ، في اليوم الثاني من مستهل العام الجديد .

ورجع الحسين بصره في الجيش الرابض تجاهه ، فاذا الجند جميعا من أهل العراق !

وكانت عدتهم ــ أول الأمر ــ ألف مقاتـل ، والركب الحسيني لا يتجاوز عدده بضعة وسبعين فارسا ، من آل البيت وأصحاب الحسين !

* * *

وعرف « الحسين » مصـــيره ، قبل أن يقول لـه الحر بن يزيد وهو يسايره :

ــ أني لأشهد لئن قاتلت لتقتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن .

وأجاب الحسين الامام :

ــأفبالموت تخوفني ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني ؟ ما أدري ما أقول لك ، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله : أين تذهب فانك مقتول ؟

---

(١) مقتل الحسين : ١٩٢

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٢٢٠

فقال :

سأمضي ومـا الموت عار على الفتى
اذ مـا نوى حقا وجاهد مسلما (١)

* * *

وطاف بهم في ليلتهم الأولى هناك ، طائف منذر بما يطوي الغد القريب

وفي مخيم النساء ، كانت هناك السيدة زينب أخت الحسين ، وزوجه الرباب بنت امرىء القيس ، وبنتاه سكينة وفاطمة ، وبقيـة العقائل الكريمات من آل هاشم !

وطال عليهن الليل وهن يتذاكرن ما كان ، ويتوقعن ما سيكون :

وتركتهن السيدة زينب الى خيمة أخيها ، حيث رأته هناك مكبا على سيفه يصلحه ، وهو يرتجز :

يـا دهر أف لك من خليل	كم لك بالاشراق والأصيل
من طالب وصاحب قتيـل	والدهـر لا يقنع بالبديـل
وكـل حي سالك السبيل	ما أقرب الوعد من الرحيل

وأنما الأمر الى الجليل (٢)

صاحت العقيلة :

ـ واثكلاه .. ينعي الحسين نفسه ! ليت الموت أعدمني الحياة . ماتت أمي فاطمة ، وأبي علي ، وأخي الحسن ، ولم يبق غيرك يا خليفة الماضين وثمال الباقين ..

وفي رواية أنها سمعته رضي الله عنه يقول لها : اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال لي : انك تروح الينا .

فصاحت : يا ويلتا ..

قال : ليس لك الويل يا أخية . اسكتي رحمك الرحمن (٣)

وبلغت صيحتها ـ في سكون ذلك الليل الموحش ـ مسامع النساء في

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢٢٩ ومقتل الحسين : ١٧٨
(٢) تاريخ الطبري : ٦/٢٣٩ ومقاتل الطالبيين : ١١٣ ومقتل الحسين : ٢٣٩
(٣) تاريخ الطبري : ٦/٢٣٧ ومقاتل الطالبيين : ١١٣

مخيمهن ، فهرعن الى « الحسين » والكرب يعصف بهن عصفا ..

ونظر الحسين اليهن مليا ، ثم قال :

ـ يا أختاه ، يا أم كلثوم ، وأنت يا زينب ، وأنت يا سكينة ، وأنت يا فاطمة ، وأنت يا رباب ، اذا أنا قتلت فلا تشق احداكن علي جيبا ، ولا تخمش وجها ، ولا تقلن هجرا ..

وأطرقن جميعا واجمات ، وخيم على المكان سكون ثقيل راكد ، ما لبث أن مزقه نشيج مؤلم :

تلك كانت « سكينة » تبكي !

هذه التي أخذت نفسها منذ كانت ، أن تؤنس أباها كلما ثقل عليه الهم ، وأن تبدد بسنا ابتسامتها المشرقة ، بعض ما يغشى الأفق حوله من ظلال ربداء ..

وأقبل عليها أبوها في حنو ، وفي عينيه نظرة حزن وعتاب : كيف هان على سكينة أن توجع قلبه ببكائها ، وهي التي كان يجدها موضع أنسه كلما ألم حادث أو اشتد كرب ؟

وسألها ملاطفا : أفلا يهون عليها الأمر أن أباها يدفع حياته ، دفاعا عن حق ودفعا لباطل ، وانه ملاق غدا ، جده الرسول ، وأمه الزهراء ، واباه الامام ، وأخاه الحسن ، وعمه حمزة ، وابن عمه مسلم بن عقيل ، وانها لا بد لاحقة بهم في غد قريب أو بعيد ؟

لكنها لم تكف عن البكاء ، وكأنما كانت تبكي هموما طالما طوتها ، وتذرف دمعا آده الاحتباس الطويل .

ورنا اليها أبوها الحبيب طويلا ، ثم قال في شجاعة المستسلم لقضاء الله وقدره :

ـ سيطول بعدي عنك يا سكينة (١) ، فهلا ادخرت البكاء لغد ، وما غد ببعيد ؟

ثم أوصى أمها « الرباب » أن ترعاها ، وقام يصلي ...

---

(١) السيد توفيق الفكيكي : السيدة سكينة : ص ١٢٣

ولف الكون كله صمت خاشع ، لم يعد يسمع فيه سوى صوت « الحسين » في تهجده ، يتلو قرآن الفجر الذي بدأ نوره الشاحب ينبثق من خلال الظلمة ، معلنا عن مولد يوم جديد ، هو الثالث من محرم سنة ٦١ هـ .

وأصبحوا فاذا الأجناد قد تدفقت من الكوفة ، حتى بلغت عدتهم أربعة آلاف مقاتل ــ عليهم « عمر بن سعد بن أبي وقاص » (١) ــ لم يلبثوا أن زادوا حتى غدوا في بعض الروايات ــ عشرين ألفا !

ولم يبدأ قتال ، وانما أحاطت الآلاف بالحسين وصحبه معترضة سبيلهم الى المـاء !

وتتابعت الأحداث سراعا في عنف شرس ، فما استكمل الأسبوع دورته ، الا والساحة المشئومة قد امتلأت بجثث الشهداء من آل البيت ، غارقة في بحار من الدماء ..

وأمسك هنا عن وصف المذبحة المروعة ، فما من كتاب عن تاريخ تلك الفترة لم يصفها ، وأنا لا أجد لي طاقة على احتمال الحديث عنها ، بعد أن فعلت ذلك مرة ، في كتابي عن عقيلة بني هاشم « بطلة كربلاء » ! (٢)

وانما أمضي مسرعة لأقف الى جانب سكينة وقد اقتحم العسكر فسطاطها وأخرجت لترى هنالك أشلاء مختلطة مبعثرة ، لأبيها الحسين الامام ، وأعمامها : عبدالله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد وأبي بكر ، بني علي بن أبي طالب .

وأخيها الشقيق عبدالله بن الحسين

وأخويها لأبيها ، علي الأكبر وجعفر .

وأولاد عمها : أبي بكر وعبدالله والقاسم ، بني الحسن بن علي .

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢٣٤

(٢) ط دار الهلال بالقاهرة ، (الكتاب الرابع من هذه الموسوعة)

وابن عمتها زينب « عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب » (١)
وأخيه لأبيه : محمد بن عبد الله بن جعفر .
وبني العم عقيل بن أبي طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله .
هكذا ، مرة واحدة ، وفي يوم واحد ، هو التاسع من شهر المحـــرم
سنة ٦١ هـ (٢) .

* * *

وفي ذهول وقفت « سكينة » تطل على البقايا والأشلاء ...
حتى فرغ القوم من جز الرؤوس وجاءوا يسوقونها مع النساء الى
الكوفـــة .

هناك ألقت بنفسها على ما بقي من جسد أبيها ـ وفيه ثلاث وثلاثون
طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ـ واعتنقته متشبثة به ، فخيل اليها انها
تسمع صوتا يخرج من منخره الدامي : (٣)

شيعتي مـــا ان شربتم عذب مـــاء فاذكروني
أو سمعتـــم بغـــريب أو شهيـــد فاندبـــوني

ولكنهم انتزعوها من جسد أبيها في قسوة ، وألحقوها بركب السبايا !
وان كانت احداهن لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه ، فيذهب به
منها ! (٤)

وسيق الركب التعس ، نحو الكوفة .
وعند أطراف الساحة ، تمهل الركب برهة ريثما ألقت السبايـــا نظرة
أخيرة على البقايا .
وطيف برأس الحسين في أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل ..
أين الأشياع والأنصار ؟
أين الألوف الأربعون الذين ألحوا في دعوته ليناضلوا معه في سبيـــل

---

(١) ذكر في الطبري : ٦/٢٧٠ ان عون بن عبد الله ، وأمه جمانة بنت المسيب كان من بين قتلى كربلاء، وذلك هو عون الاصغر المقتول يوم الحرة • أنظر مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ١٢٤

(٢) انظر » أسماء من قتلوا من بني هاشم مع الحسين عليه السلام ، وعدد من قتل في كل قبيلة » في « تاريخ الطبري : ٦/٢٦٩ » وفي « مقاتل الطالبيين ٩١ »

(٣) السيد الفكيكي : ١٢٤ ومقتل الحسين : ٣٦٨

(٤) تاريخ الطبري ٦/٢٦٠

الحق ، فجاءهم ملبيا ، وترك مأمنه الى جوار البيت العتيق ؟

ألا فليملئوا عيونهم من رأس سيد الشهداء ، وليروا نسائه وبناته سبايا !

وليملئوا أسماعهم بصوت ابنته سكينة اذ تقف في الركب التعس حاسرة الوجه ، مهيضة الجناح تقول : (١)

ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما ان يخطىء الحدقه
بكف شر عباد الله كلهم
نسل البغايا وجيش المرق الفسقه

وصوت أمها الأرملة الثكلى اذ تقول (٢)

ان الذي كان نورا يستضاء به
بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبي ، جزاك الله صالحة
عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلا صعبا ألوذ به
وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن
يغني ويأوي اليه كل مسكين

* * *

وسيقت العقائل الهاشميات الى قصر الامارة ، في موكب تعس لم تشهد الدنيا له مثيلا من قبل ولا من بعد !

بنات النبي سبايا ، قد حملن على أقتاب الجمال بغير وطاء ، ممزقات الجيوب حواسر الوجوه حافيات الأقدام ، يتقدمهن حملة الرؤوس على أسنة الرماح !

رؤوس الحسين وثمانية وسبعين من اخوته وبنيه وبني أخيه وأبناء

(١) السيد توفيق الفكيكي : السيدة سكينة بنت الحسين : ١٢٥
(٢) السيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين : ٣٩٤

عمومته وأصحابه ! (١)

وتركت الجثث حيث هي على الساحة المشؤومة ، ملقاة بالعراء ، تسفي عليها الريح ، وتحوم عليها جوارح الطير وسباع الجو ، ويرعى فيها وحش الفلاة :

ابك حسينا ليوم مصرعه ... بالطف بين الكتائب الخرس
أضحت بنات النبي اذ قتلوا ... في مأتم والسباع في عرس (٢)

وسمعت سكينة أمها الرباب تقول : (٣)

واحسينا ، فلا نسيت حسينا ... أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعا ... لا سقى الله جانبي كربلاء !

* * *

ثم أمر « ابن زياد » بالموكب المثير ، فسيق الى دمشق ، كي تقر عينا « يزيد » بمشهده ومرآه .

وعرض الموكب على أهل دمشق ، قبل أن يساق الى حضرة يزيد ، ليضع الرأس بين يديه ، وهو يتاح له ان ينكث ثنايا الحسين بقضيب كان يمينه وهو ينشد متمثلا :

نفلّق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما (٤)

ثم يقول لمن حوله :

« ان هذا وايانا لكما قال الحصين بن الحمام المري :

(١) تاريخ الطبري : ٢٦١/٦ ومقاتل الطالبيين : ٧٨ وما بعدها
(٢) عيون الأنباء لابن قتيبة : ٢١٢/٢
(٣) الاغاني : ١٥٨/١٤ ساسي — ومقتل الحسين : ٣٩٣
(٤) تاريخ الطبري : ٢٧٦/٦ — ومقاتل الطالبيين : ١٢١ — وفي « نسب قريش : ١٢٨ » ان الذي تمثل بهذا البيت ، عبيد الله بن زياد

أبَى قومُنا أن ينصفونا فأنصفت

قواضب في أيماننا تقطر الدما » (١)

وفي رواية انه تمثل كذلك بقول عبد الله بن الزبعري في أحُد :

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسَلْ

قد قتلنا القرم من أشياخهم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل (٢)

وبلغ المشهد ذروته ، حين أخذ أحد أتباع يزيد يحدق في بنت الحسين ، ويسأل سيده أن يهبها له أمة جارية !

« لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ! »

وقام آخر من أهل الشام فقال : « ان نساءهم لنا حلال » . فقال علي بن الحسين :

« كذبت ، ما ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا » (٣)

* * *

ثم كانت نهاية المطاف في مدينة جد الحسين ، محمد عليه الصلاة والسلام ...

وكانت قد تلقت خبرا بقدوم « علي بن الحسين » مع عماته واخواته . حمله اليها رسول من « علي » الذي نجا من المذبحة وما كان لينجو لولا أن حمته عمته زينب ، وكان في حضنها مريضا ...

وضجت المدينة بالبكاء ، وهي تستقبل بقايا الركب الحسيني الذي ودعته الحجاز منذ أقل من شهر ! !

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/٢٧٦ والكامل لابن الاثير : ٤/٣٧

(٢) مقاتل الطالبيين : ١١٩ وشذرات الذهب ١/٩١ والابيات في « السيرة لابن هشام : ٣/١١٤ » حلبي • وتضيف رواية اليها بيتا ليزيد

لاهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا ما يزيد لا تشل ـ وانظر مقتل الحسين

(٣) تاريخ الطبري : ٦/٢٦٣ ـ ونسب قريش : ٥٨

والذي في « مقاتل الطالبيين ص ١٢٠ » أن السيدة زينب بنت علي ، هي التي قالت ذلك •

وبرزت النساء ـ كل النساء ـ صارخات باكيات ، وخرجت عقيلات بني هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه ، يندبن في لوعة : واحسيناه ، واحسيناه ..

وخرجت « زينب بنت عقيل بن ابي طالب » ـ أخت هانىء ـ على الناس ناشرة شعرها وهي تبكي قائلة :

مـاذا تقولون ان قـال النبي لكم
مـاذا فعلتم وأنتـم آخـر الأمم

بعترتي وبـأهلي بعـد مفتقـدي
منهم أسـارى ومنهم خضبوا بـدم

مـا كان هذا جزائي اذ نصحت لكم
أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي(١)

فما سمعها أحد الا وبكى ...

ولم تبق دار في المدينة الا وبها مأتم ..

ولبثت مناحة الشهداء هنالك قائمة أياما وليالي ، حتى جفت المآقي من طول ما سكبت من دمع ، وحتى صحلت الحلوق من طول ما أجهدها النواح ...

---

(١) هذه رواية الطبري للابيات وذكر انها لامرأة من بني عبد المطلب : ٦/٢٢١ ورواه الزبيري في « نسب قريش : ٥٨ » وابن قتيبة في « عيون الانباء : ٢/٢١٢ » مع خلاف يسير في الشطر الاول من البيت الثاني ، ومع ذكر اسم القائلة : زينب بنت عقيل
وانظر « مقتل الحسين : ٤٠٧ »

بعد العاصفة

وتضطرب الأخبار عن « سكينة » فترة ، فيقال في رواية انها صحبت عمتها « زينب » في خروجها الى مصر ، حين أدرك « يزيد » خطر مقامها بالمدينة فأمر واليه بها أن يفرق بينها وبين الناس حتى لا تكون ثورة(١)

واذا صحت هذه الرواية ، فلعل سكينة قد عادت الى الحجاز بعد وفاة عمتها زينب ، في شهر رجب من عام ٦٢ هـ .

وفي المدينة ، أقامت مع أمها الرباب ، التي خطبت بعد فترة الحداد ، فأبت أن تستبدل بالحسين زوجا وبرسول الله صهرا ، وقالت : ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والله لا أبتغي صهرا بصهركم
حتى أغيب بين الرمل والطين (٢)

على أن الرباب ، ما لبثت أن ماتت بعد عام واحد ، حزنا عليه ، وعلى ولدها عبد الله (٣)

وأقامت « سكينة » بعدها في كنف أخيها السجاد ، زين العابدين ، علي بن الحسين ..

وهنالك في المدينة،عادت أنظار بني هاشم فالتفتت الىالشريفة الحسناء من جديد ، وقد ثقل الحزن عليها ولما تزل فتاة في مستهل الشباب وعز الصبا ..

وأحاط بها قومها يلحون عليها في الزواج ، ابقاء على سلالة الحسين النقية الطاهرة التي لم يبق منها ـ بعد مذبحة كربلاء ـ غيرها ، وأختها فاطمة وأخيها علي زين العابدين .

---

(١) العبيدلي النسابة : السيدة زينب واخبار الزينبات : ١٨ ـ وأنظر معه الفصل الخاص بهذه الرحلة الى مصر ، في كتابنا « بطلة كربلاء »
(٢) الاغاني : ١٤/١٥٨ ساسي
(٣) تاريخ ابن الاثير : ٤/٧٣

وكانت الأحداث العنيفة التي مرت بها ، قد غيرت من حالها ، فلم تعد تتشبث بالبقاء في بيت أبيها بعد أن غاب عنه من كانت ترى حياتها لا تدور الا في فلكه .

ولعلها استجابت وقتئذ لرغبة آلها، ورضيت بالزواج، ولما يزل الجرح في قلبها ينزف دما ..

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياتها ، تكاد الحقيقة تغيب فيها وسط حشد من متناقض الأخبار وشتى الروايات ..

أما أختها « فاطمة » فاستقرت بها الحياة في بيت زوجها الحسن المثنى ، ابن عمها الحسن رضي الله عنه . فلما حضرت زوجها الوفاة قال لها : « انك يا فاطمة امرأة مرغوب فيك ، فكأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان اذا خرج بجنازتي قد جاء على فرس مرجلا جمته لابسا حلته ، يخطبك ، فانكحي من شئت سواه ، فاني لا أدع من الدنيا ورائي همًّا غيرك . » وصدق حدسه .. تزوجها عبدالله بن عمرو بعد تمنع منها واباء، فولدت له محمدا (الديباج) والقاسم ورقية بني عبد الله بن عمرو ، وكانت ولدت للحسين ابنه عبدالله الذي كان يقول : « ما أبغضت أحدا بغضي عبدالله بن عمرو ، وما أحببت حب ابنه محمد الديباج » (١)



(١) نسب قريش : ٥١

الفصل الثاني

في بيت الزوجية

- مثل من مروياتهم
- مع عبد الله بن الحسن
- مع مصعب بن الزبير
- مع ابراهيم بن عبد الرحمن
- مع الاصبغ المرواني
- مع عبد الله بن عثمان الحزامي
- مع زيد بن عمر العثماني



مَثَلٌ مِن مَروِيّاتِهم

وحين نعرض لسير الحياة بسكينة في هذه المرحلة ، نضع أمامنا ذلك الحشد من أخبار زيجاتها التي بلغت في بعض الروايات ست مرات ، وتضاءلت في روايات أخرى فلم تتجاوز الواحدة أو الاثنتين !

نقل السيد توفيق الفكيكي عن السيد عبد الرزاق الموسوي في كتاب له عن السيدة سكينة ما نصه :

« وهناك من المؤرخين من يحكي تزويج السيدة سكينة من ابن عمها عبد الله الأكبر ابن الامام الحسن المقتول في الطف مبارزة .. وأما غيره من الأزواج ، فعلى ذمة التاريخ » .

وأضاف السيد توفيق : « وهناك من الأدلة التاريخية المجمع على صحتها ، ما يؤيد أن سكينة تزوجت بعد ابن عمها عبد الله بن الحسن بن علي، بمصعب بن الزبير ، زوجه اياها أخوها الامام علي بن الحسين السجاد ـ ع » (١)

وأورد « ابن العماد الحنبلي » أسماء ثلاثة أزواج على الترتيب التالي : (٢)

مصعب بن الزبير ، ثم عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فأمره سليمان بطلاقها .

ولم يذكر اسم عبدالله بن الحسن الذي اقتصر عليه السيد الموسوي وكذلك لم يذكره « ابن خلكان » وانما جاء بقائمة فيها أربعة أزواج ، تبدأ « بمصعب بن الزبير » فهلك عنها .. ثم تزوجها عبدالله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ثم الاصبغ وفارقها قبل الدخول بها ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها ،

---

(١) الفكيكي : السيدة سكينة بنت الحسين : ص ١٢٢ ـ وانظر معه « مقتل الحسين : ٣٦٨ »
(٢) شذرات الذهب : ١/١٥٤

وقيل في ترتيب أزواجها غير ذلك » (١)

والذي في « نسب قريش ، للمصعب الزبيري » :

« كانت سكينة عند مصعب بن الزبير ، ثم خلف عليها عبد الله بن عثمان ابن عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد ، فولدت لـه حكيما وعثمان ـ المعروف بقرين ، وربيحة التي تزوجها العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم خلف على سكينة زيد بن عمرو بن عثمـان ابن عفان ، ثم خلف عليها ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فلم يتم نكاحه .. ثم خلف عليها الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فحملت اليه بمصر فوجدته قد مات » (٢)

فصار عدد أزواجها عنده خمسة أشخاص .

وجاء أبو الفرج الأصبهاني بخمس قوائم مختلفة : (٣)

١ ـ مصعب بن الزبير ، ثم الاصبغ ، ثم زيد العثماني ، ثم ابراهيم ابن عبد الرحمن .

٢ ـ الاصبغ ، ثم زيد العثماني ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن .

٣ ـ عمر بن الحسن ، ثم زيد العثماني ، ثم مصعب ، ثم الاصبـغ المرواني ، ثم عبد الله بن عثمان .

٤ ـ عمر بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان، ثم مصعب، ثم ابراهيم .

٥ ـ عبد الله بن الحسن ، ثم مصعب ، ثم الاصبغ المرواني ، ثم زيد العثماني ، ثم ابراهيم .

وتضيف رواية سادسة ، أن عبد الله بن مـروان خطبها بعد مصعب ، فرفضته أمها وقالت : لا والله ، لا تتزوجه أبـدا وقد قتل مصعبا ،

---

(١) وفيات الاعيان : ٢٩٨/١

(٢) نسب قريش : ٥٩ ـ وجاء في « جمهرة انساب العرب : ان زوجها زيدا العثماني ، هو ابن عمر ابن عثمان ، لا عمرو (٧٩) وجاء مرة بهذا الاسم زيد بن عمر في نسب قريش ١٢٠ ولعل سبب الاختلاف ان لعثمان بن عفان ولدين هما عمر وعمرو • انظر نسب قريش (١٠٤) والجمهرة (٧٥)

(٣) الاغاني : ١٥٨/١٤ ، ١٦١

ابن أخي (١)

وفي هذه القوائم أضيف اسمان جديدان الى الأسماء التي وردت في الروايات السابقة ، وهما : عمر بن الحسن ، وعمر بن حكيم بن حزام !

واختارت « دائرة المعارف » قائمة عجيبة ، ننقلها بنصها من الترجمة العربية : (٢)

« فأول أزواجها مصعب بن الزبير ، وقد أنجبا من هذا الزواج ابنة تزوجت من أخي مصعب !

ثم تزوجت عبد الله بن عثمان ، ابن أخي مصعب بن الزبير ، ثم الزبير ! ابن عمرو بن عثمان بن عفان .

ثم الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ولم يدخل بها . ثم ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . وعمرو بن الحاكم (!) بن حزام »

وفي هذه القائمة عجائب وغرائب من الأغلاط والأوهام :

فابنتها من مصعب ، تزوجت من أخي مصعب ، وهو عمها !!

وعبد الله بن عثمان ، هو ابن أخي مصعب بن الزبير كما تقول الدائرة، وليس لمصعب أخ يدعى « عثمان » في أي مرجع من مراجعنا ، وقد أورد الزبيري ــ حفيد الزبير ــ أسماء ولد الزبير بن العوام ، ولا عثمان فيهم ! (٣)

وزوجها الثالث في الدائرة : الزبير بن عمرو بن عثمان . وليس لعمرو ولد يدعى الزبير ، في (جمهرة أنساب العرب) و (نسب قريش) .

وآخر أزواجها في الدائرة : عمرو بن الحاكم بن حزام ، وليس لحزام ولد يدعى الحاكم وانما هو حكيم ، وليس لحكيم ولد يدعى عمرا في أنساب العرب أو نسب قريش (٤)

أما عبد الله بن الحسن ، فصرحت الدائرة بأنها تستبعد زواجه من

---

(١) الاغاني : ١٤/١٦٢ ساسي

(٢) مادة : سكينة بنت الحسين

(٣) نسب قريش : ٢٣٦ والجمهرة ١١٢

(٤) نسب قريش : ٢٣١ والجمهرة ١١٢

سكينة ، دون أن تبين لنا سبب هذا الاستبعاد ..

* * *

وتقارن بين هذه المرويات فترى :

أن زوجها الأول : هو ابن عمها عبد الله بن الحسن ، في احدى روايات الأغاني (١) . واقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة (٢)

ولم يذكره « ابن خلكان » ، وأنكرته دائرة المعارف دون تعليل لهذا الانكار .

أو هو عمر بن الحسن ، في رواية الأغاني نفسها .

أو هو مصعب ، في رواية ابن خلكان والمصعب الزبيري واحدى روايات الأغاني ودائرة المعارف .

أو هو الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان في رواية بالأغاني !

ويختلف موضع الزوج بين الأزواج ، فيكون الاصبغ أولهم في رواية ، ورابعهم في أخرى !

وتختلط الأسماء اختلاطا عجيبا ، بل شاذا ، حتى ليشطر الاسم الواحد شطرين ، يؤتى بكل شطر منهما على حدة ، فيكون منهما زوجان للسيدة سكينة !

فعبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، شطر شطرين ، فكان منه زوجان :

عبد الله بن عثمان ، وعمرو بن حكيم بن حزام ، أو كما ترجم في دائرة المعارف : عمرو بن الحاكم !

* * *

ولا سبيل هنا ـ أمام ما نرى من تناقض وشذوذ ـ الى تتبع حياتها الزوجية تتبعا دقيقا يعتمد على اليقين التاريخي ، هذا اليقين الذي يعز علينا في التاريخ النقلي بوجه عام ، وهو هنا في موضوع زوجية سكينة ،

(١) ج « ١٤ ص ١٦٠ ساسي »
(٢) توفيق الفكيكي : السيدة سكينة ٧٥ ، ١١٢ ـ والسيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين : ٣٦٨

أبعد من أن يلتمس وأعز من أن يدرك أو ينال . فنحن لا نكاد نحاول ما نبغي من تتبع حتى يلقانا عنت من اضطراب الروايـات وتناقض الأخبار وتعدد الأقوال واشتباك السبل ، الى حد يتعذر علينا معه أن نستبين وجه الحق في هذا الحشد المختلط المشتبك ، واذ ذاك لا سبيل الى أن نطمع في أكثر من الترجيح الذي يعتمد على مـا نسميه الطمأنينة النفسية ، أكثر مما يعتمد على مرجحات منهجية وقرائن غالبة .

لقد كان أمر هذا التناقض في الروايات والأخبار يهون ويسهل ، لو انه توزع بين مراجع شتى مختلفة ، ينفرد كل منها باحدى الروايات فيكون سبيلنا الى الترجيح أن نختار أقدمها أو آصلها أو أدعاها الى الثقة ، على هدى القواعد المقررة للترجيح والوزن والمقابلة ، والتعديل والتجريح .

ولكنا هنا أمام روايـات متناقضة تجتمع في المصدر الواحد ، دون محاولة من مؤلفها للفصل بينها أو حسم الخلاف فيها ، بل دون كلمة تؤذن بأنه يحس ضيقا بهذا الخلاف .

ففي صفحة واحدة من الأغاني مثلا ، تقرأ أربـع روايات متناقضة متضاربة ، سردها أبو الفرج متتابعة، ثم لا شيء أكثر من هذا السرد(١)

واذا بلغ الخلاف في الموضع الواحـد أن يكون الاصبغ المرواني أول أزواجها في رواية ، ورابعهم في أخرى ، ثم لا يشار الى هـذا الخـلاف بكلمة واحدة .

واذا بلغ الشذوذ فيما يروى عن حياتها الزوجية ، أن تلد لمصعب بنتا تتزوج من عمها أخي مصعب ! (كما في دائرة المعارف الاسلامية) وأن يقال أن الرباب بنت امرئ القيس ، التي أهلكها الحزن على زوجها الحسين فماتت بعده بعام واحد ، قد بعثت من قبرها لتشهد مصـرع مصعب بعد سنة ٧٠ هـ وترفض زواج بنتها سكينة من قاتله ! (كما في الأغاني) .

---

(١) ج ١٤/١٦ ساسي

وأن تزوجها (دائرة المعارف) عبد الله بن عثمان ، ابن اخي مصعب ، وعمرو بن الحاكم بن حزام ، ولا خبر في نسب قريش وأنساب العرب عن وجود أخ لمصعب اسمه عثمان ، أو حفيد لحزام اسمه عمرو بن الحاكم

أقول : اذا بلغ الأمر هذا المبلغ من التناقض والاضطراب والشذوذ ، فمن العبث أن نطمع في قرائن منهجية مرجحة ، وبخاصة اذا قدرنا أن هذه الكتب ـ وحالها كما رأيت ـ هي مصدر مادتنا عن السيدة سكينة ، ومرجعنا فيما نورد من أخبارها .

والذين جربوا الدراسة اعتمادا على الرواية النقلية ، قد عانوا الكثير من مثل ذلك التناقض اللافت ، وضجوا بالشكوى منه ، سواء منهم الذين اشتغلوا بالتراجم والسير ، ومن كتبوا في التاريخ السياسي أو الأدبي .

وحين تعوزنا مرجحات منهجية ، لايبقى لدينا الا أن نلوذ في قبول ما نقبل من هذه المرويات ، ورفض ما نرفض منها ، بما نطمئن اليه نفسيا على هدى ما نعرف من سنن الفطرة ، وما نقرأ من شتى الأخبار ، وما نفهم من ايحاء البيئة وطبيعة الشخصية ومقتضيات الموقف !

❋

مع عبدالله بن الحسن

ونبدأ بعبد الله بن الحسن بن علي

ذاك الذي اقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة ، ولم يذكره ابن خلكان ، وذكره أبو الفرج مرة باسم عبد الله ومرة باسم عمر ، وقالت الدائرة : « أما ما ذكره صاحب الأغاني من زواج سكينة بابن عمها عبد الله بن الحسن بن علي ، فقول يصح لنا انكاره » .

لماذا صمتت الدائرة فلم تذكر كلمة عما دعاها الى الانكار ؟ .. وليس الانكار أمرا سهلا ، ولا هو مما يجوز أن يرسل بغير دليل .

انه ـ في حساب المنهج ـ كالاثبات تماما ، كلاهما يقتضيان أن تأتي بدليل ..

وذلك بخلاف التوقف ، فهو وحده الذي لا يلزمك بالدليل ، وانما يكفي فيه ألا تطمئن في الخبر الى اثبات أو انكار .

ولسنا نملك هنا أي دليل ، يؤيد مسلك (الدائرة) في استبعاد القول بزواج سكينة من ابن عمها الحسن ، فصمت بعض المراجع التاريخية عن ذكره لا يمكن أن يرقى الى مرتبة القرائن ـ بله الأدلة ـ بعد الذي أشرنا اليه من تناقضها واضطرابها .

واذن فليس ثمت ما يمنع من أن يكون عبدالله بن الحسن خطبها أو تزوجها كما ذكرت المصادر الشيعية .

ولكنا نعلم أن عبدالله قد قتل بالطف مع أخيه القاسم ، ذكر ذلك الأصفهاني في (مقاتل الطالبيين) والطبري الذي أورد اسم عبدالله والقاسم ابني الحسين ، بين من استشهدوا مع الحسين في كربلاء، وذكره كذلك الزبيري في نسب قريش ، وابن حزم في الجمهرة ، والسيد عبد الرزاق الموسوي في (مقتل الحسين : ٣٢٨) .

ونحن نطمئن ، الى أن سكينة قد قتل عنها أبوها ولما تتزوج .

ولو قد تزوجت في حياته ، لما فات ذلك ــ فيما نرجح ــ الذين أرخوا للحسين ، كما لم يفتهم خبر خطبة الحسن المثنى لاحدى ابنتي عمه ، واختيار الحسين ابنته فاطمة زوجة له .

ولما فات الذين تتبعوا أنساب قريش .

فلعله اذن خطبها الى أبيها ، ولم يتم الزواج . كما ذكر « الطبرسي » في أعلام الورى .

ويرجح عندنا عدم اتمام الزواج، ما ذكره السيد عبد الرزاق الموسوي في (مقتل الحسين : ٣٢٨) من أن عبد الله بن الحسن كان غلاما ، يوم مقتله بالطف .

ولا نملك ما نضيفه الى هذا ، وليس في أي مرجع مما بين أيدينا ، ما يشير الى هذا الزواج بأكثر من الخبر المقتضب ، الذي أوردناه (١) ، والذي ليس فيه أكثر من أنه تزوجها وقتل عنها بالطف ولم تلد له .

وأغلب الظن أن السيدة سكينة نفسها لم تشغل بهذه الخطبة الأولى ــ لو صح الخبر عنها ــ في تفرغ واهتمام ، بل كان بالها مشغولا بهذا الأب الحبيب في معركته العنيفة ، وأن الأحداث قد جذبتها الى دوامة الاعصار ، وشغلتها عن خطيب وبيت ، كما فعلت بعمتها السيدة زينب ، التي عاشت في صميم المعركة ، حتى كدنا ننسى أنها زوجة وأم .

وقد ألهت الفجيعة الكبرى في الحسين « زينب » عن ولد لها استشهد مع عمه فلم نسمعها تذكره أبدا ،و كذلك ألهت الرباب ــ أم سكينة ــ عن ولدها عبدالله ، فلم يصل الينا أي خبر يصور حزنها عليه، وانما الذي وصل الينا أنها رثت زوجها الامام وعاشت تبكيه حتى ماتت حزنا عليه ، بعد عام واحد من كربلاء (٢)

---

(١) عن « الاغاني » والسيد عبد الرزاق الموسوي . والطبرسي . راجع قوائم الازواج التي اوردناها في مستهل الفصل .

(٢) ابن الاثير : الكامل ٤/٧٣

فلا غرابة اذن في أن تكون خطبة عبد الله لسكينــة ، قــد مرت بهــا عابرة كأن لم تكن ، لا في حسابها هي ، ولا في حساب الذين كتبوا تاريخ تلك الفترة ، وهزتهم أحداثها الكبار ، فمــا عادوا يذكرون الا المأساة الفادحة ، التي خضبت صفحة مــن التاريخ الاسلامي ، لا نعرف لها مثيلا ، بشاعة وعنف أثــر ...

وما كان من السهل أن تفرغ بنت الحسين لمشاغل الزواج ، في تلك الفترة التي تلاحقت فيها الأحداث الجسام ، متدافعة في سرعة عنيفة تبهر الأنفاس ، نحو ذروتها الفاجعة !

ولا كان من المعقول أن تسكن الى زوج ، وتدع أباها في همه الأكبر ، وهو الذي ما كان يأنس الا بها ، ولا يستريح الا اليها ..

❁

مَعَ مُصْعَبِ بنِ الزبير

وانما تبدأ حياتها الزوجية الحقة ، بمصعب بن الزبير .

والأرجح عندنا أنه كان أول من تزوجته بعد مقتل أبيها الامام .

وهو أول أزواجها عند ابن خلكـان (١/٢٩٨) وعند المصعب بن عبد الله الزبيري في نسب قريش (٥٩) .

وكذلك هو أولهم في احدى روايات الأغاني (١٤/١٦٢) وفي شذرات الذهب (١/١٥٤) .

وسواء أكان أول من تزوجها على ما ذكر هؤلاء ، أم كان قد تزوجهـا بعد أن قتل خاطبها الأول عبد الله ، ابـن عمها الحسن ـ على ما تقول الرواية الأخرى ـ فالذي لا يكاد يُختلف فيه ، ان مصعبا يأخذ المكان الأول في حياتها الزوجية الطويلة .

ومعه بدأت تحس نوعا من الاستقرار ، وتحاول أن تتناسى ما مر بها من محن وكروب ، ولما تزل فتاة في عنفوان الصبا وعز الربيع .

أمنية قديمـة

وقد أشرت من قبل ، الى أن الزواج من سكينة كـان أمنية قديمة لمصعب ، تعلقت بها رغبته أيام ظهرت في المجتمع المكي لأول مرة ، عندما صحبت أباها رضي الله عنه في رحلته الى البيت الحرام ، اثر ولاية يزيد ابن معاوية ، والحاحه على واليه بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين قسـرا .

ويبدو أن مصعبا صارح برغبته هذه بعض أصفيائه ، بعد أن خرجت من مكة مع من خرج من آل الحسين ، في رحلـة المـوت ، تلـك التي انتهت بمذبحة كربلاء ..

ففي كتاب « عيون الأخبار » ، ان أربعة من رجالات قريش ، هم : « عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الملك ابن مروان ، اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : « تمنوا » . فقالوا : « ابدأ أنت » . فقال : « ولاية العراق ، وتزوج سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله » وتمنى عروة بن الزبير الفقه ، وأن يحمل عنه الحديث ، وتمنى عبد الملك الخلافة ، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة » (١)

فلما حالت الظروف أول الأمر دون زواجه من « سكينة » تزوج من تلك الأخرى التي تمناها : عائشة بنت طلحة ، غادة قريش الجميلة التي خلد اسمها شعراء الحجاز : عمر بن أبي ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومي ، وابن قيس الرقيات (٢) ، في قصائد رجعتها معازف المغنين وأصوات المغنيات ، كما تعلقت بها آمال عدد من أمجد الفتيان القرشيين، فما يمضي عنها زوج الا سارع الخطاب متلهفين الى تلك التي شاعت فيها قولة « أبي هريرة » حين رآها لأول مرة : سبحان الله ! .. كأنها من الحور العين (٣)

و « عائشة » كانت تجمع الى جمالها عزة النسب : فأبوها طلحة بن عبيد الله التيمي ، الصاحب الجليل . وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق وخالتها عائشة أم المؤمنين .

تزوجها قبل « مصعب » ، ابن خالها « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق » . وكانت خالتها السيدة عائشة هي التي سعت في هذا الزواج ، فلقي عبد الله الأمرين من دلالها ومصارمتها وشراستها — وكان يقال في نساء بني تيم : هن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن . وكانت عمتها أم اسحق بنت طلحة عند الحسين بن علي ،

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٢/٢٥٨ دار الكتب المصرية
(٢) اقرأ أشعارهم في « الاغاني ج ١١ دار الكتب »
(٣) الاغاني : ١١/١٨٩ دار الكتب ، وانظر فيه كلمة اخرى لابن هريرة ، ص ١٩٢ ، ١٨٠

فسمع مرة يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني .. »

وزاد « عائشة بنت طلحة » زهو الجمال شراسة على شراسة ، حتى مكثت مصارمة غضبى عند خالتها السيدة عائشة ، فقيل له : « طلقها » ، فأجاب منشدا : (١)

يقولون : طلقها لأصبح ثاويا
مقيما على الهم ! .. أحلام نائم
وان فراقي أهل بيت أحبهم
لهم زلفة عندي لاحدى العظائم

ولبث يكابد منها ما يكابد ، في صبر واحتمال ، حتى مات عنها فما فتحت فاها عليه ! ..

مات ، وترك لها أربعة بنين : عمران ــ وبه كانت تكنى ــ وعبد الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، وبنتا واحدة هي نفيسة تزوجها الوليد ابن عبد الملك (٢)

ومع ذلك العبء الثقيل من الأبناء ، وما ذاع في المجتمع القرشي من أخبار ما لقي زوجها الراحل من شراستها ومصارمتها ، هفت قلوب الى الزواج منها .

وكان « مصعب » أحد هؤلاء ...

وقد أحب أول الأمر أن يستطلع حالها بعد أن أثقلتها الأيام بأعباء الحمل والولادة خمس مرات ، فبعث « عزة الميلاء » ــ المغنية المشهورة ــ لتأتيه بوصفها ، وكانت « عزة » خبيرة بشئون النساء . فمضت عزة ، حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة :

ــ فديتك ، كنا في مأدبة ــ أو مأتم ــ لقريش ، فتذاكروا جمال

---

(١) كذا في الاغاني (١١/١٨١ دار الكتب) والذي في « نسب قريش ص ٢٧٧ » ان هذه الابيات لعبد الله في زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل

(٢) كذا في « جمهرة انساب العرب : ١٢٨ » ومثله في « الاغاني ١١ ، ١٨٠ دار الكتب » وقال في « نسب قريش » بعد ذكر ولد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وأمه عائشة بنت طلحة · (ص ٢٧٨) ولعله خطأ مطبعي صوابه : وأمهم عائشة بنت طلحة ، كما في الجمهرة والاغاني

النساء وخلقهن ، فذكروك فلم أدر كيف أصفك ، فديتك ، فألقي ثيابك.
ففعلت عائشة ...
وتأملتها عائشة مليا ثم قالت : خذي ثوبك فديتك !
وهمت بالانصراف ، لكن « عائشة » أمسكتها وقالت : قد قضيت حاجتك ، وبقيت حاجتي
سألتها عزة : وما هي ، بنفسي أنت ؟
أجابت : تغنيني صوتا

فاندفعت تغني لحنها في شعر جميل بثينة :

خليلي عوجا بالمحلة من جمل
وأترابها ، بين الأصيفر والخبل
نقف بمغان قد محا رسمَها البلى
تعاقبت الأيام بالريح والوبل
فلو درج النمل الصغار بجلدها
لأندب أعلى جلدها مدرج النمل

فقامت « عائشة » فقبلت ما بين عينيها ، ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من الفضة ..
وعادت عزة تقول لمصعب :
« لا والله ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة .. نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر لفاء الجسم ممتلئة الصدر خميصة البطن ... وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار وأما الآخر فيواريه الخف : عظم الأذن والقدم » (١)
وتزوجها مصعب ..
وأمهرها خمسمائة ألف درهم ، واهدى لها مثل ذلك (٢)
وكان ابن قيس الرقيات قد قال في « عائشة » :

(١) الاغاني : ١١/١٧٧ دار الكتب
(٢) الاغاني : ومثله في (عيون الاخبار : ٢/٢٥٨)

ان الخليط قـــد أزمعـــوا تركـــي
فـــوقفت فـــي عرصـــاتكم أبكـــي
عجبنـــا لمثلـــك لا يكـــون لـــه
خـــرج العـــراق ، ومنبـــر الملـــك

وغناه معبد (١)

فكان لعائشة خرج العراق بالزواج من أميره مصعب بن الزبير .

أما منبر الملك فادخـره القدر لابنتها من زوجهـا الأول : نفيسة بنت عبد الله حفيد الصديق ، اذ تزوجها ــ لما شبت ــ الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين (٢)

* * *

وكذلك تحققت لمصعب أمنيتان من أمانيه الثلاث : ولاية العراق ، وتزوج عائشة بنت طلحة .

وبقيت الأمنية الثالثة : بقي أن يتزوج من سكينة بنت الحسين، فيجمع بين أجمل غادتين في زمانه ! ..

وقد شغلته الشواغل الجسام التي ألقيت على كواهل آل الزبير بعد استشهاد الامام الحسين في كربلاء ، اذ اعتصم كبيرهم « عبد الله » بالبيت الحرام ودعا الى نفسه بالحجاز . وتأهب « يزيد » لقتاله بعد فترة من مصرع الحسين وأهله ، وسير اليه فعلا جند الشام بقيادة « مسلم بن عقبة » فبدأ بالمدينة وقتل أهلها مقتلة عظيمة فسمي ذلك اليوم يوم الحرة ، (٣) وأنهبها جنده ثلاثة أيام ، ثم شخص بمن معه متوجها نحو مكة فأدركته منيته في ثنية هرشي ، وسار الجيش من بعده فحاصر ابن الزبير .

لكن الموت لم يمهل « يزيد » حتى يفرغ من ابن الزبير ، فقد جاء نعيه من دمشق يوم أهل ربيع الآخر من تلك السنة ، واستخلف من بعده

(١) الاغاني : ١١/١٧٥ دار الكتب
(٢) جمهرة انساب العرب : ١٢٨
(٣) تاريخ الطبري : ٧/٥ • ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ وما بعدها ونسب قريش : ١٢٧

ابنه « معاوية الثاني » وعمره يومئذ أقل من ثلاثة عشر عاما وأمه بنت أخي هند ، هاشم بن عتبة بن ربيعة .

وأحس الغلام انه أضعف من أن يحتمل العبء الجليل ، فما كاد يلي الخلافة حتى أمر فنودي بالشام : الصلاة جامعة . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فاني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه . فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب ــ رحمة الله عليه ــ حين فزع اليه أبو بكر ، فلم أجده . فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة « عمر » فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم .

« ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس ، وتغيب حتى مات بعد أربعين يوما ، فقال بعض الناس : دس اليه فسقي سما ، وقال بعضهم : طعن» (١)

وتولاها مروان بن الحكم ، فلم يلبث أن مات في مستهل شهر رمضان من العام نفسه (٢)

وخلفه ابنه عبد الملك ، لكن بعد أن استفحل أمر عبد الله بن الزبير بمكة ، وأفلت زمام العراق من بني أمية .

وكاد يفلت كذلك من أيدي الزبيريين بوثوب « المختار » بالكوفة واستفحال خطره ، ومحاولته انتزاع العراق لنفسه ، بدعوى الثأر للحسين !

وهكذا الفى « مصعب » نفسه في صميم المعركة ..

لكنه ظل مع ذلك يلتفت نحو الحجاز حينا ، ويشغل بمشاغبات زوجته الحسناء عائشة بنت طلحة حينا آخر ، لعله ينسى أمنيته الثالثة التي لم تتحقق ...

* * *

ولا أدري كيف رضي « مصعب » أن تذاع في الناس أخبار حياته الخاصة مع عائشة ــ ان صحت هذه الأخبار ــ وان يدع الشعراء

(١ ، ٢) تاريخ الطبري : ٣٤/٧

والسمار يجعلون من جمالها ودلالها ومتعة مصعب بها ، مادة السمر والحديث !

ومن هذه الأخبار التي ذاعت عنه مع عائشة ، ما يبدو مناقضا للذائع المشهور من مروءته ، اللهم الا أن يفسره عامل نفسي جعل « مصعبا » يتلهى عن أمنيته التي لم تتحقق بالزواج من بنت الحسين ، ويحاول اقناع نفسه والناس معه ، بأنه بعائشة في شغل ! ..

أو لعل جمال عائشة ، كان مادة خصبة لمخترعات السمار وتهاويل القصاص واضافات الرواة جيلا بعد جيل ...

من تلك الأخبار مثلا ، ان عائشة غضبت عليه يوما ، فشكا ذلك الى أشعب ـ وكان مقربا اليها ـ فسأله أشعب : ما لي أن رضيت عائشة ؟

أجاب مصعب : حكمك

فقال أشعب : عشرة آلاف درهم ! ..

قال مصعب : هي لك ..

ومضى أشعب حتى أتى عائشة فقال لها : جعلت فداءك ، قد علمت حبي لك وولائي قديما وحديثا من غير منالة ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي وترتهنين بها شكري .

سألته : وما عناك ؟ ..

فأجاب : قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم ان رضيت عنه ! ..

قالت : ويحك ، لا يمكنني ذلك ...

فصاح بها : بأبي أنت ، فارضي عنه حتى يعطيني ثم عودي الى ما عودك الله من سوء الخلق !.. قالوا : فضحكت منه عائشة ، ورضيت عن مصعب (١)

ومنها : ان مصعبا دخل عليها يوما وهي نائمة متصبحة ، ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها . فقالت وهي تشيح بوجهها : نومتي كانت أحب الي من هذا اللؤلؤ ! .. (٢)

---

(١) الاغاني : ١١/١٧٧ دار الكتب
(٢) الاغاني : ١١/١٨٢ دار الكتب

ومنها : انه شكا مرة الى كاتبه ابن أبي فروة ما يجد من شراستها ومعاسرتها اياه ، فذهب اليها أبو فروة هذا مع عبدين أسودين ، وادعى أن سيده أمره بحفر بئر تدفن فيها عائشة حية ! .. فقد ظن أنها تبغضه فجن غضبه ! .. فصدقته (!!) وما زالت تلح على أبي فروة أن يعاود مصعبا وأقسمت ألا تغاضبه ! (١)

ومنها : انها كانت يوما في مجلسها مع جمع من نساء قريش ، فغنتها « عزة الميلاء » من شعر امرىء القيس :

وثغر أغر شتيت الثنا
لذيذ المقبل والمبسم
وما ذقته غير ظن به
وبالظن يقضي عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ، ومعه بعض اخوانه، فقام منفعلا حتى دنا من الستور المسبلة وصاح : يا هذه ، انا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت ! ثم قال لعائشة أما أنت فلا سبيل لنا اليك مع من عندك ، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود اليك .

وانتقلت عزة الى مجلس الرجال ، فغنت هذا الصوت مرارا ..

وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحا ! (٢)

ومنها تلك القصة التي ذكرها الشعبي ، قال : دخلت المسجد فاذا أنا بمصعب بن الزبير والناس حوله ، فسلمت ثم أردت الانصراف فقال لي : ادن . فدنوت حتى وضعت يدي على مرفقته ، ثم قال : اذا قمت فاتبعني . فجلس قليلا ثم نهض فتوجه نحو دار موسى بن طلحة ، فتبعته حتى دخل حجرته ، فرفع السجف فاذا أنا بعائشة بنت طلحة فلم أر زوجا قط أجمل منهما : مصعب وعائشة . قال مصعب : يا شعبي ، هل تعرف هذه ؟ .. فقلت : نعم ، أصلح الله الأمير ، هي سيدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة ، قال : لا ، ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

---

(١) الاغاني : ١١/١٨١ دار الكتب
(٢) الاغاني : ١١/١٨٣ دار الكتب

وما زلت من ليلى لدن طر شاربي
الى اليــوم أخفــي حبها واداجــن
واحمــــل في ليلى لقـــوم ضغينة
وتُحمل في ليلى عليَّ الضغائن ! ..

ثم أذن لي فقمت . فلما كان العشي رحت الى المسجـــد ، واذا هو في مجلسه هناك ، فسلمت فاستدناني وقال : هل رأيت مثل ذلك لانسان قط ؟ قلت : لا والله . قال : أفتدري لم أدخلناك ؟ قلت : لا . قال : لتحدث بما رأيت ! ثم التفت الى عبد الله بـن أبي فروة فقال : أعط الشعبي عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا ، فما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبالثياب ، وبنظرة الى عائشة بنت طلحة » (١) ..

ومنها ... ومنها ...

وانه لموقف صعب التصديق من مثل مصعب ، أن يبتذل أخبار حياته الخاصة هكذا ، وهو مضرب المثل في المروءة ..

ويزيده صعوبة ، ان الرجل كما رأينا ، قد كان في صميم المعركة التي احتدمت بين بني أمية وآل الزبير ، بعد أن تولى « عبد الملك » الخلافة في دمشق ..

أهي اذن من اضافات الرواة ومبتدعات القصاص ؟

غير بعيد ...

أو لا ، فهي تشاغل من « مصعب » ، حين لم يعد يجديه التعلق بما بدا شبه ميئوس منه ، والالتفات الى ما فاته من تزوج بنت الحسين ..

ومهما يكن الرأي في تلك المرويات والأقاصيص ، فالذي لا شك فيه ان احتدام المعركة لم يلبث أن استأثر بأكثر هم « مصعب » فلم يدع له وقتا يفرغ فيه لمشاغله الخاصة ، اللهم الا فترات خاطفة كانت عائشة كفيلة بأن تملأها عليه ..

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ـ ٢١/٤ ، الاغاني : ٣١٠/٢ دار الكتب

ثم استطاع كر الغداة ومر العشي لمـدى سنين ، أن يطوي الأمنية القديمة تحت ركام من التشاغل والتناسي ...

المهر الغـالي

ولكن الركام انهار ...

ومن تحته بدت الرغبة المكبوتة متوهجة ، وكأن لم تزدها الأيام والليالي الا احتداما واحتكاما ..

ذاك يوم عرف أن « سكينة » كفت عن تمسكها بالعزوف عن الزواج..

ولن يدعها « مصعب » تفلت من يديه ..

وشد رحاله الى « المدينة » وتقدم الى أخيها السجاد زين العابدين ، علي بن الحسين ، يطلب مصاهرته ، يرشحه لهذا الشرف : كرم أصله ، واكتمال مروءته ، وعزة فروسيته ...

وقبل ابن الحسين ...

وقبلت سكينة ...

وطار النبأ في أنحاء الحجاز ، ان مصعبا قدم ألف ألف درهم صداقا لبنت الحسين ..

وزاد فأعطى أخاهـا عليا ، حين حملها اليه ، أربعين ألف دينار ..

ولم يدهش أحد لهذا ، بعد أن أصدق مصعب « عائشة بنت طلحة » ألف ألف ..

وأين بنت طلحة من بنت الحسين ؟..

ولكن شخصاً واحداً ضاق بهذا الاسراف ..

ذلك هو عبدالله بن الزبير ، الذي جزع لهذه الألوف المؤلفة ، تدفع مهورا لربات الجمال ، وبنو أمية هنالك في دمشق ، يشترون بالمال سيوف الرجال ، كيما يحاربوا بها عبد الله بن الزبير ، وأخاه مصعبا ، كدأبهم مع الشهيد الحسين وأبيه الامام علي ، رضي الله عنهما .

---

(١) عيون الأنباء : ٢٥٨/٢ .

وسكت عبد الله بن الزبير على مضض ، حتى حملت اليه رسالة من عبد الله بن همام ، يقول فيها :

أبلـــغ أمـــير المؤمنـــين رسالة
من ناصـــح لك لا يريد خـــداعا
مهر الفتـــاة بألف ألف كامـــل
ونبيت سادات الجنـــود جياعـــا
ولو لأبي حفص أقـــول مقـــالتي
وأبث مـــا أنبأتـــكم لارتاعـــا !

قال عبد الله بن الزبير : صدق والله ، لو قيلت هذه المقالة لأبي حفص ـ عمر بن الخطاب ـ لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف (١) ..

وكان مصعب يومئذ أميرا على البصرة ، فبعث اليـــه أخوه ، يعزله ويستدعيه ..

* * *

متى تم زواج سكينة بمصعب ؟

ذكرت احدى الروايات ، انه تزوجها وهو عامل لأخيه على البصرة ، ونرجح انه قد كان بعد سنة ٦٦ هـ ..

ذلك لأن مصعبا كان في سنة ٦٥ هـ ، عاملا لأخيه على المدينة (٢) . والمطمأن اليه انه تزوج من سكينة وهو بالعراق ، واذا صحت رواية الأغاني عن عزل عبد الله لأخيه مصعب عن ولاية البصرة ، لما أن جاءه خبر الصداق الغالي الذي دفعه لبنت الحسين ، فان الزواج يكون قد تم في عام ٦٧ هـ ، حيث كان مصعب هناك والياً (٣) ..

على أن عبد الله بن الزبير لم يلبث أن رد أخاه الى البصرة والعراق ، لما ظهر من تخليط ابنه « حمزه بن عبد الله هناك . ثم ندب مصعبا لحرب

---

(١) الاغاني : ١٦٣/١٤ ساسي
(٢) تاريخ الطبري : ١٤٦/٧
(٣) تاريخ الطبري : ١٦٢/٧

المختار بالكوفة ، بعد ان ظهر بغيه وجوره وفتكه بأهلها ، تحت قناع الثأر لسيد الشهداء ..

منافسة خطرة

انتقلت العروس الهاشمية ، ذات العشرين ربيعا ، الى بيت زوجها مصعب بالعراق في موكب حافل وجهاز فخم ..

ولعلها تلبثت فترة عندما وطئت راحلتها أرض العراق ، تحدق في ساحة الذكريات ، وتكر بها راجعة الى الماضي ...

على أنها حين دخلت بيت مصعب ، طوت أحزانها عند الباب ، كما اعتادت أن تفعل من قديم ، واستقبلت دنياها بوجه يتألق بشرا ، وهنالك لقيتها « عائشة بنت طلحة » في أتم زينة ، وكأنها المجلوة لعرس !..

وكان ثمة زوجة ثالثة قد سبقتها الى بيت مصعب ، تلك هي « فاطمة بنت عبد الله بن السائب الأسدي » تزوجها مصعب لا عن رغبة وحب ، ولكن بدافع من مروءته وشهامته ..

فلقد كانت قد تزوجت من قبله، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، فلما دخل عليها طلقها وهي على منصة العرس ، فأتى أبوها عبد الله بن السائب ــ وكان شريفا وسيطا من سادة بني أسد ــ الى حلقة في المسجد من قريش ، فيها نفر من بني الزبير بن العوام الأسدي فقال :

« اني زوجت عبد الله بن عمرو من بنتي فاطمة ، فطلقها على منصتها ، وأنا أخاف أن يظن الناس انه رأى سوءا ، وأنتم عمومتها ، فقوموا حتى تنظروا اليها » (١) ..

فقال له عبد الله بن الزبير : اجلس ..

ثم التفت الى أخيه المصعب وكان جالسا في الحلقة ، وخطب فاطمة له ، فزوجه اياها أبوها . وقال عبد الله بن الزبير لأخيه :

ــ انطلق فادخل على أهلك (٢) ..

---

(١) يلتقي نسب فاطمة مع آل الزبير ، عند أسد بن عبد العزى بن قصي . راجع الجمهرة (١٠٩) ونسب قريش ٢٢٨ وما بعدها .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٠٩ ، ونسب قريش ٢٢١

وانما رجحنا أن تكون فاطمة قد سبقت سكينة الى بيت مصعب ، لانها ولدت له ولدين هما : عيسى وعكاشة ابنا مصعب ، وقد شهد عيسى موقعة مسكن التي قتل فيها مصعب عام ٧٠ هـ وكان القوم عرضوا عليه الأمان . فأبى الا أن يقتل مع أبيه ، وافتخرت ربيعة بقتله فقال شاعرهم :

نحن قتلنا مصعبا وعيسى   وكم قتلنا قبله رئيسا
عمدا أذقنا مضرا التأييسا (١)

وغير معقول ان يكون قد شهد الموقعة طفلا يحبو ، بل الغالب أن مصعبا قد تزوج من فاطمة ، قبل مقتل الحسين بزمن لا نحدد مداه ..

على أن سكينة ما كانت لتهتم بفاطمة ، وانها لتعلم الظروف التي ألجأت مصعبا الى الزواج منها ..

وانما حسبها أن تهتم بالضرة الأخرى : عائشة بنت طلحة ، وترى فيها وحدها المنافسة الخطرة ، والغريمة التي تستحق أن يحسب لها حساب !

* * *

وفي بيت مصعب ، بدأت سكينة عهدا جديدا من حياتها ، بدت فيها كما لو كانت قد نسيت كل ما ذاقت من نكبات ، وما روع صباها من فادحات الخطوب وقاسيات المحن ..

والحق انها ما نسيت ، لكنها اعتادت أن تحتفظ بالشقاء لنفسها ، وألا ترى الناس الا تجملا ..

واذا كان هذا دأبها فيما مضى من حياتها ، فانها اليوم أحوج الى مزيد من التجمل ، وهي ترى ضرتها عائشة بنت طلحة ، لا تدع وسيلة الا سلكتها في مجال التنافس والتحدي ..

وما كان أقوى شعور عائشة بجمالها ، واعتزازها بفتنتها ، وتفننها في ابراز مواضع الحسن فيها ، حتى ولو كلفها ذلك أن تخرج على العرف أو تتخلى عن حياء الأنثى ..

---

(١) نسب قريش : ٢٤٩

وقد مر بنا الخبر (١) عن استجابتها «لعزة الميلاء» حين أحبت أن تراها عارية ، لما أراد مصعب خطبتها . وفي الأغاني (٢) أخبار من هذا الصنف وأشد . وفيه كذلك أن مصعبا عاتبها في سفورها وحاول أن يردها الى الحجاب ، فكان جوابها : « ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره !.. ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد ... »
وطالت مراودة مصعب اياها في ذلك على غير طائل !..

* * *

وعائشة قد سبقت سكينة الى دنيا زوجها مصعب ، وغلبت عليه زمانا بفتنتها ودلالها ، وكسبت بهذا السبق مزية ربما لم تتح لسكينة التي قضت مرحلة الصبا الغض في ساحة البيت النبوي ، وما كانت لتستطيع ــ بحكم بيئتها ووراثتها ــ أن تتقن فنون الاغراء أو تتخلى لسبب ــ كائنا ما كان ــ عن عزة حيائها . ومن ثم لم تحاول أن تجاري عائشة في أساليبها أو تصطنع أسلحتها ، وانما لاذت بعزة ملاحتها ولطف محضرها وجلال ترفعها ، وبما أضفى عليها نسبها النبوي من سنا مشرق ، وبهاء ما بعده بهاء ..

وسكت رواة الأخبار فلم يذكروا لنا شيئا عن حياة سكينة مع مصعب، مع انهم الذين ملئوا سمع الأجيال بدقائق حياته الزوجية مع عائشة ... لماذا ؟ ...

لست أميل الى الظن بأنه قد كانت هناك أخبار عن سكينة مع مصعب ، وطويت عمدا أو عن اهمال وضياع ، فالاخباريون في تلك الفترة كانوا أجنح الى التزايد من صنع الأخبار ، ولو كانت شئون الحياة الزوجية الخاصة بين سكينة ومصعب قد خرجت الى الناس وعرضت على أعينهم ، لما سكت الرواة عن ذكرها ، بل لما تحرجوا من الخوض فيها والاضافة اليها . وقد رأيناهم يعرضون « عائشة » وهي زوجة وأم ، مجردة من

---

(١) أنظره في صفحة ٧٢
(٢) أخبار عائشة بنت طلحة ، في الجزء ١١ ط دار الكتب

ثيابها أمام هذه او تلك من النساء،ورأيناهم يقتحمون بأخبارهم مخدعها وهي مع زوجها ، دون تحرج أو تأثم . ونحن لم نورد من هذه الأخبار الا القليل ، وامسكنا عن نقل الباقي لأنه ليس مما يجوز أن يجري على قلم مثلي ، ومن شاء فليرجع الى أخبار عائشة في (كتاب الأغاني) ليرى الى أي حد كانت أخص شئونها الزوجية ، مادة للاخباريين . واذن فلا سبيل الى القول بأنهم تناولوا جانبا من حياة مصعب الزوجية وأعرضوا عن جانب .. لا سبيل الى الظن بأنهم ــ وقد دخلوا بيت الرجــل ــ شغلوا باحدى الزوجتين يرصدون حركاتها ويسجلون كلماتها ، بل ويحصون عليها أنفاسها ، وتركوا الزوجة الأخرى لا يكادون يحسون وجودها ...

وكان من الممكن أن نحسن الظن برواة الأخبار ، فنحسبهم تعففوا عن ذكر أخبار سكينة مع مصعب ، لأنها بنت الحسين ! .. ولكن يحول بيننا وبين هذا ، انهم نقلوا عنها بعد ذلك أنباء مثيرة بعضها مما لا يقبل من مثلها ولا يهون الاطمئنان الى صدوره عنها .ولم تَحُل بنوتها للحسين ، ومكانها في بيت النبوة ، دون ملء الصفحات بهاتيك الأخبار ، بــل لم يعصمها هذا النسب العالي ، من ألسنة المتقولين وأقاويل الرواة وأراجيف المبطلين ... (١)

وانما سكتوا ، لأن « سكينة » ــ فيما نرجح ــ لم تصطنع أساليب عائشة ، ولم تغذ الرواة بمادة خصبة من أفانين دلالها وأسرار علاقتها الزوجية على نحو ما فعلت ضرتها .

ولدينا ــ على هذا ــ شاهد من نص ، أورده أبو الفرج في ترجمــة « مصعب » قال : انه لما دخل عليها يودعها وقد تهيأ للخروج لقتال عبد الملك ، صاحت من خلفه :

ــ واحزناه عليك يا مصعب !

فالتفت اليها وقال : أوَ كلُّ هذا لي في قلبك ؟ .. قالت :

---

(١) نعرض لهذا ، في الحديث عن « سكينة في اجتمع » في الفصل الثالث من هذا الكتاب

ـأي والله ، وما كنت أخفي أكثر (١)

وهو نص يفسر لنا بوضوح لمَ لم تكن حياتها الخاصة مع مصعب مادة الاخباريين والرواة ، فضلا عن دلالته على اتزانها العاطفي ، وضبطها لأمرها ، تجاه ما كانت « عائشة » تكشف عنه من اسرار زوجيتها

كان لكل منهما سلاحها الخاص في تنافسهما على قلب الرجل الذي أحبته كلتاهما أصدق الحب : فأولاهما تثيره بفتنة دلالها وأنوثتها ، وترهقه صدا وقربا ، جفوة واقبالا ، وتبتذل له حينا بكل ما تملك من تفنن واغراء ، أو على حد تعبيرها بكل ما قدرت عليه (٢) ، ثم تصارمه حينا حتى تجهده .

والأخرى تفتنه بجاذبية شخصيتها الفريدة ، وبكل ما اجتمع لها من ظرف آسر ، وملاحة حلوة ، وجلال ساحر أخاذ .

وكانت كل منهما تعرف مكان الأخرى ، وتقدر خطر سلاحها ، وربما تلاقتا وجها لوجه فباهت عائشة بما تتقن من أفانين الاغراء ، وأسكتتها سكينة باللقب الذي كانت تطلقه عليها : ذات الأذنين (٣)

وربما اختصمتا الى حكم بينهما ، فيخلص من حرج الموقف بقوله :

ــ اما انت يا سكينة فأملح منها ، وأما أنت يا عائشة فأجمل ! (٤)

السر المذاع

على أن حياة أمير العراق لم تكن فارغة لهذه الشواغل النسوية الا قليلا ، فان الصراع بين الزبيريين والأمويين ما لبث أن احتدم عنيفا ضاريا ، وقد كان وجود مصعب في العراق عقبة كأداء لا سبيل الى حسم الصراع ما بقيت هناك .

وقد صكت مسامع الأمويين مدائح الشعراء في مصعب ، ومنهم عبيدالله

(١) الاغاني : ١٨/١١٦ ساسي
(٢) الاغاني : ١٠/٥٥ ساسي
(٣ ، ٤) الاغاني : ١٤/١٦٢

ابن قيس الرقيات ، اذ يقول : (١)

انما مصعب شهاب من اللـــــه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكـــه ملـك قوة ليس فيه جبـروت ولا بـه كبريـاء

يتقي الله في الأمور وقـد أفلـح من كـان همه الاتقاء

وفي الخبر أن مصعبا أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه . فقال : أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به ، فأتعلق بأطرافك وأقول : أي ربِّ ، سل مصعبا فيم قتلني . »

فأمر مصعب باطلاقه ، فقال :

ـ أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض .

فأمر باعطائه مائة ألف ، فقال الرجل :

ـ بأبي أنت وأمي ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا

قال مصعب : ولم ؟

فأجاب : لأنه قال فيك :

انمـــا مصعب شهـاب من اللـــــه تجلت عـــن وجهـه الظلمـاء

وأنشد بقية الأبيات (٢)

ومن ثم صمم الأمويون على أن يفرغوا لمصعب أول الأمـر ، قبل أن يفكروا في القضاء على رأس الزبيريين العائذ بالحرم .

وقد طالت المعركة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير ، أعواما ذات عدد قبل أن تصل الى نهاية حاسمة ، وتكررت محاولات عبد الملك ، في الخروج الى العراق ثم الاياب الى الشام من غير أن يصل الى غريمه . ففي الطبري (حوادث سنة ٧١) أن عبد الملك كان يخرج من دمشق صيفا بعد صيف ، حتى « بطنان حبيب » ويخرج مصعب للقائه فيعسكر في « باجميرا » ويلبثان هكذا حتى يهجم الشتـاء فيرجع كـل منهما الى

(١) عيون الانباء : ١٠٣/٢

(٢) عيون الانباء : ١٠٣/٢ وأنظر سمط اللالي للبكري ٢٩٤/٦

موضعه ، ثم يعودان في الصيف وهكذا .. (١)

وهم عبد الملك ، في سنة ٧٠ بقتال مصعب ، ثم اكتفى بأن وجه اليه جيشا ـ عليه خالد بن عبد الله ـ التقى بجيش لمصعب في البصرة ، ثم انثنى الى عبد الملك مهزوما ...

واذ ذاك صمم عبد الملك على أن يضع حدا لهذه المعركة التي طالت حتى أضجرت ..

وخطب الناس في الشام ، ليسيروا معه الى مصعب

قال له ناصحوه وقد أشفقوا عليه من لقاء مصعب : هلا أقمت هنا وبعثت على هذه الجيوش رجلا من أهل بيتك ، فان ظفروا فذاك ، وان لم يظفروا بعثت اليهم بالمدد .

أجاب عبد الملك : انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشي له رأي ، ولعلّي أبعث من له شجاعة ولا رأي له ، واني أجد في نفسي بصرا بالحرب وشجاعة بالسيف ان ألجئت الى ذلك . ومصعب في بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع لكنه يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ومعي من ينصح لي (٢)

وانفض المجلس وقد عرف القوم أنه صمم على المسير الى مصعب .

ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما ودع أهله وهم بالركوب ، قامت اليه زوجته « عاتكة بنت يزيد بن معاوية » فأعادت الرجاء والتوسل :

ـ يا أمير المؤمنين ، لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأي

فأجاب معتذرا ، مصمما : « ما الى ذلك من سبيل ! »

فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فعلا نشيجها ، واذ ذاك رجع اليها عبد الملك فقال وهو يتجمل :

ـ وأنت ممن يبكي ؟ قاتل الله « كثيرا » ! كأنه كان يري يومنا هذا حيث يقول :

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨١/٧

(٢) تاريخ الطبري : ١٨٥/٧

اذا مـا أراد الغـــزو لم تثنِ همَّه
حصـــان عليهـا نظم در يزينهـا
نهتـــه فلمـــا لم تـر النهي عاقه
بكت فبكـى ممـــا شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت (١)

وانطلق الى العراق حتى عسكر في « مسكن »

وسار له مصعب حتى عسكر في « باجميرا »

وكانت رسل عبد الملك قد سبقته الى الكوفة وغيرها ، وتسللت الى نفوس القوم هناك بالمال والأماني

وشرط عليه رؤساء المروانية بالعراق ولاية أصبهان ، فوعدهم جميعا بها ! (٢)

فما دنا اللقاء ، الا وعبد الملك قد ملأ يديه من أهل العراق ، وأيقن مصعب انهم خاذلوه ...

ولم يفكر مع ذلك في النكوص ...

وتهيأ للحرب ، ثم دخل على نسائه يودعهن ، فلما جاء دور سكينة ، وجمت لحظة ، وقد طاف بخاطرها طائف من الأمس البعيد

وحملتها الذكرى الى كربلاء ، فساورها دوار منهك ، فبـــادر اليها مصعب واعتنقها ، وثقلت عليه وطأة الموقف ، لولا أن لاح له في تلك اللحظة ، طيف أبيها الامام الحسين ، فهتف بها مشجعا :

ـ ما ترك أبوك يا سكينة لابن حرة عذرا ...

ثم أفلتها من ذراعيه ، وأخذ طريقه الى الباب

فصاحت من خلفه : « واحزناه عليك يا مصعب ! »

وفاجأته صيحتها ، فرجع اليها وسألها في لهفة وعجب :

ـ أكان كل هذا لي ، في قلبك ؟

أجابت : « بلى يا مصعب ، وما كنت أخفي أكثر ... »

---

(١) أمالي القالي ـ أنظر سمط اللالي : ١٤/١ ، والاغاني : ٢١/٩ ساسي
(٢) تاريخ الطبري : ١٨١/٧

فرنا اليها مليا ، ثم قال في شجو :
ـ لو كنت أعلم ، لكان لي ولك يا سكينة شأن آخر ..
ومضى الى الميدان وهو يقول :

وان الألى بالطف من آل هاشم
تآسوا فسنوا للكرام التآسيا !

مصرع بطل

وظل يردد البيت حتى أشرف على ساحة القتال ، فاذا جنده من أهل الكوفة قد نكصوا عنه خاذلين ، واذا عبد الملك هناك في جيش لجب
وتصفح مصعب من بقي حوله ، يمينا وشمالا ، فوقعت عينه على عروة ابن المغيرة بن شعبة ، فناداه : « يا عروة ! »
فلما دنا منه سأله :
ـ أخبرني عن الحسين بن علي ، كيف صنع بابائه النزول على حكم « ابن زياد » وعزمه على الحرب !؟ (١)
هنالك علم الناس أن مصعبا لن يريم حتى يقتل ..
وتقدم يواجه مصيره مستبسلا
فبعث اليه عبد الملك مع أخيه محمد بن مروان يقول : ان ابن عمك يعطيك الأمان ..
أجاب من فوره ، وطيف الحسين يملأ عينيه :
ـ ان مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف الا غالبا أو مغلوبا
ونادى محمد بن مروان « عيسى بن مصعب » وكان ملازما أباه :
ـ يا ابن أخي لا تقتل نفسك .. لك الأمان ..
وعقب مصعب ، دون أن ينظر الى ولده :
ـ **قد آمنك عمك ، فامض اليه**

(١) تاريخ الطبري : ٧/١٨٤

قال عيسى : « لا تتحدث نساء قريش اني أسلمتك للقتل »
فنظر اليه أبوه مليا ثم قال : « فتقدم بين يدي ، أحتسبك »
فقاتل عيسى بين يدي أبيه حتى قتل (١)

وأثخن مصعب بالرمي ، ثم شد عليه زائدة بن قدامة فطعنه وهو يصيح : يا لثارات المختار !

ونزل اليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه وحملها الى عبد الملك ..

قال عبد الملك وهو يطيل النظر الى وجه مصعب مضرجا بالدم :
« متى تغذو قريش مثلك ؟ » (٢)
ثم التفت الى من حوله فسألهم : « من أشجع الناس ؟ »
فذكروا اسمه، وأسماء عدد من الابطال الشجعان ، لكنه أسكتهم بقوله : « أشجع الناس مصعب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ... وولي العراقين ، ثم زحف الى الحرب فبذلت له الأمان والحباء والولاية والعفو عما خلص في يده ، فأبى قبول ذلك ، واطرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه قرما يقاتل ، ما بقي معه الا سبعة نفر ، حتى قتل كريما ... »

وتجاوبت الآفاق ، ما بين العراق والحجاز ، بصدى من قول عبيد الله ابن قيس الرقيات يرثي مصعبا ويذكر خذلان مَن في العراق من بكر وتميم :

لقـد أورث المِصريْن خزيا وذلـة
قتيـل بديـر الجاثليـق مقيـمُ
فمـا نصحت لله بكـر بن وائـل
ولا صبـرت عنـد اللقـاء تميم

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٦/٧
(٢) تاريخ الطبري : ١٨٧/٧

ولو كـان بكريـا تعطف حولـــه
كتـــائب يغلي حميهـا ويـــدوم
ولكنـــه ضـــاع الذمام ولم يكن
بهـــا مضري يومـــذاك كريم (١)

الارملة المقهورة

وفي قصر الامارة بالكوفة ، وقفت أرملته سكينة بنت سيد الشهداء ، يكاد يتلفها القهر والغيظ

ولم يكن الحزن جديدا عليها ، فمن قبل مصعب بلت الحزن الأكبر يوم كربلاء ، ومصعب قد لقي مصرعه النبيل مختارا ، ومات الميتة التي تليق بفارس شهم كريم مثله ...

انما كان غيظها من غدر الذين خانوه ، هو الذي يفري كبدها !

ويحهم ! ما أفدح الذي لقيت سكينة منهم ! غدروا بجدها الامام ، ثم أيتموها صغيرة ، ثم أرملوها شابة !

وانها مع ذلك لتتماسك حين وفد عليها المعزون مـن أهل الكوفة ، يسألونها الصبر الجميل على قدر مصابها الجليل ، حتى اذا فرغوا مما أرادوا أن يقولوه ، أدارت فيهم عينيها ـ وقـد جف دمعهما ـ ثم قالت في تؤدة :

« الله يعلم اني أبغضكم ! قتلتم جدي عليا وقتلتم أبي الحسين ، وزوجي مصعبا فبأي وجه تلقونني ؟ أيتمتموني صغيرة وأرملتموني كبيرة » (٢)

وانصرفت ...

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٧/٧
وانظر كلمة عبد الله بن الزبير في مصعب لما بلغه نبأ مقتله في : الطبري ١٩٠/٧ وعيون الانباء ٢٤٠/٢
(٢) عيون الانباء : ٦١٢/٢

خرجت من الكوفة ، ومن العراق ، وما تحمل الأرض أشقى منهـــا بالذي كان ، وما تظل السماء أدنى منها الى اليأس والزهد .

* * *

هل ترك لها « مصعب » ذكرى حية من شخصه الراحل ؟

في خبر بالأغاني ، انها ولدت من مصعب ابنة آية في الحسن ، أراد مصعب أن يسميها ربرب ، لكن سكينة سمتها « الرباب » باسم أمها (١) فلما قتل مصعب ، ولي أخوه عروة أمرها ، فزوجها ابنه عثمان بن عروة، فماتت وهي صغيرة .

ونقل صاحب الأغاني رواية عن سعيد بن صخر ، عن أمه سعيدة بنت عبد الله بن سالم ، ان السيدة سكينة لقيتها بين مكة ومنى ، فاستوقفتها لتريها بنتها من مصعب ، واذا هي قد أثقلتها بالحلى واللؤلؤ ، وقالت :

ــ ما ألبست الدر الا لتفضحه .

ثم أتبعها أبو الفرج، برواية أخرى عن شعيب بن صخر عن أمه سعدة بنت عبد الله ، ان سكينة أرتها بنتها من الحزامي ، وقد أثقلتها بالحلى وقالت : والله ما ألبستها اياه الا لتفضحه (٢)

وهكذا ، ما بين فقرة وأخرى ، صار :

سعيد بن صخر ، شعيب بن صخر

وصارت سعيدة بنت عبد الله بن سالم ، سعدة بنت عبيد الله . كما صارت بنت مصعب ، بنت الحزامي !

---

(١) نضيف ان ام مصعب كان اسمها كذلك الرباب : بنت أنيف بن عبيد ، من بني جناب **الكلبي** (نسب قريش : ٢٣٦)

(٢) مثلها في عيون الاخبار : ٤/٢٥ ولم يذكر فيه اسم بنت سكينة

ولا مجال للاطمئنان الى خبر عبث به الرواة على هذا النحو ، لا سيما وليس في مراجعنا الأخرى ما يشير الى انها ولدت من مصعب بنتا .

وكان « المصعب الزبيري » أولى بذكر هذه البنت في (نسب قريش) لكنه لم يشر اليها ، وكذلك لم يشر اليها « الطبري » ولا « ابن خلكان » ولا « ابن حزم » في جمهرة الأنساب .

ولكن « دائرة المعارف » ذكرت ان سكينة لما تزوجها مصعب « انجبا من هذا الزواج ابنة سمتها سكينة باسم أمها ، وتزوجت هذه الفتاة من أخي مصعب ، وتوفيت في سن مبكرة »

ولم تذكر الدائرة مرجعها في هذا ، وأرجح أنها نقلته عن الأغاني ، مع تحريف في النقل ، جعل بنت مصعب تتزوج من أخي مصعب ! ..

مع ابراهيم بن عبد الرحمن

عزلة لم تطل

ظنت ، وظن الناس من حولها ، أن ذلك آخر عهدها بدنياهم ، وأنها سوف تنطوي على يأسها في عزلة تجتر ما طفحت به كأسها من أحزان وأشجان ، حتى تلحق بالأعزاء الراحلين ...

وانصرف عنها متتبعو الأخبار ، وفي حسابهم أنها فرغت من الدنيا ، فما عاد لديها ما يلتمس من الأخبار ، وشغلوا بتلك الأخرى ، عائشة بنت طلحة ، وقد نزعت عنها ثوب الحداد على مصعب ، فتقدم اليها خُطاب منهم بشر بن مروان الذي بعث اليها « عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي » (١) يخطبها له ، وهو يشفق أن تكون ناقمة عليه أخوته لعبد الملك قاتل مصعب ، فلما حدثها عمر برغبة بشر ، قالت :

ــ أما وجد بشر ، رسولا الى ابنة عمك غيرك ؟ فأين بك عن نفسك ؟

سألها في لهفة : أو تفعلين ؟

أجابت ضاحكة : نعم

فتزوجها من ليلته ، وعاد المجتمع يتلقى من أخبار علاقتها الزوجية بعمر ، وأسرار حياتها الخاصة معه .

أجل شغل رواة الأخبار وصائدو الأسرار بتتبع عائشة بنت طلحة مع زوجها الثالث عمر ، ويئسوا من التماس جديد عند « سكينة »

حتى فوجئوا بالأرملة الهاشمية الحسناء ، تخرج عن عزلتها وتقبل على الدنيا مرة ثانية ، بوجه ضحوك ومزاج مرح !

---

(١) أمير فارس . انظر (جمهرة انساب العرب : ١٣٠)

(٢) الاغاني : ١٨٣/١١ وما بعدها . ط دار الكتب .

وقيل فيما قيل ، ان حيويتها الفياضة وشبابها الذي اكتمل وقتئذ ونضج ، قد غلبا عوامل اليأس ودواعي القنوط ، فلم تستطع ــ وهي أنثى في أوج نضجها ووفرة ثرائها وعزة جمالها وشرف موضعها ــ أن تنزوي طويلا في عزلة عن الدنيا والناس .

لكني أكاد أطمئن الى أنها في هذا الدور الجديد مــن حياتها ، كانت منطوية على يأس فادح ، بلغ في اعماقها أقسى مداه ، فصار الى سخرية مريرة ، هي التي احتكمت في الطور الثاني من حياتها ، احتكاما بلغ من قوته وعنفه ، أن اشتبه بضده ، والتبس عنــــد الأكثرين بالرغبة في انتهاب مسرات الحياة بعد الذي ذاقته من مر أحزانها .

وهنا، لا بد لنا من وقفة متأنية نسبر فيها أعماق هذه السيدة الشريفة، واليتيمة الأرملة ، قبل أن تلقانا في حياتها الجديدة على ما تصورها لنا الأخبار والروايات ، مسرفة في الاقبال على الدنيا بنفس متفتحة لم ينل منها حزن ولا ساورتها ذكرى المشاهد الأليمة التي مرت بها .

أجل ، لا بد من وقفة هنا متمهلة ، قبل أن تلقانا « سكينة » في أخبارها تلك ، تملأ الأفق من حولها ضجيجا مرحا ، وتشارك في الدنيا أعنف مشاركة ، وتخوض المجتمع طليقة متحررة .

وقد تعجلت الرأي آنفا ، فقلت انني أكاد أطمئن الى أنها في هــذا الدور الجديد من حياتها كانت في اقبالها على الدنيا منطوية على يأس . وليس ذلك لأني أجردها من أهواء البشرية ، وهي حفيدة الرسول البشر الذي ألح في تقرير بشريته والاعتراف بها ، لكنا حين نحتكم الى سنن الفطرة وطبيعة الانسان ، ننكر أن تــلاقي سيدة مثل الذي لاقت بنت الحسين من فوادح المحن وأرزاء الأيام والليالي ، ثم تستطيع ــ بحال ما ــ أن تنسى كل الذي لقيت ، ويصفو لها العيش هنيئا غير كدر !

بل انه لما يشبه المحال عندنا ، أن تقوىٰ أنثى ــ بالغة ما بلغت ارادة الحياة عندها ــ أن تنسلخ من ماضيها كله ، وما العهد به ببعيد ، وأن تنحي عنها أطياف من ملئوه فرحا وترحا ، لتبدأ صفحة جديدة لا ظل فيها من ذلك الماضي ، ولا صلة لها بهمومه ومآسيه .

وعلماء النفس قد اطمأنوا الى أن النفس البشرية واعية تختزن كل ما يمر بها من أحداث ، وتحتفظ بها على تطاول العهد بها وبعد المدى ، وتظل تؤثر في سلوكه مهما تقوى ارادته على التخلص منها، بل مهما يغلب على يقينه أن الزمان قد عفى على آثارها فتاهت في غيابة النسيان ...

وما كان الذي لاقته بنت الحسين بالذي ينسى ، ولا كان الزمن قد تراخى به منذ شهدت المذبحة المروعة في كربلاء في مستهل عام ٦١ هـ ثم مصرع زوجها الحبيب النبيل ، مصعب بن الزبير ، بعد عشر سنوات ، وهو يتأسى بالحسين ويقول لابنته : ما ترك أبوك لابن حرة عذرا ..

فهل شذت سكينة على الطبيعة البشرية ، وخرجت على المألوف من الفطرة السوية ، بنسيانها كل ما كان ، واقبالها على الدنيا بنفس متفتحة لا يلم بها طيف عزيز رحل ، ولا تعبرها ذكرى معاودة للذي فات ؟

كلا ، لم تشذ سكينة ، وانما الأقرب الى الاحتمال أنها ملت كبريات المشاغل الى حد الزهد ، ويئست من دنياها الى حد الاغراق في الاستهانة بها وعدم المبالاة !

وانها لمعذورة ، فمثل هذه الدنيا ــ كما بلتها سكينة ــ غير جديرة بأن يؤسَى عليها ، بل انها لأهون على بنت الحسين من دمعة تسكب أو آهة تلفظ !

ضجيج في الدار

وليس أدل على هوان الدنيا لديها بعد مصعب ، من الخبر اللافت الذي نقله صاحب الأغاني معللا به قبولها للزواج بعد تمنع ، قال (١) : « تنفست يوما بنانة ــ جارية سكينة ــ وتنهدت حتى كادت أضلاعها تنشق . فقالت لها سكينة : مالك ؟ ويلك ! قالت : أحب أن أرى في الدار جلبة ــ تعني العرس .

(١) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي

« فدعت سكينة مولى لها تثق به ، وقالت له : اذهب الى ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فقل له : ان الذي دفعناك عنه ، قد بدا لنا فيه . ائت أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخطب سكينة » .

وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، من بني الحارث بن زهرة بن كلاب (١)

وكان قد خطبها بعد مقتل مصعب ، فأنكرته وردته في غير رفق ، وبعثت اليه قائلة :

ــ أبلغ من حمقك أن تبعث الى سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخطبها ؟

فأمسك ابراهيم عن ذلك ، حتى اذا جاءه رسولها أنها قد غيرت رأيها فيه ، أقبل والدنيا لا تسعه من فرحته ، فجمع نحو سبعين رجلا أو ثمانين من رجال زهرة وأعيان قريش ، واتجه بهم في جمع حافل مشهود ، ساعيا الى علي بن الحسين ، ليخطب اليه أخته سكينة .

وذاعت القصة في المدينة والوفد لما يزل في طريقه الى البيت الهاشمي ، فما كان خروج ابراهيم في موكب كهذا عدته سبعون أو ثمانون رجلا ــ فيما أحصت الرواية ــ بالذي يمضي دون أن يلفت اليه الأنظار ويستثير الفضول . وعرف الناس أن ابراهيم ما جمع هذا الحشد الا لكي يلقى به زين العابدين خاطبا سكينة . وبلغت الشائعة دور بني هاشم فاسترابوا فيها أول الأمر ، وشق عليهم أن يصدقوا أن يجرؤ ابراهيم على خطبة الشريفة الهاشمية وليس لها كفئا

فلما قيل لهم : بلى ، وانها لراضية به ! صاحوا في غضب :

ــ هذه الحمقاء تريد أن تتزوج ابراهيم بن عبد الرحمن ؟

وتنادوا ، حتى اذا اجتمعوا قال قائلهم :

ــ لا يخرجن منكم انسان الا ومعه عصا ! (٢)

وهناك عند بيت سكينة ، التقى الجمعان مغضبين ثائرين :

---

(١) نسب قريش : ٢٢٦

(٢) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي

بنو هاشم وقد رأوا ابراهيم غير كفء لبنت الحسين

وبنو زهرة ، وقد انكروا أن يهون ابراهيم عند بني هاشم الى ذلك الحد ، وانه لمن صميم الزهريين ، آل آمنة بنت وهب ، أم الرسول صلى الله عليه وسلم !

وان أباه عبد الرحمن ، لصاحب الشورى عند الرسول ، وأحد العشرة الذين شهد لهم عليه الصلاة والسلام بالجنة (١)

وان أمه « أم كلثوم بنت عقبة الأموية القرشية » لمن المهاجرات المبايعات ، خرجت الى الرسول في هدنة الحديبية ، فطلبها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة ـ وكانا لايزالان على الكفر ـ وقدما المدينة يستردانها كشرط الحديبية (٢) ، فقالت في ضراعة :

ـ يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أتردني الى الكفار ، فيستحلون حرامي ويفتنوني عن ديني ؟

وأنزل الله عز وجل فيها :

« يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن » (٣)

ولم يردها الرسول الى الكفار ...

خاطب مردود

وتشاح أفراد الفريقين ، وتضاربوا ، فأصيب منهم يومئذ أكثر من مائة انسان ، قبل أن ينفض العراك ...

وصاح الهاشميون : أين سكينة ؟

فأنبئوا بموضعها ، وانطلقوا الى حيث كانت تتلقى أنباء المعركة التي

---

(١) ابن حجر : الاصابة ـ رقم ١٥٧١ ونسب قريش ٢٦٥

(٢) كان مقتضى هذا الشرط على النبي لقريش : ان من جاءنا منكم رددناه اليكم : وارجع الى تاريخ الطبري ، والاصابة ، ونسب قريش ١٤٥ ، ٢٦٦

(٣) سورة الممتحنة آية « ١٠»

شبتها ، في فضول المتفرج وسخرية العابث !
صاحوا بها : أبلغ بك الأمر أن تصنعي هذا ؟
فالتفتت سكينة الى مولاتها بنانة ، وسألتها ، وما تفارق الابتسامة فمها : « أي بنانة ، أرأيت في الدار جلبة ؟ »
أجابت وهي لا تكاد تجد صوتها من خوف وذعر :
ـ أي والله يا سيدتي ، الا انها شديدة ! (١)
وأبت « سكينة » بعد ذلك أن تتزوج من ابراهيم ، حين ترك لها الخيار في الأمر
على أن هناك رواية نقلتها دائرة المعارف عن طبقات ابن سعد ـ تقول انها عاشت مع ابراهيم الزهري ثلاثة أشهر ، ثم طلقت منه بأمر هشام ابن عبد الملك .
وقد عقبت عليها الدائرة بقولها : « وهذا شيء بعيد الاحتمال » دون أن تحدد الشيء المشار اليه ، أو تذكر سببا يبعده عن الاحتمال . وأغلب الظن أن هذا هو طلاقها من ابراهيم بأمر هشام بن عبد الملك ! وانه فعلا لشيء بعيد الاحتمال ان لم يكن أقرب الى المحال ! ذلك لأن هشاما ولي الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفي سنة ١٢٥ هـ عن ٥٤ سنة (٢) ، وقيل كان ابن ٥٥ سنة أو ٥٢ سنة وهما روايتان في الطبري .
أي أنه لم يكن قد ولد بعد حين قتل مصعب وترملت سكينة ، اذا أخذنا بقول من قال بموته سنة ١٢٥ عن ٥٢ سنة .
أو كان رضيعا في السنة الأولى من عمره ، اذا أخذنا بأقصى الآجال في عمره ، أي ٥٥ سنة .
فأنى ، وكيف ، تدخل في مسألة زواج سكينة من ابراهيم ، بعد أن قتل عنها مصعب !؟
ونعود الى حكاية خطبة ابراهيم لسكينة بايعاز منها ، ثم رفضها الزواج منه بعد أن كان ما كان من عراك بين بني هاشم وبني زهرة ،

(١) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي
(٢) تاريخ الطبري : ٢٨٣/٨ ، ٢٨٨ وانظر معه شذرات الذهب : ١٦٣/١

فنسأل « هل حدث هذا حقا ؟ .. »

لست أستبعده ، ولكن بفرض انه لم يحدث ، فما من شك في ان الذين اخترعوا هذه القصة ، قد أغراهم بها ما عرفوا من ميل سكينة الى الدعابة ، وانها لدعابة قد يرى الناس فيها لونا من المرح ،على حين نراها دعابة مرة قاسية ، فهذه الشريفة الحسناء ، يخطبها من لا تراه كفئا لها، فترده بعبارة تنطق بزهوها واعتزازها بنسبها العالي ، ثم لا تكاد تسمع تنهد « بنانة » واشتياقها الى جلبة الفرح ، وضيقها بوجوم البيت وسكونه ، حتى تثور في أعماقها ذكريات ما لقي آلها الأكرمون من اضطهاد بشع ، وحتى تستحضر مصارع الشهداء من رجالها ، ومرأى اشلائهم مبعثرة على ساحة كربلاء ، لا يُصد عنها سبع ولا وحش !؟

ماذا صنع النسب الطاهر العالي للزهراء وقد ماتت كمدا ، مضيعة الحق، ولم يمض على وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم غير أشهر معدودات !؟

ماذا صنع النسب الشريف للحسن وقد لقي حتفه مسموما ؟.. وللحسين وبنيه واخوته وبني اخوته وبني عمه ، وقد قتلوا جميعا في يوم واحد ، بسيوف قوم يدينون بدين محمد ، ويشهدون انه رسول الله ؟..

وماذا صنعت المروءة لزوجها مصعب، وقد خذله جنده، وباعه انصاره بثمن بخس ، دراهم معدودات ، ووعود عرقوبية كاذبة ؟..

فهل من عجب أن تهزأ سكينة ، بنت الشهيد ، وأرملة صريع الغدر ، بهذا المجتمع المنافق ، وتسخر بما تعارف عليه من قيم يقدسها باللفظ ويخونها بالفعل ؟.. وأي شيء هو أبلغ في الهزء بالنفاق الاجتماعي ، من أن تغري بخطبتها من ردته بالأمس خائبا مهانا ؟.. أي شيء هو أبلغ في السخرية بالعرف السائد في مجتمع الأشراف من قريش ، من أن ترجع سكينة عن قرارها الأول ، لمجرد ارضاء رغبة عارضة من جاريتها «بنانة» في أن ترى في البيت جلبة عرس ؟!.. ثم تكون ، بنت الحسين وحفيدة الزهراء ، هي هي التي تبعث مولى لها الى ابراهيم بن عبد الرحمن ،

لتعلنه بما بدا لها في قبوله زوجا ، وتتنـــازل فتدعوه الى أن يمضـــي فيخطبها ؟!..

وجلست تتفرج على المشهد الذي ألفته ورسمت خطته وعينت مسرحه واختارت أشخاصه !..

وطاب لها أن تصغي الى ضجيج المعركة الصغيرة بين الفريقين من آلها وآل ابراهيم الزهري ، والتي تمخضت عن مائة مشجوج ، وعن ضحية أخرى فوق المائة ، أعني الخاطب المسكين الذي باء بالخسر والهوان ؟!..

وما تكون تلك الضحايا ، أمام عشرات الألوف من المســـلمين الذين قتلوا في معركة الفتنة الكبرى ، في مواقع الجمل ، وصفين ، وكربلاء ، ومعارك التوابين والخوارج ، وصراع الأمويين ضد الهاشميين والزبيريين من بعدهم ؟..

بل ما تكون هذه الضحايا أمام مصرع الحسين وحده ، رضي الله عنه ؟!

وأي شيء هذه الضجة ، بالقياس الى ضجة كربلاء ، أو الحرة ، أو موقعة « مسكن » التي قتل فيها مصعب بن الزبير ، فتى قريش ؟ ..

الله .. الله ! .. لقد طابت الحياة لقريش بعد كل هذا الذي كان ، فلا ضير عليهم في أن يحتملوا مائة مشجوج، نظير التفرج على مشهد ساخر فكه طريف ، من تأليف واخراج بنت الامام الشهيد ، أرملة مصعب بن الزبير !..

أو لا ، فلتضف هذه الخدوش الهينة ، الى رصيدها الضخم من صرعى الفتنة ، وضحايا البغي والجشع ، والغدر ، والنفاق ...

مَعَ الأصبغ المرواني

ونتبع سكينة اذ تمضي بها الحياة في الخضم الكبير ، بعد أن سكنت الضجة التي ثارت بين بني هاشم وبني زهرة ، فاذا معالم الطريق تغمض أمامنا وتتوه ، حتى ما ندري أي طريق سلكت بنت الحسين ، بعد الذي كان ...

موتى يبعثون

ثمة خبر يقول : ان « عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب ، فقالت أمها : لا والله لا تتزوجه أبداً وقد قتل ابن أخي - تعني مصعبا » (١) ..

ولا حاجة بنا الى توهين الخبر بأن عبد الله لم يقتل مصعبا ، وبأن الأخوة المدعاة بين الرباب والزبير أبي مصعب في قول الرباب « وقد قتل ابن أخي » لا تعدو التقاء في الجد الخامس لمصعب من ناحية أمه : الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب الكلبي (٢) ..

والجد الرابع لأم سكينة من ناحية الأب : امرىء القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم (٣) ..

أجل ، لا حاجة بنا الى توهين الخبر بمثل هذا أو نحوه ، بل يكفي أن نقول ان الرباب ، أم سكينة ، ماتت في أوائل سنة ٦٢ هـ حزنا على زوجها الحسين ، بعد عام واحد من مصرعه في كربلاء (٤) ، وغير معقول أن تبعث من قبرها لتظهر على مسرح الأحداث بعد وفاتها بنحو عشر سنين ، فترفض أن تتزوج بنتها سكينة ، بعد مصعب ، من عبد الله بن مروان !..

---

(١) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي
(٢) نسب قريش : ٢٣٦ - وجمهرة أنساب العرب : ٤٢٧
(٣) نسب قريش : ٥٩ - وجمهرة أنساب العرب : ٤٢٧
(٤) ابن الاثير : الكامل ٧٣/٤

زواج لم يتم

ونفرغ كذلك على عجل من زواج آخر لم يتم ! ..

ذلك هو زواجها بالاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، أخي عمر بن عبد العزيز ..

قيل انه خطبها ، وأغلى لها المهر ، فقبلت بعد تردد وتمنع ..

كان وقتئذ واليا على مصر ، لعمه عبد الملك ، فلما استدعاها ، أبدت خوفها من جو مصر ، فبنى لها مدينة سماها « الاصبغ » وأرسل اليها بالمدينة أنه قد هيأ لها أطيب مقام ..

وانتظر الرد ، فجاءه رد ، لكن ليس من سكينة ، وانما من عمه عبد الملك الذي كتب اليه يخيره بين احدى اثنتين : ولاية مصر ، أو الزواج من بنت الحسين (١) ..

فاستجاب الاصبغ لرغبة عمه عبد الملك ، وأرسل اليه بطلاقها ، قبل أن يدخل بها ..

أما لماذا كره عبد الملك زواج ابن أخيه من بنت الحسين ، فتقول رواية : « انه نفس عليه بها » ..

وتقول أخرى : انه غضب لكثرة ما أنفق الاصبغ عليها من مال ، فقال : ما نزوجها أخانا حتى نزوجها مالنا ..

والروايتان ، كلتاهما ، في « الأغاني » ، واذا كان لنا أن نختار فالأولى عندنا أولى ..

وبقي الاصبغ في مصر محزونا ..

وبقيت سكينة حيث هي في المدينة ، وقد متعها الاصبغ حين طلقها ، بعشرين ألف دينار ..

أما متى تمت هذه الخطبة ، فالقصة تشير الى انها حدثت والاصبغ وال على مصر لعبد الملك بن مروان ، أي في سنة ٧٥ هـ ...

---

(١) الاغاني : ١٤/١٦٢

ومن هنا ، أتينا بها ـ في سياق الحديث عن حياة سكينة الزوجية ـ بعد ترملها من مصعب ..

ولم نلتفت الى ما نقلته دائرة المعارف ، من زواج الاصبغ بها ، بعد من سمته الزبير ـ وصحته : زيد ـ بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الذي أجمع ابن خلكان في الوفيات ، وابن العماد في الشذرات ، واحدى روايات الأغاني ، على أنه طلقها في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقد كانت خلافة سليمان من سنة ٩٦ الى سنة ٩٩ هـ ، على حين كانت الخطبة سنة ٧٥ ، في عهد عبد الملك ، والاصبغ وال على مصر (١) ..

كذلك لم نلتفت الى روايتين في الأغاني ، وضعتا خطبة الاصبغ اياها قبل زواجها من مصعب الذي قتل عام ٧١ هـ !

أما غياب الحديث عن هذه الخطبة في (نسب قريش) وفي (الجمهرة) فمن السهل أن نعلله بعدم اتمام الزواج ..

---

(١) تاريخ الطبري : ١٠٢/٧ ، ١٢٦

مَع عَبْدِ اللهِ بن عثمان الحِزاميّ

هدنة مع الأيام

فمن بعد الاصبغ ؟..

لعل عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، هو أول من خطبها ، وتم زواجهما ، بعد أن ترملت من مصعب ..

على هذا اتفقت رواية « نسب قريش » التي نصت على أنه الذي خلف عليها بعد مصعب (١) ..

وكذلك ابن خلكان في الوفيات ..

وابن العماد الحنبلي في الشذرات ..

وهي أيضا رواية ابن سعد في الطبقات وقد نقلتها عنه «دائرة المعارف» وان كانت أضافت الى اسم عبد الله بن عثمان ، انه ابن أخي مصعب ..

والصحيح انه ابن أخته ، لأمه وأبيه ، رملة بنت الزبير بن العوام (٢).

أما أبوه عثمان ، فكان من سادات قريش وأشرافها ، وكان مع عبد الله ابن الزبير بمكة ، فقتل في الحصار الأول ـ الذي قام به جيش يزيد قبل موته سنة ٦٥ هـ ـ وله يقول أبو دهبل الجمحي :

ونعم ابن أخت القوم « عثمان » في الوغى
اذا الحرب أبدت نابها وهي تكلح

هو التارك المال النفيس حمية
وللموت من بعد المعيشة أروح

---

(١) نسب قريش : ٢٣٣ وأنظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢

(٢) نسب قريش : ٢٣٣ وأنظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢

وجـــاد بنفس لا يجـــاد بمثلهـــا

لهـا ، لو أقـرت غزيـة ، متزحـزح (١)

ورحب بنو هاشم بالزواج هذه المرة ، ورددت مجامع قريش ، قصيدة أخرى لأبي دهبل الجمحي ، بارك فيها هذه الصلة بين سليلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين حفيد الزبير بن العوام ، وسليل حكيم بن خويلد الأسدي ، ابن أخي خديجة أم المؤمنين ، وفي هذه القصيدة يقول الجمحي :

قضت وطـرا من أهـل مكة ناقتـي

سوى أملي في المـاجد ابن حـزام

تمطت بـه بيضـاء ، فرع ، نجيبة

هجـان ، وبعض الوالدات غـرام

جميـل المحيـا من قريش كأنـه

هـلال بـدا من سدفـة وظـلام

فأكـرم بنسـل منـك بين محمـد

وبين عـلي ، فاسـمعن كلامـي

وبـين حـكيم والزبـير فلن تـرى

لهم شبهـا في منجـد وتهـام (٢)

زواج مثمر

ويبدو أن الحياة قد اطمأنت ببنت الحسين في كنف هذا الزواج الماجد الكريم، وأمهلها الزمن بضع سنين، ذاقت خلالها طعم الاستقرار والدعة، وعكفت على تربية صغارها الذين كانوا ثمرة هذا الزواج المبـارك بين فرعين من أعز فروع قريش ، وهم : (٣)

(١) نسب قريش : ٢٣٣ - وارجع الى شعر الجمحي في مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩١٠
(٢) نسب قريش : ٢٣٣
والابيات في (ديوان ابي دهبل الجمحي) مع بعض اختلاف في الترتيب
(٣) نسب قريش : ٢٣٣

عثمان بن عبد الله ، وقد لقبه أبوه « قرينو » وفي ولده كانت البقية من نسل بنت الحسين ..

وحكيم بن عبد الله ..

وربيحة بنت عبد الله ، التي تزوجها العباس أكبر ابناء الوليد بن عبد الملك ، وصاحب الغزوات الظافرة المشهورة في بلاد الروم (١)

ولعل ربيحة هذه ، هي الفتاة التي كانت أمها سكينة تلبسها الدر لتفضحه ، والتي خلطت الرواية فنسبتها الى مصعب بن الزبير ..

* * *

وربما حاولت سكينة في تلك الفترة من حياتها ، أن تسدل على أحزان صباها ستارا من التشاغل والتناسي ، وعاد الاخباريون فانصرفوا عنها، اذ هي مطمئنة في حياتها الزوجية ، بعيدة عن أضواء المجتمع ..

ثم مات زوجها عبد الله بن عثمان .. وترملت مرة أخرى ..

ويبدو ان وقع المصاب كان شديداً عليها ، وانه نكأ في أعماقها الجرح القديم الذي ما التأم مرة الا ليعود فيدمي من جديد ..

ولعلها في تلك الفترة ، سعت الى البيت العتيق في حجتها المشهورة التي التقت فيها بضرتها السابقة : عائشة بنت طلحة ...

وأبى متصيدو الأخبار أن يفلتوا هذه الفرصة ، بل أسرعوا فجاءوا بغادتي قريش الحسناوين ، في مشهد من مشاهد التنافس والتحدي ...

وان لم يكن « مصعب بن الزبير » هو موضوع تنافسهما في هذا المشهد الذي وصفه الراوي فقال : دخلت عائشة بنت طلحة على الوليد ابن عبد الملك وهو بمكة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مر لي بأعوان . فضم اليها قوما يكونون معها فحجت ، ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل ،

(١) تاريخ الطبري : حوادث السنوات ٩٣ : ٩٥ هـ

وحجت في ذلك العام أيضا سكينة بنت الحسين رضي الله عنه ، فقال حادي عائشة :

عائش يا ذات البغال الستين   لا زلت ما عشت ، كذا تحجين

فشق ذلك على سكينة ، ورد حاديها :

عائش هذه ضرة تشكوك   لولا أبوها ما اهتدى أبوك

« فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف » (١)

ونرجح أن ذلك قد كان في سنة ٩١ هـ ، لأنها السنة التي حج بالناس فيها ، الوليد بن عبد الملك (٢)

(١) الاغاني : ١١/١٨٨ دار الكتب . وأنظر الخبر وتعليق الامام السبكي عليه في (طبقات الشافعية الكبرى ١/١٦٦ ط مصر)

(٢) ص تاريخ الطبري : ٨ / ٨١

مَع زيد بن عمر العثماني

شروط عجيبة

رجعت « سكينة » الى المدينة في أخريـات ذي الحجة من ذلك العام (٩١ هـ) أرملة كهلة ، ينزف الجرح في أعماقها دما ، وقد طفح كأسها بالشجن المر والأسى الفادح ...

وجاء خاطب جديد ، ليكشف عن ضجرها الذي جاوز المدى ! ..

جاء زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ، (١) يسألها أن تقبله زوجا على أي شرط تشاء ...

ولم تشأ أن يتم هذا الزواج على مألوف عادة القوم ، بل اشتطت في شروط لها ، ما نراها ـ لو صح الخبر ـ الا مظهر يأس عميق ، وان بدت في شكل دعابة ساخرة .

كانت شروطها ثلاثة :

أولها : ألا يمس امرأة سواها ..

والثاني : ألا يحول بينها وبين شيء من ماله ..

والثالث : ألا يمنعها مخرجا تريده (٢)

فان أخل بأحد هذه الشروط فهي منه خلية ! ..

وقد يبدو الشرط الأول غريبا من سكينة حفيدة نبي الاسلام الذي أباح تعدد الزوجات . وكان تعدد الزوجات في بيئتها هو العرف المتبع والشائع ، وقد تزوجت سكينة ـ وهي في ربيعها العشرين ـ من مصعب،

---

(١) في اسم أبي زيد وهم ، لعل سببه ان عثمان بن عفان له ولدان : عمر ، وعمرو • وقد ورد اسم زيد بن عمرو في الوفيات والشذرات والاغاني والدائرة ، وكذلك ورد مرة في نسب قريش (٥٩) على أنه عاد فذكر زيدا بين ولد عمر • وهو في الجمهرة أيضا ابن عمر ، وقد رجحناه بعد طول مقابلة للروايات ، وتتبع لسياق النسب لولد عثمان •

(٢) في الاغاني (١٤/١٦٣) شروط اخرى بجانب هذه التي ذكرناها •

وعنده عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت عبد الله الأسدي وأمهات أولاد شتى (١)

ثم تأتي ، وقد جاوزت ـ الأربعين من عمرها ـ فتشترط على زيد العثماني ألا يمس امرأة سواها ...

لكن الشرط ، على ما يبدو من غرابته ، جائز شرعا . فللمرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها .

والشرط الثاني أعجب : فزيد هذا « أبخل قرشي » فيما قالوا ، وقد رووا في بخله أعاجيب يكاد المرء لغرابتها أن يتهمها بالوضع ، ولكنها على فرض وضعها ، ذات دلالة على رأي القوم في زيد ، وفي بخله (٢)

وتأتي سكينة ، فتشترط على زيد هذا الذي كان يأبى أن يشركه ضيف في طعام ، ألا يحول بينها وبين شيء من مالـه ، والا فهي منه خلية !

وليس شرطها الثالث بأقل من هذين غرابة، فما ألف المجتمع القرشي، في جاهلية أو اسلام ، أن تشترط زوجة على زوجها ألا يمنعها مخرجا تريده ! ..

أي مخرج ؟

هكذا على التنكير والتعميم ، دون تحديد أو تعيين ؟ ..

وزيد حفيد خليفة ، ومن بيت هو في الصميم من قريش (٣)

وسكينة ، أخت الامام ، وبنت الامام ، وسليلة النبوة ! ..

فماذا تركت لزوجها بعد كل هاتيك الشروط ؟ .

لو انها اشترطت على زوجها أن تكون العصمة بيدها ، ثم تحللت من عقد النكاح ، لسبب أو لآخر ـ أو حتى لغير سبب ـ لما خرجت في ذلك على عرف القوم وتقليد الجماعة ، اما أن تنص صراحة على انه « ان مس امرأة سواها ، أو حال بينها وبين شيء ـ أي شيء ! ـ من ماله ، أو

---

(١) نسب قريش : ٢٤٩ ـ وجمهرة أنساب العرب : ١١٢

(٢) الاغاني : ١٦٤/١٤

(٣) نسبه في « نسب قريش : ١٢٠ » و « جمهرة أنساب العرب : ٧٨ »

منعها مخرجا ـ أي مخرج ! ـ تريده ، فهي منه خلية » فذلـك ـ ان صح ـ هو الهزء بالمجتمع القرشي الذي أنكرت سكينة من حاله ما أنكرت ، وضاقت بما شاع فيه من غدر ونفاق ، وقتل النفس ـ وعشرات الألوف منها ـ التي حرم الله الا بالحق ! ..

ألا ما أفدح الأثر الذي تركته محنة آل البيت في نفس هذه الأنثى الذكية الشاعرة بذاتها ! ..

ويقال انها مرحة عابثة ، وقد نسيت كل الذي كان ، وأقبلت تستبدل زوجا بزوج ، وكأن لم يعد يشغلها سوى متاع الدنيا ؟ ! ..

كـلا ...

ان الجرح كان من عمـق الغور بحيث لا يرى من قرب ، ولو كـان سطحيا لما خفي ! ..

وهذه هي ، بعد أن احتست الأتراح والأشجان كأسا اثر كأس ، تأبى أن تعترف بأعراف وتقاليد ، لمجتمع يأكل بعضه بعضا ، ويلغ في دماء آل محمد ، ولمـا يبلَ قميصه عليه الصلاة والسلام .

لقد صارت هذه الأعراف والتقاليد عند الهاشمية الحسناء ، عملـة زائفة لا تساوي مجرد الالتفات اليها ! ..

فمن شاء أن يتزوجها ، وليكن زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ، فليقبل أن تفرض عليه من الشروط ما لم تفرضه أنثى على زوج ! ..

ليقبل أن ينزل لها عن حريته ولو كان سيدا وابن سيـد وسليل سادة ..

وعن ماله ، ولو كان أبخل قرشي ..

وعن مهابته ، ولو كان ابن عم الخليفة ، وحفيد ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان ! ..

ووجم المجتمع القرشي وهـو يرى زيـدا يقبل ، ويتزوج سكينة على شروطها ! ..

أبخل قرشي

ووجد الاخباريون في زواج « أبخل قرشي » من الهاشمية الكريمة ، المُذِلة للمال ، مادةَ سمر ، ونوادر ، وأقاصيص ...

فهم يحكون من نوادر اهانتها للمال ، انها رؤيت مرة ترمي الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فنزعت خاتما ثمينا من اصبعها ورمت به ، بدل الحصاة (١)

ويحكون من نوادر بخل زيد ، انه خرج حاجا وخرجت معه سكينة ومعها خمسة أجمال محملة بأصناف الطعام ، فكلما بلغ الركب منزلا ، أمرت السيدة الهاشمية بالطعام وأعدت الأطباق ، فجاء بعض القوم يسلمون على « زيد » فوضع يده على خاصرته فجأة وصاح متوجعا :

« أوه خاصرتي ! .. باسم الله ارفعوا الطعام وهاتوا الترياق والماء الحار .. » فاذا انصرفوا ، طلب الطعام ..

وحدث مرة ، وهم في السيالة، أن جاء أغيلمة الأنصار للتحية ، والطعام معد . فأمر زيد برفعه متعللا بالألم الطارىء !

يقول أشعب ، وكان يومئذ في الركب :

« ولبثنا حتى انصرفوا ، ودخلنا ، وقد هلكت جوعا فلم آكل الا مما اشتريته من السوق من مائة دينار أعطتني اياها السيدة سكينة ، فلما كان الغد أصبحت وبي من الجوع ما الله به عليم ، ودعا زيد بالطعام ، فأمر باسخانه ، وجاءته مشيخة من قريش يسلمون عليه ، فلما رآهم اعتل بخاصرته ودعا بالترياق ، والماء الحار ، ورفع الطعام ، فلما ذهبوا ، أمر باعادته فجيء به وقد برد . فقال لي : يا أشعب ، هل الى اسخان هذا الدجاج سبيل ؟ .. فقلت له : اخبرني عن دجاجك هذا ، أهو من آل فرعون فهو يعرض على النار غدوا وعشيا ؟ » (٢)

---

(١) الاغاني : ١٤/١٦٥

(٢) الاغاني : ١٤/١٦٥ ساسي

تجربة فاشلــة

ولم يكن من المنتظر ولا المرجو ، أن تسعد سكينة ـ بعد أن أثقلتها أعبـاء الأيـام والليالي ، وأثخنتهـا الجراح ـ بزواج كهذا ، بل لعلها لم تكن راغبة فيه حريصة عليه ، وانما هي تجربة جديدة ، لم تر بأسا في معاناتها ، وليكن بعد ذلك ما يكون ...

والأخبار عن حياتها الزوجية مع زيد العثماني ، تصورهـــا قلقة منغصة ، وقد كثرت بينهما المغاضبة وطالت في احدى المرات حتى بلغت سبعة أشهر . والظاهر أن زيدا تململ من القيود التي ألجمته بها زوجته، فحاول مرة أن يتحلل من أحدها .. حدَّث أشعب : « حج سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فاستأذن زيد بن عمر سكينة في الخروج معـه ، وأعلمها أنها أول سنة حج فيها الخليفة وانه لا يمكن التخلف عن الحج معه . وكانت لزيد ضيعة قرب المدينة يقال لها العرج ، وله فيها جَوارٍ حِسان . فأعلمته سكينة أنها لا تأذن له الا أن يخرج أشعب معه فيكون عينا لها عليه ، ومانعا له من العدول الى العرج والاتصال بجواريه في روحته أو رجعته » . فقبل زيد .. وحج سليمان وانصرف من حجه ولم يسلك طريق المدينة ، وانصرف زيد يريد المدينة ، فنزل على ماء لبني عامر بن صعصعة ، ودعا أشعب ، وقدم اليه صرة فيها ٤٠٠ دينار ـ وكان سليمان قد أجزل لزيد العطاء ـ وأعلمه انه ليس بينه وبين العرج الا أميال ، وان الدنانير له اذا هو أذن له في المسير الى العرج ولقاء جواريه هناك ، ثم يوافيه بغلس وقت ارتحال الناس ..

فأذن له أشعب ، وأقسم له انه سوف يحلف لسيدته بالايمان المحرجة، أن زيدا ما صار الى العرج ولا اتخذ جارية لنفسه منذ فارق سكينة الى أن رجع اليها ...

وآب الحجيج الى المدينة ، فابتدرت سكينة زوجها تسأله عن خبره . فقال وهو ينظر الى أشعب :

---

(١) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسي

ـ يا بنت رسول الله ، وما سؤالك اياي ولم يزل ثقتك معي ، وهو أمين عليَّ ، فسليه عن خبري يصدقك ...

فسألت أشعب ، فأخبرها انه لم ينكر عليه شيئا ولم يمكنه من اتخاذ جارية ، ولم يطلق له الاجتياز الى العرج .

فلما استحلفته على ذلك ، مضى يحلف لها بالايمان المحرجة ، حتى جزع «زيد» نفسه ، فوثب دونه ووقف بين يدي سكينة يقول في ضراعة التائب وتوسل المقر بذنبه :

ـ والله يا بنت رسول الله لقد كذبك العلج ! .. جزت بالعرج فأقمت هناك يوما وليلة ، واتصلت بعدة من جواري ، وهأنا ذا تائب الى الله مما كان مني وقد جعلت توبتي منهن ، أن أحملهن اليك عشية هذا اليوم ، فبيعهن واطلاقهن اليك ، وأنت أعلم بما ترين في العبد السوء ـ يعني أشعب »

* * *

أية زوجية هذه التي يصور لنا الرواة فيها زيد بن عمر بن عثمان ، لا يتحرك ـ ولو للحج ، ومع أمير المؤمنين ـ الا أن تأذن له زوجته ، وبشرط أن يرافقه تابع من قبلها يكون عينا لها عليه ؟ ! ..

ثم تصوره وهو يحتال للعدول الى ضيعته وجواريه ، فلا يجد بدا الا أن يذل نفسه بالاستئذان من مولى سكينة ، وأن يذل غالي ماله بدفع أربعمائة دينار لأشعب ثمنا لسكوته وتستره عليه ، بايمان كاذبة ؟

ثم هذا الموقف الذي وقفه بين يدي زوجته ـ كنص عبارة الراوي ـ ضارعا مقرا بذنبه ، تائبا الى الله ، وجاعلا كفارة الذنب ، جواريه جميعا يحضرهن الى سكينة ، ويدع لها حرية التصرف فيهن بيعا وعتقا ؟ ! ..

وتضيف الحكاية أن « سكينة » لم تقبل توبة زوجها « زيد » ، ولا توبة عبد السوء « أشعب » ...

أما أشعب فجعلته مُثلة : أمرته بأن يحضر الدنانير الأربعمائة التي تقاضاها ثمنا لخيانة ثقتها فيه ، وبعثت من ابتاع لها خشبا بثلاثمائة

دينار ، واستدعت نجارين صنعوا من هذا الخشب صنـــدوق تفريخ للبيض ، ودفعت لهم أجرهم من المائة دينار الباقية ، بعــد أن اشترت ببعضها بيضا وتبنا ! ..

وأقسمت بحق جدها ــ صــلى الله عليه وسلم ــ أن يحضن أشعب هذا البيض حتى يفقس ...

وفعل المسكين : رقد على البيض حاضنا ، حتى خرجت الفراريج في ساحة بيت سكينة،فكانت تنسبها اليه وتقول : بنات أشعب ! ؟ .. (١)

وأما زيد بن عمر بن عثمان ، فذهبت تستعدي عليه عمر بن عبــد العزيز ، والي المدينة لسليمان بن عبد الملك ...

وتقول الراوية : فبعث عمر الى زيد فأحضره ، وأمر « ابن أبي الجهم الفقيه » (٢) أن ينظر بينهما . وندب رجلين ليشهدا قضاءه .

وجاء زيد وحده الى مجلس الحكم .

أما سكينة فجاءت في موكب من جواريها يحملن الوسائد والفرش . فلما أذن لها ابن أبي الجهم بالدخول وحدها ، أبت أن تدخل الا ومعها ولائدها ، ثم أمرتهن ففرشن لها وسادة ، وهيأن متكئا ، وجلست ، وزيد منكمش قد لصق بمقعد القاضي « حتى كاد يدخل في جوفه خوفا منها » .

قال ابن الجهم : يا ابنة الحسين ، ان الله يحب القصد في كل شيء !

فردت عليه : وما انكرت مني ؟ .. واني والله واياك كالذي يــرى الشعرة في عين واحد ، ولا يرى الخشبة في عين صاحبه .

قال وقد أثاره ردها : أما والله لو لم تكوني سكينة بنت الحســين ، لسطوت بك ! ..

وطال بينهما الأخذ والرد ، حتى قال أحد شاهدي المجلس :

ــ يا أبا بكر ، ما لهذا جئنا ، ولا بهذا أمرنا ، فانظــر القضية ولا تشاتم ..

---

(١) الاغاني : ١٤/١٦٠ ، ١٦١ ساسي

(٢) ابو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم · أنظره في « جمهرة انساب العرب » : ص ١٤٧

واذ ذاك التفتت سكينة الى مولاة لها وسألتها :
من هذا الرجل ؟ ..
قيل : هو أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم ..
فصاحت به : لا أراك ههنا وأنا أشتم بحضرتك !..
ثم هتفت : يا لرجال هاشم وقريش ! ..
فاعتذر لها من بالمجلس ..
وتكلم زيد فأبدي خضوعه لها ..
قالت : ما أعرفني بك يا زيد ! .. والله لا تراني أبدا ! .. أتراك تمكث مع جواريك ثم أعود اليك ! ..
ونطق القاضي بحكمه : ان جاءت سكينة ببينة على دعواها ، والا فاليمين على زيد ...
فكان جوابها أن التفتت الى زيد وقالت :
ـ يا أبا عثمان تزود مني بنظرة ، فلن تراني والله بعد الليلة أبدا ...
والقاضي صامت لا يتكلم ...
وانفض المجلس وقد أدبر النهار وجاء الليل ...
وكانت ليلة شاتية ، غائبة النجم ...
قال أبو بكر بن عبد الله ، يتم القصة :
« وخرجنا فجئنا عمر بن عبد العزيز ،فألفيناه ينتظرنا في وسط الدار، في تلك الليلة الشاتية ، فسألنا عن الخبر ، فأخبرناه ، فجعل يضحك حتى أمسك بطنه ! .. ثم دعا زيدا من غد ، فأحلفه ورد سكينة عليه » (١)

* * *

ولكنها رجعة لم تطل ...
عادت « سكينة » تشق على زيد ، وترهقه من أمره عسرا ، حتى « كانت ـ فيما تحدث الأخبار ـ تقول له : يا عثماني ، اخرج بنا الى مكة فاذا خرج بها فسارت يوما أو يومين ، قالت : ارجع بنا الى المدينة ، فاذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا الى مكة ! » (٢)

(١) الاغاني : ١٤/١٦٤ ساسي
(٢) الاغاني : ١٤/١٦٣ ساسي

ثم استعدت عليه « سليمان بن عبد الملك » فقال لزيد : « اعلم انك قد شرطت لها شروطا لم تف بها ، فطلقها ... » .

وطلقها زيد بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك (١)

وآب الى دنياه ، يحصي خسائره في تلك الصفقة ...

وضحكت المدينة كلها ، وهي تحصي معه كم أنفق من مال ، وكم احتمل من نصب واذلال ، ليرجع آخر الأمر صفر اليدين من سكينة ...

وضحكت سكينة على هذا المجتمع الذي يضحك ، وحق له البكاء ...

على أن هناك رواية ، انفرد بها أبو عبد الله المصعب الزبيري ، في خاتمة هذا الزواج .

فلقد ذكر في (نسب قريش) : ان زيدا العثماني هلك عنها فورثته(٢)

وذكر معه ، أن لزيد أولادا من أم ولد ، انقرضوا جميعا : قتل منهم ثلاثة ، مع من قتل من بني أمية ، زمان « مروان بن محمد » آخر خلفائها .

على حين أجمع ابن خلكان ، وأبو الفرج الأصبهاني ، وابن العماد الحنبلي ، على طلاقها منه بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك .

والأمر ــ بعد ــ غير مستغرب من تناقض الروايات وتضارب الأخبار

بل ان التوفيق هنا بين الروايتين غير متعذر ، فربما يكون زيد قد طلق سكينة بأمر سليمان بن عبد الملك ، ثم مات وهي في عدتها ، فورثته !

هكــذا قالوا

وانما الذي لا يهون تعليله وفهمه ، هو القول بأنهــا تزوجت ــ بعد زيد ــ بعمر بن حكيم بن حزام ..

ذكرت ذلك احدى روايات الأغاني ، وان اختلفت في دوره : أكان بعد زيد أم قبله ..

وذكرته دائرة المعارف في ترجمة سكينة ــ نقلا عن زيادة لابن قتيبة

---

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٩٨ وشذرات الذهب : ١/١٥٤

(٢) ص ١٢٠ ط الذخائر

في (المعـارف) ـ وان يكن اسمه قد ورد فيها « عمرو بـن حاكم بن حزام » .

ولعل الاسم ترجم خطأ عن الأصل الانجليزي ، وكان سبب الخطأ ، تشابه رسم حكيم وحاكم فيها : HAKIM

وعمرو هذا ، أو عمر ، هو أخ لجد عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، زوجها بعد مصعب !

ولا ندري كيف أدرك سكينة ، الا أن يصح في حساب هؤلاء ، أن تتزوج من رجلين بينهما ثلاثة أجيال ! (١)

أما المصادر الأخرى ـ وأذكر منها نسب قريش ، وجمهرة أنساب العرب ، ووفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ، وكل المصادر الشيعية الحديثة التي قرأتها ـ فلم تشر الى هذا الزواج بكلمة .

وقد تتبعت أخبار زوجات بني حكيم بن حزام في نسب قريش ، فلم أر لسكينة ذكرا الا في زواجها من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم ابن حزام ، الذي ولدت له عثمان « قرينا » وحاكما وربيحة ... (٢)

وصاحب نسب قريش ، هو أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ، الذي يلتقي نسبه مع نسب بني حكيم بن حزام ، عند خويلد الأسدي ، جد الزبير بن العوام ومصعب ، وجد حكيم بن حزام ..

وقد أحصى نسب قريش ، دون أن يشير الى هذا الزواج بين حفيدة عمته خديجة ، وزوجة عمه مصعب ، وبين الجد عمر بن حكيم بن حزام ابن خويلد !

وكذلك لم يشر الى الفتاة التي زعمت رواية الأغاني ، انها كانت ثمرة هذا الزواج !!

* * *

أفندع اذن حياة سكينة الزوجية لنمضي الى جديد من أمرها ؟

كلا .. فما زال هناك ما يقال

---

(١) انظر مساق نسب ولد حزام بن خويلد في نسب قريش : ٢٣١ ، ٢٣٢ وفي الجمهرة : ١١٣

(٢) مثله في « جمهرة انساب العرب » : ١١٢ ط ذخائر

ان الشيعة ــ كما ذكرنا في مطلع هذا الفصل ــ يرفضون الاعتراف بهذه الزيجات المتعاقبة ، ولا يقبلون منها غير ما ذكروه من زواجها بابن عمها الحسن ، ثم بمصعب بن الزبير

وعذرهم واضح ، فما كانت هـــذه الأخبار في تناقضها وتدافعها واختلاطها ، بالتي تدعي الى شيء من ثقة وطمأنينة .

وقد رأيناها زوجت سكينة من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم ابن حزام ، ثم من عم أبيه : عمر بن حكيم !

وبعثت الموتى من قبورهم بعد سنين ذوات عدد ، فجعلت الرباب أم سكينة ترفض زواجها من عبد الله بن مروان ، بعد قتل مصعب !

وسبقت الزمن ، فجاءت على مسرح الأحداث بالأجنة في بطون أمهاتهم ، حين جعلت هشام بن عبد الملك ، الذي ولد بعد مقتل مصعب ــ أو كان رضيعا في عامه الأول ــ يتدخل في حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن ، مع سكينة ، لما أراد زواجها بعد ترملها من مصعب بن الزبير !

فليس بالغريب أن يرفض الشيعة هذه المرويات جميعا ، وقد تعارضت فتساقطت ، وكذب بعضها بعضا ، وجاوزت نطاق المعقول !

* * *

أما تعدد زيجات سكينة ، فليس في ذاته موضوع غرابة أو انكار ، وان كانت « دائرة المعارف » نظرت الى هذه المسألة بعين مريضة ، وقالت في غمز : « واشتهرت سكينة بصفة خاصة بزيجاتها المتعاقبة » فخصت بنت الحسين وسليلة النبوة ، بتعاقب الزيجات .

وتجاهلت ما كان يقضي به العرف المتبع في بيئة السيدة سكينة ، من اسراع الخطاب اليها كلما خلت من زوج ، حرصا على شرف المصاهرة . وما أحسب المستشرق « ماسيه » ــ كاتب مادة سكينة في الدائرة ــ قد جهل هذا العرف ، أو غاب عنه ــ وهو يغمز ــ أن عقائل قريش الكريمات قد شاركن سكينة في هذا الذي زعم أنها اشتهرت به بصفة خاصة

وقد صح لدينا من أخبار زوجيتها ، انها تزوجت فعلا مـــن ثلاثة ،

مصعب ، وعبد الله بن عثمان الحزامي ، وزيد بن عمر العثماني ، أما الآخرون ، فلم يتم زواجها بأحد منهم ، فهل يقال ان « سكينة » ، اشتهرت بزيجاتها المتعاقبة ، لأنها تزوجت ثلاث مرات ؟

من قبلها تزوجت جدتها **السيدة** خديجة أم المؤمنين ، باثنين من أشراف قريش ، ثم تزوجت للمرة الثالثة من محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .

وتزوجت « اسماء بنت عميس الخثعمية » جعفر بن أبي طالب وولدت له عبد الله ، صهر الامام علي وابن عمه ، فلما استشهد جعفر في «مؤتة» تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمدا ، ثم خلف عليها من بعده الامام علي بن أبي طالب ، فولدت له ابنه يحيى الذي استشهد مع أخيه الحسين في كربلاء

وعمة سكينة « أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب » تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فولدت له زيدا ، ثم خلف عليها عون بن جعفر بن أبي طالب ، ثم تزوجها من بعده أخوه محمد بن جعفر ، فلمامات تزوجها أخوه عبد الله بن جعفر بعد طلاقه لأختها (١)

وأم الحكم ، بنت عبد العزيز بن مروان ـ أخت الاصبغ ـ تزوجها الوليد ثم سليمان ، ثم هشام ، بنو عبد الملك بن مروان !

وعائشة بنت طلحة ، ضرة سكينة ، توفي عنها زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، فتزوجها مصعب بن الزبير ، فلما قتل تزوجها عمر ابن عبيد الله ، فلما تأيمت بعده خطبها خاطبون ، لكنها ردتهم

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، قتل عنها عبد الله بن أبي بكر الصديق ، ثم تزوجت عمر بن الخطاب فقتل عنها ، فتزوجها الزبير بن العوام .. (٢)

ومثلهن كثيرات ، من عقائل هاشميات وقرشيات ، لا أحصيهن عددا ..

---

(١) جمهرة انساب العرب : ٣٣ ط الذخائر
(٢) نسب قريش : ٣٦٥

الفصل الثالث

في المجتمع

- شخصيتها الاجتماعية
- المجتمع في عصرها
- صورتها في هذا العصر
- عود على بدء
- كلمة يجب ان تقال
- الاديبة الناقدة



شخصيتها الاجتماعية

وأحسب أن الأوان قد آن بعد ذلك كله ، لندع هذا الجانب من حياة الشريفة الهاشمية الحسناء ، الى جانب آخر ، لم يكن أقل حظا أقل من اهتمام الرواة ، وصناع الأخبار ، وناسجي القصص والحكايات
ذلك هو مكانها في الحياة الاجتماعية والأدبية لعصرها .

والذين كتبوا عن هذه السيدة الكريمة ، لم يختلفوا في أنها كانت الشخصية النسوية الأولى في المجتمع الحجازي على ايامها ، ولو استعرنا أسلوب عصرنا ، لقلنا انها كانت ــ فيما تصور المرويات والاخبار ــ نجم المجتمع ، ولكنا نؤثر ألا نستعمل هذا المصطلح العصري الذي ابتذل في وصف نجوم الملاهي وكواكب المحافل الساهرة ، في حديثنا عن سليلة النبوة وبنت الامام الحسين . وانما حسبنا أن نقول انها منذ استقر بها المقام في مدينة جدها الرسول ، استطاعت أن تنفرد بمكانة في المجتمع لم ترقَ اليها سيدة سواها .

* * *

والأنباء والمرويات عن حياتها الاجتماعية مثيرة ، وبعضها مما لا يسهل التسليم به ولا يهون تصوره مع حفيدة الزهراء رضي الله عنها ، لكنا اذا استبعدنا هذا كله ــ على ما سيرى القارىء بعد حين ــ بقي بعده ما يؤكد أنها كانت فعلا الشخصية الاجتماعية الأولى في عصرها ، وذلك لما اجتمع لها من خلايا وسجايا ، جعلت لها جاذبية خاصة ، لم تشركها فيها سيدات العصر ، وفيهن حسان خلبن الألباب بجمالهن ، وشريفات قرشيات وهاشميات ، بعضهن من سيدات البيت النبوي الكريم

والحق أن السيدة سكينة ، كانت بادية الاعتزاز بنسبها العالي وشرفها

الرفيع . وكان خصومها وخصوم آلها، يقرون لها بهذا بالاعتزاز ويرونها أهلا لأن تباهي به من تباهي فتسكته . وقد مر بنا كيف رد حاديها على حادي عائشة بنت طلحة ــ حين افتخر بجمالها الستين ــ بقوله :

عائش هذه ضرة تشكوك   لولا أبوها ما اهتدى أبوك !

فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف !

وقد علق شيخ الاسلام « الامام تاج الدين السبكي » على هذا الموقف فقال بعد أن نقل الخبر :

« فلله درها ــ يعني عائشة ــ حيث كفت في موضع الانكفاف أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد كان الأمر ــ والمفاخـرة في الدنيا ــ هزلا ، فقابلته سكينة بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جِدا ، فأفحمت خصمها وأقامت عليها الحجة، فلله درها من مناظرة عرفت مواقع الجدل ، ودر عائشة من مذعنة للحق منقادة الى الصدق » (١)

وفي الأخبار ، أن سكينة شهدت يوما مأتما فيه بنت لعثمان بن عفان ، فقالت العثمانية : أنا بنت الشهيد . فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمع من بنت سيد الشهداء ، على حين أمسكت « سكينة » صامتة لا تعلق ، الى أن أذن المؤذن من مسجد الرسول للصلاة ، فلما بلغ قوله : « أشهد أن محمدا رسول الله » التفتت سكينة الى بنت عثمان وسألتها :

ــ هذا أبي أم أبوكِ ؟

فأجابت العثمانية في تواضع :

ــ لا أفخر عليكم أبدا (٢)

وقالوا كذلك ، ان « الأحوص الأنصاري » سمع « سكينة » تفخر بأبيها ، فجرؤ على أن يفاخرها ، ويقال أنه كان يضمر لها حبا لا يجرؤ على البوح به :

فخـــرتْ وانتمت فقلت : ذريني
ليســ جهــــل أتيتـِـــه ببديـــع

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ١٦٦ ، ١٦٧ ط الحسينية

(٢) الاغاني : ١٤/١٥٩ ساسي

فأنـــا ابـــن الـــذي لحمَـه الـد
بـــر قتيـــل اللحيـنـــان يوم الرجيع
غسلت خـــالي الملائكـــة الأبـــ
رار ميتا ، طوبى له من صريع ! (١)

وكان جده « عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري » قد بعثـه النبي في سرية الى المشركين فقتلوه ، ولما أرادوا أن يصلبوه حمته الدبر أي النحل ، فلُقب بحمي الدبر . وخاله ، هو ابن عمير بن مخشي الذي استشهد ، فقيل ان الملائكة غسلته .

فلما فاخر الأحوص سكينة ، غضب لها الناس وفيهم سليمان بن عبد الملك ، الذي أنكر على الأحوص رده على بنت الحسين فيما أنكر ، ونفاه عن المدينة عقابا له .

وقال قائل من القوم : « وقد لعمري فخر الأحوص بفخر لو على غير سكينة فخر به ، وبأبي سكينة حمت أباه الدبـر ، وغسلت خـــاله الملائكة ! » (٢)

* * *

وكذلك عرف عنها أنها كانت تعتز بجمالها وتعده من نعم الله عليها ، وتحرص على اظهاره في أبدع مظهر ، وما أناقتها المشهورة ، وطرتها السكينية المبتدعة ، الا آية اعتزاز بذلك الجمال وعناية به .

ولم تكن تسمح لضرتها « عائشة بنت طلحة » أن تتطاول أمامها بما لها من حسن ، بل كانت تلقبها بذات الأذنين ، كي تردّها الى شيء من التواضع تجاهها

وقد مر بنا الخبر عن مباهاتها بجمال بنتها ، ومبالغتها في تزيينها ، ثم قولها أنها ما البستها الدر الا لتفضحه !

وكانت شجاعة اللسان والجنان :

---

(١) الاغاني : ٤/٢٣٤ دار الكتب

(٢) الاغاني : ٤/٢٣٤ دار الكتب وانظر ترجمة عاصم بن ثابت ، جد الاحوص ، وخاله بن عمير في (الاصابة ، والاستيعاب)

سمعت أن ابن مطير ـ خالد بن عبد الملـــك بن الحارث بن الحكم المرواني (١) ـ يشتم جدها كرم الله وجهه ، من فوق منبر جدها عليه الصلاة والسلام ، فكانت « تجيء يوم الجمعة لتشهد صلاة الجماعة ، فتقوم بازاء الحارث اذ يصعد المنبر ، فاذا شتم عليا ـ رضي الله عنه ـ تصدت له سكينة فشتمته ، ثم أمرت جواريها أن يشتمنه ، فلا يملك ابن مطير أن يرد عليها ، بل يكتفي بأن يأمر الشرطة بضرب الجواري» (٢)

ويذكرون في وصف شجاعتها حادثة عجيبة ، ان يبدُ فيها عنصر الغلو، فذلك مما لا يضيع دلالتها على رأي الناس في هذه السيدة الباسلة .

قالوا ان سلعة ظهرت بأسفل عينيها فما زالت تكبر حتى أخذت جانب وجهها وعينها . وكان بين مواليها مولى رومي يدعى « درافيس » ، ذو خبرة بالطب والجراحة . فشكت اليه هذه السلعة التي تؤلمها ، وتوشك أن تشوه جمالها . ولما سألها درافيس :

ـ أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟

أجابت دون تردد : بلى

قال الراوي : « فأضجعها درافيس ، وشق جلد وجهها أجمع وسلخ اللحم من تحت السلعة حتى ظهرت عروقها . وكان من السلعة شيء تحت الحدقة ، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ، ثم سل عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع ، ورد الحدقة الى موضعها وسكينة مضجعة لا تهتز ولا تئن ، حتى فرغ مما أراد ...

« وزال ذلك عنها ، وبرئت منه ، وبقي أثر من تلك الجراحة في مؤخر عينها ، فكان أحسن شيء في وجهها من كل حلى وزينة ، ولم يترك في نظرها ولا في عينيها أدنى أثر » (٣)

وكانت آية في ضبط النفس والتحكم في عواطفها والسيطرة عـــلى

---

(١) كان الحارث واليا على المدينة لهشام بن عبد الملك ، وقد عزله عنها سنة ١١٨ هـ بعد وفاة سكينة بعام . انظر تاريخ الطبري : ٢٢٨/٨

(٢) الاغاني : ١٥٩/١٤

(٣) الاغاني : ١٦٥/١٤ ساسي

وجدانها، وبهذا الضبط استطاعت أن تحتفظ بمرحها في بيت أبيها رضي الله عنه كي تكون مبعث أنس له في عوابس الظروف وحوالك الأيام .
وبلغ بها هذا الضبط ، أن أمضت حياتها الزوجية مع « مصعب » وهو لا يدري ما تضمره له من حب عميق وعاطفة قوية ، حتى جاء يودعها الوداع الأخير فصاحت من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ! .. فالتفت اليها وقال في دهشة : أو كل هذا لي في قلبك ؟ .. قالت : أي والله ، وما كنت أخفي أكثر !

وكانت كريمة تهين المال ، وان ضاق القيم على أموالها باسرافها في الكرم . حج أشعب مرة ، فأمرت له بجمل قوي يحمل أثقاله ، فأعطاه القيم جملا ضعيفا ، فمضى أشعب يشكوه الى سيدته فأرضته (١)

وقد مر بنا آنفا، ما ذكروه من وقفتها بالمحصب من منى ترمي الجمار، فلما سقطت من يدها الحصاة السابعة ، رمت بخاتمها بدلا من هذه الحصاة !

أما نوادر ظرفها فكانت حديث المجتمع وروح مسامره ، وكان الناس يتناقلون هذه النوادر ويضحكون لها بملء قلوبهم وأفواههم ، يستوي في ذلك من يستطيبون النكتة ويهشون للدعابة ، ومن عرفوا بالحزم والشدة ، وما ظنك بعمر بن عبد العزيز في صرامة جده ، ووقار هيبته ، يضحك لاحدى نوادر سكينة حتى يمسك بطنه ، وهو يومئذ وال على المدينة (٢)

ثم قصتها مع ابراهيم بن عبد الرحمن ، وحديث « بنات أشعب » ، وردها على من سألها لم تكثر من المزاح وأختها لا تفعل ، كل هذه الأخبار وأمثالها معها ، تشهد بما كان للهاشمية الحسناء من ظرف آسر وبديهة حاضرة ، واعتداد بالذات !

وهكذا كانت عزة النسب ، وعزة الجمال ، وأناقة المظهر ، وظرف

---

(١) الاغاني ١٤/١٦٥ ساسي
(٢) الاغاني : ١٤/١٥٩ ساسي

السجايا ، وذكاء الأنوثة ، ولطف الدعابة ، الى جانب ما عرف لها من ذوق فني أصيل ، وفقه لأسرار البيان ، عناصر تشترك جميعا في تأليف شخصيتها الفريدة ، بكل جاذبيتها وسحرها .

ثم أضيف الى ذلك كله ، هذا المزاج النادر من التحرر والاباء ، من التسامح والتصون ، من الانطلاق والترفع ، فأتيح لها أن تظهر في المجتمع ملء البهاء والظرف ، ملء الجلال والوقار ، وتهيأ لها أن تختار أسلوبها في الحياة ، متحررة من النفاق الاجتماعي ، دون أن ينال ذلك من مهابتها أو يلقي ظلا من التهاون فيما يجب لمثلها من تصوّن وعزة

وقد أشرنا ــ في الحديث عن حياتها ــ الزوجية ــ الى دوافع ذلك التمرد على نفاق المجتمع والسخرية بأوضاعه وأكاذيبه ، وربما كان من مظاهر هذا التمرد ، ظهورها في المجتمع الأدبي على نحو لم نألفه من أختها وبنات عمها ، ولكنها ظلت مع هذا الظهور ، « بنت النبي » ! ولم تنس لحظة ، ولا نسي المجتمع ، أنها سكينة بنت الحسين !

وانها لتجالس الأجلة من رجال قريش ، ويجتمع لديها الشعراء ، وتصغي الى المغنين ، وتسيطر على المجتمع الأدبي ، دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالي ، أو يزايلها وعيها لموضعها من بيت النبوة !

المجتمع في عصرها

بهذه الشخصية الفريدة الجذابة ، ظهرت سكينة في المجتمع فشغلت عصرها ، والعصور من بعده .

ولن نستطيع المضي في الحديث عن سكينة في المجتمع الأدبي ، قبل أن نمهد له بحديث عن حال هذا المجتمع في عصرها . وهو حديث قد يطول ، لكن عذرنا أن فهمه على حقيقته ضرورة لازمة ، لتبين الشخصية الأدبية للهاشمية الحسناء ، والمكان الذي شغلته في المجتمع الأدبي

* * *

وقد يخيل الى كثير منا ، أن وصف حال الأدب والمجتمع في الحجاز في عصر سكينة ، مما لا مجال لمزيد من القول فيه ، بعد أن فرغ منه الدارسون وأضافوه الى ذلك الصنف من الموضوعات « التي نضجت واحترقت »

ولهم في تاريخ هذا العصر ما يشبه المسلَّمات التي ليس للخلاف فيها مجال .

منها : ان مجتمع الحجاز ـ وبخاصة في مكة والمدينة ـ في العصر الأموي ، قد فسد وانحل ، أثرا لسياسة بني أمية التي عزلت أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام الملك وشؤون السياسة ، وحبستهم هنالك في فراغ يفسده الشباب ، وتفسده معه أموال أغدقها عليهم الأمويون في سخاء مسرف ، وبذلك قضوا عليهم أن ينفقوا أيامهم في اللهو والعبث ويبلوا حياتهم في العبث والمجون (١)

---

(١) الدكتور طه حسين : حديث الاربعاء ١/٢٣٥

ومنها : ان تشجيع حياة المجون في العاصمتين الدينيتين للاسلام ، قصد به الأمويون الى القضاء على ما لهما من نفوذ ديني كبير ، وسيطرة روحية نافذة حتى جاز للاستاذ المحقق « عبد الله العلايلي » أن يذهب الى أن الأمويين « قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر بن أبي ربيعة ، لأجل أن يمسحوا عاصمتي الدين ـ مكة والمدينة ـ بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية » وساق هنا حادثة الأخطل الشاعر النصراني ، « الذي استخدموه ـ منذ عهد معاوية ـ في الحرب الكلامية التي أرادوا بها أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة ليخلصوا من سيطرتها » (١)

ومنها : أن شعر عمر بن أبي ربيعة هو مرآة للمجتمع الحجازي في ذلك العصر ، والمصدر الأول والأهم لفهمه على حقيقته وتأريخه تأريخا صادقا ، حتى ليقول أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين : « ان الادباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التي أتيحت لهم ، حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن أبي ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعرا اسلاميا استطاع أن يمثل العصر الذي كان يعيش فيه والبيئة التي يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا في درس الجماعة التي كانت تحيط بهما : تريد أن تدرس العراق في صدر الدولة العباسية وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة فارجع الى أبي نواس . تريد ان تدرس حياة الحجاز في صدر الدولة الأموية فارجع الى ابن أبي ربيعة . وليس من شك في أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا في درس مسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبي العتاهية، كما انك ستجد شيئا كثيرا نافعا في درس العرجي والاحوص وابن ذريح، ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبي نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما

(١) الاستاذ عبد الله العلايلي : أشعة من حياة الحسين : ٤٧

ستجده عند عمر بن أبي ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها. تلك نعمة يتيحها الدهر من حين الى حين للباحثين عن التاريخ الأدبي، حين يظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التي كانت تمتاز بها بيئته ، والتي كـــانت بعيدة الأثر في عصره . وانما يظهر هؤلاء الكتاب والشعراء في العصور التي تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموي في الحجاز وكذلك العصر العباسي في بغداد » (١)

ثم أكد هذا مرة أخرى حين قال :

« ان المؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر ، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد منه في شعر هذا الشاعر كل ما أراد » (٢)

* * *

هذه هي الصورة الذائعة الشائعة لمجتمع الحجاز في عصر سكينة ، كما رسمها أعلام مؤرخي الأدب ، وكما استقرت في أذهاننا

فهل كان الحجاز حقا ، على ما وصفوه ؟

وهل الذي قالوه وقاله عمر بن أبي ربيعة ، هو كل ما كان هناك ، ولا شيء سواه ؟

نرجىء الجواب عن هذا ، ريثما نسمع ما قالوه أيضا ، في بنت الامام !

(١ ، ٢) حديث الاربعاء : ٢٨٩ ، ٢٩١

صورتها في هذا العصر

وطبيعي أن يكون وجود سكينة في هذا المجتمع ، ومعاصرتها لعمر ، كافيين لأن يلقيا على صورتها ظلالا من ذلك كله

فمؤرخو الأدب ، يكادون لا يرتابون في أن عمر قد تغزل فيها دون تكتم أو حذر أو احتياط ، وأنه قد كانت له معها مواقف ، سجلها في ديوانه، وتغنى بها المغنون والمغنيات في الحجاز وغير الحجاز ، وأشبعتها (كتب الأغاني والأمالي)شرحا وتفصيلا

فمن تلك القصائد ، بائيته المشهورة :

قالت سكينة والدموع ذوارف
منها على الخدين والجلباب

ليت « المغيريّ » الذي لم أجزه
فيما أطال تصيدي وطلابي

كانت ترد لنا المنى أيامنا
اذ لا نُلام على هوى وتصابي

خُبِّرت ما قالت فبِتُّ كأنما
يرمي الحشا بنوافذ النشاب

أسكينَ ما ماء الفرات وطيبه
مني على ظمأ وفقد شباب

بألذِّ منك وان نأيت وقلما
ترعى النساءُ أمانة الغيَّاب

ان تبذلي ليَ نائلا أشفي به
داءَ الفؤاد فقد أطلت عذابي

وعصيت فيك أقاربي وتقطعت
بيني وبينهم عُرَى الأسباب
فتركتني ، لا بالوصال ممتعا
منهم ، ولا أسعفتِني بثواب
فقعدتُ كالمهريق فضلةَ مائه
في حر هاجرة للمع سراب

ذكرها القالي في أماليه ، والزجاج في أماليه كذلك ، عن الأخفش عن المبرد .

على ان « الاصفهاني » ـ وهو معاصر « للقالي » ، وان تناءى بهما المكان ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب ـ قد رواها مرة هكذا : (١)

قالت « سعيدة » والدموع ذوارف
منهما على الخدين والجلباب

... ...

أ « سعيد » ما ماء الفرات وطيبه
مني على ظمأ وفقد شباب
بألذ منك وان نأيت وقلما
ترعى النساء أمانة الغياب

قال أبو الفرج :

« وسعيدة ، هي سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، كان عمر قد تعرض لها بعد طوافه ، فقالت له : ويحك يا ابن أبي ربيعة ، ما تزال سادرا في حرم الله متهتكا ، تتناول بلسانك ربات الجمال من قريش ! آمرك بتقوى الله وترك ما أنت عليه » . قال أبو الفرج : « وانما غيّره المغنون فقالوا : سكينة »

وقال أبو اسحق الحصري (ت ٤١٣ هـ) بعد أن أورد هذه الأبيات كرواية القالي : «كذب من روى هذا الشعر في سكينة رضي الله عنها »(٢)

(١) ج ١٦/١٠
(٢) الحصري : زهر الآداب ١٠١/١

وأخذ « الشيخ الشنقيطي » برأي صاحب الأغاني في أن القصيدة قيلت في سعدى هكذا :

* قالت سعيدة والدموع ذوارف *

على انه عقب عليها بما يشير الى أنها كانت تروى في عصر الرشيد ، على انها في سكينة بنت الحسين . قيل : « ان اسحـــاق الموصلي غني الرشيد يوما :

* قالت سكينة والدموع ذوارف *

فوضع القدح من يده وغضب غضبا شديدا وقال : لعن الله الفاسق ولعنك معه ! .. فسقط في يد اسحاق ، فعرف الرشيد ما به فسكن ثم قال : ويحك ، أتغنيني بـأحاديث الفاسق بن أبي ربيعة في بنت عمي وبنت رسول الله ؟ .. ألا تتحفظ في غنائك ؟ .. أو تدري ما يخرج من رأسك ؟ » (١)

أما الدكتور زكي مبارك ، فقــرر أن عمر قالها في « سكينة » اثر اجتماعه بها مع نسوة من أهل المدينة ، تلبية لدعوة بعثت بها السيدة سكينة اليه مع رسول لها ، وواعدته « الصورين » مكانا ، في ليلـــة حددتها له . وقد ذكر الدكتور مبارك مرجعه : « صاحب الأغاني ، في أخبار عمر ، في الجزء الأول » (٢)

فعلق « السيد الفكيكي » على هذا بقوله :

« مع العلم بأن صاحب الأغاني لم يذكر هذا الشعر في ليلة الصورين ، وانما ذكر شعرا آخر »

ونقول : بل قد ذكرها صاحب الأغاني في حـادثة الصورين فعلا ، في الجزء الأول من الأغاني (٣)

على أنه ، كذلك ، ذكر حادثة الصورين هذه بنصها في موضع آخر ، ومع شعر آخر ، قال :

---

(١) الخبر في « الاغاني » : ١٢/١٦

(٢) حب أبي ربيعة وشعره : ١٩٨

(٣) ص ١٦١ ، ١٦٢ ط دار الكتب ولعل السيد الفكيكي رجع الى نسخة اخرى

« اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه ، فتشوقن اليه وتمنينه . فقالت سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما : أنا لكن به . فأرسلت اليه رسولا ، وواعدته الصورين ، وسمَّت له الليلة والوقت ، وأعدت صواحباتها . فوافاهن عمر على راحلته فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن . فقال لهن : والله اني لمحتاج الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف الى مكة وقال :

ألم بزينب ان البين قد أفدا
قل الثواء لئن كان الرحيل غدا
قد حلفت « ليلة الصورين » جاهدة
وما على المرء الا الحلف مجتهدا
لأختها ، ولأخرى من مناصفها
لقد وجدت به فوق الذي وجدا
لو جمع الناس ثم اختير صفوفهم
شخصا من الناس لم أعدل به أحدا(١)

والسند في الروايتين واحد ! ..

وقد غنى بالبائية « الهذلي ، والغريض »

وغنى بالدالية « ابن سريج ، ومعبد » وكذلك « الغريض ومالك » في بعض الروايات

ثم ان أبا الفرج نفسه ، عاد فذكر هذه الأبيات الدالية ، مقترنة بليلة الصورين ، مع اضافة جديدة لم ترد في الموضعين السابقين . تلك هي أن عمر لما انصرف من اجتماع الصورين ، قال داليته :

* ألم بزينب ان البين قد أفدا *

« فلما كان بمكة قال : يا غريض ، اني اريد أن أخبرك بشيء يتعجل

---

(١) الاغاني : ١/١٠٥ دار الكتب

لك نفعه ويبقى لك ذكره ، فهل لك فيه ؟ .. قال : أفعل من ذلك ما شئت وما أنت أهله . قال : اني قلت في هذه الليلة التي كنا فيها ـ يعني ليلة الصورين ـ شعرا ، فامض به الى النسوة فأنشدهن ذلك وأخبرهن اني وجهت بك فيه قاصدا . قال : نعم . وحمل الغريض الشعر ورجع الى المدينة فقصد سكينة وقال لها : جعلت فداك يا سيدتي ومولاتي ! .. ان ابا الخطاب أبقاه الله وجهني اليك قاصدا

قالت : أوليس في خير وسرور تركته ؟ ..

قال : نعم ..

قالت : وفيم وجَّهك أبو الخطاب حفظه الله ؟ ..

قال : جُعلت فداك ! .. ان ابن أبي ربيعة حملني شعرا وأمرني أن أنشدك أياه ..

قالت : فهاته ..

فأنشدها :

* ألم بزينب ان البين قد أفدا * الأبيات

فقالت سكينة : يا ويحه ! .. فما كان عليه أن لا يرحل في غده ؟ ..

ووجهت الى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر وقالت للغريض :

ـ هل عملتَ فيه شيئا ؟ ..

قال : قد غنيتُه ابنَ أبي ربيعة ..

قالت : فهاته ..

فغناه الغريض ، فقالت سكينة :

ـ أحسنت والله وأحسن ابن أبي ربيعة !.. لولا انك سبقت فغنيته عمر قبلنا لأحسنا جائزتك ..

ثم نادت : يا بنانة ، أعطيه بكل بيت ألف درهم ، فأخرجت اليه بنانة أربعة آلاف درهم فدفعتها اليه . وقالت سكينة :

ـ لو زادنا عمر لزدناك ..

ومع ان الجائزة تحدد عدد الأبيات بأربعة فقط كما لاحظ « السيد الفكيكي » الا انها جاءت في الديوان ـ شرح محمد العناني ـ بزيادة

خمسة أبيات ، لم ترد في « الأغاني » مع تصريح الشارح بأنها كانت مرجعه ومعتمده . والأبيات الخمسة هي :

لعمـــرها ما أراني ان نــوى نزحــت
أو دام ذا الحــب الا قاتــلي كمــــدا

بــكر دعــا فأتــى عمـــدا لشـــقوته
مــا جاء من ذاك ان غيــا وان رشــدا

من ينهَ يُعصَ، ومن يحسد ، ولا وأبي
ما ضرَّها من وَشيَ عندي ومَن حسدا

هـــذا يقربـــه منهـــا وعبرتهـــا
يوم الفـــراق فما راعـــى ولا اقتصدا

وقــد نهيــت فــؤادي عن تطلبهـــا
فاغشني وأتى ما شاء معتمــــدا !..

ورفض الأستاذ الفكيكي هذه الأبيات ..

ورفض معها القول بأن الدالية قد قيلت في سـكينة ، ولم يرد اسمها قط في بيت منها . وانما هي في « عائشة بنت طلحة المخزومية ، وهي بنت أخت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكانت تسكن المدينة ، ولا يبعد أنها كانت من جملة النسوة في ليلة الصورين ان صحت الرواية ، ذلك لأن عمر بن أبي ربيعة قال فيما قال فيها :

يا أم طلـــحة ان البـــين قد أفـــدا
قل الثواء لئن كان الرحيـــل غدا

أمسى العراقي لا يدري اذا بـــرزت
من ذا تطـــوف بالأركان أو ســـجدا

فأنت ترى ان مطلع تلك الابيات وهذه واحد ، لولا اختلاف الكناية عن اسمها ، تهيبا من غضب فتيان بني تيم الذين توعدوه » (١) ..

---

(١) السيدة سكينة : ٣٢ ـ والابيات في ديوان عمر ، ص ١٤٠

وقصيدة ثالثة ، رواها « أبو علي القالي » في أماليه هكذا :

ان طيف الخيال حين ألمَّا
هاج لي ذكرة وأحدث همَّا

جددي الوصل يا « سكين » وجودي
لمحب رحيله قد أحما

ليس بين الرحيل والبين الا
ان يردوا جمالهم فتزمَّا

ولقد قلت مخفيا لغريض
هل ترى ذلك الغزال الأجمَّا

هل ترى فوقه من الناس شخصا
أحسن اليوم صورة وأتمَّا

ان تنيلي أعش بخير وان لم
تبذلي الود مت بالهم غمَّا

وقال أبو علي : انها من شعر عمر في سكينة (١) ..

وكذلك جاءت في الديوان ، برواية أبي علي ..

غير أن « أبا العلاء المعري » روى البيتين الأولين هكذا :

ودعي القلب يا « قريب » وجودي
لمحب فراقه قد احمَّا

ليس بين الحياة والموت الا
ان يردوا جمالهم فتزمَّا (٢)

وكذلك رواها أبو الفرج ، بلفظ « قريب » :

ان طيف الخيال حين ألمَّا
هاج لي ذكرة وأحدث همَّا

جددي الوصل يا قريب وجودي
لمحب فراقه قد ألمَّا

(١) الامالي « سمط اللئالي : ٢/٣٠٥ »
(٢) رسالة الغفران . تحقيق بنت الشاطيء : ٥٣٩ ط ٣ ذخائر

ليس بـين الحيـــاة والمـــوت الا
أن يردوا جمـــــالهم فتزمَّـــا
ولقـد قلت مخفيـــا لغريـض :
هل ترى ذلـك الغـــزال الأجمَّـــا
هل ترى مثله من الناس شخصـــا
أكمل الناس صـورة ، وأتمَّـــا (١)

وأعاد رواية بيتين منها في موضـع آخر ، عمن تدعى أم اسحاق « سمعت ابن سريج على أخشب منى غداة النفر وهو يغني :

جددي الوصـل يا قريب وجـودي
لمحب فراقـــه قـد ألمَّـــا
ليس بين الحيـــاة والمـــوت الا
أن يردوا جمـــالهم فتزمَّـــا

فما تشاء أن تسمع من خبــاء ولا مضرب ، حنينـــا ولا أنينـا الا سمعته ! » (٢)

ثم أعادها بمثل هذه الرواية في موضوع ثالث، من أخبار «ابن سريج».

ثم أضاف هذا الخبر :

« أُنشِد جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام قول عمر :

ليس بـين الحيـــاة والمـــوت الا
أن يردوا جمـــالهم فتزمَّـــا

فطرب وارتاح وجعل يقول : لقد عجلوا البين ! .. أفلا يوكون قربة ؟ أفلا يودعون صديقا ؟ .. أفلا يشدون رحلا ؟ .. حتى جرت دموعه » (٣)

وأنكر « السيد الفكيكي » على جامع ديوان عمر أن يأخذ برواية القالي ويدع رواية الأغاني التي كررها في ثلاثة مواضع ، ثم تساءل السيد : « وهل من المعقول يا ترى أن ينشد الامام الصادق عليه السلام ما

---

(١) الاغاني : ١/١٢١ دار الكتب
(٢) الاغاني : ١/٢٩٣ دار الكتب
(٣) الاغاني : ١/٣٠٥ دار الكتب

تغزل به ابن أبي ربيعة في عمة أبيه فيطرب ويرتاح ؟.. وهل من الحق أن نتصوره أقل من هارون الرشيد وقد غضب غضبا شديدا ، في نشوته ، على اسحاق الموصلي حينما غنّى بين يديه بقول عمر حسب الرواية المغلوطة :

* قالت سعيدة والدموع ذوارف *

* * *

ومقطوعة رابعة لعمر ، قيل انها ــ هي الأخرى ــ في سكينة بنت الحسين :

أحب لحبك من لم يكن
صفيا لنفسي ولا صاحبا
وأبذل نفسي لمرضاتكم
وأعتب من جاءكم عاتبا
وأرغب في ود من لم أكن
الى وده قبلكم راغبا
ولو سلك الناس في جانب
من الأرض واعتزلت جانبا
ليممت طيتها ، انني
أرى قربها العجب العاجبا
فما ظبية من ظبا الأرا
ك تقرو دميث الربى عاشبا
بأحسن منها غداة الغميم
وقد أبدت الخد والحاجبا
غداة تقول على رقبة
لخادمها : يا احبسي الراكبا
فقالت لها : فيم هذا الكلام ؟..
وابدت لها عابسا قاطبا

فقـــالت : كريم أتى زائـــرا
يمـــر بكـم هكـذا جانبـا !..
شـريف أتـى ربعنـــا زائـــرا
فأكـــره رجعتـــه خائبـــا

غنى في أبياتها الأول والرابع والخامس « ابن القفاص المكي » (١)
وقد انكر « السيد الفكيكي » أن تكون قيلت في سكينة بنت الحسين ، وظنهامن مفتريات الدكتور زكي مبارك ، الذي قال في دعواه انه اعتمد في هذه الأخبار على الأغاني وزهر الآداب والأمالي (٢)

قال :
«ونحن أيضا رجعنا الى هذه الموضوعات الأدبية وغيرها من المصادر المعتبرة ، وأمهات الكتب في لغة العرب وآدابها ومختلف تواريخها ... فلم نعثر على ما عثر عليه الدكتور مبارك بأن هذه المقطوعة قالها ابن أبي ربيعة في سكينة ، ولم يذكر الأغاني من هذا الشعر سوى بيتين هما :

أحب لحبــك من لم يكن صفيا لنفسي ولا صاحبــا
وأبـــذل مالي لمرضاتكم وأعتب مـــن جاءكم عاتبــا

كما ان من عني بجمع شعره وشرحه من الأدباء لم يذكروا ما ذكره الدكتور ... » (٣)

والحق ان الأبيات وردت كاملة في (الأغاني) بالنص الـذي اثبتناه هنا نقلا عن طبعة دار الكتب
وقد جيء بها عقب البائية :

* قالت سكينة والدموع ذوارف *

في سياق الشعر الذي قاله عمر في سكينة ، وصدرت بعبارة : « وقال فيها » عـودا بالضمير الى سكينة .
ولكن الحق أيضا أن القصيدة لم ترد في كل النسخ الخطية للأغاني ،

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٩٣
(٢) الاغاني : ١٦٣/١
(٣) السيد توفيق الفكيكي : السيدة سكنية : ٤٣

وانما نقلت في طبعة دار الكتب عن المخطوطة التيمورية . ولعل سقوطها من بعض النسخ ، هو الذي جعل السيد الفكيكي يؤكد « ان صاحب الأغاني لم يأت منها بغير بيتين اثنين ، ودون أن يشير الى أنها قيلت في سكينة »

* * *

وهذه الصورة لسكينة ، تلتئم مع صورة عصر يمثله شعر عمر بن أبي ربيعة ، كما قال قائلون . فليس شيء من هذا الذي قيل في بنت الحسين بمستبعد ، اذا صح ما ذكروا من أن المجتمع الحجازي قد أباح لعمر أن يطلق لسانه في شريفات قريش غير متحرج ولا هياب ، وصدق ما ذهبوا اليه من أن تغزل عمر باحدى هؤلاء ، كان شهادة معترفا بها لصاحبتها بالحسن والجمال ، تحرص كل حسناء على الظفر بها وتتكلف في سبيلها ما يباح وما لا يباح ، حتى لتقول « الثريا بنت علي » وقد سمعت قول عمر في رملة :

وجلا بردها وقد حسرته　　　نور بدر يضيء للناظرينا !

« أف له ما أكذبه ! .. أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ؟ .. »

ورملة هذه هي بنت عبد الله بن خلف ، تزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر ، فلما تزوج عليها عائشة بنت طلحة بعد مقتل مصعب ، قال الشاعر :

انعم بعائش عيشا غير ذي رنق

وانبذ برملة نبذ الجورب الخلق

وقالت له عائشة يوما في لحظة صفاء : اعدد لي أيامك واذكر أفضلها .

فعد لها يوم أبي فديك ويوم سجستان ، ويوم قطرى بفارس ، ونحو ذلك . لكن عائشة استدركت عليه قائلة : « قد تركت يوما لم تكن في أيامك هذه أشجع منك فيه ! .. » سألها : « وأي يوم هو ؟ .. » قالت : « يوم أرخت رملة الستر عليها وعليك ! .. » (١)

---

(١) الاغاني : حـ ١١ ص ١٨٠ وما بعدها ـ ط دار الكتب

وسكينة قد كانت سيدة نساء عصرها ملاحة وظرفا وأناقة ، فربما يؤذي جمالهـــا ــ عنــد هؤلاء ــ أن يسكت عمر فلا يمنحها الشهادة الرسمية المعترف بها وحدها في سوق الجمال ، بعد أن أقر له الشعراء بأنه أوصفهم لربات الجمال

ثم ان شعره في سكينة ، ليس فيه من الفحش ما يقاس بشعره في أخريات من حسان ذلك العصر حيث جعل مخادعهن ــ لا البيوت فحسب ــ ميدانا لمغامراته الغرامية ، ولن أنقل هنا رائيته في النوار :

راح صحبي ولــم أحــيِّ النوارا
وقليــل لــو عرجــوا أن تــزارا

وانما أنقل هنا قصيدته القافية في احدى شريفات المجتمع :

ولما التقينا واطمأنت بنـــا النويِ
وغيب عنـــا من نخـاف ونشفــق
فقمـــن لكـــي يخليننا فترقرقت
مــدامع عينيهـــا وظلت تـــدفق
وقالت : أما ترحمنني !.. لا تدعنني
لــذي غــزل جم الصبابة أخــرق
فقلــن : اسكتي عنا فلست مطاعة
وخلِّك عنا ــ فاعلمي ــ بكِ أرفق!

وداليته في هند بنت الحارث المرية :

ولقــد قــالت لجــارات لهــا
ذات يــوم ، وتعــرت تبتــرد
أكمــا ينعتنـــي تبصرننـــي
عمركـــنَّ الله أم لا يقتصـــد
فتهاتفـــن وقــد قلــن لهــا :
حسنٌ في كــل عــين مـــن تــود

حســـــد" حُـمِّلنـــــه من أجلهــــا
وقديمــــا كــان في الناس الحســـد

أجل ، أي شيء في تغزله بسكينة ، يقاس بهذا الــذي نقلت أقله وأمسكت عن أكثره ! ..

وأي ضير عليها ، وهذا المجتمع الذي عاشت فيه قد طاب له ـ فيما قالوا ـ أن يصغي الى معازف المغنين وحناجر المغنيات ، وهي تنطلق في مهد الاسلام ودار الهجرة ، شادية بغزل عمر في بنت الحسين ، وأخت عبد الملك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وعائشة بنت طلحة ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، ومن لا احصي هنا من اسماء العقائل الكريمات ! ..

بلى ، ان صورة سكينة في هذه الأخبار والأشعار ، تأتلف مع صورة المجتمع الحجازي في عصرها كما تمثله أعلام مؤرخي الأدب .

على أن الصورة الأولى لن تكتمل ، الا اذا أضفنا اليها هنا ، مجالس الطرب والغناء التي قيل أن « سكينة » كانت تعقدها في مجلسها بــدار الهجرة ، على بعد خطوات من مثوى جدها الرسول ، في مسجده الشريف :

من تلك المجالس ، ما رواه صاحب الأغاني عن المغنين الأربعة المقدمين في عصر سكينة : ابن سريج ، والغريض ، ومعبد الحجازيين ، وحنين الحيري العراقي . قيل ان الثلاثة الحجازيين اجتمعوا يوما فتذاكروا أمر حنين الحيري وكتبوا اليه يقولون : نحن ثلاثة بالحجاز وأنت وحــدك بالعراق ، فأنت أولى بزيارتنا . فشخص اليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه فلم يُرَ يوم" اكثرَ حشرا ولا جمعاً من يومئذ . ودخلوا المدينة فلما صاروا في بعض الطرق ، قال لهم معبد : صيروا اليَّ . فقال ابن سريج : ان كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا اليك . فقال : ما لي من ذلك شيء

وعدلوا الى منزل « سكينة » فلما دخلوا اليها أذنت للناس اذنا عاما ، فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا ،

ثم أنهم سألوا حنينا أن يغنيهم صوته الذي أوله :

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

وكان حنين قد قال لهم : ابدءوا أنتم . فقالوا : ما كنا لنتقدمك ، ولا نغني قبلك حتى نسمع هذا الصوت

فلما غناهم اياه ، وكان من احسن الناس صوتا ، ازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعا وأخرجوا أصحاء ، غير « حنين » فانه مات تحت الهدم

وقالت سكينة :

ـ لقد كدر علينا حنين سرورنا ! .. انتظرناه مدة طويلة ، فلما جاء مات ، كأنا والله كنا نسوقه الى منيته (١)

ومجلس آخر رواه صاحب الأغاني قال :

« كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة وآلى يمينا ألا يغني . ونسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفي . ثم خرج وفيه بقية من العلة ، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وموضع مصلاه ، فلما قدم المدينة نزل على بعض اخوانه من أهل النسك والقراءة ، فكان أهل الغناء يأتونه مسلمين عليه فلا يأذن لهم بالجلوس والمحادثة ، فأقام بالمدينة حولا حتى لم يعد يحس من علته بشيء ، وأراد الشخوص الى مكة ، وبلغ ذلك سكينة بنت الحسين رضي الله عنه ، فاغتمت اغتماما شديدا وضاق به ذرعها ، وكان أشعب يخدمها، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره . فقالت لأشعب : ويلك ! .. ان ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول ، ولم أسمع من غنائه قليلا ولا كثيرا ، ويعز ذلك علي ، فكيف الحيلة في الاستماع منه ولو صوتا واحدا !

فقال لها أشعب : جُعلت فداك ، وانّى لك بذلك ، والرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه ، فارفعي طمعك وامسحي بوزك تنفعك حلاوة فمك ، فأمرت بعض جواريها فوطئن بطنه حتى كادت امعاؤه أن تخرج ،

(١) الاغاني حـ ١٥ ساسي ـ وانظر معه ما في « عيون الاخبار : ٤/٩٠)

وخنقته حتى كادت نفسه أن تتلف ، ثم أمرت به فسحب على وجهه حتى أخرج من الدار اخراجا عنيفا على أسوأ الحالات ، واغتم غمـا شديدا ، وندم على ممازحتها في وقت لا يصلح لذلك ..

ومضى حتى اتى منزل « ابن سريج » ليلا فطرقه ، فقيل من هذا ؟ .. فقال : أشعب . ففتحوا له ، فرأى ابن سريج على وجههولحيته التراب ، والدم سائلا من أنفه وجبهته ، وثيابه ممزقة . فهال ابن سريج ما رأى ، وسأله : « ما هذا .. ويحك ؟ !.. »

فلما قص عليه القصة ، قال له : انا لله وانا اليه راجعون ، الحمد لله الذي سلمك ! .. لا تعودن الى هذه السيدة أبدا

قال أشعب : فديتك .. هي مولاتي ولا غنى لي عنها . ولكن هل لك حيلة في أن تصير اليها وتغنيها فيكون ذلك سببا لرضاها عني ؟ .. قال ابن سريج : كلا والله ، لا يكون ذلك أبدا بعد أن تركته !

قال أشعب متوسلا : قد قطعت أملـي ورفعت رزقي وتركتني حيران بالمدينة لا يقبلني أحد وهي ساخطة عليّ ، فاللهَ اللهَ فيّ ، وأنا أنشدك الله الا تحملت هذا الاثم فيّ !

فأبى ابن سريج أن يجيب

ولما رأى أشعب اصراره ، صرخ صرخة آذن لها أهل المدينة ، ونبه الجيران من رقادهم ، ثم سكت فلم يدر النـاس ما القصة عند خفوت الصوت الذي راعهم

وسأله ابن سريج : ويلك ! .. ما هذا ؟

فأجاب متوعدا : لئن لم تصر معي اليها لأصرخن صرخة أخرى لا يبقى بالمدينة أحد الا صار بالباب ، ثم لأفتحنه ولأرينهم ما بي ولأعلمنهم انك أردت سوءا بغلامك ــ وكان ابن سـريج مشهورا بذلك ــ فمنعتك وخلصت الغلام من يديك حتى فتح الباب ومضى ، ففعلت بي هذا غيظا وأسفا ، وانك انما اظهرت النسك والقراءة لتظفر بحاجتك من الغلام ..

فقال ابن سريج في جزع : أعزب أخزاك الله ..

فأقسم أشعب بكل الايمان ، لئن لم ينهض معه ابن سريج في وقته هذا ، ليفعلن ما به أنذر ..

واذ رأى ابن سريج منه الجد ، خرج معه فلما صاروا في بعض الطريق، عاد يرجوه أن يمضي عنه ويدعه لشأنه ، فقال أشعب مهددا :

ــ والله لئن لم تأت معي لأصيحن الساعة حتى يجتمع الناس ، ولأقولن انــــك أخذت مني سوارا من ذهب لسكينة ، عــلى أن تجيئها فتغنيها سرا ، ثم كابرتني عليه وجحدتني وفعلت بي هذا الفعل ..

فمضى معه ابن سريج مستسلما ضائع الحيلة ، حتى جــاءا بيت سكينة فأذنت لهما في الدخول ، وقالت لابن سريج :

ــ يا عبيد ، ما هذا الجفاء ؟

قال : قد علمت ــ بأبي أنت ــ ما كان مني ..

قالت : أجل ..

ثم تحدثا ساعة ، وقص عليها ابن سريج ما صنع به أشعب ، فضحكت وقالت : « لقد أذهب ما كان في قلبي عليه » وأمرت لأشعب بدنانير وكسوة

ثم قال لها ابن سريج : أتأذنين لي بأبي أنت ؟

قلت : وأين ؟

فقال : الى المنزل

قالت : برئت من جدي ان برحت داري ثلاثا ، وبرئت من جدي ان أنت لم تغن ان خرجت من داري شهرا ، وبرئت من جدي ان أقمت في داري شهرا ان لم أضربك في كل يوم فيه عشرا ، وبرئت من جدي ان حنثت في يميني أو شفـَّعت فيك أحدا

صاح ابن سريج مستسلما : وا ذهابَ ديناه ! .. وا فضيحتاه ! .. ثم اندفع يغني .

أستعين الذي بكفـَّيه نفسي ورجائي ، على التي قتلتني

فنزعت سكينة من عضدها سوارا من ذهب ، زنته أربعون مثقالا ،

وأقسمت عليه الا لبسه ، ثم بعثت أشعب الى « عزة الميلاء » تخبرها بوجود ابن سريج عندها وترجوها أن تزورها

فما أسرع ما جاءت عزة ، وأقامت ليلتها ببيت السيدة ، فلما كان اليوم الثاني هيىء مجلس الغناء ، وقالت سكينة :

ـ يا عزة ، ان رأيت أن تغنينا فافعلي ..

فغنت عزة لحنها في شعر عنترة العبسي :

حُيِّيت من طلل تقادم عهده
أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
ان كنت أزمعت الفراق فانما
زمَّت ركابُكم بليل مظلم

فهتف بها ابن سريج : أحسنت والله يا عزة

ونزعت سكينة سوارها الثاني وطلبت الى عزة أن تلبسه ، ثم قالت لابن سريج : غننا ..

قال حسبك ما سمعت البارحة ..

قالت : لا بد أن تغنينا في كل يوم لحنا ، فلما رأى انه لا يقدر على الامتناع ، غنى :

قالت من انت على ذكر فقلت لها
أنا الذي ساقه للحين مقدار
قد حان منك ـ فلا تبعد بك الدار ـ
بين ، وفي البين للمتبول اضرار

وفي اليوم الثالث ، غنت عزة لحنها في شعر الحارث بن خالد

وقرَّت بها عيني وقد كنت قبلها
كثير بكاء مشفقا من صدودها

قال ابن سريج : والله ما سمعت مثل هذا قط حسنا ولا طيبا .

ثم أمرته سكينة فغنى :

أرقت فلم أنم طربـــا وبتّ مسهّـــدا نصبـــا
لطيْف أحبّ خلــق الله انسانا ، وان غضبـــا
فلـــم أردد مقالتهـــا ولم أك عاتبـــا عتبـــا
ولكـــن صرّمت حبلي فـأمسى الحبل منقضبا

فقالت سكينة : قد علمت ما أردت بهذا ، وقد شفعناك ولم نردك وانما كانت يميني على ثلاثة فاذهب في حفظ الله وكلاءته

وأمرت له ولعزة بحلتين » (١)

* * *

أما وقد اكتملت صورة الهاشمية الحسناء في اطار العصر الذي يمثله غزل عمر فيما قالوا ، والذي أوجب مؤرخو الأدب علينا أن نرجع الى ديوانه اذا شئنا أن نفهم المجتمع الحجازي على حقيقته ، وأن ندرك حقيقة الصلة بين الرجال والنساء فيه .

أما وقد اكتملت هذه الصورة ، فان لنا بعد ذاك وقفة هنا ، نحاول فيها أن نتبين وجه الحق في كل هذا الذي قيل ..

---

(١) الاغاني : ١٥/١٢٥ ساسي

عودٌ على بدء

ونجرؤ بادىء ذي بدء ، على معاودة النظر في تلك المسلّمات التي قررت أن المجتمع الحجازي قد كان حقا على ما يصوره غزل « عمر » وأمثاله

وليست رغبة الدفاع عن بنت الحسين ، هي التي تدفعنا الى هذه المعاودة ، بقدر ما يلزمنا بها الحرص على الحق كيف كان

أصحيح ان ذلك المجتمع قد انصرف عن الاشتغال بالأمور العامة التي أبعد عنها عمدا ، وعكف على حياته الخاصة يبليها في العبث والمجون ؟ ..

بعض هذا يمكن أن يقال . بل كله أيضا يمكن أن يقال في طائفة بعينها من الشباب المترفين ، لو أحصيناهم في كتب التاريخ الأدبي لما جاوزوا العشرات ، وبقيت الى جانبهم كثرة جادة ، شاركت في الحياة العامة فكريا وسياسيا وحربيا مشاركة وعاها التاريخ .

ومن الاسراف أن يقال ان الحجاز كان بمعزل عن الشؤون الكبرى للدولة على النحو الذي وصفه مؤرخو الأدب ، في تعليلهم لشيوع المجون وازدهار فن الغناء فيه ، وان التاريخ ليشهد بأن الحجاز كان أيضا مركز المعارضة القوية التي دوخت الأمويين وكلفتهم أفدح الأثمان ، ولم تمكنهم من الأمر الا بعد أن رجموا الكعبة بالمنجنيق . وقد اعترف الأستاذ الدكتور طه بأن « الشباب الحجازي جاهد جهادا عنيفا في سبيل الاحتفاظ بمنزلته التي تركها له أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرة ، وما كان خروج الحسين ابن علي الا مظاهر لهذا الجهاد ... ولكن هذا الشباب الحجازي لم يوفق »

ومع التسليم بأن هذه الثورات المتتابعة قد أخمدت ، الا أن من الحق أن نذكر أن ثورة ابن الزبير مثلا ، لم يقض عليها الا سنة ٧٣ هـ ، أي بعد توبة عمر بن أبي ربيعة ، التي تابها وهو في الأربعين من عمره على

ما قال مؤرخوه ، والمعروف انه ولد في أخريات ذي الحجة من سنة ٢٣ هـ ــ يوم مقتل الفاروق عمر بن الخطاب ــ فيكون قد بلغ الأربعين في سنة ٦٣ هـ ، والحجاز كله يناصب بني أمية العداء ، ويأبى أن يقر لهم بالخلافة ، وحركة ابن الزبير في عنفوانها ، وستظل كذلك الى عام ٧٣ هـ أي بعد توبة عمر بنحو عشر سنين ــ فكيف يهون التسليم بأن عمر يمثل المجتمع الحجازي في تلك الفترة ؟ .. وان الحجاز على عهده كان بمعزل عن الحياة العامة ، منصرفا الى اللهو والمجون ؟ .. وأي شيء تكون حركة « ابن الزبير » التي استمرت بعد توبة عمر نحو عشر سنين ، تقض مضاجع الأمويين وتحبسهم في الشام وتزلزل الأرض من تحتهم ؟ .. أي شيء تكون هذه الحركة التي كانت غولا ، فيما وصف الأستاذ العلايلي « وكادت تبتلع الدولة الأموية والعنصر الأموي » (١)

ووقعة الحرة ، التي أشار اليها أستاذنا الدكتور طه ، قد كانت في سنة ٦٣ هـ وفيها بلغ « عمر » الأربعين من عمره ، واختتم مرحلة المجون والطيش ، أو كما قالوا : « ختم عهد الفتك وبدأ عهد النسك » (٢)

فاطلاق القول بأن الحجاز لم يشارك في الحياة السياسية ، زمان الأمويين ، يجب أن يؤخذ في كثير من التحفظ والحرص ، والا فقد كان الحجاز ، ابان عمر وأمثاله ، مركز المعارضة القوية التي تزعمها الحسين ، ثم عبد الله بن الزبير من بعده ، وقد وقفت مكة تجاه الأمويين في دمشق ، موقف الخصم العنيد ، وثبتت في المعركة سنين عددا قبل أن تهزم بعد حصار مجهد (٣) . كما ظل لها بعد ذلك كله . نفوذها الروحي يبسط ظله على الدولة الكبرى .

وكان هذا النفوذ من العوامل التي قضت آخر الأمر على دولة بني أمية ، وأقامت الدولة العباسية ، على دعوة دينية ، ترد الأمر الى أصحابه من آل البيت ..

---

(١) اشعة من حياة الحسين : ٢٨
(٢) الاغاني : ٧٧/١ ط دار الكتب
(٣) تاريخ الطبري : الجزء السابع ط مصر

وازدهار الغزل والغناء في مكة والمدينة في ذلك العصر ، أمر لا نملك أن نشك فيه ، ولكن الذي نشك فيه ، هو أن هؤلاء الشعراء الغزليين ، يصورون بشعرهم الماجن حياة ماجنة ! ..

أصحيح ان الحجاز كان اذ ذاك « قد أُسلم الى طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر ، استأجرهم الأمويون للقضاء على النفوذ الروحي الخطر ، لعاصمتي الدين » على ما ذهب اليه الأستاذ العلايلي ؟ (١)

لا سبيل الى انكار أن السلطة الدينية للحجاز كانت خطرا يقدره الأمويون . لكن تقديرهم لخطر النفوذ الديني للحجاز ، لم يكن بحيث ينسيهم انهم بعد في حاجة اليه لقيام الدولة التي ورثت ملك الأباطرة والأكاسرة والفراعين باسم الاسلام ، فالقضاء على الحرمة الدينية لمكة والمدينة ، يؤدي في الوقت نفسه الى القضاء على الدولة التي يتولى بنو أمية أمرها . والثابت تاريخيا ان الأمويين كانوا يعتمدون على عصبية القبيلة في منازعاتهم لبني هاشم ، لكن هذا لم يغنهم قط عن الاعتماد على الصفة الدينية في مواجهة الأعداء المتربصين على الحدود ، وفي استنفار المسلمين للجهاد ، في بلاد الروم والمغرب الافريقي .

وقد ظل الخلفاء منهم حريصين على الخروج الى مكة في موسم الحج عاما بعد عام ، استظهارا بهذه القوة الروحية التي كانوا في حاجة اليها وهم يحكمون ويحاربون ويفتحون باسم الدين الاسلامي . والأستاذ العلايلي يعرف قبل أن أعرف ، ان القولة الخبيثة « بأن المروانيين فكروا في صرف الناس عن المقدسات الاسلامية التي تنزل من الاسلام منزلة الشعيرة ، بانشاء المسجد الأموي بأبهته العظيمة في دمشق ، وان هذه أيضا كانت نية عبد الملك بن مروان بأناقته في تشييد المسجد الأقصى » هذه القولة الخبيثة لم يقلها الا عدو الاسلام « الأب لامانس اليسوعي » ولم يؤيدها بشاهد أو نص . فخوف الأمويين من نفوذ مكة والمدينة

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٩

الروحي ، يجب ألا يبعد بنا الى ذلك الظن المتمادي ، بل يجب الا ينسينا حاجتهم الى الاستظهار بما يخافون منه . كما ان التسليم بأنهم مكنوا لأبناء المهاجرين والأنصار من حياة الفراغ والترف ، لا يجوز ان يذهب بنا بعيدا الى القول باستئجار طوائف المخنثين والشعراء الماجنين لافساد مكة والمدينة ، والا فقد كان من هؤلاء الشعراء ، من هو من صميم بيوت الأنصار وحزب الامام علي ، كالأحوص ، وعبيد الله بن قيس الرقيات . وحكاية يزيد والأخطل ، لا تعين على ما ذهب اليه الأستاذ ، فما هي الا حكاية فردية كان « يزيد » فيها موتورا لا بادئا واترا . هي كما رواها المبرد في كتاب الكامل : « أراد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أن يكيد له فشبب بأخته رملة بنت معاوية وقال فيما قال :

رمل هل تذكرين يوم غزال
اذ قطعنا مسيرنا بالتمني ؟

اذ تقولين : عمرك الله هل شيء
وان جلّ ، سوف يسلبك عني ؟

فغضب يزيد ، وأمر كعب بن جعيل التغلبي بهجاء الانصار ..

فقال كعب : أأهجو الأنصار ؟ .. أراديّ أنت الى الكفر بعد الاسلام ؟ .. ولكن أدلك على غلام من الحي نصراني كأن لسانه لسان ثور — يعني الأخطل — فما كاد الأخطل يقول رائيته المشهورة ، في هجاء الأنصار :

خلوا المكارم لستم من أهلها
وخذوا مساحيكم بني النجار

ذهبت قريش بالسماحة والندى
واللؤم تحت عمائم الأنصار

حتى ثار الأنصار مغضبين ، ودخل النعمان بن بشير الأنصاري على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ثم قال : يا معاوية ، أترى لؤما . فقال :

ما أرى الا كرما . واستطرد النعمان منشدا :

معاويَ الا تعطنا الحق تعترف
لحَي الأزد مسدولا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم ضلَّةً
فماذا الذي تجدي عليك الأراقم ؟ ..

فما لي ثأر دون قطع لسانه
فدونك من ترضيه عنك الدراهم

قالوا : فأمر معاوية بدفع الأخطل اليه ليقطع لسانه ، لولا انه استجار بيزيد ، فما زال بالنعمان يسترضيه ويعتذر اليه حتى كفَّ .. » (١)

فالقصة ـ كما رواها المبرد ـ لا يمكن أن تنهض دليلا على دعوى عامة ، تقول بأن الأمويين منذ عهد معاوية كانوا يستأجرون الشعراء للقضاء على الطبقة الدينية في المدينة ، بل لعلها أولى بأن تشهد بأن النفوذ الديني للأنصار ، كان من القوة بحيث يغلب سلطان بني أمية ، ويجعل شاعرا مثل كعب ، يأبى أن يجيب يزيد ، ويرى في هجائهم ردا الى الكفر بعد الاسلام ، كما تشهد بأن معاوية لم يرض قط عن موقف يزيد ، بل أمر بأن يدفع الأخطل الى النعمان ليقطع لسانه

ولست ادري كيف فات الاستاذ العلايلي مثل هذا ، وانه ليعلم أن الأباحية الماجنة لم تقتصر على المدينة ومكة ، بل توغلت في دمشق ذاتها ، ولم يعصم منها أمثال يزيد بن معاوية ، والوليد بن يزيد ، فهل يا ترى استأجر أهل مكة والمدينة ، من أغرى خلفاء بني أمية بالمجون والعبث؟..

وهل استأجروا « الأحوص الانصاري » ليقول في عاتكة بنت عبد الله ابن يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان

يا بيت عاتكة التي أتعزل
حذر العدا ، وبه الفؤاد موكّل

---

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل : ٢٠٦/٢ وما بعدها

انـــي لأمنحـــك الصدود وانـنـي
قسما اليك ، مع الصدود لأميل (١)

أو هل استأجروا « وضاح اليمن » ليقول في « أم البنين » ما قال مما ننقل بعضه في فصل يلي ؟

وماذا عن غزل عمر نفسه ، بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وأخته وغيرهما من سيدات البيت الأموي ؟

* * *

ان المجون قد استشرى فعلا في الحجاز ، لكنه استشـرى كـذلك في الشام ، ورأيناه يستشري من بعد في بغداد . والأستاذ الدكتور طه نفسه يقرر « ان شباب الحجاز لم يكن يلهو الا بمقدار وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود ، أما شباب بني أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى اندفع فيه الى غير حد ، لا يخشى مراقبة ولا يحفل بسلطان » (٢)

ولو كان الخلفاء هم الذين يغرون شباب الحجاز بالمجون ويعينونهم عليه ، لما كان ثمة خوف يعصمهم من مجاوزة الحدود ، ولفرض الخلفاء رقابتهم الصارمة على شباب بني أمية ، كي يعصموهم — لا شبـاب الحجاز — من مجاوزة الحدود !

وقد نُقلت الينا فعلا ، أخبار تشهد بأن خلفاء بني أمية كـانوا يتدخلون أحيانا ، ليردعوا شعراء الغزل الماجن في الحجاز ، اذا تمادوا في عبثهم ، وجاوزوا الحدود ، وان أهل المدينة أنفسهم كانوا يلجأون الى الخليفة الأموي أحيانا ، ليحمي نساءهم من ألسنة الشعراء .

ففي رواية لمحمد بن سلام ، نقلها أبو الفرج في أغانيه : « ان الأحوص كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى في شعره معبد ومالك ، ويشيع ذلك في الناس ، فنُهي فلم ينته ، فشكوه الى عامـل

---

(١) سمط اللآلي للبكري : ١/١٥٩

(٢) حديث الاربعاء : ٢٣٧

سليمان بن عبد الملك على المدينة ، وسألوه الكتاب فيه الى سليمان ففعل، فكتب سليمان الى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ، ويقيمه على البلس (١) للناس ، ثم ينفيه الى دهلك ــ وهي بلدة حرجة حارة ، تقع في جزيرة في بحر اليمن ، بين بلاد اليمن والحبشة ، وكانت منفى لمن يسخط عليه بنو أمية ــ فنفذ الوالي أمر سليمان في الأحوص ، ولبث الشاعر في منفاه طوال عهد سليمان ، فلما مات وخلفه عمر بن عبد العزيز من بعده ، كتب اليه الأحوص ، يستعطفه ويستأذنه في القدوم ، ويمدحه بقصيدة استشفع فيها بما بينهما من قرابة فقال :

أيا راكبا اما عرضت فبلغن
هديت ، أمير المؤمنين رسائلي
وقل لأبي حفص اذا ما لقيته
لقد كنت نفاعا قليل الغوائل
وكيف ترى للعيش طيبا ولذة
وخالك أمسى موثقا في الحبائل

« وأتى رجال من الأنصار عمر بن عبد العزيز ، فكلموه في الأحوص ، وسألوه أن يدعه يخرج من منفاه ، وقالوا له فيما قالوا : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه ، وقد أخرج الى أرض الشرك فنطلب اليك أن ترده الى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه . فسألهم عمر : فمن الذي يقول :

فما هو الا أن أراها فجاءة
فأبهت حتى ما أكاد أجيب ! ..

قالوا الأحوص ..
قال : فمن الذي يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم ما درت حيث أدور

(١) البلس جمع البلاس ، وهو البساط من شعر ــ معربة

وما كنت زوّارا ولكن ذا الهوى
اذا لم يزر لا بد أن سيزور

قالوا : الأحوص ..

قال : فمن الذي يقول :

كأن « لبنى » صبير غادية
أو دمية زينت بها البيع

الله بيني وبين قيِّمها
يفر مني بها ، وأتبع

قالوا : الأحوص ..

قال عمر : بلى ، الله بين قيِّمها وبينه ، فمن الذي يقول :

ستبلى لكم في مضمر القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

قالوا : الأحوص ..

قال : ان الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أرده ما كان لي سلطان . فبقي هناك الى ما بعد وفاة عمر » (١)

وما دام كتاب « الاغاني » هو مرجعنا الأول في أخبار شعراء المجون بالحجاز في النصف الأول من العصر الأموي ، فيجب ألا نقبل مروياته عن عبث عمر وأضرابه ، الا ومعها المرويات الأخرى التي تدل على تحرج المجتمع الحجازي من اسراف المسرفين منهم ، وتدخل خلفاء بني أمية ، حين يجاوز اسرافهم الحدود .

* * *

وأيا ما كان حال ذلك المجتمع ، فليس يهون علينا أن نتصور ان الصلة بين رجاله ونسائه يجب أن تلتمس عند زعيم الغزليين عمر بن أبي ربيعة ، فان مجتمعا هبط من التحلل الى ذلك الحضيض الداني ، وتهاون في عفة النساء وطهارة الأرحام الى حد الاهدار ، وأباح لمثل عمر

(١) الاغاني : ٤/٢٤٨ ط الدار

ابن عبد العزيز ومصعب بن الزبير، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، أن يتزوجوامن معشوقات ابن أبي ربيعة وبطلات مغامراته ، مجتمع كهذا لا يمكن أن تسمح له الحياة بالبقاء ، أو يأذن له التاريخ بمكان فيه ولو على الهامش

وأيا ما كانت عزلة المجتمع الحجازي عن الشؤون العامة للدولة ، فان هذه العزلة المدعاة ، لم تعطل صلات المصاهرة ما بين الشام والحجاز ، ومن شاء فليرجع الى « نسب قريش » ليقف على مـــدى نشاط هذه المصاهرة التي ربطت خلفاء بني أمية ببنات هاشم ، رباطا لا ينفصم ، ووصلت ما بين الحجاز والشام بالصلة التي لا تنحل ، وساطت دماءهما حتى ما تتزايل ، وقد بلغت الدولة العربية في النصف الأول من العصر الأموي أوج قوتها ، فكيف يتصور العقل أن تقوم لهذه الدولة قائمة ، لا تحميها من اعدائها فحسب ، بل تمكن لها من غزو القسطنطينية وفتح المغرب الأفريقي ، وهي التي أتلفها التحلل ، وطاب لها أن يشهر « عمر » بخير نسائها ، وأن يرفع المغنون عقائرهم بغزلياته فيهن ، في البلد الحرام مهد الاسلام ، وفي المدينة دار الهجرة ، قبل أن يبلى قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم !

لقد صدقنا ان الخصومة الحزبية كانت تتخذ من أعراض النساء هدفا للكيد وسلاحا في المعركة ، صدقنا أن يقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ما قال في رملة بنت معاوية ، وربما أمكن كذلك أن نصدق أن يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ، في أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وزوجة الوليد بن عبد الملك من قصيدة له يمدح بها مصعب بن الزبير :

الا هـزأت بنـا قرشـــ ـــية يهتـز موكبُهـا
رأت بـي شيبة في الـرأ س منـــي مـــا أعيبها
ومثلـك قـد لهوت بهـا تمـــام الحسن أعيَبهـا
لهـــا بعـل غيـور قـا عـــد بـالباب يحجبهـا
يـــراني هـكذا أمشي فيوعدهـــا ويضـــربها

ظللت علـــى نمارقهـا أفديهـا وأخلبهـا
أحدثهـا فتؤمـن لـي فأصدقهـا وأكذبهـا
فـدع هـذا ولكن حا جـة قد كنت أطلبهـا
أتتنـي في المنـام فقلـ ـت هـذا حين أعقبهـا
فلمـا أن فرحتُ بهـا ومـال علـيَّ أعذبهـا
شـربت بريقها حتـى نهلـت وبتُّ أشـربها
وبتُّ ضجيعهـا جـذلا نَ تعجبني وأعجبهـا
فكـانت ليلـة في النـو م نسمرهـا ونلعبهـا

... ...

أجل ربما أمكن أن نصدق أن عبيد الله قال هذا في أم البنين ، ثم عاد فأرضاها « وبلغ منهـا مبلغـا حسنا حتى شغفت به وكسبت له أمان عبد الله بن مروان » بشفاعة لديها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب!

ولكن الذي لا يهون أن نصدقه ، أن يدع المجتمع الاسلامي عمر بن أبي ربيعة يشهِّر بشريفات قريش ، وبنات الأئمة والخلفـاء ، عن غير خصومة حزبية ، وأن يبيح له أن يجعل من بيوتهن ــ بل من مخادعهن ــ مجالا لمغامراته ، ثم يطرب اذ يسمع المغنين والمغنيات يشدون بهذا الغزل المـاجن !

كلا وكلا ...

وانما الذي يصح عندنا ، هو أن غزليات عمر وأمثاله ، كانت هزلا لا شيء من الجد فيه ، وان مغامراته وقصصه الغرامية كانت من نسج الخيال وليست من الواقع في شيء ، وقد عرفه مجتمعه يقول ما لا يفعل ، فتركه يهذي بالشعر كما شاء ، دون أن يخطر له أن بنات هاشم ونساء قريش ، قد شغفن به حبا ، وأبحنه ما لا يباح !

واذا كان « عمر » قد اختار أسماء غادات عصـره وحسان قومـه ، لقصصه وقصائده ، فما كان هذا الصنيع بالذي يمس سمعتهن أو يؤذي كرامتهن في مجتمع يعرف « عمر » شاعرا يهيم في وادي الخيال ، يتصيد

منه مشاهد وصورا ليست من الواقع في شيء أو بعض شيء ، ومن ثم لم تضق الحسان باختيار اسمائهن في قصائده التي مجد فيها الجمال وهام بالحسن ، بل ربما وجدن في ذلك الصنيع مظهر اعتراف بجمالهن ، واعلان عن ملاحتهن ، وهن مطمئنات الى أن المجتمع لا يأخذ قصص عمر مأخذ الجد ، ولا يسيء الظن بمن اختار عمر اسمها لقصيدة من قصائده

وأي حسناء لا يغرها الثناء ؟

أي حسناء ، لا يطربها أن تردد معازف المغنين اسمها في مثل قوله :

ذات حسن ان تغب شمس الضحى
فلنـــا من وجههـــا عنـــا خلف !

أجمع النـــاس عـــلى تفضيلها
وهـــواهم في ســـوى ذاك اختلف

أي حسناء لا يزدهيها ، أن يقترن اسمها بقول عمر :

ليت هنـــدا أنجزتنـــا مـــا تعد
وشفت أنفسنـــا ممـــا تجـد

واستبـــدت مـــرة واحـــدة
انمـــا العاجـــز من لا يستبـــد!

مجرد أسماء ، حفّ بها جمال من يحملنها ، وهن بمنأى عـن الريبة وسوء الظن .

أجل مجرد أسماء ، وربما هام عمر مع خياله ، واشتط به الوهم ، فتمثـل صاحبـة الاسم في جوه العابث ، وتمادى في الخضوع لسيطرة شخصيتها الحقيقية على خياله ، فجاءت صورتها في قصصه ، تشي بمعالم هذه الشخصية الحقيقية ، واذ ذاك كان المجتمع ينكر ، ويغضب ، ويوقفه عند حده فيقف !

فعل ذلك حين هدده بنو تيم بالشر ، لما رأوا في تغزله باسم عائشة ، ملامح من بنت طلحة ...

وفعل ذلك حين هدده بنو أمية بالويل ، عندما رأوا في تغزله باسم

فاطمة ، ملامح بنت عبد الملك !

واستحيا عمر من قدامة بن موسى ، حين شاقه أن يرى أخته زينب ، بعد أن تغزل باسمها على السماع

وأقسمت « الثريا بنت علي » للوليد بن عبد الملك أن عمر كان عفيفا ، وهو الذي ملأ ديوانه باسمها ، وترك للرواة من بعده أن ينسجوا من قصائده فيها أقاصيص وحكايات !

وكف عن التعرض لزوجة أبي الأسود الدؤلي ، وكانت جميلة ، فأراد أن يكلمها فعاتبه أبو الأسود مرة فلما عاد زجره بقوله :

واني ليثنيني عـن الجهـل والخنا
وعن شتم أقـوام خـلائق أربـع
حيـاء ، واسلام ، وبقيا ، وأنني
كـريم ومثلي قـد يضـر وينفع
فشتـان مـا بيني وبينك أننـي
عـلى كـل حـال أستقيم وتظلع

فلما لم يرعو « عمر » واعترض زوجة أبي الأسود حين عادت الى المسجد ، خرج معها أبو الأسود مشتملا على سيف ، فما كاد « عمر » يراهما حتى أعرض عنها متمثلا :

تعـدو الذئاب على من لا كلاب له
وتنقى صولة المستأسد الحامي (١)

كلا .. لم يكن المرعى مباحا لعمر يقول فيه ما يقول ويفعل ما يفعل ، دون أن يتصدى له من يزجره ويرده الى التزام الحدود فيرعوي ، ولو لم يرعو لخرج له بنو تيم وغير بني تيم بالسلاح ، ولأنفذ الحجاج وغير الحجاج وعيده فيه ، أو لاستعدى أهل الحجاز عليه الخليفة بدمشق ، كما فعلوا حين شبب الأحوص بنساء المدينة ـ عن غير صلة ـ ونُهي فلم ينته

كما لم يكن المرعى مباحا لغير عمر من شعراء الغزل الماجن ، وقد نقل

(١) الاغاني : ١/١٤٨

أستاذنا الدكتور طه قصة « وضاح اليمن » الذي دفن حيا ، بعد أن تغزل بأم البنين ..

وأشفق الحارث بن خالد المخزومي (١) من الزواج بعائشة بنت طلحة بعد أن تغزل فيها ، حتى لا تقول قريش ان غزله فيها كان لريبة (٢)

وكاد ابن أبي ربيعة نفسه ، يلحق بالأحوص ، لولا أن تداركته رحمة ، ففي أخبارهم أن سليمان بن عبد الملك حج بالناس وهو خليفة، فاستدعى عمر وسأله : ألست القائل :

فكم من قتيل ما يُباء به دم ... ومن غَلِق رهنا اذا لفَّه مِنى

ومن مالىء عينيه من شيء غيره ... اذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدمى

أوانس يسلبن الحليم فؤاده ... فيا طول ما شوق ويا طول مجتلى !

قال : نعم . قال سليمان : لا جرم والله لا تحضر الحج العام مع الناس. وأخرجه الى الطائف (٣)

* * *

لكن المأساة أن أكثرنا قد صدقوا كل ما قال عمر ، وصدقوا معه أولئك القصاصين الذين راحوا ينسجون الحكايات حول هذه القصيدة أو تلك من غزلياته ، وهي قصص لا نشك في أنها اخترعت بأخرة ، كما قال الأستاذ الدكتور طه حسين بحق .

وقد عاد بعد الذي قرره وأكده من تمثيل شعر عمر لعصره ، ولصلة النساء بالرجال في مجتمعه ، عاد يؤكد أن « صلة عمر بأخت عبد الملك وبنته، وبسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبد الله بن عباس، وعائشة بنت

---

(١) هو الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة **المخزومي** .
انظر نسبه وحديثه مع عائشة ، في « نسب قريش » : ٣١٣

(٢) الاغاني : ٣/٣٢٧ دار الكتب ــ وانظر معه « نسب قريش » : ٣١٤

(٣) الاغاني : ٩/٦٨ الدار

طلحة ، كانت طاهرة كل الطهر ، بريئة كل البراءة من الاثم .. كانت لفظية لا غير » (١)

على حين أخذ « الدكتور زكي مبارك » كل هاتيك الأخبار والقصص والمغامرات أخذاً لمّاً ، وصدقها غير مرتاب فيها ولا متظنن ، يقول عن عمر بن أبي ربيعة :

« .. بلى انه رجل خليع ، وفاتن المنظر أخاذ ، فلا بد أن يكون شعره كذلك فاتنا أخاذا . وضاحك الثغر بسام ، فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساما ..

« الا فليخل شعره من التوجع ، وليسلم نسيبه من الجزع ، وليترك الهم لقوم سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم

« علام يصف الليل ويشكو كواكبه البطيئة ونجومه المشكولة وفجره المفقود ، وما كان الرجل في التفاف النساء حوله واقبالهن عليه ، بالذي يحس أو يشعر بما يطلق لسانه بغير الغزل والنسيب ... فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة في جنح الليل ، فلا تكاد تصل الى منزله حتى تجد غيرها قد سبقتها اليه ، فتعود آسفة حزينة !

« علام يشكو البين ، وما روعه نذير بالفراق الا بشره بشير بالتلاق ؟ أم كيف يبكيه الوداع وهو الذي ما شيع حبيبا الا استقبل حبيبا ، ولا غابت عنه شمس الا أشرقت عليه شمس ! (٢)

* * *

وماذا عن « سكينة بنت الحسين » ؟

ماذا عنها ، بين « أخبار الملاح » في حديث زكي مبارك عن « حب ابن أبي ربيعة وشعره » ؟

بدأ فقال :

« لا يغضب قوم ان ذكرنا انها كانت ـ في عفافها ـ نزقة طائشة ، تؤثر الخفة على الوقار ، وتهوى أن يخلد حسنها في قصائد الشعراء ..

---

(١) حديث الاربعاء : ٢٩٥

(٢) حب ابن ابي ربيعة وشعره : ١٨١

« ... وما أظن هذه السيدة سلمت في صلتها بابن أبي ربيعة ، من متورع يرميها على طهرها بالخلاعة والمجون .. »

ثم قرر ـ قبل أن يجرد قلمه لرسم صورتهـــا ـ أنه يضمـــر الحب والاجلال لتلك السيدة النبيلة . لماذا ؟ « لأنها قدرت نعمة الله فدلت وتاهت بما وسمت به من الملاحة والجمال ، وعاشت في رعاية الحسن والحب غير حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما ينهي مثلها عن التبذل في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء » (١)

وآية اجلاله لتلك السيدة النبيلة ، وحبه اياها ، أنه تحدث عن بيتها بما يؤذن انها جعلت منه ملاذ متعة للشعراء الماجنين : « فكانت سياسة الذوق في اختيار الوصائف ، وكان بيتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء » (٢)

ثم تمادى به القول فجعلها ـ جعل بنت الحسين ـ مرفِّهة تجعل « بيتها مألفا للمغنين . وتؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه اليهم من متع الغناء .. »

« ولو صحت قصة الفرزدق معها ، لكانت دليـــلا على تسامح تلـــك السيدة وغفرها تهافت الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان، والشاعر لم يخلق الا ليشقى بالحسن ويتعذب بالجمال ، وبقدر احساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سفه المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت اخلاصهم لما خلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق ! » (٣)

ثم ماذا ؟

ماذا بعد المرفِّهة !

بعده ما عفَّ قلم الدكتور زكي مبارك نفسه عن ذكره ، فذلك حيث يقول :

« ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحا لما في مقدماتها

(١ ، ٢ ، ٣) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٧

من مآثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف ! » (١)

ثم كانت خاتمة الحديث عن السيدة التي أجلّها : « وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباء الأقدمون ، أما صورتها في رءوس الصوفية ، فهي صورة القديسة التي تسيطر على الأرض والسماء ، وكل حزب بما لديهم فرحون »

وهي خاتمة تتسق مع المقدمة التي بدأ بها الحديث عن بنت الحسين قائلا :

« وأشرنا في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » عند الكلام عن الباطنية ، الى أن أكثر ما يحتل رؤوس المسلمين من الافكار والعقائد ، ليس الا أثرا للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشـرق ، والفاطميون في الغرب ، وان الدعاة نجحوا في حشو تلك الرؤوس الجوفاء (!) بالخرافات والوساوس والأضاليل ، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التي تسكن سماء القاهرة من عترة سيدنا الحسين ! »

وصورة السيدة سكينة ، في رؤوس المسلمين (الجوفاء) هي بعض هاتيك الخرافات والأضاليل ..

أما صورتها التي جرّد الدكتور زكي مبارك قلمه لرسمها ، صورة المرفّهة ، فهي « صورة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ، ولو كُتب عنها فصل في مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، لتلقاه أهل الغرب بالقبول، وعدوا حياتها المرحة دليلا على تأصل الحضارة في تلك الأسرة ــ الهاشمية النبوية العلوية ــ التي سادت الشرق زمنا غير قليل ! »

ووالله انه ليظلم الغرب بهذا ..

والا فلو أن مثل هذه الصورة التي رسمها لسكينة ، نشرت في مجتمع هوليوود ومونمارتر ، لعدت دليلا على مدى هبوطه وانحلاله ، وما قضية المجلة الأمريكية التي نشرت بعض فضائح غـــواني هوليوود ، عنـــا ببعيد ..

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٩١

لكنها عند « الدكتور زكي مبارك » دليل تأصل الحضارة في الأسرة الهاشمية النبوية !

وهي ، كذلك ، دليل جـــاه للطبقة العالية مـــن قريش ، أما العامة والمغمورون فشأنهم غير ذلك

نقل الدكتور زكي مبارك في كتابه ، ان رجلا من بني جُمع وُلدت له جارية حسناء ، فقال : كأني بها وقد كبرت فشبب بها عمر بن أبي ربيعة وفضحها ونوه باسمها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمت بمكة

ورحل بابنته الى البصرة ، ليتقي لسان عمر ! (١)

ولو أنه كان علويا شريفا ، لطرب لغزل عمر في نساء بيته ، كمـــا زعموا أن الامام جعفر الصادق بن محمـــد بن علي بن الحسين عليهم السلام ، أنشد احدى غزليات عمر ـ المقول في رواية أنها في سكينة ـ فطرب وارتاح ، حتى اذا بلغ قول عمر :

ليســ بـين الحيـــاة والمـــوت الا
أن يــــردّوا جمالهـــم فتزمّـــا

جعل الامام يقول : عجّلوا البين ، أفلا يوكون قربة ؟ أفلا يودعون صديقا ؟ أفلا يشدون رحلا ؟ ... حتى جرت دموعه ! (٢)

وكذلك كانت هذه الصورة التي فتنت الدكتور زكي مبارك ، سمة الحرائر عنده !

أما الاماء المغنيات فلهن صورة أخرى ، يمثلها عنده الخبر الذي نقله من كتاب الأغاني عن « جميلة » المغنية « أنها لما قضت حجها سألهـــا المكيون أن تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٢٨
(٢) الاغاني : ١٧١/١ دار الكتب

جميعا . فقالت : ما كنت لأخلط جدا بهزل . وأبت أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبي ربيعة : أقسمت على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها ، الا خرج معها الى المدينة فاني خارج »

وتبعوها الى المدينة ، حين أصرت على ألا تخلط جدا بهزل ، فتجلس للغناء في مكة وقد خرجت اليها حاجة !

ولو كانت حرة شريفة ، كبنت الحسين ، لكان لها شأن آخر ...

ولا تعجب اذ يتمثل « الدكتور زكي » السيدة سكينة ، « نزقة طائشة ، مبتذلة في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء، حريصة على الترفيه عنهم » وقد قرأ فيما قرأ من أخبارها أن زوجها مصعب دخل اليها مودعا ، حين تهيأ للخروج الى عبد الملك ، فصاحت من خلفه : « واحزناه عليك يا مصعب ! فالتفت اليها وقال : أوَ كلُّ هذا لي في قلبك ؟ قالت : أي والله ! وما كنت أخفي أكثر ! فقال : لو كنت أعلم أن هذا كله لي عندك لكانت لي ولك حال »

أجل لا تعجب ، فقد مُسخت القيم عند صاحب « حب ابن أبي ربيعة » وانعكست الأوضاع في تقديره ، فصار هذا الضبط العاطفي — حتى في مخدع الزوجية — دليل نزق وطيش ، مثله مثل التبدل الماجن الذي عده مظهر أصالة في أسرة سكينة ، والتحرج الخاشع الذي عده سمة القيان الاماء ، في جميلة المغنية .

ولا تسأله أين كان بنو هاشم ، وأين كان الامام زين العابدين ، وعُمر يرفع عقيرته بالغزل في سكينة ، وبيتها قد صار « مألفا للمغنين ملاذا للشعراء المخلصين لما خلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق » فمثل الامام زين العابدين من لا يغضب لأخته حين غضب « ابن أبي عتيق » فيما نقل الدكتور (١) — لابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية ،

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ٥٣

لما تغزل فيها عمر على السماع ، فرد عليه عمر :

لا تلمنـــي عتيق حسبي الذي بي
ان بي يا عتيق مـــا قـد كفـاني

لا تلمنـــي وأنت زيـَّنتهـــا لـــي
أنت مثـل الشيطـــان للانســـان

ومثل بني هاشم وآل البيت ، من لا يغضبون لابنتهم كما غضب بنو تيم بن مرة ، وولد طلحة بن عبيد الله ، لأختهم عائشة ، وتوعدوا عمر ان هو تغزل بها أن يؤدبوه ، فأقسم بالله ألا يذكرها في شعر ابدا

مثلهم من لا يغار على سكينة ، كما غار أبو الأسود الدؤلي على زوجته ، أو كما غار الحجاج بن يوسف الثقفي على فاطمة بنت عبد الملك ــ وليست من ثقيف ــ فكتب الى عمر يتوعده بكل مكروه ان ذكرها في شعره ..

أجل ، لا تسأله عن هذا ، فانما يُسأل من يحاسب قلمه ، ويتقي الحق والضمير فيما يكتب ، ويحترم عقله وعقول الناس

وانما الذي كان يجوز أن يُسأل فيه ــ رحمه الله ــ هو كيف فاته أن ينقل الشعر الذي قيل ان الأحوص الأنصاري تغزل فيه بسكينة . فمن أخبارهم أن كل غزل الاحوص بعقيلة ، هو في سكينة بنت الحسين ، وانما كنى عنها باسم عقيلة (١)

وقد عده بعض أهل عصره أنسب الناس بقوله في عقيلة :

يـــا للرجـال لوجـدك المتجـــدد
ولمـا تؤمل من عقيلـــة في غـــد

ترجـــو مواعد ، بعثُ آدم دونهـا
كـــانت خبـالا للفؤاد المقصـــد

---

(١) الاغاني : ٢٦١/٤ دار الكتب

هل تذكرين « عقيـل » أو انساكِـه
بَعـــدي تقلّـب ذا الزمان المفسد
يومـــي ويومك بالعقيق اذ الهـوى
منـا جميع الشمل ولم يتبدد ! (١)

وأغلب الظن عندي ان الدكتور زكي مبارك لم يطلع على هذه الأبيات ، ولم يقرأ الخبر القائل بأن عقيلة هي سكينة ، والا لأقسم بكل غال لديه، ان أخبار الأحوص مع عقيلة ، كانت حقا في سكينة ، وان ليوم العقيق هذا شأنا أخطر من ليلة الصورين !

(١) الاغاني : ٤/٢٥٩ ـ دار الكتب

كلمة يجب أن تقال

لا أدع الحديث عن « بنت الحسين » في أخبار الرواة والقصاصين ، دون أن أسجل هنا كلمة الشيعة في كل هذا الذي قيل عنها ونسب اليها

انهم يذهبون الى أن أكثر هـــذه الأخبار والأقاويل مـــن مفتريات الأمويين وأشياعهم ويستدلون على هذا بأدلة :

منها : ما ذكره السيد الفكيكي من أن « أبا علي القالي » قد ارتجل أماليه وهو في كنف تلميذه الحكم الأموي في الأندلس ، فأملى فيهـــا ما أملى عن « سكينة بنت الحسين » ولم يذكر شيئا من أشعار ابن أبي ربيعة التي تغزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وبأخته أم محمد بنت مروان بن الحكم ، كما أهمل أشعار ابن أبي ربيعة في رملة وأخت الحجاج ، ولم يحفظ الا رواية المغنين المقلوبة في « سكينة » عليهـــا السلام (١)

ومنها : ان خبر ابن سريج وحيلة أشعب معه لحمله على الغنـــاء في دار سكينة مع عزة المغنية ، قد ورد في الجزء الخامس عشر من الأغاني ، ولم يشر اليه أبو الفرج في ترجمة ابن سريج وأخباره التي أوردها في الجزء الثاني من أغانيه ،مما يدل على ان هذه القصة قد أدخلت عليه ، ويجوز أن يكون ذلك قد حدث بعد شراء الحكم الخليفة الأموي كتاب

---

(١) يشير هنا الى قصيدة عمر : « قالت سكينة والدموع ذوارف » وقد قالها ابو الفرج مرة : « قالت سعيدة والدموع ذوارف » وقال ان المغنين غيروها فقالوا : سكينة ــ وارجع في أقوال السيد الفكيكي الى كتابه « السيدة سكينة »

الأغاني باشارة أستاذه الشيخ أبي علي القالي بعد رحلته الى الأندلس، مع العلم بأن كتاب الأغاني قد نشره الحكم الأموي باشراف القالي في الأندلس ، قبل نشر نسخته الأصلية في بغداد

ومنها : ان اصحاب النهضات الهاشـمية ، كانوا يرفعون صيحاتهم الاحتجاجية في وجوه ملوك بني أمية وولاتهم ، من جـرّاء تصرفاتهم وأحداثهم المنكرات لروح الاسلام وتعاليمه ، وقد رموا يزيد بن معاوية بالفسق ، وكفروا الوليد بن يزيد ، ولم يذكر لنا التاريخ ان الوليد أو يزيد أو معاوية ، استطاع أن يغمز في قناة الهاشميين الكرام بمثل ما في كتاب الأغاني ، ولو كان أحد الأمويين يعلم أن السيدة سكينة قد جعلت دارها ملهى ، لطبلوا به وزمروا ، وكل ما قاله معاوية للإمام الحسين رضي الله عنه عند امتناعه عن الموافقة على ولاية العهد ليزيد : « مهلا عن شتم ابن عمك ، فانك لو ذُكرتَ عنده بسوء لم يشتمك »

أما عبد الملك بن مروان ، فقد قال في حق زوج سكينة ، مصعب بن الزبير ، خصمه الألد : « لو علم ان الماء ينقص مروءته ما ذاقه » وقد سأل يوما أصحابه عن أشجع الناس ، فعدوا له عدة أسماء من أعظم شجعان العرب ، فأبى عليهم ولم يوافقهم . ثم سألوه رأيه فأجاب : « هو مصعب بن الزبير ، وعنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة » !..

ثم حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حين خطب سكينة ، فأنكر أهلوها وغضبوا وكانت معركة ــ رواها صاحب الأغاني نفسه ــ هذه الحكاية قد تكفي لدحض فرية مجالس الطرب التي كانت سكينة رضي الله عنها تقيمها في دارها وتأذن اذنا عاما لأهل المدينة « وقومها الأطياب المناجيد الغيارى ساكتون ... »

* * *

وكل هذا مما يجوز أن يقال ، فلا نراه بعيدا ..

وكذلك لا نستبعد أن يكون كثير مما أضيف الى أميرات البيت الأموي، من صنع هذه الخصومة العنيفة الجامحة !.. كتلك القصة المنكرة التي زعمت ان أم البنين ـ بنت عبد العزيز المرواني ، وزوج الوليد بن عبد الملك ـ أحبت وضاح اليمن وأحبها ، وحدث أن أرسل اليها الوليد هدية من جوهر أعجبه ، مع خادم له : « ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا ، فأسرعت الملكة الى صندوق فأخفت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجوهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها . وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب اليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر ، فلما أبت عليه ذلك انصرف محنقا الى الخليفة فأنبأه بما رأى . فنهض من فوره ودخل على الملكة ، فاذا هي تتمشط ، فجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث الى الملكة في ملاطفة حتى سألها أن تهديه هذا الصندوق فلم تستطع رده . فأمر فاحتفرت بئر والقى فيها الصندوق وهيل عليه التراب وسويت الأرض ، ولم يعرف أحد لوضاح خبرا ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا » ..

ولوضاح هذا قصيدة فيها ، من أبياتها :

قالت : ألا لا تلجن دارنا
ان أبانا رجل غائر

قلت : فاني طالب غِرَّةً
منه ، وسيفي صارم باتر

قالت : فان القصر من دوننا
قلت : فاني فوقه ظاهر

قالت : فان البحر من دوننا
قلت : فاني سابح ماهر

قالت : فحولي اخـوة سـبعة
قلت : فانـي غالب قاهـــر
قالت : فليث" رابض" بيننــا
قلت : فاني أســـد" عاقـر
قالت : فان الله من فوقنــا
قلت : فربـي راحـم" غافـر
قالت : لقـد أعييتَنـا حجـة
فأت اذا ما هَجـع الســاهر
فاسـقط علينا كسقوط الندى
ليـلةَ لا ناه ، ولا زاجر !..

والقصة مسرحها قصر الخلافة بدمشق ، وليس في مـكة والمدينة ، اللتين استأجر لهما الأمويون الماجنين والمخنثين لاهدار حرمتهما الدينية ، ولافساد الشباب الحجازي عن قصد وعمد .. فيمـا يؤكد لنا مؤرخو أدبنا !..

* * *

وربما عرض لنا آخر الأمر أن نسأل : متى ظهرت « سكينة » في المجتمع طليقة متحررة ، وشاركت في التاريخ الأدبي لعصرها ؟ ..

الأخبار التي بين أيدينا ، تشير الى أنها ظهرت لأول مرة في موسم الحج سنة ٦٠ هـ ، حين صحبت أباها رضي الله عنه في هجرته من المدينة الى مكة . وقد كانت اذ ذاك في ربيعها الثاني عشر أو الثالث عشر . وغير بعيد أن تكون قد لفتت اليها الأنظار بنضرة صباها وحيوية مرحهـا وبهاء طلعتها ، ولكن مهابة أبيها الحسين الامام ، كانت كافية وحدها لأن تلجم ألسنة الشعراء عن التغني باسمها في قصائد الغزل ..

فهل ترى حُلَّت عقدة لسانهم ، بعد عودتها الى المدينة اثر فاجعـة كربلاء ؟ ..

المؤرخون يقررون أن المدينة كلها كانت في مأتم عام لسيد الشهداء، وان أمها «الرباب» قد أمضت عاما بأكمله حادة حزينة، حتى لحقت بزوجها الشهيد (١)، وان «أم البنين بنت حزام بن خالد العامرية، زوج الامام علي بن أبي طالب».. «كانت تخرج الى البقيع كل يوم، فتبكي أبناءها الأربعة، أعمام سكينة، الذين استشهدوا مع أخيهم الحسين في كربلاء: عبد الله، وجعفر، وعثمان، والعباس، بني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فتلبث نهارها هناك تندب بنيها أشجى ندبة وأحرقها، فيجتمع الناس اليها يسمعون منها، فكان مروان يجيء فيمن يجيء لذلك، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي» (٢)..

فهل ترى كان يحدث هذا، وسكينة تعقد مجالس الغناء في دارها، وتواعد «عمر» الصورين ذات ليلة، استجابة لرغبة نسوة شاقهن مجلس ابن أبي ربيعة؟..

هل كان مروان بن الحكم، يسمع أم البنين تندب أعمام سكينة، فيبكي لها وسكينة تبكي بدموع ذوارف على الخدين والجلباب، لفراق عمر بن أبي ربيعة، وتصغي الى شدو المغنين بقولها على لسانه:

ليت المغيري الذي لم أجزه
فيما أطال تصيدي وطلابي..!

كانت ترد لنا المنى أيامنا
اذ لا نلام على هوى وتصابي..!

فلعل عمر اذن، قد قال فيها ما قال بعد عودتها من سفرها الى مصر مع عمتها السيدة زينب عقيلة بني هاشم؟

الذين أرخوا للسيدة زينب، ذكروا وفاتها في شهر رجب سنة ٦٢ هـ (٣)، وقد ثوت في مرقدها الأخير هنالك، وآبت سكينة من رحلتها

---

(١) تاريخ ابن الاثير «الكامل»: ٧٣/٤ ـ وانظر معه «مقتل الحسين»: ٤٥٣ وما بعدها
(٢) مقاتل الطالبيين: ٨٥ وانظر تاريخ الطبري ٢٦٩/٦
(٣) العبيدلي النسابة: السيدة زينب وأخبار الزينبيات ـ ص ٢٠

مضاعفة اليتم، لتشهد بعد ذلك ثورة أهل المدينة على بني أمية، وخروجهم على « يزيد بن معاوية ، لقلة دينه » وهي الثورة التي انتهت بموقعة الحرة ــ بظاهر المدينة ــ حيث استشهد من أولاد المهاجرين والأنصار ٣٠٦ شخصا ، وعدد من بقية الصحابة الأولين ، وهجر المسجد النبوي فلم تقم فيه صلاة الجماعة لمدى أيام (١) ..

والمقول أن عمر تاب توبته المشهورة في ذلك العام ، وشغل العالم الاسلامي بعد ذلك بقيام حركة التوابين في العراق ، الذين آدهم الندم على عدم نصرة الامام الحسين الشهيد ، فلم يروا كفَّارة دون القتل في الثأر له ولصحبه ، فهل يا ترى ، كانت سكينة تصم أذنيها عن هتاف التوابين ، لترغم « ابن سريج » على الغناء في دارها مع عزة الميلاء ، وتفتنه عن توبته عن الغناء ؟

وقد رأيناها بعد ذلك تشغل بحياتها الزوجية مع مصعب بن الزبير ، ثم ترجع الى المدينة مقهورة محزونة ، فلا تكاد تطوي جرحها في الأعماق حتى تتزوج من عبيد الله بن عثمان الخزامي ، وتفرغ لتربية صغارها الأربعة بعيدا عن أضواء المجتمع ، فلما ترملت ، بعد أن أرهقها التيار جذبا ودفعا ، وأنهكها الموج شدا وارخاء ، بدأت تظهر في المجتمع ، وقد هبطت بها موجة الاحداث والأرزاء الى قرارة اليأس ، فكانت تجربتها الأخيرة ، في زواجها الفاشل من زيد بن عمر العثماني ، هي آخر الشوط في المقاومة ، ومن ثم استقر رأيها نهائيا على ممارسة الحياة ممارسة التي ضجرت ، وجربت ، وكابدت ، وشربت الكأس حتى الثمالة !

وظهرت في المجتمع ، وكانت وقتئذ ، في منتصف العقد الخامس من عمرها !

وربما جاز عند الدكتور زكي مبارك ، أن يتصورها في هذه السن

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/٧ ــ ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ وما بعدها
وانظر شذرات الذهب : ٧٠/١

العالية « تعيش في رعاية الحسن والجمال ، وتحرص على تخليد مفاتنها على ألسنة الشعراء »

وغير عجيب أن يجوز عنده كذلك ، أن يكون « عمر » قد شهد معها ليلة الصورين ، وملأ الأفق الحجازي بقصائد غزله فيها ، بعد مضي ثلث قرن على توبته !

أما الذي يجوز عندنا ، فهو أن « سكينة بنت الحسين » قد شغلت من ذلك الوقت ، دورا آخر في المجتمع ، هو دور الأديبة الناقدة

وهذا ما نفرغ له في فصل جديد ..

الأديبة الناقدة

لم يع تاريخ الأدب للسيدة سكينة غير أبيات معدودات ، كتلك التي قيل انها رثت بها أباها رضي الله عنه :

لا تعذليه فهمٌ قاطع طرفه
فعينه بدموع ذرّف غدقه
ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما أن يخطىء الحدقه
بكفّ شر عباد الله كلهم
نسل البغايا ، وجيش المرّق الفسقه
أأمّة السوء هاتوا ، ما احتجاجكم
غدا ، وجلّكم بالسيف قد صفقه
الويل حل بكم الا بمن لحقه
صيرتموه لأرماح العدى درقه
يا عين فاحتفلي طول الحياة دما
لا تبك ولدا ولا أهلاً ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فانسكبي
دما وقيحا ، وفي أثريهما العلقة (١)

* * *

وبيتين اثنين في رثاء زوجها مصعب بن الزبير :

فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذي
يرى الموت الا بالسيوف حراما

---

(١) أمالي الزجاج : ١٠٩

وقبلك مـــا خاض « الحسين » منية
الى القـوم حتى أوردوه حمامـــا !

وهي أبيات لا تكفي لعدها شاعرة !

لكني أكاد لا أرتاب في أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا آخر في غير الرثاء !

وتلك شنشنة نعرفها من أخزم !

انهم قصروا المجال الفني للمرأة على الرثاء ، وقل أن اعترفوا بهـا شاعرة غير راثية .

فعلوا ذلك مع الخنساء !

وفعلوه مع ستين شاعرة أخرى من شواعر العرب ، ذيلوا بمراثيهن ديوان الخنساء المطبوع في بيروت

وفعلوه مع « الرباب » بنت امرىء القيس أم سكينة . قالوا : هي شاعرة ، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات في رثاء زوجها .

وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حـين سيقت مع ركب السبايـا الهاشميات ، الى قصر ابن زياد . وقد نقلناهما في الحديث عن كربلاء

وما بمثل هذه الأبيات ، تعد « الرباب » شاعرة كما وصفوها ! ..

على ان التاريخ الأدبي ، وان أسقط شعر « سكينة » في غير الرثاء ، فقد اعترف لها من ناحية أخرى بمكانة لعله لم يعترف بمثلها لسيدة غيرها في مختلف عصوره ، حين ألقى اليها مقاليد الحكم بـين أمـراء الفن في الشعر والغناء .

واقرَّ لها بالسيطرة الأدبية على عصرها في مجال النقد ، حين فرضت عليه شخصيتها الفريدة ، وبهرته بذوقها الفني الأصيل الذي هيأ لها أن تكون ذات بصر دقيق بفن القول ، وفقه لأسرار العربية في الاداء

* * *

وكانت الاصالة هي الطابع المميز لها ذوقا وحسا، بقدر ما كانت الطابع المميز لها نسبا وجمالا وأناقة .

وليس صحيحا أن أمراء الشعر في زمانها انما أقروا لها بالسيطرة الأدبية خضوعا لجبروت جمالها ، وهيبة شرفها كما ذهب الدكتور زكي مبارك ، فما لجمال الأنثى جبروت في سن الكهولة والشيخوخة ، وهي بعد لم تنفرد بالحسن دون بنات جيلها ، بل شاركتها فيه أخريات يكفي أن نذكر منهن أختها « فاطمة بنت الحسين » التي قيل فيها ، يوم اختارها أبوها رضي الله عنه لابن عمها الحسن : « ان امرأة مردودتها سكينة ، لمنقطعة القرين في الحسن » . كما نذكر عائشة بنت طلحة ، التي خلبت ألباب الشعراء في عصرها فكادوا يجنون بها جنونا ، والتي ذكروا أن أبا هريرة قال فيها :

ـ سبحان الله ، لكأنها من حور الجنة ..

كذلك لم يكن شرفها العالي هو الذي ألقى اليها مقاليد الحكم الأدبي وأخضع لها الشعراء ، والا لشاركتها في مكانتها هذه ، أختها فاطمة وبنات عمها الحسن ، حفيدات الزهراء مثلها وسليلات النبوة .

وانما كانت سيطرتها الأدبية ترجع في الحقيقة الى علو كعبها في فن القول ، وحساسيتها المرهفة في ذوق الشعر ، وادراكها البصير لمواطن التأثير ودوافع القول وأسرار البلاغة والبيان .

ولولا أنها كانت نادرة عصرها بصرا بالشعر وفقها للعربية ، لما اعترف لها التاريخ الأدبي بمثل تلك المكانة ، وهو الذي أسقط شعرها من ديوان الأدب ، وجحد شاعريتها وشاعرية الاناث مثلها ، الا ان تكون راثية !

وبين أيدينا خبر ، قد يوضح لنا السبب الذي من أجله ألقيت الى السيدة سكينة مقاليد النقد الأدبي في عصرها ، ونص الخبر :

« أنشدت سكينة بنت الحسين قول الحارث بن خالد ، في وصف النساء ، في الحج :

ففرغن من سبع وقد جهدت
أحشاؤهن موائل الخمر

فسألت سكينة من بالمجلس : أحسن عندكم ما قال ؟ .. قالوا : نعم . فقالت : ومـــا حُسنه ؟ !... فوالله لو طافت الابـل سبعـــا لجهدت أحشاؤها » (١)

واذن فقد غاب عنهم ما لم يغب عن سكينة ، وفاتهم ان ينتبهوا الى مـــا انتبهت اليه بحسها المرهف !

* * *

والقدر الذي وعاه لها التاريخ الأدبي في النقد والتحكيم والموازنة ، يكفي للدلالة على منزلتها الرفيعة في المجتمع الأدبي ، ويقدم لنا نماذج من أحكامها وآرائها النقدية ، تفسر لنا ، لم آثرها عصرها بهذه المنزلة التي لا نعرف أنهم اختلفوا فيها .

وهذا كتاب الأغاني ، وفيه ما فيه من أخبـــار ومرويات كتلك التي سمعناها ، ينقل رواية عن محمد بن سلام ، تؤازرها رواية مثلها عن عمر ابن شبة : « ان جريرا والفرزدق وكثيرا وجميلا ونصيبا ، اجتمعوا في ضيافة سكينة بنت الحسين رضي الله عنه ، فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة لها قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكـــم الفرزدق ؟ فقال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل :

همـــا دلّتاني مـــن ثمانـــين قامة
كمـــا انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا :
أحـــي يرجّى أم قتيـــل نحـــاذره

فقلت : ارفعوا الأمراس لايشعروا بنا
وأقبلتُ في أعجـــاز ليـــل أبـــادره

أبـــادر بوّابين قد وُكـــلا بنـــا
وأحمرَ من ساج تبصُّ مسامره !

(١) الاغاني : ٣/٣٢٧ دار الكتب

قال : نعم ..

قالت : فما دعاك الى أفشاء سرها وسرك ، هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغرّ كأنه
برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدكِ كالذي حدثتِنا
لوصلتِ ذاك وكان غير لمام
أني أواصل من أردت وصاله
بحبالِ لا صلف ولا لوام

قال : نعم ..

قالت : أوَ لاَ أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ .. أنت عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الألف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت الى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟ .. قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

وأعجبني يا عزّ منكِ خلائق
كرام اذا عُدّ الخلائق ، أربع
دنوّك حتى يدفع الجاهل الصبا
ودفعُك أسبابَ المنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مماطل
أينساكِ اذ باعدتِ أو يتصدّع !

قال : نعم ..

قالت : « ملحتَ وشكلت ، خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ .. قال : هأنذا . فقالت : أنت القائل :

ولولا أن يقال : صبا نصيب
لقلت : بنفسيَ النشأُ الصغار
بنفسي كلُّ مهضوم حشاها
اذا ظلَمت فليس لها انتصار

قال : نعم ..

فقالت : ربيتَنا صغارا ومدحتَنا كبارا . خذ هذه الألف والحق بأهلك :

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ، مولاتي تقرئك السلام وتقول لك : والله ما زلتُ مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى ، اني اذن لسعيد.
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك (١)

وليس يفوتنا ما للنص من دلالات ..

منها ، ان أمراء الشعر في عصرها كانوا يجتمعون في دارها فتأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها ، وقد اتخذت وصيفة لها تنقل الى كل منهم مختارها من شعره ورأيها فيه . فعلت ذلك مرة بعد مرة . فكلما فرغت من شاعر دخلت على مولاتها وعادت برسالة منها لشاعر آخر ، وهي السيدة التي وصفها « زكي مبارك » بالتبذل في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء ..

وقد أنكرت على « الفرزدق » افشاء سره وسر صاحبته ، والأخبار تزعم مع هذا انها طربت لغناء الغريض بشعر « عمر » فيها ، وقد أفشى

---

(١) الاغاني : ١٦٦/١٤ وما بعدها ـ ساسي

به سرٌّ ليلة الصورين !

وأثنت على « جرير » لعفة شعره ، وان أنكرت ضعفه ، وأسلوبه في مخاطبة زائرته .

وأعجبتها أبيات « كثير » في وصف صاحبته ، لما لمحت فيها من دقة التعبير عن عزة الأنثى ، وطبيعة حواء ..

* * *

وخبر آخر ننقله من (الأغاني) على علاته ، وهو صريح في احتكام الشعراء — أو رواتهم — اليها لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر .

قالوا : « اجتمع بالمدينة راوية جرير ، وراوية كثير ، وراوية جميل ، وراوية نصيب ، وراوية الأحوص ، فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبي أشعر .

« فحكموا سكينة بنت الحسين بن علي عليهما السلام ، لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر ، فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذنت لهم ، فذكروا لها الذي كان من أمرهم فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

أي ساعة أحلى من الطروق ؟ .. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره ..

« ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبك الذي يقول :

يقر بعيني ما يقر بعينها
وأحسن شيء ما به العين قرت

أفيحب صاحبك أن يكون أنثى ؟ .. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره ..

« ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى ، انما يطلب عقله ! .. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره ..

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهيم بدعد ما حييتُ فان أمت
فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدي

فما أرى له همة الا فيمن يتعشقها بعده ! .. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره .. ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت
فلا صلحت دعدٌ لذي خلَّة بعدي !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذي يقول :

من عاشقين تراسلا وتواعدا
ليلا اذا نجم الثريا حلَّقا
باتا بأنعم ليلة وألذها
حتى اذا وضح الصباح تفرقا

قال : نعم ..

قالت : قبَّحه الله وقبَّح شعره ! .. ألا قال تعانقا ؟ .. (١)

ودلالة النص ان سكينة كان اليها الاحتكام اذا اشتجر الخلاف بين رواة الشعراء أيُّ أصحابهم أشعر ، وانها كانت واعية للشعر حافظة ، تعرف مآخذ الشعراء وتقسو في محاسبتهم على عثراتهم . ولفتاتها النقدية دقيقة بارعة ، وهي جديرة بأن تعين على فهمنا لعصر سكينة الأدبي ، على ضوء الاعتبارات الفنية التي كانت الناقدة الأولى للعصر ، تصدر عنها أحكامها في ذوق الشعر ، ووزن الشعراء

ولم يكن اعجابها بشاعر ، يحميه من قسوتها في مؤاخذته ، فهذا « جرير » الذي أنكرت عليه ضعفه وسوء أدبه في مخاطبة النساء حيث قال :

---

(١) الأغاني : ١٤/١٦٦ ساسي

طرقتك صائـــدة القلوب وليس ذا
وقت الـزيارة فـــارجعي بســلام

كانت ربما قدمته على الفرزدق ، وصارحت الفرزدق برأيها فيهما دون مجاملة . حدَّث الشعبي : « ان الفرزدق خرج حاجًّا ، فلما قضى حجه عدل الى المدينة فدخل الى سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما فسلَّم ، فقالت له : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنــا .

قالت : كذبت ، أشعر منك الذي يقول :

بنفسي مـَن تجنّبُـه عزيــز
علـيَّ ومـَـن زيــارتُه لمــام
ومــن أُمسِي وأُصبـح لا أراه
ويطرقنــي اذا هجــع النيـــام

فقال لها : والله لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه . ثم أمرته فانصرف. فلما كان الغد استأذن عليها فسألته : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنــا .

قالت : كذبت ! صاحبك « جرير » أشعر منك حيث يقول :

لولا الحيـــاء لهاجنـــي استعبار
ولــزرت قبرك والحبيب يُـــزار
كـــانت اذا هجر الضجيعُ فراشَها
كُتِم الحـديث وعفّت الأســرار
لا يلبث القرنـــاء أن يتفــرقُوا
ليـلٌ يكـُـــر عليهم ونهـار ! ..

فقال : والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه . فأمرت به فانصرف ، ثم عاد اليها في اليوم الثالث ، فأعادت سؤاله : يا فرزدق من أشعر الناس؟

قــال : أنا .

قالت : كذبت ، صاحبك أشعر منك حيث يقول :

ان العيون التي في طرفها مـــرض
قتلننا .. ثم لم يحيين قتلانــــا
يصرعــن ذا اللب حتى لا حـراك به
وهن أضعف خلــق الله أركانا . » (١)

فاذا كان هــذا الموقف حدث قبل اجتماع الفرزدق مــع جرير ، في ضيافتها ، فذلك هو ما قلناه من ان اعجابها بالشاعر وتفضيلها أياه ، لم يكن يجعلها تغض البصر عن سقطاته . أما ان كانت مؤاخذتها جريرا قد سبقت زيارة الفرزدق لها ، وسماعه ما سمع من تفضيلها « جريرا » عليه ، فهذا ما يدل على أن السيدة الناقدة ، لم تكن تحكم على الشاعر بشعره جملة ، أو تتشبث برأي لها فيه لا تعدل عنه ، أخطأ « جرير » فقالت له : فيك ضعف ، ثم لم يمنعها ضعفه من الحكم له على الفرزدق

* * *

وقد روى أبو الفرج في أغانيه خبرا له دلالته على شدة شغفها بالشعر وحرصها على السمو به الى فنية جمالية ، حدَّث المدائني : ان « سكينة كانت ذات ليلة تسير ، فسمعت حاديا يحدو في الليل يقول :

* لولا ثلاث هن عيش الدهر *

فقالت لقائد قطارها : الحق بنا هذا الرجل حتى نسمع منه ما هــذه الثلاث . فطال طلبه لذلك حتى أتعبه . فقالت سكينة لغلام لها : « سر أنت حتى تسمع عنه » . فسار الغلام سريعا ثم عاد الى مولاته ، فقال لها سمعته يقول :

* الماء ، والنوم ، وأم عمرو *

فقالت : قبَّحه الله ، أتعبني منذ الليلة ! » (٢)

---

(١) الاغاني : ٣٨/٨ ط الدار والابيات في « ديوان جرير » طالصاوي ، مع خلاف يسير
(٢) وفيات الاعيان ٢١١/١ والاغاني : ١٠/٢١ ساسي

وانما انكرت أن يخلط بين حاجات الجسم الماديــــة ، وحاجة القلب والوجدان . وأن تستوي عنده أم عمرو ، والماء ، والنوم ، بل تتأخر عنهما .

وتشهد نادرة لها طريفة ، نقلها « ابن خلكان » على انها كانت مرهفة الحس الشعري ، دقيقة اللمح لسر القول ودلالته على صدق المعاناة . « يروى انها وقفت على عروة بن أذينة (١) وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، وله أشعار رائقة ، فقالت له : أنت القائل :

اذا وجــدت أوار الحب في كبـــدي
ذهبتُ نحو سقــــاء المـــاء أبترد
هبني بـــردت ببرد الماء ظـــاهره
فمـــن لنـــار عـــلى الأحشــاء تتقد

قال : نعم ..
قالت : وأنت القائل :

قالت ، وأبثثتها سرِّي وبحتُ بــه
قد كنتَ عندي تحت الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي؟.. فقلت لها :
غطي هواك وما ألقى عــلى بصـري

قال : نعم ..
فالتفت الى جوار لها كن حولها وقالت : هن حرائر ، ان كان هــذا الشعر خرج من قلب سليم قط ! (٢)

---

(١) ابو عامر ، توفي حوالي سنة ١٣٠ هـ . وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها المقدمين . وروى عنه الامام مالك وغيره .
انظر بعض اخباره في « الاغاني » : ١/١٠٥ ساسي
(٢) رواية « سمط اللآلي » : ١/١٣٦ :
للشطر الثاني من البيت الاول :
* أقبلت نحو سقاء الماء ابترد *
وجيء فيه بكلمة السيدة سكينة دون ذكر اسمها ، وعلق الاستاذ الميمني بهامشه :
هذه هي السيدة سكينة ، وهي السائلة عن الشعر كما في « المصارع ٣١٣ » و « المرتضى ٢/٧٣ »

وانما أنكرت أن يزعم « عروة » ، وهو من كبار الصالحين ، انه قال هذا الشعر على مذهب الشعراء !

وانها لتحس فيه بذوقها المرهف نبض قلب جريح أضناه الحب ، وتدرك بوجدانها الذكي، ان وراء مثل هذا الشعر معاناة صادقة ..

وكانت جديرة عندي بأن تدرك كذلك صدق المعاناة وحرارة التفجع في قول « عروة » يرثي أخا له أسمه بكر :

سرى همِّي ، وهم المـــرء يســـري
وغـــاب النجـم الا قيـــد فتـــر
أراقب في المجـــرة كـــل نجـم
تعـــرض في المجـــرة كيف يجري
لهـمٍّ مـــا أزال لـــه قرينـــا
كـــأنّ القلب أسعـِر حرَّ جمْـــر
عـــلى بـــكْر أخي . ولّى حميِّـدا
وأي العيشـــ ِ يصلح بعْد بكر ؟ ..

لكنها لما سمعت هذا الشعر قالت : « من يكون بكر هذا ؟ » فوصف لها فقالت : أهو ذلك الأسيِّد ــ تصغير أسود ــ القصير الذي كان يمر بنا ؟ .. قالوا : نعم .. قالت : « لقد طـاب بعده كل شيء حتى الخبز والزيت ! » (١) أو كما جاء في الأغاني : « كل العيش والله يصلح ويحسن بعد بكر ، حتى الخبز والزيت » (٢)

وأعوزها هنا التعاطف الوجداني ، يشجيها بكلمة أخ في رثاء أخيه ، مهما يكن هذا الأخ في نظر الناس قميئا أو مغمورا ، وعـــلى كل حال فسكينة تتلقى الشعر بذوقها الخاص وتحكم عليه بمقدار ما يؤثر فيها ويقع من وجدانها ..

* * *

---

(١) وفيات الاعيان : ١/٢٩٨ ـ وشذرات الذهب ١/١٥٤
(٢) الاغاني : ٧/٦٣ دار الكتب

وهكذا تمثلها الأخبار ، وقد عقدت لها امامة النقـــد في عصرها ، واشتدت في رقابتها الأدبية على الشعــراء ، فمضت تكشف في صراحة قاسية عن مواضع المؤاخـــذة ، وتهدي الى أسرار التعبير ، وتوجه الى ضرورة التزام مقومات الشعر في رأيها ، من عمق المعانـــاة ، وعاطفية التناول ، وصدق الوجدان ، والسمو بالشعر الى أفقه الجمالي ، بعيدا عن « الماء ، والنوم ، وأم عمرو » !

* * *

ولسنا بحيث نؤاخذها على جزئية أحكامها ، واتجاههـا بالنقـــد الى اعتبار البيت أو الأبيات مناط حكم على الشاعر ، فلم يكن عصرها ينظر في القصيدة من حيث هي وحدة **متكاملة** .

وليس يفوتنا هنا أن نلحظ أن « سكينة » فيما نقل الينا من ملاحظها النقدية ــ لم تتعرض لشعر المدح ، فهل تراهـــا أسقطته من حسابها لما تعلم من كثرة الزيف فيه وغلبة النفاق عليه ؟ ..

ليس هذا عندنا ببعيد ، وقد كان من بين الذين تعرضت لنقد شعرهم ، جرير ، والفرزدق ، ونصيب ، وكثير ، ولهم في المدح قصائد مشهورات ، ولم نرها مع ذلك روت لأحدهم بيتا من مدائحه أو ناقشته فيه ، وانما كان اهتمامها كله بما قالوا في الحب ، وكأنها كانت ترى فيه ما لا ترى في المدح ، من نبض القلب وحس الوجدان ، وتعده المقياس الدقيق لامتحان أصالة الشاعرية وصدق **المعاناة** ..

المشهد الأخير

امتد العمر بالسيدة سكينة حتى شارفت العقد الثامن من حياتها ..

وليس فيما لدينا من أخبار ومرويات ، ما يشير الى مرض ألمَّ بها قبيل الموت أو يتحدث عن حالها في أخريات أيامها ، وانما اقتصر الخبر على ما كان من امرها فيما بين وفاتها الى أن دفن جسدها في ثرى « طيبة » مدينة جدها الرسول .

وهذا الذي كان ، هو المشهد الأخير من حياتها الحافلة ، وقد أشار اليه أكثر الذين أرخوا لسيرتها ، منهم « ابن خلكان » في « الوفيات » و « ابن العماد » في « الشذرات » . ولكن صاحب الأغاني هو الذي أورده مفصلا ، قال رواية عن جماعة من شيوخ بني هاشم :

« انه لم يُصلَّ على أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير امام ، الا على سكينة بنت الحسين رضي الله عنه . فانها ماتت وعلى المدينة خالد بن عبد الملك ، فأرسلوا اليه فآذنوه بالجنازة وذلك في أول النهار في حرٍّ شديد ، فأرسل اليهم : لا تحدثوا حدثا حتى أجيء فأصلي عليها . فوُضع النعش في موضع المصلَّى على الجنائز ، وجلسوا ينتظرونه حتى صار الظهر ، فأرسلوا اليه فقال : لا تحدثوا فيها شيئا حتى أجيء . فجاءت العصر ثم لم يزالوا ينتظرونه حتى صُلِّيت العشاء ، كل ذلك وهم يرسلون اليه فلا يأذن لهم ، حتى حلَّت العتمة ولم يجيء ، ومكث الناس جلوسا حتى غلبهم النوم ، فقاموا فأقبلوا يصلون عليها جمعا جمعا

وينصرفون ، فأمر علي بن الحسين رضي الله عنه من جاءه بطيب ــ قيل وانما أراد خالد بن عبد الملك فيما ظن قوم أن تنتن ــ فأُتي بالمجامر فوضعت حول النعش ، ونهض محمد بن عبد الله العثماني ، فأعطى عطّارا كان يعرف عنده عودا فاشتراه منه بأربعمائة دينار . ثم أوقد حول السرير حتى أصبح وقد فُرغ منه ، فلما صليت الصبح ، أرسل خالد اليهم أن صلوا عليها وادفنوها » (١)

وكأنما أراد القدر ألا تمضي الهاشمية الحسناء عن الدنيا ، دون مشهد ختامي مثير ، لقصتها الحافلة !

* * *

ولكن متى توفيت « سكينة » على وجه التحديد ؟ ..

هنا نعود فنضرب في تيه من تناقض الأخبار وتعارض المرويات ..

فالمشهد الذي نقلناه ، فيه نص على أنها توفيت ، وخالد بن عبد الملك ابن الحارث وال على المدينة ، وان أخاها زين العابدين « علي بن الحسين » قد شهد وفاتها ، وكان هو الذي أشرف على تجهيزها لمثواها الأخير ..

والامام زين العابدين قد توفي بالمدينة في العشر الأخيرة من القرن الأول ، ومدى الخلاف في سنة وفاته ، لا يتجاوز ما بين عامي ٩٢ هـ ، و ٩٤ هـ . وابن خلكان قد اختار سنة ٩٤ ، وكذلك ابن العماد الحنبلي(٢) وان يكن الأول قد أضاف :

« وقيل توفي سنة٩٢ هـ » (٣)

والذي في (نسب قريش) انه توفي سنة ٩٤ هـ (٤)

وانفرد الشيخ الشعراني ــ فيما قرأت ــ بالقول بوفاة الامام زين العابدين سنة ٩٩ هـ (٥) ، وهو ما نرفضه ، لسبب نذكره ان شاء الله

(١) الاغاني : ١٤/١٧٠ ساسي
(٢) شذرات الذهب : ١/١٠٥
(٣) وفيات الاعيان : ١/٤٩٥
(٤) نسب قريش : ٥٨
(٥) طبقات الاولياء : ١/٢٧

عن قريب .

فلو صح ان الامام شهد وفاة أخته سكينة ــ على رواية الأغاني ــ لكان مقتضى هذا ، انها توفيت قبل سنة ٩٤ هـ ، اذا اخذنا بأقصى الأجلين ..

لكن خالد بن عبد الملك ، قد كان واليا على المدينة سنة ١١٧ هـ ..

وقد عزله عنها هشام سنة ١١٨ هـ ، كما في (تاريخ الطبري) ..

وفيه كذلك ، ان سكينة توفيت سنة ١١٧ هـ ، قال في حوادث سنة ١١٧ هـ : « وحج بالناس في هذه السنة ، خالد بن عبد الملك ، وكان العامل فيها على المدينة .. وفيها توفيت سكينة ابنة الحسين بن علي» (١)

وابن خلكان ، ذكر وفاة السيدة سكينة في هذا التاريخ ــ ١١٧ هـ ــ دون أن يشير الى أي خلاف فيه ..

ومثله في (شذرات الذهب) و (مقتل الحسين : ٣٦٨)

وهو التاريخ الذي اعتمدته دائرة المعارف فقالت في مادة سكينة :

« .. توفيت بالمدينة في يوم الثلاثاء من شهر ربيع الاول عام ١١٧ هـ »

فكيف شهد زين العابدين وفاتها ، ولا خلاف في أنه لم يدرك القرن الثاني ؟

والفرق بين تاريخ وفاته ، وتاريخ وفاة السيدة سكينة ، يبلغ ثلاثة وعشرين عاما اذا أخذنا بالقول الراجح في وفاته ، وقد يصل الى ربع قرن ، على قول من قال بوفاته سنة ٩٢ هـ !

وهو مدى طويل ، كان يجب أن يثير الاهتمام ، لكننا لا نعجب لمروره هكذا في بساطة ، وبغير محاولة للنظر فيه

---

(١) تاريخ الطبري : ٨/٢٢٨

وذلك اننا نعرف من اضطراب التواريخ في تراجم أعلامنا ، ما لا موضع معه للعجب هنا .

ولن آتي بمثل بعيدة ، لما وصل اليه الخلاف في مواقف مشهودة ، ومع أشخاص ذوي خطر في التاريخ الاسلامي ، وانما أكتفى هنا بايراد مثل واحد ، هو أقرب الأمثلة لما نحن فيه : فالشيخ الشعراني يقول بوفاة زين العابدين سنة ٩٩ هـ ، عن ٥٨ عاما (١) أي أنه ولد سنة ٤١ هـ .

وفي الصفحة نفسها ، بل في الفقرة التالية ، يقول بوفاة « الامام محمد الباقر بن زين العابدين ، عام ١١٧ هـ عن ٧٣ عاما »

أي أنه ولد سنة ٤٤ هـ

ولم يكلف الشيخ الشعراني خاطره ، بأن يفسر لنا كيف أنجب الامام زين العابدين ، وهو في الثالثة من عمره ، ابنه محمد الباقر !

ولو قال أنها احدى كرامات الامـــام زين العابدين ، لتركناها له ، واسترحنا !

لكن ، حتى هذه لم يقلها !

ومر بالأمر وكان ليس فيه ما يلفت أو يدعو الى اهتمام ..

* * *

ونعود الى موضوعنا ، فلا نرى حتما علينا أن نقف طويلا لنحقق مسألة شهود زين العابدين موت أخته سكينة ، فمن الواضح عندنا أن ورود اسمه رضي الله عنه ، في حادثة مشهدها ، خطأ ، لا ندري أهو من الراوي الأول للخبر ، أم من الناقل ، أم من الناسخ !

وأطمئن بعد هذا الى ما اتفق عليه الطبري ، وابن خلكـان ، وكتب

---

(١) طبقات الاولياء : ٢٧/١

الشيعة ، من وفاة السيدة سكينة سنة ١١٧ هـ ، بمدينة جدها الرسول ، وخالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، عامل على المدينة ، لهشام بن عبد الملك بن مروان ..

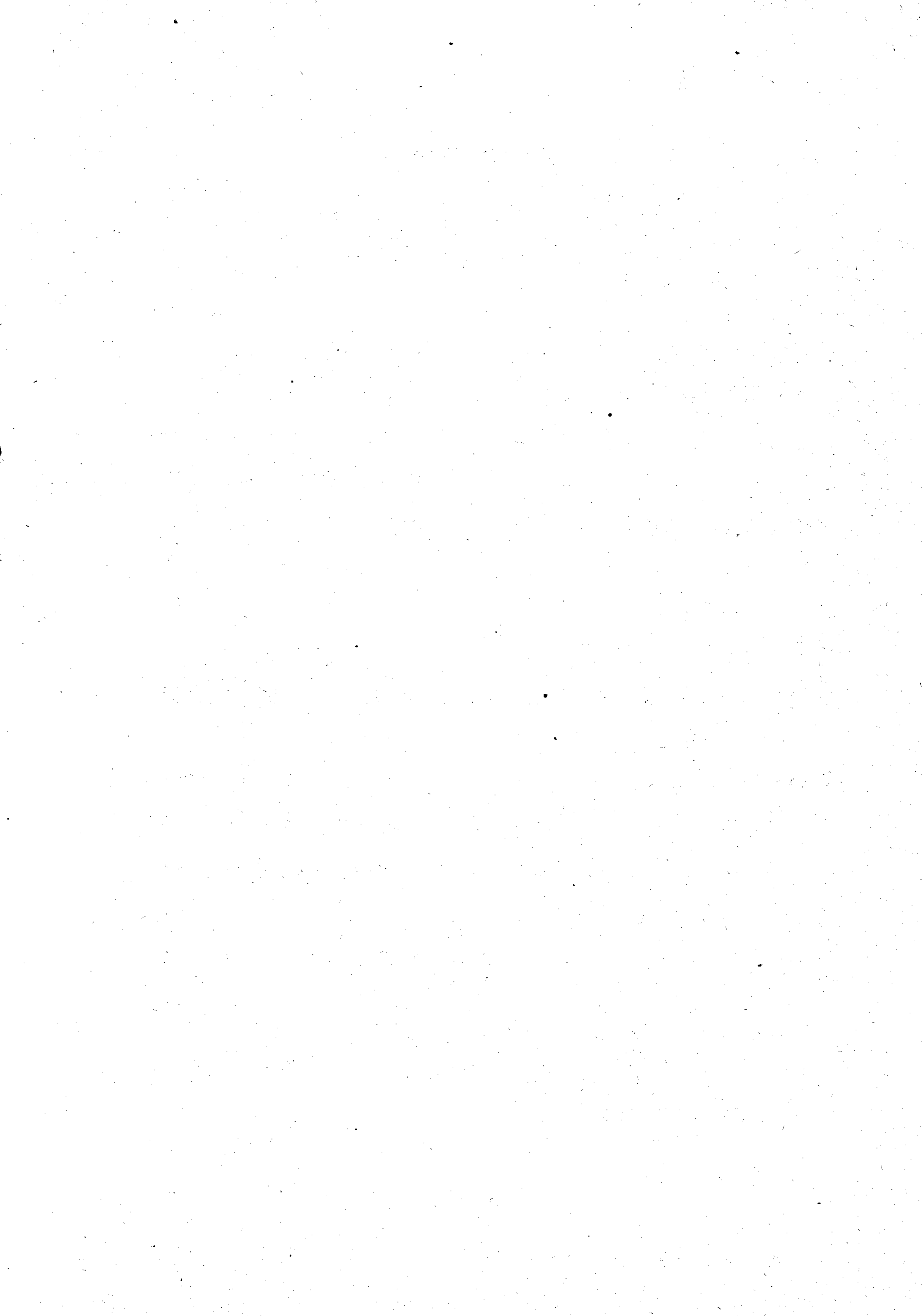
واستقر بها المطاف آخر الأمر في ثرى « طيبة » مدينة جدها الرسول عليه الصلاة والسلام ، تاركة من بعدها كلمة الحق في كل ما يقال فيها أو يروى عنها ، أمانة صعبة في حافظة الزمن الواعية ، وضمير التاريخ المنصف الأمين .

* * *

مصادر ومراجع

١ ـ المصعب بن عبد الله الزبيري : نسب قريش ـ ط الذخائر
٢ ـ علي بن سعيد بن حزم : جمهرة أنساب العرب ـ الذخائر
٣ ـ الطبري : تاريخ الامم والملوك ـ ط مصر
٤ ـ ابن الاثير : تاريخ الكامل
٥ ـ أبو الفرج الاصبهانـي : مقاتل الطالبيين ـ ط الحلبي ١٩٤٩
٦ ـ ابو الفرج الاصبهاني : الاغاني ـ ط دار الكتب والساسي
٧ ـ مقاتـل الطالبيين ط الحلبي ١٩٤٩
٨ ـ أبو علي القالي : الامالى ـ سمط اللآلي : ط لجنة التاليف
٩ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ـ ط بولاق
١٠ ـ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الاصحاب ـ ط نهضة مصر
١١ ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار ـ ط دار الكتب
١٢ ـ ابن كثير : البداية والنهاية هامش تاريخ الكامل
١٣ ـ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ـ ط القدسي
١٤ ـ الشيخ راضي آل ياسين : صلح الحسن ـ ط الزهراء ببغداد ١٩٥٣ .
١٥ ـ السيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين ـ ط النجف ١٣٧٦
١٦ ـ السيد توفيق الفكيكي : السيدة سكينة ـ ط العراق
١٧ ـ العبيدلي النسابة : السيدة زينب واخبار الزينبات
١٩ ـ المبرد : الكامل بغية الآمل من كتاب الكامل
٢٠ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة

ـ الدكتور طه حسين . حديث الاربعاء ـ ط أولى
ـ الاستاذ عبد الله العلايلي : أشعة من حياة الحسين
ـ الدكتور زكي مبارك : حب ابن أبي ربيعة وشعره ـ ط أولى
ـ دائرة المعارف الاسلامية : مادة سكينة



فهرست

الكتاب الاول
ام النبي
(عليه الصلاة والسلام)

الكتاب الثاني

نساء النبي

(عليه الصلاة والسلام)

الكتاب الثالث

بنات النبي

(عليه الصلاة والسلام)

الكتاب الرابع

السيدة زينب

بطلة كربلاء

الكتاب الخامس
سكينة بنت الحسين

❋

